محمود عبد الحليم
عضو الهيئة التأسيسية

الإخوان المسلمون

أحداث صنعت التاريخ

رؤية من الداخل

الجزء الثالث
١٩٥٢ - ١٩٧١

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
١ شارع منشا - محرم بك (الإسكندرية)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

قد يظن الكثيرون من السادة القراء ــ الذين يترقبون صدور الجزء الثالث من هذه المذكرات ــ أنهم سيقرأون فى هذا الجزء تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، غير أنهم قد لا يجدون مأربهم فيما سوف يقرأون . .

فلتاريخ هذه الثورة مظان أخرى يمكن الرجوع إليها ، وهى كثيرة وفى متناول الجميع .. وقد كَتَبَ عنها من لازم صاحبها معظم الوقت ، ومنهم من لازمه كل الوقت ، ومنهم من انفصل عنه فى وقت مبكر ووقف منه موقف المراقب .. وقد ظهر أخيراً كتاب « صفحات من التاريخ » للأخ الأستاذ (صلاح شادى) ، وهو من خير ما يقرأ فى هذا الصدد ، لأن مؤلفه كان جزءاً من هذه الثورة منذ كانت حلماً فى الخواطر ثم كان من حصادها .

وقد جاء كتابه بعد كل ما صدر من كتب عن الثورة فصار مهيمناً عليها ، حيث ناقش بعضها ببعض ، وأضاف إليها من معلوماته وتجاربه ، واستخلص من ذلك كله صورة هى أقرب إلى الصواب .

ولكن كتابنا هذا لايمس تاريخ هذه الثورة إلا فيما يتصل منها بالإخوان المسلمين .. لأن موضوع الكتاب هو : « الإخوان المسلون .. أحداث صنعت التاريخ » .. وإذ كانت ثورة ٢٣ يوليو حدثاً من أحداث التاريخ ، فمبحثنا فيها إنما يكون عند نقط التقائها بالإخوان المسلمين ، سواء أكان هذا الالتقاء التقاء بنوةٍ لهم ، أو تربٍّ فى أحضانهم ، أو قيام فى حمايتهم ، أو انتفاع بسمعتهم ، أو تمرد عليهم ، أو نقض لعهدهم ، أو تواطؤ مع العدو عليهم .. وهذه النقاط بالذات من تاريخ هذه الثورة هى التى رأى المهيمنون على منابع الثقافة فى مصر حجبها عن التاريخ ، آملين بذلك أن يصنعوا لهذه الثورة تاريخاً معيناً .

* * *

ولقد كتبت الجزءين اللذين صدرا من هذه المذكرات ، وعرضت فيهما لجهود الإخوان المسلمين ، وما أسفرت عنه هذه الجهود من أحداث متسلسلة خلال ربع

قرن من الزمان بدءاً من عام ١٩٢٨ . وكل جهد بذلوه قد تمخض عن حدث قرب الشعب خطوة نحو الهدف المأمول من فك رقبته من أغلال الظلم وقيود الاستعمار ، حتى وصلنا بهذه الجهود وما تمخض عنها من أحداث جسام إلى يوليو ١٩٥٢ ، فرأى الشعب نفسه وجهاً لوجه أمام الهدف المأمول .

ولا حاجة بى إلى إعادة القول بأن اختفاء هذه الجهود عن أعين الأجيال الناشئة فى ضباب الأكاذيب ، وضياع صوت هذه الأحداث عن أسماعهم فى ضجيج مواكب النفاق ، لن يستطيع أن يحجب هذه الحقائق إلى الأبد .. بل لابد من سطوع الشمس ولو ساعة من نهار مهما تراكم عليها من ظلام السحب .. وقد تكون جهودنا هذه فى إصدار هذه المذكرات إحدى المحاولات التى تبذل لاختراق هذا الجدار الشاهق المشيد ، المضروب حول هذه الحقائق لحجبها عن العيون والأسماع .

وأحب أن أحيط السادة القراء علماً بأن هذه المذكرات التي وعدتهم فى مقدمة الجزء الأول منها بإصدارها فى ثلاثة أجزاء ، كانت مسوداتها جميعاً معدة وكاملة حتى آخر يوم من أحداث الجزء الثالث قبل البدء فى طبع الجزء الأول منها .. وإعدادى مسودات هذه الأجزاء الثلاثة معاً فى أوائل السبعينيات ، كان انطلاقة ذهن صودرت فيه معلومات وأفكار وأحاسيس مدة عشرين عاماً ، فلا هو وجد خلالها متنفساً يطلقها منه ، ولا هو حمله اليأس على التخلص منها بإرسالها إلى منطقة النسيان .. وكان حرصه عليها اعتزازاً بقيمتها ، وضناً بها على الضياع .. لا سيما وهي معلومات هي فى حقيقتها خلاصات تجارب ، وحصيلة جهود ، وثمرة أفكار ، لم تجد طريقاً إلى النشر والذيوع .. فلما انثقب فى جدران السجن ثقب فى أوائل السبعينيات ، انطلقت الأفكار الحبيسة من سجنها — الذى طال أمده انطلاق القنبلة الموقوتة ، فتلقت شظاياها المضيئة صفحات كانت إليها فى شوق عظيم .. وسرعان ما انطبعت هذه الأفكار على الصفحات ، حتى كأنما كانت — لشدة شوقها إلى الانطباع — تكاد تسبق القلم .. وهكذا لم يجف مداد القلم حتى أتمها واستوفاها دون كلل ولا توقف .

وقد قصدت من إحاطة القراء علماً بذلك أن أطمئنهم إلى أن ما يقرأون من معلومات فى هذه المذكرات ، وما يلحق بهذه المعلومات من تحليل أو تفسير أو تعقيب ، لم يتأثر بما جد بعد ذلك من أحداث ، وما طرأ من ظروف ، وإنما هو نفسه الذى كان مكتوباً فى المسودات يوم كتبت هذه المسودات .

* * *

وصدر الجزء الأول وتلاه الجزء الثانى .. ولكننى أمام الجزء الثالث هذا

وجدتنى متردداً .. هل أصدره وفاءً بما وعدت أم أستبقيه لنفسى إرضاءً لعواطفى ؟ .. وطال هذا التردد حتى لا حظه بعض المحبين ، فوجهوا إلىّ عتاباً شديداً ، متهمين إياى بالتباطؤ فى أمر ليس من حقى أن اتباطأ فيه ، أو انكل عنه ، أو أقعد عن أدائه ، لأنه أصبح من حق التاريخ ، وأصبح شهادة يحرم كتمانها « ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

وما دعانى إلى التردد فى إصدار هذا الجزء إلا ما أعلمه من أن أحداثه حين أعرض لها سيلزمنى عرضها أن أتناول مواقف لإخوة أعزاء على نفسى ، قد يكون فى تناولها قهر لعواطفى .. وهو ما أتحاشاه ويتحاشاه كل ذى قلب .. ولكن الإخوة المحبين حين نظروا إلى الموضوع لم يعيروا هذه الناحية اهتماما ، ورأوا أن من حق المجتمع أن يسمع الحقائق التاريخية كاملة ، مهما كلف ذلك من لديه هذه الحقائق من آلام وأحزان .. وما كان لى بعد ذلك إلا أن أصدع بأمرهم ، وأنزل عند بليغ حجتهم .

ويعلم الله كم عانيت فى إعداد هذا الجزء من مشقة نفسية ، وآلام تلذع القلب وتدميه .. فأنا أكتب عن فترة كانت حالكة الظلام .. والأشخاص خلالها يتحركون يتخبط بعضهم فى بعض .. فربما أقبل أحدهم على آخر معانقاً — وهو يظن أنه إنما يعانق صديقاً — ولا يتبين إلا أخيراً أنه إنما عانق العدو .. وينفر أحدهم من آخر على أنه العدو ، ولا يتبين له أنه نفر من صديق إلا آخر الأمر ... والحديث من ناحيتى لابد أن يتناول كل هؤلاء ، وكل تحركاتهم كما وقعت دون إخفاء ولا تستر ولا تمويه .

وقد أكون أعلم أن لبعض هؤلاء فى تحركه الذى تحركه فى الجو المظلم وجه عذر ، غير أن ذلك لا يشفع لى أمام أمانة التاريخ أن أجامل فأخفى التحرك أو أتستر عليه أو أتجاوزه .. ولو فعلت لفضحتنى الأحداث . فقد كانت محصلة هذه التحركات أحداثاً مروعة زلزلت مصر من أقصاها إلى أقصاها ، ورجعت بها القهقرى قرنا من الزمان ، ونقلتها إلى قاع بحر الظلمات الذى لا زلنا نغالب ظلماته حتى اليوم .

ولا أستثنى نفسى من هؤلاء الذين تحركوا وسط هذا الجو الحالك المدلهم فأزكى تحركاتى خلاله من دون الذين تحركوا .. وإنما قد ألزمت نفسى أن أثبت تحركاتى — كما وقعت — وسط تحركات غيرى ، مودعاً كل ذلك سجل التاريخ ، تاركاً للقراء تقييم هذه التحركات بعد أن يدخلوا فى تقييمها ماكان يحيط بها من ظروف وملابسات .

وقد أكون حريصاً أشد الحرص — بادىء ذى بدء — على أن ألفت انتباه السادة القراء ، إلى حقيقة قد يغفلون عنها فى خضم انفعالهم بأحداث هذا الجزء .. تلك هى أن المجموعات من الإخوان — عدا رؤوس الفتنة ومدبريها — الذين لعبوا أدواراً فى خلال

هذه الأحداث؛ على اختلاف هذه الأدوار. وتعارض بعضها مع بعض؛ إنما كانت الدوافع إليها دوافع نبيلة.. فلا ينبغي أن يساء الظن بهم، أو أن يهبط بمكانتهم فى النفوس.. فهؤلاء الإخوة هم الرعيل الأول الذي تحمل أعباء هذه الدعوة من أول يوم؛ وحسبهم أن لهم فضل توصيلها إلى الأجيال الناشئة.. ولقد التقى هؤلاء جميعاً ــ حين طلع النهار ــ على كلمة سواء، وعرف كل منهم خطأه وصوابه.

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد. جاءت محاسنه بألف شفيع

وليكن رائدنا إزاء هذه المواقف ماكان من مواقف لأجلاء الصحابة فى الفتنة الكبرى فى عهد الخليفتين الراشدين الثالث والرابع رضى الله عنهما. وأصحاب هذه المواقف على اختلافها وتعارضها؛ هم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ «أصحابي كالنجوم؛ بأيهم اقتديتم اهتديتم».

وما عرضنا لهذه المواقف فى هذا الجزء من المذكرات إلا للتعليم والتوجيه، وتزويد الأجيال الناشئة بثروة تاريخية تفتح أبصارهم، وتنير بصائرهم، وتجنبهم مواطن الزلل، وتمنحهم موازين دقيقة لاتتذبذب ولا تختل، يُقيِّمون بها ماعسى أن يصادفهم في معترك الحياة من مواقف وأعمال وأحداث.

* * *

ومع كل مابذلت من جهد لإلقاء الأضواء من كل جانب ــ مااستطعت ــ على أحداث هذه الفترة التى نعالج أحداثها فى هذا الجزء، فلا أدرى هل بلغت فى ذلك ماكنت آمل من الإبانة والتوضيح، أم أن ظلام الجو المحيط بهذه الأحداث كان أكثف من أن تبدده هذه الأضواء المتاحة ؟.. وعلى كلٍ.. فلتلتمس لى الأعذار إذا لم يكن الوضوح كاملاً.. فإنها لم تكن عاصفة كسابقاتها لم تنل من البناء الإخوانى إلا ماتنال ذرات التراب وحبات الحصى ــ مما تثيره العاصفة ــ من خدوش، وإنما كانت هذه المرة دوامة جائحة اخترقوا بها قلب الإخوان المسلمين فى مهجته، فعميت من غبارها العيون، وداخت من دورانها الرءوس. وذهلت بمفاجآتها العقول.. وما من فتنة دبرت لهذه الدعوة كانت أشد عليها وقعاً، ولا أفدح بها ضرراً، ولا أسوأ فيها آثاراً من هذه الفتنة.. وكيف لاوقد نشأت من صميم لبها، ونبتت فى سويداء قلبها، وتشعبت فى سائر عروقها فكانت المصيبة فيها كمصيبة الذى قال.

قلبى إلى ماضرنى داعى يكثر أحزانى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدو لى وإذا عدوى بين أضلاعى

أو على حد قول الآخر:

كنت من كربتى أفر إليهم فهمو كربتى فأين الفرار

* * *

وقد يتوق بعض القراء ــ قبل أن يقرأوا ماكتبت عن أحداث هذه الحقبة من الزمن ــ أن يعرفوا هل قرأ كاتب هذه المذكرات ماكتبه غيره عن أحداث هذه الحقبة ؟ وإن الذى كتب عنها لكثير ؟.. وإلى هؤلاء السادة أقول :

إننى لم أكن حريصاً على الاطلاع على ماكتب غيرى .. لأننى لا أضع كتابا فى موضوع معين ، فعلىّ فى هذه الحالة أن أجمع له كل ماكتب غيرى فيه ، حتى يكون موضوع الكتاب قد استوفى حقه ــ وإنما أنا ــ كما قلت من قبل ــ إنسان عايشت أحداثاً وشاركت فيها ، فأنا أكتب مذكراتى عن هذه الأحداث ، لأسجلها وأسجل بجانبها إحساساتى وتحليلاتى ومشاعرى .. وفى هذه الحالة لست مطالباً بالرجوع إلى غيرى .

ولهذا فقد لايجد القراء إلا القليل من الاقتباس من نظرات غيرى وآرائهم .. وقد يكون أكثر هذا الاقتباس القليل من خارج نطاق المجتمع الإخوانى ، مما قد يكون وضعه بجانب نظرتى إلى أمر معين نفياً لمعنى التحيز من ناحيتى ، أو تأييداً لتحليل ذهبت إليه لموقف من المواقف بدا فى وقت حدوثه غريباً .. وقد يبدو حرصى واضحاً ــ فى الاقتباس القليل الذى اقتبسته من هذه المصادر البعيدة عن نطاق المجتمع الإخوانى ــ فيما ذيلت به أحداث هذا الجزء من المذكرات باقتباس فقرات من مذكرات « أجنبى » كان أحد الرؤوس التى رسمت الخطوط العريضة والدقيقة فى مؤامرة لإجهاض ربع قرن من جهود الإخوان المسلمين . وقد رأى هذا الأجنبى المسئول أن ينشر مذكراته هذه بعد أن أتم هو وزملاؤه تنفيذ هذا المخطط الرهيب بأكمله لحساب دولته .

* * *

وقد جاء هذا الجزء من المذكرات كثير الأبواب والفصول .. وكان هذا التعدد بهذه الكثرة لما فى أحداث هذه الحقبة من الزمن من تقلبات وتناقضات وتقاربات وتباعدات وتفاعلات ومفاجآت ، مما جعل الربط بين بعضها وبعض أمراً صعباً .. وقد عملت ــ مااستطعت ــ على أن تجيء الأحداث فى السياق متسلسلة كأنها قصة ، وحاولت أن استبعد منها جانب الإثارة ، وأن أجنح فيها إلى مخاطبة العقل ومطالبته بإصدار الحكم على كل ماحدث منها بعد عرضه عرضاً من صميم الواقع .. ذلك أن المذكرات التاريخية لايقصد منها إلى تحريك الهمم نحو غرض معين ، وإنما يقصد منها إثبات أحداث وقعت ، على نفس الصورة التى وقعت بها ، وإلقاء الأضواء على الظروف المحيطة بها ، وتبصير القارىء بآثارها ونتائجها .. ثم ترك المجال له بعد ذلك لإمعان النظر فيها ، والخروج منها بقاعدة يمكن الإفادة منها فى معترك الحياة .

* * *

ومن أشق مايعانى الذى يكتب للتاريخ من مشقات ، حين يعرض لأحداث تتصل به شخصياً ولايكون له عليها شهود يَعْضِدُ بهم نبأه عن هذه الأحداث .. وحين يعرض لأحداث قليل شهودها ، ويرى هؤلاء الشهود القليلون أن تغفل هذه الأحداث ، وأن يسدل عليها ستار من النسيان ، وحجتهم فى ذلك أن ذلك الإغفال لن يجد من يعترض عليه إذ هم وحدهم الشهود الوحيدون .. وقد يكون الدافع لهم فى ذلك أنهم يرون فى هذا الإغفال حفظاً لوقار الهيئة التى تنتسب إليها ، وإبرازاً لها فى صورة مشرقة ..

وهذا لون من التأريخ لاأرضاه لنفسى ، ولا أعتقد أنه يؤدى فى النهاية إلى خدمة دعوة كدعوة الإخوان المسلمين أسست على تقوى من الله ورضوان ، وشقت طريقها حاملة لواء الحق ، ملتزمة منهج الصدق .. ومن أراد أن يخدمها حق خدمتها فلامندوحة له عن التزام نفس الجادة دون أن يحيد أو يغضى أو يخفى ..

ولقد ألزمت نفسى هذا المنهج فى كل ماأوردت من أنباء أو أحداث حتى مايمسنى منها شخصياً ، فقد نقلته إلى القراء تماماً كما وقع .. تاركاً الحكم عليه بالصواب أو بالخطأ لهم .. وإن تنزيه أنفسنا عن الخطأ هو الخطأ بعينه ، لأننا مهما بلغنا من العلم والإيمان والإخلاص فإننا بشر .. وهدفنا الأكبر هو أن نعرض أنفسنا بصوابنا وخطئنا لنتعلم نحن من أخطائنا وتتعلم أجيال من بعدنا .. وبهذا الأسلوب الواضح ينتفع كل جيل من تجارب الجيل الذى سبقه ، لأن التجارب وضعت أمامه بحذافيرها ، ورأى أسباب مانجح منها ، وأسباب مالم ينته منها بنجاح .

* * *

وكل ماأصاب الإخوان المسلمين من بلاء فى هذه الحقبة من الزمان؛ إنما كان منشؤه من نفاق مرد عليه فرد من أفرادهم استطاع بحكم موقعه فى هذه الهيئة العتيدة أن يستغلها فى إنجاح عمل كريم متفق عليه لإنقاذ الشعب.. حتى إذا تم العمل بنجاح، واستوى هو على العرش، نسى ماكان يدعو إليه من قبل.

ولقائل أن يقول: أنتم المسئولون.. لماذا لم تدققوا فيمن تقدموا لعضوية جماعتكم؟

وإجابة على هذا القائل؛ نذكّره بقول الله تعالى ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾ ونقول له: لاتنس أن ممن كانوا حول رسول الله ﷺ منافقين ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق، لاتعلمهم نحن نعلمهم﴾.

ولما قضت إرادة الله، وسبقت كلمته أن يركز لواء التوحيد فى الأرض، وأن يظهر الهدى ودين الحق على الدين كله؛ سلّح الداعية الأول بأسلحة لابد منها لتحقيق ذلك ﴿ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله

يعصمك من الناس﴾ وكان من الأسلحة الوقائية التى سلحه بها أن أوحى إليه بأسماء المنافقين ممن يتظاهرون بصحبته.

وهذه خاصية كان لابد منها للدعوة الأولى لتثبيتها فى الأرض.. أما وقد ثبتت الدعوة فإن هذه الخاصية لاتتكرر.

* * *

ومحور هذا الجزء من المذكرات هو هذه الشخصية، وسأقصر حديثى حولها على مايتصل منها بالإخوان المسلمين. ولهذا فسأغفل جوانب لهذه الشخصية قد يراها القراء جديرة بالتناول، مثل قوانين التأميم ووحدة سوريا ومصر وحرب اليمن والمغامرات فى أفريقيا .. ومع أن هذه الأحداث جديرة بالمناقشة وقد وضعها المؤرخون فى جانب المثالب، فإنى أغفلها لخروجها عن موضوعنا.

وفى حديثى عن هذه الشخصية فيما يتصل منها بموضوعنا، فلن يكون همى منصباً على إبراز مساوئها وإخفاء محاسنها، وإنما سأسوق الأحداث كما وقعت، وأستنطق كل حدث منها دون أن ألون نطق هذه الأحداث بلون شعورى نحو هذه الشخصية من حب أو بغض .. وليس معنى هذا أننى حين أذكر الحدث أغفل تسجيل إحساسى بجانبه، وإنما المقصود هو أن أسجل الحدث كما وقع تماماً دون أن أنتقص منه أو أزيد عليه أو أتناوله بتغيير أو تحوير.

وإذا كان فى هذا الأسلوب فى استنطاق الأحداث وتركها على سجيتها مالا يروق لبعض الناس، وما لايتمشى مع مشاعرهم، وما لايتجاوب مع عواطفهم، فإننى أدعوهم إلى التذرع بالصبر ورحابة الصدر، وتوطين النفس على تَقَبُّل كل شىء فى سبيل الوصول إلى الحقيقة التى هى غاية آمال كل منصف.

أما نحن ــ الإخوان المسلمين ــ فلن يحملنا بغضنا لشخص على أن نغمطه حقه إن كان له حق، فإن ثنائى على عمل ــ يستحق الثناء ــ أتاه عدوى، هو إنصاف للحق قبل أن يكون إنصافاً لعدوى .. ومع ذلك فإن الرجال فى ميزان التاريخ لايقومون بعمل أتوه أو عملين أو أكثر .. إنما يقومون بمجمل ماأتوا من أعمال طيلة حياتهم .. كما أن الأعمال تتفاوت قيمتها، فرب عمل واحد عاد على المجتمع بخير عميم يَجُبُّ ألف عمل ذميم، ورب عمل واحد سوء أجهض ألف عمل طيب «من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون».

وإن ماجرى عليه أكثر الناس من التهوين من أمر العدو ، والحط من شأنه ، ورميه بالغباء .. ليس إلا خدعة يخدعون بها أنفسهم ، ولا تنتهى بهم فى أكثر الأحوال — إلا بمفاجآت مزلزلة .. ولو أنهم تجنبوا سوء التقدير ، والتزموا جانب الحذر لتفادوا كثيرا من المفاجآت .

وأحب أن أكرر هنا بهذه المناسبة ماسبق لى أن أثبته فى مقدمة الجزء الأول من هذه المذكرات، من أننا — نحن الإخوان المسلمين — حين نسجل صفحات من تاريخ فترة من فتراتنا لانلجأ إلى ماتواطأ عليه كثير من المؤرخين — حين يؤرخون لأحداث تمسهم شخصياً — من أسلوب يبرزون فيه مايظهرهم فى صورة وضاءة، ويخفون ماسوى ذلك أو تحريفه.

ونحن فى ذلك نسير على ماأخذنا أنفسنا به، وما عاهدنا عليه من أول يوم؛ من أن نكون قرآنيين فى كل أعمالنا وتصرفاتنا .. فالقرآن الكريم — كما قلنا فى مقدمة الجزء الأول — لم يدع صغيرة ولا كبيرة من أعمال الداعية الأول وأعمال من حوله من صحابته وتصرفاتهم إلا سجلها، سواء الصالح الرائع منها وما هو دون ذلك، وعلق على كل ذلك تعليقاً يدفع الأمة إلى أقوم طريق ﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾.

وأعجب بعد ذلك لقوم ينتحلون صفة المؤرخين، ويعرضون عن هذا الأسلوب القرآنى فى التأريخ؛ وراحوا يكتبون تاريخاً للإخوان المسلمين مستملين فى ذلك خيالهم وأهواءهم ونوازع نفوسهم.. ولا أدرى ماالذى يدفعهم إلى ذلك وهم يرون بين أيديهم تاريخاً كتبناه بأقلامنا، وأثبتنا فيه مفاخرنا كما أثبتنا فيه ماقد يؤخذ علينا..

صحيح أن المراجع لهذا اللون من التاريخ القرآنى للإخوان المسلمين قليلة نادرة، فى حين أن اللون الآخر كثير ومتنوع وفى متناول الجميع.. وإزاء هذه القضية الخطيرة لانملك إلا أن نحتكم إلى عقول القراء وأفهامهم، ونرضاها فيصلاً بيننا وبينهم ﴿قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يأولى الألباب لعلكم تفلحون﴾.

* * *

وهذه الحقبة من التاريخ التى هى مجال هذا الجزء من المذكرات هى أحفل فترة فى التاريخ الحديث بأعمال التعذيب والتفنن فيه ، والتخصص فى جرائمه .. ولكننى

تركت هذا الجانب ــ مع بالغ أهميته ــ إلى مظانه التى صدرت أخيرا وصارت بين أيدى القراء فى كل مكان ، وتناولتها أحكام القضاء التى دمغت العهد بالقهر والظلم والفجور والإرهاب .. تركت ذلك واكتفيت بذكر أنموذج منه ، ولكنى أفضت فى ذكر أنواع من أساليب التعذيب العامة التى مست كل فرد .. مما قد يسمى بالتعذيب النفسى ، أو امتهان الكرامة الإنسانية والطبيعة الآدمية .

* * *

ولكى لاأغش نفسى ، ولكى لاأضلل قرائى ، أضربت فى هذه المذكرات عن التعويل على ماأثر عن هذه الشخصية من أقوال أو مكتوبات ، أرادت هذه الشخصية أن تجعلها وحدها هى المرجع لمن أراد أن يتعرف على أفكارها وآرائها وبرامجها مثل الدستور المؤقت ، والميثاق وقرارات مارس وغيرها من الخطب والبيانات والمقالات .

وفى الوقت الذى أضربت فيه عن التعويل على ذلك ، أفضت فى الحديث عن الأعمال ، وفصلت فى ذكر الأحداث .. لأن محصلة حياة الرجال هى ماأتوا من أعمال وما أحدثوا من أحداث ، وما خلّفوا من آثار لهذه الأعمال . أما الكتابات والخطب والبيانات والمقالات مالم يترجمها صاحبها إلى أعمال فإنها لاتغنى ولا تسمن من جوع عند البحث والتمحيص والتقييم .

وقد شدد القرآن الكريم النكير على هذه الظاهرة ، لخطورتها على المجتمعات فقال : « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » .. وما من طاغية ــ مهما بلغ جوره ، وعم ظلمه ، وتجاوز طغيانه كل حد ــ أن يكتب بيده عن نفسه وعن أفكاره وآرائه مايدينه .

* * *

ومن هنا يأتى اختلاف الناس فى تقييم الرجال ، فأولئك الذين مكنتهم ظروفهم من الاحتكاك بطاغية فعانوا من ظلمه ، واكتووا بنار جوره .. كان حكمهم عليه مستمداً من أحداث عاشوها وأعمال حضروها .. أما أولئك الذين لم تُتح لهم الظروف أن يخبروا الأعمال ، ولا أن يحضروا الأحداث ، وانحصرت خبرتهم به فيما قرأوا من كتاباته وما استمعوا من خطاباته، وما ملأ سمعهم وأبصارهم من شعاراته ، فسيكون حكمهم مستمداً من هذه الكتابات والشعارات .

وهذا هو السر فى أن الأجيال الناشئة ــ فى تقييمها للزعماء والحكام ــ يأتى تقييمهم مناقضاً لتقييم سابقيهم من الأجيال . بل تجد فى الجيل الواحد نفس هذا

التناقض فى التقييم .. فهذه فئة أطلعتهم ظروفهم على الأعمال ، وهذه فئة أخرى لم يصل إلى سمعهم وأبصارهم إلا الكتابات والخطب والشعارات .

وهؤلاء الذين بنوا تقييمهم على الكتابات والخطب والبيانات والشعارت ، يجب انتحال الأعذار لهم ، وينبغى الرفق بهم ؛ لأنهم إنما شهدوا بما علموا ، وذلك مبلغهم من العلم .. وعذرهم فى ذلك ظاهر ملموس ، فلقد كانت كل وسائل الإعلام مسلطة ليل نهار على أسماعهم وعلى أبصارهم وعلى عقولهم . وما كان فى استطاعتهم أن يفلتوا من هذه الحلقة المفرغة التى ضربت حولهم ، وقد تلقفتهم هذه الحلقة منذ نبتوا أطفالاً ، ولم تدعهم حتى شبوا وصاروا رجالاً .. فأنى لأمثال هؤلاء أن يعلموا غير ماعلموا ؟ إلا أن تقدم لهم الحقائق الغائبة عنهم ، مقرونة بالأدلة الدامغة ، والبراهين المستمدة من الواقع الذى لايجحد .. ثم يترك لهم بعد ذلك فرصة يعيدون فيها التقييم كيفما كان هذا التقييم .

* * *

وتوضيحاً لهذا المعنى أنقل من جريدة « الأهــرام » الصادرة فى ١٩٨٤/٧/٢٩ فى نقاش بين الأستاذ صلاح منتصر المحرر بالأهرام وبين الأستاذ توفيق الحكيم ، فيما يتصل بكتابه « عودة الوعى » الذى نشره بعد وفاة عبد الناصر ، وكان لهذا الكتاب ضجة وقت ظهوره لأن توفيق الحكيم كان من أقرب الناس إلى عبد الناصر وقد منحه أكبر وسام فى الدولة لايمنح إلا لرؤساء الدول .. ولكنه فى هذا الكتاب هاجم عبد الناصر واتهمه بأنه سلب الشعب وعيه ــ وكان من الأسئلة التى وجهها الأستاذ صلاح منتصر إلى الأستاذ الحكيم السؤال التالى :

س ــ عندما أشرت إلى الوعى الغائب هل كنت تقصد بذلك وعى الشعب أم وعى المفكرين أيضاً ، وقد كنت واحداً منهم ، بل كنت كبيرهم ؟ .

الحكيم ــ عودة الوعى من مفكرين وأفراد عاديين . ولا تنبغى الدهشة من أننى كنت واحداً من هؤلاء .. فكيف كنت أعلم بكل مايجرى فى الميادين المختلفة من سياسية واقتصادية واجتماعية إلا مما تنشره الصحف ووسائل الإعلام وبعض الإشاعات . وكيف كنت أتنبأ بهزيمة مصر أمام إسرائيل ونحن فى جميع الخطب والمقالات نعلن بأننا أقوى عسكرياً من أية دولة فى المنطقة ، وأقرأ فى الشوارع إعلانات ضخمة تقول بأننا سندخل تل أبيب بعد ساعات ؟. قل لى أنت أو أى واحد من أى مصدر أكيد للمعلومات كان من الممكن أن يطلعنى على سياسة الدولة واستعداداتها الحربية غير الملفات السرية التى لم

تفتح .

وطالبت فى « عودة الوعى » بفتحها لنعرف ونحكم ، وقد تفيدنى عن مدى مسئولية عبد الناصر الذى أحبه وأثق فى وطنيته وأعتقد أنه مسئول كحاكم فى نطاق عشرين فى المائة فقط ـــ ولكن الذين يعتقدون خطأ أو بالإستنتاج أن علاقتى بعبد الناصر لابد كانت قوية وتجعلنى مطلعاً على مجريات الأمور مخطئون . فأنا لم أجلس معه ساعة واحدة . وكل علاقتى به أننى كنت قريباً منه بالقلب والعاطفة وليس بالاطلاع على دخائل أغراضه وسياساته إلا مانعرفه كلنا من خطبه ومقالات صحفية .. ومن المنطقى أن نقول إنها سحرت الشعب وأنا منه .

س ـــ هل من السهل على أى نظام أن يفقد الشعب وعيه ؟ .

الحكيم ـــ من السهل جداً على أى نظام تسيطر فيه الدولة على مصادر المعلومات ، وفى يدها وحدها مفاتيح الإعلام والاتصال بالجماهير ، أن تشكل هى وعى الجماهير طبقا للصورة التى تريدها لأن الوعى عند كل إنسان يتكون فى رأسه من الصور التى تعرض له فى مرئيات أو سمعيات أو مطالعات . ولذلك نرى الآن على المستوى الدولى قيام الدول الصغيرة بالمطالبة بحرية المعلومات التى تسيطر عليها الدول الكبرى القوية بما لها من وسائل إعلام ضخمة هى التى تشكل الوعى السياسى الذى تريده سياسة هذه الدول الكبرى لتؤثر بها على هذه الدول الصغرى .

* * *

وبعد أن أوردنا هذا التوضيح نرجع إلى السياق فنقول :

إن هذه الظاهرة ـــ ظاهرة مخالفة أعمال الحاكم أقواله ـــ تكاد تكون أخطر ظاهرة تبتلى بها المجتمعات والأمم . لأنها أسلوب من أحقر أساليب الغش والتضليل .. وقد لفت نظرى إلى مدى خطورتها ماقرأته فى سيرة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه من نبأ يقول :

إنه لما توفى سليمان بن عبد الملك ، دعى عمر بن عبد العزيز لتولى الخلافة . وكان من المتعارف عليه أن يكون أول عمل يقوم به الخليفة الجديد أن يصلى على جثمان سلفه وأن يواريه قبره ـــ فلما طلب من عمر بن عبد الغزيز أن يقوم بذلك ، رفض أن يدفن سليمان حتى يصدر ثلاثة كتب .. فعجب الناس وتساءلوا فيما بينهم ، أية أهمية هذه لهذه الكتب حتى جعلت الخليفة الجديد يقدمها على دفن سلفه ؟!.

أما هذه الكتب فهى الآتى بيانها :

١ ـــ كتاب إلى مسلمة بن عبد الملك يطلب إليه الرجوع بجيشه . وكان قد حاصر مدينة القسطنطينية ، وطال الحصار وتفشت فى الجيش الأمراض حتى هلك كثير من الجنود من شدة البرد وقلة المئونة حتى أكلوا الدواب ـــ وكان سليمان قد حلف أن لايرجع هذا الجيش مادام حياً .

٢ ـــ وكتاب بعزل أسامة بين زيد التوخى . وكان على خراج مصر . وكان ظلوماً ـــ فأمر به أن يسجن فى كل جند سنة ، وأن تفك قيوده عند كل صلاة ثم يقيد ثانية .

٣ ـــ وكتاب بعزل زيد بن أبى مسلم . وكان أميراً على أفريقية . وكان غشوماً يتأله ، يسبح ويهلل وهو يأمر بقتل الناس وتعذيبهم .

كانت هذه هى الكتب الثلاثة التى وجد عمر بن عبد العزيز نفسه ملزماً أن يقدمها على دفن الخليفة السابق ، لأنه رأى فى تأخيرها حتى يدفن سليمان إثماً وتفريطاً فى حق أمة أصبح هو مسئولًا عنها ... والذى يعنينا بالذات فى سياق حديثنا من هذه الكتب الكتاب الثالث . فهذا الكتاب يشير إلى المعانى التالية :

١ ـــ أن هذا الحاكم كان ظالماً .

٢ ـــ أنه كان يتأله أى يحرص على أن يظهر بمظهر التقى والورع .

٣ ـــ أنه كان يأمر بقتل الناس وتعذيبهم ، فى الوقت الذى يغطى على مايجرى سراً من القتل والتعذيب بشعارات يطلقها ويملأ بها الأسماع من التهليل والتسبيح .

وهذا طراز فاجر من الظلم يجمع إلى الظلم لوناً خبيثاً من الغش والنفاق والتضليل ، فالذى يقرأ ويسمع لا يقرأ ولا يسمع إلا شعارات تنادى بالعدل والرحمة والحرية والسلام أما الذى يجرب التعامل مع صاحب هذه الشعارات ، فإنه لايرى وراء هذا الستار الزائف إلا الظلم والقهر والتعذيب والاستبداد .

وقد رأيت أن أسوق هذا النبأ من أنباء الخليفة الراشد الخامس ، حتى يعلم الكثيرون الذين أعفتهم ظروف معينة من التعامل مع الحاكم موضع حديثنا ، وكانت كل تجربتهم معه الاستماع إلى خطبه وبياناته وشعاراته ، أن عناصر التقييم لم تستكمل حين قيموا ، وعليهم أن يعيدوا النظر بعد إحاطتهم بكل عناصر التقييم .

* * *

وقد ظهرت فى السوق فى خلال فترة الانفتاح كتب عن الإخوان المسلمين ـــ

انتهز كاتبوها خلو أذهان الناس عن أعمال الإخوان المسلمين وتاريخهم البطولى ــ نتيجة عشرين عاماً من الكبت والتضليل ــ وراح كل منهم يستملى هواه ، ويكتب تاريخ الإخوان المسلمين على نسق مايمليه هذا الهوى .. وكانت الضحية فى هذا هو الجيل الجديد من الشعب العربى ، الذى نشأ فى ظل إرهاب حكومى حجبه عن الحقائق ربع قرن من الزمان ، وملأ سمعه وبصره وعقله طيلة هذه الحقبة بسيل جارف من الأكاذيب الملبسة ثوب الحقائق .

وإذا كان هذا العهد قد استطاع أن ينفرد بعقول هذه الأجيال الحديثة فصاغها الصياغة التى أرادها ، فإن ابتداء عقد السبعينيات جاء وقد أوهى من قبضة هذا العهد ، فأتاح فرصة لتنفس الصعداء ، انبرى فيها أصحاب الأهواء من الكتاب فأخذوا دورهم فى توجيه هذه العقول إلى مايعملون لحسابه من المبادىء والأفكار ، معتمدين فى ذلك على مايعلمون من انطواء الإخوان المسلمين على أنفسهم ، وإغفالهم الأهمية العظمى للنشر والإعلان ، الذى صار فى عصرنا هذا أداة سحرية تستطيع أن تبرز الحق باطلاً والباطل حقاً.

وملأت هذه الكتب السوق المصرى والسوق العربى .. ووجدت من يتلقاها ويرحب بها ويقرأها بشوق ونهم ، فالسوق خال من كتاب واحد عن الإخوان المسلمين .. وهذه كتب بلغت الجرأة بكاتبيها أن أخرجوا منها كتباً تخصصت للكتابة حتى عن أسرار الإخوان المسلمين .. وما دام موضوع الكتاب هو الأسرار ، فهو إذن فرصة سانحة لاختلاق الأنباء ، وقلب الحقائق ، وتحريف الوقائع ، ودس السموم .. والهدف المقصود من ذلك كله هو تشويه صورة الإخوان المسلمين ، إرضاءً لهوى الكاتب فى خدمة جهات ترى الإخوان المسلمين أكبر عائق فى طريقها فى الشرق العربى والعالم الإسلامى .

وما كان لنا أن ننحى على مثل هؤلاء الكُتَّابِ بلوم ، فإنهم قد قاموا بعمل يخدمون به مبادئهم . أما اللوم فإنه يوجه إلينا نحن الإخوان المسلمين ،لأننا تخلفنا عن أداء حق دعوتنا علينا من النشر والإعلان ، وتركنا الميدان خالياً لغيرنا فاقتحموه فى غيبتنا بهمة ونشاط .

وتقدمنا أخيراً إلى السوق ــ وبعد أن تسممت الأفكار ــ بالحقائق عن دعوتنا، ولكننا تقدمنا بتثاقل وكسل ، كمن يصحو على ضوضاء من نوم عميق ، فاستيقظ يتمطى ويتثاءب .. وحسبك أن تعلم أن كتاباً ككتابنا هذا لم ينشر عنه إعلان واحد فى صحيفة يومية .. كأننا بذلك لانكتب إلا لأنفسنا ..

وكتابتنا .. لأنفسنا أمر مطلوب بلا شك وذو نفع عظيم ، فإن جمهور الإخوان

المسلمين فى العالم اليوم جمهور له قيمة ووزن ــ كماً وكيفاً ــ ترجحان كل جمهور آخر ، ومن حق هذا الجمهور أن يكون دائماً أبصر الجماهير بحقائق دعوته ، وتفسير وقائعها ، وتفاصيل أسرارها ــ ولكن ليس معنى هذا أن نغفل من نعايشهم من الجماهير الأخرى ــ وهم الذين يكونون الرأى العام ــ فمن حق هؤلاء أيضاً ومن أوجب الواجبات علينا أن نضع حقائق دعوتنا بين أيديهم حتى لا ينفرد بهم المزيفون والمحرفون والمضللون .

نعم إننا على الحق الواضح الصريح ، ولكننا مطالبون بإشهار حقنا وإذاعته والمنافحة عنه ، وإيصال تفاصيله إلى كل عين وكل أذن وكل عقل بجميع وسائل الإعلام .. ولنا فى ذلك الأسوة فى رسول الله ﷺ فإنه لم يدع وسيلة من وسائل الإعلام إلا سلكها واستعان بها .. وكان الشعر فى عهده ﷺ هو أقوى وسائل الإعلام ، فلم يتخلف دونه ، فكان له شعراء ينافحون عنه ، ويدافعون عن دعوته .. وكان يسره أن يسمع شعر حسان بن ثابت فى الدفاع عن الدعوة ويقول « اللهم أيده بروح القدس » .

* * *

وهناك أيضاً قضية جديرة أن تقابل بالتوجس والحذر ، ولا ندرى إلى متى يلاحقنا النفوذ الأجنبى ، فيخرج من باب ليدخل من ألف باب .. فبعد أن حررنا أرضنا من جيوشه ، نرى أنفه مندساً فى مشاريعنا ومناهجنا ، ونرى إصبعه ــ من وراء ستار ــ تحرك الفتن فيما بيننا وتضلل الناشئة من أبنائنا .. ولقد نبهنا فى هذا الجزء من المذكرات وفى سابقه بإشارات إلى مثل هذا الأسلوب الماكر .. وفى ختام هذا الجزء وجدنا ماصدّق هذه الإشارات وأكدها .. وقد رأينا أن ننقل إلى القراء النصوص المؤكدة ، حتى تكون نذيراً للذين يحسنون الظن ، وينقادون ــ فى سذاجة ــ لكل من يتزيى بزى المؤمنين الصالحين ، فيتلقون دون تفهم ولا تقليب ، ودون أن يمدوا ببصرهم ليروا ما وراء ما يتلقون من دوافع ، ولا إلى ما قد ينتهى بهم هذا التلقى من ضياع وانهيار .

ولا يفوتنى أن أشيد فى هذا الصدد بزمرة كريمة ــ بعثت الأمل فى نفوسنا ــ من الكتاب والباحثين ، تنبهوا إلى خطورة هذا التحرك المشبوه ــ ونحمد الله أن كنا أول من تنبه إليه ونبه إليه ــ نحو محاولات مدبرة للتشكيك فيما نعتز به من تاريخنا ، ولتحطيم إيماننا بأنفسنا وقادتنا .. فتصدوا لهذه المحاولات على صفحات « الأهرام » تصديا يستحق التقدير والثناء .

* * *

وبعـد :

فهذه المذكرات يظلمها من اقتناها ليقرأها مجرد قراءة عابرة ، أو شغلاً لفراغ وقت ، فلقد أصدرتها لتدرس دراسة متأنية ، يخرج الدارس منها بخطة عمل فى حياتنا التى نعيشها اليوم ، فهى — كما قلت من قبل — ليست إلا خلاصات تجارب ، وعصارات عقول .. كما أنها طرق مبتكرة لإنشاء مواقف ومواجهة مآزق . وأساليب بارعة للتعامل مع النفوس ، وبرامج كاملة لتربية هذه النفوس ، وامتحانات — من واقع الحياة — للكشف عن معادن النفوس . وخطط لإحباط مكايد ، ووسائل لتفادى عواصف . ومثل حية فى الثبات على الحق ، والاعتصام بالصبر ، والتضحية بالمال والنفس .. ورواية كاملة الفصول — مثلت على مسرح الحياة — لوقوف الحق الخالص الأعزل أمام قوى الباطل الزائف المدجج .

ولقد كنت فى مقتبل أيام اشتغالى بالدعوة الإسلامية أقرأ الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله ﷺ « إذا قرأتم القرآن فابكوا فإذا لم تبكوا فتباكوا » فأعجب لم يطالبنا الرسول ﷺ بالبكاء حين نقرأ القرآن ؟ ماالداعى للبكاء ؟.

فلما شببت وقرأت سيرته ﷺ ووجدت هذه السيرة سلسلة من المآسى والمحن والآلام والتضحيات ، وعلمت أنْ هكذا سيرة كل نبى ورسول . والقرآن يحكى لنا سير هؤلاء الصفوة من الدعاة وما لاقوا من أهوال .. فكان حقاً على من يقرأ هذه السير أن يبكى إذا كان يفقه مايقرأ .

وهكذا سير من أرادوا أن يجددوا دعوة الأنبياء ، فسوف ينالهم مانالهم . وجدير بمن يقرأ عن أحداثهم أن يتناولها بسمعه وبصره وقلبه ، حتى يقرأها ويفقهها ويحسها .. لعل ذلك يحرك فى نفسه خامد الهمم ، ويدفعه إلى اقتفاء الآثار على بصيرة وهدى ونور .

محمود عبد الحليم

الأسكندرية فى ٢٥ ذى القعدة ١٤٠٤ هـ .
٢٢ أغسطس ١٩٨٤ م .

مدخــل

من أشق الأمور على النفس ، أن يتناول إنسان مثلى بالكتابة موضوعاً يتصل بالإخوان المسلمين وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ذلك أن تناول هذا الموضوع يمض النفس ، ويهيج المشاعر ، ويثير الأحزان ..

وإذا كان الكاتب مجرد مؤرخ — مدى اتصاله بالأحداث التى يكتب عنها أنه يراقب هذه الأحداث عن كثب — فإن تأثره بما يؤرخ له ويسجله — إن تأثر — يكون سطحياً ومؤقتاً ، أما إذا كان المؤرخ أو الكاتب وثيق الصلة بالأحداث ، فإن تأثره يكون عميقاً وعنيفاً وأليماً ... فكيف بمن يكتب عن أحداث كان هو ممتزجاً بها بل كان هو جزءاً منها ، بل كان من حصادها ؟!.

لو كان الرجال الذين ظهروا على المسرح فى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ رجالاً غرباء عن الإخوان المسلمين لاتربطهم بهم رابطة ، ولا تصلهم بهم صلة ، لما جرت الأمور على النحو الذى جرت عليه ، ولما كانت الأحداث قد توالت على الصورة الكئيبة التى حدثت بها ، والتى انتهت بالكوارث التى حاقت بالإخوان المسلمين وبالتالى بالبلاد فأوردتها موارد الدمار المادى والخلقى ، ثم جللت بعد ذلك هامها بالعار الذى لاينسى على مر الزمن ، حيث دنست أرضها الطاهرة أقدام شذاذ الآفاق ، وطريدى الإنسانية .

لم يخل التاريخ من مآس لازالت الأجيال تتناقلها جيلاً بعد جيل ، والقلوب تقطر حزناً واشمئزازاً كمأساة البرامكة فى عهد هارون الرشيد — ولكن البرامكة على كل حال لم يكونوا أكثر من طراء غرباء قدموا إلى ملك ثابت الأركان ، عريق فى الملك ليكونوا فى خدمته ، مستظلين بوارف فضله ، ملتمسين من واسع كرمه ... فإذا حدثت هؤلاء أنفسهم أن يتطاولوا على سيدهم ، أو إذا أحس هارون بأنهم يتطلعون أن ينازعوه سلطته ، فقد يتاح له وجه عذر إذا هوعصف بهم .

أما مأساة الإخوان مع الثورة فكانت عكس ذلك تماماً فلقد حمل الإخوان عبء

تربية الشعب ربع قرن من الزمان ، استطاعوا خلاله أن يغيروا مفاهيمه ، وأن يوقظوا وعيه ، وأن يطهروا نفسه ، وأن يلهبوا مشاعره ... ولقوا فى سبيل ذلك أشد مايلقى المجاهدون ، وضحوا بأموالهم وأنفسهم ودمائهم وبشبابهم وشيبهم حتى يئس أصحاب السلطان أن يبلغوا منهم أى مبلغ .. وسقط فى أيدى الطغاة أخيراً ، فطأطأوا الرءوس للدعوة الإسلامية فى شخص الإخوان .. ودانت البلاد منذ بدأت الخمسينيات لهم .. وطابت نفوس الشعب إلى الحكم الإسلامى ، وصار مفهوماً أن المسألة لم تعد أكثر من مسألة وقت .

وخطب أعداء الإخوان — وهم أصحاب السلطة — ود الإخوان ، ولكنهم وجدوا من الإخوان عزوفاً عنهم وعن مظاهر سلطتهم .. لأن الإخوان يعلمون أن اختلاط الحق بالباطل فتنة ، يضل فيها الناس فلا يميزون الحق من الباطل .. ولهذا عزف الإخوان ، وتوفروا على إعداد العدة لحكم إسلامى خالص .

ولم يكن هدف الإخوان فى يوم من الأيام الاستمتاع بأبهة الحكم أو التباهى بمظاهر السلطة .. ولو كان هذا هدفهم لاختصروا الطريق ، ولأعفوا أنفسهم من كثير مما بذلوا من جهد ووقت ومال ودم .. فلقد تربع فى دست الحكم فى مصر من كان هو وشيعته التى تدين له أقل وأدنى من شعبة واحدة من شعب الإخوان علماً ومواهب وثروة بالرجال ... ولكن هدف الإخوان الذى أضناهم وأسهر ليلهم ، كما دوخ أعداءهم وأقض مضاجعهم ، أنهم يريدون أن تحكم الأرض بوحى السماء .. وهو مالا يرضاه حاكم مستبد ، ولا سلطان مفسد .

وقد قدمت فى صفحات ماضية أن الشعب المصرى كانت أنظاره مشدودة إلى الإخوان ، يترقبون اللحظة القريبة التى تنتقل فيها مقاليد الأمور إلى أيديهم ، وأن المراقبين الأجانب كان مسيطراً عليهم نفس الشعور ، حتى نشرت جريدة النيويورك تيمس فى أحد تعليقاتها فى ذلك الوقت قولها « لاشك أن الإخوان المسلمين قوة لايستهان بها » وقالت « إنهم آثروا عدم خوض المعركة الانتخابية (سنة ١٩٥٢) حتى يتم لهم تنظيم صفوفهم بالصورة التى يعتقدون أنها كفيلة بتحقيق أهدافهم » .

وهذا هو ماكان الإخوان — فى حقيقة الأمر — متوفرين عليه فى تلك الأيام — فلقد كانوا يشعرون أن انهيار أعدائهم الذى بدأت بوادره فى عام ١٩٥٠ قد وصل إلى أقصاه عام ١٩٥٢ . وليس أدل على ذلك من التخبط الذى أدى إلى توالى ثلاث وزارات على الحكم فى أقل من نصف عام .

كان الإخوان مطمئنين إلى صفوفهم فى الشعب ، وتكويناتهم المدنية والعسكرية ، وإلى تهيؤ الجو لاستقبال الحكم الإسلامى .

ولست أدعى إلماماً بتفاصيل مايتصل بالتكوينات العسكرية للإخوان ، فقد كنت أولا فى ذلك الوقت ــ بحكم عملى الشخصى ــ بعيداً عن القاهرة فى الصعيد ، ثم إننى كنت بطبيعتى ــ كما قدمت ــ عزوفاً عن التدخل فيما لم أدع إليه ... ولذا فإنى أترك الحديث عن ذلك إلى الأخ الذى كان مسئولاً عن هذه الناحية وهو الأخ الكريم اللواء صلاح شادى فأنقل شيئاً مما نشره عن لسان الصحفى سامى جوهر رحمه الله فى الطبعة السادسة من كتابه « الصامتون يتكلمون » وهو حديث ليس بالجديد علىّ فقد كان حدثنى به وبأكثر منه الأخ الأستاذ صلاح ــ أكرمه الله ــ فى الأيام الأولى للثورة ..

قال الأستاذ صلاح فى هذا الكتاب :

« فى أواخر عام ١٩٤٩ خلف حسين سرى باشا إبراهيم عبد الهادى فى رياسة الوزارة وأصدر قراراً بعودة جماعة الإخوان المسلمين .. وحضر لى ضابط بوليس من القنطرة هو اليوزباشى ــ وقتئذ ــ عبد الفتاح غنيم لزيارتى . وأبلغنى برغبة المرحوم الصاغ ــ وقتئذ ــ صلاح سالم فى اللقاء معى .. فرحبت .. وتم اللقاء . وحدثنى صلاح سالم عن رغبة تشكيل الضباط الذى كان منضماً للإخوان المسلمين قبل قرار حلها بإعادة العلاقات مع الجماعة .. فأعلنته ترحيباً بذلك مادام الهدف واحداً وهو خدمة الوطن ، والالتزام بشرع الله نظاماً ، وطرد المستعمر . فوعدنى أن يقابلنى فى موعد آخر بالمسئول عن تنظيمهم .

وفعلا تحدد الموعد والتقينا فى مكتب المرحوم محمد العشماوى باشا . وحضر فى هذا اللقاء جمال عبد الناصر بصفته المسئول عن تنظيم ضباط الجيش .

وكنت ألقاه لأول مرة .. وإن كنت سبق أن سمعت باسمه من المرحوم محمود لبيب الذى كان وكيلاً لجماعة الإخوان على أنه أحد أعضاء تشكيل الإخوان فى الجيش هو والبكباشى عبد المنعم عبد الرءوف .. وهو التشكيل الذى عرف بعد ذلك باسم تشكيل الضباط الأحرار .. وكان محمود لبيب هو الذى اختار لهم هذا الاسم حتى يبتعد تنظيمهم عن أعين الحكومة إذا عرف أنه تشكيل مرتبط بجماعة الإخوان .

وتحدثنا طويلاً فى هذا اللقاء .. وكان رأى عبد الناصر أن عبد الرحمن السندى غير مقنع للضباط . وأنه لايستطيع أن يجمع ضباط الجيش على الفكرة الإسلامية . وتحدثت معه على أن أهدافنا جعل الإسلام هو النظام الحاكم .

وتكررت لقاءاتنا .. وبدأ التعاون بيننا فى كل شىء .. حتى كان صلاح سالم يشترى لنا أسلحة من العريش للكفاح المسلح فى حرب القنال . وأذكر أنه بعد قيام الثورة أعاد لنا صلاح سالم مائتى جنيه دفعها للمرحوم عبد القادر عوده ثمن أسلحة لم يكن أتم شراءها ..

واتفقنا مع جمال عبد الناصر أن يقوم أحد الضباط من تنظيمه بتدريب الشباب من الإخوان على استخدام الأسلحة ، فاختار الصاغ ــ وقتئذ ــ مجدى حسنين ، وكان ضابطاً فى مدرسة الأسلحة الخفيفة بثكنات الجيش فى العباسية .

وفى يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ .. يوم حريق القاهرة .. جاءنا عبد الناصر مذعوراً ، وطلب منا البحث عن مكان لإخفاء أسلحة فيه . كان يخفيها فى مدرسة الأسلحة الخفيفة عند مجدى حسنين .. وأنه يخشى أن تقوم السلطات بتفتيش المدرسة فتعثر عليها .

وفى الحال تم الاتفاق .. وقام الأخوان رحمهما الله ــ منير الدلة وحسن العشماوى ومعهما الأخوان عبد القادر حلمى المستشار حاليا بالكويت وصالح أبو رقيق المستشار بالجامعة العربية بالتوجه بسياراتهم إلى بوابه رقم (٦) حيث كان ينتظرهم مجدى حسنين وقاموا بنقل الأسلحة داخل سياراتهم إلى منزل عبد القادر حلمى فى أول شارع الهرم .. وفى المساء حضر جمال عبد الناصر ونصح بنقل الأسلحة إلى الريف . فوقع الاختيار على عزبة حسن العشماوى فى الشرقية ... ورسم جمال عبد الناصر بنفسه كيفية تشييد مخزن السلاح وطلب أن يكون تحت الأرض بمسافة ثلاثة أمتار وتغطى جدرانه بمادة الأسبستوس العازلة من الحريق والرطوبة .

وحفرنا المخزن أسفل جراج فى العزبة .. ولم يكن يعرف مكانه سواى أنا والمرحوم حسن العشماوى والمرحوم منير دلة وصالح أبو رقيق وعبد القادر حلمى .. وطبعاً جمال عبد الناصر .. وبقيت الأسلحة بالمخزن .. وعندما قامت الثورة وفى إحدى جلساتنا مع جمال عبد الناصر سألناه عما إذا كان يريد الأسلحة فطلب أن تبقى فى مكانها .

واستمرت الاتصالات بين عبد الناصر وبينى قبل قيام الثورة .. وقبل الثورة بأيام جاءنى وأبلغنى أنه يفكر فى التعجيل بالقيام بالثورة لوجود عدد كاف من الضباط المنضمين لتنظيمه فى القاهرة .. وأنه يمكنه بواسطتهم عمل حاجة .. وطلب أن تعقد جلسة للتشاور .. فحددت له لقاءً فى شقة عبد القادر حلمى أحد الأعضاء البارزين بالجماعة وعضو مكتب الأرشاد .

ويقول الأخ صالح أبو رقيق تكملة للحديث : كان ذلك قبل قيام الثورة بليلتين ، حضر جمال عبد الناصر ومعه كمال الدين حسين إلى شقة عبد القادر حلمى ، وهى فى الطابق الثانى بالمنزل الذى كنت أقيم فيه فى أول شارع الهرم بالقرب من جامع سيدى نصر الدين ..

وقد شهد هذا المنزل كثيراً من الأحداث .. إننى كنت أقيم بالطابق الأول منه وعبد القادر فى الطابق الثانى .. وقد أخفينا فيه حسين توفيق عن أعين البوليس أياماً بعد اتهامه

باغتيال أمين عثمان .. وهى القضية التى اتهم فيها الرئيس أنور السادات أيضاً . وفى هذا المنزل تكررت اجتماعات عبد الناصر ورجال الثورة والإخوان المسلمين بعد الثورة .

جاءنا عبد الناصر وكمال الدين حسين واجتمعا بنا .. صلاح شادى وأنا والمرحوم حسن العشماوى وفريد عبد الخالق وعبد القادر حلمى .. وأبلغنا اعتزامه القيام بالثورة خلال أيام . فطلبنا منه الانتظار لحين استطلاع رأى المرشد . فطلب استطلاع رأيه فى أن يتولى الإخوان الحكم بعد نجاح الثورة .. وكان المرشد فى ذلك الوقت موجوداً بالاسكندرية .. ولكنه ألح لمعرفة رأيه بسرعة معلناً أن سيؤجل الحركة يوماً لهذا الغرض .

وفعلاً سافرت مع حسن العشماوى وعبد القادر حلمى وفريد عبد الخالق إلى الاسكندرية وقابلنا المرشد فطلب منا إبلاغ جمال عبد الناصر موافقته وتأييده وحمايته للثورة ، كما طلب إبلاغه أنه ليس من المصلحة أن تظهر للثورة علاقة بالإخوان حتى لايتدخل الإنجليز لمقاومتها ، واقترحت أن يتولى الحكم على ماهر باشا على أساس أنه غير حزبى ، وكان رئيساً للوزارة وقت وفاة الملك فؤاد واستطاع أن يقود البلاد وتطمئن له جميع الجهات .

وعدنا إلى القاهرة واتصل صلاح شادى بعبد الناصر ودعاه للحضور إلى شقة عبد القادر حلمى فى صباح اليوم التالى .. يوم ٢٢ يوليو .. وجاء عبد الناصر ومعه كمال الدين حسين وأبلغناه الرسالة .

ويقول صلاح شادى مكملًا الواقعه وقبل أن ينصرف جمال عبد الناصر انتحيت به جانباً ، وطلبت أن يقرأ معى الفاتحة أن تكون الحركة لله ولإقامة شرع الله .. فقرأها معى .. وتعانقنا وانصرف ..

وقامت الثورة .. وفى الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٣ يوليو جاءنى حسن العشماوى وأبلغنى أن جمال عبد الناصر اتصل به تليفونياً لعدم وجود تليفون فى منزلى ، وطلب منه أن يحضر إلىّ ليكلفنى بالذهاب إلى منزله لإبلاغ أسرته أن كل شيء تم بنجاح .. وفعلا ذهبت بسيارة حسن إلى منزل عبد الناصر بكوبرى القبه .. وكانت السيدة زوجته وشقيقه عز العرب على ماأعتقد يطلان من الشرفة فى قلق .. فنقلت لهما رسالة عبد الناصر وانصرفت .

ويستأنف صالح أبو رقيق حديثه عن الأيام الأولى للثورة ويقول :

ونجحت الثورة .. وقام رجال الإخوان بحراسة المرافق ليلة الثورة .. وفى الأيام التالية اتصل كمال الدين حسين بصلاح شادى وأبلغه أن قوات بريطانية ستتحرك من السويس إلى القاهرة .. فأرسلنا بجموعة من الإخوان الفدائيين إلى الكيلو ٩٦ لعرقلة تقدم

الإنجليز .. وظلوا يحرسون الطريق عدة أيام .

وتم أول لقاء بين عبد الناصر والمرشد حسن الهضيبي يوم ٢٨ يوليو .. حضر عبد الناصر إلى منزلى حيث كان ينتظره المرشد وعبد القادر حلمى وحسن العشماوى وصلاح شادى .. وقال عبد الناصر ونحن نصعد درجات السلم :

أنا خايف على الأولاد من نشوة النصر .. ووجدتنى أقول له بسرعة نصر أيه .. ده لسه المشوار طويل .. عايزين ننظف البلد ونطهرها من الفساد وتقوم المشروعات .. وعندما وصلنا .. ودخل عبد الناصر وصافح المرشد فوجئت به يقول للمرشد :

« قد يقال لك إن احنا اتفقنا على شىء .. إحنا لم نتفق على شىء » .

وكانت مفاجأة .. فقد كان اتفاقنا أن تكون الحركة إسلامية ولإقامة شرع الله .. واستمرت المقابلة فى مناقشات أنهاها المرشد بقوله لجمال عبد الناصر :

« اسمع ياجمال .. ماحصلش اتفاق .. وسنعتبركم حركة إصلاحية .. إن إحسنتم فأنتم تحسنون للبلد .. وإن أخطأتم فسنوجه لكم النصيحة بما يرضى الله » . وانصرف جمال . وقال لنا المرشد وكأنه كان يستطلع الغيب : **« الراجل ده مافهش خير . ويجب الاحتراس منه »** .

وكانت الوزارة قد شكلت برياسة على ماهر كما اقترحنا ، لكن بعد شهور جاءنا جمال عبد الناصر يشكو من على ماهر ومماطلته فى إصدار قوانين الإصلاح الزراعى — وسأل المرشد عمن يتولى الحكم بعده .. وكان رأينا أى شخص صالح .

ويضيف صلاح شادى قائلا :

وتم تشكيل وزارة برياسة محمد نجيب .. وطلب منا جمال عبد الناصر الاشتراك فى الوزارة . استدعانى أنا وحسن وكان يوسف صديق حاضراً .. وفاجأنا بقوله : « أنا عايز ثلاثة من الإخوان يدخلوا الوزارة » فرد يوسف صديق : إحنا خنخليها فقهاء .. فقال له حسن العشماوى : ما لهم الفقهاء .. ماله واحد زى الشيخ الباقورى بغض النظر عن الموضوع . وقال عبد الناصر : أنا كنت اقترحت أنك تدخل الوزارة — والكلام كان موجها لحسن العشماوى — أنت ومنير الدلة ولكن الزملاء معترضين لصغر سنكم .. واحنا عايزين ترشحوا لنا اثنين أو ثلاثة .

وذهبنا إلى المرشد .. واجتمع مكتب الإرشاد واتخذوا قراراً بعدم الاشتراك فى الوزارة بعد منا مناقشات طويلة .. فقد رأى البعض أن اشتراكنا فى الوزارة سيجعلنا مبصرين بكل الخطوات التى تقوم بها الحكومة .. ولكن المرشد كان له رأى آخر وهو

أنه : لو حدثت أخطاء من الحكومة فإنها ستلقى على الإخوان فضلا عن أن رسالة الإخوان كما كان يراها المكتب فى تلك الآونه هى عدم الزج بأنفسهم فى الحكم .

أبلغنا جمال عبد الناصر بقرار المكتب ، فطلب من المرشد أن يرشح له أشخاصاً آخرين من غير الإخوان فرشح له أحمد حسنى وزكى شرف ومحمد كمال الديب إلا أن عبد الناصر اختار أحمد حسنى فقط كوزير للعدل . واستطاع الاتصال بالشيخ الباقورى وكان عضوا بمكتب الأرشاد وأقنعه بالخروج على قرار المكتب وقبول الوزارة وزيراً للأوقاف فقبل .

واتصل بى كمال الدين حسين وطلب منى محاولة إقناع أعضاء المكتب بقبول دخول الشيخ الباقورى الوزارة حتى لايحدث صدع بين الحكومة والإخوان — فذهبت إلى مقر الجمعية لإبلاغ المرشد بحديث كمال الدين حسين لى ، فوجدته فى حالة ثورة على صالح أبو رقيق لأنه أبلغه أن الشيخ الباقورى فى مقر قيادة الثورة ليحلف يمين الوزارة .. وكان المرشد لايريد أن يصدق أن الباقورى خالف قرار المكتب .. وبعد ساعة أذيع تشكيل الوزارة . وخرج المرشد إلى منزله — وعند خروجه قابله الصحفيون وسألوه :

هل عرضت عليكم الوزارة ؟

فأجاب : لقد عرضت علينا واعتذرنا ..

وأغضب هذا التصريح جمال عبد الناصر ..

ثم يكمل صالح أبو رقيق روايته نقلاً عما سمعه من المرشد فقال :

جلس المرشد فى صالون منزله حزيناً لخروج الباقورى على إجماع مكتب الإرشاد — وقرب منتصف الليل وصل الشيخ الباقورى إلى منزل المرشد وصافحه وقبّل يده وقال :

أنا تصرفت .. أتحمل نتيجة تصرفى . وأنا مستعد أن أستقيل من مكتب الإرشاد .

ورد الهضيبى : لسه ؟ وقال الباقورى : ومن الهيئة التأسيسية .. ورد والهضيبى : لسه وقال الباقورى : ومن جماعة الإخوان المسلمين . ورد الهضيبى هكذا يجب .

وطلب الشيخ الباقورى ورقة وكتب لستقالته من جماعة الإخوان المسلمين .. وانصرف ..

وفى صباح اليوم التالى توجه المرشد إليه فى مكتبه بوزارة الأوقافِ مهنئاً له . فقال له الباقورى :

اعذرنى يامولاى .. إنها شهوة نفس .

فرد المرشد : تمتع بها كما تشاء .. اشبع بها .

وكان هذا أول صدام بين عبد الناصر وبين الإخوان المسلمين .. أراد عبد الناصر شيئاً .. وكان يعتقد أنه إذا أراد فيجب أن يطاع .. أراد أن يدخل الإخوان الوزارة .. وقال له مكتب الإرشاد .. « لا » .. الكلمة التي كانت تثيره دائما .. ولكن استمرت العلاقات فاترة بين عبد الناصر وبين الإخوان .

ثم جاء الصدام الثانى أو كلمة « لا » الثانية التى قالها الإخوان لعبد الناصر ..

يقول صلاح شادى : فى أحد الأيام فى أوائل عام ١٩٥٣ اتصل بى جمال عبد الناصر وقال لى : ياصلاح .. أنا باعت لك إبراهيم الطحاوى وسيحدثك فى موضوع هام وعايز رأيك ورأى جماعة الإخوان فيه .

وفعلا جاءنى إبراهيم الطحاوى وقال لى : إن الرئيس عبد الناصر يريد من جماعة الإخوان أن تنصهر داخل هيئة التحرير ويصبحا تنظيماً واحداً .

وقلت له : مش ممكن .. إن معنى هذا القضاء على جماعة الإخوان .. وهيئة التحرير ماهى إلا حزب سياسى ونحن جماعة دينية .

وفوجئت به يقول لى : ماهو الرئيس عايزك تمسك هيئة التحرير .

وأجبته : إننى لاأبحث عن مصلحة شخصية .. لكن من الخطأ أن تطلب منا ذلك ..

وانصرف إبراهيم الطحاوى .. وبطبيعة الحال أبلغ الرسالة إلى عبد الناصر الذى طلب أن يعقد معنا جلسة عمل فى منزل عبد القادر حلمى .. المنزل الذى شهد كثيراً من الاجتماعات .

وحضر جمال عبد الناصر ومعه عبد اللطيف البغدادى وكمال الدين حسين والمرحوم عبد الحكيم عامر وأحمد أنور الذى كان وقتئذ قائداً للبوليس الحربى .. وكان يحضر هذا اللقاء من الإخوان أنا وصالح أبو رقيق وفريد عبد الخالق وبطبيعة الحال عبد القادر حلمى الذى دعانا لتناول الغداء .. وبعد أن انتهينا منه جلس عبد الناصر يتحدث عن هيئة التحرير وعن رغبته أن تنصهر داخلها جماعة الإخوان المسلمين لتكون تنظيماً قوياً .

ويرد صالح أبو رقيق ويقول : شوف ياجمال .. الحكومة أياً كانت مادامت فى الحكم وأرادت تكوين حزب فمصيره الفشل .. سيولد الحزب ميتاً .. لأن الذين سينضمون إلى عضويته ويسارعون إليها هم أعداؤها قبل أنصارها وذلك خوفاً منها .. وعندك تجربة إسماعيل صدقى فى سنة ١٩٣٠ خير دليل على ذلك .. فعندما تولى الحكم شكل حزب الشعب وزور الانتخابات ونجح مرشحوه .. ولما خرج من الحكم انتهى

حزب الشعب وتلاشى .

وجنح جمال وقال بخبث : أنتم عصاة .

فناداه فريد عبد الخالق أن يجلس إلى جواره على أريكة فى جانب غرفة الصالون ودار بين الاثنين حديث يرويه فريد ويقول : قلت له : ياجمال إننى أرى الجو ينذر بصدام ليس من مصلحة أحد فى البلد أن يقع .. وكنت بذلك أشير إلى رغبته فى أن تنصهر جماعة الإخوان داخل هيئة التحرير وكذلك لعدة مواقف اعتبرناها عدائية ، وكان مظاهرها حذف الرقابة جميع بيانات الجماعة وعدم نشرها فى الصحف .

فأجابنى : أعملكم إيه .. ماانتم عصاه ..

تعجبت لرده وقلت له مستنكراً .

عصاة .. دى كلمة كبيرة ياجمال .. عصاه ليه .. هل نحن نقف موقفاً عدائياً من الأهداف الوطنيه للثورة ومصلحة البلد .. إننا نريد تحقيق الديمقراطية وعودة الحياة النيابية .

فأجابنى بسرعة : ماأنتم كده بتحرجونى .. طالبين انتخابات حرة .. يعنى عايزين النحاس باشا يرجع تانى وتعود نفس الأوضاع .. أنا بأقول لكم ادخلوا هيئة التحرير وتولوا أنتم أمرها وتصبح هى مسرح نشاطكم .. وأنتم بترفضوا .. عايزين إيه أمال ؟

فقلت له اسمع ياجمال .. إحنا بنصارحك .. الديمقراطية لابديل لها ، وأنت يجب أن تكون عندك الثقة فى أن الشعب سيتمسك بك ولن يرضى عنك بديلاً .. أما أن تتشكك فى ذلك فهذا أمر غريب فعلاً .. لماذا تتشكك ؟.. أما بالنسبة لدخولنا هيئة التحرير فليس هناك تعارض من أن تقود أنت التنظيم السياسى عن طريق هيئة التحرير ونبقى نحن دعاة للتربية الإسلامية ــ أما رأيك أن تندمج الجماعة مع هيئة التحرير فهذا بالضبط أشبه بمن يضع زيتاً وماءً فى زجاجة ويحاول أن يمزجهما ببعض .. مش ممكن أبداً يمتزجان .. ومن الأفضل للإسلام وللبلد ولك أن نبقى بعيدين عن السياسة ومؤيدين لك كحركة إسلامية .. والتزام الحكمة وضبط النفس يمكن أن يكون جسراً لتعبر من فوقه الأزمة .. وليس من هدفنا نهائيا أن ننافسك فى الحكم فنحن لانريد الحكم .. ولذلك لاأرى أى سبب للتصادم وعدم تقبل النصيحة وخاصة أن المرشد قال لك عند بدء الخلاف بالحرف الواحد : « ياجمال عندما تشعر بضيق من الإخوان أبلغنى وأنا أسلمك مفتاح المركز العام ونقفلها حتى لاتقع فتنة » .

وصمت جمال للحظات .. وأحسست أنه لايجد مايرد به .. وفجأة تكلم ليكشف

لى بما فى داخل نفسه وقال : اسمع يافريد .. أقولك اللى فى نفسى واخلص .. أنا عندى فكرة مستولية علىّ ولا أعرف إذا كانت غلط ولا صح .. أنا عايز فى خلال سنتين ثلاثة أوصل إلى أنى أضغط على زر .. البلد تتحرك زى ماأنا عايز .. واضغط على زر .. البلد تقف .

فضحكت وقلت له : احنا بقالنا ٢٧ سنة بنعمل لتربية نشء من المسلمين يفهم الإسلام فهما متكاملاً ويعمل على هدى منه .. ولا نقول رغم ذلك إننا بلغنا درجة إن احنا نجمع الإخوان فى لحظة ونفرقهم فى لحظة .. اسمع ياجمال : أنت بتفكر وكأنك ضابط فى معسكر يصدر الأمر فينفذ فى الحال .. لكن تغيير مسار المجتمعات لايمكن أن يتم إلا فى جو من الحرية والديمقراطية يسمحان بازدهار المفاهيم الصحيحة والقيم السليمة .

فأصر على رأيه قائلاً : الحقيقة ده اللى سيطر على تفكيرى .

فأتممت حديثى قائلاً : إذا كان كده .. فلا فائدة من نصيحتى أو نصيحة غيرى . وهذا شيء مؤسف جداً .. والذى سيحكم لك أو عليك هو التاريخ .

وانتهى بذلك حديثنا .. وانصرف جمال مع إخوانه ـ وبقينا نتناقش ونضحك من رغبته أن يضغط على زر فتتحرك البلد كما يريد .. ويضغط على زر فتقف البلد ـ كنا نعتقد أنه يحلم ولكنه استطاع فعلاً أن يحقق الحلم بعد ذلك .

مفاوضات الإخوان والانجليز :

وفى فبراير ١٩٥٣ بدأ الحديث عن إجراء مفاوضات مع الانجليز للجلاء عن مصر .. ولعب الإخوان المسلمون دوراً فى هذه المفاوضات يشرحه صالح أبو رقيق .. واستغله عبد الناصر بعد ذلك فى التشهير بالإخوان واتهامهم بالعمالة والتعاون مع الانجليز .. يقول صالح :

فى شهر فبراير ١٩٥٣ جاءنى المرحوم الدكتور محمد سالم وأبلغنى برغبة السفارة البريطانية فى أن يلتقى بعض المسؤلين من جماعه الإخوان المسلمين بمستر إيفانز المستشار الشرقى بالسفارة البريطانيه لاستطلاع رأى جماعة الإخوان فيما يرتضونه لنجاح مفاوضات الجلاء التى ستبدأ مع الحكومة .. وكان الإنجليز يعلمون موقف الإخوان ودفعهم بالشباب لمحاربة القوات البريطانيه فى منطقة القنال فى حرب عصابات .

وأبلغت المرشد المرحوم حسن الهضيبى بذلك .. وبعد مناقشات ودراسة أمسك

بسماعة التليفون واتصل بجمال عبد الناصر الذى رحب بذلك أشد ترحيب . وطلب أن يطلع على نتائج المحادثات .

وانتدبنى المرشد أنا ومنير دلة للاتصال بإيفانز .. وفعلاً اجتمعنا به ، وعدت للهضيبى أنقل له صورة كاملة عما دار بيننا من حوار .. فطلب منى أن أكتب تقريراً مفصلاً وتسليمه له فى اليوم التالى .. وعدت إلى منزلى فكتبت التقرير وسلمته للمرشد فى اليوم التالى فاتصل تليفونياً بعبد الناصر الذى سارع إلى منزل الهضيبى وقال بالحرف الواحد بعد أن قرأ التقرير : « كويس .. ده انتم استطعتم الوصول إلى حاجات لم يكن من الممكن أن توصل لها » — وكان إيفانز ينتظر رداً على عروضه من المرشد بنفسه ، فأبلغ المرشد رغبة إيفانز لعبد الناصر الذى طلب منه مقابلته .

وفعلاً تمت مقابلة المرشد بإيفانز يوم ٩ فبراير فى منزل المرشد . وبعد أن خرج إيفانز اتصل المرشد مباشرة بعبد الناصر وأبلغه فى مقابلة تمت بعد ذلك فى منزل منير دلة كل تفاصيل المقابلة .. وتوثقت بعد ذلك اتصالات إيفانز بالإخوان بعد أن بدأت المباحثات الرسمية التى تعثرت أكثر من مرة .. حتى انتهت بتوقيع الاتفاق النهائى فى سبتمبر ١٩٥٤ .

ويضحك صالح فى ألم ويقول : ومن الغريب أنه عندما اشتد الخلاف بين عبد الناصر والإخوان بعد ذلك أخذ يُشَهِّر بهم على أساس أنهم كانوا يتصلون بالإنجليز بدون علمه وأنهم أبدوا تنازلات مما جعل موقفه محرجاً خلال المحادثات .. وجنّد لادعائه هذا كل الصحف وأغلب الأقلام الصحفية .. وصدقه الناس بطبيعة الحال .. ولم يعلن أبداً أنه كان على علم بهذه الاتصالات وأنها تمت بموافقته وتشجيعه .. تماماً كما فعل مع الأستاذ مصطفى أمين بعد ذلك باثنى عشر عاماً عندما كلفه بمعاودة الاتصال برجال السفارة الأمريكية ، ثم قدمه للمحاكمة أمام محكمة الدجوى بتهمه التجسس .. وكان يكفى لتبرئته أن يقول عبد الناصر إن تلك الاتصالات كانت بأمره كما قرر مصطفى أمين .. إلا أن عبد الناصر بعث خطاباً إلى المحكمة ينفى تكليفه مصطفى أمين بذلك .. وكشف التاريخ بعد ذلك أن مصطفى أمين كان صادقاً — باعتراف عبد الناصر نفسه إلى محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان سابقاً والدكتور فائق السمرائى سفير العراق فى القاهرة سابقاً .

الصراع الثالث :

ويسترسل صالح أبو رقيق فى الحديث عن الصراع الثالث بين عبد الناصر والإخوان

فيقول .

فى أواخر عام ١٩٥٣ اشتد الخلاف بين الإخوان وبين عبد الناصر .. كان الإخوان يطالبون بعودة الحياة الديمقراطية للبلاد وتحديد موعد لإعلان الدستور .

وحاول عبد الناصر أن يستقطب بعض أعضاء مكتب الأرشاد للوقوف ضد المرشد حسن الهضيبى . وعندما فشل أصدر مجلس الثورة قراراً فى ١٢ يناير ١٩٥٤ بحل جماعة الإخوان المسلمين — وكان المرشد يرى أن الثورة لم تنفذ الأحكام الإسلامية المتفق عليها . واستدعى عبد الناصر الشيخ محمد فرغلى عضو مكتب الأرشاد ، وأراد إقناعه بأن مصير الثورة والإخوان واحد ، وأن الأهداف واحدة ، وأنه يجب أن يقف الإخوان وراء الثورة . وأن المرشد حسن الهضيبى يريد أن يفرض رأيه على الثورة ، وأن التعاون معه أصبح مستحيلاً .

ونقل الشيخ محمد فرغلى حديث عبد الناصر لبقية أعضاء مكتب الأرشاد ، وأحسوا جميعاً أنه يريد إحداث فرقة بينهم ، فازدادوا تماسكاً ولم يهمهم قرار الحل .

وبدأ عبد الناصر عدة محاولات لتشويه سمعه الإخوان .. وكانت المحاولة الأولى إعلان اكتشاف مخزن الأسلحة فى عزبة حسن العشماوى — وكانت المحاولة الثانية اتفاقه مع عبد الرحمن السندى رئيس الجهاز السرى — وكان الهضيبى قد عزله بعد أن أعلن أن لاسرية فى الدعوة، وعين بدلاً منه يوسف طلعت — اتفق عبد الناصر مع السندى على أن يقوم بعض معاونيه باحتلال مبنى المركز العام لإرغام المرشد على الاستقالة .. وفشلت المحاولة وزاد الإخوان تمسكاً بمرشدهم .

ثم وقعت أحداث فبراير عام ١٩٥٤ بعد إعلان قبول استقالة محمد نجيب .. وخرجت المظاهرات تطالب نجيب بالبقاء . وكان من المعروف أنها من تدبير الإخوان المسلمين .. وشهدت القاهرة أعنف المظاهرات واضطر عبد الناصر إلى إعادة نجيب .

وفى يوم ٢٨ فبراير خرجت المظاهرات فرحة بعودة نجيب ، واتجهت إلى ميدان الجمهورية .. وحاول البوليس فض المظاهرات فأصيب عدد من المواطنين . وحمل المتظاهرون قمصان المصابين ملوثة بدمائهم وتوجهوا إلى قصر عابدين .. وخرج إليهم محمد نجيب محاولاً دفعهم للانصراف .. ولم يتحركوا .. ولمح بينهم عبد القادر عوده فدعاه إلى الشرفة لإلقاء خطاب لفض المتظاهرين — وصعد ووقف بجوار محمد نجيب الذى أعلن أنه سينشىء الجمعية التأسيسيه وسيعيد الحياة النيابيه .. وانصرفت المظاهرات . وجاء فى خطاب نجيب مايلى :

« إننا قررنا أن تكون الجمهورية جمهورية برلمانية على أساس هو أن نبدأ فوراً بتأليف

جمعية تأسيسية تمثل كافة هيئات الشعب المختلفة لتؤدى وظيفه البرلمان مؤقتاً ، وتراجع نصوص الدستور بعد أن يتم وضعها . وبعد ذلك تعود الحياة النيابية إلى البلاد فى مدى أقصاه نهاية فترة الانتقال . وهذا أمر متفق عليه .. ونحن عند وعدنا الذى قطعناه على أنفسنا من أننا لم نقم إلا لإعادة الدستور على أساس سليم فى نهاية فترة الانتقال » .

واختتم نجيب كلمته قائلاً :

« نحمد الله سبحانه وتعالى مرة أخرى على أننا اجتزنا هذا الامتحان القاسى بنجاح ــ وأؤكد لكم مرة أخرى أنى لاأطمع فى حكم أو سلطة أو جاه ، وإنما أطمع فقط فى أن أؤدى واجبى وأن تزهق روحى فى سبيل بلادى وتحريرها ، وفى سبيل اتحاد أبنائها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وكانت تلك الكلمة سبباً فى انصراف المتظاهرين .. وفى نفس الوقت أثارت ثائرة عبد الناصر ضد الإخوان المسلمين .. فقد همس معاونوه أن الذى أوحى لنجيب بهذا الكلام هو عبد القادر عوده أحد أقطاب الإخوان الذى كان يقف إلى جوار نجيب فى شرفة قصر عابدين .

ومرت ثلاثة أيام .. وفى يوم ٢ مارس قامت سلطات البوليس الحربى باعتقال ١١٨ شخصاً بينهم ٤٥ من الإخوان ، ٢٠ من الاشتراكيين ، ٥ من الوفديين ، ٤ شيوعيين بادعاء أنهم كانوا يدبرون لإحداث فتنة فى البلاد مستغلين فرحة الشعب بعودة نجيب .. وكان فى مقدمة المقبوض عليهم حسن الهضيبى وعبد القادر عوده وصالح أبو رقيق وأحمد حسين زعيم الاشتراكيين .

وتعرض رجال الإخوان المسلمين لأبشع عمليات التعذيب داخل السجن الحربى . وفى ٨ مارس ١٩٥٤ بعث عمر عمر نقيب المحامين برسالة إلى نجيب وكانت قد عادت له كل السطات يطلب فيها التحقيق فى وقائع التعذيب التى حاقت بالمحامين المعتقلين وهم أحمد حسين وعبد القادر عوده وعمر التلمسانى .

وأمر نجيب بالتحقيق فوراً . ولم يبدأ التحقيق إلا بعد مرور عشرة أيام بسؤال الثلاثة . وأكدوا جميعاً أن الضابط محمد عبد الرحمن نصير كان يشرف على أعمال التعذيب وكان يشترك فى ضربهم بنفسه .. واستطاع المرشد أن يهرب رسالة من سجنه نشرت بجريدة المصرى وكان فيها :

أما بعد ، فإن مجلس قيادة الثورة قد أصدر قراراً فى ١٢ يناير ١٩٥٤ بأنه يجرى على جماعة الإخوان المسلمين قانون حل الأحزاب السياسية . ومع ما فى هذا القرار من مخالفة لمنطوق القانون ومفهومه، فقد صدر بيان نسبت إلينا فيه أفحش الوقائع وأكثرها

اجتراءً على الحق ، واعتقلنا ولم نخبر بأمر الاعتقال ولا بأسبابه . وقيل يومئذ إن التحقيق فى الوقائع التى ذكرت به سيجرى علناً ، فاستبشرنا بهذا القول لأننا انتظرنا أن تتاح لنا فرصة الرد عليه لنبين أن ماشتمل عليه وعلى الصورة التى جاءت به لاحقيقة له — فيعرف كل إنسان قدره ويقف عند حده . ولكن ذلك لم يحصل .

وإلى أن تتاح لنا الفرصة فإننا ندعوكم وندعو كل من اتهمنا وندعو أنفسنا إلى ماأمر الله به رسوله عليه الصلاة والسلام حين قال : « **فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين** » .

وقد استمرت حركة الاعتقالات طوال شهرين كاملين حتى امتلأت المعتقلات والسجون بطائفة من أطهر رجالات البلد وشبابها بلغوا عدة الآف ، لكثير منهم مواقف فى الدفاع عن البلاد وعن حرياتها شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ولم يكتفوا بالكلام كما يفعل كثير من الناس . أما كيفية الاعتقال ومعاملة المعتقلين فلن نعرض لها هنا .

وقد بدت فى مصر بوادر حركة — إن صحت — فقد تغير من شئونها وأنظمتها . وإن قرار حل الإخوان وإنزال اللافتات عن دورهم لم يغير الحقيقة الواقعه وهى أن الإخوان المسلمين لايمكن حلهم لأن الرابطة التى تربط بينهم هى الاعتصام بحبل الله المتين ، وهى أقوى من كل قوة . وما زالت هذه الرابطة قائمة ، ولن تزال كذلك بإذن الله . ومصر ليست ملكاً لفئة معينة ولا يحق لأحد أن يفرض وصايته عليها أو يتصرف فى شئونها دون الرجوع إليها والنزول على إرادتها .. لذلك كان من أوجب الواجبات على الإخوان المسلمين أن يذكروكم بأنه لايمكن أن يبت فى شئون البلاد فى غيبتهم . وكل مايحصل من هذا القبيل لن يكون له أثر فى استقرار الأحوال ولا يفيد البلاد بشىء .

وإن مادعوتم إليه من الاتحاد وجمع الصفوف لايتفق وهذه الأحوال فإن البلاد لايمكن أن تتحد وتجمع صفوفها وهذه المظالم وأمثالها قائمة .

نسأل الله تعالى أن يقى البلاد كل سوء ، وأن يسلك بنا سبيل الصدق فى القول والعمل ، وأن يهدينا إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وفى يوم ٢٥ مارس تم الأفراج عن جميع أعضاء الإخوان المسلمين المعتقلين . وكان للإفراج عنهم قصة يرويها صالح أبو رقيق فيقول : جاءنا فى السجن الحربى المرحوم محمد فؤاد جلال والسيدان محمد أحمد ومحيى الدين أبو العز صباح يوم ٢٥ مارس يطلبان منا الوقوف مع الثورة والتعاون معها على أساس أننا الوطنيون . فقلت لهم وأنا أضحك :

كيف يتم ذلك ونحن خلف الأسوار .. هو احنا حبسنا نفسنا .

فأجابوا ماانتم حتخرجوا على طول ..

فقلت لهم : وما الموقف وقد وجهتم إلينا أخطر اتهام يوجه إلى مواطن وهو الاتصال بالانجليز بدون علمكم ، وسنضطر للدخول معكم فى جدال لتبرئة أنفسنا وأنتم أعلم بالحقيقة .. فما الحل .. فأجابوا : نسأل عبد الناصر .. وفعلا عادوا بعد قليل وقالوا إن عبد الناصر اقترح أن يخرج المرشد فوراً ومعاونوه الستة الذين جاء ذكرهم فى بيان الاتصالات بالإنجليز ، ويذهب إليهم عبد الناصر فى منزل المرشد ويهنئهم بصفته وباسم مجلس الثورة وينشر ذلك فى الصحف .. وفعلا قبلنا ذلك لما فيه من دلالات ، وتم الإفراج عنا وحضر عبد الناصر ومعه صلاح سالم إلى منزل المرشد .

وبدأت جماعة الإخوان المسلمين تستأنف نشاطها من يوم ٢٦ مارس .. واعتقد الجميع أن الحياة النيابية ستعود .. وفى نفس اليوم بدأ عبد الناصر تنفيذ خطته ...وفوجئت القاهرة بتوقف جميع وسائل النقل بها فى الساعة الواحدة ظهراً ماعدا الترام ،وبعد أن استطاع أن يستميل إليه الصاوى رئيس اتحاد نقابات عمال النقل ليعلن إضراب شامل لمطالب خاصة .. ثم بدأت الإذاعة تذيع إضراب العمال بسبب قرارات عودة الحياة النيابية للبلاد ورغبتهم فى الإبقاء على مجلس الثورة .

وخرجت جريدتا الأهرام والأخبار تؤيدان هذا الاتجاه ، وتطالبان ببقاء مجلس الثورة .. بينما انفردت جريدة المصرى بالوقوف ضد ذلك الاتجاه .. ومحاولة الكشف عن المؤامرة التى تدبر للقضاء على الحياة النيابية الدستورية الطبيعية للبلاد .

وبدأت المظاهرات تشتد .. وهى المظاهرات التى كان يدبرها البوليس الحربى ، وكانت تطالب بعدم عودة الحياة النيابية .. واشتدت المظاهرات .. وأصدر المرشد العام بياناً يوم ٢٨ مارس هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. لاريب أن مصر الآن تمر بفترة بالغة الدقة والخطورة فى تاريخها ، بعيدة الأثر فى كيانها ومستقبلها . وهى فترة تقتضى من كل مواطن أن يهب البلاد نفسه ، ويبذل لها وجوده ، ويؤثرها بالخالص من رأيه ومشورته حتى يأذن الله بانجلاء هذه **الغمرة** ، ويبدل الوطن منها حياة أمن واستقرار ووحدة .

وقد فوجىء الإخوان المسلمون غداة خروجهم من السجون والمعتقلات بتوالى الأحداث الخطيرة التى تتعرض لها البلاد فى حدة وسرعة لم يتيسر معها معرفة أسبابها والعوامل التى تؤثر فيها ، ثم تحديد وسائل العلاج التى تلائمها .

من أجل ذلك بادر الإخوان المسلمون إلى العمل على أداء واجبهم فى التماس المخرج من

هذه الأزمة ، فبدا لهم أن من العسير أن ترسم الخطط الصالحة ، ويوضع العلاج لهذه المشاكل ، وتسمع المشورة الصادقة المستقلة فى جو الغضب والانفعال ، وقد كان رسول الله ﷺ يسأل الله أن لايستجيب له وهو غضبان .

لهذا لم يكن بد من الإسراع بلقاء المسئولين والاتصال بطرفى الخلاف للدعوة إلى اتخاذ مهلة تتجنب فيها المضاعفات ، وتنتهى فيها حالة التوتر القائمة حتى يتيسر لأولى الرأى والإخلاص أن يتقدموا للمسئولين من الأمة بخطة كاملة مدروسة تكشف عن البلاد هذه الشدة ، وتضع الحلول الكفيلة بوقاية البلاد من أن تتعرض لمثلها فى أية مناسبة .

وعلى هذا الأساس قام وفد من الإخوان المسلمين برياسة المرشد العام بلقاء البكباشى جمال عبد الناصر فى الليلة الماضية ثم بزيارة اللواء محمد نجيب لانشغاله فى هذه الليلة بالاجتماع بجلالة الملك سعود ضيف مصر الكبير ، الذى آثرها مشكوراً بكريم وساطته فى علاج هذا الموقف العصيب .

وما زال الإخوان المسلمون يواصلون خطواتهم فى إقناع المسئولين باتخاذ مهلة مع قيامهم فى الوقت نفسه بدراسة خطة العلاج الشاملة آملين أن يستجيب المسئولون إلى ندائهم فتتغلب الحكمة والوطنية على بواعث الخلاف والفرقة ، ويلتقى الجميع بإذن الله على كلمة سواء .

وإذا كانت الجهود تتوالى فى العمل على جمع الكلمة وحل الأزمة ، فإننا نناشد شعب مصر الكريم أن يعتصم بالهدوء والسكينة ورباطة الجأش ، وأن ينصرف أبناؤه جميعا إلى أعمالهم فى انتظام وطمأنينة ، مع التوجه إلى الله العلى الكبير أن يحفظ البلاد من كل سوء ، وأن يعين الساعين ، ويجمع المسئولين على الحل الكامل السليم الذى يخرج بالبلاد من المأزق الحاضر ، ويحفظ وحدة الأمة ، ويصون حقوق الشعب وحرياته ، ويحقق الاستقرار المنشود ، فى ظل حياة نيابية نظيفة محوطة بالضمانات التى تجنبها مساوىء الماضى ، وتوفر الجهود لتخليص الوطن من الغاصب المستعمر ولمتابعة حركة الإصلاحات الإيجابية التى تستكمل البلاد بها نهضتها والله ولى التوفيق » .

وأذيع هذا البيان الذى طلبه عبد الناصر من المرشد بعد اتفاق الاثنين على توقف المظاهرات لحين انتهاء زيارة سعود وإيجاد حل للأزمة ـــ ونشر البيان يوم ٢٩ مارس نفس يوم مغادرة الملك سعود مصر .

ويقول صالح أبو رقيق : وذهب جميع أعضاء مجلس الثورة لتوديع الملك سعود فى مطار ألماظه ، وذهب بعض أعضاء مكتب الإرشاد لتوديع الملك .. وعند انصراف الجميع فوجئت باثنين يمسكان بذراعى ، كانا عبد الناصر والبغدادى وسألانى : أنت فطرت ؟ فقلت لهما: لا . فقالا: تعال نفطر سوياً ـــ فحاولت الاعتذار ولكنهما أصرا . ودعيا

الهضيبي ولكنه اعتذر .. وذهبت معهما إلى ميس المطار ، وأثناء جلوسنا نتناول الإفطار سألني عبد الناصر : فين حسن ؟ وكان يقصد حسن العشماوى ــ وكان حسن أقرب المدنيين إلى قلب عبد الناصر ، كما كان عبد الحكيم عامر أقرب العسكريين إلى قلبه ..

فقلت له : حسن زعلان منك ، وله حق عرب عليك .. وكنت أشير بذلك إلى حادث التشهير به بالعثور على مخزن الأسلحة فى عزبته .

فضحك وقال : طيب ده لازم يشكرنى .. دا احنا عملناله دعاية بمليون جنيه والجرايد نشرت صوره .. ثم أضاف : لا .. ده. أنا لازم أشوفه وأصالحه .. ثم بدأنا نتحدث عن الأوضاع .. والمظاهرات التى تطالب بعدم إجراء انتخابات وأنها لابد أن توقف .. وعن بيان المرشد .

وبادرنى قائلاً : أنتم عايزين انتخابات ليه .. عايزين زينب الوكيل تتحكم فى البلد تانى .. دى سبت موضع العفة للبوليس الحربى عندما توجه إليها أحد ضباط البوليس الحربى لسؤالها .. عايزينها تتحكم فى البلد تانى ؟.

قلت له : حرام عليك ياشيخ بلاش تشنيع .. المهم المظاهرات تتوقف والمرشد أذاع بيان نشرته الصحف اليوم يدعو الجميع إلى الهدوء .

فأجاب : خلاص مفيش مظاهرات .

وانصرفنا : وعلمت أنه توجهت مظاهرة فى نفس اليوم إلى مجلس الدولة ، واعتدى المتظاهرون على المرحوم عبد الرازق السنهورى .. وقد كلفنى .. المرشد بالذهاب إلى عبد الناصر لمعاتبته لإخلاله بالاتفاق وفض المظاهرات التى تحاصر جريدة المصرى وعدم الاعتداء عليها ، وتنفيذ قرارات مجلس الثورة بإعادة الحياة النيابية .. وعندما قلت له ذلك قال :

أنتم يهمكم إيه ما دمتم أنتم أحرار . مالكم ومال الباقى ..؟

فقلت له : هل تستطيع أن تعلن ذلك فى مؤتمر صحفى ؟ فضحك وقال طبعاً لا.

ومرت أزمة مارس ، وتوقفت المظاهرات ، وبقى محمد نجيب رئيساً للجمهورية وجمال عبد الناصر رئيساً للوزارة . واكتشفنا تلاعبه بالحريات والديمقراطيات .. ثم بدأت محادثات الجلاء .. وفى شهر يونيه وقع بالحروف الأولى على اتفاقية الجلاء .. ووجدنا الاتفاقية لاتحقق الهدف فعارضناها .. وبعثنا له بعريضة تتضمن أوجه اعتراضنا .

وبدأ شن حملة دعائية ضد الإخوان المسلمين .. وحاول إحداث انشقاق فى صفوف الإخوان .. وبدأت تحدث اشتباكات بين الإخوان ورجال الشرطة .. بدأت يوم ٢٧

أغسطس سنة ١٩٥٤ فى مسجد شريف بالروضة .. ووقف حسن دوح وكان زعيم الطلبة الإخوان بالجامعة وألقى خطبة تتضمن هجوماً على اتفاقية الجلاء . وبعد الصلاة خرج المصلون فى مظاهرة وحدث اشتباك بينهم وبين الشرطة .

وفى نفس اليوم هاجم عبد الناصر الإخوان علانية فى خطاب ألقاه بهيئة التحرير يوم ٥ سبتمبر ، وجند الصحف كلها لنشر أنباء عن المرشد الهضيبى — وكان فى جولة بالبلاد العربية — على أساس أنه يعلن عداءه للثورة .

وأحس بعض الإخوان بالخطر — واقترح عدد منهم كان على علاقة بالحكومة عقد اجتماع للهيئة التأسيسية لبحث الوضع بين الحكومة والإخوان . وكان عبد الناصر يتوقع أن ينجح أعوانه فى هذا الاجتماع فى اتخاذ قرار بعزل الهضيبى .

وعقد الاجتماع فى مساء يوم الخميس ٢٤ سبتمبر ١٩٥٤ واستمر ٢٠ ساعة وحضره مائة عضو من جملة الأعضاء وعددهم ١٣٧ عضواً .

وظهرت صحيفة الأهرام والجمهورية تحملان نبأ كاذباً عن انشقاق خطير فى صفوف الإخوان تضمن نشوب معركة بالأيدى بين المجتمعين — أما جريدة الأخبار فقد نشرت الحقيقة وكانت عن حدوث مشادة كلامية بين الأعضاء .

وانتهى الاجتماع على خلاف ماكان يرغب عبد الناصر .. ومرت أيام .. وفى يوم ٢٦ اكتوبر من نفس العام حدثت محاولة اغتيال عبد الناصر .. وقد تكون محاولة حقيقية أو محاوله مدبرة .. وقد تكون فردية أو بتدبير من جماعة الإخوان المسلمين . ولكن الذى ثبت أن عبد الناصر استغلها فى تحقيق ثلاثة أهداف :

تكوين زعامة شعبية لنفسه — التخلص من محمد نجيب إلى الأبد — القضاء على جماعة الإخوان المسلمين التى ساندته فى بدء الثورة .

محاولة اغتيال عبد الناصر :

سأترك لصالح أبو رقيق تناول هذا الحادث بطريقته الخاصة إذ يقول :

لن أتجنى على أحد وأقرر شيئاً عن تلك المحاولة .. وعما إذا كانت حقيقية أم محاولة مدبرة .. إنما سأسردها كما جاءت فى الصحف فى ذلك الوقت .. وللقارىء وحده أن يقارن بين الوقائع وظروف المحاكمة ويقرر هل كانت محاولة حقيقية أو مدبرة ..

الزمان : مساء ٢٦ اكتوبر ١٩٥٤ .

المكان : ساحة ميدان المنشية فى مدينة الاسكندرية .

الساحة مزدحمة بالآلاف من المواطنين .. حضروا للاستماع إلى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر الذى سيلقيه بمناسبة توقيع اتفاقية الجلاء مع الانجليز يوم ١٩ اكتوبر من نفس العام .

ودخل عبد الناصر المنصة الرئيسية ومعه صلاح سالم وعبد الحكيم عامر وحسن إبراهيم والشيخ الباقورى والسيد / الميرغنى حمزة وزير الزراعة والمعارف بالسودان وأحمد بدر المحامى السكرتير المساعد لهيئة التحرير بالاسكندرية .

ووقف عبد الناصر ليلقى خطابه .. ومرت دقائق .. وفجأة دوى صوت الرصاص ـــ وساد الهرج المكان .. وأمسك عبد الناصر بالميكروفون يردد كلمات مرتجلة يقول :

أيها الأحرار .. حياتى فداء لكم .. دمى فداء لمصر .

أيها الرجال .. أيها الأحرار .. أتكلم إليكم بعون الله بعد أن حاول المغرضون أن يعتدوا علىّ .. فدمى فداء لكم .. إن حياة جمال عبد الناصر ملك لكم .

أيها الرجال .. أيها الأحرار .. هذا هو جمال عبد الناصر بينكم .. أنا لست جباناً .. أنا قمت من أجلكم .. من أجل عزتكم وكرامتكم وحريتكم .. أنا جمال عبد الناصر منكم ولكم .. عشت بينكم وسأعيش حتى أموت عاملاً من أجلكم ومكافحاً فى سبيلكم ، وأموت من أجل حريتكم وكرامتكم ومن أجل عزتكم .

أيها الرجال .. أيها الأحرار .. فليقتلونى .. لقد غرست فيكم العزة وغرست فيكم الكرامة .. لقد أنبت فى هذا الوطن الحرية والعزة والكرامة .. فلأمت من أجل مصر .. من أجلكم .. من أجل أحفادكم .. كافحوا واحملوا الرسالة وأدوا الأمانة من أجل عزتكم ـــ ومن أجل كرامتكم ويكرر نفس الكلام ثم يقول :

أيها الرجال .. أيها الأحرار .. منذ ٢٤ سنة اعتدت يد الاستعمار على الهاتفين بالحرية فى هذا الميدان فقتل من قتل واستشهد من استشهد ، فإذا كان جمال لم يقتل فى الماضى وجاء ليقتل اليوم بأيدى الاستعمار وأعوانه ونجا .. فقد نجوت لأحقق لكم العزة ولأحقق لكم الكرامة ولأحقق لكم الحرية .. إن الخيانة تريد أن تكبلكم وتستبد بكم فإذا نجوت فلكى أزيدكم حرية وعزة وكرامة ، وليعلم الخونة أن جمال عبد الناصر ليس فرداً واحداً فى هذا الوطن فكلكم جمال عبد الناصر .

ياإخوانى .. دمى من دمكم .. وروحى من روحكم .. ومشاعرى من مشاعركم .. أيها .. الرجال .. لقد استشهد الخلفاء الراشدون جميعاً فى سبيل الله .. وإذا كان جمال

يقتل فأنا مستعد لذلك فى سبيلكم وفى سبيل الله والسلام عليكم ورحمة الله .

وتعالت الهتافات « الله معك ياجمال » .. وأنهى عبد الناصر الكلمة التى رتجلها أو هكذا بدت .

وكانت الكلمة مذاعة على الهواء .. وسمع جميع أبناء مصر أصوات طلقات الرصاص والكلمة الرائعة التى ألقاها جمال عبد الناصر .. واحتل قلوب الجميع .. وحقق الزعامة التى كان يحلم بها .. وأصبح الأسطورة فى أحاديث كل الناس .. ولم تنم الأمة العربية بأسرها فى تلك الليلة .. الكل ينتظر الصباح ليقرأ شيئاً عن الحادث .. ومن الجانى .

وظهرت صحف الصباح ــ صباح ٢٧ اكتوبر ١٩٥٤ تحمل فى صدر صفحاتها الأولى نبأ القبض على الجانى الأثيم بدون نشر صورته .. قالت جريدة الأهرام :

« لم يكد الجانى الأثيم يطلق رصاصاته الغادرة حتى كان الجمهور قد هجم عليه وعلى ثلاثة أشخاص يقفون على مقربة منه ودخان الرصاص يتصاعد من حولهم ، وكاد يفتك بهم لولا أن بادر رجال البوليس والمخابرات إلى القبض عليهم **وضبط السلاح فى يد الجانى** (هكذا نشرت جميع الصحف كما أنه لم ينشر شيء بعد ذلك عن الثلاثة الآخرين الذين قيل إنهم ضبطوا مع الجانى) وقد اقتيد الأربعة إلى نقطة بوليس شريف ..ويدعى الجانى محمود عبد اللطيف ويعمل سباكاً فى شارع السلام بامبابه .

وقد عثر فى المكان الذى كان يقف فيه الجانى على أربعة أظرف فارغة من عيار ٣٦ ملليمتر وهى تختلف عن طلقات المسدس الذى ضبط مع المتهم ، إذ أن المسدس الذى عثر عليه مع المتهم من نوع المشط الذى لايلفظ الأظرف الفارغة » .

كان هذا مانشرته جريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ٢٧ اكتوبر ١٩٥٤ . وأثار ذلك التساؤل عن سر اختلاف الأظرف الفارغة عن طلقات المسدس المضبوط فى يد الجانى .. وبدأت همسات هل هناك شخص آخر ؟!.

وفى نفس العدد نشرت الصحف أن الجانى ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين ..

وتوالت فى الأيام التالية نشر اعترافات محمود عبد اللطيف وأنه من الجهاز السرى للإخوان المسلمين .. وكان مكلفاً باغتيال عبد الناصر لتبدأ حركة اغتيالات لبقية أعضاء مجلس الثورة و ١٦٠ ضابطا من الضباط الأحرار والقيام بثورة ، وأن الجهاز السرى كان سيقف أمام أى تحركات مضادة .

ومع الاعترافات بدأ نشر أنباء اكتشاف مخازن أسلحة للجهاز السرى والقبض على أفراده ، ومخازن فى جميع محافظات الجمهورية .. ومتهمين من مختلف الفئات والمهن ..

طلاب بالجامعات ومحامين ومدرسين وعمال وفلاحين وضباط بالجيش وضباط بوليس وتجار .. أى من فئات الشعب جميعها العمال والفلاحين والمثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية .

محاكمات الإخوان :

وفى يوم أول نوفمبر — أى بعد الحادث بأربعة أيام فقط أصدر مجلس الثورة برياسة عبد الناصر أمره بتأليف محكمة مخصوصة لمحاكمة المتهمين فى محاولة اغتيال عبد الناصر برياسة قائد الجناح جمال سالم . وكان المرحوم جمال سالم معروفاً للجميع بالتصرفات الشاذة — وكان أمر تشكيل المحكمة شاذاً أيضاً .. فقد تضمن أن للمحكمة كل السلطات ، وإن يلحق بها مكتب للادعاءات يتولاه البكباشى زكريا محيى الدين يقوم بإعلان المتهم بالادعاءات المقامة ضده قبل المحاكمة بـ ٢٤ ساعة فقط — ولا يجوز تأجيل المحاكمة أكثر من مرة واحدة ولمدة لاتزيد على ٢٤ ساعة للضرورة القصوى .. وأحكامها نهائية ولا يجوز الطعن فيها بأى طريقة من الطرق أو أمام أى جهة من الجهات .

وبدت للجميع أن نهاية جماعة الإخوان المسلمين أصبحت محققة .. فما كانت تنشره الصحف عن اعترافات الذين قبض عليهم من أفراد الجهاز السرى ، وكيف أنهم كانوا يسعون إلى قيام حرب أهلية واغتيال جميع أعضاء مجلس الثورة وتحويل البلاد إلى مجموعة من الخرائب .. كان ماينشر كافياً لشحن كل الشعور والقوى ضد الإخوان المسلمين .

فبدأ الناس فى لهفة شديدة إلى معرفة شكل الجانى الأثيم .. ومضت خمسة أيام كاملة دون أن تنشر له صورة واحدة .. وأخيراً نشرت صورته وآثار التعذيب واضحة تماماً على وجهه .. ونشر تحتها أنها صورة للجانى ويبدو فيها آثار اعتداء المواطنين عليه وقت القبض عليه .

وللتاريخ .. فإن ماينشر اليوم عن جرائم التعذيب التى ارتكبها أعوان عبد الناصر لاتوازى واحداً على الألف مما تعرض له الإخوان المسلمون عام ١٩٥٤ .

وظلت أحاديث الناس تتناول فى كل المجالات ماكان يعتزمه الإخوان المسلمون من خراب للبلاد .. كانت الناس تستقى معلوماتها مما تنشره الصحف .. وكان بعض المفكرين يراودهم الشك فى حقيقة الحادث من ضبط الجانى والمسدس فى يده والعثور على طلقات رصاص من عيار لايطابق رصاص المسدس ولا يريدون أن يصدقوا أن الحادث من تدبير الإخوان .

وفجأة وبلا أى مقدمات — فى يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٤ اى بعد الحادث بستة أيام نشرت جميع الصحف الصباحية صورة الرئيس السابق جمال عبد الناصر وأمامه عامل بناء

ممسكاً بمسدس . ومع الصورة حكاية مثيرة .. تقول الحكاية إن عامل البناء خديوى آدم .. وهذا اسمه .. كان يستقل الترام يوم الحادث عائداً إلى منزله .. وعند ميدان المنشية شاهد جماهير من الناس مجتمعة وسأل عن سر تجمعهم ، ولما علم أن عبد الناصر سيلقى خطاباً نزل من الترام واندس وسط الجماهير .

وعندما دوى صوت طلقات الرصاص وساد الهرج الآلاف المجتمعه سقط فوق الأرض وشعر بشيء يلسعه فى ساقه .. وتحسسه فوجده مسدساً وكانت ماسورة المسدس لاتزال ساخنة .. وأيقن فى الحال أنه المسدس الذى استخدمه الجانى فى إطلاق الرصاص على زعيم البلاد !! ووضع المسدس فى جيبه واعتزم بينه وبين نفسه أن لايسلم المسدس إلا لعبد الناصر شخصياً .

وتستطرد القصة فى استكمال حبكة خيوطها وحتى لايتساءل القارىء عن السر فى عدم تسليمه المسدس فى نفس الليلة وانتظاره خمسة أيام .. فتقول القصة :

إن العامل خديوى آدم رجل فقير جداً يوميته ٢٥ قرشاً .. ولم يكن يملك ثمن تذكرة قطار أو أوتوبيس يحمله إلى القاهرة .. فسار على قدميه المسافة من الاسكندرية إلى القاهرة .. فوصلها يوم أول نوفمبر وتوجه فى الحال إلى مجلس قيادة الثورة وطلب مقابلة جمال عبد الناصر .. وأعطاه المسدس فكافأه عبد الناصر بمائة جنيه !!.

وهكذا ظهر سلاح جديد فى الجريمة طلقاته من عيار ٣٦ ملليمتر لتكون من نفس أظرف الطلقات التى عثر عليها .. واختفت تماماً سيرة المسدس الذى ضبط فى يد الجانى لحظة القبض عليه ..

هكذا أراد الحاكم ورجال التحقيق ...

وفى اليوم الثانى مباشرة نشرت الصحف أن الجانى تعرف على المسدس الذى عثر عليه خديوى آدم وقرر أنه نفس المسدس الذى استخدمه لاغتيال عبد الناصر ، وأنه تسلمه من رئيسه فى الجهاز السرى المحامى هنداوى دوير . وتعرف هنداوى هو الآخر على المسدس وقرر أنه نفس المسدس الذى أعطاه للجانى وكان رئيسه فى الجهاز السرى المحامى إبراهيم الطيب أعطاه له ليسلمه للجانى .

هكذا تعرف الاثنان على سلاح الجريمة .. وهكذا اختفت تماماً سيرة المسدس الأول الذى ضبط مع الجانى لحظة القبض عليه .. واحد فقط أنكر أن المسدس الذى عثر عليه خديوى آدم يتعلق بالجهاز السرى .. هذا الشخص هو إبراهيم الطيب نفسه .. وجاء إنكاره أمام محكمة الشعب عندما عرض عليه رئيسها جمال سالم المسدس فقرر أنه ليس نفس المسدس الذي أعطاه لهنداوى .. إنما هو مسدس آخر .

ولم يحقق جمال سالم هذه النقطة الهامة .. أغفلها تماماً .. كما أغفل أثناء المحاكمة تكليف الادعاء بتقديم شهود الإثبات الذين ضبطوا الجانى لحظة ارتكاب الجريمة .. وكانوا .. وبالمصادفة من العاملين بمديرية التحرير التى أنشأها مجدى حسنين أقرب الضباط الأحرار إلى قلب جمال عبد الناصر والذى من أجله تلاعب عبد الناصر بالديمقراطية كما سيأتى فى الباب الثانى .. والشهود الثلاثة أولهم عبد الحميد محمود حبيب العامل بمديرية التحرير وكان أول من أمسك مسدس الجانى أو هكذا قال .. والثانى اليوزباشى جمال النادى وهو من مديرية التحرير أيضاً وقد كسر ذراعه أثناء مقاومة الجانى له أو هكذا قرر .. أما الثالث فهو حامد حسنين عجمى العامل بمديرية التحرير أيضاً وقد عضه المتهم فى ساقه عندما أمسك به أو هكذا قرر !!.

ولعل الادعاء خشى أن يقدمهم ويقدم خديوى آدم العامل الذى عثر على المسدس حتى لاتتخبط أقوالهم ويظهر شىء محظور كانوا يسعون لإخفائه .. إن أى طالب بالسنة الأولى حقوق يعلم أن أول شهود يستمع إليهم هم شهود الإثبات الذين لهم صلة بضبط الجانى أو مشاهدة الجريمة أو اكتشاف سلاح الجريمة ..

ولكن هؤلاء الأربعة لم يدلوا بشهادتهم عند محاكمة الجانى .

محاكمة بدون محامين :

وتقرر تقديم محمود عبد اللطيف إلى محكمة الشعب برياسة جمال سالم .. وللتاريخ فإن الأوراق التى قدمت إلى أعضاء هيئة المحكمة كانت كافية لأن تصدر أحكامها بإعدام كل الذين يقدمون إليها .. كانت أمام هيئة المحكمة أوراق تتضمن اعترافات تقول إن الهضيبى أنشأ جيشاً سرياً ضخماً لتأمين حكم الإخوان المسلمين بعد قيامهم باغتيال جمال عبد الناصر وجميع أعضاء مجلس الثورة باستثناء محمد نجيب ، وكذلك اغتيال ١٦٠ ضابطاً من الضباط الأحرار . وأن هذا الجيش كان سيقف أمام جيش مصر وبوليس مصر ، ويقوم بقمع الحركات الشعبية التى كان من المتوقع حدوثها ، وأن غرض هذا الجيش ليس محاربة المستعمر بل إعلان حرب داخلية فى مصر للاستيلاء على الحكم .. وأن الخطة كانت تقسيم بلاد الجمهورية إلى مناطق .. وكل منطقة لها قائد وفصائل وكل فصيلة لها قائد .. وأن الذين أشرفوا على هذا الجيش السرى ثلاثة هم يوسف طلعت وكان يختص بأفراد الجيش من المدنيين ، وصلاح شادى وهو قائد تنظيم رجال البوليس ، وعبد المنعم عبد الرءوف قائد التنظيم فى صفوف الجيش المصرى .. وأن جميع الأسلحة والقنابل والذخائر التى ضبطت فى مخازن الإخوان المسلمين كانت تكفى لتدمير ثلاثة أرباع مدينة القاهرة وتحويلها إلى خرائب .

وبدأت محكمة الشعب أول جلساتها يوم الثلاثاء ٩ نوفمبر ١٩٥٤ — وكانت عمليات القبض على بقية زعماء الإخوان المسلمين وأعضاء الجهاز السرى لاتزال مستمرة . بل كان يقبض على بعضهم وفى اليوم التالى مباشرة يقاد إلى محكمة الشعب لسماع أقواله كشاهد في القضية الأولى التى تنظرها المحكمه .. وكانت القضية الأولى أو المحاكمة الأولى للمرحوم محمود عبد اللطيف الذى اسندت إليه محاولة اغتيال عبد الناصر بمسدس ضبط فى يده وقت الحادث ثم اعترف بارتكابه الحادث بمسدس آخر عثر عليه العامل بمديرية التحرير خديوى آدم وظهر بعد الحادث بخمسة أيام .

ووجه إلى محمود عبد اللطيف ادعاءان :

الأول : اشترك مع آخرين فى تنفيذ اتفاق جنائى الغرض منه إحداث فتنة دامية لقلب نظام الحكم ، وذلك بإنشاء نظام سرى مسلح للقيام باغتيالات واسعة النطاق وارتكاب عمليات تدمير بالغة الخطورة وتخريب شامل فى جميع أنحاء البلاد تمهيداً لاستيلاء الجماعة التى ينتمى إليها على مقاليد الحكم بالقوة .

والثانى: شرع فى قتل البكباشى أركان حرب جمال عبد الناصر رئيس الحكومة تنفيذاً للاتفاق الجنائى المشار إليه فى أولا .

وتلا رئيس المحكمة الادعائين على المتهم وسأله السؤال التقليدى :

مذنب أم غير مذنب ؟.

وعادة .. بل ودائماً يقرر المتهم فى مثل هذه الحالات أنه غير مذنب .. وهو فى ذلك يتعلق بآخر خيط من الأمل لينقذ رقبته من المشنقة . أما فى حالة محمود عبد اللطيف وأغلب زملائه الذين وقفوا أمام تلك المحكمة فإنهم كانوا يقررون أنهم مذنبون .. كان يقررها البعض عن جهالة مصدقاً ماقالوه له قبل المثول أمام المحكمة من أن زعيم البلاد سيخفف عنه الحكم بل ويلغيه ، وأن المقصود فقط هو محاكمة زعمائه فى جهاز الإخوان ..

والبعض كان يقررها لفقده الثقة فى أى بصيص من نور العدالة بعدما تعرض له من أبشع ألوان التعذيب . وكان محمود عبد اللطيف وهنداوى دوير من النوع الأول .. ويؤكد ذلك أنه يوم تنفيذ حكم الإعدام فيهما أخذ هنداوى دوير يردد فى هستيرية وهم يقتادونه إلى حبل المشنقة :

(ضحكوا علىّ .. خدعونى .. ضحكوا علىّ .. مش ده اتفاقنا .. ماكانش ده الاتفاق .. مش ده اتفاقنا) .

المهم .. إننى هنا لاأحاول أن أتجنى على شخص ما .. ولكنى أذكر الحقيقة والحقيقه التى أسجلها للتاريخ .. والتى جمعتها مما نشر فى ذلك الوقت عن تلك المحاكمات وهى صورة غريبة وغريبة جداً للعدالة فى تلك الأيام .. وبعد أن قرر المتهم أنه مذنب وقف المدعى العسكرى وقال — وأنا هنا أنقل بالحرف الواحد — « حين أعلن المتهم بالادعاءات المقامة عليه فى سجنه سألناه إذا كان قد وكل أحد المحامين للدفاع عنه فقال إنه لم يوكل أحداً . والأمر بتشكيل المحكمة لايحتم وجود محام مع المتهم أثناء المحاكمة فضلاً عن أن القضية معدة والشهود موجودون » .

أى والله هذا ماقاله المدعى العسكرى... إنه يقدم متهما بادعاءات عقوبتها الإعدام ويطلب محاكمته بدون محام يدافع عنه لأن أمر تشكيل المحكمة لايحتم وجود محام .. هكذا كان الأمر مخالفاً لأبسط مبادىء العدالة وكل الدساتير فى العالم التى تكفل للمتهم حق الدفاع عن نفسه .. ولكن دستور عبد الناصر كان خلاف كل الدساتير كما كانت أفعاله خلاف كل الأفعال .

ويلتقط رئيس المحكمة خيط الكلام من المدعى ويتوجه بالأسئلة إلى المتهم الواقف أمامه بلا حول ولا قوة ويسأله : عايز حد يدافع عنك ؟.

ويتعلق محمود عبد اللطيف ببصيص من نور الأمل ويهمس :

أيوه .. عايز ياافندم

ويدور أغرب حوار بين رئيس محكمة ومتهم يسأله رئيس المحكمة :

مين ؟ ويرد المتهم : محمود سليمان غنام

ويفاجئه رئيس المحكمة وكأنما يقرأ الغيب ويسأله : وإذا ماقبلش ؟

فيرد محمود : يبقى فتحى سلامه . ويكرر رئيس المحكمة : وإذا ماقبلش فيرد محمود : يبقى مكرم عبيد — ويسد رئيس المحكمة أمامه كل الأبواب — ويسأله : وإذا ماقبلش ؟ وكان رئيس المحكمة يتوقع من المتهم أن يجيب : يبقى أمرى لله وأترافع عن نفسى — ولكنه خيب أمله وقال يبقى أى واحد تانى .

ويلتفت جمال سالم إلى ناحية المدعى ويصدر قراره ونصه :

على مكتب الادعاء أن يتصل بالمحامين الذين ذكرهم المتهم بالترتيب ، فإذا حضر أى واحد منهم كان بها .. وإلا انتدب أى محام آخر . وتؤجل الجلسة ٤٨ ساعة وتعقد فى الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس ١١ نوفمبر .

ونفذ مكتب الادعاء قرار المحكمة أو هكذا نشر فى الصحف صباح اليوم التالى :

اتصل المدعى أولًا بالأستاذ محمود سليمان غنام وصرح المدعى العسكرى أنه اعتذر لأنه أصلا يستنكر الجريمة ولا يمكنه أن يترافع عن المتهم من الناحية القومية لأنه يستنكر استخدام أساليب العنف فى الجدل السياسى ـــ هكذا !!

واتصل المدعى بعد ذلك بالأستاذ فتحى سلامه وقال المدعى إنه هو الآخر اعتذر لسببين أولهما الشعور الوطنى والآخر احتقاره للمجرم الأثيم .. هكذا !! واتصل المدعى بآخر المحامين الثلاثة وهو مكرم عبيد .. وقال المدعى إنه قال حين فوتح برغبة المتهم : غريب أن يطلب منى الدفاع عن المتهم فأنا لاأستطيع أن أدافع عمن يعتدى على الرئيس جمال عبد الناصر فهذا إجرام خطير .. هكذا !!

وقالت الصحف استكمالاً للخبر السابق والذى أملاه عليها مكتبُ الادعاء إن مكتب الادعاء خاطب نقابة المحامين فاجتمع مجلس النقابة فى الحال برياسة عمر عمر نقيب المحامين واتصل ببعض المحامين .. ولكنهم رفضوا جميعاً .. هكذا !!

ولن أعلق على هذا الجزء من المسرحية .

وانعقدت الجلسة الثانية للمحاكمة يوم الخميس ١١ نوفمبر ١٩٥٤ .. والكل يعتقد أن المحاكمة ستتم بدون محام يعكر صفوها .. ويفاجأ الجميع أن محامياً كبيراً هو المرحوم حماده الناحل يقف معلناً تطوعه للدفاع عن المتهم بعد أن قرأ اعتذارات زملائه .. ولأن شرف المهنة يقتضيه أن يقف مدافعاً عن المتهم .

وكانت جرأة حماده الناحل وتمسكه بمبادىء المهنة وشرفها سببا لأن يتعرض بعد ذلك لأبشع أنواع التعذيب ودخل السجن ولفقت له القضايا هو وغيره من المحامين الذين كانوا يتطوعون للدفاع عن المتهمين أمام محاكم عبد الناصر الاستثنائية ..

ويتحفز رئيس المحكمة للمحامى الجرىء .. ويرفض كل طلب يتقدم به لمعاونته فى مهمته للدفاع عن المتهم .. كان يرفض الطلب قبل أن يكمل المحامى كلامه .. واتخذ رئيس المحكمة منذ اللحظة الأولى موقف المهاجم دائماً لكل شاهد .. وكان كل الشهود من المتهمين أيضاً .. يحاول أن ينكر أقواله التى سبق أن أبداها فى التحقيقات تحت الظروف المعينة التى يعرفها الجميع .

صور ومهازل من المحاكمة :

وإليك بعض المهازل أو الصور المبكية لمصرع العدالة .. وأنا أنقلها كما نشرتها الصحف فى ذلك الوقت وهى تنشر كل تفاصيل محاكمة الإخوان .

فى خلال سماع أقوال على نويتو أحد أعضاء الجهاز السرى وأثناء مناقشته عن هدف الجهاز قال الشاهد : إن الغرض من الجهاز هو تدريب شباب الإخوان المسلمين لتكوين جيش إسلامى لمعاونة حركات التحرر فى الدول الإسلامية كالجزائر وتونس ، كما يتدرب الإخوان ليساهموا فى معارك فلسطين ومعارك القناة ضد قوات الاحتلال .

ـــ سنواجه الشاهد بأقواله فى التحقيق إذ قرر مايأتى : وكانت تلك هى الحقيقة التى من أجلها انخرط آلاف الشبان فى جماعة الإخوان المسلمين ـــ ووقف المدعى العام يقول :

« الجيش الإسلامى كان سيقاوم الحكومة التى لاتحكم بالقرآن ، وأحضروا لنا الأسلحة للتدريب العسكرى . أما عن الخطة فكانوا بيقولوا لازم الشعب كله يقوم بثورة !!

وقال على نويتو : مش دى أقوالى

وصرخ فيه رئيس المحكمة : مش مضيت على أقوالك ؟

ويرد الشاهد : أنا ماقرأتش الأقوال دى ـــ ويضحك رئيس المحكمة ويقول للمدعى :

ياريت كنتم خليتوه يوقع على شيك ب ٥٠٠ جنيه ـــ ويرد المدعى ضاحكاً : ياريت ياافندم ..

ولم يحقق رئيس المحكمة أقوال الشاهد .. ولا كيفيه توقيعه على أقوال لم يقلها .

ويقول صالح : إن كل متهم من أعضاء الإخوان المسلمين كانوا يرغمونه على التوقيع على أقوال .. دون سماعها .. كانوا يوجهون الأسئلة على الورق .. ويضعون لها الإجابة .. ثم يكلفون المتهم بالتوقيع .. ومن كان يحاول أن يقرأ أو يعترض يتعرض لكل أصناف التعذيب .

وكانت تلك صورة تتكرر مع كل شاهد .. ومع كل متهم .. كان رئيس المحكمة جمال سالم يعتقد أنها مؤامرة حقيقية ولم يخطر بباله أن الأوراق التى أمامه كلها مزيفه ـــ تماماً كما اعتقد زملاؤه أن ثورة الشعب والمظاهرات فى أزمة مارس كانت ثورة تلقائية سببها تعلق الشعب بهم .. ثم اكتشفوا بعد ذلك أنها كانت ثورة مدبرة دفع أجر لقيامها أربعة آلاف جنيه إلى الصاوى أحمد الصاوى رئيس نقابة عمال النقل وأن الذين حركوا المظاهرات هم مجموعة الضباط الذين جمعهم عبد الناصر من غرزالحشيش والمواخير كما وصفهم كمال الدين حسين ..

ولعل الدليل الأكيد على أن الرئيس السابق عبد الناصر كان لا ينقل إلى زملائه

الحقيقة أبداً .. إنما كان يعطيهم دائماً لاتصالاته الصورة التى يرسمها بنفسه .. هو ما حدث خلال جلسات تلك المحاكات عندما كان المرحوم منير الدلة أحد زعماء الإخوان المسلمين وواحداً ممن كانوا على صلة بعبد الناصر حتى إنه رشحه للوزارة عام ١٩٥٣ .. يدلى بشهادته أمام المحكمة ودار بينه وبين رئيس المحكمة الحوار التالى :

سأله : رئيس المحكمة : هل تذكر يوم ما رحت مع صلاح شادى إلى جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٥٣ وطلبتم منه أن تعرض عليكم مشروعات القوانين قبل صدورها ؟ وأجاب منير دلة :

إحنا قابلنا جمال عبد الناصر لنبدى له أن الإخوان المسلمين يؤيدون الثورة ، وتطرق الحديث بين الرئيس وبين صلاح شادى إلى موضوع القوانين وقال له صلاح : حبذا لو عرض الحاكم مشروعات القوانين على الشعب قبل إصدارها ودا كان رأى شخصى ولم يكن رأى الجماعة .

وقاطعه جمال سالم صارخاً : انتم قلتم لازم الحكومة تعرض القوانين على الجماعة فقال لكم : الحكومة لا تقبل وصاية الإخوان والحكومة تمثل الشعب أكثر من الإخوان .

ورد الشاهد : أنا أقسمت على كلامى ـــ ولم يتركه جمال سالم يكمل بل قاطعه قائلا :

إحنا كان أقسمنا اليمين بيننا وبين ربنا .

فقال الشاهد : أنا أروى الواقعة كما حدثت .

فصرخ جمال سالم : كلامك ده فيه نوع من الاتهام لجمال عبد الناصر إنه مش عارف ينقل الكلام صح ..

* * * *

ولفريد عبد الخالق فى تدبير هذه المحاولة رأى يقول فيه :

لاشك أنها كانت محاولة وهمية لاغتيال عبد الناصر .. فلم يكن أحد ابتداء من المرشد إلى أعضاء مكتب الإرشاد يفكر فى اغتيال عبد الناصر .. بل إن المرشد هو الذى استجاب لنداء عبد الناصر بحل الجهاز السرى عندما طلب منه ذلك وأعلن أن لا سرية فى الدعوة .. وعندما رفض عبد الرحمن السندى حل الجهاز عزله وعين يوسف طلعت بدلاً منه تمهيداً لتصفيته .

وقال فريد : إن المعلومات التى وصلته هى أن الحكومة هى التى دبرت المحاولة

للتخلص من الإخوان ، وأن محمد الجزار الذى كان ضابطاً فى القلم السياسى قبل الثورة واتهم فى الاشتراك فى حادث اغتيال الإمام حسن البنا كان يتردد على مركز الإخوان المسلمين محاولاً تبرئة نفسه أمام قادة الإخوان .

وفى إحداى مرات تردده وكانت العلاقات بين الحكومة والإخوان متوترة سمع المرحوم هنداوى دوير وكان من الشبان المتهورين يردد « لازم نقتل جمال » .. والتقط الخيط وذهب إلى المباحث العامة فى محاولة للتقرب من السلطات وأبلغهم أن هنداوى دوير يدبر خطة لاغتيال جمال عبد الناصر .

ووجدها المسئولون فرصة .. تعقبوا هنداوى وعلموا أنه يرأس خلية فى امبابه أعضاؤها طلبة بالجامعة والسمكرى محمود عبد اللطيف .. ووقع اختيارهم على تدبير المحاولة وإسنادها إلى محمود عبد اللطيف ليكون بداية خيط للتخلص من الإخوان .

واختاروا الزمان والمكان .. ونفذت الخطة .. اختطفوا محمود وأخذوه إلى الاسكندرية ومعه مسدس عثروا عليه فى منزله ..

واقتاده ثلاثة منهم إلى ميدان المنشية .. وأجلسوه فى الصفوف الأمامية وأحاطوا به .. وفى لحظة الصفر أطلق أحدهم .. ولابد أنه من أمهر الرماة ثمانى رصاصات لم تصب واحدة منها أحداً من الذين فوق المنصة رغم كثرة عددهم باستثناء إصابة سطحية للمحامى أحمد بدر بينما أصابت الرصاصات اللمبات الكهربائية .

ويؤكد ذلك أن الجماهير قبضت على ثلاثة كانوا مع محمود عبد اللطيف ثم لم يأت ذكرهم بعد ذلك .. كما أن المسدس الذى كان مع محمود تبين أن طلقاته ليست من نفس نوع الطلقات التى أطلقت .. وبعد الإعلان أنه تم ضبطه وفى يده المسدس عادت الصحف ونشرت أن عامل بناء عثر على المسدس الذى استخدم فى الحادث .. واختفت سيرة المسدس الأول تماماً — كما أن المحكمة لم تستمع إلى أقوال الذين قيل إنهم قبضوا على الجانى ولا إلى أقوال عامل البناء رغم أهمية شهادتهم — ولعل ذلك يرجع إلى خوف المسئول عن تدبير الحادث أن يخطئوا فى أقوالهم فيكشفوا عن أن الحادث كان مدبراً .

وهناك رواية أخرى تتلخص فى أن المحاولة تمت بتدبير بين عبد الناصر وهنداوى دوير الذى استطاع أن يقنع محمود عبد اللطيف بضرورة اغتيال عبد الناصر وأعطاه المسدس ورسم له الخطة .. بينما نفذ إطلاق الرصاص أحد أعوان عبد الناصر بمسدس آخر — ويؤكد هذه الرواية أن هنداوى قام بتسليم نفسه بعد وقوع الحادث مباشرة . ولو كان مشتركاً فى الجريمة فعلا لظل هارباً حتى يقبض غليه . إنما سلم نفسه حتى يسرد اعترافات تطيح بكل جماعة الإخوان وبالرئيس محمد نجيب على أمل أن يكون له مكان مرموق بعد

ذلك .ولكن عبد الناصر تخلص من الشاهد الوحيد ضده الذى يكشف الحقيقة بإعدامه . وكان ذلك سبباً فى أنه كان يردد وهو فى طريقه إلى المشنقة : ضحكوا علينا . . ماكنش دا اتفاقنا .

* * *

الباب الأول

نظرة إلى
الإخوان المسلمين
قبيل قيام الثورة

الفصل الأول

مكانة الإخوان المسلمين
فى ذلك الوقت
أمام الرأى العام

بعد هذه العجالة التى استعرضت تطور العلاقات بين ثورة ٢٣ يوليو وبين الإخوان المسلمين ، يجدر بنا أن نوضح للقارىء مكانة الإخوان المسلمين فى المجتمع المصرى وقت قيام هذه الثورة وقبل قيامها ، وحتى لانترك فجوة بين حقبتين من التاريخ ، لاسيما أمام جيل الثورة ، وهو الجيل الذى نشأ بعد يوليو ١٩٥٢ وتلقى معلومات معينة وقفت بالتاريخ فى نظره عند يوليو ١٩٥٢ باعتباره أول تاريخ بلاده الحديث .

ونحن وإن كنا قد اشبعنا هذه النقطة من قبل شرحاً وتوضيحاً ، وألقينا عليها الأضواء من كل جانب ، بحيث أبرزت أحداثها مكانة الإخوان المسلمين فى المجتمع المصرى قبيل قيام الثورة .. فإن ذلك لايمنع — تيسيراً على القارىء — من أن نستعير آخر صورة أوردناها فى هذا الصدد ليكون القارىء على ذكر منها فنقول :

كانت القوى المهيمنة فى مصر قبل قيام الثورة ثلاث قوى : قوة حزب الوفد، وقوة الأحزاب الأخرى، وقوة الملك . ولعل القارىء — بمتابعة ماقرأ فى هذه المذكرات من احتكاك بين الإخوان وبين كل من هذه القوى الثلاث — قد استطاع أن يتصور مدى ماكان لكل واحدة من هذه القوى من نفوذ ، وأنها بمجموعها قد استحوذت على السلطة ، وأنها تقاسمتها فيما بينها فأخذت كل واحدة منها بنصيب ، محاولة أن تغير على الأخرى لانتهاب جزء من نصيبها .. لكن السلطة والنفوذ فى نهاية الأمر لاتخرج عن نطاق هذا الثلاثى المحتكر المسيطر .. أما الشعب المسكين فكان هو النهب المباح والغنيمة الباردة لهذه القوى .

وظهرت دعوة الإخوان المسلمين وسط هذه السيطرة، وفى غمار هذا الاحتكار الذى يؤيده الاستعمار . ولقيت مالقيت من تصدى هذه القوى لها تصدياً لاهوادة فيه .. وكان لكل من هذه القوى معها دور أو أدوار ، تحت عين الاستعمار وبتوجيهه وتأليبه ... كان كل

دور منها كفيلاً بالقضاء على هذه الدعوة واستئصال شأفتها لولا ماتسلح به رجالها من إيمان بالله ، ولولا ماألهم الله به قادتها من حكمة وثبات ..وقد أومأت فى خلال مامضى من هذه المذكرات إلى دور أو أكثر مما كان للدعوة مع كل من هذه القوى .

ثم كان آخر هذه الأدوار الدور الذى استجمع الكل قواهم ـــ بعد أن استنفد الوفد كل ما فى جعبته من سهام ـــ ووجهوا الضربة القاضية التى أشرت إليها ، والتى ماكان أحد يظن أن تقوم للإخوان بعدها قائمة .. وشاء الله أن يخيب ظن الجميع ، وأن ترجع الدعوة للحياة أقوى مما كانت ، أصلب عوداً وأقوى شكيمة .. مما ألقى الرعب فى قلوب الجميع .. وما كان أمامهم من سبيل غير الاستسلام والخضوع .

وإليك صورة من مظاهر هذا الاستسلام .. مما يلقى ضوءاً على مكانة الإخوان المسلمين فى المجتمع المصرى خلال تلك الحقبة من الزمن :

الوفد : بعد الحملة الشنعاء التى حملها الوفد على الإخوان فى النصف الأخير من الأربعينيات ، والتى تفرغ لها الوفد ، وجرَّد لها جميع أسلحته ، والتى أنشأ من أجلها جريدة يومية خصصها لهذه الحملة .. بعد إعلان هذه الحرب وخوضه غمارها .. وبعد ماتبعها من حملة الأحزاب الأخرى مجتمعة مع الانجليز والملك ، بما فيه من حل واعتقال واغتيال وتنكيل وتعذيب .. جاءت وزارة الوفد عام ١٩٥٠ فوجدت أمامها الإخوان المسلمين أقوى مما كانوا ، ووجدت الشعب حولهم أكثر التفافاً ، وبمبادئهم أشد تمسكاً .. فلم تجد مفراً من مد يد الود لهم .. ورأت ـــ تقرباً إلى الشعب ـــ أن تسارع بإلغاء قرار الحل الذى لم يكن إلغاؤه إلا تحصيل حاصل ، حيث كان الإخوان قد استردوا كل شىء كان لهم إلا دورهم . ثم رأت حكومة الوفد أن تزداد تقرباً إلى الشعب فأقدمت على مالم تكن تجرؤ على الإقدام عليه من قبل فأعلنت إلغاء معاهدة ١٩٣٦ .

وكان إلغاء حكومة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ دافعاً قوياً ألجأ الوفد إلى التقرب إلى الإخوان المسلمين وخطب ودهم . لأنه فوجىء بأن إلغاء المعاهدة قد أوجد فراغاً لايملؤه إلا قوة شعبية أخذت نفسها بأسلوب التضحية والجهاد .. ولم تكن هيئة فى مصر قد أخذت نفسها بهذا الأسلوب غير الإخوان المسلمين ، وقد جربوا أنفسهم فى ذلك الأسلوب فى فلسطين وأبلوا بلاءً حسناً .. ورأت حكومة الوفد شهداء الإخوان من طلبة الجامعات وغيرهم يتساقطون فى ميدان الجهاد ضد المستعمر .. ورأوا المرشد العام للإخوان المسلمين الرجل الوحيد القادر على إحباط مؤامرات الإنجليز يخف إلى دار البطريركية ويقابل البطريرك الأكبر الأنبا يوساب ويظهر معه أمام الصحافة العالمية متعانقين .

وأخرج الوفد من الحكم عقب حريق القاهرة وهو يعلم من هم أصحاب النفوذ المتغلغل فى نفوس الشعب ، ومن هم القادرون على مواجهة المتسعمر وأذنابه .

الأحزاب الأخرى : أسندت الوزارة إلى على ماهر ، فكان من أوائل ماعمد إليه وقد أسندت إليه الوزارة فى ٢٧ يناير ١٩٥٢ أن قابل المرشد العام فى اليوم الرابع من فبراير ، حيث مكثا يتحدثان ساعة ، ثم قابل المرشد وزير العدل ساعة أخرى .. ثم ظهرت الصحف بعد هذه المقابلة بأيام تقول : « استجابة لطلبات المرشد العام بادر رفعة على ماهر باشا رئيس الوزراء فاستصدر من مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة فى ٥ فبراير ١٩٥٢ قراراً بأن يعهد بأمر التدريب العسكرى للشباب من كافة نواحيه إليه بصفته وزيراً للحربية والبحرية بدلاً من وزير الدولة . وله أن يتخذ جميع التدابير والإجراءات اللازمة لذلك . وستقدم وزارة الحربية الأسلحة والأدوات اللازمة لتدريب الشباب وإقامة المعسكرات لهم » .

وتوالت اللقاءات بين رئيس الوزراء والمرشد العام . وكانت اللقاءات تتم بينهما منفردين دائماً بناءً على رغبة المرشد العام : حتى تحدد ميعاد للقاء بينهما فى ٢٧ فبراير ١٩٥٢ ، وذهب المرشد العام إلى رئاسة مجلس الوزراء ، فلما دخل مكتب رئيس الوزراء فوجىء بوجود جميع رؤساء الأحزاب ... وكان لهذه المفاجأة معنى خاص فيما نحن بصدده .. وقد يلمح القارىء هذا المعنى من بين ثنايا مانشرته جريدة « المصرى » فى اليوم التالى تحت عنوان « تصريحات لفضيلة المرشد العام عن حل القضية المصرية حيث كتبت تقول :

علم « مندوب المصرى » من مصادر مطلعة أن فضيلة حسن الهضيبى بك المرشد العام للإخوان المسلمين كان قد أبدى رغبته لرفعة على ماهر باشا منذ بدأ مشاوراته لتشكيل الجبهه السياسية فى أن يبدى فضيلته آراءه لرفعته كلما شاء دون التقيد باجتماعات تضمه مع آخرين . ولذلك فوجىء فضيلته أمس الأول حين دعى للاجتماع برفعة على ماهر باشا فإذا بمكتب رفعته يضم الجميع دفعة واحدة .

وعلم المندوب أن فضيلته حين دخل على رفعة على ماهر باشا أمس الأول فى مجلس الوزراء كان يعتقد أن رفعته انتهى من مشاوراته مع بقية رؤساء الأحزاب وأن فضيلته سيجتمع برفعة على ماهر باشا وحده ، ولذلك كان عقد الاجتماع من الجميع دفعة واحدة مفاجأة لفضيلته .

فلما سئل عن رأيه أثناء الاجتماع المذكور قال فضيلته « إننى سبق أن بينته لرفعة رئيس الوزراء » فقال هيكل باشا لفضيلته : هل تسمح أن تذكر لنا ماقلته لرفعته ؟ فقال فضيلته « إن رأينا صريح فى أنه لامفاوضة ولا اتفاق مع أحد » وقد اكتفى فضيلة المرشد العام بذلك مفضلاً عدم الدخول فى مناقشة طويلة مع هيكل باشا .

وسأل المندوب فضيلته عن السبب فى اختياره للإدلاء إلى الصحفيين بنص البيان المشترك الذى نشرته الصحف أمس عن الاجتماع برفعة على ماهر باشا ، وهل يفهم من هذا البيان أن المجتمعين فيه كونوا جبهة واحدة معاً ؟ فقال فضيلته : إن المجتمعين اتفقوا

على أن تلقى هذه الكلمة على الصحفيين . واقترح مكرم باشا أن ألقيها .. ومادام قد تم الاتفاق عليها فأى منا يلقيها ، وإلقاؤها لايحمل أى معنى .. ولكن ليس معنى ماحدث أننا كونا جبهة واحدة . والإخوان المسلمون مستقلون فى إبداء آرائهم ولن يكونوا جبهه مع أحد » .

وكان البيان الذى ألقاه المرشد العام هو « لقد تبادلنا الرأى فى الموقف السياسى والجميع متفقون على تحقيق أهداف البلاد » .

فالقارىء بغير ماجهد أو إمعان فكر يستطيع أن يرى فى هذا النص الصحفى دلالات منها :

١ ــ ان الحكومة ترى فى عقد لقاءاتها مع الإخوان المسلمين مايطمئن الشعب إلى حسن نيتها وسلامة وجهتها وجدية موقفها .

٢ ــ إن الحكومة تتلمس مايرضى الإخوان فتعلن اتجاهها إليه وأخذها به ووضعه موضع التنفيذ تقرباً إلى الشعب وإرضاء لمشاعره .

٣ ــ أن الأحزاب المختلفة ــ على تعددها وادعائها تمثيل الشعب ــ لم تر فى التفافها جميعاً حول رئيس الوزراء ــ المؤيد من الوفد أيضاً ــ مايكفى لإقناع الشعب ولا لإقناع الإنجليز بأنهم الجبهة الممثلة للأمة ، ولابد من وجود هيئة على رأسهم هى متجه الأنظار وموضوع تقدير الجميع .

٤ ــ أن هذه الهيئة ترى نفسها ــ كما يراها رؤساء الاحزاب فى قرارة نفوسهم ــ أرفع من أن يضمها معهم اجتماع ، فلجئوا إلى تدبير مايشبه الكمين ليحظوا بالظهور أمام الرأى العام وهذه الهيئة بينهم .

٥ ــ تعبيراً عن التقدير والاحترام ، وإقراراً منهم برفعة مكانة هذه الهيئة رأوا أن يتكلم باسمهم جميعاً ممثل الإخوان المسلمين أمام الرأى العام عن طريق الصحافة .

٦ ــ أن هذه الأحزاب كانت حريصة على معرفة رأى الإخوان ، علماً منهم بأنه هو الرأى الذى يجب أن ينزل الجميع عليه ، لأنه هو الرأى الذى تسنده القوة الشعبية المنظمة المتغلغلة فى جميع الأوساط .. وبدا تلهف الأحزاب على معرفه هذا الرأى فى الاستفسار الذى وجهه هيكل باشا إلى المرشد العام تو دخوله الاجتماع .

٧ ــ أن رد المرشد العام على هيكل باشا كان يحمل فى اقتضابه معنى التبرم من مجرد ضم الاجتماع له معهم .

٨ ــ إعلان المرشد العام على صفحات الصحف ــ بعد الاجتماع ــ أن الإخوان المسلمين مستقلون فى إبداء آرائهم وأنهم لن يكونوا جبهه مع أحد .. أسلوب

لايجرؤ على الجهر به وإعلانه على الملأ إلا إنسان يشعر أن أسباب القوة قد اجتمعت كلها فى يده ، وأن توجيه الأمور أضحى طوع أمره .

٩ ــ أن الإنجليز حين أحسوا بأن الوزارة والأحزاب قد التزموا برأى الإخوان وألقوا إليهم بالقياد ــ عملوا على التخلص من رئيس الوزراء على ماهر ، لعل غيره يأتى متحرراً من الخضوع لنفوذ الإخوان . فبعد يوم واحد من إعلان قرار هذا الاجتماع أسقط الإنجليز على ماهر ، بمضايقته ــ متضامنين فى ذلك مع الملك ــ مضايقة لم يستطع معها البقاء .

وخلف على ماهر فى الوزارة أحمد نجيب الهلالى الذى لم يختلف عن سابقه فى شىء إلا فى مبادأته حزب الوفد بالعداء فى ظل سياسة سماها « سياسة التطهير » ــ أما سياسة الالتزام بإلغاء المعاهدة ومواجهة الإنجليز ــ ولو ظاهراً ــ فلم يستطع أن يعلن تخليه عن شىء منها ، وظل على سياسة اللقاءات مع المرشد العام .

وحل الهلالى مجلس النواب وأعلن عن موعد لإجراء الانتخابات ــ وطلب رأى الإخوان فأعلنوه برفضهم خوض معركتها ، فلم يقنع بهذا الإعلان وطلب منهم أسباب الرفض فأوضحوا له أسباب الرفض فى مذكرة ... فأجل موعد إجراء الانتخابات أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يحاول جر الإخوان إليها .. وقد أفضنا من قبل فى موقف هذه الوزارة من الإخوان والانتخابات ومحاولاتها المستميتة لجرهم إلى خوضها وإصرار الإخوان على الرفض ــ وكأن هذه الوزارة إنما جىء بها لتحقيق هذا الغرض فلما فشلت فى تحقيقه أسقطت .. ولا داعى لذكر حكومة تالية لهذه الحكومة .. وحسبك أن تعلم أنها لم تعمر أكثر من عشرين يوماً .

الملك : هو القوة الثالثة فى البلاد ــ وكان برغم الصعوبات التى أحاطت به فى تلك الحقبة ــ قد استطاع لأول مرة أن يسيطر على القوتين الأخريين معاً ، فقد استطاع أن يطوى الوفد تحت جناحه وأن يسلكه ضمن المسبحين بحمده ، المتغنين بمجده ، المتقبلين للطماته بالشكر والامتنان .. ولا تستطيع أن تقول إن ذلك كان وليد قوة طرأت على مركز الملك ، وإنما كان نتيجة الضعف الذى تطرق إلى أعصاب حزب الوفد ، بعد أن طالت أيام بعده عن الحكم وتحرق شوقاً إلى جلسة طويلة على كراسيه .

هذا الملك ــ مع تحقيقه مالم يكن يحلم به يوما من الأيام من السيطرة على جميع الأحزاب فى مصر ــ لم يشعر أنه حقق شيئاً يذكر من القوة يستطيع أن يركن إليه للاطمئنان على عرشه وللثبات فى مركزه .. لأنه ــ أحس لأول مرة ــ أن هناك مركز ثقل جديد انتقل إليه النفوذ الشعبى ، وأن عرشه قد أضحى بين إصبعين من أصابع هذه القوة الجديدة .

وتذكر أن بين هذه القوة وبينه ثأراً قديماً .. وتذكر أنه هو الذى سلط عليها من قبل زبانيته فشردوا أعضاءها وملأوا بهم السجون والمعتقلات ، وساموهم ألوان العذاب ، واغتالوا مؤسسها . وأوهمه زبانيته بعد أن اغتالوا مؤسسها أنه قد آن له ان ينام مطمئناً على عرشه ملء جفنيه — وتذكر فيما تذكر أن هذا المؤسس طالما طلب وألح فى الطلب أن يجتمع به ولكنه كان فى كل مرة يرفض فى صلف أخذاً بنصيحة زبانيته ، الذين كانوا يعلمون أن لقاءً واحداً بين هذا الرجل وبين الملك كاف لإصلاحه وتوجيهه إلى الخير .. وهو ماكانوا حريصين على الحيلولة دون تحقيقه .

جاء فى شهادة الأميرلاى أحمد كامل قائد بوليس القصور الملكية أمام المحكمة عند نظر قضية اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا قوله « كان الملك متخوفاً من الإخوان المسلمين كثيراً ، لدرجة أنه كلفنى فى ذلك الوقت أن أشدد الحراسة عليه فى تنقلاته ، وعمل حواجز حديدية على الأبواب الرئيسية لسراى القبة وعابدين لإجبار السيارات الداخلة إليها على الوقوف والتحقق ممن فيها — كما طلب منى إخراج المستخدمين والموظفين الذين ينتمون إلى جماعة الإخوان المسلمين من السرايات والتفاتيش الملكية — واعتقادى أن هذا الحادث ارتكب لحساب الملك السابق والحكومة .

وهكذا دارت الأيام ، وعمل الزمن عمله ، وحقق الله تعالى سنته فى خلقه ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ واكتشف الملك أخيراً أنه كان مضللاً حين أوهموه أنه قد آن له أن يأمن كل الأمن وينام ملء جفنيه .. كيف وقد رأى نفسه يواجه أضخم قوة شعبية مسيطرة يتقرب إليها الجميع ، ويلتمسون رضاها — حتى زبانيته أنفسهم — ولم تكن هذه القوة إلا جماعة الإخوان المسلمين التى أوهموه أنهم قد قضوا عليها .

هذا الملك الذى رفض من قبل فى صلف وكبرياء طلبات تقدم بها مؤسس هذه الدعوة أكثر من مرة للالتقاء به .. وجد نفسه مضطراً أملاً فى الاحتفاظ بعرشه — أن يستجدى لقاءً بينه وبين مرشد هذه الهيئة الجديد .. وبعد لأى .. تم اللقاء .. ولكنه كان على الصورة التى وصفناها فى باب سابق .. وأيقن الملك بعد هذا اللقاء أن الوقت المناسب قد مضى ، وأن القطار قد فاته ، ولا أمل فى استرضاء هذه الهيئة بعد أن ضيَّع — بتضليل مستشاريه — كل الفرص المواتية .

وأحس الملك أن نهايته صارت قاب قوسين أو أدنى فصار يتخبط تخبط التائه فى لجة بحر صاخب لايدرى أين يتجه ولا إلى أين تحمله الرياح .

* * * *

وقد يظن القارىء أن الإخوان المسلمين بتبوئهم هذا المكان العلىّ بين هذه القوى

الثلاث قد آلت إليهم السيطرة السياسية وحدها دون السيطرة الاجتماعية فنقول :

إن القوى السياسية فى مصر المتمثلة فى الأحزاب والملك إنما هى فى ذاتها وجه آخر للقوى الاجتماعية فى البلاد ، ذلك أن هذه الأحزاب لم تكن إلا واجهة سياسية للإقطاعيين المستغلين الذين كانوا يملكون الأرض ومن عليها . كما أن الملك وحده كان الإقطاعى الأكبر الذى لم يكتف بذلك بل كان همه أن يملك — فيما يملك — الإقطاعيين الآخرين .

ولم يصل الإخوان المسلمون إلى ماوصلوا إليه من مكانة مسيطرة فى تلك الحقبة من الزمن إلا بعد أن خاضوا ضد هذا النوع من الإقطاع غمار معارك دامية — كنا أشرنا إليها من قبل وليس هنا مجال تفصيلها — ولكن حسبك أن تعلم أن شُعَبَ الإخوان المسلمين فى العاصمتين وفى أحشاء الريف ، كانت مثابة للضعفاء والفقراء من العمال والفلاحين وذوى المهن ، وأمناً يأوون إليه فى أوقات فراغهم ، فيجدون الصدور الحانية والقلوب المحبة .. وفى ظل هذا الإشراق الروحى ، والتوجيه القرآنى يبدأون — لأول مرة فى حياتهم — يشعرون بوجودهم ، ويحسون بقيمتهم ، ويعرفون أن لهم حقوقاً .. لاتلك التى تحددها القوانين ، وإنما تلك التى منحها الله عباده يوم أنزل القرآن فقال : ﴿ **ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

ومن هنا كان الجفاء دائما بين هذا النوع من ذوى القلوب الصماء من الإقطاعيين وبين هذه الشُعَبْ التى اعتبروها سرطاناً أصيبت به قراهم وبلادهم .. وتفاوتت درجات الصراع بين هؤلاء الطغاة وبين الشعب حتى وصل الصراع فى بعضها إلى سفك الدماء .. وكانوا دائما هم المعتدين .

* * *

هذه لمحة خاطفة قصدنا من إيرادها فى هذا المقام أن نلفت الذين نظروا فرأوا بخاراً دفع عجلات القطار فتحركت واندفع القطار بعد سكون فسألوا البخار من أين جئت ؟

فقال لهم لقد أوجدت نفسى بنفسى ولا فضل لأحد علىّ .

فانبهروا بما فعل البخار وصدّقوا ادعاءه .. وشغلهم انبهارهم بما فعل البخار عن أن يعرضوا هذا الادعاء على عقولهم ، حتى تمحصه هذه العقول ، وتخبرهم بأن ادعاء البخار ادعاء باطل ... ولابد أن أصل البخار كان ماء بارداً بل إنه كان لشدة برودته ثلجاً .. ثم تولّته يد صناع بدفئها — صابرة على هذه البرودة حتى انصهر وصار ماءً سائلاً ، فأحكمت قبضتها عليه ، وسلطت عليه من حرارة جسمها ونفسها حتى ارتفعت

حرارته..

وجاء قوم كانت مصلحتهم أن يظل هذا الماء ثلجاً جامداً ، ولم يتنبهوا إلى هذه اليد الدافئة التى تحتضنه إلا بعد أن تفكك الثلج وصار ماءً وارتفعت حرارته .. جاءوا فطاردوا هذه اليد لتدع الماء ولكنها تشبثت به ، فهبطوا عليها بهراواتهم ، فلم تجد معها الهراوات ، فجربوا مالديهم من أدوات الجرح والتعذيب تلقاها الجسم كله بصبر وإيمان واحتساب ، مدافعاً عن يده المتوالية أمر الماء ... ولم يدر بخلد أصحاب المصلحة هؤلاء أن ماينزلون به على هذا الجسد من الضرب والطعن يولّد فى هذه اليد حرارة جديدة عجلت بغليان الماء حتى تحول كله إلى بخار ، تفاقم ضغطه فانطلق فى وجه هؤلاء القساة فحطمهم تحطيماً .

هذه سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً ... الثورة هى مواجهة الشعب بشيء جديد غير الذى ألفه وكان يعيشه راغماً .. فإذا لم يكن هذا الشيء الجديد واقعاً من نفوس الشعب موقع الشيء المترقب المأمول ، وإذا لم تكن النفوس مهيأة لاستقباله ، معدة للتفاعل معه والترحيب به — إذا لم يكن ذلك كذلك فإنه سيقابل من النفوس بصدود ، ومن الشعب بالرفض والمقاومة .

والأشخاص الذين يظهرون على مسرح الثورات يكونون كالطفل الذى يولد ، فلا يطمئن أهل بلده إلى سلامة مولده إلا إذا عرفوا أباه وأمه . فإذا اطمأنوا إلى انتسابه إلى من يعرفون تلقوه بالقبول وهنأ بعضهم بعضاً بمقدمه ، وأفسحوا له من قلوبهم وغمروه بعواطفهم ... أما إذا لم يجد أهل البلد أن أحداً ممن يعرفون قد تقدم معترفاً بأبوته مسروراً بانتسابه إليه ، فإنهم يعتبرون الطفل لقيطاً فينفرون منه ، ويعرضون عنه ، ويعملون على التخلص منه .

* * *

والشعوب مهما اختلفت فى درجات الوعى فإنها تتفق فى مدى حساسيتها لقضايا مثيرة معينة . ومنذ بدأ النصف الأخير من الأربعينيات أخذ الشعب فى مصر يشعر بالإحباط وخيبة الأمل إزاء السلوك الشخصي للملك .. نعم إن الشعب لم يتخذ موقفاً إيجابياً من هذا السلوك ، لكنه كان يحس فى قرارة نفسه بالمقت والاشمئزاز .. وشرع يصنف العاملين فى حقل السياسة على أساس من هذا الشعور ...

واجريت الانتخابات العامة عام ١٩٥٠ — وكانت انتخابات حرة فعلاً وقد مارستها بنفسى وكنت رئيس لجنة فيها — وكان الشعب قد صنف المتقدمين لهذه الانتخابات على الأساس الذى أشرنا إليه .. فكان المنتسبون إلى الملك أو أحزاب الملك صنفاً .. والذين عرف عنهم أنهم يعارضون سلوك الملك صنفاً آخر .. وكان الصنف الأخير هو حزب

الوفد، ومن ورائه الإخوان المسلمون .. وأسفرت الانتخابات عن فوز حزب الوفد واندحار أحزاب الملك .

ثم رأى حزب الوفد بعد أن اعتلى كراسى الحكم ، وذاق حلاوتها أن يتشبث هذه المرة بهذه الكراسى . وخيل إليه أن هذه الأمنية لاتتحقق إلا إذا هو تغاضى عن سلوك الملك وسار فى ركابه ، وبذلك يقطع الطريق على الأحزاب الشكلية الأخرى التى يستدعيها الملك كل مرة حين يضيق ذرعاً بحكومة الوفد لوقوفها فى وجه أهوائه .. وهذه السياسة التى ارتآها حزب الوفد هذه المرة هى السياسة التى يحكم بها العقل المجرد لقوم نسوا أو تناسوا أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، وأنه تعالى يغير ولا يتغير وأنه تعالى ﴿ **يخلق مالا تعلمون** ﴾ .

وكان من نتيجة هذه السياسة الجديدة للوفد أن ارتكبت حكومته هذه حماقات ماكان يخطر ببال أحد أن يرتكبها الوفد ، منها سنُّ تشريع يحظر نشر أخبار الملك ، ومنع دخول مجلات أجنبية تصف مايرتكبه الملك من مهازل فى نوادى القمار بالخارج ، وسنُّ تشريع لتقييد حرية الصحافة .

وكان لهذه السياسة ضجة لفتت الأنظار ، وهبطت بمكانة الوفد فى النفوس .. وضم الشعب فى تصنيفه حزب الوفد — آسفاً — إلى الصنف الأول .. ولم يبق فى الساحة بعد ذلك من الصنف المعارض للملك إلا الإخوان المسلمون وفلول من تجمعات أخرى .

ولاشك فى أن الثورة التى كان الشعب يتمناها وينتظرها هى ثورة ضد الحكم فى مصر الذى صار الملك يمثله تماماً ولا يشذ عن ذلك حزب .

ولما كان آخر تصنيف صنفه الشعب للعاملين فى حقل السياسة لم يبق فيه فى خانة المعارضين للملك من الهيئات الشعبية المتغلغلة فى أحشاء البلاد إلا الإخوان المسلمون .. فقد تعلقت أنظار الشعب بهذه الهيئة ينتظرون منها عملاً .. فلما قام بهذا العمل أفراد لايعرف الشعب عنهم شيئاً ، راقبوا اتصالاتهم فوجدوها تتم بينهم وبين الإخوان المسلمين وفى بيوت قادة الإخوان المسلمين فاطمأنت قلوب الشعب ، وعلموا أنها الثورة المأمولة فرحبوا بها وساندوها .

سقت قصة البخار لأنها سنة طبيعية لاتتخلف لها ، تقوم عليها السموات والأرض ، ولأنها توضح تماماً علاقة هذه الثورة بدعوة الإخوان المسلمين .. فالثورة نبعت من هذه الدعوة ، وكانت النتيجة الحتمية لها ، والقائمون بالثورة كانوا من صفوفها .. ولو لم تقم هذه الدعوة فى الوقت الذى قامت فيه ، ولولا جهادها المستميت خلال ربع قرن من الزمن فى إيقاظ الشعب وتربيته وإعداده لما كان لثورة أن تقوم — ومع ذلك فأكرر ماسبق

أن قررته فى هذه المذكرات من قبل ، وهو أن الوصول إلى كراسى الحكم لم يكن هدف الإخوان وإلا لكان ذلك متاحاً لهم من قبل دون القيام بثورة فقد توالى على دست الحكم فى مصر من كان هو وشيعته أدنى من شعبة واحدة من شعب الإخوان المسلمين علماً ومواهب وثروة بالرجال .. وإنما كانوا يؤثرون دائما أن يجدوا من أتباعهم أو من غير أتباعهم من يلتزم بالحكم بكتاب الله ، على أن يكونوا هم من ورائه يؤيدونه إذا صدق ، ويبصرونه إذا التبست عليه الأمور ، ويذكرونه إذا نسى ، ويسندونه إذا اختل توازنه ، ويحمونه من نفسه ومن بطانة السوء ، ويقفون حائلاً بينه وبين منحدر الغرور والانحراف.

هذا هو الموقف الذى كان الإخوان قد اختاروه لأنفسهم ، واثروه على ماسواه من مواقف ولو أن جمال عبد الناصر — وقد اختار لنفسه أن يحكم — رضى بما اختاره الإخوان لأنفسهم من موقف ، لتجنب كثيراً مما وقع فيه من أخطاء ، ولوجد من ورائه من يسدده ، ويقيل عثرته ويشير عليه ، ويبصره ، ويحميه من نفسه ومن الانحدار الذى انتهى به وببلاده إلى الكوارث التى خلفها من بعده .

واقعة طريفة :

وإذ كان الإخوان المسلمون فى ذلك الوقت هم مناط الأمل ومتجه الأنظار ، صار المركز العام كعبة تأتى إليها الوفود من كل مكان .. وأذكر فى الأيام الأخيرة قبل الثورة بقليل أن جاء إلى المركز العام شابان أجنبيان يحمل كل منهما حقيبة صغيرة وكاميرا ، فتقدمت إليهما مستعرفاً فأخبرانى بأنهما صحفيان من السويد قدما ليأخذا حديثاً من المرشد العام — وكان المرشد العام منشغلاً مع آخرين ، فلما أخبرته بأمرهما طلب منى أن أجلس معهما حتى يفرغ من القوم الذين معه .

فجلست إليهما وتحدثت معهما فكان حديثهما معى مفاجأة لى ماكنت أتوقعها .. نعم إن مجيئهما من السويد إلى مصر للقاء المرشد العام مما لايحتاج إلى توضيح أن الإخوان المسلمين كما تألقوا فى سماء مصر وتعلقت بهم الأنظار ، فكذلك شعر المحللون السياسيون فى أنحاء العالم أن الدور صار دور الإخوان المسلمين وأن عصر الإخوان المسلمين مقبل لامحالة بعد المعارك الضارية التى استسلم فى نهايتها عهد الاستعمار وأذنابه ، فجاء هذان الصحفيان من السويد كما جاء أمثالهم من كثير من دول أوربا وأمريكا لاستطلاع آراء الإخوان المسلمين فيما ينتوون من سياسة الحكم الإسلامى فى مختلف الشئون .

وهذا ماتوقعت أن أسمعه من هذين الصحفيين . وفعلا كان أول سؤال وجهاه إلىّ هو : نحن نعرف أن الإخوان المسلمين يريدون أن يحكموا بالنظام الإسلامى . ولما

أحسسنا أن هذا النوع من الحكم أوشك أن يقوم فى مصر ، فقد رأينا أن نستفسر عن الطريقة التى تنفذون بها الحكم الإسلامى فى هذا العصر الذى نعيشه ..؟

ولما طلب منهما أن يحددا لى نواحى معينة من نواحى الحياة لأشرح لهما تعامل الحكم الإسلامى معها قال أحدهما : سنأخذ ناحية واحدة من نواحى الحياة مثلاً لذلك ، وهى ناحية المواصلات .. كيف تتعاملون معها بالنظام الإسلامى ؟ لقد أصبحت وسائل المواصلات بالترام والقطارات والسيارات بل والطائرات ضرورة لازمة فكيف تتعاملون إسلامياً مع هذه الوسائل .. والنظام الإسلامى وسيلة مواصلاته هى الجمال ؟!

فكان ماسمعته منهما مفاجأة لى اضطررت معها أن أشرح لهماالنظام الإسلامى شرحاً مستفيضاً أخبرانى بعده أنهما لأول مرة يعرفان هذه الصورة الرائعة عن الإسلام .

* * *

الفصل الثانى

نظرة إلى الإخوان المسلمين من الداخل

حتى تكتمل صورة الإخوان المسلمين فى هذه الحقبة من الزمن ـــ وقد ألقينا عليها الأضواء من خارجها ـــ ينبغى أن ننفذ بأبصارنا إلى داخل هذه الصورة ، لنرى ماكان يعتمل فى أعماقها من انفعالات وتفاعلات ، وما انطوت عليه أحشاؤها من أوجاع وآلام .. وبهذا التصوير الواقعى الشامل للصورة من خارجها ومن داخلها يكون الحديث عن تطور الأحداث بعد ذلك حديثا موصولاً واضحاً مقنعاً .. يحمل كل حدث فى نفسه مبررات حدوثه ... وليس أبغض إلى نفس قارىء التاريخ من أن يجد نفسه أمام أحداث مبتورة ، بترت عن مقدماتها ، وأخفيت عنه ظروفها ومبرراتها .

وإخفاء الظروف والمبررات ، يكون سوء النية عادة من ورائه .. ولكن كثيراً ما يحدث بحسن نية وبقصد التسامح والمجاملة .. غير أنه فى كلا الحالين يكون غمطاً للحق ، وتشويها للتاريخ ، وتضليلاً للذين يدرسون التاريخ يريدون أن ينتفعوا من دراسته .

ومركز الدعوة قبيل قيام الثورة وعند قيامها أمام الرأى العام المصرى والخارجى ، وإن كنا قد حاولنا إيفاءه حقه من التوضيح والبيان ، فإن هذا الجانب من صورة الإخوان المسلمين جانب ظاهر ومعروف ومشهور للكافة الذين عاصروه ، ومسجل فى الصحف والكتب ليطلع عليه من لم يعاصروه .. أما الجانب الآخر للصورة من داخلها فهو الجانب الغامض المعقد المغلق، الذى يقف أكثر المؤرخين عاجزين عن الغوص وراء أسراره . وقد يلجأ بعضهم إلى التأويل والتفسير ، وقد يلجأ آخرون إلى انتهاز هذا الغموض فرصة للخلط والتحريف والاختلاق .. ومن هنا كان حقاً علينا أن نجلى هذه الناحية بالقدر الذى مكنتنا ظروفنا فى هذه الدعوة من رؤيته .

ونظرتنا هذه من الداخل تتناول موقفين : موقف أولى القوة وموقف أولى القربى .

موقف أولى القوة

سبق لنا القول بأن النظام الخاص (أولى القوة) فى أواخر أيام الأستاذ الإمام رحمه الله قد خرج على الخط المرسوم له ، وأتى أفعالاً لاتتواءم مع وسائل الدعوة ولا مع أهدافها ، دون الرجوع فى شأنها إلى الأستاذ الإمام ، مما جعل الدعوة والأستاذ الإمام فى أحرج المواقف . وأشرنا إلى عزم الأستاذ الإمام على إعادة النظر فى هذا النظام ، لولا أن تفاقمت الظروف وعاجلته المنية ولقى ـــ رحمه الله ـــ ربه والإخوان فى السجون والمعتقلات .

وذكرنا فى موضع آخر من الجزء الثانى من هذه المذكرات عند الحديث عن الظروف التى أحاطت بالبحث عن مرشد عام جديد أنه كان هناك تياران أطلا برأسيهما فى ذلك الوقت ، هما (تيار أولى القربى وتيار أولى القوة) وذكرنا أن تيار أولى القربى قد انسحب من الميدان بعد قليل ، ولكن تيار أولى القوة كان له موقف آخر ، ووعدنا ببسط هذا الموقف فيما بعد . وقد آن لنا أن ننجز هذا الوعد حيث جاء موضعه فنقول :

خرج الإخوان من السجون والمعتقلات ، وعاد كل منهم إلى بلده وإلى أهله وإلى عمله . خرجوا موحدى الشعور ، ينبضون بنبض واحد ، وينطقون بلسان واحد ، ويتجهون وجهة واحدة ، يتجهون إلى القاهرة ، حيث قيادتهم ، ينتظرون منها التوجيهات ، ويتلقون منها التعليمات .

خرج الصف الإخوانى سليماً معافى كأنما لم تمر به محنة ، ولم تنزل به كارثة ـــ صحيح أنهم لم يكونوا قد استردوا دورهم ولا أموالهم ولا مستوصفاتهم ولا مدارسهم ولا مصانعهم بعد ، ولكن الرابطة الأخوية ـــ التى كان مقصوداً من كل مانزل بهم من عذاب وتنكيل تفتيتها ـــ خرجت من المحنة أقوى مما كانت .. وهذه الرابطة هى العروة الوثقى التى جاءت فى قوله تعالى ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾ .

ولكن الشيطان الذى أعجزه أن يفتن الإخوان عن دينهم بالسجن والحديد والنار استدار حولهم لعله يجد له منفذاً ينفذ منه إلى صفوفهم المتراصة كالبنيان المرصوص ، فلم يجد إلا منفذاً واحداً استطاع أن ينفخ فيه ، وينفث سمومه منه ، وكان هذا المنفذ هو تيار أولى القوة .

وقبل الشروع فى الحديث عن هذا الموقف يجدر بى أن أضع بين يدى القارىء حقيقة ينبغى تجليتها ، تلك هى أن النظام الخاص أو الجهاز السرى — كما يحلو للبعض أن يسموه — الذى تناولنا الحديث عنه فى الجزء الأول من هذه المذكرات نشأةً ووظيفةً ودوراً فى الدعوة — قد أدى دوره فى مختلف أطوارها خير أداء ، وكان مثلاً رائعاً مشرفا فى كل ميدان انتدب للنهوض بأعباء فيه ، ففى داخل مصر حمل العبء الأكبر من مطاردة الاحتلال البريطانى حتى طرده من القاهرة ، ثم لاحقه فى القنال حتى أطار من عيون جنوده النوم .. وفى خارج مصر حمل العبء الأكبر فى حرب فلسطين حيث سجل بطولات وألواناً من الشجاعة والتضحية والفداء بهرت العالم كله .

وظل هذا الأسلوب ديدن هذا النظام ، فكان دائما الجندى اليقظ ، والحارس الأمين لدعوته ولبلاده ولمثله التى بايع عليها ، وأعطى العهد على الوفاء بها .

لكن فئة قليلة ضمت بعض المتصدرين فى هذا النظام لعب الشيطان برءوسهم ، فاشرأبت نفوسهم إلى متاع الحياة الدنيا ، وأرادت الانحراف بهذا النظام عن طبيعته الصافية المستقيمة .. وما كان ينبغى أن يكون لفئة قليلة وسط هذه الجموع الزاخرة من المجاهدين الصادقين وزن يثير الاهتمام ويبعث على القلق — لولا أن رئيس هذا النظام كان على رأس هذه الفئة القليلة .

ومجتمعاتنا — نحن الشرقيين — لاتأتى معاناتها فى أكثر الأحيان إلا من رؤساء لما تمكنوا واستقرت لهم الأمور ، نسوا تاريخهم ، وقلبوا لمجتمعاتهم ظهر المجن . وصار هدفهم الأوحد الخلود فى مناصبهم مهما كان فى تحقيق هذا الهدف دمار هذه المجتمعات .

وانحراف هذا الرئيس وإعجابه برأيه لم يكن وليد هذه الظروف التى سوف نشرع فى الكلام عنها ، وإنما بدأ قبل محنة ١٩٤٨ بفترة قصيرة .. وكانت قيادة الدعوة فى ذلك الوقت عازمة على حسم هذا الموقف ولكن حال دون ذلك خطوب ملحّة جسام ، كان على الدعوة أن تواجهها قبل كل شىء .. وقد بسطنا الحديث عن هذه الخطوب فى الجزءين السابقين .. وقد انتهت مواجهة هذه الخطوب بالمحنة المدبرة .

* * *

وانجلت المعركة غير المتكافئة . وخرجت الدعوة الربانية من البلاء خروج السيف من الجلاء ... وظننا أن التجربة القاسية قد أصلحت ماتطرق إلى بعض النفوس من فساد ، وردت المنحرف إلى جادة الصواب .. ولكن تبين بعد ذلك أن شهوة السلطة

ولذة المنصب كانت أقوى من أن تطفىء نارها التجربة القاسية .

كنت فى تلك الأثناء بعيداً عن القاهرة ، مقيماً فى الصعيد فى بني مزار . ولم أكن أجهل أخبار القاهرة ، ولكننى لم أكن أعلم بتفاصيلها . وكنت مطمئناً إلى سهر الإخوة الكرام أعضاء مكتب الإرشاد على الدعوة بحكمة وإحاطة وتبصر ، لاسيما وأن أكثرهم قد ضربوا أروع المثل فى نكران الذات والتفاني فى الدعوة فقد أعلنوا جميعاً خلع أنفسهم من التصدى لمنصب المرشد العام عدا اثنين يمثل أحدهما ذوى القربى ويمثل الآخر أولى القوة .

كما أننى لم أكن قد نسيت مأساة اغتيال الخازندار ، فإنها لم تكن فى عرف قيادة الدعوة مأساة فى ذاتها بقدر ماكانت المأساة فيها أنها عرض خطير من أعراض تمرد على قيادة الدعوة ، وانطلاق فى جموح ... ولا زال يطن فى أذنى صوت الأستاذ الإمام يجأر بالشكوى إلى الله من تصرف رئيس هذا النظام .. ولولا ماعاجل الدعوة من ظروف قاسية تواترت عليها فى تلك الفترة لكان له معه موقف حاسم .

* * *

لم أكن أجهل شيئاً من ذلك ، ولكننى كنت أعتقد أن مامر بنا من محن كان كفيلاً أن يقوّم ماطرأ علينا من اعوجاج ، وأن يعود بالذين ضل بهم الطريق إلى الطريق السوى .. ولكننى فوجئت بأننى مطلوب فى القاهرة .. وعندما وصلت إليها أبلغت بأن هناك شغباً قد يودى بالدعوة من داخلها .

كان الإخوان فى ذلك الوقت قد اتخدوا لهم مقراً مؤقتاً غير رسمى فى منزل قديم بالعباسية ، يلحق به فناء كان حديقة فى يوم من الأيام ، فاتجهت إليه حيث التقيت بالأخ عبد العزيز كامل .. فقص علىّ الأخ عبد العزيز تفاصيل الموقف التى تتلخص فى أن إخوان النظام الخاص لايوافقون على أن يتولى منصب المرشد العام إلا من يرشحونه هم ، بحجة أنهم هم الذين تحملوا أشد المواقف ، وبذلوا أعظم التضحيات — وأخبرنى الأخ عبد العزيز بأنهم قرروا ترشيح الأخ صالح عشماوى .

سألت عن الأخ صالح فقيل لى إنك تجده فى المسجد القريب مقيماً به لايكاد يفارقه — فدخلت المسجد — ولم يكن وقت صلاة — فوجدت صالحاً قد أعفى لحيته ولم يكن قد أعفاها من قبل — واتخذ له فى المسجد مكاناً أشبه بالخلوة .. فسلمت عليه وجلست إليه ، وتحدثت معه فى موضوع المرشد العام .. فقال لى ياأخى محمود .. أنا من ناحيتى ماأردتها ولكن إخوان النظام هم الذين رشحونى ، وما كان لى أن أخالفهم — وقد أحسست من حديثه ومن حالته التى رأيته عليها أنه جاد فى الأمر ، وأنه يعد نفسه إعداداً

روحياً حتى يكون جديراً بالمنصب .

أما من ناحيتى فإننى لن أجد فى نفسى غضاضة أن أبايع صالحاً وأن أسمع له وأطيع — وقد صارحته بذلك .. ولكن الموضوع لم يكن بمثل هذه البساطة .. إذ هناك أمران خطيران يستتران وراء ترشيح صالح : أولهما أن الاخوة الكرام أعضاء مكتب الإرشاد الذين خلعوا أنفسهم رجاء اجتياز الدعوة الظروف التى تحدثت عنها — إذا رأوا صالحاً يتقدم للمنصب فإنهم سيعدلون عن خلع أنفسهم ويتقدمون للمنصب الذى قد يرى كل منهم أنه أحق به من صالح .. وهنا تتفرق الجماعة ويذهب ريحها . وأما الأمر الخطير الآخر .. وقد يكون هو الأشد خطورة — فهو الوسيلة التى رشح صالح عن طريقها .. إن مبدأ تسلط طائفة من طوائف الجماعة على الجماعة وإلزامها برأيهم تحت تأثير القوة هو مبدأ خطير ومدمر ، وقد يؤدى إلى إلغاء شخصية الجماعة ويحولها إلى مجموعة من المغامرين وقطاع الطرق .

وقد أحسست بعد لقائى بصالح وإصراره على موقفه بأن علىّ واجباً لابد أن أقوم به — وقد أكون لظروف معينة أقدر على القيام به من غيرى — ولم يكن هذا الواجب إلا عملاً إيجابيا واحداً .. هو مواجهة هذه الطائفة ... وأنا وإن كنت بعدت عن النظام الخاص للظروف التى ذكرت طرفاً منها فإننى أحتفظ بعلاقات طيبة مع أكثر قياداته وكثير من أفراده .. وكانت قيادات هذا النظام وعلى رأسهم عبد الرحمن السندى ينظرون إلىّ باعتبارى أخاً أكبر يرجعون إليه فيما يختلفون فيه .

سألت عن عبد الرحمن لأتحدث إليه فأخبرت بأنه غير موجود — ولعله قد بلغه نبأ استدعائى فآثر أن لايلقانى اتقاء الحرج — ولم أجد إلا نائبه الأخ أحمد زكى ومعه مجموعة من أفراد النظام ... وأخبرنى الأخ عبد العزيز بأن قيادة النظام قد احتلت هذه الدار واتخذتها مقراً لها . وأنها تطارد كل من يفكر تفكيراً يخالف تفكيرهم فى اختيار المرشد ، حتى إنه لم يعد أحد غير أفرادهم يجرؤ أن تطأ قدمه هذه الدار . وأخبرنى أنه يئس من حملهم على العدول عن فكرتهم أو حتى على التخفيف من هذه القيود .

ورأيتهم فعلاً قد فرضوا نظاماً صارماً ينفر منه من أَلِفَ الجو الإخوانى المفتوح المشبع بروح الإخاء والمحبة والود ... حتى إننى حين طلبت مقابلة الأخ أحمد زكى أرادوا إخضاعى لهذا النظام المنفر ، لاسيما والأفراد المكلفون بتنفيذه من صغار الأفراد الذين لايعرفون كثيراً من الإخوان — وقد زادنى ماقوبلت به من صلف حنقاً على تصرفهم ... وكان الحديث عن هذا الصلف والجفاء هو أول حديثى مع الأخ أحمد زكى وقلت له : إذا كان الذين سيقودون الإخوان على مثل هذا الجفاء والصلف فإنهم سيوردون الإخوان موارد الهلاك ، وسيكونون أنكى على الدعوة من ألد أعدائها .

وتحدثت إليه حديثاً طويلاً بينت له فيه خطأ الاتجاه الذى عزموا على السير فيه ، وخطورة نتائجه . وختمت حديثى معه بقولى : إننى ياأحمد ــ كما تعلم ــ أحد الذين أسسوا هذا النظام .. ولكننى سأكون أول من يعمل على تقويضه إذا كان يريد أن يفرض نفسه على الدعوة .. وإذا كان أفراد من هذا النظام يطالبون بأن ينالوا مناصب فى الدعوة لقاء ماقدموا وما تحملوا من تضحيات ومتاعب ، فإن النظام يكون قد حل نفسه بنفسه ، لأنهم يكونون قد نكثوا العهد الذى أخذه كل فرد منهم على نفسه يوم أعطى البيعة أن يقدم روحه وماله لله ، ومعنى ذلك فى أبسط معانيه أنه لاينتظر على ذلك أجراً ولا منصباً ولا حتى الثناء يسمعه من الناس .

وكان الأخ أحمد ينصت إلىّ باهتمام لما يعرف عن مدى ماأحظى به من تقدير الكثرة الغالبة من قادة النظام ومقدار ماأتمتع به من حبهم وثقتهم ، كما يعلم أننى لاأسعى إلى كسب شخصى ولا أقصد فيما أقول وأفعل إلا وجه الله .. وقد طلبت إليه إبلاغ الأخ عبد الرحمن بكل كلمة قلتها وأن يبلغه أننى سأكون فى انتظاره فى هذا المكان فى نفس الموعد من الغد إن شاء الله .

وحضرت فى الموعد فوجدت الأخ أحمد الذى أبلغنى بأن عبد الرحمن قد اقتنع وقال : ماكان لنا أن نخالف أخانا الكبير .. كما أخبرنى أحمد بأن عبد الرحمن يعتذر عن الحضور لأنه سيكون خارج القاهرة لموعد سابق .. فعلمت أنه يتفادى مواجهتى فى مثل هذا الموقف .

ولم يكن لقاؤه يعنينى . وإنما الذى كان يعنينى هو أن أرى مايدل على عدولهم عن موقفهم .. فرأيت الأخ أحمد قد أصدر أمراً إلى الأفراد الذين كانوا يتناوبون الحراسة بالانصراف ، كما أعلن أمامهم العدول عن خطتهم وترك الأمر لجمهور الإخوان لاختيار من يشاءون مرشداً وأنهم سيكونون فى ركب من يقع عليه اختيار الإخوان .

* * *

وكان الإخوان قد وقع اختيارهم على الأستاذ حسن إسماعيل الهضيبى مرشداً عاماً ــ وقد سبق فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ذكر ذلك بإفاضة ــ فلما علم الإخوان بجلاء إخوان النظام الخاص عن المكان وعدولهم عن خطتهم ، دعوا الأستاذ الهضيبى لزيارة هذا المركز العام المؤقت ، فجاء فى اليوم التالى فى مجموعة من كبار الإخوان ، وكنت فى استقباله .. وكانت هذه المرة هى المرة الثانية التى ألقاه فيها .

وسعدت مع من سعد من الإخوان بهذه النتيجة ، معتقداً أن إخواننا هؤلاء من قادة النظام الخاص قد سلموا بخطئهم عن اقتناع ، وأن المشكلة بذلك قد وصلت إلى نهايتها

المأمولة .. وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين .. لقد اختفت هذه النزعة ، وبدت أمور الدعوة مستقرة واستأنفت السفينة سيرها فى بحر هادىء ، وأخذت الدعوة تحقق كل يوم تقدماً ونصراً حتى احتلت مكان الصدارة فى المجتمع المصرى والعربى والإسلامى .

وتألقت الدعوة فى سماء مصر ، وشدت جميع الأنظار إليها .. تتطلع إليها فى شوق وتلهف أنه قد حانت ساعة الخلاص ، وتحقق للناس ماطال انتظارهم له فقد قامت الثورة ، ولم يكن أحد يشك فى أنها ثمرة جهود ربع قرن تم فيه إيقاظ الشعب وتربيته وتثقيفه وتنظيمه .. وكان الأمر فعلاً كما اعتقد الناس ، ولكن لم يكن أحد يعلم أن هؤلاء الذين ظهروا على المسرح من الإخوان كانوا يكنون فى قرارة نفوسهم غدراً بالدعوة التى تربوا فى أحضانها وقامت حركتهم فى كنفها وحمايتها .. وسرعان ماوضح الخلاف بين هؤلاء وبين قيادة دعوتهم ... ولما كان لهذا الخلاف آثار بعيدة المدى على مانحن بصدده فى هذا الفصل مما يتصل بأولى القوة فقد نقف فى الحديث عند هذا الحد لنستأنفه إن شاء الله فى مواضع قادمة فقد يطول الحديث ويطول ويطول ..

موقف أولى القربى

تحدثنا فى الجزء الثانى من هذه المذكرات عن موقف ذوى القربى عند البحث عن خليفة للأستاذ الإمام ، وقلنا إن أحد هؤلاء وهو الأستاذ عبد الحكيم عابدين خلع نفسه من التصدى لهذا المنصب ، ولكن الأستاذ عبد الرحمن البنا شقيق الإمام أعلن أنه يرى نفسه أحق بأن يخلف شقيقه فى منصبه بالدعوة .. فلما رأى أن جميع من حوله من المسئولين لايقرون هذا الاتجاه انسحب من الميدان .. ولكن يبدو أن انسحابه هذا لم يكن عن اقتناع أو بمعنى أدق انسحب وفى النفس شىء أو أشياء .

أما الأستاذ عبد الرحمن نفسه فلم يحاول أن يتصدى للمرشد الجديد بعداء ، ولم يتصرف تصرفاً يؤخذ عليه ، ولكنه انكمش انكماشاً أحس معه جمهور الإخوان بأنه غير راض عن هذا الوضع الجديد ، وبأنه يسير فى ركاب الدعوة سير صاحب الحق المغلوب على أمره .

على أن هذا الموقف من الأستاذ عبد الرحمن لم يكن ليضير الإخوان فى شىء ، فالعاملون فى الدعوة كثيرون ، وإن كان المطلوب أن لايكون فى نفس الأخ وهو يسير فى ركاب الدعوة حرج ﴿ **فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجاً** ﴾ ولكن الذى حدث هو أن رأى الإخوان بعض أشقاء الأستاذ الإمام الآخرين قد وقفوا موقفاً ، واتخذوا لهم أسلوباً غير كريم ، حتى إن أحدهم نشر فى

الصحف كلاماً مثيراً ماكان لرجل منتسب إلى حسن البنا أن يفوه به .

وقد شكل هذا الموقف ثغرة فى البناء ، كان يسترها لبنات لايراها الرائى مستقرة بل يراها قلقة فى موضعها غير مستقرة ولا مشدودة بأخواتها ولا ملتحمة (معهن) وكأنها بوضعها هذا تقول لدعاة التخريب : هأنذا ومن هنا فابدأوا .

وسيرى القارىء إن شاء الله — مع الأسف — أن هذه الثغرة كانت فعلاً نقطة ضعف فى البناء الإخوانى ، وكانت هذه المجموعة من أصحاب هذا التيار موضع استقطاب من كل من حاول تخريب هذا البناء .. نعم إنها كانت فئة قليلة العدد ، ولكنها كانت عظيمة الخطر لأنها اتخذت شعاراً ، واستعارها المخربون رمزاً ، واصطنعوا منها ستاراً يسترون وراءه خبث نياتهم وسوء سريرتهم .

وبالرغم من الإساءات التى صدرت من بعض إخوة الأستاذ الإمام فإن الإخوان لم يتخذوا أى إجراء ينتقصون به من قدر الأستاذ عبد الرحمن ، فقد كانوا حريصين على أن يرعوا له ماضيه فى الدعوة ، ويكرموا فى شخصه شقيقه الإمام فاحتفظوا له بمكانه فى الهيئة التأسيسية وفى مكتب الإرشاد وكان موضع حبهم واحترامهم .

ولكن هذا التطاول على صفحات الصحف من بعض إخوته قد أغضب الكثيرين من الإخوان فى كل مكان ، فأساءوا الظن بكل من يمت إلى هؤلاء بصلة قرابة ، فأساءوا بذلك إلى إخوان كرام بغير جريرة سوى هذه القرابة ، فى حين كانوا من أخلص الناس لدعوتهم لايعدلون بها شيئاً من قرابة أو نسب .. وأعرف من هؤلاء الإخوان أخاً كريماً وداعية كبيرا بمكتب إدارى البحيرة هو الأستاذ معروف بدر ، وكان كل ذنبه أنه من قرية فى مركز فوة ملاصقة لشمشيرة القرية التى نشأبها الأستاذ الإمام ، وتربط أسرته بأسرة الأستاذ الإمام آصرة قرابة .. أُخِذَ بهذه الجريرة ، فطورد ونظر إليه شزراً ، وأبعد عن الوسط الإخوانى فى ذلك الوقت ، مع أنى أعرف أنه برىء كل البراءة من هذه التهمة .. ولكن الفترة كانت حالكة ، والحساسيات كانت مسيطرة على الأعصاب . والجو كان مشحوناً بالتوتر .

* * *

الباب الثانى

معالــم الخــلاف

الفصل الأول: الحكم بكتاب الله

الفصل الثانى: علاقـــة الحكـــم بالجيش

الفصل الثالث: المدى الذى يصل إليـــه الإصلاح الزراعى

الفصل الرابع: الحكـم الدسـتورى

تقدمـــة

بعد أن اتضح للإخوان أن جمال عبد الناصر قد صارح بأنه متخذ سبيلًا غير سبيل الإخوان المسلمين ، واعتبر الإخوان ذلك أمراً واقعاً ، وارتضوا أن يعتبروه مجرد حركة إصلاحية ... كان لابد من حثه على الالتزام بمعالم وسمات تسدده ،وتصون حركته من الانحراف ، وتجعل خطواتها دائما فى صالح البلاد . وكانت هذه المعالم أربعة نشأ عن عرضها عليه وحثه عليها أربعة نقاط أساسية فى الخلاف ..

وهاك هذه المعالم الأربعة :

١ ــ الحكم بكتاب الله .

٢ ــ علاقة الحكم بالجيش.

٣ ــ المدى الذى يصل إليه الإصلاح الزراعى .

٤ ــ الحكم الدستورى .

الفصل الأول

الحكم بكتاب الله

هذه قضية فات أوان أن يرفضها حاكم رفضاً صريحاً .. نعم جاء على بلادنا وقت كان الناس يعتبرون مجرد إثارتها نوعاً من الهذيان والرجعية ، ولكن مع جهود أكثر من عشرين عاماً بذلها الإخوان فى الالتحام بمختلف طبقات الشعب ، وتبصيره وتثقيفه أخذت هذه الفكرة الدخيلة المستولية على النفوس والعقول تنقشع شيئاً فشيئاً حتى زالت هذه الفكرة الدخيلة تماماً ، وحل محلها الاقتناع بأن الحكم بكتاب الله هو الحكم الأمثل ، وأن الشريعة الإسلامية هى السماء التى لاتطاولها سماء فى عالم التشريع أيا كان مصدر هذا التشريع .

استقر هذا الشعور فى نفوس الحاكم والمحكوم على السواء .. أما المحكوم فإنه يطالب بالحكم بالشريعة الإسلامية لأنه سيعود بالخير عليه وعلى المجتمع .. وأما الحاكم وإن كان مقتنعاً بها فإن بريق السلطة المطلقة التى لايحدها قيد ، يتلألأ بين عينيه فيبهره ويزيغ بصره ، وتتراءى له هذه الشريعة عائقا يحد من سلطته .

وقد تبين للقارىء مما سبق أن الفئة من الإخوان الذين اشتركوا مع جمال فى التحضير للقيام بالثورة كانت فئة محدودة العدد وهذا هو التكتيك السليم فى مثل هذه الأمور الخطيرة التى يكون عنصر السرية فيها أهم عناصر نجاحها ... وهكذا فوجىء الإخوان فى كل مكان بقيام الثورة ، ثم اطمأنوا عقب ذلك فى الحال إلى أنها ثورتهم .. وأخذ الإخوان فى جميع أنحاء العالم يستبشرون ويهنىء بعضهم بعضاً لابأن الحكم قد آل إليهم وإنما بأن الحكم بكتاب الله قد آن له أن يتحقق . وهو الأمل المنشود ، والهدف الذى من أجل الوصول إليه اقتحم الإخوان الأهوال ، واستعذبوا مرارة الموت .

كان الإخوان فى شعور غامر من السعادة وخف كثير منهم إلى أعضاء مجلس الثورة يتبادلون العناق والقبلات . ولكن المرشد العام عرف كيف استغل جمال عبد الناصر طبيعة تكتيك الثورات من ضآلة عدد المشتركين فى الإعداد لها، كما استغل مااتفق عليه من نفى المرشد علاقة الثورة بالإخوان حرصاً عليها ، وبناء على ذلك استطاع

أن يتملص من العهود والمواثيق .. وإزاء ذلك رأى المرشد العام نفسه أمام حكومة غير ملتزمة ، وأن عليه أن يتعامل معها برفق ، وأن يتقدم إليها ــ على أساس أنها مجرد حركة إصلاحية ــ داعيا إلى الحكم بالقرآن ، شارحاً لها مزايا ذلك الحكم ، وموضحاً لها أن هذا الحكم لايتعارض مع وجود أجناس وأديان أخرى فى البلاد ، داعماً شرحه بالحجج والأسانيد ، ومزيلاً ماعسى أن يثار من شبه حول عدالة الحكم الإسلامى حيث يتمشى مع العقل ومع طبيعة الحياة .

وقد انتهز المرشد فرصة حلول ذكرى المولد النبوى فى عام ١٩٥٢ فأقام حفلاً بهذه المناسبة بالمركز العام دعا إليه رجال الثورة فحضر محمد نجيب وجمال عبد الناصر وعدد آخر كما حضره الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر وقد ألقى المرشد العام كلمة جامعة ضافية جاء فيها :

« ولسنا نطلب الأخذ بكتاب الله لنشتفي بالعقوبات الصارمة التى سنها الله تعالى ، بل نطلب الأخذ به كُلاً لايقبل التجزئة . لأنه مامن حكم فيه إلا وهو مترتب على أحكامه الأخرى . ولا تجد عقوبة إلا وقد سدت الذريعة إليها وأسقط عذر الجانى فى جنايتها .

وأول ذلك أن التعليم وهو واجب على كل مسلم ومسلمة ، وحق لهما لايجوز أن يحرما منه . وعلى ولى الأمر أن يهيىء لهما أسباب تعلم الإسلام وأحكامه وبلوغ دعوته إلى الناس . وهذا فرض عين على كل أحد . ويجب أن تكون مهمة التعليم الأولى هى تعلم إقامة الوازع النفسى فى الناس حتى يكون إقبالهم على طاعة الله والتخلق بالأخلاق الفاضلة مبنياً على هذا الوازع . فإذا غاب الوازع عن بعض الناس جاء دور العقوبة .

وقد ذكر الله تعالى العقوبات فى آيات معدودات ولم يذكرها إلا مرة واحدة ، ولكن القرآن ملىء بمناجاة النفوس وحضها على الخير والبر والأخلاق الفاضلة ﴿ **مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم** ﴾ .

وعلى وليّ الأمر كذلك أن يهيىء لهما أسباب العلوم الأخرى التى تحتاج إليها الأمة فى شئون حياتها من زراعة وتجارة وطب وهندسة وطيران وفنون حرب إلى غير ذلك . وهذا فرض على الكفاية يلزم المسلمين جميعاً ولا يسقط عنهم إثم تركه إلا حين يتعلم منهم من يسد حاجة الأمة فى كل فن .

والواجب الثانى على وليّ الأمر هو أن يسهر على توفير الأرزاق للناس ، فإن شريعة الله تقضى بأن يكون لكل إنسان فى الدولة مسلماً كان أو غير مسلم الحق فى منزل يرد عنه

حر الصيف وبرد الشتاء ، ويمنع عنه الأعداء والمتطفلين ، والغذاء الذى لابد منه لحفظ كيانه وصحته . والكساء الذى لابد منه للشتاء والصيف والعلاج الذى يلزمه إذا مرض.

هذه حقوق لازمة فى عنق الدولة ، وليست صدقات يأتيها الناس أولا يأتونها — والسبيل إلى توفيرها لهم العمل . فكل إنسان عليه واجب الحصول على عيشه من طريق العمل الحلال بحسب ماتؤهله له مواهبه ، وتهيئه له ظروف حياته ، ويجبر على العمل إذا هو قعد عنه، فالإسلام لايحب القاعدين ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ .

فإذا كان عمل العامل لايكفيه أو لم يجد عملاً أو كان غير قادر على العمل أصلاً فهو فى كفالة المسلمين عامة — فى كفالة الدولة — تمده بما يحتاج إليه أو نقص من حاجاته الضرورية .

الزكاة : وسبيل ذلك الزكاة التى يجب على كل مسلم أن يؤديها ، ويجب على الحكومة أن تحصلها . وللفقراء حق معلوم فيها لايجوز بحال من الأحوال أن يحرموا منه ، ولا أن ينتقص شيء منه قبل أن يستوفوا حقوقهم التى ذكرناها . فإذا لم تكف الزكاة فقد أصبح على كل من عنده فضل من المسلمين أن يعود به على إخوانه فى الإنسانية بما يوفر لهم حاجاتهم .

والحاكم مسئول أن يوفر له ذلك . والزكاة تصرف فى المكان الذى جمعت فيه ولا تنقل إلى جهة أخرى إلا إذا استغنى أهل الجهة التى جمعت فيها — وهو أحدث ماأخذ به فى معالجة الفقر فى الأزمنة الحديثة . أما تنظيم ذلك كله فهو من الأمور التى تخضع لظروف الزمان والمكان .

وهكذا أيها الإخوان رفع الإسلام الحياة الاجتماعية للناس بالعلم وبلوغ الدعوة وإعطاء الفقير حقه ، ويعالج الأمور من أساسها بطريقة عادلة ميسورة — ثم هو يطلق القوى والمواهب لتحصيل العيش كما يريد الإنسان — للمسلم أن يجمع من الثروة ماشاء بشرط أن يكون من حلال . وكل واحد من المسلمين له حق فى أن يجمع من الثروة ماشاء بشرط أن يكسب ماله من حلال وينفقه فى الحلال ، فلا يباح لأحد أن يصرف فى غير الأوجه التى أحلها الله تعالى ، فلا خمر ولا ميسر ولا شيء مما تعارف الناس على عدّهِ من المباحات ، فإذا فعل ذلك وأدى حق الله فيه فإن الإسلام يحمى ماله ويقطع اليد التى تمتد إليه .

عقوبة السرقة : إن عقوبة السرقة التى يرتجف منها الناس عقوبة فيها غاية الرحمة بالناس ، لأنه لايصح إنزالها بالسارق إلا إذا استوفى حقوقه التى ذكرناها كلها ووفر له

المجتمع تعليمه ولباسه وطعامه ومسكنه وعلاجه بل وسد عنه دينه ، وهى بعد عقوبة رادعة تمنع البغاة الذين نالوا حقوقهم من الجماعة من أن يفكروا فى السرقة . ومن فعل منهم فعليه الجزاء ﴿ **جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم** ﴾ .

ست مرات ــ وتاريخ المسلمين الذى كان فيه هذا النوع من الحياة مستقراً لم تنفذ فيه عقوبة القطع إلا نحو ست مرات .

فلما نسى حكام المسلمين أن يهيئوا للناس تلك الحياة الاجتماعية النظيفة الراقية وجدوا أن عقوبة القطع لاتتفق مع أحوال المسلمين فمنعوها ، وهم على حق فى منعها ، ولكنهم كانوا بغاة ظالمين فى حرمانهم الناس من حقوقهم فى التعليم وضروريات الحياة وكانوا بذلك مسئولين عن تعطيل حدود الله .

الربا : إن بعض علماء الإنجليز والألمان نقدوا نظام الفائدة ، وردوا إليه الاضطرابات فى أحوال العالم الاقتصادية واقترحوا إلغاءه بالتدريج ــ وهم فى ذلك يعودون إلى أصول الأديان من عدم التعامل بالربا . وإن كانوا يبنون آراءهم على فكرة تنمية الأعمال الاقتصادية فى العالم . وما من شك فى أن فى مقدور العقل الإنسانى أن يحل من المعاملات الناجحة فى الاقتصاد مايغنى عن الربا .

حركة الجيش ــ أيها الإخوان .. إن حركة الجيش قد تمت بنجاح ، ويجب أن تستمر بنجاح ويجب أن يجد الناس فى الإخوان المسلمين قوماً يعملون ولا يتكلمون . ويحقون الحق ويبطلون الباطل ولو كره الناس أجمعون ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ .

هذا مااقتطفناه من كلمة المرشد العام أمام رجال الثورة . ولعل القارىء يلاحظ فيها ماأشرنا إليه من قبل أنها كلمة جمعت بين الحث على الأخذ بكتاب الله وبين الإقناع العقلى الذى لو وجه إلى حاكم غير مسلم لتاقت نفسه أن يسعد شعبه بمزايا هذا النظام العادل الحكيم .

ويذكرنا هذا بقول الحكيم الذى لما عرض عليه الإسلام سأل عن عدة أمور معينة فلما أجيب عليها بما جاء به الإسلام قال « **لو لم يكن هذا ديناً لكان فى أخلاق الرجال حسناً** » .

* * *

الفصل الثانى

علاقة الحكم بالجيش

من الطبيعى حين يقوم جيش بانقلاب أو ثورة أن يقوم بتصدر جهاز الحكم فيه أول الأمر فئة من أفراده ، حتى إذا استقرت الأمور ، وشعر الجيش بتأييد شامل من الشعب كان على هذا الجيش أن يرجع إلى ثكناته ويسلم قياد الأمور إلى الشعب ممثلاً فى أفراد منه يرى فيهم الشعب الكفاءة والأمانة يصعدهم إلى مناصب الحكم بمحض إرادته المتحررة من كل خوف وبالطرق الديمقراطية السليمة .

كان هذا هو مادار فى خلد كل مصرى حين قامت الثورة . وما كان غير هذا يمكن أن يدور فى خلد أحد . لأن الثورات إنما تقوم لترد للشعوب حريتها المسلوبة ، ولترسى دعائم الحكم الصالح النابع من إرادة هذه الشعوب .

ولكن الذى حدث ـــ وكان مفاجأة للإخوان كما جاء فى الفصل الأول ـــ أن الإخوان وجدوا أن جمال عبد الناصر متشبث بأهداب الحكم ، مصر على إبقائه فى حوزته ، وأن فكرة التخلى عن الحكم قد استبعدت تماماً فماذا كان موقف الإخوان حيال هذا التحول المفاجىء ؟.

نظرية المرشد العام :

كان للمرشد العام فى هذا الصدد نظرية مقنعة ملخصها : أن الشعوب إذا ابتليت بحاكم ظالم تبذل جهدها فى مقاومة ظلمه بجميع وسائل المقاومة ، حتى إذا فشلت كل جهودها لم يبق أمامها من ملجأ تلجأ إليه وملاذ أخير تستغيث به إلا الجيش .. فالجيش هو الملجأ الأخير لإنقاذ الشعب .. فإذا كان الجيش هو الحاكم واستبد وظلم فإلى من يلجأ الشعب لإنقاذه ؟ .

كان هذا هو منطق المرشد العام الذى خاطب به أعضاء مجلس الثورة . خاطب به جمال عبد الناصر ثم خاطب به كل عضو على حدة .. ولما كانت هذه قضية منطقية مسلماً بصحتها عقلاً ، فلم يستطع أحد منهم أن يرفضها .. لكن الذى سيطر على أفكار أكثرهم

أنهم لم يتصوروا — ماداموا هم الحاكمين — أن يصدر منهم ظلم أو أن يجد الحيف أو الاستبداد إليهم سبيلاً ، لأنهم ماقاموا بالثورة إلا للقضاء على الظلم والاستبداد ، فكيف يقارفون ماقاموا هم للقضاء عليه ؟.

ولكى لاتقع تصوراتهم هذه على القارىء موقع الاستغراب والدهشة ، ينبغى أن يستحضر القارىء فى خاطره صورة مجموعة من الشباب لم يجاوز أكثرهم العقد الثالث من العمر ، لاخبرة لهم بالحياة ، وليسوا على نصيب يذكر من الدراسة العميقة أو الثقافة المستوعبة ، وفى أحناء صدورهم قلوب نابضة بحب بلادهم .. ومع ذلك لانبرئهم من نفثة شيطان نفخها فى نفوسهم غرور السلطة المفاجئة التى وجدوا مقاليدها قد ألقيت إليهم مطلقة دون قيد أو شرط ودون محاسب ودون معقب .

وبهذا الصدد ننقل للقارىء الكريم ماجاء على لسان أحد هذه المجموعة فى خطبة ألقاها فى هيئة التحرير بكفر الشيخ فى ١٩٥٣/٤/١٨ فيقول حسين الشافعى عن نفسه وعن زملائه « إن الذين بايعوا الله وباعوه أرواحهم يوم ٢٣ يوليو لن يتغيروا حتى يصلوا بالبلاد إلى ماعقدوا العزم عليه . بل إنهم سيعودون إلى أماكنهم بمجرد إتمام رسالتهم ، وعندما يتأكدون من أن الشعب أصبح قادراً بحق على تولى زمام نفسه على أساس من الديمقراطية الحقة » .

هكذا كان اعتقاد حسين الشافعى واعتقاد زملائه أنهم لن يتغيروا .. ولا أدرى هل كان جمال عبد الناصر يعتقد أيضاً هذا الاعتقاد ؟.

أخذت هذه القضية فترة غير قصيرة من الزمن ، كان خلالها مناقشات ومراجعات بين أعضاء المجلس بعضهم وبعض ، وبينهم وبين رئيسهم جمال . واعتبر جمال إثارة هذه القضية عقبة كبرى ، عليه أن يجتازها قبل كل شىء ؛ فمخططه الذى رسمه فى خاطره متوقف على تفاديها .. وقد راح ضحية تفادى هذه العقبة اثنان من أعضاء المجلس كان لابد من إبعادهما حتى يكون المجلس منسجماً مع تصور جمال وأفكاره .

ولا عجب فى إبعاد هذين العضوين ، فقد كانا أكبر الأعضاء سناً ورتبة ؛ وبالتالى كانا أكثرهم خبرة ، وأنضجهم تفكيراً ، وأبعدهم نظراً .. وكانا هما العضوين اللذين اقتنعا بما عرضه المرشد العام من قضية ، ولم يستبعدا على هذا المجلس العسكرى الذى يدير شئون البلاد باعتبارهم بشراً كسائر البشر أن تطغى عليهم موجة الغرور بالسلطة المطلقة فتنسيهم الغرض السامى الذى دفعهم إلى القيام بالثورة ، ويصير همهم الحرص على استبقاء هذه السلطة مهما اقتضى ذلك اللجوء إلى وسائل من الظلم لن يعدموا من يبررها لهم .. وكان هذان العضوان هما القائمقام أحمد شوقى والقائمقام يوسف صديق .

وفاتنى أن أذكر أن المرشد العام حين عرض هذه القضية جعل لهم أحد خيارين : أحدهما أن يتخلوا عن كراسى الحكم لمن يختارهم الشعب ويرجعوا هم إلى صفوف الجيش مشكورين .. أما إذا اختاروا الاستمرار فى كراسى الحكم فعليهم فى هذه الحالة أن يستقيلوا من الجيش ، ويقطعوا صلتهم به ويصيروا مدنيين .. وفى هذه الحالة أيضاً يرجع الجيش إلى وظيفته حارساً لحدود البلاد ، لاحارساً لهم فى مناصب الحكم .

غير أن هذا كله لم يجد معهم نفعا فقد رفضوا الخيارين معاً ، وقرروا أن يظلوا حاكمين وأن يظلوا فى الجيش ، واقتضى ذلك أن يجعلوا من الجيش آلة طيعة لهم فأخلوه من كل ذى رأى أو شخصية ، وجعلوا مناصبه القيادية فى أيديهم . وكان هذا هو الخلاف الجوهرى الأول الذى تخطى جمال عبد الناصر عقبته بقوة شخصيته أمام زملائه بمجلس الثورة وطغيان نفوذه الروحى عليهم .

* * *

الفصل الثالث

المدى الذى يصل إليه الإصلاح الزراعى

مشروع الإصلاح الزراعى من المشاريع التى دار الحديث عنها قبيل الثورة ، وتناولها أعضاء المجلس النيابى فى ذلك الوقت بالمناقشة وإن كانوا لم يتخذوا فيها قراراً — ولما قامت الثورة وجهت جل اهتمامها لوضع هذا المشروع موضع التنفيذ . كما أن هذا المشروع كان من المشاريع التى تمت دراستها فى اللجان المختصة بالمركز العام للإخوان المسلمين .

ولما طلب رأى الإخوان فى المشروع وأبدوا رأيهم فيه ، تبين أن هناك نقطة معينة يختلف الإخوان مع الحكومة حولها ؛ وهى مقدار الحد الأعلى للملكية،فالحكومة تراه مائتى فدان والإخوان يرونه خمسمائة فدان . ورأى الإخوان فى ذلك كان يقوم على الأسس التالية :

١ — تجنب ما تحدثه الطفرة من آثار ؛ فالانتقال من الملكيات الضخمة إلى خمسمائة فدان أخف وقعاً على النفوس من انتقالها إلى مائتين .

٢ — أن وضع ملكيات من خمسمائه فدان فى أيدى أشخاص قادرين على الصرف عليها يعود بالخير على البلاد . أما تفتيت الملكيات ووضعها فى أيدى معدمين فسيحرم البلاد من إنتاج هذه الملكيات ويحرم من آلت إليهم كذلك .

٣ — أن نظام الميراث الإسلامى سوف يتكفل بتفتيت هذه الملكيات ذوات الخمسمائة فدان ولكن بطريقة غير متعجلة وتدريجية وليس فيها مصادمة للنفوس ، وسيرفع عن كاهل الدولة عبء المساعدات المالية التى يجب أن تقدمها للمعدمين حتى يستطيعوازراعة ماآل إليهم .

* * *

ولعل كثيرين من ذوى الخبرة فى الشئون الزراعة والاقتصادية يرون فى نظرية الإخوان هذه مايقنعهم ويقنع كل من يتناول الأمور بالعقل والبصيرة .. ولكن إخواننا هؤلاء من رجال الثورة رفضوا هذا الرأى ولم يروا فيما يسنده من حجج إلا نكوصاً وتخلفاً وميلاً إلى الإقطاعيين ..

ولسائل أن يسأل فيقول : إذا سلمنا بأن أعضاء مجلس الثورة فى ذلك الوقت كانوا حديثى السن ولا خبرة لهم بهذه الشئون ؛ أفلم يكن لديهم مستشارون متخصصون ذوو خبرة ودراية ؟.. ولهذا السائل نقول : كان لديهم الخبراء ، ولكن هؤلاء الخبراء لم يكونوا يجرءون على إبداء رأى يخالف رأى سادتهم لما كان لهؤلاء السادة من سلطات تجعل من يخالف لهم رأياً عرضة لأن يلقى به فى أعماق السجون أو على الأقل فى الشارع . ولهذا كان هؤلاء الخبراء يفهمون أن مهمتهم تقتصر على تلقى آراء هؤلاء السادة وتبنيها وتقنينها وإيجاد مبررات لها .. كما أن هؤلاء السادة كانوا عادة يتخيرون مستشاريهم من هذا الطراز من الناس ذوى الميل الطبيعى لمجاراة الحاكم فى ارائه مهما كانت هذه الآراء .

ولاندرى حتى اليوم لماذا أسند جمال عبد الناصر تنفيذ هذا المشروع إلى عضو منهم كلهم يعرفون عنه أنه أشدهم تطرفاً ، وأخفهم حلماً ، وتصرفاته أقرب إلى النزق والهوس منها إلى العقل والحكمة مع خطورة هذا المشروع وجسامة ماينتظر أن يكون له من آثار .. لقد أسند هذا المشروع إلى جمال سالم .

* * *

أنموذج من آراء الخبراء العظام

على أن البلاد فى ذلك الوقت لم تكن قد خلت من علماء أحرار . رأوا فى هذا المشروع بالصورة التى عرض بها عيوباً خطيرة لاينبغى السكوت عليها ، كما أن الصحافة كانت لاتزال حرة ؛ صفحاتها متاحة لذوى الخبرة فى مختلف الميادين .. فأدلى بعض هؤلاء إلى الصحف ببحوث ضافية تتناول مناقشة هذه العيوب وأساليب علاجها .. ومن هؤلاء العلماء الدكتور عبد العزيز أحمد الذى كان يعد فى ذلك الوقت أعظم الخبراء المختصين ، وكانت له مكانة عالمية .. كتب فى هذا الصدد بحثاً قيماً فى هذا المشروع فى جريدة « أخبار اليوم » فى عددها الصادر فى ٢٣ / ٨/ ١٩٥٢ بعنوان :

الخطوة الأولى ... والخطوة الثانية
يجب أن يقترن تحديد الملكية بالتوسع الزراعى

نقتطف منه الفقرات التالية :

« وأخيراً قد خطت الحكومة خطوتها الكبرى فى سبيل الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى بتقريرها مبدأ تحديد الملكية لإزالة الفوارق بين الطبقات .

العدالة الاجتماعية :

يعرف كل إنسان أن العدالة الاجتماعية تتحقق بأمرين : الأول تحديد الملكية الذى ينظم توزيع الثروة الحالية على السكان توزيعاً عادلًا . وهذا من شأنه أن يرفع مستوى المعيشة بين الطبقات الفقيرة على حساب الطبقات الموسرة — والثانى التوسع الزراعى لزيادة الثروة القومية لرفع مستوى المعيشة بين جميع الطبقات على السواء .

الحد الأقصى لتحديد الملكية :

وتحديد الملكية أسرع فى التنفيذ لأنه لا يحتاج إلا إلى إصدار القوانين اللازمة — غير أن اختيار الحد الأقصى للملكية أمر من الصعوبة بمكان ؛ لما قد يترتب عليه فى الأوضاع القائمة ، وما قد يترتب على ذلك من تغيير فى النظام الاقتصادى ، ليس من الميسور التنبؤ به نظراً لتعدد العوامل المختلفة المتداخلة فيه . من ذلك ما قد يحدثه من الأثر فى مجموع الإنتاج الزراعى بالزيادة أو النقصان وهو من المسائل الجدلية . وكذلك ما يتصل به من مسائل الديون والرهونات القائمة ، وغير ذلك مما لاشك أنه لم يغب عن القائمين بوضع ذلك القانون الآن .

غير أنى أريد أن أتناول موضوع تحديد الملكية من ناحية التنفيذ . وأبادر إلى القول بأن الحرص والحذر يقتضيان بالتدرج فى تحديد الملكية على الأقل فى اللائحة التنفيذية إن لم يكن فى صلب التشريع . وذلك بجعل الحد الأقصى مرتفعاً بحيث لا يقل عن ٥٠٠ فدان ؛ حتى تستبين الحكومة أثره الفعلى فى اقتصاديات البلاد بصفة عامة . لاسيما أن تخفيضه فيما بعد ممكن دائماً بخلاف ما إذا بدىء بالحد المنخفض وأصاب البلاد منه ضرر فإن معالجته تصبح متعذرة .

ويتبين من الاحصاءات أنه إذا حددت الملكية بألف فدان فإن مساحة الأرض التى تكون تحت تصرف الحكومة تبلغ (٢٥٠ ألف فدان) . وإذا خفض الحد إلى ٥٠٠ فدان ارتفعت هذه المساحة إلى (٤١٠ ألف فدان) . وإذا خفض الحد إلى ٢٠٠ فدان كانت المساحة التى تئول إلى الحكومة (٧٤٠ ألف فدان) .

والسؤال المهم هو : كيف تتصرف الحكومة فى هذه الأراضى متى أصبح من حقها أن تستولى عليها بمقتضى القانون ؟ وماهى الالتزامات التى تقع عليها من جراء ذلك وكيف يمكن مواجهتها ؟

التزامات الحكومة إزاء التحديد

أولاً ــ سيكون على الحكومة أن تدفع أرباح السندات التى تعطى للملاك الأصليين على اعتبار أن للملكية حرمة مقررة فى جميع الأديان ، ومكفولة فى كل دساتير العالم ومنها الدستور المصرى الذى نص فى المادة التاسعة على أن للملكية حرمة فلا ينزع من أحد ملكه إلا بسبب المنفعة العامة وبشرط تعويضه عنه تعويضاً عادلاً .

ثانياً ــ سيكون على الحكومة أن توزع الأراضى على صغار المزارعين .

ثالثاً ــ سيكون عليها أن تعاونهم بالسلفيات التى تساعدهم على الوقوف على أقدامهم فى ملكياتهم الجديدة .

والأمر الأول والثالث ماليان ويتوقفان على مقدرة الدولة على الاستجابه لتلك المطالب .

أما الأمر الثانى الخاص بتوزيع الأراضى فهو أشدهم تعقيداً ويحتاج إلى مزيد من العناية والدراسة الدقيقة . إذ أن السواد الأعظم من صغار المزارعين لايتعدى تفكيرهم تدبير شئونهم الخاصة فى الدائرة الضيقة التى يعيشون فيها ؛ ولابد من مرور وقت طويل قبل أن يعتادوا على إدارة الملكيات التى سوف تصبح فى حيازتهم نتيجة لتحديد الملكية ــ بل إن كثيراً من المستأجرين الحاليين يعتمدون على الملاك سواء فى جلب البذور أو السماد أو غير ذلك من مطالب الزراعة . وقد يصاب الإنتاج فينقص فيعجز المزارع عن الوفاء بسداد أقساط الأرض والسلفيات . كما أن بعض الأراضى غير كاملة الإصلاح ويتولى الملاك الأصليون إصلاحها الآن .

الصعوبات فى توزيع الأراضى :

على أن الصعوبة الكبرى التى تواجه الحكومة عند التوزيع هى اختيار المزارع الصالح لتمليكه تلك الأراضى بسبب تفشى الرشوة والمحسوبية فى الإدارة الحكومية . ومن تعتمد عليهم الحكومة فى ذلك من العمد والمشايخ وغيرهم مما تعانيه الحكومة الآن فى جباية الضرائب وتوزيع أموال الضمان الاجتماعى وماحصل فيه من اختيار أشخاص لاحق لهم فيه . وتكون النتيجة إيثار الأقارب والأنصار وربما بعض الأشقياء الذين يخشى العمد والمشايخ بأسهم . والواقع أن مسألة إحكام توزيع تلك الأراضى أمر يتعلق بالأخلاق

العامة ، وهى لم تبلغ بعد المستوى اللائق وتدعو إلى المزيد من المراقبة والإشراف الدقيق . وأمامنا لجان التحقيق فى توزيع أراضى مصلحة الأملاك فى ضواحى مصر والإسكندرية ، وقد قضت المصلحة شهوراً طويلة فى اختيار الملاك لتوزيع بضعة ألاف من الأفدنة على صغار الفلاحين فى كفر سعد وغيره . وهذا فى مساحات محدودة — فكيف بمئات الألاف من الأفدنة مما لاتستطيع الحكومة تنفيذه الآن إلا بالاستعانة بموظفين جدد ترهق بها ميزانية الدولة فوق إرهاقها .

التدرج فى تحديد الملكية :

نخلص مماتقدم أن الحرص على أموال الدولة ، وتحقيق العدالة فى توزيع الأراضى ، والمحافظة على مستوى الإنتاج الزراعى حتى لايصاب بالنقص — كل ذلك يقضى بالتدرج فى تحديد الملكية عند التنفيذ إن لم يكن فى صلب التشريع كما سبق القول — فإذا جعل الحد الأعلى ٥٠٠ فدان فى بادىء الأمر فإن الحكومة تحصل على (٤١٠ ألف فدان) ، يمكن توزيعها على ١٤٠ ألف أسرة — وناهيك بما يتطلبه اختيار هذا العدد من وقت وعناية ، ومايستلزمه فى تحديد الملكيات الصغيرة وتحرير عقودها وجمع أقساطها ، وماتتحمله الدولة من أرباح للملاك الأصليين ، ومن سلفيات للزراع تتجدد فى مواعيد زراعة المحصولات المختلفة — حتى إذا ما أسفرت هذه التجربة عن نتائج مرضية أمكننا بعد ذلك أن نخطو الخطوة التالية بتخفيض الحد الأقصى إلى ٢٠٠ فدان تحصل الحكومة منها على (٣٣٠ ألف فدان) أخرى ، وتسير فى توزيعها بنفس الطريقة على ضوء الخبرة والتجارب التى قد تكون اكتسبتها من التوزيع الأول — ولعله من الخير أن يتضمن التشريع ذاته هذا التدرج فى تحديد الملكية بحيث يصل فى النهاية إلى ٢٠٠ فدان .

أما إذا رأت الحكومة أن يكون الحد الأقصى للملكية من الآن ٢٠٠ فدان مخافة أن يتصرف الملاك فيما زاد عند هذا الحد لوأنها بدأت ب٥٠٠ فدان فيمكن أن يتضمن التشريع نصاً يحظر على الملاك التصرف فى الأراضى التى تزيد على ٢٠٠ فدان ؛ على أن يكون لهم الحق فى استغلالها إلى أن تحدد الحكومة فى الوقت المناسب التاريخ الذى يتعين عليهم فيه تسليمها إليها بعد أن تكون قد انتهت من التوزيع الأول وأصبحت مستعدة لمباشرة عملية التوزيع الثانى — وإذا توفى المالك فى تلك الفترة جاز أن يطبق على ورثته حد المائتى فدان .

تخفيض الإيجارات ورفع أجور العمال :

وفضلا عما تقدم يمكن أيضا إصدار تشريعات بتخفيض الإيجارات أوربطها بالمحصول بحيث يقتسم المستأجر مع المالك الإيراد بطريقة مناسبة . وكذلك يمكن رفع

أجور عمال الزراعة . وهذه كلها وسائل تهدف إلى رفع مستوى الطبقات العامنة بالإضافة إلى تحديد الملكية .

مشروعات التوسع الزراعى :

بعد بيان ما تقدم نتناول بإيجاز الوسائل التى تؤدى إلى التوسع الزراعى — إذا نظرنا إلى خريطة مجسمة للملكة المصرية نرى أن جميع الأراضى المزروعة تقع فى مناطق منخفضة تحيط بها أراض صحراوية مرتفعة . وكانت سياسة الرى تقوم على الرى بالراحة بحيث لاتزرع الأراضى المرتفعة إلانادرا نظراً لما يتطلبه رى الأراضى المرتفعة من نفقات لرفع المياه إليها ، وهى نفقات باهظة بسبب ارتفاع أثمان الوقود اللازم لتوليد القوة المحركة . وقد تبين لى أن رى الصحارى لايمكن أن يتم على مقياس واسع إلا إذاتوافرت القوة الكهربائية بمقادير كبيرة وبأسعار رخيصة .

وهذه الشروط لاتتحقق إلابتوليد الكهرباء من مساقط المياه الكبرى . ولهذا وضعت مشروع كهربة خزان أسوان فى سنة ١٩٣٢ على أساس توليد الكهرباء فى أنحاء المملكة المصرية بحيث يمكن رى الأراضى الصحراوية فى جميع المساحات الممكنة .

ولما قررت الحكومة تنفيذ هذا المشروع عرضته على اللجنة الدولية فى سنة ١٩٤٧ فوافقت على نقل الكهرباء إلى الوجه البحرى على أن يبدأ توزيعها فى مديريتى أسوان وقنا حتى نجع حمادى .

تعميم رى الصحارى :

وقد وضعتُ بعد ذلك مشروعاً بتعميم رى الصحارى فى مصر وسياسة محددة وضمنته رسالة ألقيتها فى المؤتمر الدولى الذى عقد فى مصر فى مارس ١٩٤٩ تحت عنوان « التوسع الزراعى والصناعى المستقبل فى وادى النيل » على اعتبار أن مصر والسودان يكونان وحدة اقتصادية كاملة وذلك على أساس الرى المستديم .

وقد ثبت من التجارب التى أجرتها الجمعية الزراعية أخيراً فى بهتيم أن المقررات الحالية من مياه الرى تزيد على الحاجة ، وأن تقليلها عن المعدل الحالى قد أنتج فعلًا زيادة فى المحصول ؛ فقد ارتفع محصول الذرة من ستة أرادب إلى أحد عشر إردباً بتقليل مياه الرى بمقدار ٣٠٪ عن المعدل الحالى . وحصل مثل هذه الزيادة فى محصول القطن . وقد وصلت إلى مثل هذه النتيجة فى فى التجارب التى أجريتها فى ليبيا عندما انتدبتنى هيئة الأمم المتحدة لوضع مشروعات الرى وتعميم استخدام القوة الكهربائية فيها .

ولهذا فقد يؤدى إعادة النظر فى توزيع المياه إلى زيادة عاجلة فى مساحة الزراعة الصيفية ريثما يتم إقامة مشروعات أعالى النيل وغيرها .

الرى بالآبار الارتوازية :

وقد دلتنى خبرتى فى ليبيا على أنه من المحتمل تعميم الزراعة فى المناطق الممتدة من الإسكندرية إلى مرسى مطروح فالسلوم على الآبار الارتوازية بوساطة التيار الكهربائى الذى يولد من محطة رئيسية تنشأ فى مرسى مطروح فإن جميع بلاد المغرب الأقصى تقوم الزراعة فيها على الآبار الارتوازية ، وبعضها مناطق تجرى تحتها الأنهار فعلًا متجهة إلى البحر الابيض المتوسط . وتتراوح أعماق الآبار فيها من ٢٠ إلى ٤٠٠ متر وبعضها تتدفق منه المياه بقوة وغزارة على طول السنة ،

وأنهى الدكتور عبد العزيز أحمد بحثه بقوله :

هذه بعض وسائل التوسع الزراعى ذكرناها إجمالاً ، ولايتسع المقام للحديث عن التوسع الصناعى وهى تهدف جميعاً إلى زيادة الثروة فى البلاد ورفع مستوى المعيشة فيها متى صحت النية على تحقيقها » .

* * *

هذا أنموذج للبحوث والدراسات التى قدمت بين يدى المسؤلين عن هذا المشروع الخطير . وقد قدمه رجل يدل سياق حديثه على أنه لم يكن خبرة مصرية ولا عالماً مصرياً فحسب ، بل كان خبيراً عالمياً تلجأ إليه هيئة الأمم المتحدة فى مثل هذه الدراسات فى أى مكان فى العالم . ومع ذلك فقد طرح بحثه جانباً .

من واقع الحياة :

وقد يكون واقع الحياة وحده فى هذا الموضوع حكماً بعد أن وضع هذا التشريع موضع التنفيذ ؛ بالأسلوب والصيغة التى وضعتها هذه الحكومة ـــ وقد لايكون للذين يعيشون خارج الريف ولا للذين يزاولون أعمالاً لاتتصل بطبيعتها بمحاصيل البلاد أن يدلوا بآرائهم فى هذا الأمر ـــ ولذا فعلينا أن نسأل الذين عاشوا تطبيق هذا التشريع ولمسوا بأيديهم نتائجه ومارسوا خيره وشره .

وقد يكون كاتب هذه السطور أحد هؤلاء الذين لمسوا بطبيعة عملهم هذه النتائج والآثار ، فباعتبار أن عملى كان الخبرة فى القطن ، وكنت أحد أفراد هيئة تعد أعلى مستويات الخبرة فى الدولة ؛ حيث يمر تحت عينيها كل محصول البلاد ، ثم كان علىّ أن أزور أراضى

الإصلاح الزراعى فى الوجهين البحرى والقبلى لمعاينة إنتاجها القطنى كماً ونوعاً ... أستطيع أن أصدر حكماً نتيجة هذه التجربة .. ولكننى مع ذلك لاأسمح لنفسى ــ مهما كان اعتدادى بنفسى فى مهنتى ــ أن يكون حكمى الحكم القاطع فى هذا الشأن .

ولذا فإنى أحيل الباحثين فى هذا الشأن إلى التقارير السنوية ، التى كانت تصدرها هيئة خبراء الاستئناف التى كنت أحد أعضائها عن حالة محصول القطن .. فسيقرأون فى هذه التقارير مدى تدهور هذا المحصول الرئيسى فى رتبه تدهوراً كبَّد البلاد خسائر جسيمة ــ وقد يكون معلوماً أن قيمة القطن المصرى الاقتصادية ليست فى كميته وإنما فى نوعيته ورتبته فمحصول القطن المصرى كماً لايعدو ٦٪ من المحصول العالمى .

أما أسباب التدهور فليس هنا مجال تفصيلها . ولكننى أستطيع أن أضع بين يدى القارىء تجربة معينة قد يفهم منها بعض هذه الأسباب :

عهد إلىّ فى أواخر الخمسينيات القيام ببحث عن أسباب وجود بقع سوداء فى القطن المصرى تظهر آثارها فى النسيج ؛ فاقتضى ذلك أن أمكث شهراً فى منطقة زراعية معينة فى زمام مركز أبوحمص من مناطق الإصلاح الزراعى .

وكان من دأبى إذا باشرت عملًا من الأعمال أن أمتزج بالعاملين فيه على اختلاف مستوياتهم حتى يكون الشعور السائد بينى وبينهم الحب والاطمئنان .

وكان يعمل فى هذه الأرض « باشخولى » رجل ذكى كبير السن ذوخبرة وحنكة ، وكان يعاوننى فى بحثى . وهو بطبيعة الحال موظف فى الإصلاح الزراعى ــ وقد كنت أتمنى أن تجمعنى الظروف برجل منصف مجرب عاش طول حياته فى الزراعات وباشرها بنفسه قبل الإصلاح الزراعى وبعده لألقى عليه السؤال الذى يتلجلج فى خاطرى عن أثر قانون الإصلاح الزراعى فى الإنتاج الزراعى ــ على أن يجيبنى إجابة صريحة دون خوف ولاوجل ــ وقلّ فى تلك الأيام التى نتحدث عنها من كان يجرؤ على المصارحة بحقيقة مايعلمه عن ذلك إن كان فيما يعلم مايمس هذا القانون من قريب أو من بعيد .

انتهزت الفرصة وألقيت هذا السؤال على هذا الرجل الخبير المحنك الذى أحبنى واطمأن إلىّ كل الاطمئنان .

فكانت إجابته الآتى :

« المزارع الثرى الذى أخذ أرضاً من الإصلاح الزراعى استطاع أن يصرف عليها من جيبه فأعطاها حقها من الخدمة والتقاوى والسماد فأنتجت إنتاجاً طيباً ــ أما المزارع الفقير المعدم الذى أخذ أرضاً من الإصلاح الزراعى والذى يعتمد على ما تمده به هيئة الإصلاح الزراعى من لوازم الزراعة فإنه ازداد فقراً لأن هيئة الإصلاح الزراعى لاتمده

إلايجزء ضئيل من لوازم الزراعة ؛ ولما كانت الأرض فى حاجة إلى استكمال حقها من هذه اللوازم وليس عنده ما يشترى به فإن أرضه لاتكاد تنتج مايكفيه شخصياً لطعامه ولايستطيع أن يسدد شيئا مما عليه لهيئة الإصلاح فتتراكم عليه الديون ــ ولما كانت الكثرة الغالبة من المنتفعين بالإصلاح الزراعى من الصنف الأخير فإن الإنتاج الزراعى فى مجموعه قد تدهور كماً وصنفاً ».

* * *

وقد سُقت هذه الواقعة لألفت النظر إلى أن الإخوان المسلمين حين حددوا الخمسمائة فدان حداً أعلى للملكية الزراعية لم يكونوا رافضين للإصلاح الزراعى ولا أعداء للحكومة ولا معوقين لمشاريعها ؛ وإنما كانو يريدون أن يجنبوا البلاد ماكان لابد أن يحيق بها من خسائر مادية واجتماعية نتيجة الأخذ بمشروع الحكومة دون تعديل .

ولكن رجال الثورة بالرغم من ضآلة إلمامهم بالعلوم الزراعية والاجتماعية وعدم خبرتهم فى هذه الشئون أصروا على أن يؤخذ بمشروعهم دون تعديل كأنما أنزل من لدن حكيم حميد .. وقد كان هذا الإصرار السبب فى إقصاء على ماهر عن رياسة الوزارة لأنه لم يكن يرى أن يؤخذ بهذا المشروع دون تعديل .

ولما كان هذا الإصرار من أمثال هؤلاء الرجال غير المختصين مثاراً للاستغراب ومدعاة للدهشة فقد رأيت استقصاء هذا الأمر بحثاً عن الدوافع القوية التى لابد أنها كانت وراء هذا الإصرار حتى سلبت هؤلاء الرجال القدرة على الاستماع لآراء المختصين أوالتفاهم مع أصحاب الرأى الآخر .. ولا أكتم القارىء إذا قلت له إن بحثى عن هذه الدوافع هو الذى جعلنى أخص هذا المعلم بالذات من معالم الخلاف باهتمام كبير وأن أوسع له من الصفحات .. ذلك أن الدافع الذى عثرت عليه لايلقى بظلال من الريبة والشك على المشروع فحسب بل إن هذه الظلال قد تمتد وتمتد إلى ماهو أبعد من ذلك ..

وقد انتهى بى الاستقصاء إلى أن هذا المشروع مستوحى من جهة أجنبية ولم تكن هذه الجهة الأجنبية إلاوزارة الخارجية الأمريكية .

* * *

المشروع الامريكى للإصلاح الزراعى بمصـــر

جاء فى « أخبار اليوم » يوم ٦ /٩ /١٩٥٢ تحت العنوان الآتى :

وزارة الخارجية الأمريكية تضع تقريراً عن الملكية الزراعة فى مصر .
إذا وزعت الملكية توزيعاً عادلًا تغير تكوين البرلمان والأحزاب المصرية
رجال الأحزاب ينسون خلافاتهم ويتحدون ضد إصلاح أحوال الفلاح

نيويورك ــ من عبد الحميد الكاتب :

وضعت وزارة الخارجية الأمريكية بحثاً مفصلًا عن مشكلة إصلاح الملكية الزراعة فى مصر تناول سوء توزيع هذه الملكية وأثره فى حياة مصر السياسية .

والتقرير من وضع « مكتب **الأبحاث السرية** بوزارة الخارجية » وقد أحيط بالسرية التامةفطبع منه على الرونيو بضع نسخ لم تصل إلا إلى أيدى المختصين بشئون مصر من المسئولين فى الوزارة ــ وقد استطاع مراسل « أخبار اليوم » أن يحصل على نسخة من التقرير يلخصها فى المقال التالى :

يبدأ تقرير وزارة الخارجية الأمريكية بذكر الحقيقة التى يعرفها العالم كله عن مصر وهى : « برغم أن الزراعة تسيطر على الاقتصاد المصرى إلا أن الغالبية الكبرى من السكان الزراعيين يعيشون فى مستوى من الحياة غير ملائم ؛ وبالتالى ليس لهم نفوذ سياسى فى أمر بلادهم . بينما استأثر عدد قليل نسبياً من كبار الملاك ، بفضل مالهم من ثروة ومن قوة اقتصادية بزمام القوة السياسية التى يستغلونها لحماية مصالحهم الذاتية ..

ويضرب التقرير مثلا على هذه الحقيقه تكوين مجلس النواب الأخير ومقدار ما يملك أعضاؤه من الثروة الزراعية التى ظفروا عن طريقها بمقاعد النيابة عن الشعب الذى يعيش على الزراعة،ومع ذلك لايملك زهاء أربعة عشر مليوناً منه سهماً واحداً من الأرض .

فمن أعضاء هذا المجلس خمسة يملك كل منهم أكثر من ألف فدان ــ وأربعون يملك الواحد منهم أكثر من خمسمائة فدان ــ وستون تزيد ملكية الواحد منهم على مائة فدان ــ وثلاثة وسبعون يديرون تفاتيش زراعية واسعة .

نعم كان فى هذا المجلس حوالى مائة عضو لايعدون من الملاك الزارعيين ، ولكن منهم

عددا من كبار الصناعيين وكبار الرأسماليين ، كما أن منهم عددا من أصحاب المهن الحرة ذات الأرباح الجزيلة كالمحاماة والطب والصحافة .

وعلى هذا النسق يتألف مجلس الشيوخ ، مع فارق واحد هو أن أعضاءه أوسع أملاكا وأكثر ثراء .

ومعنى هذا أن البرلمان الذى يمثل بلداً غالب سكانه من العاملين بأيديهم فى الزراعة ، لايضم أحدا من هؤلاء الفلاحين ، وإنما تتألف غالبية مجلسيْه ممن يستغلون هؤلاء الفلاحين .

ولو كانت الأراضى الزراعية موزعة على العاملين فيها توزيعاً يقارب أوضاع العدالة الاجتماعية ولو إلى حد ما ، لتغير تكوين البرلمان المصرى وتكوين الأحزاب السياسية المصرية ، بل لتغير الوضع السياسى الداخلى فى مصر تغيرا تاما .. ذلك أن هؤلاء الفلاحين ؛ ملاكاً صغاراً ومستأجرين وأجراء يكونون الغالبية الكبرى من الشعب المصرى ؛ فبعض الإحصاءات تقدرهم بنسبة ٦٩٪ من مجموع السكان ، وبعضها تقدرهم بأكثر من ٧٥٪ من هذا المجموع .. وهم ليسوا بالجزء الأكبر من السكان فحسب ، بل هم أيضاً مصدر أكبر جزء من الدخل الأهلى — فإليهم وحدهم يعود ٤٥ ٪ من الدخل الأهلى فى مصر كلها .

التقدم و الفقر :

ومما يزيد الأمر خطورة أن شؤن الفلاحين لاتنصلح ولا تتحسن بتقدم الحياة فى مصر بوجه عام . بل هى على النقيض من ذلك تزداد على الأيام سوءاً وتأخراً . ونظرية المفكر الاجتماعى هنرى جورج عن « التقدم والفقر » تنطبق انطباقاً حرفياً على مصر، فكلما تقدمت فيها الحياة العامة ازدادت الغالبية الكبرى من أهلها فقراً وتأخراً .

والأرقام تبرز هذه الحقيقة : ففى خلال السنين الخمسين الأخيرة زاد عدد سكان مصر بنسبة ٩٧ ٪ وثلاثة أرباع هؤلاء الزائدين من الفلاحين . أما الأرض التى يزرعونها فلم تزد إلابنسبة ١٢ ٪ فبينما كان نصيب الفرد من الأرض الزراعية فى سنة ١٨٩٧ أكثر من نصف فدان صار نصيبه فى سنة ١٩٤٧ أقل من سبعة قراريط .. وفضلاً عن ذلك فإن الجزء الأكبر من الأرض التى أصلحت خلال نصف القرن الأخير أضيفت إلى أراضى كبار الملاك الذين استطاعوا بفضل مالديهم من مال أن يشتروا بثمن لايكاد يذكر مساحات واسعة من الأراضى البور ويستصلحوها أو استطاعوا بفضل مالديهم من نفوذ سياسى أن يشتروا بأزهد الأثمان ما أصلحته الحكومة من الأراضى البور ... ومعنى هذا بعبارة مختصرة أن تقدم الحياة فى مصر وزيادة أراضيها المزروعة يزيد الغنى غنى والفقير فقراً .

ومثل هذا يقال أيضاً عما طرأ خلال فترة الحرب وماأعقبها من ارتفاع فى أسعار المحصولات الزراعية ؛ فإن أكثر الغنم من هذه الزيادة عاد على المالك لاعلى المستأجر أو الأجير . فمثلاً فى سنة ٣٨ / ١٩٣٩ كان متوسط إيجار الفدان ثمانية جنيهات وفى سنة ٤٢ / ١٩٤٣ زاد إلى ١٥ جنيها وفى ٤٤ / ٤٥ زاد إلى ١٩ جنيها وفى ٥٠ /٥١ زاد دفعة واحدة إلى أكثر من ثلاثين جنيهاً ــ حدثت هذه الزيادة المطردة السريعة الضخمة فى إيجارات الأراضى فاستغرقت أكثر ماطرأ من زيادة على أسعار القطن وغيره من المحصولات الزراعية . وبذلك بقى المستأجر على حاله بينما ازداد دخل أصحاب الأراضى زيادة هائلة .

وفى كثير من الحالات لايحدد المالك إيجار أرضه ، بل يفرض له حداً أدنى على المستأجر أن يدفعه مهما كانت غلة الأرض ومهما كان سعر المحصول . أما إن جاءت الغلة سخية وكان السعر مرتفعاً قاسم المستأجر مازاد على الحد الأدنى .

ولو كانت هناك قوانين تعطى المستأجر نصيباً معتدلاً مما يطرأ على أسعار محصولاته من زيادة وتحميه عندما يصاب المحصول فى كميته أو فى ثمنه لتحسن حال هذه الطبقة الكبيرة بفضل ماطرأ على أسعار المحصولات الزراعية من زيادة خلال الحرب وبعدها . ولكن انعدام هذه القوانين أدى إلى بقاء طبقة المستأجرين ــ وهم على أى حال أقل سوءاً من طبقة الأجراء ــ تعيش مثلما كانت تعيش قبل الحرب ؛ فى حين أن خزائن كبار الزراعيين تكدست بالأموال التى يشترون بها أملاكاً جديدة يضيفونها إلى أملاكهم الحالية ، أويستغلونها فى مشروعات صناعية تعود عليهم بدخل جديد .. وهذا وذاك يؤديان إلى تركيز الملكيات الكبيرة فى أيد قليلة ، وكذلك سيطرة الملاك الزراعيين تدريجياً على الحياة الصناعية .

الأحزاب السياسية ونظرتها إلى الفلاح :

ويعرض تقرير الحكومة الأمريكية لموقف الأحزاب السياسية المصرية من مشكلة الفلاح المصرى ؛ وكيف أن هذه الحالة المؤسفة لم تثر اهتمام هذه الأحزاب اهتماماً حقيقاً عملياً بما تعانيه الغالبية الكبرى من الشعب المصرى .

فالفلاح المصرى لايكاد يسمع من رجال هذه الأحزاب كلمة عطف واهتمام إلا فى أيام المعارك الانتخابية ، ولكنه أدرك بالتجربة المتكررة خلال السنين الأخيرة أن ما يبذل له من وعود أثناء الانتخابات لاتغنيه من فقره وبؤسه شيئاً ، وأن صلته بنائب دائرته وبالتالى بالحزب السياسى الذى انتخب مرشحه تنقطع ساعة يغادر مقر لجنة الإنتخاب .

ونظرة سريعة إلى برامج الأحزاب السياسية المهمة فى مصر من حيث إصلاح الريف وتحسين حال الفلاح ترينا أنها عبارات غامضة جوفاء لايمكن أن تكون برنامجاً أو أساساً لعمل أو حتى مجرد دليل على أن حال الفلاحين المصريين شغل من أذهان واضعى هذه البرامج

والمشرفين عليها جانباً حقيقياً من الاهتمام .

فحزب الوفد مثلاً يقول برفع مستوى الحياة ..! وحزب الأحرار الدستوريين يقول بتخليص الشعب من شبح الفقر والجهل والمرض ..! وحزب الكتلة بقول بالضمانات اللازمة للتحرر من العوز ..!

وهكذا وهكذا .. ولا توجد أحزاب سياسية فى بلد يسير على نظام برلمانى صحيح بلغت برامجها فى الشؤن الداخلية من الغموض والسطحية مبلغ برامج هذه الأحزاب المصرية .

ولكن للمسألة جانبا آخر هو أن هذه الأحزاب لم تجعل برامجها غامضة وسطحية هكذا من باب الجهل بما يجب عمله للفلاح والريف ، وإنما لأن من مصلحة القائمين على أمرها والموجهين لسياستها أن يبقى الفلاح على ماهو عليه فقراً ومرضاً وجهلاً .. ومظهر ذلك أن هذه الأحزاب تحتدم بينها الخصومة والعداوة ماتحتدم ، وينال بعضها من بعض بالتهم والسباب ماينال ؛ حتى إذا عرضت لأمر خاص بتحسين حال الفلاح تحسيناً جوهرياً ملموساً ؛ تنسيت مابينها من خلاف ووقفت جميعاً صفاً واحداً فى البرلمان ..

كان هذا هو شأنها عندما عرض على مجلس الشيوخ منذ سنين مشروع بأن لايسمح لمن يملك مائة فدان فأكثر أن يستزيد من الأرض الزراعية (مشروع محمد خطاب) وكذلك المشروعات التى كان يتقدم بها أحمد حسين عندما كان وزيراً للشئون الاجتماعية أو موظفاً بوزارتها لإدخال بعض الإصلاحات فى الريف المصرى عن طريق المراكز الاجتماعية الريفية ؛ فإنها كانت تقابل بكثير من المعارضة ؛ يشترك فيها متضامنين متآزرين كبار الملاك من أعضاء هذه الأحزاب السياسية المتخاصمة التنافرة .

التصنيع وحده لايحل المشكلة :

ويعرض تقرير الحكومة الأمريكية إلى ماتدور به أقلام الكتاب ، وما يقال أحياناً على منصة البرلمان ، من مقترحات لتحسين حال الفلاح المصرى . وأهمها أمران :

زيادة الأراضى الصالحة للزراعة ، والشروع فى تصنيع البلاد .

ويرى التقرير أن كلا من الأمرين لايحل المشكلة .. فأما الأراضى الصالحة للزراعة فإن أقصى ما يمكن زيادته منها — وفق أكثر الدراسات تفاؤلاً — هو مليون وثلث مليون فدان . تشمل الأراضى البور فى شمال الدلتا وعلى جانبيها ، كما تشمل تحويل مناطق الصعيد الأقصى من رى حياض إلى رى دائم .

فإذا تم هذا على مايقتضيه من أموال ضخمة تنفق فى شق الترع وحفر المصارف

وإنشاء شبكات كهربائية وتنفيذ مشروع منخفض القطارة ، وتعلية خزان اسوان وإنشاء خزانات أخرى على النيل ، إذا تم هذا صارت الأرض الزراعية فى مصر أكثر قليلاً من سبعة ملايين فدان فى حين أن عدد سكانها الذين يتزايدون بنسبة ٥ , ١ ٪ سنوياً سيبلغ فى سنة ١٩٦٠ اثنين وعشرين مليون من البشر .

وبذلك سيظل مستوى الحياة على ماهو عليه الآن برغم هذه الزيادة فى مساحة الأرض ـــ حقيقة إن إصلاح هذه الأرضى البور ، وزيادة الأراضى الصالحة للزراعة قدر الإمكان أمر محتوم حتى لاتهبط حياة الفلاح عما هى علية الآن من مستوى منخفض إلا أن هذا ليس هو الحل لتحسين حال الفلاح ورفع مستوى حياته .

وكذلك التصنيع.. فمع أن هذا أمر ميسور من حيث اليد العاملة ومن حيث القوة المحركة ؛ لأن العامل المصرى أثبت خلال عمله بمصانع قوات الحلفاء أثناء الحرب أنه يستطيع أن يصبح عاملاً صناعياً ماهراً ، ولأن من الممكن توليد قوة كهربائية ضخمة من خزان أسوان وغيره من مساقط المياه ؛ فضلاً عما فى مصر من منابع للبترول ـــ إلا أن هذا التصنيع لن يؤدى مع الوضع الاقتصادى الراهن فى مصر إلا إلى خلق مشكلة جديدة .. ذلك أن أى بلد ناشىء فى الصناعة لايستطيع أن يعتمد فى تصريف منتجاته الصناعيه على الأسواق العالمية التى احتكرتها البلاد المتقدمة فى الصناعة ، إنما يعتمد على السوق المحلية وحدها . فإذا ظل مستوى الغالبية الساحقة من الشعب المصرى منخفضاً ، وظل دخلها ضئيلاً فإن الاستهلاك المحلى سيكون من القلة ، والسوق المحلية ستكون من الكساد بحيث لاتستطيع هذه الصناعات التى تنشأ فى مطر أن تعيش وتزدهر . وبالتالى تخلق مصر لنفسها مشكلة جديدة حين يصبح إنتاجها الصناعى بلاسوق تستهلكة لافى الداخل ولا فى الخارج .

لابد من تحديد الملكية الزراعية .

« إن أى إصلاح ريفى فى مصر يراد أن يكون له أثر حقيقى لايمكن أن يتجنب موضوع إعادة توزيع الأراضى الزراعية توزيعاً عادلاً ».

هذه هى النتيجة التى ينتهى إليها تقرير الحكومة الأمريكية . كما يرى أن زيادة الأراضى الصالحة للزراعة ، وإنشاء المشروعات الصناعية والتوسع فيها ، يجب أن يسبقه توزيع الملكية الزراعية من جديد توزيعاً يقترب من أوضاع العدالة الاجتماعية .

وليس توزيع الملكية الزراعية على أكبر عدد من العاملين فى الزراعة بشىء جديد يراد تجربته فى مصر ، فقد سبقتها فى ذلك عشرات من الدول فى أوربا وآسيا وأمريكا الجنوبية ، وكانت هذه هى الطريق الوحيدة لتخرج بها هذه الدول الزراعية من ظلمة العصور الوسطى التى يفرضها النظام الإقطاعى إلى نور العصر الحديث الذى يتميز عن

سواه من العصور بمبادىء العدل الاجتماعى والتقارب بين طبقات المجتمع .. وقد لجأت بعض هذه الدول إلى تحديد الملكية الزراعية فيها تحديداً تقشعر له أبدان كبار الملاك فى مصر لو سمعوا به ..

ويتناول تقرير الحكومة الأمريكية مايوجه من اعتراضات إلى مبدأ توزيع الملكيات الكبيرة على صغار المزارعين فى مصر، وأهمها الاعتراض بأن تفتيت الملكيات الكبيرة سيحول دون استخدام الوسائل الفنية الحديثة التى يمكن أن تستغل فى الملكيات الكبيرة وحدها . ويرد على هذا الاعتراض بأن واقع الأمر فى مصر أن أكثر الملكيات الكبيرة لاتزرع بالوسائل الحديثة .. وإنما وفق الوسائل القديمة التى ألفها الفلاحون .. ذلك أن العزب والتفاتيش الكبيرة إنما تؤجر قطعا صغيرة للفلاحين يزرعونها بوسائلهم العتيقة ، ثم يأخذ المالك أقصى مايستطيع من المحصول أو الإيجار . وقليل جداً من هذه المزارع الكبيرة مايزرع بوسائل حديثة بالمعنى الصحيح ، وهى وسائل يمكن الأخذ بها فى المزارع الصغيرة إذا أنشىء لها نظام تعاونى دقيق ..

وفضلاً عن ذلك فإن من المشكوك فيه أن الوسائل الفنية الحديثة أجدى فى زراعة الأرض المصرية من الوسائل القديمة . والدليل على ذلك أن محصول الفدان المصرى من القطن ومن الذرة هو أعلى محصول منهما فى العالم كله ، بما فيه البلاد التى تزرع بأحدث الوسائل العلمية مثل أمريكا . ويرى بعض الخبراء الزراعيين أن التربة المصرية ذاتها وقرب المياه من سطح الأرض وقلة الأمطار أو انعدامها تجعل الأدوات القديمة كالمحراث أصلح من الأدوات الحديثة التى تتعمق فى الأرض وتقلب تربتها بطناً لظهر فتعرضها للجفاف الشديد.

وسواء كان من الصالح اتباع الطرق الحديثة أو الإبقاء على الطرق القديمة ، فإن تكوين أكبر عدد ممكن من الملكيات الصغيرة التى يعود دخلها على من يزرعونها بأنفسهم لن يخلق مشكلة فى مصر .. وإنما المشكلة الحقيقية هى هذه الطبقة من كبار الملاك الذين يسيطرون على البرلمان المصرى وعلى الأحزاب المصرية — وبذلك يفرضون على مصر من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية مايتفق ومصالحهم الخاصة ، ويتنافى مع مبادىء العدالة الاجتماعية وأوضاع الاقتصاد الزراعى السليم .

* * *

ملاحظات حول هذا المشروع الأمريكى.
أو حول هذا التقرير الأمريكى.

بعد أن نقلنا إلى القارىء تقرير وزارة الخارجية الأمريكية عن الملكية الزراعية فى مصر ، ينبغى أن يكون لنا بعض الملاحظات :

١ ـ كان المفروض فى مشروع زراعى وفى بحث زراعى أن يكون وضعه من اختصاص وزارة الزراعة الأمريكية إن كان للحكومة الأمريكية حق التصدى له ـ ولكن التقرير كان من وضع وزارة الخارجية ومن وضع مكتب الأبحاث السرية فيها ..

٢ ـ أن هذا التقرير باعتباره بحثاً سرياً سمح بنشره فى هذا التاريخ ، يوحى ذلك بأن سريته لم يعد لها داع فقد أدت سريته دورها بتبنى حكومة مصر له بحذافيره . وكأن الذين قاموا بتبنيه كانوا على علم سابق به وبالجهة التى وضعته .

٣ ـ ماهى الدواعى والدوافع وراء اهتمام دولة عظمى مثل امريكا حتى إنها أتعبت باحثيها السريين لوضع هذا التقرير عن مصر .. ولابد أنها عملت على إيجاد من يتبناه وإلا لما أجهدت نفسها وأتعبت باحثيها فى وضعه ، وإلا لكان أليق به أن يكون بحثاً أكاديمياً من وضع وزارة الزراعة الأمريكية أو أحدى الجامعات الأمريكية . أما وزارة الخارجية فإنها لاتضع التقارير والبحوث إشباعاً للناحية الأكاديمية ولا بدافع من الشغف العلمى ؟؟

٤ ـ المقصود من بحث وزارة الخارجية الأمريكية هذا هو أن يؤدى إلى تغيير الوضع السياسى الداخلى فى مصر تغييراً تاماً ـ كما جاء ذلك صراحة فى صلب التقرير ـ فهل كان هذا التغيير يهم حكومة الولايات المتحدة إلى هذا الحد ؟ وهل هى من الغيرة على مصر وعلى فلاحيها بهذه الدرجة من الغيرة حتى إنك لتلمح فى التقرير وعباراته ملامح التلهف والإلحاح ؟

٥ ـ لما استعرض التقرير برنامج الأحزاب السياسية فى مصر فيما يتعلق بإصلاح الريف وتحسين حال الفلاح ذكر أحزاباً مصرية لايكاد يكون لها نصيب يذكر

من القاعدة الشعبية ــ وأغفل عن عمد القوة السياسية الكبرى وهى « الإخوان المسلمون » مع أن مركز الأبحاث السرية بوزارة الخارجية الأمريكية يعلم تمام العلم بأن لهذه القوة السياسية برنامجاً محدداً وجهوداً عملية فيما يتصل بالإصلاح الريفى وغير الريفى وتحسين أحوال الفلاحين وغير الفلاحين ، وأن هذه الهيئة تضم أكبرعدد من الفلاحين والعمال .

٦ ــ فى تلك الحقبة الدقيقة من الزمن كانت وزارة الخارجية الأمريكية ومركز أبحاثها يعلمان ، كما كان كل المراقبين السياسيين فى أنحاء العالم يعلمون أن الجو فى مصر صار مهيأ تماماً لتغيير جذرى فى الحكم ، وأن النظام القائم بها قد استنفد أغراضه واستوفى أيامه ، وأن الجميع ينتظرون الحكم الإسلامى الخالص .

فهل رأت وزارة الخارجية الأمريكية أنها أصبحت أمام الواقع من أن التغيير واقع فى مصر لامحالة ؛ فلتتدارك الأمر ، وليكن هذا التغيير لحساب أى شيء ، ولولحساب الشيطان ، قبل أن يكون لحساب الحكم الإسلامى الذى هو العائق الأكبر لأطماعها.. فكان هذا البحث أحد مقدمات لابد منها لإنجاح تكتيكاتها .

وإلا فلننظر إلى شعوب الكاريبى وشعوب أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى وكلها شعوب تعيش فى ظل سياسة الولايات المتحدة منذ أكثر من خمسين عاماً وتسيطر على اقتصادها الشركات الأمريكية . ومع ذلك فهذه الشعوب تعانى أسوأ مستوى معيشة فى العالم .. أفلم تكن هذه الشعوب أولى بهذا العطف الأمريكى ؟

٧ ــ إن التركيز على الناحية السياسية فى هذا التقرير مع التوصية باستبعاد كل وسيلة أخرى للإصلاح يوحى بأن وزارة الخارجية الأمريكية وضعت خطة جديدة للتعامل مع شعوب الشرق الأوسط والعالم الإسلامى ؛ فبدلًا من التحدث مع حكومات تستمد سلطتها من قواعد شعبية ذات نفوذ لا تستطيع إبرام أمر دون موافقة هذه القواعد ، فإنها إذا فتتت هذه القواعد وحطمتها تستطيع أن تمهد أسباب الحكم لرجل واحد توجهه فيتوجه دون أن يكون فى البلاد من يحاسبه أو يراجعه .

* * *

الفصل الرابع

الحكم الدستورى

مطالبة الحاكم بالحكم الدستورى معناه أن يتنازل هذا الحاكم عن سلطات حكم الفرد إلى حكم يقوم على الشورى ينبع من الشعب بحيث لايبت فيه بأمر إلا بموافقة ممثلين للشعب يختارهم بنفسه .

وتوضيحاً لهذا نقول : إذا فرضنا أن جمال عبد الناصر وافق الإخوان وأصدر أمراً بالحكم بالشريعة الإسلامية،فهل كان الإخوان يكتفون بذلك دون مطالبته بالحكم الدستورى؟ والإجابة على ذلك هى أن الإخوان كانوا سيطالبونه أيضاً بالحكم الدستورى ؛ لأن فى الاكتفاء بذلك دون هذه المطالبة خطورة .. فالذى أصدر أمراً بشيء ، قادر — إذا هو تغير مزاجه أو وجد فى ذلك ما يتعارض مع مصالحه — أن يصدر أمراً بإلغاء هذا الشيء أو بتعديله أو بالانتقاص منه أو الزيادة عليه .

أما مطالبة الإخوان بالحكم الدستورى فمعناها تقليم أظفار الحاكم ، والحد من سلطته ، ونقل هذه السلطة إلى الشعب ، ونقل الحاكم من دائرة شعوره بأنه القيّم على الشعب ، القاهر فوقه ، المتصرف فى شئونه كما يشاء — إلى دائرة شعوره بأنه خادم للشعب وأجير عنده ، مرهون وجوده فى الحكم برضا هذا الشعب عنه .

نعم إن الحكم بالشريعة الإسلامية يتضمن فيما يتضمن معنى هذا التعبير الاصطلاحى « الحكم الدستورى » وإن كان يعبر عنه بالشورى ، غير أن الناس فى عصرنا هذا حين يرون الحاكم قد أقام الحدود اعتقدوا أنه قد حكم بالشريعة الإسلامية متناسين أن إقامة الحدود ليست إلاجزءاً يسيرا من الشريعة الإسلامية . ويلجأ بعض حكام البلاد الإسلامية إلى استغلال هذا الفهم الناقص فى شعوبهم ويقيمون الحدود ويقفون من الحكم الإسلامى عند هذا الحد ، وينطلقون فيما سوى ذلك فى الحكم بأهوائهم .. وهذا هو الذى دعا الإخوان المسلمين إلى المطالبة بالحكم الدستورى باعتباره المقدمة التى لابد منها والضمان الذى لاغنى عنه فى إرساء سياج متين حول الحاكم يحول بينه وبين الانحدار مع أهوائه ، فإذا ضَمِنّا إحاطة هذا السياج بالحاكم رجونا من وراء هذا الحاكم كل خير .

وقلما يستجيب الحكام لهذا المطلب لما فيه من قيود عليهم . وإن كان هو فى حقيقة

الأمر فى صالحهم لأنه يعينهم على أنفسهم . ولكن شهوة السلطة ، وحب السيطرة ، وجموح الآمال تتغلب فى أكثر الأحوال وتستبد بالحاكم حتى لايكاد يتألق بين عينيه غيرها .. وهذا هو ما كان من أمر جمال عبد الناصر .. ولكن جمالا كأى حاكم لايحب أن يعرف عنه ذلك ، فيحاول عادة أن يتستر وراء شعارات يطلقها ويحيط شخصيته بهالاتها ، ووعود يعلل بها المطالبين ريثما تتاح له فرص لتأجيلها أو للتخلص منها .. وإلى القراء مثالاً من هذه الأساليب :

فى أول اجتماع لمجلس الثورة بعد ٢٣ يوليو سنة ٥٢ عرض جمال عبد الناصر على المجلس إقتراحاً للاتفاق على نظام الحكم وهل يكون حكماً استبدادياً بالمفهوم الدستورى أم يكون حكماً نيابيا ؟

وعند أخذ الأصوات وقف جميع الأعضاء إلى جانب النظام الاستبدادى ـــ ووقف جمال عبد الناصر وحده إلى جانب الرأى الآخر .

وبإعادة أخذ الأصوات مرة أخرى تكرر الوضع !! وعندئذ غادر جمال المجلس معلناً استقالته من جميع مناصبه ، وذهب إلى منزله ـــ فذهب الجميع إليه فى منزله معلنين نزولهم عند رأيه .

وردت هذه الواقعة فى كتاب « البحث عن الذات » للسادات ، وقد علق عليها بأنها لم تكن إلا مناورة من جانب جمال ـــ كما أوردها « البغدادى » فى مذكراته وعلق عليها بنفس التعليق .

لما ذهب زملاؤه إليه فى منزله لاسترضائه ونزلوا عند رأيه ـــ ماالذى تم عليه الاتفاق ؟ هل تمسك بالحكم النيابى مباشرة كما كان منتظراً من رجل فضل الاستقالة على الحكم الاستبدادى ؟

لقد تم الاتفاق على إجراء انتخابات نيابية بعد ستة أشهر وتعليق ذلك على شرط أن تقوم الأحزاب بتطهير نفسها .

وهل تم إجراء الانتخابات بعد ستة أشهر ؟

لم يتم شىء من ذلك .. ولكن أعلن عن تكوين لجنة من ثلاثين عضواً لوضع مشروع دستور جديد .. ثم أعلن بعد ذلك عن اقتراح بتكوين لجنة من مائة عضو يؤخذون من النقابات والهيئات لوضع الدستور وإقراره .

وقد كان الشعب يتلقى هذه الاقتراحات والوعود على أنها وعود صادقه . ويأخذها مأخذ الجد ويعلق عليها فى الصحف ، ونقتطف تعليقاً للأستاذ محمد زكى عبد القادر فى

« أخبار اليوم » فى ٢٩ / ١١ / ١٩٥٢ تحت عنوان « لامائة ولا ألف » يقول فيه :

« أجل .. لالجنة من مائة أو من ألف . بل لابد من جمعية وطنية تنتخب انتخاباً حراً ، إذا أريد وضع دستور جديد . وقد وضعت الدستور الحالى لجنة من ثلاثين عضواً وصدر على أنه منحه من الملك للشعب .. والمانح يستطيع أن يسترد إذا أراد .

وما معنى اقتراح لجنة من مائة يؤخذون من النقابات والهيئات ؟ وفضلا عن ذلك فليست النقابات فى مصر هيئات رأى، ولكنها جماعات للدفاع عن المصالح المادية لطوائفها ، ثم إن ثلاثة أرباع الشعب ليست له نقابات تمثله ».

وهكذا ظل جمال عبد الناصر فى إذاعة اقتراحات بلجان تجتمع وتنفض ، وإنجازاتها من مشاريع لدستور مجرد حبر على ورق ، وفى إطلاق وعود ومواعيد حتى استطاع أن يمد فترة الانتقال التى كان حددها بستة أشهر إلى ثلاث سنوات تبدأ من يناير ١٩٥٣ .

حساسية جمال لهذا المطلب :

فى الوقت الذى كان الشعب فيه فى أشد الشوق إلى حكم دستورى ثمرة لهذه الثورة ، كان جمال عبد الناصر حريصاً كل الحرص على شغل الشعب عن إثارة هذا المطلب بكل وسيلة ممكنة . وقد استطاع خلق ظروف شغلت الشعب فعلاً فترات من الزمن بما أسماه تطهير الأحزاب ثم باعتقال زعماء هذه الأحزاب ثم تقديم هؤلاء الزعماء إلى محاكمات طال أمدها .. ولكن جهات ثلاثاً عجز جمال عن شغلها بشىء عن مطالبته بالحكم الدستورى ، وهذه الجهات الثلاث هم بعض زملائه من أعضاء مجلس الثورة الذين رفضوا مجاراته فى أسلوبه هذا الذى يعتبر نكثا لعهود الثورة — والإخوان المسلمون الذين أصروا على هذا المطلب وجعلوه أساس كل تعاون بينهم وبين مجلس الثورة — والصحافة الحرة لتى تمثلها جريدة« المصرى » .

ويعرض الأستاذ أحمد أبو الفتح فى كتابه « جمال عبد الناصر » مثالاً يدل على مدى حساسية جمال عندما يثار هذا المطلب فيقول « اتصل بى البكباشى يوسف صديق — وكان لايزال عضواً بمجلس الثورة — ذات يوم وطلب منى الحضور إلى نادى ضباط الجيش بعد الظهر للتشاور فى أمر هام — ذهبت إلى النادى فوجدت بعض الصحفيين ويوسف صديق واليوزباشى حمروش وبعض المدنيين ، واجتمعنا جميعاً حول مائدة فى إحدى غرف النادى — وتحدث البكباشى صديق فقال : إننا فكرنا فى إنشاء مجلة اسمها « التحرير » .

ودهشت لهذا الذى يقوله صديق ، ولم أتمالك أن قلت « مجلة .. مجلة يملكها الجيش .. هل ستستقيل من الجيش وتنشر المجلة ؟».

فقال : صبراً .. صبراً .. لن أستقيل من الجيش .

ودارت المناقشة وقتاً غير قصير وانتقلنا من الحجرة إلى حديقة النادى فانتحى بى صديق جانباً وقال : إنه لابد من صدور هذه المجلة .. إنك لاتفهم ماأقصد من إصدارها .. إننا نريد أن نربط الجيش بالأهداف التى أعلناها صباح قيام الحركة فى البيان الذى أذاعه محمد نجيب ليلة ٢٣ يوليو — لاتنس أننا بشر .. وأن الجيش الآن هو الذى يحكم مصر .. وأن استمرار الحال على هذا المنوال ستكون نتيجته أن الأمور ستنتهى بأن لايعود الجيش إلى ثكناته .. وبأن لايقوم فى مصر برلمان .. لابد من صدور هذه المجلة لنربط الجيش بأهدافه .. وليس ذلك فحسب ، بل إنى كلفت أحد الرسامين بعمل رسم يرمز إلى أن الجيش قام بالحركة لحماية الديمقرطية .. وها هو ذا الرسم ..

وأطلعنى على اللوحة فإذا بها مبنى البرلمان وقد رفرف على قبته العلم المصرى ، ووقف إلى جوار المبنى جندى جيش شاهراً سلاحه . وقد كتب تحت الرسم (نحن نحمى الدستور) .

كان هذا فى الأسابيع الأولى بعد بدء الحركة (الثورة) . ورغم عدم اقتناعى بعمل من شأنه أن يصدر الجيش مجلة توزع فى الأسواق ، وتباع كعمل صحفى تجارى ؛ إلا أنى أمام الحجج التى ذكرها لم يسعنى إلا السكوت فلم أبد موافقة أو معارضة للأمر .

ونفذ البكباشى صديق خطته .. وذات صباح كانت كل شوارع القاهرة بل والمدن الكبرى بالقطر المصرى قد لصق عليها لوحات (نحن نحمى الدستور) .

ورأيت أن أنشر صورة اللوحة بالصفحة الأولى من جريدة « المصرى » ولكن فوجئت بأن التعليمات التى كانت تبلغ للصحف من مركز قيادة الحركة (الثورة) قد نصت على منع نشر صورة لوحة (نحن نحمى الدستور) .

وبعد يومين زارنى عبد الناصر وعامر فى مكتبى — وكثيراً ماكانا يفعلان ذلك لعدة شهور بعد قيام الحركة — فناقشت عبد الناصر فى سبب عدم السماح بنشر لوحة (نحن نحمى الدستور) فوجدته برماً بها وقال : ألا يكفى أنها أصبحت معلقة على جميع شوارع مدن مصر ؟ فقلت : فإذا كانت قد ألصقت على جدران جميع شوارع مصر فما السبب فى عدم السماح بنشرها ؟.. واستمر الجدل بيننا بعض الوقت .. وفى النهاية سمح عن غير رضا بنشرها ..

وصدرت مجلة « التحرير » ورئيس تحريرها اليوزباشى حمروش فإذا بها دعوة صريحة للدستور ولأهداف الثورة .. وبعد العدد الثالث سحبت المجلة من إشراف البكباشى صديق ونحى عن تحريرها اليوزباشى حمروش

وبدأ يوسف صديق الذى كان عضواً بمجلس القيادة (الثورة) يضيق ذرعاً بانحراف

الحركة (الثورة) عن الارتباطات التى ارتبطت بها أمام الشعب يوم ٢٣ يوليو . وبدأ يثير مناقشات ومحاولات داخل مجلس القيادة ، وينتقد تدخل العسكريين فى كل صغيرة وكبيرة من شؤن البلاد ..

أصبح يوسف صديق شوكة فى حلق جمال عبد الناصر يثير له المتاعب كل يوم . فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن وضعه تحت المراقبة الشديدة.. وعرفت هذا عندما استدعانى جمال وأخذ يشكو إلىّ أمر يوسف صديق — ولم يثر فى شكواه أى شىء بخصوص دفاع صديق عن الدستور ووجوب عدم تدخل الجيش فى شؤن الحكم — بل جعلها شكوى شخصية ، وطلب منى أن أقنع صديق بأن يبعد عن هذه المتاعب التى يثيرها كل يوم وما إن عدت إلى مكتبى حتى وجدت أحد أقارب صديق ينتظرنى فطلبت منه أن يتوجه إلى منزل صديق ويخبره بما دار بينى وبين عبد الناصر من حديث .

واستأجر الرجل سيارة أجرة من تلك التى تقف إلى جوار مبنى « المصرى » وذهب — وفى اليوم التالى جاءنى سائق سيارة أجرة من نفس الموقف وقال لى : إن رجلاً خرج فى العاشرة والنصف مساء أمس من دار « المصرى » واستقل سيارة أجرة . وبعد أن عاد السائق إلى الموقف جاءت قوة من رجال الجيش واعتقلته وحتى الآن لم بعد .: ورجانى أن أحاول الإفراج عنه لأن زوجته تبكى هى وأولادها .

واتصلت تليفونيا بعبد الناصر ، وأخبرته بالقصة فضحك وقال : إذن أنت الذى أرسلت من استأجر السيارة ؟ إننا نحقق مع السائق طوال الليل لنعرف شخصية من ركب معه .. وزاد صوت ضحكه ارتفاعاً ثم قال : سنفرج عنه . سنفرج عنه .

وبعد بضعة أيام من سعى البكباشى صديق إلى جميع زعماء مصر على اختلاف مذاهبهم السياسية ليتوجهوا إلى مركز القيادة ويقدموا مذكرة مشتركة يطالبون فيها اللواء محمد نجيب بإعادة الحياة النيابية ؛ وبينما هو يواصل جهوده لإقناع الزعماء بذلك ؛ قام جمال عبد الناصر باعتقاله وتحديد إقامته بالمنزل . وبعد أيام أرسله إلى سويسرا بحجة العلاج من مرض يشكو منه ، وفصله من مجلس القيادة (الثورة) .» .

هذا مانقلته من كتاب « جمال عبد الناصر » للأستاذ أحمد أبو الفتح ليلمس فى ثناياه القراء مدى حساسية جمال عبد الناصر إزاء من يتجرأ على إثارة هذا المطلب مهما كانت شخصية هذا المثير .

وقد أسوق مثالًا آخر عن هذه الحساسية ، ففى خلال شهر إبريل عام ١٩٥٣ كان الأستاذ أحمد أبو الفتح يكتب مقالات فى « المصرى » تحت عنون « مصرع النفاق » يطالب فيها بنفس المطلب — وجمال عبد الناصر تمشيا مع خطته فى التستر فى مثل هذه

الحالات وراء آخرين دفع للرد عليه أحد وزرائه محمد فؤاد جلال فرد عليه أحمد أبو الفتح بمقال جاء فى ختامه :

« ومن هنا ياحضرة المواطن — (لأن الوزير في رده قال إنه لايرد باعتباره وزيرا وإنما باعتباره مجرد مواطن) — إنه لاسبيل إلى القضاء على النفاق إلا بفتح أبواب الحريات على مصاريعها ، وإلا برفع القيود عن الصحافة حتى تنطلق الأقلام حرة تنقد ماتراه جديراً بالنقد وتوجه حرة إلى خير وجهه . ويكون من ذلك مجال للمناقشات العلنية حول الآراء يشترك فيه الرأى العام بالمطالعة والمساهمة الفعالة والتوجيه — ولن تكون لنا الحريات موفورة ولا مكفولة إلا بقيام النظام البرلمانى حيث تتلاحم الآراء وتتصادم وتتباعد وتتقارب ليخرج منها فى النهاية رأى تقره الأغلبية فتقوم بتنفيذه الأدوات التنفيذية .

ولا ينبغى أن يرتفع الاعتذار بأن الحياة البرلمانية كانت تشوبها الفساد ، وبأن الأعمال الصحفية كانت تخالطها الأخطاء ؛ فليس ذلك عيب النظام البرلمانى ولا مبدأ حرية الصحافة . فلن يكون علاج الإبانتربية السياسية ولن تتيسر هذه التربية إلا فى وجود جو ديمقراطى متحرر من كافة القيود ».

وفى خلال شهر مايو من نفس العام واصل أحمد أبو الفتح كتاباته فى هذا المطلب نفسه فكتب سلسلة مقالات تحت عنوان « الدستور الدستور » فدفع جمال هذه المرة للتصدى له زميله صلاح سالم عضو مجلس الثورة ووزير الإرشاد القومى فكتب مقالات بعنوان « الباكون والمتباكون » فرد عليه أحمد أبو الفتح بمقال عنوانه « نعم — الدستور » جاء فيه :

« وأعتقد ياسيدى أن الحرية هى أغلى شيء يذود عنه الإنسان — ولذلك أرى واجبا علىّ أن ألفت نظرك إلى الأشياء الآتيه :

١ — أن مصر الآن — وقد انقضى على الحركة قرابة عشرة أشهر — لاتزال دون دستور .

٢ — أن الأحكام العرفية التى فرضت فى عهد فاروق لاتزال مفروضة إلى اليوم .

٣ — أن المعتقلات التى كانت مفتوحة منذ ٢٦ يناير لاتزال مفتوحة حتى الآن .

٤ — أن الرقابة على الصحف مفروضة عليها .

إنى ألفت نظرك إلى كل هذا لا لأتهمك بأنك تمد حريات الشعب ، ولكن لأقول لك إن هذه الحريات لم تتحقق حتى اليوم ، ولأقول لك أكثر من ذلك إن الحريات هى التى تدفع الإنسان إلى مزيد من الحرية ، وإن تكبيل الحرية لايمكن إلا أن يدفع إلى حركات خفية .

وإنى لأعجب ياسيدى لماذا تغضب حين أطلب للشعب دستوراً وأطلب للشعب توفير

الحقوق ؟ــ ألم تكن هذه أهدافكم ؟ ألم تعلنوا عنها أكثر من مرة ؟ــ فإذا ماقمت أطالب بسرعة التحقيق ثرت واتهمتنى بالتباكى ــ إنى أستحثكم فلا يقوم داعية استعمارى مثل تشرشل ويتهمكم بالفاشية والدكتاتورية والحكم المطلق » .

ومعذرة إلى السادة القراء فى استقائى أكثر مقتبساتى من جريدة « المصرى » فإن هذه الجريدة كانت فى تلك الحقبة من الزمن المتنفس الوحيد للأحرار وذوى الضمائر ، لأن أصحابها ــ آل أبى الفتح ــ كانوا قد نذروها للدفاع عن الحق حتى أيام كانت لسان حزب الوفد فإنها لم تجاره فى كل ما أرادها عليه ؛ كما أننى أختار دائما كتابات أحمد أبو الفتح لأنه كان من أصدق أصدقاء جمال عبد الناصر ومن القلائل الذين كانوا على صلة بالثورة قبل قيامها .

وقد يمت إلى هذا الفصل الذى نحن بصدده بسبب ؛ سؤال وجهه مندوب « المصرى » إلى الأستاذ المرشد العام فى سياق حديث أجراه معه . وكان مجلس الثورة قد قرر إلغاء النظام الملكى وإعلان الجمهوريه فسأله المندوب عن رأى الإخوان فى ذلك فأجاب :

« إن الذى يعنينا أن يكون الحكم صالحاً محققاً الأهداف التى تسعى إليها البلاد والتى أعلنها رجال الثورة منذ قيامها أكثر من مرة ، قاضياً على الفساد الذى استشرى فى كل مرافق الحياة ».

حتى من زملاء عبد الناصر :

استعرضنا فى هذا الفصل حتى الآن أمثلة لمطالبة الرأى العام بهذا المطلب عن طريق جريدة « المصرى » وهى إحدى الجهات الثلاث التى أشرنا إليها والتى لم يكن جمال عبد الناصر قد استطاع بعد إسكاتها .. أما الجهة الثانية وهى الإخوان المسلمون فقد كانت مطالبتهم بهذا المطلب لاتفتر خلال اتصالات مستمرة بينهم وبين عبد الناصر . بقى بعد ذلك الجهة الثالثة وهى زملاء عبد الناصر فى مجلس الثورة ومن حق التاريخ أن نثبت للرجلين العظيمين اللذين صدقا ما عاهدا عليه، وآثرا التضحية بالجاه والسلطة المطلقة وما يحيط بهما من المتعة والأبهة ورضيا أن يعيشا فى غمار الشعب بل وفى المعتقلات والسجون على أن يجاريا زميلهما جمال عبد الناصر فيما جنح إليه من الدكتاتورية والاستبداد .

ونبدأ باقتطاف فقرات من خطاب مفتوح من القائمقام أحمد شوقى إلى أعضاء مجلس الثورة نشره فى نفس هذه الحقبة الزمنية : جاء فيه :

« لعل زملائى وإخوانى أعضاء مجلس قيادة الثورة يعلمون أننى حر الرأى ، لايمنعنى

عائق من الإدلاء برأى مادمت مؤمناً به .. ولعلهم لاينسون أننى كنت أكبر الضباط رتبة بعد قائدى اللواء محمد نجيب عندما قمت معهم بتنفيذ الحركة . ولعلهم لاينسون أيضاً أننى كنت معرضاً معهم ولا أقول قبلهم لجميع المخاطر لولم يقدر الله سبحانه وتعالى بنجاح الحركة . ولا أقول ذلك منًّا عليهم فأنا أعتقد أن ما فعلته ليس سوى تأدية واجبى الأكمل نحو مصر . ولذلك فإن من حقى أن أسأل زملائى وإخوانى أعضاء مجلس الثورة ومن حقى عليهم أن انال جواباً على أسئلتى هذه :

أولاً ــ هل كان من أهداف الثورة أن نحكم البلاد ؟

ثانيا ــ هل كان من اهداف الثورة أن يزج بالمواطنين الجانى منهم والبرىء فى السجون وأن تملأ المعتقلات ؟.

ثالثا ــ هل كان من أهداف الثورة أن نكمم الأفواه ونقيد الحريات ؟

رابعا ــ هل كان من اهداف الثورة أن يقحم الجيش نفسه فى السياسة وفى كل مرفق من مرافق البلاد ؟

وأليس من أبناء مصر من يقوم بالأعمال المعهود بها الآن لبعض ضباط الجيش حتى يتفرغ هؤلاء الضباط للنهوض بجيشنا المفدى لكي يتمكن من القيام برسالته السامية من طرد المستعمر وحماية البلاد ؟.

أعتقد أن إخوانى وزملائى أعضاء مجلس قيادة الثورة سيجيبون على هذه الأسئلة بأن الثورة كانت لها أهداف أسمى من هذا وأنبل » .

ويختم القائمقام أحمد شوقى خطابه بالمطلبين التاليين :

أولاً ــ إلغاء الأحكام العرفية قبل التفكير فى أى إجراء آخر ، وما يتبع ذلك من الإفراج فوراً عن المعتقلين أياً كانت ميولهم السياسية .

ثانيا ــ أن تجرى الانتخابات وزارة مدنية يرأسها محايد يطمئن إليه الكافة ويثق الجميع فى نزاهته . ولتحقيق هذين الهدفين الأساسيين ، وبالتالى لتوفير الضمان أرى أن أسأل زملائى وإخوانى أعضاء مجلس الثورة عن مآلهم .. هل سيعودون إلى الجيش أم ياترى هل سيدخلون المعترك السياسى كأفراد ؟ ــ وإذا كان لى أن أقترح فإنى أطالب اليوم بحق الزمالة فى الجهاد ــ قبل أن أطالب فى الغد باسم الشعب ــ أن يحققوا رغبته التى تتلخص فى أن تبعدوا أنفسكم عن كل نشاط سياسى بأن تعودوا إلى صفوفكم فى الجيش ، وتضربوا المثل فى التضحية من أجل الوطن .

وختم الخطاب بهذه العبارة « ألا هل بلغت اللهم فاشهد ».

أما الزميل الآخر لجمال عبد الناصر الذى كان مثال الرجولة الكاملة، والوفاء النادر لمبادئه ؛

فهو البكباشي يوسف صديق .. وإذا كان القائمقام أحمد شوقى قد اكتفى فى معارضته لخطة جمال بالاستقالة من مجلس الثورة تخلصاً من تبعة الردة عن مبادئهم فإن يوسف صديق كان له نشاط أشرنا إلى طرف منه فيما نقلناه عن كتاب الأستاذ أحمد أبو الفتح .. وقد أشعل هذا النشاط نيران الغيظ فى صدر جمال عبد الناصر فاتبع معه أساليب المراقبة وتحديد الإقامة والنفى إلى الخارج ثم الاعتقال ثم أتبع ذلك كله بأسلوب أشد فتكا من كل ذلك وهو أسلوب تشويه السمعة وإلصاق التهم فبث عن طريق أبواق دعايته أنه شيوعى .

وقد وجه يوسف صديق إلى زملائه بمجلس الثورة خطاباً مفتوحاً يدور حول نفس المواضيع التى تضمنها خطاب زميله القائمقام أحمد شوقى ، ولذا فقد نكتفى بهذه الإشارة إلى خطابه المفتوح ولكننا ننقل من جريدة المصرى حديثا أجراه مندوبها مع يوسف صديق بمناسبة نشر خطابه المفتوح لما فى هذا الحديث من إشارات ذات مغزى يحسن الالتفات إليها :

سأله المندوب : من أنت وما هى مبادئك ؟ هل أنت من الإخوان أم شيوعى أم وفدى أم اشتراكى ؟.

وهل صحيح أنك كتبت رسالتك إلى الرئيس نجيب بمداد أحمر على ورق أحمر ؟.

فاجاب : إن صح لى أن أتحدث عن نفسى فإنى أقول لهؤلاء إننى ضابط مصرى قمت على رأس الضباط الأحرار يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالدور الرئيسى الذى مكن للضباط الأحرار من تنفيذ سياستهم . وأما مبادئى فهى مبادىء كل وطنى حر مستقل يؤمن بربه وبوطنه ، وأن وحدة مصر هى السلاح الأول الذى تتحقق به جميع أهدافها ، وأن الطمأنينة والأوضاع الطبيعية والاستقرار السياسى والاقتصادى وشعور الناس بأنهم سينامون فى بيوتهم ، وأنهم غير مهددين إذا قالوا كلمة للصالح العام بالمبيت فى السجون والمعتقلات ، أو باتهامهم إذا كانوا من الإخوان بأنهم عملاء لندن ، وإذا كانوا من الأحرار الوطنيين بأنهم من عملاء موسكو . كل هذه هى مبادئى .

لقد أصبحت هذه البضاعة بضاعة الاتهامات التى تلقى جزافاً بائرة لاتروج عند الشعب ؛ فقد أصبح الشعب المصرى كامل الوعى ، مرهف الحس ، يميز بين الغث والسمين .. وإذا كان الهضيبى زعيم الإخوان المسلمين فى مصر حقاً من عملاء إنجلترا ، فأنا لايهمنى بعد ذلك أن أتهم بأنى من عملاء موسكو أو غير موسكو — **ومن هم عملاء واشنطن ؟ لماذا لايسمع أى أحاديث عنهم أو تحديد لهم ؟**

وقال : إننى لاأدين بشىء إلا بحبى لبلادى ولكنى أرى أن الشيوعيين الموجودين بمصر الآن قوة لايمكن إنكارها إلا إذا أردنا الهرب من الواقع ، وأنهم كمصريين لهم الحق فى مناقشة آرائهم كغيرهم من المواطنين . وانجلترا وأمريكا فيها شيوعيون وفى الأولى حزب معترف به ..

ولقد صرح المضيبى ـــ وهو الذى يمثل أكبر معسكر إسلامى فى الشرق ـــ أن الشيوعية لاتقاوم بالقوة ولا بالقوانين وأنه لامانع لديه من أن يكون لهم حزب ظاهر ، وأن الإسلام كفيل بضمان سلامة الطريق التى تسلكها البلاد .

وقال : أما أنى كنت عضواً فى مجلس قيادة الثورة ؛ فهذا أمر يعلمه كل من تتبع أحداث الثورة فى أوائل الحركة . وأما أن المصريين لايعرفون عنى الكثير أو القليل ؛ فذلك يرجع إلى أن سياسة مجلس الثورة فى أوائل الحركة كانت مبنية على نكران الذات ـــ وأما عن دورى فى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فسأتركه للتاريخ ؛ وإن كان الرئيس محمد نجيب لم يبخل على الحق فى مذكراته التى نشرها على الناس حين قال : إننى كنت الشرارة الأولى التى اندلعت فى هذا التاريخ ، وإننى أفضل أن يسأل أيضاً البكباشى جمال عبد الناصر عن هذا الدور وأنا راض بتقريره فى ذلك .

وأما بشأن ميولى الحمراء ؛ فإن هذه الميول تلصق دائما بكل حر ؛ فقد ألصقت أخيراً وبشكل مفاجىء بالصاغ خالد محيى الدين . وأستطيع أن أقرر أن هذه التهمة قد وجهت فى وقت من الأوقات إلى البكباشى جمال عبد الناصر نفسه كما وجهت للثورة كلها فى يوم ما .. ومهما وجهوا إلينا من تهم فنحن سائرون فى طريقنا نضحك ملء أشداقنا من هذه الاتهامات .

وأما أسباب استقالتى من مجلس الثورة فإن التاريخ الذى استقلت فيه من المجلس وهو فبراير سنة ١٩٥٣ يستطيع أن يحدد أسباب هذه الاستقالة لكل من فى رأسه عين ترى وفى قلبه بصيرة تبصر » .

وبمناسبة حديثنا هذا عن يوسف صديق أذكر أن الاخ الأستاذ عباس السيسى أخبرنى بأن ظروف الاعتقال جمعته فترة طويلة بيوسف صديق فى السجن الحربى ، وقد أتاحت له هذه الفرصة التى كان فيها اللقاء مباحاً أن يكتشف فى هذا الرجل بجانب شجاعته وجرأته أنه أديب وشاعر ؛ فقد كان يوسف ينشد من شعره قصائد رائعة تتناول الحياة السياسية فى مصر ، وتتناول شخصية زميله جمال عبد الناصر الذى كان جزاؤه منه جزاء سنمار ، إذ فصله من الجيش ، وألقاه فى غياهب السجن الحربى فلبث فيه بضع سنين . وأعتقد أن الأخ الحاج عباس لايزال يحتفظ ببعض هذه القصائد التى تسجل أحداث فترة حالكة من تاريخ مصر .

* * *

وقبل أن نصل بالحديث فى هذا الباب إلى نهايته يجمل بنا أن نلفت السادة القراء إلى أن المعالم الأربعة التى قام عليها هذا الباب وكانت هى نفسها مثار الخلاف بين الإخوان وبين الثورة كان المعلم الأخير منها وهو الحكم الدستورى أخطرها وأشدها إغضاباً لجمال عبد الناصر وأعظمها استفزازاً له . وذلك للأسباب الآتية :

١ ــ أن المطالب الثلاثة الأولى ، تستغرق طبيعة تنفيذها وقتا غير قصير ــ لاحتياجها إلى إجراءات مطولة ؛ مما يفسح الوقت ويعطى الفرصة لمن يريد أن يتعلل بالإعداد والتجهيز ــ ولكن المطلب الرابع وهو الحكم الدستورى من طبيعته أنه مطلب فورى التنفيذ ذو إجراءات محددة ولا تحتاج إلى وقت .

٢ ــ أن المطالب الثلاثة الأولى فيها من النواحى الفنية ما يجعل المناقشة حولها تحتاج إلى طبيعة معينة من المتخصصين ؛ وبذلك تكون هذه المناقشة حولها محصورة فى نطاق محدود ــ ولكن المطلب الرابع مطلب شائع ومشهور ومفهوم لكل المستويات ، ويعرف كل فرد من الشعب تفاصيل إجراءاته ويستطيع أن يتناقش حوله ؛ حتى إنه تحوّل إلى شعار لكل من يريد من الحكام أن يخطب ود الشعب ــ وقد جعلته الثورة أحد شعاراتها .. فالنكوص عنه يحس به كل فرد من أفراد الشعب ويعتبر فضيحة سياسية .

٣ ــ لما كان هذا المطلب فورى التنفيذ ولا يحتاج تنفيذه إلى وقت ، وكان الأخذ به معناه أن الحاكم الذى يأخذ به حصر نفسه فى دائرة سلطة محدودة ، وهو ما يتعارض مع ما أسره جمال عبد الناصر فى نفسه من خطة لايستطيع تنفيذها إلا إذا لم يكن مقيداً بأى قيد .. لهذا اعتبر جمال أن كل من يطالبه بهذا النوع من الحكم عدو له ويجب التخلص منه حتى يخلو له الميدان .

* * *

الباب الثالث

الإخوان فى موقف الناصح الأمين

الفصل الأول : نصح ممزوج بتأييد

الفصل الثانى : تأييد ودعم فى أحرج المواقف

مقدمة

لابد أن الجيل الجديد الذى لم يشهد الثورة فى أعوامها الأولى حين يبلغه ـــ بوسيلة من وسائل الإبلاغ ـــ مافعلته الثورة بالإخوان المسلمين .. لابد أنه قائل فى قرارة نفسه : لايمكن أن يحدث هذا من الثورة إلا أن يكون رد فعل لتجد صارخ وهجوم عنيف وشغب مدمر قابل الإخوان به الثورة حتى إنها دفاعاً عن نفسها، وإبقاء على وجودها. قد فعلت مافعلت.

وقد يكون هذا الذى يدور بخلد الجيل الجديد هو ما يجب أن يكون منطق كل من يفكر فى القضية بعقله المجرد ؛ بل إن طبيعة الأحداث التاريخية تؤيد هذا الظن وتستبعد ماسواه .. ولكن الذى كان بين الإخوان والثورة كان غير هذا تماماً ؛ فمواقف الإخوان من الثورة مازالت مسجلة فى الصحف ، محفوظة فى الأضابير،لاشىء فيها يدين الإخوان بمثل هذا الذى يخطر بالبال ، فلا اعتداء على الثورة ولا تطاول ولا تحدٍ ولا تزيد ولو بكلمة نابية .

بل إن كل ما سجله التاريخ يشهد بأن الإخوان كانوا من وراء الثورة قبل قيامها وبعد قيامها ، حتى لقد بلغ حرص المرشد علــى نجاح الثورة حداً لايكاد يصدقه عقل ولولا أنه سجل فى الصحف لما صدقناه فبالرغم من أن الثورة قد ثبت تاريخاً وبشهادة الذين ظهروا على المسرح من رجالها بعد أن انقشعت سحائب الغرور عن نفوسهم أنها إنما انبثقت عن الإخوان المسلمين وقامت فى كنفهم وبحياطتهم فإن المرشد العام ـــ خوفاً من تكالب الدول الاستعمارية للقضاء عليها إذا علموا ذلك عنها ـــ راح ينفى علاقتها بالإخوان .

ففى ٢٣ / ٨ / ١٩٥٢ ظهرت جريدة « المصرى » وفيها العنوان الآتى بخط كبير :

« **المرشد العام يقول**: **ليست** هناك صلات سابقة **بين** الجيش **والإخوان** » .

وكان ذلك فى سياق حديث طويل أجراه مندوب الجريدة مع المرشد العام، يقول المندوب فيه بهذا الصدد : « وحدثنى المرشد العام فى الساعة التى مكنتها بصحبته عن حركة الجيش فقال : ليست هناك صلات سابقة بين الإخوان والجيش . وما يقال عن اتفاق مشترك بيننا وبين الجيش فى حركته الأخيرة أمر غير صحيح » إلى هذا الحد بلغ بالإخوان الحرص على نجاح الثورة وحياطتها ـــ وليس معنى هذا أن ننفى ما حدث بعد ذلك من خلاف بين الإخوان والثورة وقد عرضنا لشىء من ذلك فى الصفحات السابقة ، ولكن هذا الخلاف لم يحمل الإخوان على موقف يؤاخذون به أو يلامون عليه ، بل ظل موقفهم حتى آخر لحظة هو

موقف الناصح الأمين .. الذى يريد لها الخير ؛ يسدد خطاها ، ويقيل عثراتها، وينير السبيل بين يديها . حتى إذا ادلهمتْ الأمور ، وضاقت أمامها السبيل ، وعز وجود النصير ؛ خف الإخوان إليها يسندون ظهرها ويشدون أزرها ويؤيدون كلمتها ويؤازرون أمام العدو موقفها .

وقد خصصنا هذا الباب لتجلية هذا المعنى للسادة القراء لبالغ أهميته ولأنه يأتى على غير ماهو متوقع فى أذهان الكثيرين فإثباته من الضرورة بمكان .

* * *

الفصل الأول

نصح ممزوج بتأييد

فى هذا الفصل نستعرض موقف الإخوان من الثورة فى أول أيامها وفى أوقات رخائها . أما فى أول أيامها فبالرغم مما سمعه المرشد العام من جمال عبد الناصر فى أول لقاء به بعد قيام الثورة فإن أحداً خارج نطاق أخص الأخصاء من الإخوان لم يعلم بذلك . وظل سراً مصوناً ، وسار التعامل مع الثورة تعامل الأشقاء ، وليس أدل على ذلك من بيان أصدره الإخوان بعد أسبوع واحد من قيام الثورة ونشر بالصحف يوم ٢٠ / ٨ / ١٩٥٢ وإليك هذا البيان :

« الآن وقد وفق الله جيش مصر العظيم لهذه الحركة المباركة ، وفتح بجهاده المظفر أبواب الأمل فى بعث هذه الأمة وإحياء مجدها التليد . وأزال عقبة كانت تصد عن سبيل الله والحق وتعوق المصلحين ، ويستند إليها المفسدون والمغرضون من كبراء هذه الأمة وحكامها فى العهود الغابرة المختلفة ..

الآن ينبغى أن ننظر إلى الأمام ، وأن لايأخذنا الزهو بهذه الانتصارات عما يجب من استئناف العمل فى مرافق الإصلاح الشامل ، حتى تشعر الأمة بأنها انتقلت نقلة كلية من عهد إلى عهد .

وإلاّ نفعل فقد ضاعت ثمرة هذه الحركة ، وأصابتنا نكسة لاتؤمن عواقبها . وهذا يفرض على كل ذى رأى فى الأمة أن يتقدم إلى الأمة وإلى أولى الأمر فيها بمشورته ، خالصة لله ، بريئة من الهوى — عما ينبغى أن يتجه إليه الإصلاح المنشود ببعث هذه الأمة من جديد .

وسنة الإخوان المسلمين أن يتقدموا إلى الأمة وإلى أولى الأمر فيها — فى مثل هذه المراحل المتميزة من تاريخها — بالرأى يستقونه من كتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى سوى بين المسلمين وغير المسلمين فى حقوقهم وواجباتهم العامة ، ولا يفرق بين جنس وجنس ولا بين لون ولون .

أولاً ــ التطهير الشامل

إلا أن أول ما ينبغي الالتفات إليه من ضروب الإصلاح ، وما لا تظهر ثمرة العمل إلا به ــ أن يؤخذ كل من أعان الملك السابق على الشر ، ويسر له سبل الفساد والطغيان ــ بما أخذ به الملك نفسه وما ينبغي أن يؤخذ به .. فلا يستقيم فى ميدان العدالة ، ولا فى حماية المصالح العامة ، ورعاية المثل العليا ؛ أن يكون أمر التطهير مقصوراً على الملك . ثم يترك أعوانه وأدواته آمنين لاتمتد إليهم يد القصاص .

إن دستور البلاد الذى أقسم جميع وزراء الدولة على احترامه ، تنتهى نصوصه وروحه إلى إلقاء المسئولية كلها على كاهل الوزراء، والوزراء حين يحملون هذه المسئولية يعتبرون مؤتمنين عليها من قبل الأمة . فإذا فرطوا فى رعاية هذه الأمانة فقد استوجبوا أشد أنواع المؤاخذة .

وإن الدستور ليقرر أن أوامر الملك شفهية كانت أو كتابية لاتعفى الوزير من المسئولية فى الحكومة حتى يجعل رئيسها مسئولاً عن أحاديث الملك الشخصية ــ فكيف يقبل بعد هذا عذر وزير مهد للملك سبيل الإفساد ، ويسر له استغلال أموال الدولة واغتصاب أراضيها وإضاعة مصالحها ، وأعانه على إهدار الحريات وسفك دماء أبنائها الأبرار ، وسن له من التشريعات والقوانين الاستثنائية مايحميه من رقابة الشعب ويدفعه إلى التمادى فى طريق البغى ؟

ولكن رجال الحكم قد جاوزوا كل حد فى التفريط وتضييع الأمانة . ورأوا أن الاحتفاظ بمقعد الحكم ــ وهو أقصى مايستطيع الملك حرمانهم منه ــ أعز عليهم من الوطن والشعب جميعاً ــ فضلاً عما شاركوا فيه من الغنم الحرام والاستغلال السيء الآثم لمقومات البلاد .

لقد أصبح لزاماً أن تمتد يد التطهير إلى هؤلاء الحكام فنبادر إلى تنحيتهم عن الحياة العامة وحرمانهم من مزاولة النشاط السياسى حتى يقدموا للمحاكمة عن كل ما يوجه للملك السابق من اتهامات ، وما يعاب عليه من تصرفات ، وما تظهره الملفات الحكومية اليوم وبعد اليوم من مظاهر البغى وسوء الاستغلال ؛ حتى يكونوا عبرة لكل من يلى أمور هذه البلاد ، إذ يوقنون أن عقاب الشعب المتربص أحق بأن يتقى من نقمة الملك المتسلط .

ولا يبلغ التطهير غايته حتى تشمل المؤاخذة كل من عبث بمصلحة الدولة ، أو أجرم فى حق البلاد فى عهود الحكم المختلفة .. وهذا يتقاضانا أن نبادر إلى تنفيذ قانون الكسب الحرام دون هوادة ولا محاباة . وأن نقدم للمحاكمة بلا تردد ولا تمييز كل من أساء استخدام السلطة

بمصادرة الحريات وترويع الآمنين ، وتعذيب أبناء الأمة الأحرار . وأن يعاد التحقيق نزيهاً صارماً فى القضايا التى غلّ الطغيان عنها يد العدالة من قبل — كقضايا الجيش واغتيال الشخصيات التى كان لبعض المسؤلين فيها دور معروف .

كما ينبغى إلغاء الأحكام العرفية وسائر القوانين الرجعية المنافية للحرية .

ويستطرد بيان الإخوان فيطالب :

ثانيا — الإصلاح الخلقى

١ — إعداد جيل جديد عن طريق التربية الدينية والخلقية والوطنية . وإعادة كتابة التاريخ الإسلامى والمصرى ، وتوفير التعليم للمواطنيين جميعاً ، وتدعيم معاهد العلم والجامعات على اختلافها ، وتزويدها بما تحتاج إليه من المكتبات والمعامل وأدوات البحث حتى تقوم بمصر نهضة علمية جديدة تساهم فى بناء نهضتنا الاجتماعية والاقتصادية . ولاشك أن التشريع مهما أحكمت صياغته ، واستقامت أهدافه وأصوله .. لايبلغ غايته حتى يقوم على تنفيذه الفرد الصالح ، الذى لايتم إعداده إلا عن طريق التربية الدينية ؛ إذ تغرس فى نفسه من معانى الإنسانية السامية ما يعصمه من اتباع الهوى ، ويهديه إلى أن يحب للناس ما يحب لنفسه . فإذا وُلّى أمراً أو تقلّد سلطاناً كان المؤمن بربه الذى لايزل ولا يتزلف ، المستقيم فى خلقه الذى لايتكبر ولا يتغطرس ، الرضى فى أمانته ، الذى لايختلس ولا يرتشى، والذى لايقصى الفضيلة عن حياتة الشخصية أو حياته العامة ؛ فهو فى بيته القدوة الصالحة وفى مكتبه المثل الطيب : ﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾ .

٢ — ومن تمام هذا الباب أن تعمل الحكومة على تحريم ما حرم الله ، وإلغاء مظاهر الحياة التى تخالف ذلك، مثل القمار والخمر ودور اللهو والمراقص والأفلام والمجلات المثيرة للغرائز الدنيا . وإن العاطفة الدينية لاتكفى وحدها لضمان التخلق بأخلاق الإسلام ؛ فينبغى أن يقترن غرسها وإنماؤها بمحاسبة الفرد حساباً دقيقاً على اتخاذ الآداب والأخلاق القرآنية منهاجاً له فى حياته الخاصة والعامة .

ثالثا — الإصلاح الدستورى

إن الفرد الصالح لاتطيب له الحياة فى ظل دستور تم وضعه فى عهد الاستعمار الإنجليزى أولا ، والطغيان السياسى ثانيا . وقد نشأ عن ذلك وجود ثغرات فى نصوص الدستور

سمحت بإحداث اضطرابات فى حياتنا العامة . واستطاع الاحتلال أن ينفذ منها بين حين وآخر ، كما سولت للملك التدخل المستمر وتجاوز حدود المبادىء الدستورية الأساسية . ولقد كان المظهر البارز لهذه الملابسات أن يجيء الدستور منحة من الملك لانابعاً من إرادة الأمة .

ولما كان تصرف الحكام قد أهدر الدستور المصرى نصا ومعنى،وكان من طبيعة الثورات الناجحة أن تسقط الدساتير التى تحكم الأوضاع السابقة عليها،فإن الدستور المصرى .. يكون قد أصبح لاوجود له من ناحية الواقع ومن ناحية الفقة ؛ مما يقتضى المسارعة إلى عقد جمعية تأسيسية لوضع دستور جديد ؛ على أساس أنه تعبير عن عقيدة الأمة وإرادتها ورغبتها ، وسياج لحماية مصالحها — لاعلى أنه منحة من الملك ..

وسيترتب على إعادة إصدار الدستور بطبيعة الحال اختفاء جميع نصوصه التى تصدر عن طبيعة كونه منحة ؛ ويستمد مبادئه من مبادىء الإسلام الرشيدة فى كافة شؤون الحياة .

وفى ظل هذه المبادىء تختفى من الدستور أسطورة الحكام الذين فوق القانون أو فوق المسؤلية الجنائية ؛ فالمبدأ الأساسى الذى يقره الإسلام أن المسؤلية بمقدار السلطة ، وأن الكل سواء أمام القانون .

هذا وينبغى أيضاً أن نستفيد من التجارب الدستورية السابقة ليكون اتجاهنا إلى الإصلاح مؤسساً على قواعد واقعية ملموسة . والذى يستقرىء هذه التجارب منذ بدء الحياة النيابية إلى اليوم ؛ يجد أنها لم تقدم نيابة صالحة ولا تمثيلاً صحيحاً . وليس أدل على ذلك من شيوع المفاسد وانتشار الأخطاء التى تعترف بها الأحزاب السياسية اليوم وتقول إن الملك كان هو الآمر بها — لم يفلح برلمان واحد فى إسقاط حكومة ، أو مناقشة مخصصات الملك ، أو تغيير وزير ، أو توجيه اللوم إلى وزارة ، ولم ينته أى مجلس من مناقشة أى استجواب إلا بالانتقال إلى جدول الأعمال .

وفوق ذلك ، فما من قانون جاء ضاراً بالحريات إلا وقد أقرته وخضعت لمشيئة الحكومات فيه البرلمانات المتلاحقة ، تلك البرلمانات التى طالما يسرت للحكومات اعتماد الأموال الضخمة المرهقة للميزانيات فى أوجه البذخ والترف وتحقيق شهوات الحكم الفردى بحيث عجزت الميزانية فى مواجهة مطالب النهضة وضرورات الإصلاح فى مرافق الحياة .

وهكذا انتهت الحياة البرلمانية فى كافة العهود الحزبية إلى أن أصبحت أداة تعطى شهوات الحكام ومظالم السلطان صيغة قانونية — فلا مناص إذن من النظر فى إعادة بناءالحياة النيابية والقوانين الانتخابية على أصول سليمة حتى تؤدى رسالتها على الوجه المنشود .

رابعا ــ الإصلاح الاجتماعى

إن الأمة تعانى تفاوتاً احتماعياً خطيراً ، فهى بين قلة أطغاها الغنى ، وكثرة أتلفها الفقر . وهذه حال لايرضى عنها الإسلام . فالإسلام يكره أن يكون المال دولة بين الأغنياءوحدهم . والإسلام يقضى بأن يكون لكل فرد فى الدولة ــ مسلماً كان أو غير مسلم ــ كحد أدنى : مسكن يقيه حر الصيف وبرد الشتاء . وملبس للصيف والشتاء . ومطعم يقى جسمه ويجعله قادراً على العمل . وعلاج بالمجان إن كان غير قادر . وتعليم بالمجان ذلك كله له ولزوجه ومن يعول .

وسبيل الإسلام إلى تحقيق هذه المزايا :

أولاً ــ العمل : فالعمل فرض على القادر عليه ، ولا يجوز له أن يتخلى عنه ولا تجوز إعانة رجل لايعمل وهو قادر ، بل يحمل على العمل حملاً . ويجب على ولى الأمر أن يساعد على إيجاد عمل له ، ويهىء له وسائله ويتعهده حتى يتحقق أنه مستريح فيه .

ثانياــ التكافل الاجتماعى : فإذا لم يجد عملاً أصلاً أو كان عمله لايكفيه أو كان غير قادر عليه ، وجب على ولى الأمر أن يتدخل ليحقق له ضرورات الحياة المذكورة آنفاً بالزكاة ، وهى فريضة مقررة مقدرة وليست صدقة يدفعها الغنى متفضلاً . وهى حق للفقراء ، وتصرف حيث تجبى ولا تنقل لمكان آخر حتى يستوفى أهل كل جهة بفقرائها الذين يعرفونهم ويعرفون حاجتهم ، فيشعر الأغنياء والفقراء بأنهم متكافلون متراحمون .

فإن لم تكف الزكاة لتوفير تلك الحاجات الضرورية ، وجب على من عنده فضل مال أن يرده على الفقراء حتى يستوفوا حاجاتهم . فإن لم يفعلوا أجبرتهم الحكومة على ذلك ، واتخذت من التشريعات ما يكفل إصلاح حال المجتمع بقدر ظهور الحاجات وبروز الضروريات .

وقبل توفير هذه الضروريات الأساسية لكل فرد لايوقع الإسلام حد السرقة على السارق.

* * *

وبناء على هذه المبادىء يجب النظر فى عدة إجراءات يلزم أن تتخذها الدولة لتحقيق تلك الغايات نلخص أهمها فيما يلى :

١ ـ تحديد الملكيات الزراعية : فإن الملكيات الكبيرة قد أضرت أبلغ الضرر بالفلاحين والعمال ، وسدت فى وجوههم فرص التملك ، وصيرتهم إلى حال أشبه بحال الأرقاء . فلا سبيل إلى إصلاح جدى فى هذا الميدان إلا بتقرير حد أعلى للملكية ، وبيع الزائد عنه إلى المعدمين وصغار الملاك بأسعار معقولة تؤدى على آجال طويلة . كما يتعين توزيع جميع الأطيان الأميرية المستصلحة والتى تستصلح على صغار الملاك والمعدمين خاصة .

٢ ـ تحديد العلاقة بين المالك والمستأجر : فمن الواضح أن عدداً كبيراً من المشتغلين بالزراعة لن تتوفر له ملكية حتى بعد التحديد ، وذلك نظراً إلى قلة الأراضى الصالحة للزراعة بالقياس إلى المشتغلين بها . ولقد جرت العادة أن يلزم المستأجر بأداء مبلغ نقدى أو قدر عينى من المحصول لقاء انتفاعه بكل فدان دون مراعاة للقصد والاعتدال ؛ الأمر الذى يترتب عليه أن يحرم الفلاح ثمرة عمله طوال العام ، بل يخرج فى أكثر الأحيان مثقلاً بدين لايستطيع أداءه . ولا علاج لهذه الحال بعد تحديد الملكية إلا بإصدار تشريع يقصر التأجير على المزارعة ؛ بمعنى انقسام المحصول بنسبة يتفق عليها كالنصف مثلاً ؛ لأنها أقرب الصور إلى العدالة .

٣ ـ استكمال التشريعات العمالية : بإعادة النظر فى التشريعات العمالية الحالية لتشمل جميع فئات العمال بما فيهم العمال والزراعيون ولتكفل للعامل وأسرته التأمينات الكافية ضد البطالة والإصابات والعجز والمرض والشيخوخة والوفاة ـ مع مراعاة جعل الانتساب إلى النقابات إجبارياً . وإباحة تكوين الاتحادات النقابية ، وتحديد أجور العمال وفق المبادىء الإسلامية على اسس اقتصادية سليمة ، مع ضمان حصول العمال على نصيبهم من غلة الإنتاج . وإلغاء مكافآت أعضاء مجالس إدارة الشركات ـ على أن يكون تقرير هذه الحقوق وحمايتها بنصوص قانونية صريحة .

٤ ـ إصلاح نظم التوظيف : على أساس تقريب الفوارق بين الحد الأعلى والحد الأدنى للمرتبات والأجور ، وكفالة الضمانات القانونية والمالية فى الخدمة والمعاش ، وتأمين المرءوسين ضد أهواء الرؤساء واستبدادهم ، وتحديد التبعات ، وتبسيط الإجراءات ، وإلغاء المركزية .

٥ ـ إلغاء النياشين : وذلك تكملة لما تم من إلغاء الرتب ، وتحقيقاً للمساواة الكاملة بين أبناء الوطن الواحد ، وحتى تكون الأعمال خالصة لله . وكذلك العمل على القضاء على مظاهر البذخ والترف .

٦ ـ جعل المسجد مركزاً دينياً وثقافياً واجتماعياً : وقد كانت هذه وظيفة المسجد

الرئيسية منذ نشأته ، ولا يتم هذا إلا بتعيين رجال متدينين مثقفين للإشراف على المساجد،لايكتفون بإقامة الصلوات ، بل يحولون المسجد ، وبخاصة فى القرى ، إلى ندوة حافلة بضروب النشاط والإصلاح ومكافحة الأمية .

خامسا ــ الإصلاح الاقتصادى

إن موارد الثروة فى مصر بوضعها الحالى ، لاتكفى أن يعيش المواطنون معيشة طيبة . ولابد من فتح أبواب جديدة للثروة ، وإصلاح الأوضاع القائمة على أسس سليمة . ونقترح لذلك أموراً منها :

١ ــ تحريم الربا ، وتنظيم المصارف تنظيماً يؤدى إلى هذه الغاية . وتكون الحكومة قدوة فى ذلك بالتنازل عن الفوائد فى مشروعاتها الخاصة .

٢ ــ تمصير البنك الأهلى وإنشاء مطبعة للإصدار فى مصر ، واستعجال إنشاء سك النقود المعدنية .

٣ ــ إلغاء بورصة العقود التى أدت المضاربات فيها إلى زعزعة الاقتصاد القومى . والعمل على إصلاح السياسة القطنية بما يحقق مصالح البلاد .

٤ ــ استكمال إصلاح الأراضى البور . والعناية باستغلال الصحارى المصرية زراعياً ومعدنياً .

٥ ــ تصنيع البلاد مع العناية بالصناعات المعتمدة على المواد الأولية المحلية والصناعات الحربية .

سادساً ــ التربية العسكرية

إن رجال الجيش البواسل هم أولى الناس بإصلاحه . ويجب على الدولة أن لاتبخل عليه بالمال الذى يهيئه لتأدية واجباته . وأن تعتبر ذلك فريضة لايؤخرها غيرها من الفرائض ، ولو اقتضى الأمر الجور على أبواب الميزانية الأخرى . ونود أن نشير إلى أمور فى التربية العسكرية نجملها فيما يلى :

١ ــ أن تراعى الآداب والشعائر الدينية فى الجيش ، وأن تقوم العلاقة بين أفراده على أساس الأخوة .

٢ ــ أن يوسع نطاق التجنيد بحيث لايبقى فى الأمة بعد فترة محدودة من يستطيع حمل

السلاح دون أن يحمله ؛ حتى يصبح الشعب كله جيشاً كامل الأهبة والعتاد ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ﴾ .

٣ — أن تضاعف العناية بالتدريب العسكرى فى المدارس والجامعات ، وأن تتسم بالجد والإنتاج فيقرر إجبارياً فى مناهج التعليم ويشمل فنون الحرب وأساليب القتال الصحيح .

٤ — إنشاء جيش إقليمى يتكون من كل من فاته الانتظام فى الجيش العامل .

٥ — أن تبادر الحكومة إلى إنشاء مصانع الأسلحة والذخيرة لإمداد الجيش بحاجته منها حتى يستطيع الجيش أن يحقق غاياته فى العدد والعدة ومستوى التدريب .

سابعاً — البوليس

إن رجال البوليس هم حفظة الأمن الداخلى . وهم جزء من الأمة يجب أن تكون علاقاتهم معاً علاقة أخوية وقائمة على أساس من الخلق الفاضل الكريم .

لذلك ينبغى أن يطهر البوليس من العناصر الفاسدة التى عاونت الطغاة على إذلال الأمة ، ومهدت السبيل لزج أبنائها الأبرياء فى ظلمات السجون والمعتقلات ، وأشاعت فى البلاد جواً من الفزع والإرهاب مازالت آثاره حية بيننا — وأن ينزه البوليس عن أن يكون أداة فى يد الأحزاب تسخره فى مآربها السياسية ، مستغلة سيطرتها عليه حين تكون فى الحكم .

ويجب إلغاء نظام البوليس السياسى الذى أساء إلى سمعة البوليس ، ومد نفوذه بغير حق إلى كثير من مرافق الحياة . وهو فى حقيقته أثر من آثار الاستعمار البغيضة . ويجب أن يرفع مستوى رجال البوليس وأن يأمنوا فى حياتهم ، وتوثيق روابط الود بينهم وبين رؤسائهم من ناحية وأفراد الأمة من الناحية الأخرى .

خاتمة

هذه خطوط رئيسية فى الإصلاح يحتاج كل منها إلى بيان . وإن المشكلة التى تقابلنا الآن ذات ثلاثة أطراف : مظلومون وظالمون وأوضاع مكنت الظالم من أن يظلم — ولابد لكى يستقيم أمر هذه الأمة مما يأتى:

١ — أن ترد المظالم إلى أهلها وأن يعاد إلى كل ذى حق حقه ؛ فترد إلى المسجونين

السياسيين حريتهم . ولقد كانت هذه الصفوة من الشباب الطليعة الأولى التى ثارت فى وجه الظلم والطغيان . ولا زالت ترسف فى أغلالها بينما يتمتع المترفون والجلادون بأهوائهم — كما ترد الأموال والأرض المغصوبة إلى أهلها ، وأن تتوفر للمواطنين حياة يتحررون فيها من أغلال الإلحاد والفقر وطغيان الطبقة الحاكمة وتجار السياسة .

٢ — أن يقتص من الظالمين . وأن يبعد من الميدان السياسى هؤلاء الذين استباحوا الحرمات ، واعتدوا على الحريات وداسوا على مقدسات الأمة ، وجعلوا البلاد مزرعة لشهواتهم ، واتخذوا العبث بمصالحها مادة للكسب الحرام لأنفسهم وأهلهم وأنصارهم .

٣ — أن تغير الأوضاع التى مكنت الظالم من أن يظلم ، وأن يكون التغيير شاملاً لكل مرافق الحياة التى استطاع الطغاة أن ينفذوا منها إلى مآربهم .

أما قضية الاستقلال فليس لها إلا حل واحد ، هو أن يخرج الإنجليز من مصر والسودان ، وأن يخرج كل مستعمر من بلاد الإسلام ﴿ **ويقولون متى هو ، قل عسى أن يكون قريباً** ﴾ . وإن الإخوان المسلمين حين يتقدمون بهذه الخطوط الرئيسية إنما يستوحونها من كتاب الله الذى يأمر بالعدل والإحسان ، ويحض على الإخاء ورعاية أهل الذمة ﴿ **لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين** ﴾ ويدعون الله جلت قدرته أن يجمع القلوب على الهدى ، وأن يحقق للأمة أهدافها ، وأن يهدينا سواء السبيل والله أكبر ولله الحمد .

* * *

نقلنا إلى القراء هذا البيان ليلمسوا فيه المعانى التى توخينا إبرازها فى العلاقة بين طرفين ، ونترك للقراء الكرام تقدير هذه العلاقة .

* * *

الفصل الثانى

تأييد ودعم فى أحرج المواقف

قدمنا فى الفصل السابق ما ينطق بروح التعاون والإخاء من ناحية الإخوان المسلمين إزاء الثورة حيث قدموا لها برنامجا كاملاً شاملاً صريحاً واضحاً ، ولا يقدم مثل هذا البيان إلا قوم يرون فى القائمين بالحكم إخوة لهم يعقدون عليهم الآمال ، وينتظرون من ورائهم الخير والإصلاح .. ولا يقرأ هذا البيان مراقب سياسى إلا قرر أن أصحابه إخوة وأصدقاء وحلفاء لهذه الحكومة .. وهو ما كان فعلا شعور واضعى البيان وهم الطبقة المسئولة فى الدعوة والممثلة للإخوان المسلمين أعضاء الهيئة التأسيسة .

ولكن المراقبين السياسيين لاسيما الأجانب منهم لايكتفون بمثل هذا البيان دليلاً على روح التعاون والتكاتف بين هيئة وحكومة ، فإبداء هذه الروح فى وقت الرخاء قد يكون وراءه ما وراءه من الدوافع والآمال .. وينتظر هؤلاء المراقبون حتى تقع هذه الحكومة فى أزمة خانقة تكون فيها أحوج ما تكون إلى من يمد لها يد العون . ويرقبون هذا الحليف الذى تقدم للتأييد فى وقت الرخاء هل يجدون له أثراً وقت الأزمة الذى يكون التأييد فيه مكلفاً وذا ثمن فادح ؟

وهذا ما نستقرىء عنه الأحداث لعلها تنبئنا بشىء فيه يقنعنا ويقنع هؤلاء المراقبين :

استمرت المفاوضات بين حكومة الثورة وبين الحكومة البريطانية منذ قامت الثورة فى يوليو ١٩٥٢ حتى آخر مايو ١٩٥٣ فى محاولات لإقناع انجلترا بسحب جيوشها من منطقة قناة السويس .. وفى نهاية مايو ١٩٥٣ يئست الحكومة ووجدت نفسها أمام طريق مسدود من تعنت الحكومة البريطانية فأعلنت قطع المفاوضات —

ومعنى إعلان الحكومة المصرية قطع المفاوضات هو أنها قد استنفدت كل وسائل التفاهم والإقناع ولم يبق أمامها بعد ذلك إلا طريق المقاومة .

فماذا كان موقف الإخوان المسلمين إزاء هذا الموقف الجديد ؟

فى ٢٩ / ٥ / ١٩٥٣ أى عقب إعلان الحكومة هذا الموقف مباشرة ، أقام الإخوان حفلاً بشعبة العباسية بالقاهرة بمناسبة ذكرى غزوة بدر ألقيت فيه كلمة المرشد العام التى

نشرت فى الصحف فى اليوم التالى جاء فيها :

« والإخوان المسلمون يضعون كل إمكاناتهم رهن وصول مصر إلى حقها الكامل ، لايضنون فى سبيل ذلك بدمائهم ولا بأموالهم ولا بمجهودهم . وإن لهم من إيمانهم وصدق وطنيتهم وقوة تربيتهم ؛ مايجعلهم قادرين على تحمل الأعباء الجسيمة فى معركة مصر المقبلة — وإذا كان غيرهم يعتبر القيام بهذا الواجب مما تفرضه عليه الوطنية ، فإن الإخوان المسلمين يرون قيامهم بنصيبهم فى تلك المعركة عبادة يتقربون بها إلـى الله ، ويشترون بها الجنة .

وإننا مع هذا نتابع جهودنا فى ميدان الإصلاح الداخلى ، متعاونين مع كل من يريد الإصلاح والخير لهذا الوطن ، مؤيدين رجال العهد الحاضر فى ذلك تأييد الكريم للكريم ، لايألون عوناً إن أصاب ولا نصحاً خالصاً إن أخطأ .. معرضين عن كل مايحاوله أعداء الإصلاح فى عهده الجديد من إيغار الصدور ، وتفريق الصفوف .. وموقفنا هذا مما يفرضه حق الأمة والوطن على جماعة تدعو إلى الإصلاح ، لاتبتغى من الناس جزاء ولا شكوراً » .

ومع أن كلمة المرشد العام هذه لم يلقها بنفسه حيث كان فى ذلك الوقت خارج القاهرة ، وقد ألقاها نيابة عنه الأخ الأستاذ محمود عبد اللطيف .. فقد كان لما جاء بها صدى بعيد المدى فى الأوساط البريطانية والغربية .. حتى إن وكالة أسوسيتدبرس كلفت مراسلها فى القاهرة مستر إدوارد بولاك بمقابلة المرشد العام وإجراء حديث معه .

حديث المرشد العام مع وكالة الأسوستيدبرس :

وقد تمت المقابلة فى ٤ / ٦ / ١٩٥٣ ونشرت فى الصحف فى اليوم التالى .. ونورد نص هذه الأسئلة والأجوبة عليها كما نشرت :

س — ماهو رأى الإخوان المسلمين فى المرحلة الحالية للنزاع المصرى الإنجليزى بشأن الجلاء عن منطقة قناة السويس ؟.

جـ — لقد كان الإخوان يرغبون أن لاتصل العلاقات السياسية بين مصر وبريطانيا إلى المرحلة الحرجة الحالية . وكنا نأمل أن تقبل بريطانيا الحل الوحيد العادل والمعقول ؛ وهو الجلاء عن منطقة قناة السويس . وإذا كانوا قد فعلوا ذلك لكسبوا صداقة المصريين . ولكن أملنا لم يتحقق ؛ فلقد سيطرت العقلية الاستعمارية على وجهة النظر البريطانية ، وجعلتهم يذهبون إلى حد وضع شروط غير معقولة لإتمام الجلاء الذى تريده مصر — وإن هذا سيجعل المصريين جميعاً أعداء لبريطانيا حتى تسترد مصر حقوقها .

س — هل الإخوان المسلمون على استعداد للتعاون مع الحكومة فى أى إجراء تقرره

لتحقيق الجلاء عن القناة مهما يكن هذا الاجراء ؟ .

جـ ـ إن أحداً لايشك فى ذلك ـ ولو لم نكن موقنين بأن صبر الحكومة الحالى وانتظارها فى مصلحة مصر لسبقناها وخطونا الخطوات الضرورية التى يجب على مصر اتخاذها بشأن هذا النضال بجميع الوسائل الممكنة ضد القوات البريطانية . وعندما تقرر الحكومة أن الوقت قد آن للتحرك فستجد الإخوان المسلمين على استعداد للتجاوب بكل الإجراءات والعمليات الضرورية لتحقيق آمال مصر وحقوقها .

س ـ من المعلوم أن الإخوان المسلمين لديهم عدد من الأعضاء المدربين للقيام بشن حرب العصابات أو أى عمليات أخرى ضد القوات البريطانية فى منطقة القناة . وتقول الأنباء إن هذه التشكيلات ستتحرك إذا قررت الحكومة ذلك وفى الوقت الذى تقرره الحكومة . فهل تؤكد هذه الأنباء ؟ وإذا كان هذا صحيحاً فهل تستطيع أن ترسم الهيكل الخارجى لتفاصيل هذه التشكيلات واستعداداتها ؟ .

جـ ـ إن كل ما أستطيع الإفضاء به إليك هو أن الإخوان المسلمين مستعدون لأداء واجبهم . وإنى أفضل عدم الكشف عن تفصيلات أعتبر أن الموقف الحالى غير مناسب للكشف عنها .

س ـ هل تستطيع أن تفضى إلىّ ببعض المعلومات عن حالة الإخوان المسلمين الحاضرة مثل عدد الأعضاء المنتمين إليهم ، وعدد الشعب فى مصر وفى البلاد العربية الأخرى ؟ وهل ستشترك تشكيلات الدول العربية الأخرى فى القتال من أجل تحرير مصر إذا ما تقرر نشوب القتال ؟.

جـ ـ لم يعد اسم الإخوان المسلمين يعنى أنها منظمة وطنية أو قومية . فإنها الآن تقوم كرمز للمسلمين فى جميع أنحاء العالم ، تدعوهم أن يفيقوا ويتقدموا فى طريق نهضة قوامها التعاليم الإسلامية . وهذه التعاليم تهدف إلى حياة كريمة ؛ بما فى ذلك نشر التعليم والأخلاق الحسنة والمعيشية اللائقة فى مجتمع حسن التنظيم . وكذلك تنادى هذه التعاليم بوضع حد أدنى لمستوى المعيشة . وفى النهاية تطالب هذه التعاليم باستغلال منابع الثروة القومية ، والمحافظة على الاستقلال الوطنى قبل كل شىء ـ ونحن لانهتم بعدد الأعضاء المقيدين فى السجلات اهتمامنا برؤية مبادئنا تفهم على الوجه الصحيح ، ويتبعها أكبر عدد من الشعب فى مصر وفى الخارج .

أما عن الإخوان فى مصر فإنى أحب أن أؤكد أنهم منبثون فى جميع أنحاء القطر . وقد أنشئت المراكز فى جميع البلاد والقرى . ويعتبر الإخوان المسلمون الآن قادة الرأى العام

المستنير لشعب يدرك حقوقه وواجباته . وإن هدفنا الأساسى هو أن نرفع من مستوى أتباعنا وندفع بهم فى طريق الحق ؛ وبذلك نعينهم على تحمل مسؤلياتهم فى الوقت الحاضر .

وأما عن الإخوان المسلمين فى البلاد الأخرى فإنى لاأود أن أقول أى شيء عنهم بسبب الظروف المختلفة القائمة فى كل من هذه البلاد . وكذلك فإنى أفضل أن لا أقيد نفسى بما إذا كانوا سيشاركوننا فى معركة القنال أم لا .. إلا أنى فى مركز يسمح لى أن أؤكد أنهم سيؤيدوننا بجماع قلوبهم ؛ هذا إذا لم يستطيعوا أن يشتركوا فى المعركة نفسها .

وإنى أود أن ألفت الأنظار إلى محاولات خبيثة تقوم بها بعض العناصر الغربية لإعطاء صورة كاذبة عن الإخوان المسلمين .. وهذه المحاولات تهدف إلى خلق شعور عدائى بين الإخوان والغرب

وإنى أعتقد أن العالم الغربى سيجنى أعظم الفوائد بمحاولته فهم مبادئنا فهما جيداً ، وبدراستها فى ضوء من العدل وعدم التحيز . وإنى لمتأكد أن العالم الغربى عند ذلك سيقتنع تمام الاقتناع بعظم الفائدة التى سيجنيها وسيقلع عن تصور الإخوان المسلمين فى صورة « شبح مخيف » تلك الصورة التى حاول البعض رسمها عن الإخوان .

وإنى لمتأكد أن الغرب سيجد فى الإخوان المسلمين أكثر العوامل كفاءة للعمل فى سبيل تقدم الإنسانية وتحقيق الرفاهية للشعوب ، واستقرار السلام بين الأمم المختلفة » .

* * *

وغير خاف عن القارىء — بعد أن قرأ هذا الاستجواب الدقيق — مدى اهتمام الحكومة البريطانية فى هذا الظرف الحرج باستطلاع رأى الإخوان المسلمين فى الموقف ، وفى القدر الذى قرروا بذله من التأييد للحكومة المصرية . وحسب القارىء أن يعلم أن المفاوضات قد قطعت فى نهاية مايو ، وأن هذا الاستطلاع تم فى الرابع من يونيو ، وأن لندن أعلنت تراجعها عن التعنت وتقدمت بخطوة إيجابية فى المحادثات فى ١٥ يونية .

* * *

الباب الرابع

تأثير قيام الثورة
فى التفاعلات الداخلية
فى الدعوة

مقدمة

الفصل الأول : حاجة ملحة للعمل على تميز الدعوة من جديد

الفصل الثانى : مواقف محرجة الأستاذ عبد القادر عودة

الفصل الثالث: مواقف محرجة الشيخ الباقورى

مقدمة

كان المفروض والمعتقد بل والذى يخطر ببال كل إنسان . وخطر فعلاً ؛ أن قيام الثورة ما هو إلا دعم للإخوان المسلمين وتقوية وإمداد جديد . وإذا كان من طبيعة الأشياء أن لا يخلو شيء من نقاط ضعف أو مواطن خلل ؛ فكان المنتظر أن يكون قيام الثورة علاجاً شافياً لهذه النقاط وتلك المواطن فى المجتمع الإخوانى ﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره ﴾ .. فهل تحقق هذا الذى كان مفروضاً ؟.

أوردنا فى فصل سابق بياناً موجزاً عن التفاعلات الرئيسية التى كانت تنتاب الدعوة عندما تولى الأستاذ حسن الهضيبى منصبه فيها .. وقد أوجزناها فى تفاعلين اثنين هما : تمرد أولى القربى وتمرد أولى القوة . وألمحنا إلى أنهما كادا يعوقان الدعوة عن السير .. ولكن جهود الإخوان تمكنت بعون الله أن توقف هذين التيارين عند حد .. بل إنهما أمام الإجماع الإخوانى الدفّاق فى تأييد المرشد الجديد ، لم يكن فى استطاعتهما إلا أن يحنيا رأسيهما خضوعا وإذعانا .

وسارت الدعوة تشق طريقها ، وتألقت فى سماء مصر ، وشدت جميع الأنظار إليها ؛ تتطلع إليها فى شوق وتلهّف ؛ أنه قد حانت ساعة الخلاص ، وتحقق للناس ماطال انتظارهم له .. فقد قامت الثورة .. ولم يكن أحد يشك فى أن هذه الثورة هى ثمرة جهود ربع قرن واصلت فيه هذه الدعوة الليل بالنهار فى إيقاظ الشعب وتربيته وتثقيفه وتنظيمه .. وكان الأمر فعلاً كما اعتقد الناس .. ولكن ..

ولكن — وما أشق هذا الاستدراك على النفس — لم يكن أحد يعلم أن هؤلاء الذين ظهروا على المسرح كانوا يكنون فى قرارة نفوسهم غدراً بالدعوة التى تربوا فى أحضانها ، وقامت حركتهم فى كنفها وحمايتها .. وسرعان ما وضح الخلاف أو افتعل الخلاف بين هؤلاء وبين قيادة دعوتهم ..

أما نقاط الخلاف فقد أفردنا لها باباً تم فيه تمحيصها .. ولكن الخلاف فى الرأى لايفسد للود قضية ، وبهذا المعنى وعلى هذا الأساس سار الإخوان مع وجود هذا الخلاف على أسلوب النصح والتسديد والدعم والتأييد سواء فى أوقات الرخاء أو فى ساعات العسرة والحرج كما بينا ذلك فى الباب السابق .. آملين أن يتكفل الزمن بالتقريب بين الآراء ورجوع المخطىء إلى

الرشد والصواب .. ولكن هل وقف الأمر عند هذا الحد ؟

يبدو أن النفوس البشرية ذات تلافيف وسراديب وذات أعماق بعيدة ؛ بحيث لايعلم حقيقة ما فى أعماقها إلا الله وحده .. لقد سار الجميع مع الركب الإخوانى الهادر يحرز كل يوم نصراً ، ويجنى كل يوم ثمراً ، ويدكدك بأقدامه كل يوم صرحاً من صروح الظلم والاستبداد .. حتى أتى عليها جميعاً .. وتأهب سكانها للفرار مخلين للركب الهادر الميدان ، تاركين بين يديه الزمام .. وتقدم — فى حماية الركب الهادر — ثلة من رجال فتسلموا الزمام .. فلما تسلموا الزمام ماذا فعلوا ؟.

إنهم تنكروا أولاً للركب الهادر الذى رباهم وحمى ظهرهم .. فلم يتقيدوا بما كانواقد عاهدوا الله عليه .. ثم إنهم بعد ذلك أرادوا أن يتخذوا منه مطية لأطماعهم .

إن الإنسان لايملك لإنسان ارتبط معه برباط شيئاً إذا تحلل هذا الإنسان من ارتباطه حتى ولو كان قد وثق هذا الارتباط بيمين .. ولذا فإن المرشد العام لم يقابل تحلل جمال عبد الناصر من بيعته وعهده بشىء سوى التفويض لله ولم يعتبرها المرشد العام كارثة الكوارث .. لأن الوصول إلى الحكم لم يكن هدفه .. فإذا كان نفر من أفراد هذه الدعوة قد خرجوا عن الجادة وجعلوا الوصول إلى الحكم هو هدفهم .. فليهنئوا بهذا الحكم ، ولتسر الدعوة فى طريقها المرسوم ، مؤيدة كل صواب ، محذرة من الجنوح إلى الأخطاء .. ولعل هؤلاء فى يوم من الأيام يفيئون إلى رشدهم ، ويرجعون إلى صوابهم .

لقد خرج على هذه الدعوة من قبل آخرون .. وتنكروالها ، وحملوا عليها ، وافتروا عليها .. فلم يضرها ذلك فى كثير ولا قليل .. واستطاعت أن تواصل مسيرتها .. كان هذا هو شعور المرشد العام حين صارحه كبيرهم بالتحلل من العهد والبيعة .

ولكن كبيرهم هذا لم يكتف بالتحلل من العهد والبيعة ، بل أسر فى نفسه وطوى أحناءه على أطماع بالغة الخطورة لم تخطر على بال طائفة من التى خرجت على هذه الدعوة من قبل؛ إنه جعل خطوته التالية أن يسخر الدعوة لأطماعه .

إنه كان يفهم — من ثقافته التى تلقاها فى المحيط الإخوانى ، ومن احتكاكه بمختلف الهيئات — أن لابد للحاكم لكى يكون ثابتا فى حكمه — من قاعدة شعبية يستند إليها ، ويعتمد على تأييدها ، ويستمد سلطته من نفوذها الشعبى .. ويعلم كذلك أن الإخوان المسلمين هى الهيئة الشعبية ذات الجذور فى أعماق الشعب ، إنها الهيئة الشعبية المنظمة الغنية بشبابها ورجالها ونسائها ، وأنها الهيئة الوحيدة نظيفةالصفحة التى لم تثر حولها شبه من غش أو فساد أو استغلال ..

أية هيئة هذه التى لايحلم أى حاكم واسع الآمال إلا بها سنداً له ، ورداءً يحميه ، وطوداً

يتسنم ذروته فلا تتطاول إليه الأيام ولا ترقى إليه الأحداث !!؟.

إن جمال عبد الناصر دار بخلده كل هذا ، وطاردته نفس هذه الأحلام .. وما كان لإنسان فى مثل موقف عبد الناصر إلا ويدور بخلده كل هذا وتطارده هذه الأحلام .

وكل ما دار بخلد جمال ، وكل ما حلم به كان ممكناً تحقيقه فى عالم الواقع ، وبدون أدنى جهد ؛ لو أنه حفظ عهده وتمسك ببيعته .. لأن الإخوان أزهد الناس فى مظاهر الحكم .. ولو أرادوه — كما قدمنا — لسعى إليهم قبل ذلك بسنوات . ولقد سعى الهضيبى للقاء جمال عبد الناصر يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٢ فى منزل صالح أبو رقيق ليقول له هذه الكلمات ، ويطمئنه على أن الإخوان المسلمين جميعاً من ورائه .

ولكن جمال عبد الناصر كانت له آمال أخرى وأحلام أخرى — **وارتباطات أخرى** — كان حريصاً على إخفائها .. وكان ولاؤه لهذه الارتباطات الأخرى يقتضيه أن يفوه للمرشد العام بهذه الكلمات .. وهذا كلام ربما جاء بيانه فيما بعد إن شاء الله .. والمهمة التى كان جمال يريد الإخوان لها قد تمت ونجحت الثورة ولم يعد له بهم حاجة ، وعليهم أن يخلوا له الميدان وحده لأنه لايستطيع أن يجمع بين الضدين .. واعتماداً على مايعلم من صدق وفاء الإخوان لمبدئهم ولوطنهم فإنه كان موقناً أنه إذا ماوقع فى مأزق فإنه سيجدهم — رغم كل ذلك — من ورائه .

لقد كان معه طوال الوقت وعلى مدى الأيام السابقة صلاح شادى وحسن العشماوى وعبد القادر حلمى وفريد عبد الخلق وصالح أبو رقيق .. ولكنه لم يفه بهذه الكلمة لهم .. لأن التوقيت المرسوم كان أن يفوه بها للمرشد العام نفسه فى الوقت الذى فاه بها له ؛ ولو أنه استطاع أن يفوه بها له دون أن يسمعها هؤلاء لكان أفضل له ، ولكن الظروف لم تكن لتسمح بذلك .

* * *

الفصل الأول

حاجة ملحة للعمل على «تميز الدعوة» من جديد

هدمت هذه الكلمات القصار فى هذا اللقاء صروح الآمال التى كان المرشد العام بناها على هذه الثورة والتى كانت جميعها تدور حول حكم خالص فى ظلال الوحى الربانى الهادى المبين .. كما لمح الرجل ماوراء هذه الكلمات التى سمعها من أطماع حول تطويع هذه الدعوة وتذليل عنقها لتكون فى خدمة هذه الأطماع .. وما كان للمرشد العام — والوضع أضحى كما رأى — إلا أن يكرس كل جهوده على أن لايختلط الحق بالباطل ، وعلى أن يظل للدعوة « تميزها » الذى اكتسبته وعاشت به حتى تسلم هو قيادتها .. وأحب هنا أن ألفت نظر السادة القراء إلى أن المحافظة على تميز الدعوة ليس بالأمر السهل القريب المنال ، وإنما هو أمر خطير ، ومهمة بالغة الصعوبة .. ولقد سبق لنا أن أفردنا باباً من قبل فى الجزء الأول من هذه المذكرات لمحاولة حسن البنا إبراز الإخوان المسلمين باعتبارهم فئة متميزة من الفئات الأساسية فى المجتمع المصرى ، وأشرنا فيه إلى طرف من الجهود الجبارة التى بذلها فى سبيل ذلك ، وما اعترض طريقه فى ذلك من مشقات .. ومع ذلك فقد كان يريد أن يميز دعوته من دعوات وهيئات وجماعات كانت كلها موجودة معه على الصعيد الشعبى ؛ كما كان متاحاً له ما كان متاحاً لهذه الجماعات من وسائل .. ومع ذلك لاقى مالاقاه من مشقات ، وخاض فى سبيل ذلك الغمرات ، وخرج عليه من خرج ..

ودارت الأيام .. وبعد أن بذلت الدعوة فى خلال عشرين عاماً أغلى ما تملك حتى تم تميزها .. واجه مرشدها الجديد موقفاً خطيراً يكاد يقوض البناء من أساسه .. إنه يراد للدعوة أن تميع وأن تطمس قسمات وجهها المشرق ، وأن تلعب أصابع « المكياج » فى هذه القسمات حتى تبدو فى الشكل الذى يريده الحاكم ..

والدعوة الإسلامية — على مدى العصور — لم تُنل إلا بهذا الأسلوب ؛ أسلوب التمييع والتحوير والتزييف .. لأن الدعوة الإسلامية هى فكرة قبل أن تكون دعوة ، وهذه الفكرة محددة المعالم .. فإذا أريد تطويع الدعوة فلابد من العبث أولا بالفكرة ؛ ومحاولة إفراغها من مضمونها أو تحريف هذا المضمون بالإضافة إليه أو الحذف منه أو التأويل السقيم لمعانيه .. ولا نقصد بالدعوة الإسلامية فى هذا الصدد الدعوة المحمدية فحسب ، وإنما هى الدعوة من لدن

إبراهيم عليه السلام حتى عيسى ومحمد عليهما السلام .. هذا كان دأب الذين أرادوا الكسب الحرام لأنفسهم سواء كان هذا الكسب مادة أو جاهاً أو سلطة .

أحس حسن الهضيبى كل هذه المعانى لحظة فاجأه جمال عبد الناصر يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٢ بهذه الكلمات القصار التى أعلن له فيها تحلله من بيعته .. أحس بأن جهده كله يجب أن ينصب منذ تلك اللحظة على تحصين دعوته ، والإبقاء عليها متميزة واضحة المعالم ، ذات جدار عال شاهق يعيا كل جبار دون اجتيازه .. ولهذا أجاب جمالاً بهذه الكلمات التى تؤدى نفس المعنى تماماً « اسمع ياجمال .. ما حصلش اتفاق .. وسنعتبركم حركة إصلاحية .. إن أحسنتم فأنتم تحسنون للبلد . وإن أخطأتم فسنوجه لكم النصيحة بما يرضى الله » .. وفهم جمال نفس هذا المعنى الذى يقصده المرشد العام .

وقال المرشد العام عقب ذلك للذين حضروا هذه المقابلة من الإخوان هذه الكلمات : « الراجل ده ما فهش خير ويجب الاحتراس منه » ولم يكن هذا التعقيب منه إلا صدى لقوله تعالى ﴿ **والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ؛ أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ .

والناظر فى هذه الآية والست التى سبقتها قد يرى فيها روعة وعجباً .. فقد بدأت بقوله تعالى ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟** ﴾ ثم يذكر عشر صفات لأولئك الذين علموا أنما أنزل من الله هو الحق ؛ جعل فى مقدمتها ﴿ **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾ ثم أتبع ذلك بقية الصفات ــ ولكنه فى الآية السابعة التى نحن بصددها وهى التى تعرض لصفات النقيض لاتذكر إلا صفات ثلاثاً ليس غير وهى نقض العهد والميثاق ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، ثم الإفساد فى الأرض ــ وقد تومىء الآية بذلك إلى أن نقض العهد ــ عادة ــ إنما ينبعث من حصول الناقض على متاع من متاع الدنيا كمال أو سلطة كان يرنو إليهما ؛ فلما تحققا له دفعه الحرص عليهما إلى نقض العهد والميثاق ، وإلى قطع الصلات بينه وبين الذين كان قد تعاهد معهم وهم أصحاب الفضل عليه ، وكانوا أولى الناس بأن يعترف بفضلهم ويصل حبله بحبلهم ــ ولما كان الحق لايتعدد ، وليس بعد الحق إلا الضلال . ومن تنكب طريق الحق لم يجد أمامه إلا طريق الفساد .. ولما كان هذا الناقض ذا قوة اكتسبها كما قدمنا فسلوكه طريق الفساد لايعود عليه وحده بالضرر بل يعود الضرر عليه وعلى غيره ممن تابعوه أو ممن ابتلوا به .

ومعنى أن حسن الهضيبى واجه فى ذلك اليوم موقفاً ألزمه أن يوجه كل جهوده للحفاظ على « تميز » الدعوة ، هو أن الدعوة رجعت إلى سابق عهدها فى عهد حسن البنا فاتخذت موقف الدفاع عن نفسها ، والذود عن كيانها .. ولكن الموقف فى هذه المرة أصعب من ذى قبل للأسباب الآتية :

١ ـــ أن حسن البنا كان يدافع عن كيان دعوته ، ويعمل على تميزها ، ويحدد معالمها ـــ وهو قائدها غير منازع ، وصاحب الكلمة المطاع ؛ لايخرج عن طاعته أحد من أتباعه .

٢ ـــ أن حسن البنا كان يعمل على تميز دعوته ـــ كما قدمنا ـــ عن هيئات وجماعات كانت كلها معه فى المستوى الشعبى وأنه كان متاحاً له ما كان متاحاً لهم من وسائل .

٣ ـــ أن الحكومات التى كانت تختلف معه أو تعاديه كان بينها وبين دعوته خط فاصل واضح المعالم يراه القريب والبعيد ؛ فصحف هذه الحكومات ترمى بصريح العبارة دعاة الحكم الإسلامى بالتأخر والرجعية .

٤ ـــ أن وجود جيوش المستعمر على أرض الوطن مع وجود حكومات من المصريين تتعاون معه ، كان عاملاً من عوامل إبراز هذا الخط الفاصل الذى يراه الشعب بين الإخوان المسلمين وبين هذه الحكومات .

ولكن حسن الهضيبى هذه المرة واجه هذا الموقف وهو فى وضع نجمله فى الآتى :

١ ـــ أنه دخل هذا الميدان وهو لا يزال قريب عهد بحرب شعواء شنها عليه عنصران من عناصر هذه الدعوة عنصر أولى القربى وعنصر أولى القوة .. وإذا كانت الظروف التى واجهت هذين العنصرين لم تكن مواتية لهما فخفت صوتهما ، وتواريا عن الأنظار .. فمن يدرى كيف يكون لهما من موقف إذا تغيرت الظروف ؟

٢ ـــ أنه يريد المحافظة على « تميز » دعوته لاعن هيئات وجماعات شعبية وحسب ؛ وإنما يريد أن يحفظ لها تميزها أيضاً عن حكومة لايملك هو من الوسائل مثلما تملك .

٣ ـــ أنه ليس هناك خط فاصل واضح بين هذه الحكومة وبين الدعوة بحيث يراه الشعب ، ويكون هذا أول ما يلفت النظر إلى التميز ؛ بل إن الشعب مستقر فى خاطره أن هذه الحكومة هى وليدة دعوة الإخوان المسلمين . بل الأدهى من ذلك أن الإخوان المسلمين أنفسهم مستقر فى خاطرهم هذا المعنى نفسه .

٤ ـــ أن هذه الحكومة لم تعلن على الشعب ما يشتم منه ما يناقض الدعوة الإسلامية ، بل إنها تصرفت فى أول عهدها تصرفات توحى كأن أصحابها يمثلون هذه الدعوة ؛ مثل رفضهم ركوب السيارات المخصصة للوزراء والاكتفاء بركوب

سياراتهم الخاصة ، حتى إن بعضهم كان يركب الترام ، ومثل اكتفائهم فى الاجتماعات التى تطول لمجلس الوزراء أو لمجلس الثورة بتناول السندوتشات .. وما إلى ذلك من تصرفات طبعت فى أذهان الناس صورة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد والرعيل الأول ، ثم اجتماعات لهم تتم فى بيوت الإخوان المسلمين .

كان هذا تصويراً مقرباً لموقف الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين فى الأيام الأولى لقيام الثورة ، ومع أنه موقف لايحسد عليه ، فإن مرور الأيام لم تزده إلا حرجاً ، ولم تخلع عليه إلا التفاقم والتعقيد .

* * *

الفصل الثانى

مواقف محرجة

الأستاذ عبد القادر عودة

قدمنا أن الثورة حين قامت ؛ أحس كل أخ من الإخوان المسلمين أن هذه الثورة ثورته ؛ لأنها أولا: كانت الخطوة المتوقعة التى لابد من حدوثها بعد أن وصل الإخوان بالشعب إلى هذه الدرجة العالية من الوعى والنضج والقوة ، وبعد أن أحاط الشعب بأعدائه الداخليين والخارجيين من كل جانب .. وكانت أشبه بالحمل الذى استوفى أشهره التسعة ، والكل فى انتظار لحظة المخاض ليسعدوا بالمولود الذى طال انتظاره . ـــ وثانياً لأن زملاء الأشخاص الذين ظهروا على المسرح من النظام الخاص أشاعوا فى مختلف أوساط الإخوان هذه الحقيقة ليطمئنوا إخوانهم فى كل مكان إلى أنهم حققوا لهم ما كانوا يأملون من حكم إسلامى كريم .. وقدمنا أن ذلك أشاع السرور والابتهاج فى نفوس الإخوان ؛ فأقبل بعضهم على بعض يتعانقون كما أقبل الكثيرون من إخوان القاهرة على « إخوانهم » من أعضاء مجلس الثورة يقبلونهم ويعانقونهم .

كان هذا شعور عامة الإخوان من أقصى البلاد إلى أقصاها .. ولم يكن أحد قد عرف بعد بانتكاس جمال عبد الناصر إلا المرشد العام وهذا العدد القليل من الإخوان الذين كانوا معه حين حضر المرشد العام من الإسكندرية يوم ٢٨ يوليو ١٩٥٢ والتقى بجمال فى منزل صالح أبو قيق .

كان موقف المرشد العام بعد هذه المفاجأة فى غاية الحرج .. كيف يواجه هذا الشعور الإخوانى الغامر وكل منهم يزف إلى الآخر التهانى .. والناس عموماً تشرئب أعناقهم إلى المركز العام للإخوان المسلمين يترقبون خطوته التالية من إعلان الحكم الإسلامى المرتقب ؟!.

كان على المرشد العام أن يرجع فى هذا أول ما يرجع إلى الهيئة التأسيسية للإخوان .. واجتمعت الهيئة فى جلسة غير عادية .. وبدأ المرشد العام ينقل إلى المجتمعين ـــ مترفقاً ـــ

صورة الانتكاسة التى فاجأته .. فماذا كان وقع حديثه ؟.

كان لحديثه وقع مختلف ؛ طائفة كانت تربطهم بجمال وزملائه صداقة شخصية من قبل قيام الثورة .. وهؤلاء رأوا أن صداقتهم الشخصية تلزمهم أن يكونوا فى صف جمال وأن يدافعوا عنه دفاعاً منبعثاً من هذه الصداقة — وطائفة استبعدوا حدوث مثل هذا ، وحملوا الحديث على محمل المبالغة ، وطلبوا أن يمنحوا فرصة للتحقق من ذلك — وطائفة صدمتهم هذه الصورة ولكنهم تذكروا أن قلب العبد بين إصبعين من أصابع الرحمن ، وأن للسلطة فتنتها ، فليس بغريب أن يقع ماحدث .

ونحمد الله أن كانت الأغلبية الساحقة من الأعضاء من الطائفة الأخيرة .. ولكن الذى جعل للطائفتين الأخريين — على قلة عددهما — وزناً أن كان على رأس الطائفة الثانية أخ من أكرم الإخوان ومن أقربهم إلى نفوسنا جميعاً ، وكان منصبه فى الدعوة يعطى للخلاف وزناً آخر ؛ ذلك هو الأخ الكريم الأستاذ عبد القادر عودة وكيل الإخوان المسلمين.

راح الأستاذ عبد القادر يتصل بجمال ويسأله عن هذه القضية الخطيرة .. وجمال ينكر ما قاله للمرشد العام ويقول : كيف أقول هذا وأنا رجل من الإخوان المسلمين .. إننى قلت إننا سنحكم بالقرآن ولكن الظروف الآن لاتسمح بذلك ، ولابد من تذليل العقبات وتهيئة الجو للحكم بالقرآن ولابد من فترة نستطيع خلالها أن نحقق ذلك .

وتعقد جلسات غير عادية متقاربة للهيئة التأسيسية لمعالجة هذا الخلاف الخطير — وفى كل اجتماع يقف الأستاذ عبد القادر ناقلاً لنا ماسمعه من جمال عبد الناصر ومدافعاً عنه ومطالباً بتأييده تأييداً مطلقاً ، وكيف لانؤيده تأييداً مطلقاً وهو أخ لنا — ويحاول المرشد العام أن يوضح للأستاذ عبد القادر حقيقة الموقف ، ويحذره من مغبة التأييد المطلق ، ومن الإسراف فى حسن الظن ، ومن الانخداع بالألفاظ .. ويجد الأستاذ عبد القادر أصوات التأييد لكلامه من الطائفة الأولى .. ويحاول غير قليل من الطائفة الثالثة معه أن يخففوا من اندفاعه وأن لايشتط فى لهجته .. ولا يزيده ذلك إلا إصرارا .. حتى صارت جلسات الهيئة صراعاً حاداً بين طائفتين اثنتين : الطائفة الأولى وعلى رأسها الأستاذ عبد القادر والطائفة الثالثة وعلى رأسها المرشد العام ؛ وقد تلاشت الطائفة الثانية حيث اقتنعت وانضمت إلى الطائفة الثالثة — وصرنا نخرج من هذه الجلسات وقد عصر الغم قلوبنا ولا ندرى كيف الخروج من هذا المأزق الخطير الذى يهدد بتدمير الدعوة من داخلها .

كنا نعلم من أول الأمر أن بيننا عدداً قليلاً من أعضاء الهيئة يرتبطون بجمال ارتباطاً شخصياً — ومع ذلك لم نكن نعتبر ذلك انشقاقاً حيث لاخطر لهم ..

ولكن الأستاذ عبد القادر وكيل الإخوان يكون على رأس هؤلاء ، ويتحدى المرشد العام على رؤوس الأشهاد .. إنها الداهية الدهياء والفتنة العمياء والطامة الكبرى .

لقد كان الأستاذ عبد القادر بموقفه هذا خسارة فادحة للدعوة ، وكسباً عظيماً للطرف المناوىء للخط الذى عرضه المرشد العام واعتمدته الهيئة التأسيسية فى تعاملها مع الثورة — ولم يكن المرشد العام يطلب من الهيئة معاداة الثورة ولا مناوأتها وإنما يطالب بتأييدها فيما تحسن وبتوجيه النصح لها فى غير ذلك .. وهو كلام ليس بالجديد فهو نص ماقاله المرشد العام لجمال عبد الناصر .

استحداث منصب جديد .

كان أعضاء الهيئة التأسيسية حريصين كل الحرص على أن يكون هذا الخلاف محصوراً بين جدران أربعة هى التى تضم جلسات الهيئة ، وأن لايخرج عن حدود هذه الجدران فيكون مثاراً للخلاف فى جماهير الإخوان فيحدث تفرقاً وتحزباً وتمزقاً .. وقد استطاع أعضاء الهيئة — إلى حد كبير — تحقيق ذلك .. ولكن جمال عبد الناصر كان ينقل إليه كل مادار فى هذه الجلسات عن طريق أصدقائه الشخصيين من أعضاء الهيئة .. ولم يكونوا يرون فى ذلك خروجاً على توصية الهيئة بحجة أنهم يرون أن جمال عبد الناصر أخ من كبار الإخوان ومن حقه أن يعلم بمثل ما يعلم به عضو الهيئة .

ولما كان الأستاذ عبد القادر — وهو من لايشك فى حسن نيته — أثيراً لدى أعضاء الهيئة وغيرهم من سائر الإخوان . وكان على الأخص أثيراً لدى المرشد العام ؛ فقد كان هو الذى رشحه وكيلا للإخوان المسلمين — وكان انحيازه إلى هذا الموقف بل تزعمه له ؛ عائقا يحول بينه وبين تأدية وظيفته فى النيابة عن المرشد العام فى تمثيل الدعوة أمام مختلف الجهات لاسيما أمام الحكومة .. وقد عز على المرشد العام وعلى أعضاء الهيئة أن ينزعوا عنه هذا المنصب — فقد رؤى إبقاؤه فى منصبه وإنشاء منصب جديد هو منصب « نائب المرشد » واختارت الهيئة لهذا المنصب الأخ الدكتور خميس حميده على أن يتفرغ لهذا المنصب .

وواضح تمام الوضوح أن إنشاء هذا المنصب وإسناده إلى الأخ الدكتور خميس متفرغا له ، قد حجب الأستاذ عبد القادر عوده عن أن يكون ممثلا للدعوة نيابة عن المرشد العام — فى الوقت الذى لم يبد أمام جمهور الإخوان ما يشعرهم بانتقاص من مكانة الأستاذ عبد القادر أو المساس بكرامته .

قضية :

أحس وأنا أسطر هذه السطور — متوخياً الأمانة التاريخية — أنى أصادم عاطفة

متأججة فى صدور الكثرة الغالبة من قراء هذه السطور .. فلا شك فى أن الأستاذ عبد القادر عوده يحتل فى قلوبهم سويداءها حباً واحتراماً وتقديراً . ولعلى أكون أكثرهم حباً واحتراماً وتقديراً ؛ فقد كان لى الأخ الحبيب ، والصديق الصدوق .. وهو من أقرب الإخوان الى قلبى ، وأحظاهم باعجابى وحبى .. ولكن هذا لايمنعنى وأنا أسطر مذكرات للتاريخ أن أثبت ماله وما عليه ؛ ولن ينقص ذلك من قدره عندى .. وبهذه النظرة المتجردة من كل هوى أرجو أن يتقبل القارىء ما أسطر فى هذه المذكرات التى لاأرجو من ورائها إلا رضا الله ونفع الناس ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ .

لقد كان الأستاذ عبد القادر من أحب الإخوان إلى الأستاذ الإمام . وكثيراً ما كان يذكره لنا بالفخر والاعتزاز . وظل — رحمه الله طيلة أيام الإمام يشغل منصبه فى القضاء .. فلما تولى الأستاذ الهضيبى منصب المرشد العام كان الأستاذ عبد القادر أقرب الإخوان الى قلبه ؛ ولعله هو الذى أوحى إليه أن يترك منصبه فى القضاء ليكون بجانبه .. وهنا بدأ الاختبار ..

والاختبار هنا ليس اختبار الإيمان ، ولا إختبار الإخلاص ، ولا اختبار الفهم والعلم والإحاطة ، ولا اختيار المقدرة الكتابية والخطابية ولا اختبار التفانى فى الدعوة .. فكل ذلك كان قد إجتازه من قبل وبذ فيه وتفوق ... ولكن الاختبار هنا كان اختيار المقدرة الإدارية ومدى فهم المواقف وقراءة ما بين السطور وما وراء الألفاظ ، والتعامل مع الأحداث المرتقبة كأنما حدثت ، والقدرة على الاحتفاظ دائما بخط رجعة يرجع إليه إذا ما أخلفت الظنون ورحم الله الذى وصف مثل هذا الرجل فقال :

الألمعى الذى يظن بك الظـ ـــن كأن قد رأى وقد سمعا

ولا أكتم القارىء سراً فى هذا المقام فأذكره بالحديث الذى كان قد دار بين المرشد العام حسن الهضيبى وبينى قبل الثورة فى دمنهور والذى أثبته فى الجزء الثانى من هذه المذكرات ، وجاء فيه على لسان المرشد العام فى سياق تقييمه لمن حوله من الرجال فذكر شخصية أغفلت ذكر اسمها آنذاك واكتفيت بنعتى لها بأنها شخصية هامة فى الدعوة فوصفها بالإيمان والإخلاص والعلم، ولكنه لم ير فيها الدقة التى كان يأملها فى التعامل مع المواقف، وأشار بكلمة فرنسية تعبر عن هذا المعنى — لاأكتم القارىء سراً إذا قلت الآن إن هذه الشخصية كانت الأستاذ عبد القادر عوده .

لم يطعن الأستاذ الهضيبى فى إيمان الرجل ولا فى إخلاصه ولا فى علمه ولا فى تفانيه ، وإنما قيمه فى هذه الناحية التى نتحدث عنها والتى جربه فيها .

ولسائل أن يسأل : لما كان تقييم المرشد العام للأستاذ عبد القادر هو هذا التقييم فلم لم يعمل على تغييره ؟ ونجيب على هذا السؤال فنقول : إن الأحداث فى ذلك الوقت لم

تكن من التشابك والتعقيد بحيث يلحق من تعوزه هذه الصفات ضرراً بالدعوة . كما أن المرشد العام كان هو الذى يقوم بالاتصالات بنفسه ، ولم تكن الظروف تحتاج لأكثر من ذلك؛ بل إنها لم تكن تسمح بغير ذلك .. يضاف إلى هذا أن قلقلة هذا الوضع بغير دليل ملموس قد يثير الخواطر ، ويبعث على الشكوك ، ويزعزع الثقة .

ونصل بذلك إلى لب القضية وتتلخص فى سؤال يقول : هل اجتماع العلم والفضل والإخلاص والتفانى والورع فى رجل كاف وحده لإسناد منصب الإدارة والقيادة إليه أم لابد من صفات أخرى يشترط توفرها فيه حتى يكون لائقاً لهذا المنصب ، منتجاً فيه؟.

ولعل كلمة عمر رضى الله عنه المأثورة تومىء إلى شىء مما نحن بصدده حين قال : « أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى » ـــ وتحت كلمتى الأمين والقوى تندرج كل المؤهلات المطلوب توافرها فيمن يرشح لمنصب قيادى ـــ كما قد يومىء إلى شىء من ذلك أيضاً ترشيح عمر رضى الله عنه ستة من كبار الصحابة ليختار أهل الرأى أحدهم خليفة له،ولم يكن من بينهم ولده عبد الله بل جعله مجرد شاهد عليهم مع علو كعب عبد الله فى العلم والصحبة والفضل والورع .

وقد يكون من ألزم لوازم من يتولى منصباً قيادياً أن لايكون سريع التأثر سريع الاندفاع ، وأن يكون قادراً على إلزام نفسه بحدود لايتعداها فى الحب والبغض .. وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف من قول رسول الله ﷺ « أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » .

على أن التجربة هى أساس الحكم على إنسان من حيث جدارته لما أسند إليه من منصب ـــ ولقد كان من كبار الصحابة رضى الله عنهم من كانوا من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ ، ومع ذلك لم يستعملهم فى مناصب القيادة أو مناصب الحكم والإمارة ، واستعمل من هم دونهم مكانة لديه وقدراً .. ولم يكن هذا مطعناً فى هؤلاء الصحابة الكبار بل ظلوا مع ذلك موضع حب رسول الله ﷺ وتقديره وتقدير إخوانهم وتقدير الأجيال إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله .

ونرجع إلى السياق فنقول إن موقف الأخ الأستاذ عبد القادر كان مفاجأة غير سارة ، وكان عائقاً جديداً أضيف إلى عوائق أخرى لم يكن حدوثها مفاجأة لأنها كانت ذيولاً لمواقف سابقة .. وقد تلقى المرشد العام مفاجأة الأستاذ عبد القادر بصبر وأناة وجلد ، وترك للزمن بما يتمخض عنه من أحداث أن يكشف له ما عجز عن كشفه من حقائق فى ذلك الوقت :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلاً ويأتيك بالأنباء من لم تزود .

ونستطيع الآن أن نقول : إن الأيام قد أبدت للأستاذ عبد القادر ما كان يجهله ؛ ولكن بعد فوات الوقت المناسب — وندع بيان ذلك إلى مواضع أخرى من هذه المذكرات إن شاء الله .

* * *

الفصل الثالث

مواقف محرجة
الشيخ الباقورى

كانت المفاجأة الثانية التى تلقاها الرجل الصابر المحتسب المرشد العام ، وكانت بتعبير آخر : اللطمة الثانية .. وهى مفاجأة ولطمة لأنها أصابته فى أقرب الإخوان إليه .. فالأولى كانت فى الأخ الذى اختاره ليكون وكيله ، والثانية كانت فى الأخ الذى تحدثت عنه فى الجزء الثانى من هذه المذكرات حين التقيت به فى دمنهور ، ووجدته فى صحبة المرشد العام الجديد ، وعلمت بعد ذلك أنه رفيقه فى رحلته فى الوجهين البحرى والقبلى ورأيت كل من أراد أن يستفسر من المرشد العام عن شىء من تفاصيل الرحلة يحيله إلى هذا الأخ الذى تفرغ لمرافقته .

وإذا أراد قارىء أن يعرف مدى مصيبة المرشد العام فى هذا الأخ فليقرأ ماكتبت عنه فى الجزء الثانى من هذه المذكرات ومارأيته ومادار بينى و بينه من حديث .

ولكننى أنا شخصياً ــ حين علمت بما كان من أمر الشيخ الباقورى ، ومما كان مفاجأة للكثير من الإخوان ــ لم يقع منى ذلك موقع المفاجأة ؛ ذلك أننى سبق أن حللت شخصيته بعد طول صحبة وصداقة ومعاشرة ، فرأيت فى أعماقه شخصية الشاعر الذى تحكمه العواطف وتسيره حيث شاءت ، وإن كانت على كل حال لا تجنح به إلى الحرام ، ولا تقوده إلى منكر ــ ولهذا فإننى بالرغم من كل ما وقع منه لاأفقد حبى له مع علمى بأن هذا يغضب الكثيرين ، ولكننى لاأبالى مادمت أقرر حقيقة أحسها ــ وأعتقد أيضاً أن الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام ــ مع كل ما حدث من الشيخ الباقورى ــ فإنه لم يفقد حبه له ؛ لأن الرجل ــ حسن الهضيبى ــ كان مرهف الحس ، عميق النظرة ، سرعان ماتسعفه بصيرته بحكم صادق دقيق على من يتعاملون معه ، ويحتكون به ؛ فهو قد عرف عن الباقورى ما عرفت ، فأصدر فى شأنه حكمين فى وقت واحد : حكم أعلنه على الملأ حفظاً لكيان الدعوة وإبقاء على تميزها،وتنفيذاً لقانونها الأساسى ، وحكما آخر لم يعلنه،واحتفظ به لنفسه .

أما الحكم الذى أعلنه فيقضى بتبرئة الدعوة من تصرف تصرفه دون الرجوع إلى الهيئة التى ينتسب إليها ؛ فقد استجاب لطلب الحكومة فى تقلد منصب الوزارة فى الوقت الذى هو يعلم أن استجابته الشخصية هذه تجرده من أن يكون فى منصبه هذا ممثلا للدعوة ؛ فكان الإجراء الطبيعى أن يعلن المرشد العام فصله من الإخوان المسلمين — ولكن المرشد العام — ترفقاً به لما يعلم من طبيعته — طلب منه أن يستقيل فامتثل وأعلن ذلك فى الصحف ؛ فقد جاء فى « أخبار اليوم » فى ١٣ / ٩ / ١٩٥٢ مانصه : « اتصل الأستاذ حسن الهضيبى رئيس جماعة الإخوان المسلمين بجميع الصحف ليلة تأليف وزارة محمد نجيب ، وطلب إليها أن تنشر على لسانه أن الأستاذ أحمد حسن الباقورى قد استقال من الإخوان قبل قبوله المنصب الوزارى . » .

وأما الحكم الذى لم يعلنه المرشد العام فتستطيع أن تراه فى ثنايا ما حدث مما انتهى إلى هذه النهاية ثم ماحدث بعد ذلك فقد، جاء فى كتاب «الصامتون يتكلمون» من رواية الأستاذ صالح أبو رقيق نقلاً عما سمعه من المرشد العام إذ يقول: جلس المرشد فى صالون منزله حزيناً لخروج الباقورى على إجماع مكتب الإرشاد — وقرب منتصف الليل وصل الشيخ الباقورى إلى منزل المرشد وصافحه وقبل يده وقال : أنا تصرفت .. وأتحمل نتيجة تصرفى . وأنا مستعد أن أستقيل من مكتب الإرشاد .

ورد الهضيبى : لسه؟! وقال الباقورى : ومن الهيئة التأسيسية .

ورد الهضيبى : لسه. وقال الباقورى : ومن جماعة الإخوان المسلمين .

ورد الهضيبى : هكذا يجب .

وطلب الشيخ الباقورى ورقة وكتب استقالة من جماعة الإخوان المسلمين .. وانصرف.

وفى صباح اليوم التالى توجه المرشد إليه فى مكتبه بوزارة الأوقاف مهنئاً له . فقال له الباقورى : اعذرنى يامولاى .. إنها شهوة نفس .

فرد المرشد تمتع بها كما تشاء .. اشبع بها .

وهنا أقول : لاأعتقد أن هناك ما يدعو إلى تعليق على هذا الذى حدث لزيادة بيان أو إلقاء أضواء على ما تنم عنه كل حركة وكل كلمة من حب دفين لم يستطع المرشد العام أن يتخلص من ربقته — ومن حب وتقدير لم يستطع الباقورى أن يخفيهما.

آمال الباقورى فى الإصلاح عن طريق منصبه :

على أننى أعتقد أن الباقورى قد أقدم على هذه الخطوة وفى ظنه أنه بتقلده هذا المنصب قد يستطيع أن يفعل شيئاً فى سبيل الدعوة أو يقدم خدمات للمجتمع . وأذكر بهذه المناسبة واقعة قد تؤيد ذلك فأقول :

كان من الطبيعى بعد الاستقالة أن لايحضر الباقورى إلى المركز العام ، غير أنه كان من عادته ومن عادتى أن نتردد على صيدلية الصليبة فى حى الخليفة وهى صيدلية كان يملكها الأخ الدكتور جمال عامر عضو الهيئة التأسيسة والذى كانت تربطنى وتربط الباقورى به صداقة قديمة .. وقد ظننت أن تقلد الباقورى منصب الوزارة — وكان لمنصب الوزارة حتى ذلك الوقت جلال ومهابة — سيحول بينه وبين تلك الجلسة التى كنا نجلسها مع الدكتور جمال عامر فى صيدليته التى تقع فى شارع عتيق ، والصيدلية نفسها كانت من الطراز العتيق .

وحبستنى ظروف العمل الشخصى والعمل فى الدعوة فى تلك الفترة عن زيارة الصيدلية مدة طويلة . ثم حملنى الشوق على زيارتها . فلما التقيت بالأخ الدكتور جمال قال لى : إن الشيخ الباقورى يريد أن يقابلك . فقلت له : وكيف اتصل بك ؟ قال : إنه يحضر هنا كالمعتاد وإن كانت ظروف عمله قللت من حضوره .. فسألته لماذا يريدنى ؟ فقال : لاأدرى — ومع أننى كنت فعلاً أتحاشى لقائى معه لما قد يكون فى ذلك من حرج ، فقد حدد الدكتور جمال موعداً والتقينا فيه عنده بالصيدلية. ودار الحديث بيننا على الوجه الآتى : بدأ الباقورى حديثه بأنه يعلم أنه بتصرفه الذى تصرفه لم يعد له من حق فى إلزام الإخوان بشىء ولا مطالبتهم بشىء ، ولكن ذلك لايحرمه الاستمتاع بحقوق الصداقة بينه وبين من تربى معهم من الإخوان — وقد بادلته هذا الشعور . ثم قال : وبحق ما بيننا من صداقة سأعرض عليك عرضاً . إننى توليت وزارة الأوقاف وأحب أن أبذل كل جهدى فى إصلاح شؤن هذه الوزارة وأنقيها من الفساد حتى يعم نفعها المجتمع الإسلامى .. وقد وجدت مرفقاً عظيم الأهمية فى هذه الوزارة لاخبرة لى به ، ولكنى علمت أنه لايدر على الوزارة ما كان ينتظر منه من ريع .. وفى اللحظات التى كنت أستعرض فيها شؤن هذا المرفق خطرتَ فى بالى ؛ فأنت رجل زراعى ، وخير من يؤتمن على إدارة الشؤن الزراعية فى وزارة الأوقاف . فما رأيك ؟ فقلت له : ياأخى والله إن عرضك هذا علىّ يقع من نفسى أجمل موقع لأنه نابع من حب وتقدير وثقه وأمل فى الإصلاح — وهو ما نشأنا عليه وتربينا عليه وأشربناه . ولكن الظروف المحيطة بالموضوع ظروف غير

مواتية لأستجيب لعرضك آسفاً ؛ فليس كل الناس يعلمون نبل دوافعك فى العرض ، ولا شرف مقاصدى فى الاستجابة ، وسيتقولون ، ولهم أن يتقولوا ؛ ومن سلك مسالك التهم أتهم ولا أجر له . فاعذرنى يا أخى إذا أنا تخلفت عنك فيما طلبت . وشكر الله لك ، وأسأل الله أن يعينك فيما تبغى من إصلاح .

واقتنع الباقورى وفى عينيه معانى التأثر وقال :يا أخى.. إنك قد تحتاج إلىّ فى أمر من الأمور ، فخذ هذا الرقم وهو رقم سرى لتليفونى الخاص بالوزارة .. فلما أبديت شيئاً من الممانعة فى ذلك ، فهم ماأقصد فقال : ماخطر ببالى أن مثلك يطلبنى فى أمر يعود عليه بمنفعة شخصية ، ولكنى أقصد أن هناك مظالم قد لاأعلمها وتعلمها أنت فيكون لك فضل توصيلها إلىّ .. وهنا أخذت الرقم .. ومع أننى فى تلك الفترة كنت مقيماً بالقاهرة فأذكر أننى لم أتصل به عن طريق هذا الرقم إلا مرتين . ولما كان الموضوعان اللذان اتصلت به من أجلهما موضوعين خطيرين ، ولكل منهما دلالة على عمق الفساد فى مجتمعنا كما أن لهما دلالة أيضاً على عقم وسائل الإصلاح التى لجأ هذا العهد إلى سلوكها فى مكافحة الفساد ؛ لهذا رأيت ــ معتذراً إلى السادة القراء ــ أن أستطرد فأعرضهما فيما أعرض :

المظلمة الأولى :

تلقيت خطاباً من والدى برشيد يطلب إلىّ الحضور فوراً . وما كان لى أن أتخلف . فلما وصلت إلى منزلنا وجدت عند والدتى جيرانا لنا منزلهم أمام منزلنا يبكون . وهم جيران طيبون وصالحون وأميون يعملون بالزراعة ، وقد أقاموا منزلهم هذا منذ أكثر من عشرين سنة . فسألت عن سبب البكاء فقالوا : إنهم بنوا منزلهم هذا على أرض حكر تابع للأوقاف ــ ورشيد مليئة بالأحكار ــ وقد حددت الأوقاف لهم إيجاراً سنوياً يحضر إليهم ساع من مكتب الأوقاف برشيد كل سنة بالإيصال ويدفعون له الإيجار .

ولكن ساعى الأوقاف تخلف عن الحضور سنة .. ولما كانت قيمة الإيجار زهيدة فقد عزموا على أن يدفعوا له إيجار السنتين معاً .. وفى منتصف السنة التالية فوجئوا بمحضر المحكمة يعلنهم بصدور حكم غيابى عليهم بهدم المنزل لتخلفهم عن الإيجار بالرغم من إنذارهم كتابياً مرتين وبالرغم من إخطارهم بموعد جلسة المحكمة وإعلانهم به مرتين ولم يحضروا .. وأخبرهم المحضر بأن هذا القرار قرار نهائى ..

إنها مصيبة حقاً تستحق أن أدعى لها من القاهرة لعلى أستطيع أن أفعل شيئاً أغيث به هؤلاء الجيران الطيبين ؛ حتى ولو بإعطائهم فرصة للبحث عن سكن لهم وهم عائلتان كبيرتان .. وقد علمت منهم أن شيئاً من هذه الإنذارات ومن هذه الإعلانات لم يصلهم ؛ ولو كان وصلهم لما تخلفوا عن تسديد هذه القروش ، ولو علموا أن هناك جلسة

فى المحكمة لما تخلفوا عن حضورها .. ولكن لابد أن هناك خطة مبيته دبرت بإحكام.

وبالتقصى وراء هذه الواقعة علمت بأن الأحكار المقام عليها مساكن فى رشيد كثيرة ، وأن هناك شبه عصابة متواطئة مع موظفى مكتب الأوقاف ومع الساعى بالذات على أن يختاروا الحكر الذى يسكنه ناس أميون طيبون ، ويمتنع الساعى عن تذكيرهم بدفع الإيجار ، وفى السنة التالية يرسل مكتب الأقاف إنداراً مرة أو مرتين وفى كل مرة يعمل على أن لايصلهم هذا الإنذار مع التوقيع على صورته بتوقيع مزور — وبمرور المدة المقررة ترفع دعوى من الأوقاف فى المحكة تطلب الحكم بالهدم لامتناع المستأجر عن دفع إيجار الحكر ، وتحدد المحكمة جلسة ويقوم المحضر المكلف بإعلانهم بالجلسة ويصنع المحضر ما صنع بالإنذار .. وتعقد الجلسة وتؤجل لجلسة أخرى ولا يحضرون فيحكم حكما غيابيا بالهدم ويكون الحكم فى هذه الحالة حكما نهائياً — ويهدم المنزل فعلاً وتسلم الأرض لمكتب الأوقاف الذى يقوم بإجراءات بيعها وترسو على هذه العصابة بثمن بخس .

فلما ألممت بالموضوع من جميع أطرافه ، وعلمت أنها ليست مصيبة هؤلاء الجيران وحدهم ، بل هى مؤامرة عامة أصابت غيرهم قبلهم وستصيب آخرين بعدهم ، وأن هذه المؤامرة لن تقتصر على رشيد بل تتكرر فى كل بلد فيه أحكار .. لما علمت ذلك رجعت فى أقرب وقت إلى القاهرة .

ومع أن معى رقم التليفون السرى للباقورى ، فقد حاولت أن أجد لهذه المعضلة حلاً عند غيره ، فذهبت إلى الوزارة ، وكان بها عدد من كبار موظفيها من الإخوان ، فاتصلت بهم وعرضت عليهم ، فأقنعونى بأن حكم المحكمة فى هذه الحالة لايستطيع أن يوقفه إلا الوزير شخصياً ، وحثونى على المسارعة بمقابلة الوزير قبل أن تنتهى المهلة التى أوشكت على الانتهاء لإجراء الهدم .. وهنا لم أر مناصاً من استعمال الرقم السرى وحددت المقابلة فى الحال .. وشرحت الموضوع للوزير فماذا فعل ؟.

أول شيء فعله أنه كال لى الشكر على أن أتحت له فرصة إنقاذ أسرة مظلومة من الضياع .

ثم طلب مدير الأحكار بالوزارة أمامى ، فلما حضر عرض عليه المظلمة التى كنت قد قدمتها إليه ، وسأله عن الإجراء الذى يتخذ لمنع الهدم فقال له إن الإجراء الوحيد أن تأمر فضيلتك شخصياً وكتابياً يوقف تنفيذ قرار المحكمة . فكتب فعلا ماأملاه عليه المدير . فلما هم المدير بالانصراف استبقاه وقال له :

هذه المظلمة وجدت من يوصلها إلىّ ، فما ذنب أصحاب المظالم المماثلة الذين لايجدون من يوصلها إلىّ ؟ هل يشرد الناس من مساكنهم ولا يجدون من يدافع عنهم ونحن

المسؤلون عن ذلك بين يدى الله ؟! خذ هذاالقرار : وكتب بيده القرار الوزارى التالى :

« ممنوع منعاً باتاً هدم أى مسكن مقام على أرض حكر للوزارة » ووقع بإمضائه على القرار ، وسلمه للمدير وصار بذلك قرار رسمياً أنقذ كثيراً من ضعفاء الناس .

المظلمة الثانية :

لم تكن المظلمة الثانية أقل شأناً ولا أدنى خطراً من المظلمة السابقة . وهى تتصل بموضوع التطهير. وقد سبق أن أشرنا فى الجزء الثانى من هذه المذكرات إلى مشروع للتطهير لجأت إليه وزارة الهلالى فى أواخر العهد الملكى ، وعلقنا عليه بما ملخصه أن التطهير بهذا الأسلوب غير مجد ولا يحقق الغرض منه . ولكن الحكومات تلجأ إليه باعتباره أسهل الأساليب لأنه لايكلفها أكثر من سن قانون تصدره دون مشقة — وإذا كان هذا الأسلوب يصلح فى مجتمعات الأصل فيها هو النقاء ، والفساد طارىء عليها ؛ فإنها لاتجدى فى مجتمعات صار الفساد فيها هو الأصل وصار النقاء هو الطارىء ، وأصبح الصالح فيها كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقدلجأت حكومة الثورة فى سبيل تطهير الأداة الحكومية من الفساد إلى إصدار قانون بإنشاء لجان فى كل وزارة للتطهير وإنشاء محاكم للتطهير تكون أحكامها نهائية .. وكم جَنَتْ هذه اللجان ومن بعدها هذه المحاكم على بقية من العناصر الطاهرة كانت لاتزال منبثة فى كثير من المصالح الحكومية — وإذا كانت هذه اللجان وهذه المحاكم قد أخرجت من الجهاز الحكومى عشرة فاسدين فقد قضت بجانبهم على مئة من الصالحين .. فهذه اللجان التى تكون فى الوزارات والمصالح الحكومية ممن تتكون ؟ أليست تتكون من العناصر ذات المناصب الرئيسية بها ؟ وهل أساس الفساد إلا هؤلاء ؟ فما الذى تنتظر من لجانٍ هؤلاء أعضاؤها إلا انتهاز هذه الفرصة للتخاص من كل من يعوق طريقهم إلى العيش الحرام ؟.

بينما كنت بمقر عملى فى القناطر الخيرية دخل علىّ الأخ ا . ع . ر. الذى غاب عنى عدة سنوات . والأخ «أ» مهندس زراعى من دفعتى وهو من الإخوان الخلص الذين تربوا فى أحضان الدعوة ، وكان مسكنه فى الجيزة ونحن طلبة فى الجامعة يعد شعبة للإخوان بالجيزة — ولما تخرجنا كان حظه أن يعمل فى وزارة الأوقاف فى تفاتيشها الزراعية .. وتدرج فى وظائفها حتى صار مفتش أوقافها بدمياط .. ولما كانت وظيفته تمكنه من اتخاذ قرارات ، فقد بدأ يعيد النظر فى الأوضاع التى ورثها عن سابقيه ؛ فلاحظ فيها أن الذين يئول إليهم استئجار أراضى الأوقاف كل عام هم أشخاص معينون لايتغيرون ، ولاحظ أن الإيجار يكاد يكون ثابتامنذ عشرات السنين ؛ مع أن هذا يتم — كما هو مفروض قانوناً — عن طريق مزاد أو ممارسة — فأخذ فى تنفيذ القانون .. وحاول معه هؤلاء

المستأجرون الدائمون بمختلف الأساليب ترغيباً وترهيباً واستعانة برؤسائه فى الوزارة ، ولكن شيئاً من ذلك لم يفلح فى ثنيه عن عزمه — وآلت الأراضى لمستأجرين جدد وتضاعف الإيجار .

وأنشأت حكومة الثورة لجان التطهير ؛ ففوجىء صاحبنا بأنه مطلوب للمثول أمام لجنة من رؤسائه الذين ضارهم ماتم على يديه فى أراضى الأوقاف .. ووُوجه باتهامات غاية فى الغرابة ؛ اتهم بالسكر والعربدة ، واتهم بأنه طلب رشوة من المستأجرين القدماء فى مقابل إرساء المزاد عليهم .

ولما كانت هذه التهم مفتراة فقد اعتقد أنه سيفندها أمام المحكمة ، ولكنه أمام محكمة التطهير فوجىء بشهود زور شهدوا على كل واقعة افتريت عليه ، وبتقارير من رؤسائه تؤيد هذا الافتراء — فذكر للمحكمة الحقائق كما وقعت ولكنه لم يجد من يشهد معه .. وإذا بقرار المحكمة يصدر بفصله من العمل .

وقد هالنى ماسمعت منه، فقمت لتوى وطلبت الباقورى فى التليفون ، ووضعت أمامه المظلمة . وكنت أظن أنه يعرف هذا الأخ فتبين لى أنه لايعرفه ولكنه سألنى : هل تعرفه أنت ؟ فقلت نعم . قال : هل تثق فى خلقه ودينه ؟ قلت : إننى أثق فيه أكثر من ثقتى فى نفسى.. فقال: هذا يكفينى كما لو كنت أعرفه تماماً .. واستمهلنى لحظة حتى أحضروا له ملفه .. فلما جاءوا بالملف أخذ يقرأ لى التهم الموجهة إليه مما تشمئز منه الأسماع كما قرأ علىّ قرار المحكمة — ثم أعاد علىّ السؤال عن مدى ثقتى فى هذا المحكوم عليه فأكدت له مازاده اطمئناناً وقال لى : إذن اسمع ماأكتبه وأخذ كلما كتب عبارة قرأها علىّ حتى ختمها ووقعها وشكرته .

وبهذا رفع الظلم عن هذا الأخ الكريم ، ولوأنه تأخر عن إبلاغى يوماً واحداً لما كان ممكناً تدارك الأمر .. ويستطيع القارىء الكريم أن يتصور كم من المظلومين راحوا ضحية هذا « التطهير » ممن لم يكونوا يملكون من الوسائل ماأتيح لهذا الأخ الحبيب .

استطراد داخل الاستطراد :

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، وإن كان هذا الشيء لايتصل بالأستاذ الباقورى فإنه يتصل بموضوع التطهير وما جنى هذا التطهير فى عهد الثورة فى أوائل أيامها على الشرفاء الأتقياء الأنقياء ، وما أتاح من فرص لرءوس الضلال والقذارة للتنكيل بالأطهار الذين كان وجودهم معهم فى العمل شوكة فى حلوقهم ، وعقبة فى طريق مطامعهم وكسبهم الحرام .

كان لى زميل وصديق من الإخوان المسلمين . دخلنا كلية الزراعة معاً وتخرجنا فيها معاً هو الأخ م. ع. ب ــ وقد عمل أول ماعمل فى مصلحة الفلاح وكان مقر عمله فى الصعيد . ولما كانت القاهرة هى مقر أهله وبها منزل أسرته فقد كان يتمنى أن يجد فرصة للعمل بالقاهرة .. وجاءت الفرصة حين أراد مدير مصلحة الفلاح أن ينقل قريباً له من مصلحة التنظيم بالقاهرة إلى مصلحة الفلاح ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا عن طريق التبادل .. وتم التبادل وتسلم الأخ م . ع . ب عمله بمصلحة التنظيم مساعد مدير أعمال لحدائق مصر الجديدة ــ وكانت مصلحة التنظيم تقوم فى ذلك الوقت بعمل مجلس بلدى القاهرة حيث لم يكن قد أنشىء هذا المجلس بعد ــ وكان لهذه المصلحة سمعة سيئة لما كان معروفاً عنها من انتشار الرشوة فيها .

وبعد انقضاء فترة قصيرة على التحاقه بهذا العمل الجديد ، حان ميعاد تُكسى فيه أرض هذه الحدائق بطبقة من الطمى لتجديد حيويتها ــ ولم يكن السد العالى قد بدىء فيه بعد ــ وأعلنت المصلحة ــ كالمعتاد ــ فى الصحف عن مناقصة لتوريد عينات للطمى .. وقدمت العينات .. وكلها كانت من طمى جيد ، واختارت اللجنة ــ وكان هو عضوا فيها ــ أنسبها من ناحية المواصفات والثمن ، وسلمت العينة المختارة إلى صاحبنا محرزة مختومه بخاتم المصلحة .. وكان عليه باعتباره المسئول عن هذه المنطقة أن يتسلم التوريد نفسه أىْ كمية الطمى المطلوبة ..

فلما جاء التوريد فعلا وفحصه أخونا وقاس مواصفاته بمواصفات العينة لم يجد فيه شيئاً مطلقاً من مواصفات العينة ؛ فالعينة طمى صاف والتوريد تراب من تراب الشوارع ومن ناتج هدم البيوت القديمة ، وليس فيه طمى .. فما كان من صاحبنا بحسن نية إلا أن رفض التوريد .

وجاء صاحب التوريد وحاول معه بكل الأساليب المعروفة فلم تجد معه ، فاتصل به رئيسه تليفونيا فلم يقبل ، فاتصل به المدير العام للمصلحة فلم يقبل . وبحسن نية قال للمدير العام كيف ترجونى أن أقبل توريداً ليس به أى صفة من صفات العينة المقدمة ؟ فقال المدير : سأبعث إليك بلجنة تعاين التوريد . وجاءت اللجنة التى كانت مهمتها أن تقرر أن التوريد مطابق للعينة ، وقد أدت مهمتها شر أداء .

وتفاقم الوضع .. حيث صار على أخينا بعد قرار اللجنة أن يدافع عن نفسه وأن يثبت خطأ رأى اللجنة وإلا دمغ هو بأن رأيه خاطىء واستحق بذلك أن يجازى على هذا الخطأ .. وبلغ من تفاقم هذا الموضوع أن وصل إلى وزير الشئون البلدية والقروية فى ذلك الوقت الأستاذ عبد العزيز على وكان من كبار رجال الحزب الوطنى القديم وله سجل حافل فى مقاومة الاستعمار ؛ فقام الرجل بنفسه وعاين التوريد وضاهاه بالعينة وكتب

بنفسه : إن الأمر لم يكن يحتاج إلى عينة لأن التوريد فعلاً ماهو إلاتراب من تراب الشوارع ومن هدم البيوت القديمة وليس فيه طمى .. فطعنت المصلحة فى رأى الوزير بحجة أن الوزير ليس فنياً .

واستمر الصراع فترة طويلة .. غير أن المصلحة لم تستطع أن تنال من أخينا إلا بمحاولات من رؤسائه ومرؤسيه لمضايقته .. حتى أتيحت للمصلحة فرصة الانتقام بإصدار حكومة الثورة تشريعاً بإنشاء لجان التطهير ومحاكم التطهير . فقدمته المصلحة إلى لجنة التطهير بقائمة من اتهامات مفتراة أقرتها اللجنة فى الحال ثم أحالته إلى محكمة التطهير ..

وكان الإخوان فى المركز العام متابعين هذا الموضوع بكل خطواته ؛ فلما وصل إلى هذه الخطوة قام الأخ الأستاذ منير الدلة المستشار فى ذلك الوقت بمجلس الدولة بلقاء زميله المستشار الذى يرأس محكمة التطهير وشرح له الموضوع بحذافيره ـــ فلما مثل أخونا أمام المحكمة وقدمت إليها الاتهامات مشفوعة بتقارير من الرؤساء مدعومة بشهود زور من عمال وموظفى المصلحة ومن المتعاملين معهم .. ولما انتهى عرض القضية قرر رئيس المحكمة النطق بالحكم بعد المداولة ـــ وفى أثناء المداولة طلب رئيس المحكمة أخانا المتهم وجلس معه فى حجرة وحدهما وقال له : ياأستاذ م . لعلك خدعت بالشعارات التى يطلقها هذا العهد فظننت أن الأمر جد لاهزل ، فرحت تتعامل مع هذا العهد على هذا الأساس فكان أن رأيت نفسك فى هذا الموقف .. ولولا أنى عرفت هذا الموضوع من صديقى الأستاذ منير لما كان بوسعى إلا أن أصدر حكمى بإدانتك وفصلك من العمل ، لأن الأدلة المقدمة إلى المحكمة مستوفية الشروط القانونية ومؤيدة بالشهود .. ولكننى سأعتمد فى حكمى فى هذه القضية على ضميرى لإنقاذك،على أن لاتسرف بعد ذلك فى حسن الظن .

أكرر معذرتى إلى القارىء الكريم فى هذا الاستطراد الذى كاد ينسبنا الموضوع الأصلى الذى كنا نعالجه وهو مايتصل بالمفاجأة الثانية التى نشأت من تأثير قيام الثورة فى التفاعلات الداخلية فى الدعوة ، وكانت هذه المرة خروج الأخ الباقورى على قرار مكتب الإرشاد ، واشتراكه وزيراً للأوقاف فى وزارة الرئيس محمد نجيب .

وقد هيأ لنا الاستطراد ماكنا بصدده من إيراد الأدلة على أن هذه المفاجأة المؤلمة والتى انتهت بفقد الدعوة لأحد أبنائها الكبار لم تفقد المرشد العام ـــ من ناحية ـــ حبه الشخصى لهذا الأخ ، كما أنها ـــ من الناحية الأخرى ـــ لم تفقد هذا الأخ الكبير حبه وتقديره للمرشد العام .. ثم قررت بدورى أنها لم تفقدنى حبه .. وأوردت أمثلة لتصرفات تومىء إلى أن هذا الاخ وإن فقد موقعه فى الدعوة ، فإنه حاول جاهداً أن يعمل للمبادىء

التى تعلمها فى الدعوة ، والمثل التى أشربها فى موقعه الجديد .

وقد أضيف إلى هذه الأدلة دليلًا آخر أضعه بين يدى القارىء الكريم . ففى جريدة المصرى الصادرة فى ١١ / ٩ / ١٩٥٢ مايأتى :

سأل مندوب « المصرى » الشيخ الباقورى وزير الأوقاف عن أسباب استقالته من الإخوان فقال : « هى أسباب أحب أن أوثر بها نفسى . وليس من بينها سبب واحد يمس احترامى لإخوانى واعتزازى بهم ، فكل واحد منهم صغيراً كان أو كبيراً فى أعمق مكان من قلبى » .

عقوبة معجلة .

على أننى مع هذا لاأعفى الباقورى من خطأ استشراف نفسه إلى المناصب . وقلما تجد من لايستشرف إليها ؛ ولكن استشراف نفس رجل تربى فى أحضان دعوة تبلغ فى تربية أبنائها درجة يقربون فيها من صفوف الملائكة .. مثل هذه النفس هى أعز على الله من أن يدعها ترتع فى غيها فتضل وتشقى ، ولكنه لايلبث حتى يقدعها قدعاً يرد إليها رشدها فلا تجد لها ملجأ من الله إلا إليه .

لقد دفع الباقورى ثمن ماجارى نفسه فيه من الاستشراف إلى المنصب ؛ فلقد رفعوه إلى حيث كان يتمنى ويحلم .. ثم رفعوه أعلى من ذلك .. حتى كان عندهم فى يوم من الأيام عماد البيت وقطب الرحى .. ثم .. وبغير مقدمات .. ألقوا به من شاهق فلم ينزل على الأرض بل نزل إلى هاوية فتحطم .. وحسبك أن تعلم أن أعظم مصيبة تصيب إنساناً هى الفقد بعد العطاء .. ولم أقل نزل إلى الأرض ، وقلت نزل إلى هاوية لأن مصيبته تجاوزت مصيبة الفقد بعد العطاء إلى ماهو أشد منها وأفدح ؛ إذ لم يكتفوا بذلك بل تقولوا عليه الأقاويل ، وافتروا عليه الفرى ، وأغروا كلاب الناس به تلوك سيرته وتنهش عرضه .

وأعتقد أن ما أصاب الباقورى فى خلال تلك الفترة كان أشد إيلاماً مما أصاب الإخوان فى معتقلاتهم وسجونهم من ظلم وتعذيب .. لأن تعذيب هؤلاء لم ينل إلا البدن ولم يمس جوهر النفس التى كان رضاها عن نفسها . واقتناعها بأنها على الحق كان يهون عليها ما تلقى من آلام البدن .. أما من كان عذابه من داخل نفسه فإنه أشد العذاب .

ويوم استجاب الباقورى لدعوة هؤلاء الناس كان غائباً عنه . كما كان غائبا عن كثيرين غيره ؛ حقيقة لم أسمعها فى تلك الأيام الباكرة من أيام الثورة ؛ إلا من الرجل الصامت الرزين الثاقب الفكر البعيد النظر حسن الهضيبى ؛ فقد كان يقول لى ويقول لمن

يأنس فيهم كتمان السر : « إن هؤلاء الناس لايؤمن جانبهم .. فلنعاملهم بحذر » .. ولكن الباقورى نسى هذا التحذير أو تناساه أو اعتقدّ أنه ـــ بحصافته ـــ وهو حصيف ـــ يستطيع أن يرقب بوادر الخطر فيتفاداه .. ولكن حصافته وشدة حذره لم تعصمه من انقلاب مفاجىء دون مقدمات ولا بوادر .

ولم تكن هذه العواصف الفجائية الغادرة من نصيب الباقورى وحده ، وإنما أصابت غيره كما أصابته ممن ذاقوا فى يوم من الأيام حلاوة الإيمان . وهو مانعرض له فى العنوان التالى .

من سياسة احتضان الخارجين :

هذه سياسة توخاها جمال عبد الناصر فى تنفيذ مخططه ضد الإخوان المسلمين ، فكان يقرب إليه من يرى فيه استعداداً لمناوأة الدعوة أو التمرد على قيادتها .. ولكننا فى هذا المقام لانعرض لذلك بمزيد بيان ، ونكتفى سيراً مع السياق باحتضانه الخارجين على الدعوة . ونورد المثال التالى فنقول :

سبق لى أن ذكرت أن صيدلية الأخ المرحوم الدكتور جمال عامر كانت مثابة لكثير من قدامى الإخوان ، حيث كان الدكتور جمال من أقدم الإخوان صلة بالدعوة ؛ فكان يأوى إليه هؤلاء الإخوان حتى الذين خرجوا منهم على الدعوة فى ظروف مختلفة ـــ وكانت صيدلية الدكتور جمال وبيته ملاذى ومأواى ومبيتى بعد أن بعدت عن القاهرة مما يأتى تفصيله فيما بعد إن شاء الله .

ولعل القارىء الكريم يذكر ماجاء بالجزء الأول من هذه المذكرات من خروج الأخ ع . س . ا فى الفتنة الثانية ؛ وكان إذ ذاك لايزال طالبا بكلية الآداب .. ولكنه فى الأيام التى نتكلم عن أحداثها الآن كان قد تخرج فى الكلية وصار « دكتور ع . س . ا . الأستاذ المساعد بكلية الآداب .

غبت عن الأخ الدكتور جمال عامر سنتين فى المعتقل ، فلما خرجت كان الدكتور جمال من أوائل من كنت حريصاً على لقائهم .. وأخذ الدكتور يقص علىّ ـــ فى ليلة بتها عنده ـــ ماكان من أحداث وقعت فى غيابى .. وكان مما حدثنى به قصة هذا الأخ الدكتور ع.س.ا.

قال : مر علىّ بالصيدلية هذا الأخ منذ أيام ، وكان قد انقطع عنى بضعة أشهر . فلما سألته عن سبب انقطاعه قال : طبعاً أنت تعرف أن جمال عبد الناصر كان قد عيننى مستشاره السياسى الخاص . قلت نعم وقد أخبرتنى بذلك من قبل ..

قال : والذى لم أقله لك هو أنه كان لايقطع فى أمر دونى . وكان حريصاً على أن لا أفارقه لحظه ، لدرجة أننى كنت أذهب إلى منزلى فى فترة الغداء ، فإذا غبت قليلا طلبنى فى التليفون يستعجلنى .. وظل هذا دأبه معى أكثر من عام .. وفى يوم كذا (ذكر لى الدكتور جمال التاريخ الذى ذكره محدثه ولكنى نسيته) ظللنا نعمل سوياً حتى حان ميعاد الغداء ، فاستأذنت وأذن لى راجياً أن لاأتأخر لإتمام مابقى من العمل .

فلما ذهبت إلى منزلى ، وما كدت أرفع يدى من الطعام حتى سمعت جرس الباب يدق ففتحت الباب فإذا بعدد من ضباط البوليس الحربى .. فتعجبت وسألتهم عن سبب حضورهم فى هذا الوقت وماذا يريدون ؟ فأجابنى رئيسهم إجابة أذهلتنى وخلعت لبى ، وكدت أكذب سمعى ؛ إذ كانت إجابته هى هذه . الكلمات : مطلوب منك الآن أن تغادر البلاد .

فقلت : ومن الذى أمر بهذا وما السبب ؟ قالوا : هذا أمر الرئيس . وليس من حقك أن تسأل عن السبب .

فقلت : اسمحوا لى إذن أن أتصل به فى التلفيون .

قالوا : أمره يتضمن عدم السماح لك بالاتصال به .

قلت : وإلى أين أذهب ؟.

قالوا : لك أن تختار البلد التى تغادر إليها ، على أن يكون ذلك الآن . ونحن معك وسنقوم بتسفيرك اليوم .

قال الدكتور ع للدكتور جمال ؛ ولما كانت لبنان هى أقرب البلاد إلى مصر فقد اخترت لبنان . فأخذونى بحقيبة ملابسى من المنزل إلى الطائرة ، التى نقلتنى إلى بيروت وأنا ذاهل عن نفسى لهذه المفاجأة التى وقعت علىّ وقوع الصاعقة من السماء ؛ لاأعرف لها سبباً ، ولا أستطيع لها دفعاً .. ومكثت ببيروت سبعة أشهر رهين الفندق الذى نزلت فيه ، لاأستطيع الكلام مع أحدٍ ولا حتى الالتفات يميناً ولا شمالاً .. حتى تمنيت أن لو كنت مت قبل هذا ، أو لو أننى كنت اعتقلت مع المعتقلين ، أو أودعت سجناً مع المسجونيين .

وأخيراً جاءنى من يحمل إذناً من الحكومة المصرية بدخولى مصر .. وأحاول الآن الرجوع إلى عملى بالجامعة . يقول الدكتور جمال : وقد سألته .. وبعد أن أنهيت فترة النفى ورجعت إلى مصر هل أمكنك أن تعرف سبب ذلك : قال : لا .

أوردنا موضوع هذا الأخ رحمه الله مع مانحن بصدده من موضوع الباقورى .. ليرى

القارىء مافعل الله بهما .. لقد عجل لهما العقوبة ، وأذاقهما مغبة استشراف نفسيهما إلى المناصب وركونهما إلى الظالم .. ولعله ـــ جلت قدرته وهو المطلع على السرائر ـــ هكذا فعل بهما لما يعلم مما هو واقر فى قرارة نفسيهما من بقية غطى على بشاشتها مااتبعاه من هوى .. وتعجيل المؤاخذة فى الدنيا دليل على سلامة جوهر النفس وصفائه ؛ وقد جاءت المؤاخذة لتذهب عن هذا الجوهر ماغشيه من ضباب حجب صفاءه.

بعد هذه الفصول الثلاثة فى هذا الباب باب تأثير قيام الثورة فى التفاعلات الداخلية فى الدعوة يأتى فصل رابع يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا التأثير ولكن نظراً لخطورة هذا التأثير الرابع وفداحة نتائجه سنفرد له بابا مستقلاً إن شاء الله ، ذلك هو « العمل على احتواء قيادات النظام الخاص » .

* * *

الباب الخامس

مساجـد ضـرار

خطط للدوران حول الدعوة

لتخريبها من الخلف

مقدمة

مقدمــة

إذا كانت نتائج الأمور تؤخذ من مقدماتها؛ فقد كان المتوقع إزاء موقف الإخوان المسلمين المسالم والمبالغ فى المسالمة ، حتى وصل إلى حد الثناء على الطرف الآخر واطرائه ووضعه موضع الآمال فى تحقيق الخير للأمة .. كان المتوقع أن يقابل ذلك بمثله من التجاوب، وإبداء روح التعاون والتواثق ؛ حتى ولو كان ذلك على سبيل المجاملة .

ولكن الذى حدث كان غير ذلك تماماً ؛ فقد سلك الطرف الآخر مسلكا مناقضا لما كان متوقعاً .. وإذا قلنا الطرف الآخر فإنما نقصد جمال عبد الناصر؛ لآن جمالاً قد استطاع ــ بتأثير نفوذه الشخصى ــ أن يحول بين زملائه فى مجلس الثورة وبين الاتصال بالإخوان ــ وقصر ذلك على نفسه وحده ، فكانت المقابلات تتم بين الإخوان وبينه ، وكان هو يقوم بنقل مايتم فى هذه المقابلات إليهم بالأسلوب الذى يراه .. ينقل إليهم مايرى نقله ، ويحجب عنهم مايشاء ، ويحور مايرى تحويره .. كل ذلك .. ليلقى فى روعهم أن الإخوان يريدون أن يكونوا أوصياء عليهم .. وماأعظم الفرق بين الناصح الخبير الأمين الذى يتمنى الخير لمن ينصحه ، وبين من يريد أن يفرض وصايته على إنسان فيحجر على تصرفاته ويتولى هو تصريف شؤنه .

على العموم .. استطاع جمال بهذه الأساليب أن يشحن إخوانه بشعور عدائى نحو الإخوان . ولم يكن الإخوان ــ بطبيعة الحال ــ يعرفون الطريقة التى كان جمال ينقل بها إلى زملائه المحادثات التى تتم فى مقابلاته ؛ولكنهم استطاعوا أن يلمسوا ذلك فيما كان يأتى على ألسنة زملائه فى كلمات كانوا يلقونها فى لقاءات جماهيرية لهم فى مختلف البلاد .. كما استطاعوا أن يلمسوا ذلك من مواقف نضرب لها مثلا فنقول :

فى أوائل أيام الثورة أهابت بالمواطنين فى أنحاء القطر أن يتقدموا لتلقى قسط من التدريب العسكرى الجاد . وأنشأت لذلك مراكز للتدريب فى مختلف الحواضر ، وزودتها بضباط من الجيش ــ ولما كان اختيار الأماكن المناسبة لهذا التدريب ليس ميسوراً لضباط غرباء عن هذه الحواضر ، فقد هب الإخوان فى كل حاضرة من هذه الحواضر للتعاون مع الضباط الموفدين واختاروا الأماكن المناسبة وأعدوها للغرض المطلوب ــ ثم كانوا هم أول من تطوع لتلقى التدريب ــ وكان هؤلاء الضباط من أسعد الناس بهذا التعاون .

وقام الإخوان فى كل حاضرة فيها مركز تدريب بنشر الدعوة بين جماهير الناس يحثونهم على التقدم لتلقى التدريب . ولما كان موضوع التدريب هذا أمراً جديداً على الناس ولا عهد لهم به ، فإنهم لم يسارعوا المسارعة الكافية بحيث تتكون منهم دفع كاملة ؛ فكان الإخوان يأخذون العدد الذى استجاب ويكملون الدفعة من شباب الإخوان .

وتوالت الدفع تلو الدفع ، والضباط المدربون فخورون بهذه الروح العالية ، وكادت هذه الروح تأخذ طريقها إلى نفوس الأهالى فى مختلف البلاد ؛ حيث يحتاج الناس لكى يتعودوا على أمر جديد عليهم إلى من يتقدمهم ليثير فيهم العزم ، ويبعث فيهم الرغبة .

وبينما الأمور تسير فى طريقها هذا الطيب المستقيم ، إذا بالإخوان يفاجأون بهؤلاء الضباط يتهربون منهم ، وإذا التقوا بهم قابلوهم بجفاء .. ووقع هذا التغير فى المعاملة أول الأمر من الإخوان موقع الدهشة والاستغراب ، وظن الإخوان فى كل بلد من هذه البلاد أن هذا الأسلوب الجديد هو سوء تفاهم خاص ببلدهم دون غيرها من البلاد .. ولكن وصول شكاوى إلى المركز العام للإخوان المسلمين فى القاهرة من جميع البلاد فى وقت واحد ، جعل الجميع يشعرون أن هناك تعليمات صدرت من مركز القيادة فى القاهرة بهذا المعنى .. ثم تأكد المركز العام بعد ذلك أن هذه تعليمات صدرت فعلاً .

وماذا كان للإخوان من موقف إزاء هذا الأسلوب المجافى للإخوة والود ـــ لقد فهم الإخوان أن قيادة الثورة لاتريد أن ترى الإخوان بالذات يتدربون ، فصدر أمر من المرشد العام بتنفيذ هذه الرغبة وترك المجال لغيرهم .. وصدع الإخوان بالأمر وتركوا هذه المراكز لتتعامل مع الشعب مباشرة وأفسح الإخوان الطريق .. فماذا كان من أمر هذه المراكز ؟

إنها صارت مراكز شكلية .. صارت تتضاءل وينفق عليها ولا عمل لها حتى تلاشت .

كان هذا أول تصرف لفت نظر عامة الإخوان المسلمين إلى أن رجال الثورة بدأوا يغارون من الإخوان ويحقدون عليهم هذا التكتل الشعبى المنظم وإلا لما رفضوا من الإخوان هذا التعاون فى مشروع من مشاريعهم دون مقابل ..

ولقد كان الإخوان على حق حين قيموا الموقف على هذه الصورة فلقد تلا هذا التصرف تصرفات أخرى تؤكد هذا التقييم وتبرزه بأوضح صورة .. وهو مانتناوله فى هذا الباب إن شاءالله .

* * *

الفصل الأول

جمعية الفلاح
إصبع أمريكية من وراء ستار

فى جريدة أخبار اليوم الصادرة فى ١٣ / ٩ / ١٩٥٢ ورد بمناسبة استقالة الباقورى مايشبه أن يكون تحقيقاً صحفياً فيما حول هذه الاستقالة من ظروف وملابسات فقالت :

بدأ الخلاف عندما قام الدكتور أحمد حسين بإنشاء جمعية الفلاح .. ويقول الدكتور أحمد حسين : عندما بدأت فى تكوين جمعية الفلاح نمى إلى علمى أن الإخوان المسلمين يتوجسون خيفة من جمعية الفلاح ، وسيعملون على إفشالها ، مع أننى كنت أعتمد على عدد كبير من شباب الإخوان فى الجامعات . وكنت لاأرى أن فكرة جمعية الفلاح تتعارض مع فكرة الإخوان .. فالأولى تدعو إلى تكوين المواطن الصالح فى المجتمع الصالح ، والثانية تدعو إلى تربية المواطن الصالح تربية دينية تنمى فيه روح المواطن الصالح .. فأردت أن تتعاون الجمعيتان ــ كل بوسيلتها ــ نحو الهدف المتفق عليه لصالح المجموع .

فاتصلت بالشيخ الباقورى على غير تعارف سابق ، ودعوته إلى منزلى ، وشرحت له فكرة الجمعية وأهدافها ــ وبعد اجتماع استمر أكثر من خمس ساعات أبدى الباقورى استعداده للتعاون معى قائلاً : إننى كمواطن مصرى أؤيد جمعية الفلاح ، وأدعو لهابالتوفيق ، وعلى استعداد كامل أن أقوم بأى عمل لها يوكل إلىّ فى سبيل الخدمة العامة .. ولا أرى تعارضاً مطلقاً بين فكرة الإخوان وفكرة جمعية الفلاح .. ولاأظن أن فضيلة المرشد العام حسن الهضيبى يرى غير ذلك ، فالكل يجب أن يتعاون فى سبيل صالح المجموع .

تقول الجريدة : وافترق الرجلان على أن يرتب الأستاذ الباقورى اجتماعاً عائلياً يلتقى فيه الدكتور أحمد حسين بالأستاذ حسن الهضيبى ــ وتم هذا الاجتماع العائلى على مائدة الإفطار فى الأيام الأولى من شهر رمضان فى منزل الأستاذ الباقورى بحلوان ، وحضره الأستاذ حسين أبوزيد وزير المواصلات آنذاك والأستاذ جلال الدين الحمامصى رئيس تحرير « أخبار اليوم » .

وبعد الإفطار .. بدأت مناقشة طويلة بين الدكتور أحمد حسين والأستاذ الهضيبى . بدأت هادئة ، وتوسطتها حدة وعنف ، وانتهت كما بدأت إلى غير اتفاق — وكان الأستاذ الهضيبى واضحاً فى أنه بوجود جماعة الإخوان المسلمين لاداعى لتكوين جمعية الفلاح .

وقد حاول الأستاذ الباقورى أن يتدخل فى المناقشة أكثر من مرة ، لتلطيف حدتها ، وإعطاء فرصة للأستاذ الهضيبى لتقريب وجهات النظر ، ولكن مرشد الإخوان لم يتزحزح عن موقفه .

ولكى يكون القارىء قريباً من الصورة التى كان عليها النقاش نورد فقرة منه :

الدكتور أحمد حسين : إن التشريعات الاجتماعية الحديثة فى أرقى الدول تتفق وروح الدين الإسلامى، وإن كانت تقوم على أسس علمية وفقاً لتطورات البشرية .. فمشروعات الضمان الاجتماعى والتأمين الاجتماعى هى فى أساسها فكرة إسلامية — وقد عرف الإسلام مشروع « من أين لك هذا ؟ » قبل أن تصدره فرنسا بمئات السنين . والدين ينمى الصلات الروحية بين الناس . ولن ينجح عمل إذا لم يعتمد على قوة الروح . وهذا هو الفرق بين النظم الاجتماعية الحديثة وبين الشيوعية التى تعتمد على المادية فقط .

المرشد العام : إذا كان الأمر كذلك فلماذا لانطبق أحكام الإسلام بحذافيرها ..؟.

أحمد حسين — إننا نطبق أحكام الإسلام فى أصولها — ولكن يجب أن تتطور التفصيلات طبقاً لتطورات العصر . ففكرة الضمان الاجتماعى هى فكرة الزكاة ، ولكن طريقة التوزيع والتنفيذ تختلف باختلاف نظم الدولة الحديثة .

ثم دار نقاش طويل بين الرجلين على نص فى قانون جمعية الفلاح جاء فيه : تشترط الجمعية لعضويتها أن يكون العضو مواطناً صالحاً ولا تتدخل فى الخلافات الدينية أو الحزبية .

وبعد انتهاء الاجتماع قال المرشد العام للشيخ الباقورى : إنى سمعت أن الدكتور أحمد حسين له صلات بالأمريكان . ولم يستطيع الباقورى تكذيب ذلك » .

نقف إلى هنا مما جاء بصحيفة أخبار اليوم . ومن سياق هذه القصة ومن بين ثناياها نستطيع أن نخرج بملاحظات منها :

أولاً — أن الدكتور أحمد حسين فى الوقت الذى يعترف فيه بأن فى الإسلام كل مافى النظم الحديثة بل إنه سبقها ؛ نرى فهمه لأصول الإسلام فهماً خاطئاً ؛ فهو يرى أن مصر فى ذلك الوقت محكومة بالأحكام الإسلامية ، ويرى الزكاة مجرد مساعدات مسقطاً بذلك كل أحكامها وحدودها ، معتبراً هذه الأحكام والحدود إنما

شرعت لعهد معين وقد انتهى العهد ، ولسنا الآن مقيدين بشيء من هذه الحدود والأحكام .

ثانياً — بعد أن اعترف بأن فى الإسلام كل ما فى النظم الحديثة بل إنه سبقها ؛ نراه يناقض نفسه ويريد أن يقصر مهمة الإسلام فى جمعيته على الناحية الروحية . أما التشريعات الجنائية والمدنية فإنه يستمدها من النظم الأوربية والأمريكية .. وهى نفس النظرة التى ينظرها الغربيون — ولهم عذرهم فى ذلك — إلى المسيحية .

ثالثاً — أن المتتبع لهذا النقاش حين يحلل ما قاله الدكتور أحمد حسين ، ويراجع ماوصل إليه التحليل من نتائج يكاد يجد نفسه أمام صورة جديدة من صورة جمعيات الماسونية وأخواتها مثل الروتارى واللونيز والتسلح الخلقى وإخوان الحرية ومايستجد من أسماء ؛ تلك الجمعيات ذات المبادىء البراقة فى مظهرها ، الهدامة فى حقيقتها ، التى أنشأها اليهود ليصرفوا بها المسلمين عن دينهم ، ويحطموا عقيدتهم فى نفوسهم ؛ ويحلوا محلها عقيدة العالمية والإنسانية — كأن الإسلام قد خلا من هذين المعنيين الساميين ؛ مع أنه يقررهما ويدعو إليهما ، ويشيد بهما .. ولكن هناك فرقاً بين أن يعتنقهما فرد مدفوعاً إليهما بعقيدة تتصل بالسماء ، ترتب على اعتناقهما الثواب والعقاب فى الدنيا والآخرة .. وبين أن يعتنقهما فرد مدفوعاً إليهما بمجرد آمال تكتنفها المطامع ، وتنبعث منها رائحة التمويه والتزوير .. أليس كتاب الله هو الذى يقول : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ أيَّةُ عالمية هذه تلك التى يدعو لها القرآن ؟! أليس الخطاب هنا موجها للبشر جميعاً ؟!.

وهذا هو السبب الذى من أجله رفض المرشد العام الموافقة على قيام مثل هذه الجمعية ولا أشك فى أن الشيخ الباقورى فهم ما فهم المرشد العام . ولكن الاستشراف إلى منصب متوقع من وراء جمعية يرأسها ويدعو إليها رجل معروف عنه أنه يعمل لحساب أمريكا ، ويشترك فى عضويتها الوزراء أمر متوقع — ويبدو أن فشل الدكتور أحمد حسين فى التمويه على المرشد العام جعل الباقورى يحجم عن أن يكون عضواً من أعضائها ؛ فقد جاء فى نهاية ماأوردته الجريدة «أخبار اليوم» عن هذه القصة أن جمعية الفلاح تكونت وضمت عدداً من الوزراء واختير الباقورى مستشاراً لها .

أمريكا تحتضن ابنها المدلل :

هذا كل ما جاء بصحيفة « أخبار اليوم » عن هذه القصة .. وإكمالا للقصة نقول :

إن ملاحظة المرشد العام التى أسرّ بها إلى الباقورى فى شبه استفهام عما يشاع من صلات للدكتور أحمد حسين بالأمريكان ولم يستطيع الباقورى نفيها . هذه الملاحظة تحتاج إلى تجلية وبيان :

لما كان للولايات المتحدة الأمريكية وزن كبير فى السياسة العالمية، سيما مايتصل منها بالعالم العربى والإسلامى ؛ فقد كانت حكومات مصر على اختلافها تتخير لتمثيلها الدبلوماسى فيها أحسن العناصر وأقدرها وأقواها شخصية .. وفى أواخر الأربعينيات وقع الاختيار على الأستاذ كامل عبد الرحيم ليكون سفيراً لمصر فى واشنطن ، بعد أن تمرس بالعمل فى وزارة الخارجية المصرية حتى صار وكيلا لها ، وهو الذى نصح فى عام ١٩٤٨ بأن لاتتدخل الحكومة المصرية بجيشها فى فلسطين ، وكتب مذكرة بين فيها خطورة هذا التصرف وأضراره البالغة بمصر وبالقضية الفلسطينية .

ولما تحقق ماحذر منه من هزائم لمصر وغيرها من الدول العربية ؛ لجأوا إليه ليكون سفيراً فى الولايات المتحدة ، لعله يستطيع أن يتلافى بعض ماحاق بمصر وبالدول العربية وبالقضية الفلسطينية من أضرار — فقام هناك بأعمال جليلة ننقل إشارة إليها مماذكرته جريدة « المصرى » حيث تقول عنه :

« إنه كان شديد الإيمان بضرورة تضامن العرب فى المشاكل الدولية العامة، وكان لجهوده أعظم الأثر فى ظهورهم كتلة واحدة فى كل معركة كبيرة داخل الأمم المتحدة وخارجها من أجل الشرق الأوسط .

وقد استطاع أن يحول السفارة المصرية فى واشنطن إلى بيت للعرب جميعاً ؛ ولاسيما أنه كان يكثر من المؤتمرات الصحفية والمحاضرات التى يشرح فيها وجهة نظره هو والعرب فى المسائل التى تتولى الكتلة العربية الأسيوية الدفاع عنها .

وكان الأستاذ كامل عبد الرحيم يلقى بياناً أو حديثاً أو خطاباً مرة على الأقل كل أسبوع ، وكان أكثر هذه الأحاديث والرسائل أمام جامعات أو غرف تجارية أو هيئات عليا مؤلفة من رجال الأعمال — وكان أول من نظم قسم الصحافة فى السفارة المصرية فى واشنطن أعظم تنظيم — وفى كل أسبوع كانت السفارة تصدر نشرة توزع على خمسة آلاف من السياسيين ورجال الفكر والتجارة والأعمال العامة ، حاوية أهم وأدق الأخبار التى كانت الصحف الأمريكية الممالئة لبريطانيا أو أسرائيل تتعمد إغفالها وتتجنب نشرها .

ومنذ عام ١٩٥٠ كان الأستاذ كامل عبد الرحيم يقيم مأدبة غداء فى يوم الاثنين من كل أسبوع ويدعو إليها رجال الصحافة وكتاب المقالات فى أمريكا ، وكان يشرح لهم فى أثناء المأدبة المسائل المتعلقة بمصر — وقد ساعد ذلك على فهم حقيقة الموقف عندما حدثت

الثورة العسكرية الحالية ــ وكثيراً ماكان يتحدث قبل الانقلاب عن مساوىء فاروق والضرر الذى يعود على سمعة مصر ومصالحها فى الخارج من وراء ذلك .

وكان الأستاذ كامل عبد الرحيم منتظماً فى صلواته اليومية الخمس ، لايترك منها ركعة واحدة ، ولا يغفل عن أداء فريضة » .

هذا شيء مما ذكرت « المصرى » من صفات هذا الرجل وأعماله .. فإذا علم القارىء بعد ذلك أن رجلاً يمثل هذه الخبرة النادرة ، والقدرات الفائقة ، والأعمال الإيجابية المؤثرة ، والتاريخ الناصع الفريد ، ومصر فى عهد جديد يحتاج أول مايحتاج إلى الرجال الأكفاء ، الأقوياء الأمناء .. ثم يفاجأ هذا الرجل من العهد الجديد بالتغاضى عن كل ماقدم وما يستطيع أن يقدم ؛ يفاجأ بالنقل الى منصب هو أدنى من منصبه سفيراً فى بون .

وليت هذا النقل كان لأن العهد الجديد قد وجد من هو أكفأ منه ، ومن هو أكثر منه خبره ، ومن هو أقوى منه شخصية ، وأنصع منه تاريخاً ؛ إذن لكان لمصر فى ذلك عزاء .. ولكن الذى كان وراء هذا الغمط ومن خلف هذا الظلم أن العهد الجديد أراد أن يكون سفيره إلى الولايات المتحدة الدكتور أحمد حسين ..

ولكى لانغمط نحن الآخرين الدكتور أحمد حسين حقه فينبغى أن نسلم جدلاً بأن هذا الرجل قد يكون كفاءة فى الناحية التى تخصص فيها واشتغل بها وصار خبيراً فيها ؛ غير أن ذلك لايؤهله أن يقدم على من قضى حياته كلها فى الخبرة السياسية الخارجية وعمل فيها وأنتج أعظم إنتاج فى حين أن الدكتور أحمد حسين لم يعمل فى هذه الناحية يوماً واحداً .

إذن ماالدافع إلى اتخاذ هذه الخطوة الغريبة وما الداعى إلى الإقدام على هذا التصرف الذى كان موضع نقد من جميع المحللين السياسيين فى ذلك الوقت غير أن أحداً لم يجرؤ على الجهر بهذا النقد سوى جريدة « المصرى » التى أبرزت نقدها فى صورة ذكر طرف من صفات الرجل وأعماله . ثم نشرت بعد ذلك نص استقالته .. وكان هذا الأسلوب من جريدة « المصرى » فى التصدى لهذا التصرف الخاطىء ألذع نقد يمكن أن يوجه إلى الحكومة .. ولهذا نرى أن نضع نص هذه الاستقالة بين يدى القراء.

حضرة وزير الخارجية .

منذ واحد وثلاثين عاماً ، وأنا مكرس حياتى لخدمة الوطن العزيز عن طريق العمل الحكومى . وأشهد الله أننى كنت ومازلت خلال هذه السنين الطوال غير مدخر جهداً أو مالاً فى سبيل خدمة الوطن بالقدر الذى أنار الله به بصيرتى ويسّر . وقد سلخت فى خدمة

وزارة الخارجية من هذه السنين الطوال زهاء عشرين عاماً ؛ أغلبها فى وظائف رئيسة بالخارج وبديون الوزارة — عملت خلالها جاهداً لأحتفظ بالأمانة وأؤدى الواجب ماوسعنى الأداء . حتى توليت وكالة الخارجية فبذلت الجهد فى خدمة الوطن عن طريق هذه الوزارة — إلى أن هبت على مصر كارثة فلسطين ، ورأيت أن مصر ستتردى فى حرب ستجنى منها الويل والخسار ، فبادرت قبل نشوب هذه الحرب بأسبوعين إلى توجيه نظر أولى الأمر إلى خطر الدخول فى هذه الحرب ، منذراً بأسوأ النتائج . ودونت رأيى فى مذكرة رسمية مازالت فى محفوظات الحكومة .. ولما لم يؤبه برأيى ، وتجسم الخطر أمام عينى داهما ؛ طلبت ترك خدمة وزارة الخارجية وقتئذ ؛ فاقترح علىّ تولى سفارة وشنطن فقبلتها .

ويعلم الله مالاقيت فى هذه السفارة من صعاب وأزمات ؛ صمدت لها قوى الجنان ثابت الإيمان ؛ فمن أخبار انهزام الجيوش المصرية فى فلسطين تملأ أعمدة الصحف الأمريكية ، إلى غير ذلك من أحداث وتصرفات معيبة ؛ تضافرت الدعايتان الصهيونية والبريطانية على استغلالها استغلالاً واسع النطاق للحط من مصر وكرامتها ، والنيل منها ومن مصالحها .. حتى مرت بنا ونحن فى هذه البلاد أيام من أحلك الأيام ، ضاقت فيها الدنيا أمامنا ، لولا رحمة من الله وفضل . لكننا صمدنا وتذرعنا بالعمل الدائب والإخلاص للوطن والدعاية الصالحة له، واكتساب الأصدقاء فى الحكومة الأمريكية وخارجها وفى الكونجرس وفى دائرة الصحافة . وأرسينا بذلك أساساً متيناً ، بدأنا نقيم عليه بنياناً وطيداً .. وهو مجهود ليس بالهين ؛ يستلزم عادة من كل سفير جديد فى هذه البلاد المتشعبة النواحى المترامية الأطراف سنين طوالاً . وعندما أشرقت على مصر شمس عهد جديد من الحرية والكرامة إذ بهذا الأساس يزداد قوة ومتانة ، وإذا بأصدقاء مصر يعتزون بصداقتها ، ويتسابقون فى خدمتها وشد أزرها ، وأصبح الطريق اليوم ممهداً لمستقبل باسم مجيد ، وبناء شامخ وطيد .

والآن .. ولما يتكامل البناء ، وأوشك الغرس أن يؤتى ثمره ؛ رؤى أن أتولى منصباً آخر . غير أننى بعد تفكير طويل رأيت أن أختم حياتى فى الخدمة العامة عن طريق العمل الحكومى بعد هذه الفترة الطويلة من الخدمة الخالصة لوجه مصر ، راضى الضمير بما أديت للوطن من جهد المقل ، ولكنه جهد المخلص المتفانى فى خدمته .

وقد تفضلت الوزارة فعرضت علىّ سفارة بون . غير أنه نظراً للأسباب المتقدمة ، ورغبة فى العناية بعض الوقت بصحتى التى أضرها العمل المتواصل .. أستميحكم العذر فى عدم قبول هذا المنصب ، خصوصاً وإننى أرى الخير كل الخير أن يسند إلى غيرى ممن هم أقدر منى على الخدمة . راجياً قبول استقالتى ، شاكراً للحكومة ثقتها الغالية ولزملائى

بوزارة الخارجية كريم تعاونهم معى طوال مدة خدمتى .

وإنى إذ أعتزل الآن العمل الحكومى ، فلست بحال معتزلاً أداء الواجب للوطن فى ميدان أفسح وأوسع مجالاً ؛ ألا وهو ميدان الخدمة العامة ، مستأنفاً الجهاد فيه كما كنت فى الماضى غير مبتغ جزاءً ولا شكوراً . عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، متضرعاً إلى الله تعالى أن يحفظ الوطن ، ويسدد خطى أولى الأمر فيه ويهيىء لنا من أمرنا رشدا . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لاأدرى لم أجهدت نفسى هذا الجهد وأجهدت معى القارىء فى هذه النقطة بالذات وفى هذا الفصل بالذات وهل استطعت مع هذا كله أن يلمح القارىء من وراء كل هذا السرد والتحليل الإصبع الأمريكية .

لقد تربى أحمد حسين فى أحضان الرعاية الأمريكية ــ وهو من أسرة ذات ثراء وتمت إلى عبود باشا بصلة نسب حتى إذا أشرب حب أمريكا وصبوا فى رأسه أفكاراً جعلته أمريكى العقل والقلب مصرى الشكل والهيئة ، أوفد إلى مصر ليؤدى رسالة محددة .. فقام الرجل بمهمته خير قيام .

ولكن هل كانت مهمته حقاً انتشال الفلاح من وهدة الفقر والجهل والمرض كما ادعى .. ومتى كان إنقاذ الفلاحين من مهمة الأثرياء المترفين ؟ ومتى كانت أمريكا التى تقيم كل شىء بالدولار حتى الرجال تقيمهم بالدولار وحتى لو طلب منها إسداء معروف لم تتطوع بإسدائه إلا بعد أن تقيمه بالدولار فإذا لم تجد من حصيلته دولارات تكسبها لم تتطوع بإسدائه .

إن دور الدكتور أحمد حسين الذى انتدبته له أمريكا فى مصر كان أشبه بدور الهلالى حين أسند إليه الملك فاروق الوزارة .. كان دورهما تخريب الإخوان المسلمين من الخلف ؛ هذا يجرهم إلى الانتخابات ضد الوفد ليفنى كل منهما الآخر ــ وذاك كان بتنويمهم وسحب شبابهم إلى هاوية جمعية الفلاح وما يلقونه فيها من إغداق أمريكى ومتع تنسيهم مبادئهم وتحطم نفوسهم .. ولكن الفرق بين الاثنين أن الهلالى حين فشل فى جر الإخوان أسقطوه . ولكن الثانى حين فشل نقلوه إلى دور آخر . ولكن مصر خسرت فى سبيل إنفاذ الإرادة الأمريكية فى النقل رجلاً نادر الوجود لايعوض . وأعتقد أن الإرادة الأمريكية لم تكن إرادة أمريكية فى ذلك بقدر ماهى فى حقيقتها إرادة صهيونية لبست الثوب الأمريكى .

ثم إن دور الدكتور أحمد حسين فى مصر لم يكن إلا تكملة لمشروع الإصلاح الزراعى فى مصر الذى أعدته لجنة البحوث السرية بوزارة الخارجية الأمريكية .. والدور والتكملة كلا هما يمثلان علامة استفهام كبيرة فى تقييم الثورة المصرية ومدى براءتها .

الفصل الثانى

المؤتمر الإسلامى وهيئة التحرير

جاء فى سياق حديثنا عن جهود الإخوان فى نشر الفكرة الإسلامية أن استجاب لهذه الجهود شعوب الأمة الإسلامية فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى . وكان من ثمارها عقد مؤتمر إسلامى عالمى فى كراتشى بالباكستان . وقد نوهنا عنه فى الجزء الثانى من هذه المذكرات . ثم انتهى الرأى إلى إنشاء مؤسسة إسلامية دائمة فى القاهرة يطلق عليها « المؤتمر الإسلامى » واختير الأخ الأستاذ سعيد رمضان أميناً عاماً لها . وتكون مهمتها العمل على توثيق الصلات بين البلاد الإسلامية ، وعلى حل ماينشأ من خلافات فيما بينها ، وتنظيم مؤتمرات سنوية تعقد فى عواصم البلاد الإسلامية لمناقشة القضايا التى تمس كيان العالم الإسلامى والأقليات الإسلامية فى كل مكان .

وقام هذا المؤتمر الإسلامى بما عهد إليه من مهام ؛ فلما قامت الثورة رأينا جمال عبد الناصر ينشىء مؤسسة أخرى فى القاهرة تحمل نفس الاسم وعهد بشؤنها إلى أنور السادات ..

ومع ماف هذا الإجراء من تحد ، فإن الإخوان لم يثيروا هذا الموضوع ، ولم يعيروه اهتماماً بل تجاهلوه تماماً أملاً فى تضييق دائرة الخلاف .

هيئة التحرير

فى ديسمبر من عام ١٩٥٢ تمخضت أفكار جمال عبد الناصر عن إنشاء هيئة تسمى هيئة التحرير ، وصيغت مبادئها بحيث تتصل بالإيمان بالله من بعيد .. وأسند رياستها إلى اللواء محمد نجيب باعتباره الشخصية المحببة إلى الشعب فى ذلك الوقت ــ ثم أخذ يحاول جر الإخوان إليها بأساليب مختلفة ؛ فعرض أمانتها العامة على الأخ الأستاذ صلاح شادى فلما رفض تولى هو أمانتها وجعل مساعده فيها الصاغ إبراهيم الطحاوى ..

ولما يئس أن يجر إليها الإخوان باعتبارهم هيئة تندمج فى هيئة التحرير ، حاول أن يجرهم فرادى .. وبدأ بالإخوان الدعاة ــ وأحس الإخوان بأن هذه الهيئة ليست إلا المسجد الضرار ؛ أنشأه جمال ليخدع الناس بَه ، وليوقع البلبلة فى صفوف الإخوان ،

وليفـض الناس به عنهم .. وأيقن كثيرون من الإخوان ــ ممن لم يكونوا موقنين من قبل ــ بأن جمالاً إنما يبيت لدعوة الإخوان شراً .. وإلا فلم ينشىء هيئة لاتخرج مبادؤها وأهدافها ــ كما يدعى ــ عن مبادىء الإخوان وأهدافهم ؟.

وظل جمال عبد الناصر يدعـو الإخوان إلى هذه الهيئة ، ولم يصدر من قيادة الإخوان مايحجر على الإخوان أن يتحركوا كما يشاءون ، فقام عدد من دعاة الإخوان بزيارة مقر قيادة الهيئة ، والالتقاء بطبقة الموجهين فيها ، والفلاسفة الذين صاغوا مبادئها ، وحددوا أهدافها ، وهم من أستاتذة الجامعة وكبار الكتاب .. فلما التقوا بهم واستطلعوا منهم ما صاغوه من مبادىء وأهداف ؛ سمعوا منهم كلاماً خطيراً؛ سمعوا منهم أن الهيئة أوسع أفقاً من الإخوان المسلمين ، فمثلها العليا لا تقصر على محمـد وعمر وخالـد بل تتسع لتشمـل لينين وماركس وفرويد ــ رجع إلينا هؤلاء الإخوة الدعاة رافضين آسفين .. وكان منهم الأخ الأستاذ البهى الخولى الذى قص علىّ مارأى وما سمع . وأخبرنى فيما أخبرنى بأن فلاسفة التحرير أخبروه أن خزائن الدولة مفتوحة للدعاة على مصاريعها وكذلك مناصبها . وقد كان هناك تركيز من جمال عبد الناصر على جر شخصيتين إخوانيتين بالذات إلى الهيئة وهما الأخوان البهى الخولى وسيد قطب، حتى نشرت بعض الصحف فى تنبؤاتها مثل « أخبار اليوم » أن الأستاذ سيد قطب مرشح لمنصب هام وشاع فى الأوساط الإخوانية أنه مرشح وزيراً للمعارف وأن الأستاذ البهى مرشح لمنصب كبير فى وزارة الأوقاف .

ويبدو فى تلك الأيام أن الأستـاذ سيد قطب قد سارع بإعلان قطع صلته بهذه الهيئة ، ولكن الأستاذ البهى قد تريث طويلاً يتردد على الهيئة ، وساء هذا التريث كثيرين من الإخوان حتى تحدثوا إليه فى ذلك ، ووصلت القضية إلى مسامع المرشد العام فأوجدت جفوة بينه وبين الأستاذ البهى ..

ولما طالت الجفوة جاءنى الأستاذ البهى ــ لصلة الأخوة الخاصة التى كان قد أنشأها بينى وبينه الأستاذ الإمام وأشرت إليها من قبل ــ وشكا إلىّ ما يلقى من جفوة المرشد العام .. وشرح لى فى تلك الليلة زياراته لهيئة التحرير وما رأى فيها وما سمع وأن ذلك كله لم يكن إلا للاستطلاع ، وطلب إلىّ أن أعالج مانشأ بينه وبين المرشد العام من جفوة ، فتحدثت فى ذلك إلى الأستاذ المرشد حتى طابت نفسه ثم جمعت بينهما فى جلسة كانت من أمتع الجلسات كشفت لى عن صفاء نفس هذا الرجل وسموها وقدرتها على التجاوز واكتساب الأصدقاء ، وكان من ثمرات هذه الجلسة أن كلف المرشد العام الأستاذ البهى بوضع كتاب عن « المرأة فى الإسلام » .

وقد بلغ من إيهام فلاسفة هيئة التحرير لجمال عبد الناصر أنهم أوهموه بأن المبادىء التى وضعوها لها مستقاة من مصادر عالمية شرقية وغربية قد أصبحت أوسع الهيئات فى

مصر أفقاً وأشملها أهدافاً حتى إن جمال عبد الناصر يخاطب الإخوان باعتبارهم إنما يمثلون جزءاً من مبادئها . وقد تصور أنها ــ وهى مدعومة بسلطة الحكومة وخزائنها ، مؤازرة بفلاسفة البلاد وكتابها ، مهرولاً إليها من البارزين من تجار البلاد وأعيانها ــ يجب أن تضم الإخوان المسلمين تحت جناحها .. وتحدث فى ذلك ــ كما جاء فى حديثه مع مجموعة الاخوة الاستاذ صلاح شادى وزملائه فى أول هذا الجزء من الكتاب .. وقد اعتبر رفضهم عصياناً .

ثم استدار إلى شعب الإخوان فى أنحاء البلاد يجس نبضها ، ويتحسس ناحية ضعف ينفذ منها إليها لعله يجد فى هذه الشعب استجابة لما لم يجد له استجابة فى القاهرة ، غير أنه لم يفز بطائل .

إنه أراد أن يجعل من هيئة التحرير حزباً يستمد منه تفويضاً شعبياً يكسبه صفة الزعامة الحقة غير المدعاة ؛ فكرس جهوده لإنشاء هذه الهيئة وتثبيت أركانها ، وسخّر من أوهمهم أنهم زملاؤه فى مجلس قيادة الثورة ليجوبوا معه البلاد شرقاً وغرباً يجمعون الناس لها ، ويشرحون لهم مبادئها وأغراضها ، ويوضحون لهم أهدافها ؛ مقتفين فى ذلك أثر الإخوان : فللهيئة مركز عام فى القاهرة وفروع وشعب فى الأقاليم .. وإذا كان الإخوان قد أنشأوا مركزهم العام وشعبهم فى عشرين عاماً ؛ فقد أنشأوا هم مركز الهيئة وشعبها فى كل بلاد القطر فى أقل من ستة أشهر ، وأصبح أعضاؤها أكثر من أعضاء الإخوان عدداً .. ومن الطرائف أن هذه الهيئة أنشئت فى ٢٣ / ١ / ١٩٥٣ وبعد أن أنشأوا لها فروعا فى جميع بلاد مصر .. تحولوا إلى خارج مصر فأنشأوا لها مركزاً عاماً فى دمشق افتتحوه فى ١٤ / ٢ / ١٩٥٣ برياسة سفير مصر فى سوريا وسكرتارية الصاغ جمال حماد .

وننظر الآن لنرى شيئاً من هذا فى داخل مصر أو خارجها فلا نجد .. أين ذهب كل هذا وأين ذهبت هذه الدور ومنشئوها وعمارها ؟ صدق الله العظيم ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

والعجيب والمؤلم معاً أن الحاكم حين يرى إقبال الناس عليه فى العاصمتين والأقاليم يخدع نفسه ، ويعتقد أن أسماعهم مرهفة لما يشرح لهم من مبادىء وشعارات وأن أعينهم متجهة إلى مايفوه به من عبارات ، وينسى أن هذه الأسماع والعيون إنما هى متجهة ومرهفة لما هو وراء شخصه من مغانم وما حوله من مكاسب ، وما يأملون من تحقيق لأنفسهم فى ظل سلطانه من مآرب .. ينسى هذا أو يتناساه ولا يراه إلا فى حال من حالين : إما حين يفقد سلطته فيجد هؤلاء قد أدبروا عنه بأسرع مما أقبلوا عليه ، وإما حين تفوح رائحة الفضائح

فيبدأ أن يرى نفسه فوق تلال من العفن والقذارات .

نصح الإخوان جمال عبد الناصر بهذه المعانى التى هى من طبيعة البشر ، وأخلصوا له النصح ، ولكنه أبى أن يتقبل النصح ، وظن أنه قادر على تغيير طبيعة البشر ، وأنشأ هيئة التحرير ، وعقد سكرتيرها العام المساعد الصاغ إبراهيم الطحاوى مؤتمراً صحفياً يوم ٩ / ٢ / ١٩٥٣ يشرح فيه نشاط الهيئة ويقول : إن الشعب أجمع على زعامة نجيب وتوليه رياسة التحرير ، وإن نظام هيئة التحرير هو أعدل نظام ديمقراطى فى العالم .

* * *

الفصل الثالث

وزارة إخوانية

لما فشلت حيلة جمال عبد الناصر فى ضم الإخوان إلى هيئة التحرير أو جر عدد من دعاتهم إليها ، ولم يعد عنده أمل فى إثارة هذا الموضوع مرة آخرى ؛ فكر فى حيلة جديدة. وحاولها هذه المرة مع الأخ الأستاذ عبد الحكيم عابدين السكرتير العام للإخوان ؛ أملاً فى أن يجد فيه مغمزا بعد أن يئس من المرشد العام .

فقد أخبرنى الأستاذ عبد الحكيم — رحمه الله — فى يوم من أيام هذه الفترة أن الصاغ صلاح سالم اتصل به تليفونياً وسأله عما إذا كان ممكناً أن يجتمع معه الليلة فى بيته فرحب به — وقابلنى الأستاذ عبد الحكيم صبيحة تلك الليلة وحدثنى بما دار فى اجتماعهما فقال :

إن صلاح سالم أخبره أنه موفد من قبل جمال ، ومفوض تفويضاً كاملاً فيما سيعرضه من أمور ، وأنه يرجو أن يرى من عبد الحكيم تجاوباً وروحاً متعاونة ؛ حتى ترجع روح الوئام بين الإخوان والثورة . فرد عليه الاستاذ عبد الحكيم مطمئناً من هذه الناحية ، وأكد له أن الإخوان يتمنون ذلك .

فقال صلاح : إن جمالاً — تدليلاً على حسن نيته وأنه لايكن للإخوان إلا كل خير — فإنه يعرض عليهم أن يؤلفوا حكومة كاملة من الإخوان؛ رئيسها من الإخوان وجميع وزارئها من الإخوان .

قال لى عبد الحكيم : فتبسمت تبسماً أثار دهشة صلاح الذى سألنى لم قابلت كلامه بهذا الابتسام الذى يوحى بالسخرية ؟.

فقال له : ياصلاح .. هذا عرض ماكر نحن نرفضه كل الرفض .

فأثار هذا الرد صلاحاً — كأنه رحمه الله — لم يكن يعرف الهدف الحقيقى لجمال من هذا العرض ؛ فقد كان طيب القلب ، ومن القلائل فى مجلس الثورة الذين كانوا يتمنون أن يسود الوئام والتعاون علاقة الثورة بالإخوان .. وقال : إذن ماذا تريدون من تنازلات لكم من جمال أكثر من هذا ؟ ستكون الحكومة إخوانية صرفه .

فقال له : هوّن عليك يا أخي صلاح . أنت رجل لانشك فى حسن نيتاه ، ولكن العرض الذى حملته إلينا عرض خطير ، يخفى فى طياته الدمار والهلاك للإخوان المسلمين مادام هناك مجلس قيادة الثورة .

إن قيام مجلس وزراء بجانب مجلس الثورة لن يكون إلا شماعة تعلق عليها الثورة أخطاءها ، وتحمله أوزارها لأن حقوق السيادة ستكون لمجلس الثورة دون مجلس الوزراء .

ستكون مهمة مجلس الوزراء مواجهة الشعب بما يتخذ من قرارات تمس مصالحه ، ولابد أن تدور هذه القرارات فى فلك السياسة التى يضعها مجلس الثورة . فإذا كانت هذه السياسة خاطئة ؛ لم يلمس الشعب هذا الخطأ إلا فى القرارت التنفيذية التى تتخذها الوزارة فيما يتصل بقوت الشعب وملبسه وتعليمه وتربيته وخلقه وثقافته ودينه وقضائه ومختلف مصالحه .. وهنا تنصب لعنات الشعب لا على مجلس الثورة بل على الوزارة التى تواجهه .

إن جمالاً رأى أن حل الإخوان لم يقض على دعوتهم لأنه لايمس جوهرها ؛ بل إنه زادها قوة ، وزاد الشعب فيها حباً ؛ فأراد أن يحلها بطريقة أخرى تقضى عليها فعلاً قضاءً مبرماً ، وتستأصلها من جذورها بإحلال الكراهية والمقت لها فى قلوب الشعب محل الحب والثقة والإعجاب .

إن الحل مهما طال أمده ، فإن دعوة الإخوان سترجع فى يوم من الأيام وستجد قلوب الشعب فى انتظارها ، مفتوحة لاستقبالها — أما العرض الذى تعرضونه فإنه سيصرف الناس عن الدعوة وسيشيعونها باللعنات فلا تقوم لها بعد ذلك قائمة .
يا أخي صلاح ...

هذا عرض نرفضه شكلاً وموضوعاً .. ولا نقبله إلا بشرط واحد .. هو أن يحل أولا مجلس الثورة ويكون حق السيادة لمجلس الوزراء ؛ فنستوحى قراراتنا من كتاب الله وسنة رسوله لامن وحى مجلس الثورة .

هذا ملخص ماحدثنى به الأخ عبد الحكيم — رحمه الله — فى صبيحة ليلة الاجتماع . وكان الحديث أطول من هذا بكثير وتطرق إلى نواح مختلفة ، ولكن لم يبق فى خاطرى منه بعد هذه المدة الطويلة إلا ماذكرت . وحسبك أن تعلم أن هذا الاجتماع استغرق الليل كله حتى صلى الاثنان الفجر معاً — ويقول عبد الحكيم :

وكأن صلاحاً قد اقتنع أو يئس من قبولنا هذا العرض فسألنى : إذن من ترشحونه من غير الإخوان لرياسة الوزارة ؟ فقلت له : (وذكر لى عبد الحكيم أسماء اقترحها لكننى نسيتها الآن تماماً) .

الفصل الرابع

زيارتان لقبر الإمام

فى ١٢ / ٢ / ١٩٥٣ أبدى أعضاء مجلس الثورة عزمهم على زيارة قبر الإمام حسن البنا فى ذكرى استشهاده ؛ فرحب الإخوان . وكان فى استقبالهم عند القبر جم غفير من الإخوان على رأسهم المرشد العام .. وألقى الرئيس محمد نجيب الكلمة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم . أيها المواطنون .

من الناس من يعيش لنفسه ، لايفكر إلا فيها ، ولا يعمل إلا لها . فإذا مات لم يشعر به أحد ، ولم يحس بحرارة فقده مواطن .. ومن الناس من يعيش لأمته واهباً حياته ، حاصراً فيها آماله ، مضحياً فى سبيلها بكل غال عزيز .. وهؤلاء إذا ماتوا خلت منهم العيون ، وامتلأت بذكراهم القلوب .

والإمام الشهيد حسن البنا أحد الذين لايدرك البلى ذكراهم ، ولا يرقى النسيان إلى منازلهم .. لأنه — رحمه الله — لم يعش لنفسه ، بل عاش للناس ، ولم يعمل لشخصه عاش للصالح العام .. لقد كان حسن البنا صاحب عقيدة أخذت بزمام نفسه ، وملكت عليه منافذ حسه .. فعاش من أجلها أشق عيشة وأقساها ، ومات فى سبيلها أشرف ميتة وأسماها .. وكان يؤمن بأن الدين هو الكفيل بإيجاد الأخلاق القويمة فى نفوس أبناء الوطن العزيز ، وهو الوسيلة إلى حمل النفوس على الفداء والبذل من أجل الكرامة .

ولست أنسى ماحييت هذا الشباب . المؤمن القوى فى معارك فلسطين ، يقتحم على العدو أقوى الحصون ، ويسلك إلى قتاله أعصى السبل ، ويتربص بقواته وجحافله كل طريق .

ولقد كان حسن البنا — على قوة دينه وشدة إيمانه — يتحدث عن الإسلام فى أفق واسع وفهم سمح كريم .. حتى انتفع به العالم والجاهل ، وكسب لدين الله أنصاراً كانوا

أبعد مايكونون عن الدين .. وكان الجميع يحبونه أخلص الحب ، ويحترمونه أشد الاحترام ـــ ولذلك لم تكن الفجيعة فيه فاجعة جماعة ، ولا فجيعة طائفة ـــ ولكنها كانت فجيعة أمة بل أمم غزا قلوبها ، وجمع على الأخوة أرواحها .

وكان ـــ رحمه الله ـــ حرباً عواناً على الفساد والانحلال ، على قدر ماكان حرباً على الغصب والاحتلال . وكان سلاحه الذى اعتمد عليه سلاحاً ذا ثلاث شعب : الأولى مكانة فى نفوس الناس لايبلغها غيره . والثانية بيان رائع قوى يحرك ويوجه ويثير ، والثالثة قدرة على التجميع والتنظيم لم يصل إليها إلا الأقلون ممن تصدوا لقيادة الأمم .

وقد أدرك أعداؤه وأعداء الوطن أن هذا السلاح فى يده لايفل حديده ولا يبلى جديده ، ثم هو سلاح لايقاوم .. ولذلك أجمع المجرمون أمرهم على قتله وحيداً لاحارس له ، وأعزل لاسلاح معه ـــ وكانت القوة التى دبرت قتله ونفذته وأشرفت عليه .. هى القوة التى يلوذ بها الخائف فتمنحه الطمأنينة والأمن ، ويحتمى بها المطارد فتسبغ عليه ظلال السكينة والسلام » .

وقد حضر مع الرئيس محمد نجيب فى هذه الزيارة الوزراء سليمان حافظ وفؤاد جلال والباقورى وفتحى رضوان كما حضرها الصاغ عبد الحكيم عامر والصاغ صلاح سالم .

وأشهد لقد كان لهذه الزيارة معنى كنا نحسه جميعاً ونشعر بحرارته .. وكان الذين قاموا بها والذين حضروها بل وكان الناس جميعاً يشعرون أنها رمز كان لابد منه أداء لحق الوفاء لرجل عاش حياته ليهيىء أسباب النجاح لثورة تقضى على الظلم ، وتعيد للشعب حقوقه وكرامته .

ويقال إن جمال عبد الناصر كان هو صاحب فكرة زيارة قبر الإمام ، وإنه هيأ نفسه للقيام بها ولكنه فوجىء بأن اللواء محمد نجيب قد سبقه إليها .

على أى حال فإن الزيارة كانت تجاوباً لما يدور فى خواطر أكثر الناس ، وقد رفعت من أسهم رجال الثورة عند الجمهور وزادتهم ثقة بهم وحبا لهم ؛ ولهذا كان التسابق بين جمال ونجيب .

ومرت سنة بعد هذه الزيارة وقعت خلالها أحداث خطيرة ، وظهر فيها من دفائن النفوس ماأزكم الأنوف . وتحطمت القيم ، ونقضت العهود ، واستبيح الكذب ، وديست

الكرامات ــ وبعد كل هذا جاء جمال عبد الناصر فى ١٢ / ٢ / ١٩٥٤ لزيارة قبر الإمام حسن البنا .. جاء لزيارة قبر حسن البنا بعد أن اقترف نحو الإخوان المسلمين مايلى.

١ ــ أصدر ــ هذا الذى جاء يزور قبر حسن البنا ــ قراراً بحل الإخوان المسلمين.

٢ ــ أصدر ــ هذا الذى جاء يزور قبر حسن البنا ــ أمراً باعتقال المرشد العام وقيادات الإخوان وإيداعهم السجن الحربى.

٣ ــ أصدر بياناً باتهام الإخوان المسلمين بالخيانة .

ليت شعرى بأى وجه جاء هذا الرجل بعد كل الذى فعله ليزور قبر حسن البنا ــ ومتى كان حسن البنا يرى نفسه شيئاً غير دعوته ؟

صحيح أنه وجد فى استقباله هناك والد الإمام وإخوته وولده ومعهم الأستاذ عبد القادر عودة والأساتذة صالح عشماوى وعبد الرحمن السندى وسيد سابق وعبده قاسم والشيخ الغزالى وحلمى المنياوى .. ولكن هل هؤلاء يمثلون الإخوان المسلمين وهم يستقبلون من حل هيئتهم واعتقل مرشدهم ومئات من إخوانهم واتهمهم علنا وعلى صفحات الصحف بالخيانة ؟.

مستحيل أن تكون هذه الزيارة قضاءً لحق الوفاء أو حتى مجرد عمل يمت إلى الخلق والإنسانية بسبب لابد أنها كانت أسلوباً ماكراً لشق هذه الدعوة وتفريق صفوفها ، واحتواء طائفة منها بإثارة نعرة أولى القربى فى هذه الطائفة .. ولهذا كانت الكلمة التى ألقاها كلمة لاطعم لها لأنها مقطوعة الصلة بواقع الحياة فلقد كنا جميعاً غائبين وراء الأسوار ؛ ويقسم فيها على أشياء يعلم هو أنه كاذب فى ادعائها وقد ثبت كذبه فعلاً فيها .. وإليك نص هذه الكلمة كما قرأناها بعد ذلك فى الصحف حيث تقول :

ألقى كلمة حيا فيها إخوانه المحتفلين بذكرى الشهيد حسن البنا فى هذا اليوم الذى يذكرنا بالماضى القريب لاالماضى البعيد . ثم قال : إننى أذكر هذه السنين والآمال التى كنا نعمل من أجل تحقيقها . أذكرها وأرى منكم من يستطيع أن يذكر معى هذا التاريخ وهذه الأيام ، ويذكر فى نفس الوقت الآمال العظام التى كنا نتوخاها ، ونعتبرها أحلاماً بعيدة .

ثم أذكر هذا الوقت وفى هذا المكان كيف كان حسن البنا يلتقى مع الجميع فى سبيل المبادىء العالية والأهداف السامية ، لا فى سبيل الأشخاص ولا الأفراد ولا الدنيا .. ثم قال فى نهاية كلمته :

وأشهد الله أنى أعمل ــ إن كنت أعمل ــ لتنفيذ هذه المبادىء وأفنى فيها وأجاهد

فى سبيلها ـــ ثم ألقى صلاح سالم كلمة ثم ألقى كل من الأستاذ عبد القادر عودة والأستاذ عبد الرحمن البنا كلمة

ولكن هل نجحت هذه الزيارة ، وهل حققت المقصود منها ؟ نقول : نعم نجحت وحققت المقصود منها ولكن ساعة من نهار .. حتى كشفت الأيام للجميع حقيقة النيات .. ولم تتكرر هذه الزيارة بعد ذلك على مر السنين وقام هذا الزائر الوفى الكريم بمهاجمة حسن البنا بنفس الأسلوب الذى هاجمه به عهد الملكية بل أشد .

* * *

الفصل الخامس

أسلوب مخادعة بارع يصرف أصدقاء الإخوان عنهم

كان هناك فريق من رجالات الأمة الإسلامية وزعمائها ممن جمع بينهم وبين الإخوان فى الماضى ميادين العمل الجاد والجهاد الصابر المتصل .. عاشوا العهدين فى مصر ، ولما قامت الثورة — ولم يكونوا بعيدين عن مقدماتها وأحداثها — طاب لهم المقام فى مصر فى كنف هذه الثورة التى ساهموا فى التمهيد لها ؛ لينعموا بالمعيشة مابقى لهم من حياة فى ظل الدولة الإسلامية التى كانوا يحلمون بها .

وهذا الفريق من رجالات الأمة الإسلامية كانوا أعرف الناس بالثورة وعلاقة الإخوان المسلمين بها فهم يعلمون أنها ثورة الإخوان المسلمين وأن جمال عبد الناصر وزملاءه ليسوا إلا الفرقة التى عهد إليها بالظهور على المسرح .

فلما أحس هؤلاء بنشوء خلاف بين الإخوان وبين جمال عبد الناصر ، خفوا للاتصال بالطرفين لمعرفه كنه هذا الخلاف وأسبابه ودواعيه .. فكانوا يتصلون بجمال فيسمعون منه كلاماً ويتصلون بالمرشد العام فيسمعون منه كلاماً .. ولكن حصيلة مايسمعون كان يدين الإخوان ويجعلهم الطرف المعتدى .

وهكذا عاش هؤلاء الرجال فى حيرة من أمرهم .. أوجد هذه الحيرة أن جمال عبد الناصر كان حريصاً فى أسلوبه معهم ، وفى تصوير المواقف لهم ، على إبراز أمور معينة ، وإخفاء أمور أخرى ، وبتر الأحاديث ، والانتهاء من ذلك كله بحيث يبدو أن الإخوان هم المعتدون وأنه هو الجانب المعتدى عليه .. حتى ظن هؤلاء الرجال بالإخوان الظنون . وجاءوا إلى المرشد العام فى ذلك يعتبون عليه .

وهذا الأسلوب كان من البراعة والتفنن بحيث لم يؤثر فى هؤلاء الرجال فحسب بل خدع الكثير من كبار الإخوان وعلى رأسهم الأستاذ عبد القادر عوده مع أنه كان يعيش كل وقته فى الوسط الإخوانى فما بالك برجال يعيشون فى جوهم الخاص ولا يحتكون بالإخوان إلا بمجرد مقابلات واتصالات ..

ومن الذين استطاع جمال عبد الناصر أن يخدعهم بهذا الأسلوب فى ذلك الوقت: السيد أمين الحسينى — رحمه الله — مفتى فلسطين .. وكان مقيما بالقاهرة .. وكان الرجل يعتقد فى إقامته فى مصر فى ذلك الوقت أنه يقيم لأول مرة فى ظل حكومة إسلامية هى حكومة الإخوان المسلمين .

لما بدأ الخلاف يتطور حاول السيد أمين الوصول إلى الأسباب الحقيقية لهذا التفاهم السىء.. ولما وجد أن طريقة تبادل الاتصال مرة بهذا الطرف وأخرى بالطرف الآخر لم تجد ولم تصل به إلى نتيجة وصارح المرشد العام آخر الأمر بأن اتصالاته التنقلية بين الطرفين لم تسفر فى نظره وفى نظر كثيرين من الساعين بين الطرفين إلا بأن الإخوان هم المتعنتون .. وعرض الرجل على المرشد العام اقتراحاً بأن تعقد جلسة يحضرها الطرفان جمال والمرشد العام ويكون هو (السيد أمين) وبعض الساعين فى الصلح من كبار رجالات مصر والعالم الإسلامى حكماً بينهما .. وقد رحب المرشد العام بهذا الاقتراح .

وكان الأخ الأستاذ عمر الأميرى عضو الهيئة التأسيسية ومن كبار رجال الإخوان فى سوريا وسفيرها السابق فى باكستان منفياً فى ذلك الوقت ومقيماً بالقاهرة — واتخذ له سكنا فى مصر الجديدة — وقد اختار هو الآخر القاهرة مقاماً له اعتقاداً منه بأنه سيقيم فى ظل حكم إسلامى . وكان الأستاذ عمر هو الآخر ممن يحسنون الظن بجمال ، ومن المقربين إليه ، وممن يختصهم جمال برعاية واهتمام ، وكان الأستاذ عمر يتمنى لو أحسن الإخوان الظن بجمال — وقد كانت لى مع الأستاذ عمر جلسات طويلة فى سكنه هذا طالما دارت فيها المناقشة حول هذا الموضوع — فلما علم الأستاذ عمر بهذا الاجتماع المزمع عقده، طلب أن يكون فى بيته .

وكان الاجتماع فى مسكن الأستاذ عمر — وقد أنسيت أسماء الشخصيات التى اشتركت فيه ولم يعد فى خاطرى منهم إلا السيد / أمين الحسينى صاحب الاقتراح والأستاذ عمر الأميرى صاحب البيت — وطالت الجلسة واحتدمت المناقشة — وكان الإخوان والسادة الساعون فى الصلح يأملون من ورائها خيراً كثيراً .. وبسط المرشد العام كل ما عند الإخوان من وجهات نظر .. وحاول جمال أن يتفادى كعادته نقاطاً معينه ، ولكن المرشد أصر على سماع إجابته عنها محتكماً إلى الحاضرين .. فلما أجاب عليها — مضطراً — اتضح للوسطاء أن لاعيب فى مسلك الإخوان ، وأن سوء النية ملموس فى تصرفات الجانب الآخر .

فلما انتهى الاجتماع إلى هذه النتيجة التى لم تسعد جمالاً ، أسر فى نفسه نية سوء للسيد أمين الحسينى وللأستاذ عمر الأميرى — تكشف فيما بعد قليل بطرد الأستاذ عمر من مصر، وبإعلان حرب شعواء على السيد أمين بتشويه سمعته ثم طرده هو الآخر من مصر

هذه بعض أمثلة من أساليب الدوران حول الدعوة لتخريبها من الخلف ، وإن كانت قد أحبطت جميعاً لابفعل الإخوان ولا بتهجمهم وإنما بفضل الله وثبات الإخوان واعتصامهم بإيمانهم .. غير أنها شتتت شمل الأمة ردحاً من الزمن كان الأولى أن يستغل فى مصلحتها .

والكاتب حين يتقدم للكتابة فى مثل هذا الباب ؛ يتقدم متوجساً خائفاً .. لأنه حين يغريه بالتقدم مايتراءى أمامه من طريق سوى لاعقبة فيه .. لايلبث أن يفاجأ أنه على شفا جرف هار يكاد ينهار به فيظن أنه النهايه ولكنه يفاجأ باستواء جديد وهكذا .. طريق لأمان فيه ولا أطمئنان .. طرفان يتعاملان معاً ؛ أحدهما كل تصرفاته محكومة بحدود مستمدة من عقيدة ثابتة .. والآخر حدوده هوى نفس لاتعرف لها مستقراً ..

* * *

الباب السادس

التشكيلات الإخوانية

التشكيلات الموروثة
تشكيلات جديدة

التشكيلات الموروثة

ورث المرشد العام الجديد يوم تولى هذا المنصب التشكيلات الإخوانية التى تركها له سلفه الإمام الشهيد؛ سواء منها مايتصل بالشئون الإدارية كمكتب الإرشاد العام ولجنة تحقيق العضوية والهيئة التأسيسية والمركز العام لجمعيات البر والخدمة الاجتماعية.. سواء منها مايتصل بذلك وما يتصل منها بالنظام الخاص..

وقد رأى المرشد العام الجديد أن يبقى كل شيء على ماهو عليه؛ بالرغم مما اتخذته قيادات بعضها مما كان يستوجب التغيير.

وإذا كان فى حديثنا فى فصول سابقة مايوحى بأن تشكيلين اثنين على الأقل من هذه التشكيلات كان يجب أن يتناولهما التغيير؛ فإن هذا التغيير لو أجرى فى هذين التشكيلين لاقتضى ذلك تغييراً فى جميع التشكيلات الأخرى؛ حيث كانت هناك صلات وارتباطات بين قيادة هذين الجهازين وبين قيادات التشكيلات الأخرى؛ فهناك من أعضاء هذين التشكيلين من هم فى نفس الوقت أعضاء فى التشكيلات الأخرى، كما أن من بين أعضاء التشكيلات الأخرى أعضاء متعاطفين مع أعضاء هذين التشكيلين.

ولعل هذا كان من الأسباب الرئيسية التى جعلت المرشد العام الجديد يبقى على كل شيء على ماكان عليه؛ لاسيما وقد آنس من قيادة هذين التشكيلين أخيراً تسليماً بالأمر الواقع، ومسايرة للركب الإخوانى.. فآثر الأستاذ جمع الشمل، خصوصاً والإخوان خارجون لتوهم من محنة قاسية.

وقد أثبتت الأيام براعة هذه السياسة؛ فقد استطاع الإخوان فى ظلها أن يلموا شعثهم، وأن يستردوا مكانتهم.. ثم أن يحظوا من استجابة الشعب لدعوتهم ماجعلها تتبوأ أعلى مكان فى الحياة الاجتماعية والحياة السياسية فى البلاد.

بعد قيام الثورة:

فلما قامت الثورة، وبدأت بوارق السلطة تلمع فى سماء الإخوان.. أخذت هذه البوارق بألباب قيادات كانت قد استسلمت من قبل تحت تأثير الأمر الواقع الذى لم يكن

آنذاك بديل منه.. ولكنها الآن وجدت أمامها طريقاً مفتوحاً وعلى رأسه داع يلوّح لها بأعلام السلطة، ويفتح لها ذراعيه.. فمن هذه القيادات من هرولت إليه، وألقت بنفسها بين ذراعيه.. ومنها من بادلته ابتسامة على حياء.. وهذه كان أمرها مع الدعوة غير عسير ــ أما الأخرى فكان أمرها عسيراً، وكانت هي رأس الفتنة العمياء التي تمخضت عن أعظم كارثة نزلت بالإخوان المسلمين، وانتهت بتدمير مصر والبلاد العربية تدميراً لازال أصحاب العقول حتى اليوم في حيرة كيف يخلصون البلاد من لعنته، وكيف يتلافون آثاره.

أما الذين ابتسموا وكان خطرهم قليلاً؛ فهم أصحاب نظرية أولى القربى، والذين يعتقدون أنهم قد سلبوا حقهم في خلافة الأستاذ الإمام في منصبه بالدعوة.

وأما الآخرون الذين باعوا بإثمها، وتولوا كبرها، ولعبوا بالنار وهم يضحكون ويمرحون.. وكانوا كالأطفال يحطمون أثمن مايملكه آباؤهم ويشعلون النار فيها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.. فإنهم قيادات النظام الخاص.

رأت هذه القيادة في تلويح جمال لها فرصة سانحة لتحقيق ماعجزوا عن تحقيقه من قبل؛ ألا وهو إخضاع قيادة الدعوة لأهوائهم، وأن تكون هذه القيادة ألعوبة في أيديهم.. وبذلك يفرضون سلطانهم على الدعوة، ويوجهونها حيث يشاءون.

تشكيلات جديدة

في خلال تلك الفترة حل الموعد الدورى لتجديد انتخاب الهيئات الإدارية العليا للإخوان.. ورأى المرشد العام أن الدعوة مقبلة على أيام حافلة بالمتاعب.. وأحسّ أعضاء الهيئة التأسيسية بالأحداث التي تجرى في القاهرة، فرأى أكثرهم أن يستطلعوا رأى المرشد العام في هذا الشأن.. فأبدى رأيه فيما عرضوه عليه..

وكان اتجاه المرشد العام في هذا الشأن أن يعمل على تكوين جديد على ضوء مامر بالدعوة من أحداث.. وطلب إليّ أن أكون عضواً بمكتب الإرشاد فاعتذرت شاكراً ومؤثراً أن أظل عضواً في لجنة تحقيق العضوية التي كنت عضواً بها منذ أنشئت..

وأجرى الانتخاب وأسفر عن التشكيلين الآتيين:

١ ــ مكتب الإرشاد العام:

الإخوة الأساتذة الدكتور محمد خميس حميدة والبهى الخولى والشيخ محمد فرغلى ومحمد حامد أبو النصر والشيخ أحمد شريت والدكتور حسين كمال الدين والدكتور كمال خليفة وعبد الرحمن البنا وعمر التلمساني وعبد القادر عودة وعبد

العزيز عطية وعبد الحكيم عابدين وعبد المعز عبد الستار.

٢ ــ لجنة تحقيق العضوية:

الإخوة الأساتذة عبد العزيز كامل وحسنى عبد الباقى وعبد الله عامر وحامد شريت وسعد الدين الوليلى ومحمد الغزالى ومحمود عبد الحليم.

وأحب هنا أن أقف وقفة قصيرة عند اعتذارى عن عضوية مكتب الإرشاد العام؛ فقد يذهب الظن ببعض القراء أن هذا كان تهرباً منى من المسئولية؛ وينبغى أن يعرف السادة القراء أن عضوية مكتب الإرشاد فى تلك الحقبة من الزمن كان لها من المكانة الأدبية على مستوى مصر والبلاد العربية والإسلامية ماتهون أمامه أضخم المسئوليات.. ومع ذلك فقد شاء القدر أن أزهد فى هذه المكانة الأدبية ــ بعداً عما يلازمها حتما من الأضواء وتمشياً مع طبيعتى وطبيعة مسئولياتى فى الدعوة ــ فيأبى القدر إلا أن تلاحقنى هذه الأضواء فى ثنايا الزاوية التى اخترتها لنفسى فى لجنة العضوية.. فلقد تطورت الأحداث تطوراً حملنى ــ رغم أنفى ــ أخطر مسئولية، ونقلنى مكرها إلى دائرة الأضواء بل إلى مركز بؤرتها مما يأتى إن شاء الله تفصيله فى صفحات قادمة، ومما كان له آثار بعيدة المدى فى تطور الأحداث.

قضيــة:

وقبل أن أنتقل إلى نقاط أخرى، ينبغى أن أوضح للقارىء أن إبداء المرشد العام رأيه للهيئة التأسيسية فى أمر من الأمور أو فى أشخاص يراد اختيارهم لعمل من الأعمال.. هذا الإبداء ليس فيه مايعد اعتداءاً على حق الهيئة فى اختيار ماتريد أو من تريد.. ذلك أن من حق المرشد العام ــ وهو الذى يباشر كل المسئوليات بنفسه وبمن حوله من القيادات ــ أن يقدم للهيئة تقريراً عن كل فرد من هذه القيادات، وعن مدى بلائه فى الدعوة أو تقصيره فى حقها أو تعويقه لمسيرتها. كما أن من حقه كذلك أن يستعين بمن يشاء من سائر الإخوان خارج نطاق هذه القيادات الرسمية:

مجموعة الروضة:

وهذه قضية كانت مثار جدل أثاره بعض أعضاء مكتب الإرشاد الموروث والذى اقتضت ظروف الدعوة فى ذلك الوقت الإبقاء عليه دون تغيير ولا تبديل؛ فرأى المرشد العام أن يستعين بجانب هذا المكتب بمجموعة من الإخوان يطمئن إليها ويثق فيها؛ فكان يكل إليها بعض المهام. وهذه المجموعة هم الإخوة الذين جاء ذكرهم فيما نقلناه من كتاب «الصامتون يتكلمون» ــ وكان بعض هؤلاء المعترضين يطلقون عليهم «مجموعة الروضة» لأن أكثرهم كان يسكن فى حى الروضة حيث يسكن المرشد العام.. يريدون بذلك أن

يقولوا إن المرشد العام قد اختار هؤلاء الإخوان باعتبارهم جيرانه فى السكن.. وهو مالم يخطر على بال الرجل؛ فقد كنت أسكن فى القناطر الخيرية خارج القاهرة ومع ذلك كان كثيراً مايستشيرنى ويكل إلىّ من مهام الأمور — كما أنه فى التشكيل الجديد لمكتب الإرشاد اختار الأخ الأستاذ عمر التلمسانى وهو يسكن فى شبين القناطر وأسند إليه منصب السكرتير العام المساعد، كما استقدم الأخ الدكتور محمد خميس حميّدة من المنصورة وأسند إليه منصب نائب المرشد العام.

إذن لم تكن المسألة مسألة جيرة، ولا مسألة صداقة شخصية، ولا مسألة استلطاف، ولا مسألة قرب ولا بعد؛ وإنما كان الرجل يريد أن يتعاون مع إخوة لايضعون فى طريقه العراقيل؛ ولا يتعاملون معه وفى نفوسهم أشياء، ولا يوزعون ولاءهم له ولغيره باعتبار الولاء لل[illegible]ه هو الولاء للدعوة.

ولقد أثبتت الأحداث أن المرشد العام كان فى تصرفه هذا بعيد النظر، ثاقب الفكر، نافذ البصيرة.. إذ كشفت هذه الأحداث عن حقائق مذهلة كان يتوقعها، وكان بتصرفه هذا يحاول تفاديها، أو على الأقل التخفيف من أخطارها؛ فخطأ الجندى وهو فرد من أفراد الجيش أهون وأقل ضرراً من خطئه وهو فى هيئة القيادة.

وليس معنى مأسوق من حديث فى هذا الشأن أن أبرىء هذه المجموعة من العيوب أو أن أنزهها عن الخطأ.. والخطأ والصواب أمران من طبيعة البشر.. ولكننى عرضت بالحديث لقضية طالما اتخذها فى ذلك الوقت بعض الموتورين مثاراً للتشنيع على المرشد العام، وجعلوها محوراً يدورون حوله فى شغبهم عليه.

طريقة الانتخاب:

وعلى العموم فقد اجتمعت الهيئة التأسيسية لتباشر حقها فى اختيار أعضاء مكتب الإرشاد العام وأعضاء لجنة تحقيق العضوية.. وقد أشرت من قبل إلى أن هذا الاختيار يجرى على أساس فريد؛ فهو انتخاب سرى كتابى على أن يختار كل عضو فى الهيئة العدد المطلوب لمكتب الإرشاد والعدد المطلوب للجنة تحقيق العضوية دون أن يرشح أحد نفسه.

ولعل فى هذا الأسلوب مغالاة فى الحرية من ناحية، ومن ناحية أخرى إبعاداً عن تزكية النفس فى مجتمع هو أقرب المجتمعات إلى المثالية.. وأذكر بهذه المناسبة حادثة توضح هذا المعنى، وإن كانت تمسنى شخصياً؛ إلا أن فى إيرادها مايكشف عن مقومات المجتمع الإخوانى، ويبين إلى أى مدى وصل هذا المجتمع فى الأخذ بالأسلوب الإسلامى فى التربية الروحية والصقل النفسى.

فى أثناء إجراء عمليات الانتخاب ـــ وكانت تجرى على سطح المركز العام ـــ كان يجلس بجانبى أخ كريم من إخوان الأقاليم هو الأخ الشيخ عبد الغفار الديب ـــ رحمه الله ـــ وكان من العلماء وعمدة قرية صفط العنب بمحافظة البحيرة.. وكنت بحكم وجودى فى لجنة تحقيق العضوية منذ أنشئت الهيئة التأسيسية ـــ أعرفه كما أعرف جميع أعضاء الهيئة إلا أنه وإن كان يعرفنى شكلاً فإنه لايعرف اسمى.. وكان أعضاء الهيئة يعرفون أن عملية الانتخابات التى دعوا هذه المرة لأدائها عملية خطيرة لها مابعدها ـــ فرأيت هذا الأخ الكريم يميل علىّ ويسألنى: هل تعرف الأخ محمود عبد الحليم؟

فقلت: نعم أعرفه. قال: وما رأيك فيه؟

قلت: إنه ليس بذاك.

قال: إن رأيك هذا عجيب. فأنا لاأعرفه ولكن جميع الإخوان الذين أعرفهم يزكونه

قلت: لابأس.. لكل إنسان رأيه ـــ وقد سألتنى وهذا هو رأيى فيه. وأنا لن أنتخبه.

وتمت عملية الانتخاب. وفرزت الأصوات. وأعلنت النتيجة.. وأحمد الله أن فزت بما يشبه الإجماع.. وهى نتيجة طمأنتنى على أعز ماأحرص عليه، وهو ماتكنه قلوب إخوانى لى من حب.. وعرف الأخ الشيخ عبد الغفار من الذى كان يبدى له الرأى فى محمود عبد الحليم، فأقبل علىّ معانقاً هو وإخوانه الذين قص عليهم ماكان بينى وبينه.

وكانت نتيجة الانتخاب بمثابة تجديد إجماعى للثقة بقيادة المرشد العام؛ لأنها جاءت مطابقة تماماً لما كان يأمله؛ فقد أقصى عن مكتب الإرشاد أعضاء منهم الأخ الأستاذ صالح عشماوى وأدخل فيه إخوان آخرون.

ومن أروع مالفت نظرى فى الإخوة الذين دخلوا المكتب هذه المرة أن يكون منهم الأخ الأستاذ عمر التلمسانى. وللأخ الأستاذ عمر قصة.. فهو المحامى الوحيد الذى دخلت الدعوة فى عام ١٩٣٦ فوجدته من الأعضاء السابقين.. وكان من أحب الإخوان إلى الأستاذ الإمام، وكان يربطه به رباط روحى صوفى أشبه بالعشق الروحى.. وكان الأستاذ عمر من سكان شبين القناطر، ولا يكاد يشترك معنا إلا فى المناسبات وزيارات خاصة للأستاذ الإمام، وبمقالات يكتبها فى مجلة الإخوان ـــ وكنا نعتبره إذ ذاك الأخ المحب المدلل.. ثم كانت المفاجأة أن يترك هذا الأخ منتجعه، ويأتى إلى المركز العام يضع نفسه ووقته وجهده تحت أمر الدعوة فى أحرج وقت مر بها، حيث الفتن على أشدها، والحكومة مكشرة عن أنيابها، والمرشد العام فى أمس الحاجة إلى من يقف بجانبه.

الانتخابات الداخلية:

وقبل أن نختتم الحديث عن التشكيلات، يحسن بى أن أذكر نتيجة الانتخاب الداخلى

فى هذين التشكيلين حيث تم الآتى :

١ ـ فى مكتب الإرشاد العام : أسفر الانتخاب الداخلى عن انتخاب : الدكتور محمد خميس حميدة نائباً للمرشد العام والأستاذ عبد القادر عودة وكيلاً عاماً والأستاذ عبد الحكيم عابدين سكرتيراً عاماً والأستاذ عمر التلمسانى سكرتيراً عاماً مساعداً.

٢ ـ فى لجنة تحقيق العضوية :

عند إجراء الانتخاب الداخلى رأيت اتجاها من أعضائها إلى انتخابى رئيساً للجنة باعتبارى حائزاً أكثر الأصوات فى الهيئة التأسيسية ، ولكننى أشرت عليهم بانتخاب الأخ عبد العزيز كامل وكان هدفى من ذلك أن أضعه أمام المسئوليات الجسام المقبلة ، وقد تم ماأشرت به . كما انتخب الأخ الأستاذ سعد الدين الوليلى سكرتيراً للجنة .

* * *

الباب السابع

التقاء إرادتين على التخريب

الفصل الأول : لقاءات مشبوهة

الفصل الثانى : عبد الرحمن السندى مرة أخرى

الفصل الثالث : جريمة غدر مجنونة

الفصل الرابع : فصل أربعة من الإخوان المسلمين

الفصل الأول

لقاءات مشبوهة

وقفنا فى باب سابق فى موضوع النظام الخاص عند إذعان قيادته لما أجمع عليه الإخوان من اختيار المرشد العام الجديد الأستاذ حسن الهضيبى ــ وقد وقع هذا الإذعان أحسن موقع من الجميع. واعتبر ذلك نصراً كبيراً للدعوة، وعقبة كأداء انزاحت من طريقها.. وقلنا إن الدعوة بتحررها من هذا العائق انطلقت انطلاقاً فاق ماكان منتظراً، وراح الجميع يخطبون ودها، وينثرون الورود فى طريقها؛ تقرباً إليها، وتمسحاً بها.. حتى الملك أراد أن يلوذ بحماها.. ولكنها ركلته برجلها.. وتطلعت الأنظار إليها مترقبة التغيير المأمول..

ووقع التغيير المنتظر، الذى كان أشبه بالتغيير الذى أنهى دولة بنى أمية.. كان الأمويون يلعنون العلويين على المنابر طيلة مائة عام تولوا الحكم فيها.. وكان العداء مستحكما بين طائفتين طائفة الأمويين وطائفة العلويين.. وظل العلويون هم الأعداء المطاردين طيلة المائة عام.. فلما وقع التغيير باسم العلويين.. وكانت الأنظار معلقة بهم.. فإذا الذين ظهروا على المسرح أبناء عمومتهم من بنى العباس؛ فلم يخطر ببال أحد أن الدولة شيء غير دولة العلويين.. ولكن الأحداث المؤسفة أخلفت الظنون، ورأوا بنى العباس قد استقلوا بالحكم وناصبوا أبناء عمومتهم الذين وصلوا إلى الحكم عن طريقهم أشد العداء.

كان جمال عبد الناصر على علم بما كان من موقف لقيادة النظام الخاص. كما أن الفترة التى قضاها فى كنف هذه القيادة قد كشفت له كثيراً من نواحى الضعف فى نفوسها.. ولما كان دائب البحث عن وسائل تمكنه من احتواء هذه الدعوة المترامية الأطراف؛ بحيث يوجهها حيث يشاء؛ فيكون بذلك قد تربع على عرش أعظم قاعدة شعبية.. وقد لمس أن الرجل الذى اعتلى صهوة هذه القاعدة هو من الصلابة والقوة بحيث لايقتحم من أمامه.. ولا بد لمن يريد اقتحامه أن يبحث عن وسيلة يقتحم بها من خلفه.. وقد هداه تفكيره، وأرشدته خبرته إلى هذا النظام الخاص الذى سبق له أن تمرد، ولم تذعن قيادته إلا مغلوبة على أمرها.

ومع أنه هو شخصياً لايثق فى هذه القيادة، فقد سبق له أن طعن فى كفاءتها؛ فإنه

لايعنيه الآن شيء من ذلك، وكل الذى يعنيه هو أن يحتضن هذه القيادة، ويوليها اهتماماً خاصاً، ويوسع لها من مجلسه ــ مجلس رئيس الحكومة ــ ويشعرها بأنها شريكة فى الحكم.. وأنه وإياها «الإخوان القدماء» ولابد من العمل معاً على التخلص من هذا الرجل «الدخيل» الذى جاءوا به من خارج الدعوة ووضعوه على رأسها متجاهلين فى ذلك أصحاب الدعوة الأصليين من الإخوان القدامى الذين بنوا صرح هذه الدعوة بعرقهم ودمائهم.

وحسب القارىء أن يتصور موظفاً صغيراً بوزارة الزراعة، مؤهله الثانوية العامة يجد رئيس الحكومة يطلبه فيستقبله فى مكتبه استقبال الند للند أمام رجال الحكم، ثم يجلسه إلى جانبه، ويمضى ساعات فى الحديث إليه منفردين، لايسمح لأحد مهما علا شأنه بالدخول عليهما ــ وقد تنتهى الجلسة الطويلة بأن يصحبه إلى منزله فيتغديان معاً.. وأصبح الاتصال بينهما تليفونياً وشخصياً مقدماً لدى رئيس الحكومة على كل اتصال.. أى شعور يتصوره القارىء من الزهو والغرور والاستعلاء يستولى على لب هذا الموظف الصغير بحيث قد ينسيه حقيقة نفسه.

ولم يكن هذا أسلوب جمال فى التعامل مع رئيس النظام الخاص وحده، بل إنه كان يستعمل نفس الأسلوب مع كثيرين من أفراد هذا النظام حتى الطلبة منهم.. فلقد كان من إخوان النظام فى ذلك الوقت أخ اسمه حسن عبد الغنى وكان إذ ذاك طالباً بكلية الحقوق وكان على درجة عالية من الإخلاص، وكنت أحبه لهذا؛ فكان يقابلنى بالمركز العام فى المساء ويحدثنى عن جلسات له مع جمال وعما تم بها من حديث.

أما من ناحية رئيس النظام الخاص فى ذلك الوقت؛ فإنه لم يكن بحاجة إلى كل هذه المظاهر من الاحتفاء والتقريب ليسلك المسلك الذى يريده جمال. بل إنه كان يتمنى أن يجد أى سند يستند إليه ليظهر ماكان يتكتمه مما كان يعتمل فى نفسه نحو المرشد العام.. ولو أن جمالاً اكتفى بأن أومأ إليه مجرد إيماء من بعيد بما يشعره بالتأييد لفعل كل الذى فعل مما كان يريده جمال أن يفعل.. فلقد كان رئيس هذا النظام يعتقد أن المرشد العام قد سلبه سلطة لاحدود لها ولا قيود عليها، كان يستمتع بها، ويظن أنها صارت تفويضاً إلهياً له.

ومن هذا المنطلق كان سلوكه الشائن المخرب الذى تمت جولاته بتدبير أثيم فى كنف جمال عبد الناصر وتحت مظلة من تأييده وتوجيهه ومباركته.

كان الإخوان ــ لاسيما فى القاهرة ــ يشعرون بهذا التحرك المشبوه الذى يتم بين جمال عبد الناصر وبين عناصر كثيرة من إخوان النظام الخاص. وبدأ الإخوان ــ سواء منهم من كان من النظام الخاص أو من غيره ــ الذين يتأثرون بتوجيهات جمال عبد الناصر يتكتلون، وأخذوا يبحثون عن مكان يلتقون فيه معاً؛ فوجدوا ذراعين مفتوحتين ترحبان

بهم، وكان هذان الذراعان ذراعي الأخ الحاج حلمي المنياوي ــ وهذا الأخ إذ ذاك كان تاجراً كبيراً من تجار الورق بالقاهرة، له محل تجارى فسيح بشارع الجيش، ويتصل بهذا المحل مكتب كبير مؤثث وبه تليفون ويصلح لعقد الاجتماعات.. ومنذ ذلك الوقت صار هذا المكان ملاذ كل من تحدثه نفسه بالشغب على دعوة الإخوان المسلمين أو المساهمة فى الكيد لها.. ولست أدرى حتى الساعة ماالذى دفع الحاج حلمى إلى اتخاذ هذا الموقف الذى كان أشبه بمسجد الضرار.. هل هى مجاملة منه لهؤلاء الإخوان المتمردين؟ أم كانت وسيلة منه للتقرب إلى جمال عبد الناصر وسلطة الحكم أملاً فى الانتفاع من وراء ذلك لتجارته؟ والذى أعرفه فى هذه الناحية أن جمالا فيما بعد حطمه فيما حطم؟!!!

والعجيب فى شأن هذا الأخ أنك سوف تقرأ فى كثير مما سوف تقرأ عن التمرد والمتمردين وما كان منهم وما اتخذ بشأنهم، وستقرأ اسم محل هذا الأخ قرين كل حدث وكل خطوة وكل مؤامرة.. ولكنك لن تجد اسمه هو نفسه فى شيء من ذلك.

وبالرغم من أن جمال عبد الناصر كان حريصاً على أن تكون اجتماعاته بإخوان النظام الخاص فى نطاق السرية؛ فإن كثرة تعدد هذه الاجتماعات، وتدخل أكثر من فرد من رجال جمال فيها ــ أملاً فى سرعة إنجاز المقصود منها وهو تأليب هذا الجهاز على المرشد العام ــ كل ذلك نقل هذا الأسلوب إلى مايشبه العلانية. وصار معروفاً أن هناك جبهة يُسهَر على إعدادها لإجراء هذا التخريب، وأن كل خيوطها فى يد رئيس هذا النظام، وأن خيوط هذه المؤامرة تحاك فيما بين يدى جمال وهذا الرئيس.

* * *

الفصل الثانى

عبد الرحمن السندى مرة أخرى

دعانى المرشد العام ذات يوم، وأخذ يقص علىّ من أنباء عبد الرحمن السندى ومن اتصالاته بجمال عبد الناصر، ومن اجتماعاته بأفراد النظام الخاص وما يبثه فيهم من روح العداء لقيادة الدعوة — وسمى لى أفراداً أبلغوه كل ماقاله عبد الرحمن.. وأخبرنى بأن عبد الرحمن يجد آذانا صاغية من بعض كبار الإخوان.. وقال لى: إننى لم أدعك إلا بعد أن بذل كثير من الإخوان جهوداً مشكورة ولكنها لم تثمر، ومع ذلك لم أكتف بهذه الجهود بل استدعيته وتحدثت إليه وحاولت إقناعه بأن تصرفاته تسىء إلى الدعوة وتعود عليها بضرر بالغ ولكنه أصر على موقفه.

ثم قال لى: إننى لأمانع فى الاستقالة إذا رأى الإخوان أن ذلك فى صالح الدعوة.. وقد استدعيتك باعتبارك الورقة الأخيرة لأنك أنت الذى عالجت هذه الفتنة من قبل وأنت أقرب الإخوان إلى نفوس أعضاء هذا النظام.

وبدأت بالاتصال بالأخ أحمد زكى باعتباره التالى لعبد الرحمن فى القيادة ولأن له محلاً تجارياً يتيسر اللقاء به فيه، وأثرت معه الموضوع، فلم ينكر مايبذلونه من جهود فى سبيل تغيير قيادة الدعوة، ولم يخف ثقتهم فى تحقيق أمنيتهم هذه المرة، وحجتهم فى ذلك أن الأستاذ الهضيبى رجل دخيل على الدعوة وهو عقبة فى سبيل التفاهم مع الثورة، وأن التفاهم مع الثورة أمر ضرورى لتحقيق مبادىء الدعوة، وأن الثورة مستعدة للتفاهم مع الإخوان ولكن الهضيبى هو الذى يرفض.. وحاولت التفاهم مع الأخ أحمد ولكنه اعتذر إلىّ وطلب منى هذه المرة أن أتفاهم مع عبد الرحمن.

وترقبت حضور عبد الرحمن إلى المركز العام.. ولم أشأ أن أقابله فى أول مرة محاولاً أن أراقب تحركاته؛ فرأيته يحضر فى الليالى التى يكثر فيها حضور الإخوان، ويندس بينهم، ويتخير منهم أشخاصاً يتحدث إلى كل منهم على حدة. ويتنقل من مكان إلى مكان ليلتقى بأفراد آخرين... وبعثت فى طلب بعض هؤلاء الأشخاص من الذين تحدث إليهم عبد الرحمن وسألتهم عما دار بين عبد الرحمن وبينهم من حديث؛ فوجدت أنه يمهد للقيام بانقلاب فى المركز العام.

وشعرت بأن ترك الفرصة له ينفث سمومه بين إخوان برءاء هو تفريط فى حق الدعوة وغفلة — وإذا كان قد استطاع فى غفلة منا أن يستحوذ على أفكار عدد من كبار الإخوان الذين بهر عيونهم بريق السلطة ويطمعون فى غنائمها؛ فما ذنب غيرهم من خلاة الأذهان، سليمى الطوية الذين لامطمع لهم إلا نصرة الإسلام.. كيف نتركهم فريسة لأفكار هى تخريب لدعائم الدعوة، وتقدم لهم على أنها الوسيلة الوحيدة لتثبيت دعائمها.

قررت فى نفسى أن لابد من وضع حد لهذا الأسلوب السرى الخطير، ولا يكون ذلك إلا بنقله من السرية إلى العلن.

التقيت بعبد الرحمن — الذى كان يستحيى أن يرفع نظره إلىّ — فرأيته يتكلم معى بأسلوب جديد فيه جرأة وفيه مايشبه التوقح وفيه إصرار وفيه عناد.. وعبثاً حاولت صابراً على أسلوبه هذا أن أقنعه بخطورة محاولاته وإضرارها بالدعوة بل تعريضها للزوال.. فلما يئست تركته منذراً.

انتقلت إلى مرحلة أخرى مؤداها أن أشعره بتيار مضاد تقوم به مجموعات من إخوان النظام الخاص.. وبذلك لايجد الطريق أمامه مفتوحاً كما كان يجده من قبل.. والتقيت بمجموعات كبيرة من هؤلاء الإخوة فى القاهرة والأقاليم — وكان الذى يربطنى بهم الحب والثقة التى مردها الإيثار وإنكار الذات — وأفضيت إليهم بما فى نفسى، وتبادلنا الرأى، وأجمعوا على الوقوف صفاً واحداً فى وجه عبد الرحمن.. ونظموا أنفسهم بحيث يحضر عدد منهم كل ليلة إلى المركز العام وتكون مهمتهم تحذير الإخوان خلاة الذهن من عبد الرحمن وأفكاره المسمومة.

ونجحت الفكرة.. وكان يجىء عبد الرحمن فيجد الطريق أمامه مسدوداً.. وحاول أن يستخدم سلطته على أعضاء النظام فوجد منهم خروجاً على طاعته وعصياناً لأول مرة — وتكرر حضوره إلى المركز العام لعله يجد ثلمة بين هؤلاء الإخوان ينفذ منها، فلم يظفر بطائل.. فانقطع عن المركز العام.

دار الندوة:

صحيح أن هذه الخطة حرمت عبد الرحمن فرصة اصطياد أفراد جدد يضمهم إلى صفه.. وصحيح أن هذا الأسلوب حرمه منتدى يلتقى فيه بأفواج بعد أفواج.. ولم يعد يجد فى هذا المنتدى وجهاً واحداً يبتسم له أو يرحب به — ولكن ذلك لم يمنعه أن يجد منتدى آخر نذره صاحبه لاستقبال المتمردين والترحيب بالمتآمرين — وأكرر هنا أيضاً ماقلته من قبل إننى لاأدرى حتى الساعة أية مصلحة كان ينتظرها صاحب هذا المنتدى من وراء ذلك.. فإنك كنت إذا جلست إليه شخصياً لم تشعر فى حديثه بأدنى مايشعر بالتمرد.

عكف عبد الرحمن على الالتقاء فى «دار الندوة» هذه بأقطاب التمرد، وبالحفنة من إخوان النظام الخاص التى كان قد استقطبها واستحوذ عليها من قبل.. والتى كان يرتب لها لقاءات مع جمال عبد الناصر ثم عرف كيف يحشو عقولها بأخبار كاذبة، وأفكار سوداء، ويصور لها المواقف على غير حقيقتها، ثم عرف كيف يعزلها عن المجتمع الإخوانى خشية أن تلتقى بمن يصحح لها الأفكار، ويشرح لها حقيقة الأمور.. وإذا كنا قد طاردنا عبد الرحمن فى المركز العام فليس من حقنا أن نطارده فى أماكن لاسلطان لنا عليها.

عزل رئيس النظام:

لم يكن هناك بد من اتخاذ إجراء يحرم أولاً هذا الرئيس المتواطىء من الصفة التى تخوله حق توجيه أعضاء هذا النظام الوجهة التى يريدها ــ وتحرر ثانياً أعضاء هذا النظام من الالتزام بطاعة هذا الرئيس.

وهذا الإجراء لايتطلب عرض الأمر على مكتب الإرشاد ولا على ماسواه من مؤسسات الدعوة؛ بل هو من حق المرشد العام وحده ــ لأن هذا الإجراء ليس معناه فصل هذا الرئيس من جماعة الإخوان المسلمين وإنما هو مجرد نقل عضو فى الجماعة ــ من عمل عهد به إليه فوجد أنه لم ينتج فيه الإنتاج المطلوب ــ إلى عمل فى مجالات أخرى فى الدعوة قد يكون فى واحد منها أحسن إنتاجاً ــ ولهذا كان الذى أصدر هذا الأمر هو المرشد العام ــ كما أن هذا الأمر بطبيعة اتصاله بالنظام الخاص فإنه لم يصدر مكتوباً ولا منشوراً بل كانت وسيلته التبليغ الشفوى عن طريق تسلسل القيادة.

وغنى عن الذكر أن نقول إن هذاالأمر لم يصدره المرشد العام فجأة، وَلَا مِنْ تلقاء نفسه ــ مع أن هذا من حقه ــ وإنما صدر بعد اتصال المرشد العام بالكثيرين من العاملين بهذا النظام والمتصلين به.. بل إنه لم يصدر إلا بعد إلحاح من هؤلاء العاملين بعد أن تقدموا إليه بوقائع ثابتة لها خطورتها وتنذر بشر مستطير.. ونعرض على القارىء واحدة منها حتى يكون معنا فى تقدير ماكان يكتنف الموقف من خطر داهم:

جاء أحد إخوان النظام الخاص وأخبر المرشد العام بالتالى: فى أثناء اجتماعنا العادى أخبرنا الأخ صلاح عبد المعطى أنه بتكليف من رئيس النظام الخاص دعا بعض شباب النظام إلى حضور اجتماع فى منزل أحد أعضاء النظام الخاص اسمه الأخ جمال النهرى؛ وحضر هذا الاجتماع الإخوة عز الدين مالك وعلى صديق وحسن عبد الغنى وغيرهم.. ثم حضر إليهم حازم النهرى شقيق الأخ الذى يجتمعون عنده، وهو من تشكيلات الضباط الأحرار ومخابراتهم، وأخذهم إلى منزل عبد الحكيم عامر الذى اجتمع معهم وحضر الاجتماع جمال عبد الناصر وصلاح سالم ــ وأخذوا يسيئون إلى المرشد العام وجماعة منير

دلة، ويصورون لهم الخلاف بين الثورة وبين المرشد العام على أنه خلاف شخصى وليس خلافاً على مبادىء أو سياسة.

* * *

الفصل الثالث

جريمة غدر مجنونة

من هذا يتضح أن إجراء المرشد العام بتنحية رئيس النظام عن رياسة النظام ليست إلا إجراءً عادياً؛ كان يجب أن يقابل من أخ بايع على السمع والطاعة بالتسليم والرضا، وتوجيه جهوده لميدان آخر من ميادين الدعوة الفسيحة.. ولكن الذى حدث كان عكس هذا تماماً .. اعتبر هذا الأخ هذا الإجراء اعتداء عليه ، وسلباً لسلطان يرى أنه حق أيدى له .. وإذا كان قد ناوأ المرشد العام من قبل فى خفاء، فإنه أصبح الآن فى حل من إعلان الحرب عليه؛ مستحلاً فى سبيل ذلك كل وسيلة تتاح له.. أتدرى أيها القارىء ماذا فعل؟

كان يعلم أن المهندس سيد فايز — وهو من كبار المسئولين فى النظام الخاص — من أشد الناقمين على تصرفاته، وأنه وضع نفسه تحت إمرة المرشد العام لتحرير هذا النظام فى القاهرة على الأقل من سلطته، وأنه قطع فى ذلك شوطاً بعيداً باتصاله بأعضاء النظام بالقاهرة وإقناعهم بذلك.. وإذن فالخطوة الأولى فى إعلان الحرب.. وكذلك سولت له نفسه.. أن يتخلص من سيد فايز.. فكيف تخلص منه؟

إنه تخلص منه بأسلوب فقد فيه دينه وإنسانيته ورجولته وعقله.. انتهز فرصة حلول ذكرى المولد النبوى الشريف، وأرسل إليه فى منزله هدية علبة مغلقة عن طريق أحد عملائه ولم يكن الأخ سيد فى ذلك الوقت موجوداً بالمنزل؛ فلما حضر وفتح العلبة انفجرت فيه وقتلته وقتلت معه شقيقا له وجرحت بقية الأسرة وهدمت جانبا من جدار الحجرة.

وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن هذه الجريمة الأثيمة الغادرة، كانت بتدبير هذا الرئيس.. وقد قامت مجموعة من كبار المسئولين فى هذا النظام بتقصى الأمور فى شأن هذه الجريمة، وأخذوا فى تضييق الخناق حول هذا الرئيس حتى صدر منه اعتراف ضمنى.

ولكن الذى يلفت النظر أن الحكومة حين باشرت التحقيق فى هذه الجريمة البشعة باشرته بتثاقل مريب. وبدا كأنما باشرته لمجرد «سد خانة» حتى لايقول الناس لماذا لم تقم الحكومة بالتحقيق.. وقد أقفل المحضر دون توجيه اتهام لأحد.

الفصل الرابع

فصل أربعة من الإخوان المسلمين

أمام هذا الغدر المجرم والاعتداء الآثم، الذى وصل إلى حد استحلال الدم، لم يكن بد من اتخاذ إجراء عاجل، فى حدود مايخول قانون الإخوان المسلمين الجهة المسئولة فى الهيئة، وكان أقصى مايمكن اتخاذه من إجراء هو فصل هذا الرئيس والضالعين معه من هيئة الإخوان.

اجتمع مكتب الإرشاد فى ٢٢ نوفمبر ١٩٥٣ وتداول فى هذا الموضوع الخطير، وبحثه من جميع جوانبه، وانتهى إلى قرار إجماعى بفصل رئيس هذا النظام الخاص وثلاثة من معاونيه هم أحمد عادل كمال ومحمود الصباغ وأحمد زكى.. وأعلن هذا القرار.

وبديهى أن هذا القرار وقد تم إعلانه ـــ كان لابد من احتفاظ مكتب الإرشاد العام لنفسه بالأسباب التفصيلية التى دعت إليه.. لأن فى إعلان هذه الأسباب ماقد يزيد علاقة الإخوان بالحكومة سوءاً؛ إذ فيها مايمس جمال عبد الناصر شخصياً.. وكان ـــ حتى ذلك الوقت ـــ مايزال مأمولا تفادى المواجهة لعل جمالا يفىء إلى الرشد..

وكان موقف الإخوان حيال هذا الوضع الخطير كمثل الذى رأى نفسه فى مثل هذا الموقف فقال:

البغل فى الإبريق لكن أين لى بفـم يقـول البغـل فـى الإبريـق

رفع قميص عثمان:

كان مفروضاً بصدور قرار إجماعى من مكتب الإرشاد العام أن يقابل بالرضا والتسليم من كل فرد من أفراد الإخوان المسلمين مهما خلا هذا القرار من ذكر الأسباب التفصيلية التى بنى عليها وذلك للأسباب الآتيه:

١ ـــ أن هذا القرار قد صدر من الجهة المختصة، وصدر بالإجماع لا بالأغلبية.

٢ ـــ أن علاقة الإخوان المسلمين فى كل مكان بمرشدهم العام وبما يعاونه من هيئات منتخبة علاقة تقوم على الثقة التى لايداخلها شك.

٣ ـــ أن هذا القرار ـــ وإن كان قد صدر دون إعلان أسبابه ـــ فإن هذه الأسباب كانت معروفة لجمهور الإخوان بل لكثيرين من غير الإخوان.

ومع ذلك فقد بدأ هذا الرئيس المفصول فى تنفيذ تمثيلية جديدة، وضعت وأخرجت «فى مكان ما» ولم تكن مهمته إلا أداء أدوارها على المسرح.. وكانت الفصول التالية للمسرحية قائمة هذه المرة على «رفع قميص عثمان».

كان هؤلاء المفصولون يعرفون أسباب فصلهم، وكان الذين يمدونهم فى الغى يعرفون هذه الأسباب، وكان الإخوان جميعاً يعرفون هذه الأسباب؛ لاسيما أولئك الذين كانوا يجتمعون معهم كل ليلة فى «دار الندوة».

ولكن لأن هؤلاء المفصولين ومن يلوذبهم ويباركون جرائمهم يعلمون أن مكتب الإرشاد لايستطيع أن يعلن هذه الأسباب للظروف التى أشرنا إليها.. أرادوا إحراج المكتب وإحراج المرشد العام بالذات.. ونظموا حملة يطالبون فيها بإعلان أسباب الفصل.. وقد اتخذت هذه الحملة صوراً منها:

١ ـــ تقدم بعضهم إلى المكتب بتظلمات كتابية، ووعد المكتب بالنظر فيها ـــ وتبين فيما بعد أن هذا من جانب المتظلمين كان أسلوباً من أساليب التنويم.

٢ ـــ بدت الأمور بعد ذلك كأنما استقرت. وتفرغ الإخوان لأعمالهم الخاصة، كما تفرغ كل ذى مسئولية فى الدعوة للعمل فى موقعه ـــ ولم يدر بخلد أحد أن هذا الهدوء والاستقرار لم يكن إلا ستاراً لمؤامرة تحاك من خلفه؛ على أن تكون هى المؤامرة القاضية ولا قبل لأحد بمواجهتها؛ فقد حيكت بإحكام وبراعة دقيقين، بتكتيك ماهر توفرت عليه عقول متخصصة، ووضعت فى خدمته كل الوسائل؛ فكانت بذلك أخطر مؤامرة واجهها الإخوان المسلمون.

* * *

الباب الثامن

المؤامرة الخسيسة
أو
الضربة المسددة إلى القلب
من الخلف

حول هذه المؤامرة

الفصل الأول : فى أعقاب فشل المؤامرة الخسيسة

الفصل الثانى : التحقيق مع الثلاثة الكبار

الفصل الثالث : أضواء على أحداث المؤامرة فى التقرير الكامل للجنة العضوية

الفصل الرابع : تعقيب

حول هذه المؤامرة

كل المؤامرات التى حيكت لدعوة الإخوان من داخلها؛ وقد عرضنا لها فى هذه المذكرات ـــ كانت ـــ على اختلاف دوافعها ـــ من نوع واحد.. ولكن المؤامرة التى تزعمها عبد الرحمن هذه المرة كانت وحدها نوعاً آخر.. إنها اختلفت عن سوابقها فى أمرين:

الأول: أن سوابقها لم تكن من الخسة بحيث تستحل حرمة البيوت ولا حرمة الدماء؛ فلم تفكر واحدة منها فى اقتحام بيت، مهما بلغت درجة الخصومة بين القائمين بها وبين زميل، وكانوا يرون فى ذلك خسة ونذالة يَرْبَأُونَ بأنفسهم عنها.. ولكن مؤامرة عبد الرحمن استحلت حرمة البيوت فاقتحمت على المرشد العام بيته، واستحلت دم أخ مخالف لهم فى الرأى.

الثانى: أن هذه المؤامرة استعانت بسلطة الحكومة القائمة ضد الهيئة التى نشأوا فيها، وتربوا فى أحضانها؛ وقد يكون التعبير الأدق أن نقول: إنها تواطأت مع السلطة، وتحالفت وأسندت ظهرها إلى ماتملك هذه السلطة من قدرات لاتملك مثلها هيئة شعبية.. بل إنها فى الحقيقة جعلت من نفسها أداة منفذة لخطط وضعتها هذه السلطة.

مجمل تخطيطى للمؤامرة:

خطط لهذه المؤامرة بحيث يكون هجومها ذا شعبتين؛ فقد قسموا أنفسهم قسمين أو فريقين:

فريق كله من الشباب وكل إليه أن يقتحم على المرشد العام بيته لإرغامه على كتابة استقالة.. ويقوم هذا الفريق بمهمته فى الوقت الذى يكون فيه الفريق الآخر قد اقتحم دار المركز العام واحتله.. وكان هذا الفريق أيضاً من الشباب ولكن كان على رأسه ثلاثة من كبار الإخوان هم الأساتذة صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد عبد العزيز جلال من أعضاء الهيئة التأسيسية.

وقد أدى الفريق الأول مهمته فى اقتحام منزل المرشد العام ـــ وهو أمر ميسور لكل

من أراده ــ وصحيح أنهم تطاولوا على الرجل وأساءوا إليه، لكنهم لم يستطيعوا أن يستكتبوه الاستقالة.. وكان المفروض فى التخطيط أن يكون الفريق الآخر قد أتم احتلال المركز العام، على أن يوافيه الفريق الأول باستقالة المرشد العام المكتوبة، ليعلنها الثلاثة الكبار فى الصحف، ويختاروا بعد ذلك مرشداً عاماً لابد أنهم كانوا قد أعدوه فيما بينهم.. ولكن الفريق الآخر ــ وقد قام بمهمته ــ فاحتل المركز العام ــ وكان احتلاله ميسوراً لأى أحد فاليوم يوم جمعة والمركز خال من الرواد ــ وقام الثلاثة الكبار باحتلال مكتب المرشد العام، وقام الشبان بحراسة بوابة المركز حتى لايدخله إلا المشايعون ولكن الجزء الهام من الخطة لم يتحقق إذ لم يتم الحصول على الاستقالة.. وإن كان المسئولون عن المؤامرة قد أسنوها فنصحف ثقة منهم فى أن إحكام المؤامرة جعل هذه الاستقالة.. فى قبضة أيديهم.

هذا من ناحية القائمين على تنفيذ مخطط المؤامرة، أما إدارة المؤامرة، فكان يديرها عبد الرحمن وأركان حربه من منزل قريب من جريدة الأهرام.

مواقف ذات دلالات هامة فى المؤامرة:

ولما كان دورى فى نقل صورة عن هذه المؤامرة إلى السادة القراء دور الناقل عن غيره ممن شهدوها، فأرى ــ كما قدمت أن أجمل القول فيها؛ محيلا إياهم إلى كتاب «صفحات من التاريخ» للأستاذ صلاح شادى مجتزئا هنا بملاحظات استميحه عذراً إذا أنا نقلتها عنه لشدة أهميتها، ولبالغ دلالاتها؛ حرصاً منى على أن تكون بين يدى قراء قد لايتاح لهم ــ فى وقت قريب ــ الاطلاع على كتاب الأخ الأستاذ صلاح.

وإليك هذه الملاحظات:

الأولــى : كان أكثر هذا الشباب الذى ضلع فى هذه الفتنة مضللين ومخدوعين؛ حتى إنه لم تمض هذه الليلة حتى تقدم اثنان كانا من قادتها معتذرين وآسفين وهما الأخوان على صديق وفتحى البوز.

الثانيــة : أن اثنين كانا من أكبر المسئولين فى النظام الخاص فى القاهرة؛ أحدهما الأخ صلاح العطار وكان مسئولاً عن النظام الخاص فى شبرا، وكان يعد أقرب شخصية إلى السندى، وقد جعله السندى أركان حربه فى إدارة المؤامرة. والآخر الأخ سيد عيد وكان مسئولاً عن النظام الخاص فى شبرا الخيمة ــ كان هذان الأخوان ــ بإخلاص كانا قد طويا عليه أحناء ضلوعهما ولم يكن يعلمه إلا الله ــ كانا من العوامل التى أعدتها القدرة الإلهية لتقويض البناء الذى سهر على بنائه واضعو الخطة ومنفذوها.

الثالثـة : كان معروفاً لدى منفذى الخطة أن الأخ صلاح العطار هو الناطق باسم

السندى وممثله وناقل تعليماته، حتى إنه لما توجه هو والأخ سيد عيد إلى المركز العام بعد منتصف الليل وجدا أن السندى قد اتصل بالمعتصمين تليفونيا وقال لهم اسمعوا وأطيعوا لصلاح العطار.. وبذلك استطاع صلاح أن يرسل إلى السندى من ألقى فى نفسه اليأس؛ حتى إنه اضطر أن يتصل بالمعتصمين بإنهاء الاعتصام.

الرابعة : لما علم الأستاذ صالح عشماوى بتعليمات السندى بإنهاء الاعتصام، غضب وهم بالاتصال به تليفونيا ولكن صلاح العطار منعه.

الخامسة: لما قابل الأخ سيد عيد الأخ صلاح العطار فى يوم المؤامرة فى مكان عينه له الأخ صلاح قرب جريدة الأهرام، وجد الأخ صلاح الأخ سيد منخرطاً فى البكاء لخطورة الحالة.. هدأه الأخ صلاح وقال له: هناك ماهو أخطر من هذا: إن سيد سابق قادم الآن من عند عبد الناصر ليبلغ السندى بموافقته على الانقلاب داخل الإخوان وأنه لن يتدخل إلى أن يتم الأمر؛ لأن تدخله سوف يقلب الأمور، وأن التعاون مع عبد الناصر سيتم بعد نجاح الانقلاب.

السادسة: فى يوم المؤامرة أرسل المرشد العام الأخ سعيد رمضان إلى صلاح سالم وزير الإرشاد يرجوه عدم نشر هذه الأنباء فى الصحف. ووافق صلاح سالم إلا أن عبد الناصر قال له: إن الصحف حرة فيما تكتب ولا نتدخل فى شئونها للتأثير عليها.

ويبدو أن عبد الناصر خوفاً من أن يكون قد وصل إلى بعض الصحف من صلاح سالم مايمنعها من النشر سارع بدعوة الأستاذ أحمد أبو الفتح صاحب جريدة المصرى أوسع الصحف انتشاراً فى ذلك الوقت ليلقى إليه بنفسه هذه الأخبار بطريقته الخاصة لينشرها أحمد أبو الفتح.

وقد جاء فى صفحة ١٩٧ من كتاب «جمال عبد الناصر» لأحمد أبو الفتح يقول: إن عبد الناصر دعاه إلى منزله فى تلك الليلة حوالى الساعة التاسعة مساءً فوجد أنور السادات عنده وأثار عبد الناصر فجأة الكلام عن الإخوان المسلمين.. ثم دق جرس التليفون فلاحظ أحمد أبو الفتح أن المحادثة نقلت إليه أخباراً سارة أشاعت البهجة والفرح فى نفسه. وأنهى عبد الناصر المحادثة قائلاً «إن الفريق المعارض للهضيبى قد احتل المركز العام للإخوان وطرد من الدار أنصار الهضيبى وأعلنوا أنهم وحدهم الذين يمثلون الإخوان المسلمين، وأعلنوا أنهم أجبروا الهضيبى على الاستقالة من منصبه كمرشد عام.. وسمح عبد الناصر لأحمد أبو الفتح بنشر هذه التفاصيل.

السابعة: يقول الأخ سيد عيد: فى أثناء انتظارنا فى ذلك المساء قرب منزل المرشد العام التقينا بالأخ الأستاذ سيد قطب وكان غاضباً ويردد: يافرحة الصهيونية والصليبية العالمية.

يقول الأخ سيد عيد: وعندما أتيحت لى فرصة للالتقاء بالأستاذ سيد قطب فى السجن سألته: مادخل الصهيونية والصليبية العالمية بخلاف داخلى بين الإخوان؟

فقال لى: لقد اتصل بى الأستاذ على أمين فى الساعة الثانية ظهر يوم الحادث وقال لى: أين حاسة الصحفى عندك؟.. الإخوان قايمين على بعض بالسلاح وانت قاعد فى البيت؟!

فقمت فى الحال وأخذت سيارة تاكسى وذهبت إلى بيت المرشد فلم أجد شيئاً غير عادى.. وذهبت إلى المركز العام فلم أجد شيئاً ملفتاً للنظر كذلك.. ثم تحدث بعدها كل الأمور التى حدثت.. هذا ماجعلنى أقطع بأن الأمر مدبر من أكثر من جهة.

وبعد أن أوردت هذه الملاحظات ذات الدلالة، ووضعتها بين يدى القراء **ليستنتجوا** منها مايشاءون ــ يجدر بى أن أذكر أن هذه الخطة ظلت مسيطرة أمسية ذلك اليوم، وهزيعاً من الليل.. حتى أفاق بعض المخدوعين، وبتدخل من بعض الإخوان منهم الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل الذى لازم المعتصمين معظم الوقت..وبحسن تصرف الأخوين الكريمين الأستاذين صلاح العطار وسيد عيد اللذين ذكرنى دورهما فى هذه المؤامرة بدور الصحابى الجليل نعيم بن مسعود الذى كان أثيراً لدى اليهود.. وقد وكل إليه الرسول ﷺ فى غزوة الأحزاب أمر التخذيل عن المسلمين فكان عاملاً من أهم العوامل التى فككت الحلف بين اليهود والمشركين وأدت إلى فشل خطة الحصار المحكم حول المسلمين وغيرت بذلك وجه المعركة فصار فى صالح المسلمين.

أقول.. بهذه الجهود المخلصة أمكن إفشال الخطة وفض الاعتصام.. وكان الخبر وقد انتصف الليل قد وصل إلى أسماع بعض إخوان القاهرة؛ فخف فى الحال الأخ الأستاذ صلاح شادى رئيس قسم الوحدات فى ذلك الوقت ومعه مجموعة من إخوان الوحدات إلى دار المركز العام، ولم ينتظروا حتى يفتح لهم الباب، وتسلقوا السور ودخلوا المبنى، ولم يكن قد بقى أحد من المعتصمين سوى الثلاثة الكبار ومعهم الأخ صلاح العطار، وقد رفضوا الخروج ــ لاتمنعاً ولا تعنتاً كما رفضوا من قبل، وإنما رفضوا خوفاً على حياتهم.. فلما أَمِنُوا من هذه الناحية خرجوا.

الفصل الأول

فى أعقاب فشل المؤامرة الخسيسة

بعد عرض المؤامرة فى مجملها، يأتى ابتداءً من هذا الفصل دور بسطها بسطا يتناسب مع خطورتها وفداحة آثارها؛ ولما كان الرأى العام شاهداً عليها إذ نقلها المتآمرون إلى صفحات الجرائد فقد وجب أن نبدأ باستقراء صداها فى صحافة تلك الأيام فنرى من خلال ذلك تطور أحداثها.. ونبدأ فى ذلك من اليوم التالى للمؤامرة فتقول:

(١) وقعت هذه المؤامرة فى يوم الجمعة ٢٧/١١/١٩٥٣ — ونشرت الصحف — المصرى — فى صبيحة السبت ٢٨/١١ تحت عنوان: «انقسام خطير فى صفوف الإخوان المسلمين — بعض الأعضاء يحتلون المركز العام ويغلقونه».

«اتصل الأربعة المفصولون بأنصارهم، وفى الساعة الخامسة مساءً أمس ذهبوا ومعهم نحو خمسين عضواً إلى منزل الأستاذ الهضيبى طالبين استقالته فرفض. فذهبوا إلى دار المركز العام — وكان اليوم يوم جمعة، والمركز هادىء تماماً — ففتحوه بالقوة واحتلوه، ونادوا بالسيد سابق مرشداً وصالح عشماوى وكيلاً؛ حيث كانا معهم فى المظاهرة، وأعلنوا مبايعتهما. ووصلت الأنباء إلى الأستاذ عبد الحكيم عابدين فذهب إلى المركز العام وبصحبته الشيخ محمد فرغلى وعمر الأميرى، وحاولوا تهدئة الموجودين الذين أصروا على أن يطلعوا على أسباب فصل الأربعة، فرفض هؤلاء الإدلاء بشىء واتصلوا بالأساتذة عبد القادر عوده وعبد الرحمن البنا وعبده قاسم الذين حضروا وحاولوا محاولة أخرى مع المتظاهرين».

(٢) وفى نفس اليوم نشرت المصرى بياناً من صالح عشماوى وأحمد عبد العزيز جلال ومحمد الغزالى ومحمد سليمان هذا نصه:

«فوجىء الإخوان والرأى العام بقرار أصدره مكتب الإرشاد العام حرص على نشره فى جميع الصحف صباح الاثنين الماضى يقضى بفصل أربعة من أعضاء الجماعة دون أن يجرى معهم أى تحقيق أو توجه إليهم أية تهمة، ودون إبداء الأسباب التى أدت إلى اتخاذ هذا القرار الخطير.. وقد نتج عن ذلك بلبلة فى نفوس الإخوان، واضطراب فى صفوفهم، وانتظروا إلى يوم الثلاثاء الماضى، وسأل بعضهم المرشد العام عن أسباب الفصل فرفض أن

يدلى بالأسباب، وأكد أن المكتب يصدر قراراته، وليس لأحد أن يسأله عما يفعل.

ثم تطورت الأمور تطوراً سريعاً مساء الجمعة (أمس) إذ تجمع عدد كبير من الإخوان وطالبوا المرشد بإعادة النظر فى قرار المكتب الذى يجمع بين طابع الاستبداد والتحدى، ولكن فضيلته أعلن استقالته على الملأ. ثم تجمع الإخوان فى المركز العام من مختلف الشعب وتدارسوا الأمر حتى ساعة متأخرة من الليل، واستقر رأيهم على:

أولاًــ اعتبار الإخوان عبد الرحمن السندى وأحمد زكى ومحمود الصباغ وأحمد عادل كمال موقوفين إلى أن تحدد موقفهم لجنة خاصة تعرض تقريرها على الهيئة التأسيسية.

ثانياًــ اعتبار مكتب الإرشاد موقوفاً حتى تبت الهيئة فى مصيره.

ثالثاًــ تأليف هيئة لتصريف شئون الدعوة وإدارة المركز العام لحين اجتماع الهيئة التأسيسية ــ تتكون من: الدكتور محمد سليمان والأستاذ محمد الغزالى والأستاذ أحمد عبد العزيز جلال والأستاذ صالح عشماوى.

(٣) وفى نفس اليوم نشرت الصحف ما يأتى:

فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل جاءنا البيان التالى من مكتب الإرشاد العام المجتمع فى منزل المرشد:

«علم مكتب الإرشاد العام الليلة أن نفراً من الشباب اجتمعوا فى دار المركز العام فى عطلته الأسبوعية وبحثوا فى جو من الشغب بعض قرارات المكتب.

وإن مكتب الإرشاد العام للإخوان المسلمين يستنكر هذا العبث الذى تأباه طبيعة الدعوة ونظام الإخوان وآداب الإسلام. وهو إذ ينصح هؤلاء الشباب بأن يثوبوا إلى الحق، ويأخذوا أنفسهم بنظام دعوتهم؛ يدعو الإخوان كافة أن يتلقوا هذه المحاولة العابثة وكل ما يذاع عنها؛ بما ألفوا أن يواجهوا به كل تقول على الدعوة، ومحاولة للتفرقة؛ من الثقة بتأييد الله ووحدة الصف؛ مطمئنين إلى أن للإخوان من نظمهم وسلامة أوضاعهم ما يضمن وحدتهم والله أكبر ولله الحمد».

ثم قال الأستاذ عبد الحكيم عابدين: «إن مكتب الإرشاد فى سبيله لتصفية الموقف، ونفى استقالة المرشد العام».

(٤) تخلل هذه الأحداث مأدبة عشاء أقامها المرشد العام فى منزله لأعضاء مجلس الثورة، حضرها جمال عبد الناصر وزكريا محيى الدين وعبد الحكيم عامر وعبد اللطيف البغدادى وكمال الدين حسين ــ ونشرت الصحف هذا النبأ وقالت: إن الضيوف تناولوا طعام العشاء، وظلوا يتحدثون مع المرشد العام ومع أعضاء مكتب الإرشاد حتى منتصف

الليل... ونشرت الصحف صورة لجمال عبد الناصر والمرشد العام يتصافحان.

(٥) فى ٥٣/١١/٢٩ أى فى اليوم التالى وهو يوم الأحد نشرت الصحف — المصرى — مايلى:

«حضرت وفود ضخمة من مختلف شعب القطر إلى المركز العام — وكان المتظاهرون قد انفضوا قبل الساعة الرابعة من صباح السبت، ولم يبق إلا صالح عشماوى وأحمد عبد العزيز جلال اللذان غادرا المركز العام حين حضرت الوفود. وبلغ المصرى» أن عبد العزيز كامل كان ممن حاولوا التوفيق بين الفريقين.

وكان مكتب الإرشاد قد قرر الاجتماع بالمركز العام الساعة الثانية بعد الظهر — وقبل الاجتماع كان قد حضر الطرفان، فخطب عبد الحكيم عابدين مؤيداً المرشد، ثم تلاه الأساتذة سيد قطب رئيس قسم نشر الدعوة، وحسن دوح عن الطلبة. وعز الدين إبراهيم عن مكتب إدارى القاهرة وسعيد رمضان والدكتور خميس ثم تكلم المرشد فقال:

«إننى لأملك فى هذا المجال التعبير عما يجول فى نفسى ولا عما يجول فى نفوسكم. ولعل هذا الاجتماع خير دليل نقدمه على أن الإخوان لايزالون قوة متحدة.. ثم قال: وإذا كان الذين فصلوا يطلبون منا دليلاً على إدانتهم، فإن الدليل الذى قدموه أمس كان كافياً. وإذا كنا قد سكتنا عنهم وأبينا أن نتكلم فى أخطائهم فإن ذلك كان ترفقاً بهم.. وختم كلامه قائلاً:

««إن الإخوان الذين زارونى أمس دون إذن منى أعلن أنى قد سامحتهم. أما الذين أخطأوا فى حق الدعوة فليس لها أن تتسامح فى أخطاء تمسها».

ثم بدأ مكتب الإرشاد اجتماعه بالتحقيق فى حادث الأمس، والاستماع إلى من كانوا بالمركز العام ومنهم صالح عشماوى وعبد العزيز جلال ومن أرسلهم المكتب للتفاهم وهم عبد القادر عوده وعبد الحفيظ الصيفى وعبد العزيز كامل — ثم أذاع المرشد العام البيان التالى إلى رؤساء المكاتب الإدارية الذين كانوا بالمركز العام واجتمع بهم:

«أرجو أن تبلغوا جميع الإخوان فى محيط المكتب الإدارى أن مكتب الإرشاد العام قرر بجلسته العادية المنعقدة فى مساء يوم الأحد ١٥ ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق ٢٢ نوفمبر ١٩٥٣ فصل السادة أحمد زكى حسن وأحمد عادل كمال وعبد الرحمن السندى ومحمود الصباغ .

ولقد صدر هذا القرار بعد الاستماع إلى البيانات المتعددة التى عرضت على المكتب عن أخطائهم المتلاحقة فى حق الدعوة والجماعة خلال العامين الماضيين، والتى ثبت منها أنهم سلكوا مسلكا لايتفق وأغراض الجماعة وأنهم نقضوا البيعة وخرجوا على الدعوة.

ولما كان مكتب الإرشاد وهو الجهة المهيمنة على دعوة الإخوان المسلمين، ويحمل أمانتها؛ فليس للإخوان أن يسترسلوا فى السؤال عن تفاصيل أسباب هذا القرار. كما يأمل المكتب الذى اتخذ هذا القرار ـــ لصالح الدعوة المحض ـــ أن يكتفى الإخوان بالعلم به، وتنفيذ مقتضاه بكل دقة، وأن لايجعل هذا القرار موضع بحث أو مناقشة بينهم بأية حال من الأحوال ـــ وليعكفوا على دعوتهم وينشطوا فى أداء تبعاتهم فى مراقبة الله والإقبال على طاعته حرصاً على الآخرة.»

وقد سأل مندوب «المصرى» الأستاذ عبد الحكيم عابدين والشيخ محمد فرغلى عما إذا كان المكتب قد اتخذ قرارات فقررا أنه لم يتخذ ولا تزال الجلسة مستمرة فى يوم تال.. كما علم مندوب «المصرى» أن محمد مالك لم يكن ضمن المجموعة التى تظاهرت فى منزل المرشد مع أنه تربطه رابطة مصاهرة مع أحد المفصولين وهو أحمد زكى.. وجاء «للمصرى» بيان تأييد للأستاذ المرشد من طلبة جامعة الإسكندرية.

(٦) فى نفس اليوم نشرت الصحف ـــ المصرى ـــ بياناً جاءها من صالح عشماوى وزملائه الثلاثة هذا نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم. إن حرصنا على سلامة الدعوة ووحدة الجماعة هو ماحدا بنا إلى التدخل بين الإخوان لتقريب وجهات النظر وحسم النزاع، ودفع الأمور لتأخذ مجراها الصحيح.. أما وقد اتفقت الآراء على تأليف لجنة يحتكم إليها الإخوان المتظلمون، فإننا نرجو أن تجتاز الدعوة هذه المرحلة بسلام. وما زلنا عند موقفنا فى تحرى الحق وإقرار العدل والعمل على إصلاح ذات البين. ونحن نهيب بالإخوان أن يقدروا الموقف، وأن يرعوا مسئولياتهم ومصلحة الدعوة قبل كل شيء والله المستعان.

(٧) فى اليوم التالى وهو ٣٠/١١/٥٣ نشرت الصحف البيان التالى:

استأنف مكتب الإرشاد اجتماعه مساء أمس حتى الواحدة صباح اليوم. وأذاع الأستاذ عبد الحكيم عابدين على الصحفيين هذه القرارات وهى:

أولاً: وقف كل من الأستاذين صالح عشماوى ومحمد الغزالى عضوى الهيئة التأسيسية وإحالتهما إلى لجنة تحقيق العضوية للفصل فى أمرهما.

ثانياً: وقف الشيخ سيد سابق وإحالته إلى اللجنة التى أمر المكتب بتشكيلها فيما نسب إليه.

ثالثاً: إحالة الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال إلى لجنة تحقيق العضوية للفصل فيما نسب إليه.

رابعاً: اعتبار موقف الدكتور محمد سليمان منتهياً بالبيان الذى كتبه وقرر فيه ثقته بالمرشد العام واستنكاره لموقف الخارجين على الجماعة.

وقد سأل مندوب «المصرى» الأستاذ عبد الحكيم عابدين عن الحكمة فى التفريق بين الذين تقرر وقفهم فى قرار المكتب؟ فقال: لأن الأولين عضوان فى الهيئة التأسيسية أما السيد سابق فليس عضوا فيها.

(٨) فى نفس اليوم نشرت الصحف ـــ المصرى ـــ البيان التالى من صالح عشماوى وزملائه:

بسم الله الرحمن الرحيم ـــ نعتقد أن من حق الإخوان المسلمين جميعاً معرفة الحقيقة المجردة عن الأحداث المؤسفة.. لقد أبرأنا ذمتنا، وقمنا بالحق المفروض علينا؛ عندما تدخلنا مسرعين لتهدئة النفوس وإنقاذ الدعوة من الخطر بعد تطور الأمور هذا التطور الخطير الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ الدعوة؛ نتيجة لتصرفات مكتب الإرشاد التى ثبت من الأحداث أنها لم تبن على أساس من التحرى الدقيق وتبين الأمور. ولكن المسعى الذى بذلناه لم يلق التقدير الذى يستحق من بعض أعضاء المكتب، الذين ظلوا بعيدين عن مواجهة الموقف، حتى بعد أن استدعيناهم لحسم الأمور؛ بحجة أن قراراتهم لاتناقش وأن حكمهم لامعقب عليه ـــ وعلم الله أنه لولا مواجهتنا للإخوان الذين لجأوا للمركز العام بعد أن تخلى عن هذه المواجهة أعضاء المكتب ـــ وهى مسئوليتهم الأولى ـــ ولولا مابذلناه من جهود لتهدئة الحالة لحدثت مآس تضيق بها ضمائر المؤمنين.

وكان ممن عاون على تهدئة الحالة، واشترك فى مواجهة الموقف الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل الذى وعد الإخوان بحل المشكلة كما يأمل وكما يأملون هم، من توحيد صفوف الجماعة، وتصحيح أى وضع خاطىء، متعهداً بالقيام بهذا العمل ـــ ثم انصرف الإخوان بعد أن تركوا الأمانة فى أعناق إخوانهم أعضاء الهيئة التأسيسية، الذين واجهوا الموقف وتحملوا تبعاته كاملة ـــ وفى الوقت الذى كان يعالج فيه الموقف فى المركز العام توجه الإخوان محمد سليمان وطاهر الخشاب وعبد القادر عوده ومحمد الغزالى وعبد العزيز جلال لمنزل المرشد لإطلاعه على الحقائق وبحث الموقف، ولكنه لم يكنْ للأسف موجوداً فى ذلك الوقت ـــ وفى اليوم التالى ـــ السبت ـــ تطورت الأمور كالتالى:

١ ـــ دعانى البكباشى جمال عبد الناصر إلى منزله فتوجه عن اللجنة الأستاذ صالح عشماوى ومعه الشيخ سيد سابق حيث وجدا البكباشى زكريا محيى الدين وزير الداخلية والصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد والشيخ محمد فرغلى مندوباً عن مكتب الإرشاد. ثم بحث الموقف برمته فى هذا الاجتماع. واتفق على تكوين لجنة للتحقيق مع الإخوان المفصولين وتحديد موقفهم، وعلى تهدئة الخواطر فى الاجتماع الذى يعقد بعد العصر فى المركز العام.

٢ ـــ وفى الوقت نفسه اتصل بنا الأستاذ عبد العزيز كامل وأبلغنا أنه أفلح فى إقناع

أعضاء المكتب للموافقة على تكوين لجنة للتحقيق.

٣ــ وعلى هذا حضرنا الحفل المذكور للمساعدة فى تهدئة النفوس، فى الوقت الذى كان فيه بعض خطباء الحفل يحاولون زيادة الفتنة اشتعالاً.

٤ــ وقد اجتمع منا الأخوان محمد الغزالى وأحمد عبد العزيز جلال مع أعضاء المكتب وشرحا لهم خطورة التهاون فى معالجة الموقف وضرورة سرعة البت فى الأمور.

٥ــ وفى ساعة متأخرة من الليل اتصل خمسة من أعضاء المكتب هم: الدكتور خميس حميدة والأساتذة عمر التلمسانى وعبد الرحمن البنا وعبد القادر عوده والسيد محمد حامد أبو النصر وأبلغونا أنهم وافقوا على تأليف لجنة للتحقيق.

٦ــ على هذا الأساس نشر بيان الأمس وفيه ذكرنا تكوين لجنة التحقيق، ولكننا فوجئنا فى الصباح بقرار بوقف ٢١ عضواً وتأليف لجنة للتحقيق لامع الإخوان المفصولين حسب الاتفاق ولكن مع الإخوان الذين احتجوا على قرار الفصل.. وأعجب من ذلك أن ينشر تصريح للأستاذ عبد الحكيم عابدين بأن التحقيق لايزال جارياً معنا بواسطة مكتب الإرشاد، مع أن هذا لم يحدث إطلاقاً، ولا يجوز بنص قانون الجماعة الذى يجعل المكتب مسئولاً أمام الهيئة التأسيسية لاالعكس. ونحن ماضون فى خدمة الدعوة وفق تعاليم الإسلام وآدابه لاتصرفنا عن هذه الوجهة الكريمة أى تصرفات، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون.

يقول صاحب المذكرات:

على السادة القراء أن يلاحظوا أن الإخوان بلجوئهم إلى جمال عبد الناصر هذه المرة إنما حاولوا معالجة الأحداث من منبعها.

(٩) وفى ١/١٢/٥٣ وهو اليوم التالى نشرت الصحف نداءً من المرشد العام إلى جميع الإخوان هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم» ﴿قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾.

أيها الإخوان. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فيسرنى أن أبلغكم صادق تقديرى وخالص إعجابى بما أبديتم من الغيرة على دعوتكم، والوفاء لبيعتكم، والصدق والمحافظة على وحدة صفوفكم؛ سواء فى الحشد الجامع الذى زخرت به دار المركز العام يوم السبت أو فى الوفود التى تلاحقت من كافة الشعب والأقاليم إلى الدار تزيدنى ثقة بإخلاصكم، واطمئناناً إلى قوة إيمانكم. كما أهنئكم بما وفقتم إليه من ضبط ومتانة الخلق حتى مرت هذه النبوة بسلام والحمد لله.

وإنه لمن فضل الله على الدعوة، وأصالة الخير فى نفوس أبنائها؛ أن كثيراً من الشباب الذين ألموا بهذه الزلة، أظهروا الندم والتوبة؛ حتى لقد فرض بعضهم على نفسه عقوبات يتطهر بها من أثر مااقترفوا ، وأقبلوا يعبرون عن بالغ أسفهم لما فرط منهم، مستغفرين الله تعالى، معتذرين إلى الإخوان ومجددين العهد.

ولقد أعلنت من قبل أنى سامحتهم، وأحب أن يكون لذلك صداه فى نفوس الإخوان كافة فلا يغلظوا للمخطئين القول، ولا يعاملوهم بجفوة؛ وإنما يحسنون النظر إليهم، ويسعونهم بسماحة الأخوة، حتى يستأنس الإخوان بإخوانهم، وتمهد العواطف الكريمه السبيل إلى حسن التفاهم، وإحلال الأخوة النبيلة محل الإعراض والتنافر .. وهذا مالا يليق بأصحاب الدعوة التى تقوم على تربية الفضائل فى النفوس، وتدعيم المثل العليا فى الناس **﴿ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير﴾**.

يقول صاحب المذكرات: ينبغى أن يلاحظ القارىء أن كلمة المرشد العام هذه مقصود بها الإخوان الذين غرر بهم رءوس الفتنة، والذين قرر المكتب فصل واحد وعشرين منهم .. وقد تنبه هؤلاء أخيراً إلى أن الحقائق قد زيفت عليهم فتابوا وندموا ــ أما رءوس الفتنة فإنهم ظلوا سادرين فى غيهم. ولذا فإنهم غير مقصودين بهذه الكلمة.

* * *

الفصل الثانى

التحقيق
مع الثلاثة الكبار الموقوفين

(١٠) أحال مكتب الإرشاد العام إلى لجنة تحقيق العضوية السادة صالح عشماوى وأحمد عبد العزيز جلال ومحمد الغزالى أعضاء الهيئة التأسيسية للتحقيق معهم، بكتاب تضمن الاتهامات الموجهة إليهم.

(١١) اجتمعت لجنة تحقيق العضوية لمناقشة كتاب مكتب الإرشاد ودراسته وتحديد الخطوات التى تتبع لإجراء التحقيق فكان أول شيء واجه اللجنة أن الأخ عبد العزيز كامل رئيس اللجنة قال إنه يتنحى عن الاشتراك فى هذا التحقيق بدعوى أنه كان ممن حاولوا الإصلاح بين الطرفين وهذا يحجبه عن أن يكون محققاً فيما هو منسوب لأحد الطرفين. وقد حاولت أن أقنعه بأن ذلك لايطعن فى تحقيقه؛ إلا أنه أصر على رأيه، ثم حاولت أن أقنعه بأن يشترك فى التحقيق على أنه مجرد عضو باللجنة فرفض هذا أيضاً. وقد ذهب بعض الإخوان فى تعليل هذا الموقف فى ذلك الوقت بعض المذاهب.

كما أن اللجنة استبعدت أحد أعضائها وهو الشيخ محمد الغزالى حتى يتم التحقيق معه وأجرت انتخاب رئيس آخر وقد وقع اختيارهم علىّ.

(١٢) قامت اللجنة بالتحقيق فى الموضوع، وأصدرت قرارها الذى نشر بالصحف فى أبرز مكان وهذا هو نص مانشر يوم ١٠/١٢/١٩٥٣:

إزالة صفة العضوية من الإخوان المسلمين
عن صالح عشماوى والغزالى وأحمد عبد العزيز
تطبيق ٣ مواد ـــ جواز استئناف القرار ـــ رد صالح عشماوى

عقدت لجنة العضوية لجمعية الإخوان المسلمين اجتماعاً مساء أمس قررت فى نهايته بالإجماع إزالة صفة العضوية عن الأساتذة صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد عبد

العزيز جلال. وكان مكتب الإرشاد مجتمعاً عند صدور هذا القرار وقد عرض عليه فاعتمده.

حيثيات القرار: وقد قالت لجنة العضوية فى حيثيات قرارها مايلى:

عمدتنا من القانون فى هذا التطبيق المواد الثلاث الآتية:

المادة ٤ ــ عضو الهيئة هو كل مسلم عرف مقاصد الدعوة ووسائلها، وتعهد بأن يناصرها ويحترم نظامها، وينهض بواجبات عضويتها، ويعمل على تحقيق أغراضها، ثم وافقت إدارة الشعبة التى ينتمى إليها على قبوله وبايع على ذلك وأقسم عليه ونص البيعة «أعاهد الله العلى العظيم على التمسك بدعوة الإخوان المسلمين والجهاد فى سبيلها والقيام بشرائط عضويتها، والثقة التامة بقيادتها، والسمع والطاعة فى المنشط والمكره، وأقسم بالله العظيم على ذلك وأبايع عليه والله على ماأقول وكيل».

المادة ٣٦ ــ لهذه الهيئة «التأسيسية» أن تقرر فى أى اجتماع منح بعض الإخوان حق العضوية للهيئة التأسيسية بشرط أن تتوفر فيمن يراد منحه إياها هذه الشروط:

أ ــ أن يكون من الأعضاء المثبتين.

ب ــ أن لاتقل سنه عن ٢٥ سنة هلالية.

ج ــ أن يكون قد مضى على اتصاله بالدعوة خمس سنوات على الأقل.

د ــ أن يكون متصفاً بالصفات الخلقية والثقافية والعملية التى تؤهله لذلك.

المادة ٣٩ ــ تزول صفة العضوية عن عضو الهيئة التأسيسية بالاستعفاء، وبفقدانه أحد الشروط التى تؤهله للعضوية، أو بقرار من اللجنة المنصوص عليها فى المادة ٣٧ بالشروط الواردة فيها أو بقرار من الهيئة نفسها.. وفى كل الأحوال يجوز للمرشد العام أن يأمر بوقف العضو على أن يعرض أمره فوراً على الهيئة المختصة بالنظر فى أمره.

* * *

واللجنة بعد أن ناقشت قرار الاتهام على ضوء مااقتنعت به من أدلة مادية وقرائن مضيئة، تستخلص أن المدعى عليهم قد ارتكبوا الأخطاء الآتية:

أولاً ــ أنهم اعتصموا فى دار المركز العام، وظاهروا الشباب المعتصمين وجرءوهم على ذلك؛ وبذلك حرضوا على الخروج على القانون.

ثانياً ــ أنهم ادعوا كذباً أن المرشد العام أعلن استقالته على الملأ.

ثالثاً ــ أنهم أصدروا قرارات لايخولهم إياها قانون الإخوان المسلمين؛ حيث وقفوا مكتب الإرشاد، وألغوا قرار المكتب بفصل الأربعة وبذلك يكونون قد خرجوا على القانون ونقضوا العهد ونكثوا البيعة.

رابعاً ـــ أنهم افتاتوا على هيئة الإخوان المسلمين بتنصيبهم أنفسهم أوصياء عليها دون الرجوع إليها أو أخذ تفويض منها بذلك.

خامساً ـــ أنهم متصلون فى شئون الدعوة بأحد الأربعة الذين فصلوا خصوصاً ليلة الاعتصام وفى الأيام التالية وفى هذا خروج على قرار الفصل الذى أصدرته هيئة شرعية.

سادساً ـــ أنهم أساءوا سمعة الدعوة، وحطوا من كرامتها أمام الرأى العام الداخلى والخارجى باتخاذهم الصحف السيارة لنشر هذه القرارات.

وبناءً على ذلك قررت اللجنة بالإجماع إزالة صفة العضوية العامة فى الدعوة عن السادة صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد عبد العزيز جلال.

كما قررت اللجنة إحالة هذا القرار إلى فضيلة المرشد العام لاعتماده والله ولى التوفيق.

٣ من شهر ربيع الآخر ١٣٧٣	رئيس اللجنة	محمود عبد الحليم
٩/١٢/١٩٥٣	السكرتير	سعد الدين الوليلى

* * *

(١٣) وقد أرسلت لجنة العضوية بقرارها إلى المرشد العام. وكان المفروض أن يعتمده مباشرة إذا وافق عليه.. إلا أنه إمعاناً فى تلمس أسباب العدالة تنازل عن حقه هذا وعرضه على مكتب الإرشاد الذى كان مجتمعاً بكامل أعضائه فوافق عليه بالإجماع؛ وحينئذ وقعه المرشد العام..

وقد أرسل القرار إلى الثلاثة مبيناً فيه أن لهم الحق فى استئناف هذا القرار إلى الهيئة التأسيسية بطلب كتابى منهم يرسل إلى المرشد العام، الذى عليه أن يعرضه على مكتب الإرشاد أولاً ـــ ولكن المكتب فوض الأستاذ المرشد فى تلقى الطلب الكتابى وعرضه على الهيئة التأسيسية فى اجتماعها على وجه السرعة؛ تمكيناً لهم من تيسير إجراءات التقاضى والانتفاع بكل الفرص التى أعطاهم إياها قانون الإخوان.

(١٤) قدم الثلاثة طلباتهم. وبالرغم من أنهم لم يذكروا كلمة الاستئناف فى طلبهم وإصرار بعض أعضاء الهيئة التأسيسية على رفض الاستئناف شكلاً حيث قدموه على وجه خاطىء يتضمن المضى فى الخروج على أوضاع الجماعة؛ فقد رأى المرشد العام أن تعتبر الهيئة هذا الطلب الكتابى استئنافاً قانونياً وتنظر فيه.

(١٥) انعقدت جلسة الهيئة التأسيسية فى مساء يوم الخميس ١٠ ديسمبر ١٩٥٣ وأذن للثلاثة بالحضور. وقرأ رئيس لجنة العضوية قرار اللجنة وتقريرها التفصيلى الذى سنثبت نصه إن شاء الله بعد قليل ـــ ومكنت الهيئة بعد ذلك الثلاثة من أن يسردوا

قصتهم، ويشرحوا موقفهم ثلاث ساعات كاملة لم تعترضهم فى خلالها أدنى مقاطعة.

(١٦) بعد استيضاحات ومناقشات هادئة ظهر من روح الهيئة التأسيسية الإجماع على إدانتهم وإن بدت رغبات محدودة فى تمييز بعضهم عن بعض وفى الرأفة ببعضهم مع وجوب العقوبة.. وأخيراً أصدرت الهيئة قرارها بتأييد قرار لجنة العضوية بأغلبية ٩٢ صوتاً ضد ٢٣ كانت مخالفتهم منصبة على نوع العقوبة.

(١٧) فى أثناء شرح هؤلاء الإخوة لمواقفهم فى أثناء الجلسة، تناولنى بعضهم بألسنة حداد، لاسيما الأخ الشيخ محمد الغزالى — وقد طلب إلىّ بعض إخوان الهيئة أن أرد عليهم فى هذا الجانب الشخصى؛ ولكننى رفضت أن أرد قائلاً: إنهم فى موقف لايحسدون عليه، وأنا عاذرهم ومسامح ومقدر ماهم فيه من حرج.. وآمل أن يفيئوا إلى الصواب فى يوم من الأيام..

ولعل تسامحى هذا فى حقى الشخصى قد أثر فى نفس بعضهم؛ فبعد نحو ثلاثة أيام من هذه الجلسة كنت سائراً فى ميدان العتبة ظهراً، فإذا بى أفاجأ بمن يقبل نحوى ويلقى إلىّ بالتحية ويعانقنى معتذراً عما بدر منه فى أثناء الجلسة.. وكان هذا هو الأخ الشيخ محمد الغزالى الذى بادلته وداً بود وحباً بحب وكررت عليه ماقلته فى أثناء الجلسة من أن اختلاف الرأى لايفسد للود قضية.

* * *

ملاحظة هامة

ترجع أهمية هذه الملاحظة إلى أن أحداثاً بالغة الأهمية وقعت فيما بعد؛ وكانت هذه الملاحظة أصلاً للمحور الذى دارت عليه هذه الأحداث.

كان نشر هذا القرار مذيلاً باسمى فى الصحف مفاجأة لى.. لا لأنه كان معروفاً فى ذلك الوقت أن هذا القرار؛ الإدانة فيه ليست موجهة للثلاثة المذكورة أسماؤهم وإنما هى موجهة إلى الشخصية صاحبة السلطة التى وراءهم — وإنما كان مفاجأة لى وصدمة لأنى بطبيعتى التى نشأت عليها أوثر دائما أن أعمل مستخفياً خشية الافتتان وانتقاص الأجر والمثوبة، التى هى هدف كل مؤمن من العمل..

ولقد تحاشيت من قبل أسباب الظهور حين اعتذرت عن عضوية مكتب الإرشاد يوم عرضها علىّ المرشد العام الأستاذ الهضيبى.. ولكن شاءت إرادة الله أن يتخلى الأخ عبد العزيز كامل عن رياسة لجنة العضوية فى أحرج موقف وأعصب ظروف.. فتكون النتيجة

أن ينشر اسمى فى الصحف تحت أخطر قرار فى حينه، مع أننى أرسلت بالقرار بهذه الصورة الرسمية إلى المرشد العام وكان اعتقادى أن المرشد العام لن يرسله إلى الصحف بنصه كما وصله بل بملخص له يمليه على مندوبى الصحف بنفسه.

وأرجع فأكرر ماأشرت إليه أن هذه الملاحظة التى تبدو وكأنها مقحمة إقحاماً الآن حيث لايدعو المقام إلى إثارة مثل هذا الشعور وهذه الأحاسيس– إنما لفت النظر إليها تمهيداً فى ذهن القارىء لأحداث خطيرة قادمة.

* * *

الفصل الثالث

أضـــواء
على أحداث المؤامرة
فى التقرير الكامل للجنة العضوية

عقب جلسة الهيئة التأسيسية قام المركز العام ـ قسم نشر الدعوة ـ بطبع رسالة بعنوان : « حتى يعلم الإخوان ـ القول الفصل » فى نحو أربعين صفحة من القطع الصغير ، تضم قرار الاتهام الذى قدّم به مكتب الإرشاد الثلاثة المطلوب التحقيق معهم ، والتقرير التفصيلى للجنة تحقيق العضوية فى هذه القضية .

وكان الهدف من طبع هذه الرسالة وتوزيعها فيما يبدو إحاطة الإخوان فى مختلف البلاد علماً بالحقائق المفصلة لهذه الفتنة .. ونظراً لندرة وجود هذه الرسالة فى أيامنا هذه ، ولما تشتمل عليه من حقائق وأحداث تاريخية ذات دلالات على ماتلاها من أحداث .. رأيت أن أثبت فى هذا الفصل نص هذه الرسالة التى استعرتها من الأخ الكريم الأستاذ عباس السيسى .

إلى الإخوان المسلمين
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أيها الإخوان الفضلاء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. ولعلكم فى خير وعافية فى دينكم ودنياكم ، قائمين بالحق لايضركم من خالفكم حتى يأتى وعد الله وبعد :

فقد حملت إليكم الصحف بين الحين والحين أنباءً متفرقة عن تفاصيل الأحداث الأخيرة التي مرت بها الجماعة . وحرصاً منا على إيضاح الحقائق وطمأنينة القلوب ؛ فنحن نضع تحت أنظار الإخوان تطورات هذه الأحداث ، ونلحقها بقرار لجنة العضوية مصحوباً بالأسباب ، حتى يزداد المؤمنون إيماناً مع إيمانهم ولا يرتاب أحد من الإخوان .

أولاً: موقف مكتب الإرشاد

فوجيء الإخوان بما حدث من شغب فى المركز العام، وما صدر من بيان خلال هذا الشغب يحمل توقيعات الأساتذة صالح عشماوى وأحمد عبد العزيز جلال ومحمد الغزالى والدكتور محمد سليمان.

زاعمين أنهم غضبوا لأربعة من الإخوان فصلهم المكتب دون تحقيق مخالفاً بذلك — كما أرجفوا — قانون الجماعة ومبادىء الإسلام. وهم يعلمون كما يعلم المفصولون أن المكتب اتخذ قراره هذا فى حدود ماخوله القانون من اختصاص صريح فى مادته السابعة. كما يعلمون أن المكتب لم يلجأ إلى ذلك إلا بعد معاناة الدعوة ثلاث سنوات لأخطائهم التى كانت أداة تفرقة ومثار خلل فى الصفوف. وبعد أن فشلت جميع المحاولات التى اتخذها لإلزامهم نظم الجماعة وأوضاعها. ومع كل ذلك فقد تحرى المكتب صحة الأدلة دون أقل إخلال بواجب التبين والتحقيق. بل زاد أمر هؤلاء الأربعة رعاية واهتماماً فتلقى بالقبول أول ظلامة وردت من أحدهم فى اليوم التالى لقرار المكتب ووضعها موضع النظر، وكذلك الظلامة الثانية. ولم يكن ليأبى مثل هذه الرعاية سائر المفصولين لو تقدموا إليه متظلمين — ولا تزال اللجنة المشكلة من الأساتذة محمد فرغلى وعمر التلمسانى ومحمد حامد أبو النصر توالى بحث هذه الظلامات بجانب عملها فى تحقيق الأحداث الأخيرة وما أعقب من مسئوليات.

ورغم وضوح الخطأ وثبوت التبعة؛ فقد رأى مكتب الإرشاد أن يطيل الحبل ويفسح الصدر؛ فأوضح استعداده لأن يقيل هذه العثرة، مكتفياً بأن يصدر الموقعون على البيان بياناً آخر يدفعون فيه عن أنفسهم إثم الخروج على آداب الإسلام ونظام الجماعة — وما كاد الأخ الدكتور محمد سليمان يصدر بيانه فى هذا الصدد حتى قبل عذره، ولم يقدم للجنة العضوية اكتفاءً بهذا البيان.

كذلك لم يشأ مكتب الإرشاد أن يعامل الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال كما عامل زميليه، لأنه وعد بإصدار بيان يوضح فيه موقفه.

وهكذا لم يستعمل المرشد العام حقه فى إيقاف الخارجين على أنظمة الجماعة إلا فى أضيق نطاق، وهو الحق المخول له بمقتضى المادة ٣٩ من القانون الأساسى. ولم يستعمله إلا بعد الاستئناس برأى مكتب الإرشاد العام.

ولم يكن مناص من تحويل المخطئين، من أوقف منهم لإصراره، ومن لم يوقف اعتماداً على إبداء رغبته فى تصحيح موقفه وحملاً لأمره على أحسن الوجوه — إحالة هؤلاء جميعاً للجنة العضوية لتتولى تحقيق القضية.

ثانياً: لجنة العضوية

ولجنة العضوية كما تعلمون المشكلة بمقتضى المادة ٣٧ من القانون الأساسى، والمختارة من بين أعضاء الهيئة التأسيسية وتنتخبها الهيئة كما تنتخب مكتب الإرشاد، فهى لجنة مستقلة لاولاية للمكتب عليها، وهى المختصة بمحاكمة أعضاء الهيئة التأسيسية بمقتضى المادة ٣٧ نفسها.

وقد أحال المكتب إليها الأمر مبيناً وجهة نظره، ومستعداً لتقبل قضائها فى هذا الأمر. ولكن الموقعين على البيان رفضوا أن يتحاكموا إلى اللجنة، زاعمين فى بيان نشروه بالصحف أن مكتب الإرشاد الذى أحالهم إليها يعتبر طرف خصومة، مدعين فى مكابرة عجيبة أنه لايملك الفصل فى القضية على هذا الوجه إلا الهيئة التأسيسية ولو أخذ بما زعموا لأدى هذا إلى إبطال عمل لجنة العضوية؛ لأن هذه اللجنة لاتحقق إلا مايحال إليها من المكتب، وبذلك لايملك المكتب أن يؤدى أمانته فى إحالة مايراه للتحقيق، ولا تملك اللجنة أن تباشر اختصاصها فى التحقيق على نحو ماأشارت إليه فى تقريرها الفياض وبعد أن استمعت إلى شهادة الشهود ومنهم الأستاذ عبد العزيز كامل والأستاذ الشيخ محمد فرغلى. ولذلك مضت اللجنة فى عملها فرأت أن التهمة بالنسبة لهؤلاء ثابتة، والأدلة قائمة. وقد أصدرت حكمها بعد أن يسرت لهم كل أسباب الدفاع عن أنفسهم فأبوا إلا الرفض والإعراض، وهو مرفق بهذا مع أسبابه وحيثياته.. وقد شاء فضيلة المرشد العام أن لايستعمل حقه المقرر فى القانون باعتماد هذا القرار إلا بعد الاستئناس برأى مكتب الإرشاد. وقد انعقد المكتب وحضر الجلسة جميع أعضائه ماعدا الأستاذ الشيخ عبد المعز عبد الستار لغيابه فى الحجاز. أما الحاضرون وعددهم اثنا عشر عضوا فهم الإخوان الأساتذة محمد خميس والبهى الخولى ومحمد فرغلى ومحمد حامد أبو النصر وأحمد شريت وحسين كمال الدين وكمال خليفة وعبد الرحمن البنا وعمر التلمسانى وعبد القادر عوده وعبد العزيز عطية وعبد الحكيم عابدين.

وقد قرىء عليه تقرير لجنة العضوية القاضى بإزالة صفة العضوية فى الدعوة عن ثلاثتهم وطلب فضيلة المرشد العام رأيهم فى اعتماده فوافقوا بالإجماع عليه، وعندئذ وقع فضيلته باعتماد القرار.

وقد بالغ المكتب فى إعطائهم كل فرصة للدفاع عن أنفسهم فعرض فضيلة المرشد العام أن يعرض أى استئناف يقدم منهم على الهيئة التأسيسية فى اجتماعها القادم دون رجوع إلى المكتب، وأبلغهم السكرتير العام ذلك مع قرار اللجنة المعتمد فى مساء الأربعاء السابق لجلسة الهيئة التأسيسية ليوجه نظرهم إلى حقهم فى الاستئناف أمامها.

ثالثاً: الاستئناف للهيئة التأسيسية

ثم كان أن عقد اجتماع الهيئة التأسيسية الذى كان مقرراً عقده منذ الجلسة الماضية لاستكمال بعض ماورد فى جدول أعمالها مما لم يتسع له الوقت. ورأى هؤلاء الثلاثة أن يتقدموا للهيئة التأسيسية يطلبون عرض الأمر عليها. وهنا نسجل للإخوان الحقائق الآتية:

١ ــ أن مكتب الإرشاد قرر تفويض المرشد العام فى تلقى الطلب الكتابى من هؤلاء المفصولين وعرضه على الهيئة فى اجتماعها على وجه السرعة دون الحاجة إلى نظر هذا الطلب أمام المكتب مجتمعاً فى جلسة قانونية طبقاً للمادة ٣٧ من القانون؛ تمكيناً لهؤلاء من تيسير إجراءات التقاضى، والانتفاع بكل الفرص التى أعطاهم إياها قانون الإخوان.

٢ ــ ورغم أنهم لم يذكروا كلمة الاستئناف فى طلبهم وإصرار بعض أعضاء الهيئة التأسيسية على رفض الاستئناف شكلاً لتقديمه على وجه خاطىء يتضمن المضى فى الخروج على أوضاع الجماعة؛ فقد رأى المرشد العام أن تعتبر الهيئة هذا الطلب الكتابى استئنافاً قانونياً وتنظر فيه.

٣ ــ وهكذا أذن لهم بالحضور، ومكنتهم الهيئة أن يسردوا موقفهم ثلاث ساعات كاملة لم يجدوا خلالها أدنى معارضة أو مقاطعة.

٤ ــ وبعد استيضاحات ومناقشات هادئة ظهر من روح الهيئة التأسيسية الإجماع على إدانتهم، وإن بدت رغبات محددة فى تمييز بعضهم عن بعض وفى الرأفة ببعضهم مع وجوب العقوبة ــ وأخيراً أصدرت الهيئة التأسيسية قرارها بتأييد قرار لجنة العضوية بأغلبية ٩٢ صوتاً ضد ٢٣ كانت مخالفتهم منصبة على نوع العقوبة.

أيها الإخوة الفضلاء:

هذه هى صحائف تلك الأحداث جلية واضحة؛ لتتبينوا مدى الدقة والأمانة اللتين تحراهما فضيلة المرشد العام ومكتب الإرشاد فى تطبيق قانوننا الأساسى، بل مافوق الدقة من سماحة فى بعض الأحيان، رغم ماأبداه هؤلاء من جنوح عن النظام أولاً وأخيراً .

ونحن نختم هذا البيان بما صرح به فضيلة المرشد العام غداة نشر القرار وتعقيباً على رد هؤلاء.. عليه حيث قال:

«إن الإخوان المسلمين كانوا ولا زالوا صفاً واحداً، ولا يستطيعون أن يعملوا إلا وهذا شأنهم. وينبغى أن يأخذ كل أخ مسلم نفسه بهذا المعنى، ويروضها على احترام أنظمة الجماعة ومقرراتها ــ فإذا خرج أى إنسان على ذلك علمنا أنه لايستطيع أن يلائم بين نفسه وبين هذه الأنظمة، واضطررنا إلى اقصائه. عنا، داعين له بحسن التوفيق فى خدمة الإسلام والمسلمين.

وهذا هو شأن إخواننا الذين أزيلت عنهم عضوية الجماعة، وفيما عدا هذا المعنى الذى أسلفنا فليس لنا بهم شأن، لانطعن على إيمانهم ولا على سلوكهم. والله يتولانا جميعاً بالمعونة والسداد».

وإننا لنرجو أن تحيطوا علماً بهذه التفاصيل، وأن تذيعوها مع قرار لجنة تحقيق العضوية بأسبابه على كافة الإخوان، تمكيناً لهم من فهم الحقائق، ووقاية من الاستماع إلى أقوال أو بيانات تخالف الحق وتند عن الصدق والأمانة.

كما نرجو أن يكتفى الإخوان من الموقف بالعلم بهذه الحقائق، وأن لايجعلوها فيما بينهم محل جدل أو نقاش.. وأن يجعلوا موقفهم وحديثهم عمن أعفتهم الهيئة من عضوية فى حدود الأدب الكامل والسماحة الإسلامية التى تمثلت فى تصريح المرشد العام. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

السكرتير العام

عبد الحكيم عابدين

من مكتب الإرشاد **إلى لجنة العضوية**

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخ الكريم رئيس لجنة تحقيق العضوية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

تنفيذاً لقرار مكتب الإرشاد العام بتاريخ ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٣ والموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٥٣؛ نحيل إليكم الأساتذة صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد عبد العزيز جلال، للفصل فى أمرهم، مع العلم بأن المكتب وقف الأول والثانى.

أما التهم التى من أجلها أحيلوا للجنة؛ من وقف منهم ومن لم يوقف فهى:

أولاً: أنهم ظاهروا فكرة التمرد على النظم والأوضاع بوقوفهم إلى جانب الشبان المتمردين على المرشد العام ومكتب الإرشاد واعتصامهم معهم فى دار المركز العام مساء يوم الجمعة بتاريخ ٢٠ من ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق ٢٧ ديسمبر ١٩٥٣.

ثانياً: أنهم أكدوا وقوفهم أنصاراً لهذا التمرد بل زادوه اندفاعاً وأغروهم بالاسترسال إلى أسوأ الحدود، ببيانهم الذى نشرته الصحف صباح السبت وما فيه من الإرجاف بالدعوة والافتراء على قيادتها، بما زعموا من أن المرشد العام أعلن استقالته على الملأ، وبما اصطنعوا لأنفسهم من حقوق ليست لهم فى:

أ ــ إلغاء قرار مكتب الإرشاد السابق صدوره بفصل أربعة من أعضاء الجماعة.

ب ــ ادعاء وقف مكتب الإرشاد العام. مع أن هذا الحق لاتملكه أية سلطة فى الدعوة، فضلاً عن أفراد من أعضاء الهيئة التأسيسية ليست لهم أية صفة فى وقف عضو واحد فى أية شعبة من شعب الإخوان.

ثالثاً: أنهم أسفروا عما فى نفوسهم من أهواء ومآرب شخصية بما اجترأوا عليه من إعلان أنفسهم أوصياء على الجماعة، وقوّاماً على شئون الدعوة حيث لاأثارة من صفة تخولهم مايدعون.

رابعاً: أنهم عمدوا إلى إذاعة السوء، وإشاعة أنباء التفرقة بين الصفوف بما أقدموا عليه من نشر قراراتهم الواهمة فى الصحف بل إن إصدار البيان بتوقيعهم هو الذى خلق كياناً لهذه الهفوة التى وقع فيها شبان أبرياء؛ إذ لولا وقوف نفر من كبار الإخوان بجانبهم لما تشجع المتمردون، ولا عنيت الصحف بإصدار بيان لنفر أكثرهم من النشء المخدوعين.

خامساً: أنهم أعطوا الفرصة لتبين مافى نفوسهم لتوضيح موقفهم باستجواب بعضهم أمام مكتب الإرشاد؛ فظهر إصرارهم على ماصنعوا رغم إبراز المكتب لهم مافى تصرفاتهم من خطأ جسيم وخروج عن الدعوة.

سادساً: أن الأستاذ صالح عشماوى لم يمثل أمام المكتب رغم تبليغه رغبة المكتب فى سماع أقواله مساء يوم السبت وتبليغ كل مظان وجوده يوم الأحد لضرورة حضوره وأنه قد استبان موقفه من المعلومات التى أدلى بها الأستاذ محمد فرغلى عضو المكتب والأستاذ عبد العزيز كامل عضو الهيئة التأسيسية ويمكن سؤالهما عن تفاصيل مايعلمان.

سابعاً: أن الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال أبدى أمام المكتب استعداده للعودة إلى الحق، ووعد بإصدار بيان يقرر فيه التزامه بأوضاع الجماعة وثقته فى المرشد والمكتب. ثم فوجئنا فى صباح الأحد ببيان جديد اشترك فى توقيعه يدل على تمسكه وزملائه بموقفهم السابق إزاء الجماعة.

ثامناً: أنهم مجتمعين قد اشتركوا فى إصدار بيان نشر صباح الأحد بالصحف ادعوا فيه تكوين لجنة تحكيم بين الإخوان بفريقيهم كما يزعمون، وأنهم فى هذا البيان نفسه أكدوا تمسكهم بمضمون البيان الأول بقولهم ــ وما زلنا عند موقفنا فى تحرى الحق وإقرار العدل وإصلاح ذات البين ــ فضلاً عما فى ذلك من إشعار الرأى العام بوجود خصومة ضخمة فى موقف لايعدو أن يكون قياماً من الجماعة بواجبها فى مؤاخذة بعض المخطئين من أعضائها.

تاسعاً: أنهم أصدروا بياناً نشرته الصحف صباح الاثنين ٢٣ ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق ٣٠ ديسمبر ١٩٥٣ ضمنوه كثيراً من الانحراف عن الحق والمغالطات التى تزيد فى

توضيح اعتدائهم على مكتب الإرشاد، وهو السلطة الشرعية فى الدعوة؛ من مثل قولهم «وعلم الله لولا مواجهتنا الإخوان الذين لجأوا للمركز العام بعد أن تخلى عن هذه المواجهة أعضاء مكتب الإرشاد» فى حين أنهم يعلمون أن الأمر دبر خلسة من مكتب الإرشاد وفى ليلة عطلة الدار، وأنهم وحدهم هم الذين علموا من قبل أو من بعد بأمر هذا التجمع، وكانوا وحدهم موضع الرضا من هؤلاء الشبان، كما يعلمون أنه مامن عضو من أعضاء المكتب وصله النبأ إلا وحضر على الفور وحاول علاج الموقف ولكنه لم يستطع لأسباب يعلمها الشبان المتجمعون وهؤلاء المظاهرون أو المدبرون، بل بلغ الأمر بهؤلاء الشبان أن منعوا السكرتير العام من البقاء معهم ورفضوا الاستماع إلى الأستاذ عبد القادر عوده رغم الجهد الذى بذله لإبلاغهم كلمة الحق. بينما كانت كلمات أصحاب هذا البيان تقابل بالارتياح كأنهم لها فى انتظار أو كأنهم معهم على اتفاق.

عاشراً: أنهم بهذا البيان الأخير أكدوا بكل مظاهر التأكيد إصرارهم على موقف الخروج الذى اختاروه لأنفسهم رغم بذل النصح لهم، وضرب المثل الذى ضربه لهم زميلهم الدكتور محمد سليمان برجوعه إلى الحق وعدوله عن موقفه.

حادى عشر: أن الموقعين على البيان كانوا المستشارين الحقيقيين للشباب المعتصمين، وأن الأستاذين صالح عشماوى وسيد سابق كانا فى خلوة معهم طوال الوقت، وكانوا يستمدونهما الرأى فى كل خطوة كما يشهد بذلك الأخ محمد هارون المجددى. فإذا أضيف إلى ذلك أن الشبان رفضوا إدخال العقلاء من الإخوان إلى الدار بعد وقت قضاه الحراس فى الاستئذان من الداخل؛ أمكن القول بأن رفض دخول العقلاء كالأستاذ سيد قطب كان ثمرة الاستشارة التى تيلقاها الشبان من الأستاذ صالح وزملائه.

ثانى عشر: أن الأستاذ صالح عشماوى كان عقبة فى سبيل المسعى الرشيد الذى قام به الأخ عبد العزيز كامل لإخلاء الدار من هؤلاء الشبان وذلك بإصرار الحاج صالح شخصياً على ضرورة البقاء فى الدار والمبيت فيها حتى رغم خروج الثائرين أنفسهم. وإن تمسكه علناً بالبقاء وطول مجادلته فى ذلك للأستاذ عبد العزيز كامل أمام بعض الشبان كان دليلاً قاطعاً على أن فكرة الاعتصام بالدار وليدة رسمه أو على الأقل موضع ارتياحه وتأييده.

ويكفى أن تعلموا أن الأستاذ صالح بقى بالدار بعد خلوها من الجميع متشبثاً أن لايغادرها، وأن أقصى ماأمكن الوصول إليه مع صالح هو أن يغادرها بعد الأخ عبد العزيز كامل بنحو ساعة ريثما تعود سيارته من توصيل الأخ عبد العزيز كامل لمنزل المرشد العام.

ومن البداهة بمكان أن مبيت الأستاذ صالح بالدار لايثير شيئاً من الاهتمام ولكن له دلالته على مظاهرته لفكرة الاعتصام بالدار.

ثالث عشر : أن الأستاذ عبد القادر عوده طلب من الأستاذ صالح عشماوى الحضور إلى منزل المرشد العام فأبى الاستجابة له، وكذلك رغب إليه الأستاذ عمر التلمسانى فى هذا فلم يسمع لرجائه.

رابع عشر : أن الأستاذ صالح عشماوى وزملاءه لايزالون مع المفصولين على صلة خاصة لايمكن تفسيرها مع هذه الملابسات إلا بأنها مشاركة لهم فى التآمر الذى ظهرت ثمرته مساء الجمعة. وقد ثبتت هذه الصلة من رؤية الأستاذ عبد العزيز كامل للأستاذين صالح عشماوى وسيد سابق فى خلوة مع الأستاذ عبد الرحمن السندى بدار الكتاب العربى يوم السبت ومن اعتراف الأستاذ أحمد جلال أمام المكتب.

خامس عشر : أن مجلة الأستاذ صالح المسماة « مجلة الدعوة » نشرت بجوار مقالة رئيس التحرير خبراً مكذوباً زعم فيه استقالة الأخوين عبد العزيز كامل ومحمد سليمان بقصد بلبلة الخواطر والإيهام بأن الإخوان لازالوا على خلاف مع القيادة ومكتب الإرشاد.

سادس عشر : أن مقاله الافتتاحى فى نفس المجلة وتصوير المجلة للحادث ينطوى على أكذب المغالطات والمهاجمة لقيادة الإخوان ومكتب الإرشاد، ويعتبر إصراراً على التمادى فى موقف النكث والخروج.

ياحضرات أعضاء اللجنة :ـــ

أ ـــ ومن جملة الاتهامات يرى مكتب الإرشاد العام أن أصحاب البيان الثلاثة، قد عرضوا أنفسهم لزوال صفة عضوية الهيئة التأسيسية عنهم وفقاً للمادة ٣٩ من قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين لفقدانهم أحد الشروط التى تؤهلهم للعضوية والمنصوص عليها فى البند « د » من المادة ٣٦ من هذا القانون. إذ أن ماصنعوه لايتفق بحال من الأحوال مع الصفات الخلقية والعملية التى تؤهل الرجل لعضوية الهيئة التأسيسية.

ب ـــ أنهم قد فقدوا بهذه التصرفات أهلية العضوية العادية فى جماعة الإخوان المسلمين والمنصوص عليها فى المادة « ٤ » من القانون وفيها اشتراط أن يتعهد العضو باحترام نظام الدعوة ـــ ولا ريب أن ماجترحوه ليس من احترام الدعوة ولا النهوض بواجبات عضويتها وتحقيق أغراضها فى قليل أو كثير.

جـ ـــ أنهم حنثوا باليمين التى يعطيها العضو العادى فى أى شعبة والموضحة بالفقرة الثانية من المادة « ٤ » من هذا القانون وفيها القيام بشرائط عضويتها والثقة التامة بقيادتها، والسمع والطاعة فى المنشط والمكره. ومن البداهة بمكان أن مااقترف الموقعون على البيان من تصرفات.. بمنأى عن رعاية هذا القسم الغليظ.

ياحضرت أعضاء اللجنة:

هذه هى الوقائع التى تدين أصحاب البيانات الطائشة والتى تستوجب بأدلتها المعروضة تطبيق المادة «٣٩» بزوال صفة عضوية الهيئة التأسيسية والمادة «٤٠» بزوال صفة العضوية العادية كما حددتها النصوص القانونية.

أما الأضرار البليغة التى ترتبت على تصرفات هؤلاء الإخوان، والبلبلة التى شاركوا فى إيجادها فى الصفوف، والفجيعة التى كانوا من أكبر عوامل سوقها إلى نفوس المسلمين فى أنحاء العالم.. بما أوهموا من انشقاق الجماعة؛ فذلك أمر من الخطورة وجسامة الخطأ والتبعة بحيث يلمسها كل أخ مسلم أكثر مما تحدده النصوص القانونية.

والمكتب يرجو أن تسرع اللجنة فى اتخاذ إجراءات المحاكمة فى أقرب وقت ممكن، حسماً للموقف وإنقاذاً للدعوة من كثرة التخرصات والأقاويل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

السكرتير العام		المرشد العام

تحريراً فى

١٣٧٣/ ٣/٢٤

١٩٥٣/١٢/ ١

التقرير التفصيلى للجنة تحقيق العضوية

فى قضية الأساتذة صالح عشماوى والشيخ محمد الغزالى
وأحمد عبد العزيز جلال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم. اللهم ألهمنا الصواب، وجنبنا مزالق القول ونوازع الهوى.

* * *

١٦ اتهاماً :

فى يوم الأربعاء ٢٥ من شهر ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق ٢ من ديسمبر ١٩٥٣ أحال إلينا مكتب الإرشاد العام تقرير اتهام موجه إلى الإخوان الأساتذة صالح عشماوى ومحمد الغزالى وأحمد عبد العزيز جلال للفصل فى أمرهم؛ باعتبارهم موضع اختصاص اللجنة لأنهم أعضاء فى الهيئة التأسيسية.

وفى أول جلسة عقدتها اللجنة فى مساء اليوم المذكور، تقدم الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل رئيس اللجنة برغبته إلينا فى التنحى عنها خلال فترة نظر هذه القضية لأنه شاهد فيها؛ فأقرت اللجنة رغبته وانتخبت الأخ الأستاذ محمود عبد الحليم رئيساً لها خلال هذه الفترة.

وبعد أن قرأت اللجنة قائمة الاتهام وهى تتضمن ستة عشر اتهاماً؛ رأت استدعاء بعض من وردت أسماؤهم فى التقرير لتسمع شهادتهم. فاستدعت الإخوان الأستاذ عبد العزيز كامل الذى اكتفت اللجنة منه بتقديم تقرير مكتوب بشهادته ثم الأستاذ محمد فرغلى فالأستاذ هارون المجددى اللذين أدليا بشهادتيهما. ثم استدعت اللجنة الأخ الأستاذ نجيب جويفل واستمعت إلى شهادته فى واقعة معينة ورد ذكر اسمه فيها فى شهادة الأستاذ الشيخ محمد فرغلى.

٨ جلسات :

وقد استغرقت شهادة هؤلاء ومناقشتهم ثمانى جلسات عقدتها اللجنة بحجرة نائية فى

دار المكتب الإدارى للقاهرة، وأخذت من الزمن أربعاً وثلاثين ساعة.

وبعد أن رأت اللجنة الاكتفاء بهذه الشهادات قررت دعوة الإخوان الموجه إليهم الاتهام لتستمع إلى ماالديهم من دفاع؛ فكتبت إلى كل منهم خطاباً تدعوه فيه إلى المثول أمامها للاستماع إلى ماعنده، وحددت اليوم والساعة.. وحرصاً من اللجنة على الاطمئنان إلى وصول الدعوة إليهم كلف الأخ محمد هاشم الموظف بالمركز العام بتوصيلها بنفسه إلى مظان وجودهم.. وفى اليوم المحدد لم يحضر منهم إلا الأخ الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال الذى طلب أولاً الاستماع إلى نص قرار الاتهام فقرىء عليه فكان رده هو هذه الكلمات بنصها: «أولا هذا البيان مليان أكاذيب» ثم أخرج من حقيبته خطاباً موقعاً منه ومن زميليه الأستاذين محمد الغزالى وصالح عشماوى هذا نصه:

حضرة الأخ الكريم الأستاذ سعد الدين الوليلى

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد:

فقد وصلنا خطابكم للحضور أمام لجنة تحقيق العضوية مساء اليوم (الأحد) للتحقيق فى شأن ماورد خاصاً بكم فى تقرير مكتب الإرشاد العام.... الخ.

ونحب أن نؤكد لكم أن لجنة تحقيق العضوية لاتملك الصلاحية للتحقيق معنا فيما ورد فى تقرير مكتب الإرشاد العام، لأن موضوع التحقيق هو خلاف بيننا وبين أعضاء مكتب الإرشاد العام. ولجنة العضوية ليس من حقها ولا من سلطتها التحقيق مع أعضاء المكتب ــ وهم أحد طرفى الخلاف ــ ولذلك يجب أن يرد الأمر كله إلى الهيئة التأسيسية نفسها، وستنعقد فى يوم الخميس القادم، فهى اللجنة المختصة لمحاسبة المكتب ومحاسبتنا أيضاً. ويمكن عرض الخلاف عليها لتفصل فيه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

توقيعــات

أحمد عبد العزيز جلال   محمد الغزالى   صالح عشماوى

حرص اللجنة على مصلحة المدعى عليهم

فشرعت اللجنة فى مناقشته فى هذا المبدأ الخطير على نحو يلمس المطلع على محضر تسجيله مقدار حرص اللجنة على مصلحة هؤلاء الإخوان المدعى عليهم. غير أن ساعتين كاملتين لم تزحزحاه عما قرره خطابهم من سابقة خطيرة.

وإمعاناً من اللجنة فى الحرص على مصلحة المدعى عليهم، قررت أن تتيح لهم فرصة أخرى بتوجيه الدعوة إليهم للحضور ثانية فى اليوم التالى، وأشارت فى كتاب الدعوة إلى ملخص المناقشة التى جرت بين اللجنة وبين الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال، وأكدت فيه

أن اللجنة هى وحدها موضع الاختصاص، وأنها مستقلة تماماً عن مكتب الإرشاد، وأن المكتب لاسلطان له عليها، وأن لامرجع لها إلا ضمائرها.. ثم حددت لهم الموعد باليوم والساعة كما حددت المكان. وكلفت الأخ محمد هاشم بتوصيل هذه الخطابات فسلمها إليهم بنفسه..

وانعقدت اللجنة قبل الموعد المحدد بنصف ساعة وظلت منعقدة حتى الساعة العاشرة دون أن يحضر منهم أحد ودون أن يصل منهم اعتذار.

هذا هو القانون الأساسى للإخوان:

وقبل أن نبدأ فى النظر فى وقائع القضية نرى أن نناقش أولاً المبدأ الذى بنى عليه المدعى عليهم اعتراضهم على صلاحية اللجنة للتحقيق معهم فيما ورد فى تقرير مكتب الإرشاد. ومرجعنا بطبيعة الحال هو قانون النظام الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين فنثبت منه هنا المواد الآتية:

مادة ٣٦ ــ لهذه الهيئة ــ الهيئة التأسيسية ــ أن تقرر فى أى اجتماع، أو بناءً على ترشيحات اللجنة المنصوص عليها فى المادة التالية منح بعض الإخوان حق العضوية للهيئة التأسيسية بشرط أن تتوفر فيمن يراد منحه إياها هذه الشروط (وذكرت الشروط).

مادة ٣٧ ــ تنتخب الهيئة التأسيسية من أعضائها (ومن غير الأعضاء المنتخبين لمكتب الإرشاد) لجنة من سبعة أعضاء، ويفضل غير القاهريين وذوو الإلمام والصلات بالفقه الإسلامى والإجراءات القانونية.

(مهمتها تحقيق مايحال عليها من المرشد العام أو مكتب الإرشاد أو الهيئة نفسها خاصاً بما يمس الأعضاء فى سلوكهم أو الثقة بهم أو أمر آخر. ولهذه اللجنة أن توقع ماتشاء من الجزاءات حتى الإعفاء من العضوية على أن تعتمد ذلك من المرشد العام).

وعند اختيار هؤلاء الأعضاء يقسمون أمام الهيئة «بالله على أن يؤدوا ماعليهم بالذمة والصدق والأمانة». وتختار اللجنة رئيسها وسكرتيرها من بين أعضائها عقب اختيارها مباشرة، وتدون قراراتها ومحاضرها فى سجل خاص بها ــ ويكون اجتماعها صحيحاً بحضور خمسة من أعضائها متى كان فيهم الرئيس ــ وتكون قراراتها صحيحة إذا صدرت عن الأغلبية المطلقة للمجتمعين ــ ويتجدد اختيارها مع اختيار المكتب. ولا مانع من اختيارها كلها أو بعضها لأكثر من مرة. وتجتمع بدعوة من رئيسها ــ وللعضو الذى يتقرر فصله أن يستأنف هذا القرار بطلب كتابى يرفع إلى مكتب الإرشاد العام ليعرض على الهيئة التأسيسية فى أول اجتماع لها، ورأيها فيه حاسم.

مادة ٣٨ــ إذا قصر واحد من أعضاء الهيئة التأسيسية فى الواجبات الملقاة عليه نصحه المرشد العام. فإذا تكرر التقصير أحاله على اللجنة المنوه عنها فى المادة السابقة، إلا إذا كان عضواً بالمكتب فيتخذ فى شأنه مانص عليه فى المادة ٢٥ .

وهذه المواد تتضمن القواعد الآتية:

أولاً ــ أن الهيئة التأسيسية وهى السلطة العليا فى الجماعة فوضت هذه اللجنة فى مباشرة حق التحقيق مع أعضائها فيما ينسب إليهم، وناطت بها الاضطلاع بأعباء هذه الناحية من سلطتها، ومنحتها الصلاحية له ولإصدار قرار بالعقوبة حتى الفصل من العضوية .

ثانيــاً : حصرت الهيئة الشروط التى متى توفرت مجتمعة قبل عضو من أعضائها كان للجنة الصلاحية فى مباشرة حق التحقيق معه وتوقيع الجزاءات عليه فى شرطين لاثالث لهما وهما:

١ ــ أن يكون الأخ المنسوب إليه الاتهام عضواً فى الهيئة التأسيسية.

٢ ــ أن يحال هذا الاتهام إلى اللجنة من المرشد العام أو من مكتب الإرشاد أو من الهيئة نفسها .

ثالثــاً : لم تستثن المادة (٣٨) أحداً من أعضاء الهيئة التأسيسية الذين توفر قبلهم الشرطان السابقان من وجوب المثول أمام اللجنة لمباشرة حقها معه إلا أعضاء مكتب الإرشاد ماداموا متمتعين بهذه الصفة؛ أما إذا زالت عنهم هذه الصفة سواء أكان ذلك بعدم تجديد انتخابهم أو بقرار من المكتب نفسه على الصورة التى وضحتها المادة (٢٥)ــ فمردهم كذلك إلى اللجنة.

رابعــاً : أن الهيئة التأسيسية حين جعلت للجنة مهمتين أولاهما تختص بإدخال أعضاء فى الهيئة (المادة ٣٦) والأخرى تختص بالتحقيق مع أعضائها وتقرير العقوبات عليهم (المادة ٣٧) قيدت اختصاص اللجنة فى الإدخال بقصره على مجرد الترشيح، فى حين أنها فى المهمة الأخرى وهى التحقيق والعقوبة حتى الفصل من العضوية أطلقت للجنة الحق فى ذلك وجعلت قرارها نهائياً بعد اعتماده من المرشد العام، ولم تجعل لنفسها الحق فى إعادة النظر فى القرار بعد صدوره وإعلان العضو به إلا فى حالة واحدة هى أن يكون القرار فصلاً من العضوية وتقدم العضو المفصول بطلب كتابى فيه إلى مكتب الإرشاد عرض طلبه باستئناف القرار على الهيئة التأسيسية فى أول اجتماع لها ورأيها فيه حاسم.

خامساً: تقديراً من الهيئة لخطورة السلطة المخولة لهذه اللجنة أحاطتها بشروط وضمانات بينتها

المادة (٣٧) فى الصفات الواجب توفرها فى عضوها وفى تحديد أغلبية خاصة لجلساتها وفى القسم الذى يؤديه أعضاؤها أمام الهيئة عند اختيارهم وفى اعتماد قراراتها من المرشد العام.

سادساً: ليس لمكتب الإرشاد العام سلطة من قريب ولا من بعيد على هذه اللجنة فقد اشترطت المادة (٣٧) أن يكون أعضاؤها من غير المنتخبين للمكتب. كما أن المادة نفسها جعلت انتخابها من حق الهيئة التأسيسية نفسها التى تنتخب المكتب — وبذلك قسمت الهيئة سلطتها بين لجنتين؛ فعهدت بسلطتها التنفيذية إلى المكتب وعهدت بسلطاتها القضائية إلى لجنة العضوية.

ويتضح ذلك جلياً فيما يقرره القانون من أن أى قرار يمس كيان الجماعة يصدر من أية إدارة من إدارات الدعوة لايكتسب صفته الشرعية إلا إذا اعتمده مكتب الإرشاد، ماعدا قرارات هذه اللجنة فإنها تكتسب صفتها الشرعية دون عرضها على المكتب أو اعتمادها منه.

من الناحية الشكلية:

وعلى ضوء هذه القواعد المستقاة من قانون الجماعة نحب أن نناقش موقف هؤلاء الأعضاء الثلاثة من اللجنة من ناحية الشكل على الوجه الآتى:

أ — صفاتهم:

أولاً : أعضاء فى الهيئة التأسيسية

ثانيـــاً: ليسوا أعضاء فى مكتب الإرشاد العام

ب— شكل اللجنة:

أولاً : أخطرت اللجنة أحد أعضائها وهو الشيخ محمد الغزالى أحد المدعى عليهم بخطاب مسجل بأن قرار وقفه قد نحاه عن عضوية اللجنة حتى يفصل فى أمره.

ثانيـــاً: التقى قرارها برغبة رئيسها الأستاذ عبد العزيز كامل فى تنحيته عن رياسة اللجنة وعضويتها خلال نظرها هذه القضية لاعتباره شاهداً فيها.

ثالثـــاً: انتخبت اللجنة الأستاذ محمود عبد الحليم رئيساً لها خلال نظر هذه القضية.

رابعـــاً : أخطرت بذلك فضيلة المرشد العام.

خامساً: حافظت طوال جلساتها على العدد القانونى لأعضائها فكانوا خمسة دائماً منهم الرئيس.

جـ ـ الإجراءات:

أولاً ـ أحال مكتب الإرشاد العام إلى اللجنة تقرير اتهام ضد هؤلاء الاعضاء الثلاثة

ثانيــاً: سمعت اللجنة شهادة من وردت أسماؤهم فى قرار الاتهام وبعض من ورد ذكرهم فى شهادة هؤلاء الشهود واستجوبتهم وناقشتهم.

ثالثــاً: حددت اللجنة الموعد والمكان لحضور هؤلاء الأعضاء المدعى عليهم أمامها وأخطرتهم بذلك. ولما تخلفوا أتاحت لهم فرصة أخرى بالكتابة إليهم كذلك.

رابعــاً: لم يرد المدعى عليهم أعضاء اللجنة كلهم أو بعضهم لمآخذ عليهم.

ومن ذلك يرى الناظر بعين القانون المجرد عن الهوى أن جميع الشروط والضمانات والإجراءات التى تضمنها قانون النظام الأساسى للجماعة لإلزام هؤلاء الأعضاء الثلاثة بالمثول أمام اللجنة لإجراء التحقيق معهم قد توفرت كاملة. وكان يجب على هؤلاء الأعضاء الذين لم يعتذروا عن الحضور بعذر شرعى أن يحضروا فى الموعد والمكان المحددين لهم لدفع التهم الموجهة إليهم بما عسى أن يكون لديهم من أدلة.

أوضحنا لهم كل الحقائق:

وبالاطلاع على محضر تحقيق مع الأستاذ أحمد عبد العزيز جلال، وعلى كتاب الدعوة الذى وجهته إلى الأعضاء الثلاثة المدعى عليهم للحضور فى المرة الأخيرة؛ يتبين أن اللجنة لم تدخر وسعاً فى تجلية حقائق القانون لهم، وفى مجاراتهم إلى أبعد الحدود فى سبيل إدخال الطمأنينة إلى نفوسهم حتى يفيئوا إلى الحق ويستجيبوا لصوت القانون.

والإنسان بطبيعته إذا وجه إليه اتهام، وعلق سمعته شىء تواق ــ إذا كان لديه دليل براءته ــ أن يتلقف أول من يقابله، ويتلمس من يسأله ليفضى إليه بأدلة براءته، ليدحض هذا الاتهام، ويخلص سمعته مما علق بها؛ لاسيما إذا علم أن إفضاءه بذلك لأول سائل لن يمنعه من الإفضاء لغيره.

القانون يبطل الادعاء:

والواقع أن الاحتجاج بوجود خلاف بين عضو الهيئة المدعى عليه وبين أعضاء المكتب يعد باطلاً. لأن من السهل على كل عضو محال إلى اللجنة أن يدعى هذا الخلاف

ليفلت من المثول أمام اللجنة. خصوصاً إذا علم أن أكثر الحالات تحول إلى اللجنة عن هذا الطريق وهو المكتب — وبذلك يكون مثار الخلاف ممكناً وجوده بطبيعة الإجراءات — ويمكن إثارة هذا الاحتجاج نفسه بنفس الصورة إذا ماكان التحويل إلى اللجنة عن طريق المرشد العام.. وبذلك يبطل عمل اللجنة، ويبطل بالتالى ماقصد إليه القانون من إيراده إحدى مواده وهى المادة (٣٧). والتحايل على إبطال إحدى مواد قانون مقرر يعتبر باطلاً.

وإذا فرضنا جدلاً أن الذى يمنعهم من الوقوف أمام اللجنة أن بينهم وبين أعضاء المكتب خلافاً كما ادعوا فى كتابهم، فهل هذا يمنعهم — لو كانوا جادين — أن يبرئوا أنفسهم أولاً أمام اللجنة مما هو منسوب إليهم ثم يرفعوا شكواهم بعد ذلك ضد أعضاء المكتب إلى الجهة التى يرونها موضع اختصاص؟

كما أننا لو أخذنا بنظرية المدعى عليهم وقام خلاف بين عضوين أحدهما عضو فى الهيئة التأسيسية والآخر ليس عضواً فيها إذن لما وجد المختلفان لجنة تحقيق يحتكمان إليها.. وبذلك تضيع الحقوق وتتبدد دون مراجع.

وبعد أن يئست اللجنة من حضورهم أو إذعانهم إلى القانون بعد أن أعذرت إلى الله وإليهم؛ رأت أن من حقها أن تسير فى القضية، وأن تحاكمهم غيابياً مكتفية بما تضمه محاضر تحقيقاتها.

وهنا ننتقل إلى الموضوع فنرى مايأتى:

أولاً: كانوا مع المعتصمين ولم يستنكروا عملهم:

فى أول بيان أصدروه بتوقيعاتهم ونشروه فى الصحف الصادرة يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٥٣ ثبت أن المدعى عليهم الثلاثة كانوا مع المعتصمين بدار المركز العام يوم الجمعة الموافق ٢٠ من شهر ربيع الأول ١٣٧٣ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٩٥٣، وأنهم لم يواجهوا تصرفات هؤلاء المعتصمين بالاستنكار، مع أنهم كانوا منهم موضع الرضا والقيادة — وكان ينبغى لمثلهم ممن يحسن النية والتصرف — وقد حازوا هذه المكانة فى نفوس هؤلاء الشبان — أن يطمئنوهم إلى أنهم سيقومون عنهم بالتفاهم مع فضيلة المرشد أو مع مكتب الإرشاد، ويطلبوا إليهم الانصراف؛ فإذا أبوا كان عليهم هم أن ينصرفوا — وما كان يضيرهم شيئاً فى الدعوة ولا فى أنفسهم أن يفعلوا ذلك لو كانوا حسنى النية والتصرف.. أما فى الدعوة فما كان فى طوق هؤلاء الشبان المعتصمين أن يفعلوا أسوأ مما فعلوا، وأما فى أنفسهم فقد وقف كثير من أعضاء المكتب والهيئة التأسيسية من هذا الشباب الموقف الذى

أشرنا إليه وما ضارهم فى أنفسهم شيء أمثال الإخوان الأساتذة عمر التلمسانى وعبد القادر عوده وعبد الحكيم عابدين وعمر الأميرى والشيخ محمد فرغلى وعبد العزيز كامل. والأخير لم يكتف بالموقف السلبى بل ظل معهم طيلة الليل يحاول إخراجهم من المركز العام.

وفى هذا تفنيد لادعاء الشيخ محمد الغزالى والأستاذ أحمد عبد العزيز جلال حين ادعيا للأستاذ عبد العزيز كامل بعد أن وقعا بيانهم الذى نشر بالصحف يوم ٢٨ نوفمبر انهما إنما فعلا ذلك تهدئة للثائرين وتخليصاً للدعوة من هذا المأزق.

ثانياً ــ هذه بياناتهم تحكم عليهم:

أصدر المدعى عليهم بياناً موقعاً منهم نشروه بالصحف الصادرة يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٥٣ ضمنوه النقاط الآتية:

١ ــ ادعاءهم أن الأستاذ المرشد العام أعلن استقالته على الملأ.

٢ ــ إلغاءهم قرار مكتب الإرشاد العام بفصل الأربعة المفصولين، واعتبارهم إياهم موقوفين فقط حتى تحدد موقفهم لجنة خاصة تعرض تقريرها على الهيئة التأسيسية.

٣ ــ إصدارهم قراراً من ثلاثتهم مع الرابع بوقف مكتب الإرشاد العام حتى تبت الهيئة فى مصيره.

٤ ــ اعتبارهم أنفسهم هيئة تقوم بتصريف شئون الدعوة وإدارة المركز العام لحين اجتماع الهيئة التأسيسية.

وبتحقيق النقطة الأولى ثبت أن الأستاذ المرشد العام لم يستقل؛ فالمكتب وهو الجهة المختصة نفى ذلك. والمدعى عليهم لم يقدموا دليلاً مادياً ولا معنوياً على ادعائهم ــ وتبين بذلك أنهم ارتكبوا خطأين: الأول الكذب والافتراء والآخر إشاعة الذعر والارتباك بين صفوف الإخوان بنشر هذا الكذب فى الصحف.

وبتحقيق النقطة الثانية تبين أن مكتب الإرشاد لم يلغ قرار الفصل الذى أصدره ضد الأربعة المفصولين. وأن مكتب الإرشاد لايجعله القانون الأساسى مسئولاً أمام أية سلطة فى الجماعة إلا أمام الهيئة التأسيسية ــ وبذلك يكون المدعى عليهم قد انتحلوا لأنفسهم شخصية الهيئة التأسيسية مجتمعة، وبذلك يكونون قد خرجوا على القانون الذى بايعوا عليه وعلى الهيئة التى هم مجرد أفراد منها.

وبتحقيق النقطة الثالثة تبين أن وقف مكتب الإرشاد ليس من حق أية سلطة فى الجماعة إلا هذه الهيئة كما ذكرنا، وبذلك يكون المدعى عليهم قد خرجوا مرة أخرى على

القانون الذى أقسموا على احترامه والخضوع لأحكامه.

وبتحقيق النقطة الرابعة تبين أن فى تنصيبهم أنفسهم أوصياء على الجماعة لاخروجاً على القانون فحسب بل ابتداعاً لسابقة خطيرة تركت آثارها فى كيان الدعوة الداخلى ومركزها الخارجى، ومكنت أعداء الدعوة من الإرجاف بالسوء، وتهوين أمر الجماعة وبالتالى أمر العاملين للإسلام.. ذلك أنهم نصبوا أنفسهم أوصياء ومنحوا أنفسهم جميع السلطات فوق الجماعة دون أن يرجعوا إليها، أو يأخذوا بذلك تفويضاً منها.

وأمام هذا الافتيات على الحقوق تقصر قوانين الهيئات الشعبية عن أخذ حقها من هؤلاء المفتاتين لأنها لاتملك عقوبة أشد من الإعفاء من العضوية.

هذه أخطاء اشترك ثلاثتهم فيها، ولا سبيل إلى إنكارها أو التملص منها؛ لأنهم نشروها فى الصحف ممهورة بتوقيعاتهم، ولم يلحقوها بعد أن ظهرت على صفحات الصحف بتكذيب؛ بل إنهم استمروا فى إصدار البيانات المماثلة فى الصحف أيضاً.

وقد لاحظت اللجنة أن المدعى عليهم كثيراً مايذكرون فى بياناتهم أنهم سيلجأون إلى الهيئة التأسيسية متظلمين من قرار الفصل الذى أصدره المكتب ضد الأربعة الأعضاء — فمن أى نص فى قانون الإخوان المسلمين الذى أقسموا على الخضوع له فهموا أن وسيلة عرض تظلم على الهيئة من قرار للمكتب هى أن يعتصبوا بدار المركز العام وأن يتخذوا قرارات بوقف المكتب وإحلال أنفسهم محله، والمسارعة بنشر هذه القرارات الضارة بسمعة الجماعة فى الصحف، واستباحة الكذب العلنى بنشر خبر كاذب باستقالة المرشد العام.

ثم هم لايعلنون لجوءهم إلى الهيئة التأسيسية إلا بعد اتخاذ هذه الخطوات غير المسبوقة فى تاريخ الجماعة، مع العلم بأن الفرصة كانت متاحة لهم منذ صدور قرار الفصل لدعوة الهيئة بالطريق القانونى دون الوقوع فى هذا الخطأ الجسيم، أو الانتظار حتى تجتمع الهيئة فى ميعادها المحدد وما كان بالبعيد.

وقبل أن تنتهى اللجنة من تحليل نقاط هذا البيان وتحقيقها، نحب أن نلفت النظر إلى أن قرارها فى هذه القضية — والمنسوب إلى المدعى عليهم كثير سواء فى قائمة الادعاء أو فى شهادة الشهود — سيعتمد أعظم الاعتماد على ماجاء فى هذا البيان، لأن مجموعة من الوقائع المادية سجلوها بتوقيعاتهم على أنفسهم؛ وبذلك لايكون هناك مجال للتظلم من القرار بدعوى أنهم لم يحضروا أمام اللجنة.

ثالثاً: النشر بالصحف:

ومما أكد للجنة سوء نية المدعى عليهم وسوء تصرفهم أنهم اتخذوا الصحف وسيلة

لنشر كل مايصدر عنهم، حتى كتابهم الذى أرسلوه إلى اللجنة يذكرون فيه أنهم لم يمثلوا أمامها.. وهذه وسيلة للتشهير تتنافى مع الخلق الإسلامى ومع تقاليد الدعوة، ولا يقدم عليها ذو نية حسنة. والضرر الذى سببه هذا النشر لايخفى على أحد.

رابعاً:

«نشر المدعى عليهم بالصحف الصادرة يوم ١٩٥٣/١١/٢٩ بياناً ادعوا فيه أن الأخ الشيخ محمد فرغلى فى الاجتماع الذى عقد فى منزل نائب رئيس الوزراء اتفق معهم على تكوين لجنة للتحقيق مع الإخوان المفصولين وبسؤال الأستاذ الشيخ محمد فرغلى قرر أنه عندما طلب منه الأستاذ صالح تكوين لجنة للتحقيق مع المفصولين سأله قائلاً: أية لجنة تقوم بهذا التحقيق الذى تريد؟ فقال الأستاذ صالح: لجنتنا ــ يقصد تلك التى تتكون منه ومن زملائه الثلاثة ــ فقال له الأستاذ فرغلى: إن مكتب الإرشاد هو الهيئة الإدارية العليا للجماعة، وهو صاحب الحق المطلق فى قبول الأعضاء وفصلهم، وهو مؤتمن على أمور الجماعة، وليس لأحد أن ينازعه فى هذا الاختصاص؛ ومع ذلك فإن مكتب الإرشاد حينما أصدر قرار فصل هؤلاء الشبان الأربعة أعطاهم حق التظلم، فمن أراد أن يتظلم فمن الطبيعى أن ينتدب مكتب الإرشاد لجنة تتولى التحقيق معه».

«ونشر المدعى عليهم فى نفس البيان أن الأستاذ عبد العزيز كامل أبلغهم أنه أفلح فى إقناع أعضاء المكتب للموافقة على تكوين لجنة للتحقيق ــ ثم قالوا: وفى ساعة متأخرة من الليل اتصل خمسة من أعضاء مكتب الإرشاد هم: الدكتور خميس حميدة والأساتذة عمر التلمسانى وعبد الرحمن البنا وعبد القادر عوده والسيد محمد حامد أبو النصر وأبلغونا أنهم وافقوا على تأليف لجنة للتحقيق. ثم قالوا: وعلى هذا الأساس نشر بيان الأمس وفيه ذكرنا تكوين لجنة للتحقيق ولكننا فوجئنا فى الصباح بقرار بوقف ٢١ عضواً وتأليف لجنة للتحقيق لامع الإخوان المفصولين حسب الاتفاق، ولكن مع الإخوان الذين احتجوا على قرار الفصل».

ماذا قال الشهود؟

وبسؤال الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل فى هذا الصدد قرر أن كل ماوعدهم به هو أن يتوسط فى الأمر دون أن يقيد نفسه بحل معين.

وبسؤال الأخ الأستاذ عمر التلمسانى قرر: أن الذى دار بيننا فى حضور الإخوة الأربعة من أعضاء المكتب؛ أن المكتب قرر تكوين لجنة من الشيخ محمد فرغلى والسيد محمد حامد أبو النصر وعمر التلمسانى لتحقيق ماحدث مساء الجمعة من الشبان الذين

اعتصموا بعد أن ذهبوا إلى منزل فضيلة المرشد، ونظر كل تظلم يقدم من الأربعة المفصولين؛ إذ كان قد قدم إلينا تظلم من أحمد عادل كمال. كما أن المكتب أحال إلى هذه اللجنة التحقيق مع الشيخ سيد سابق الذى صدر قرار بإيقافه.

«ولم نقل أبداً إن هذه اللجنة للتحقيق مع المفصولين».

ويقرر كذلك فيقول: وأحب أن أقول إن الأستاذ صالح عشماوى قرر لنا ونحن فى دار الكتاب العربى — ليلاً — أنه علم تليفونياً بأن المكتب الإدارى أوقف واحداً وعشرين من الإخوان؛ فهو إذن لم يفاجأ فى صباح اليوم التالى بشيء لأن مايقرر أنه فوجىء به فى الصباح كان يعلمه قبل أن تصدر جرائد الصباح.

وبسؤال الأخوين الأستاذين محمد حامد أبو النصر وعبد القادر عوده؛ قررا نفس الذى قرره الأستاذ عمر التلمسانى. وذكر الأستاذ عبد القادر عوده أنهم قالوا ذلك فى دار الكتاب العربى للمدعى عليهم وكان معهم آخرون ذكر منهم عبد الرحمن السندى والشيخ سيد سابق.

وترى اللجنة أن الفرق بين مانشره المدعى عليهم بالصحف يوم ٣٠/١١ عن لجنة التحقيق وبين ماقرره الشهود الذين أوردنا ملخص ماقرروه فرق شاسع. فالمنشور بالصحف لايشعر بأن المكتب متمسك بقراره ولا بأن اللجنة المنوه عنها إن هى إلا لجنة للتحقيق مع الذين أحدثوا الشغب يوم الجمعة وللتحقيق فى تظلم من يتظلم من المفصولين

ولجنة العضوية وإن كانت تؤثر أن تمسك عن القطع برأى فى هذه النقطة، إلا أنها تضع بجانب هذا أن الأستاذ صالح عشماوى اجترا على نشر خبر بمجلة الدعوة باستقالة الأخوين الأستاذ عبد العزيز كامل من لجنة العضوية والدكتور محمد سليمان من الهيئة التأسيسية — وثابت أن إيراد مايتصل بالأستاذ عبد العزيز كامل فيه تحريف ظاهر، وأن الدكتور محمد سليمان لم يستقل من الهيئة التأسيسية.

فإذا وضعنا هذه الوقائع من الأستاذ صالح عشماوى بجانب مانشره عن لجنة التحقيق استطعنا أن نحكم على روايته ونحن مطمئنون.

خامساً:

قرر الأستاذ عبد العزيز كامل فى شهادته أنه حاول ليلة الحادث أن يحمل الأستاذ صالح عشماوى على مغادرة المركز العام بعد أن غادره كل المعتصمين تقريباً فلم يفلح، وظل فى محاولاته هذه معه حتى قرب الفجر. ولما سأله الأستاذ عبد العزيز كامل: ماالذى أقحمك فى هذا الأمر وقد خرج المعتصمون أنفسهم؟ قال الأستاذ صالح «اعتبرنى طرفاً فى

هذا الأمر» .

كما قرر الأستاذ عبد العزيز كامل أنه فى ساعة متأخرة من الليل دخل على الأستاذ صالح عشماوى فى الحجرة المعتصم بها ليرجوه الخروج من المركز العام فوجده يتكلم بالتليفون مع آخر فى الخارج ثم التفت إليه والسماعة فى يده سائلاً الأستاذ عبد العزيز كامل: ماهى شروط جلائه عن المركز العام؟ كأن المتكلم معه فى التليفون ينتظر من الأستاذ صالح جواباً على هذا السؤال — فغضب الأستاذ عبد العزيز وأبى أن يجيبه إلا إذا أخبره باسم الشخص الذى يتصل به بالتليفون ويريد أن ينقل إليه هذه الشروط. فرفض الأستاذ صالح أن يذكر اسم الشخص.

من الذى يوجه المؤامرة؟!

بعد ذلك يقرر الأستاذ عبد العزيز كامل أنه ذهب فى اليوم التالى إلى دار الكتاب العربى، فوجد بإحدى الحجرات اجتماعاً يضم الأساتذة صالح عشماوى وعبد الرحمن السندى والشيخ سيد سابق. وأخذوا يتحدثون معه فى شأن وساطته بأسلوب عرف منه الأستاذ عبد العزيز من هو الشخص الذى كان يكلم الأستاذ صالح أمس فى التليفون ورفض ذكر اسمه.

ويقرر الأستاذ عبد القادر عوده فى شهادته أنه لما ذهب إلى دار الكتاب العربى لمقابلة المدعى عليهم مع بعض أعضاء المكتب فى شأن التفاهم؛ وجد مع المدعى عليهم أشخاصاً آخرين منهم عبد الرحمن السندى والشيخ سيد سابق.

كما أن الأخ محمد هاشم الموظف بالمركز العام قرر فى شهادته التى قدمها إلى اللجنة مكتوبة — وكان موجوداً بالمركز العام ساعة اقتحامه — أنه كان جالساً بجوار مكتب المراقب وأمامه التليفون، فدق جرسه، فإذا المتكلم الأستاذ عبد الرحمن السندى.. يقول الشاهد «فتكلمت معه فطلب الأخ على صديق فجاء وكان رده كالآتى «الحمد لله. كويس الحمد لله. كل حاجة كويسة».. وبعد قليل دق التليفون مرة أخرى فأمسكت بالسماعة فإذا به عبد الرحمن السندى وطلب على صديق أيضاً.. وجاء على صديق.. وفى أثناء هذه المكالمة أحسست بوجود سيارات على باب المركز العام فوقفت لانتظار من بها بجوار على صديق فدخل الحاج حلمى المنياوى وكان على يقول فى التليفون «جه الحاج حلمى والحاج صالح والشيخ الغزالى والشيخ سيد سابق والحاج جوده والحاج عبده قاسم ومحمد شريف.. إن شاء الله وعليكم السلام ورحمة الله.. ووضع السماعة ودخل حضرات المدعوين».

من مجموع هذه الشهادات يتضح أن هذه الحركة وعلى رأسها المدعى عليهم كانت

على اتصال بأحد المفصولين اتصالاً منتظماً طول الليل.. وقرار مكتب الإرشاد بفصل هؤلاء الأربعة يقتضى أن يقطع الإخوان صلتهم فى شئون الدعوة بهؤلاء المفصولين. فالاتصال بهم بل التلقى منهم فيه خروج على القرار وتجد له ويشم منه رائحة التآمر.

سادساً:

تبينت اللجنة من مراجعة البيان الأول الذى أذاعه المدعى عليهم بالصحف أن الحرص على تصديره بإعلانهم استقالة المرشد العام يرتبط بسابقة للأستاذ صالح عشماوى تقرر من أجلها وقفه شهراً فى العام الماضى. هذه السابقة هى مخاطرته بإذاعة أمر قرر المكتب اعتباره سراً. وكان هذا السر الذى حرص الأستاذ صالح على نقله بعد منتصف الليل إلى جريدة «المصرى» هو إعلان استقالة المرشد العام أيضاً.. كأن فى نفس الأستاذ صالح عقدة إزاء هذا الرجل الذى يشغل هذا المنصب ويقود هذه الجماعة.. مع أنه بايعه أمام الهيئة التأسيسية من قبل.

واللجنة ترى فى تصرفات الأستاذ صالح هذه إزاء الأستاذ المرشد، وتكرر هذه التصرفات نفسها بالرغم من وقفه شهراً من قبل بسببها، نقضاً للبيعة ونكثاً للعهد، وترى فى زميليه اللذين وقعا معه على البيان الذى تضمن ذلك نفس الرأى الذى تراه فيه.

وقبل أن تختم اللجنة هذه الحيثيات لابد لها أن تشير إلى أن هناك أسماء جاءت على ألسنة الشهود فى مواقف غامضة، ستطلب اللجنة فيما بعد إحالتها إليها لاستجلاء هذه المواقف وتحديدها.

إمضاءات

حسنى عبد الباقى — عبد الله عامر — حامد شريت —
سعد الدين الوليلى — محمود عبد الحليم

* * *

الفصل الرابع

تعقيـب

معذرة إلى القارىء فى إيراد هذا الفصل الدامى، الذى ماكتبت حرفاً فيه إلا وهو يعتصر قلبى، ويدمى فؤادى.. وإنه لينبغى علىّ أن لاأكتم القارىء حقيقة دفينة فى داخل نفسى؛ هى أن هذا الفصل — مع أننى عانيت جانباً كبيراً من أحداثه، وأننى الذى كتبت بنفسى مقدمته ونهايته، وسجلت بقلمى كل أطواره — إلا أننى حين بدأت أكتب عنه فى هذه المذكرات وجدتنى قد أنسيته إنساءً يكاد يكون تاماً حتى أكثر أسماء أشخاصه.. مع أننى أذكر أحداثاً سابقة عليه وأخرى تالية له.. وما كان ذلك فيما أعتقد إلا لأننى كنت أرى هذا الحدث إبان وقوعه أعظم كارثة أصابت الدعوة؛ لأنها كانت انفجاراً داخلياً. وهو أخطر مايصيب الدعوات، بل هو الخطر الداهم الذى ينسف الدعوات فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، فيمحوها من الوجود محواً؛ بحيث لايبقى لها فى الوجود ولا فى التاريخ أثراً ولا ذكراً..

ومثل هذا الخطر الداهم الذى تنفطر له النفوس؛ لاسيما نفوس من واجهوه وكافحوه وناضلوا ضده، وابتلعوا مرارته — إذا واتتهم الظروف فاستطاعوا دفعه، وتمكنوا من وقف تياره واحتوائه؛ تحاول ذاكرتهم — بدافع كراهية اجترار المرارة — أن تلقى به فى غياهب النسيان.. ولولا ماأمدنى به الأخ الأستاذ عباس السيسى من صورة من المذكرة التى كنت سطرتها بيدى فى ذلك الأوان لما استطعت أن أكتب فى هذا الفصل إلا إشارات عابرة لاتسمن ولا تغنى من جوع.

وإيراد هذا الفصل على مافى إيراده من إيلام للنفس ولذع للقلب؛ أمر ضرورى لامندوحة عنه ولا مفر منه. لأنه حلقة فى سلسلة الأحداث التى صنعها جمال عبد الناصر بيده، وأحكم وصل بعضها ببعض. فلولا الارتباط الوشيج بين هذا الفصل وبين الأحداث السابقة عليه والأحداث اللاحقة له لأغفلت ذكره، ولتغاضيت عنه إعفاءً لنفسى من ألم ممض لازمها طيلة تسجيل أحداثه.. ولكن تسلسل الأحداث، وأمانة التسجيل، والوفاء بحق التاريخ وحق الأجيال الجديدة — ألزمنى بإيراد ماكنت أوثر أن لاأورده.

ولا أعتقد أن شعور الصد عن تذكر هذا الفصل ليس مستولياً على نفسي وحدى؛ وإنما هو بغير شك مستول على نفوس كل الإخوة الذين عاصروا هذه الأحداث، ومن هذه النفوس نفوس الإخوة الذين كانوا وقود هذه الأحداث، والذين زجت بهم فى أتونها اليد الأثيمة التى كانوا إذ ذاك يحسنون بها ظناً.

ولم يكن الإخوان غافلين عن حقيقة أحداث هذا الفصل، ولا عن صانعها ومحركها، ولكنهم كانوا يتغاضون عن هذه الحقيقة؛ لأنهم لايملكون لمحركها شيئاً وهو مستخف عن الأنظار، ويريدون أن يحسموا الظاهرة التى بدت بين صفوفهم حسماً داخلياً، وهو حدود مايستطيعون، وأهم مايأملون من حفظ الكيان الروحى لدعوتهم سليماً معافىً غير مريض ولا مقطع ولا معلول؛ إذ هو الأساس الذى يهون كل شىء دونه. ولقد كانوا يعملون على ذلك، ويبذلون الجهد فى تحقيقه، وهم يعلمون أن كل نجاح يحرزونه فى هذا السبيل هو بمثابة طعنة فى قلب صانع هذه الأحداث ومحركها. ويعلمون أن هذه الطعنة لن توقظ ضمير هذا الصانع، بل إنها تزيد نار حقده اشتعالاً، وتدفعه إلى حياكة مؤامرة أخرى.

ويبدو أنه كان يعتقد أن المؤامرة الأخيرة التى نحن بصددها، والتى حاكها أحكم حياكة، واستطاع أن يجمع جميع خيوطها فى يده.. أنها مضمونة النجاح، وأن لاقبل للإخوان بمواجهتها.. ولقد كان تقديره صحيحاً فإنسان كان فى داخل الدعوة وفى صميمها، يعلم من أسرارها مالا يعلمه إلا القليل، ثم هيأت له الظروف أن تلقى إليه مقاليد الحكم فى مصر؛ يتصرف فى مقدراتها كما يشاء، لامعقب لحكمه.. ثم يتلقف رئيس النظام الخاص للإخوان، الذى لم يتعود مرءوسوه وأتباعه أن يعصوا له أمراً، ومن حول هذا الرئيس مئات من قيادات الإخوان بعضهم مفتون به، وبعضهم الآخر موتور يرى فى مؤازرة هذا الرئيس شفاء صدره وتحقيق أمله؛ لاسيما وقد صار هذا الرئيس يجمع إلى سلطته الروحية تأييد سلطة الحكم بما لديها من مغانم، وما يحوطها من هيبة.. إنسان جمع فى قبضته كل ذلك مما قد لايجتمع لإنسان.. وكل ذلك إزاء دعوة لايملك أصحابها إلا إيمانهم بها وثقتهم فى قيادتها، واعتزازهم بأخوّة كل أطرافها من عامة الناس بل من ضعفاء الناس وفقرائهم.. يذكرنا هذا الوضع بوضع وصفه القرآن فقال ﴿**أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾.

كان صانع المؤامرة ومحركها على حق فى تصوره أن المؤامرة مضمونة النجاح لايقف فى سبيل سهمها إلى الهدف عائق، ولا يعترض طريقه مانع.. كل أسباب النجاح قد

توفرت فلابد من النجاح.

وكان أمل جمال عبد الناصر الذى طالما تمناه هو أن يجد هذه الهيئة العتيدة طوع أمره ورهن إشارته وفى قبضة يده؛ حتى يستطيع أن يحكم مصر، ويبسط حكمه على البلاد العربية والإسلامية، ويستطيع بحق أن يكون إمبراطوراً، حيث يكون مؤيداً بقاعدة شعبية تمتد فى طول البلاد المصرية وعرضها وفروعها تغمر الشرق العربى كله، وتتجاوب معها تكوينات شعبية فى البلاد الإسلامية فى أنحاء العالم.. وهو أمل واسع عريض، وحلم باذخ لذيذ.. ولكنه اصطدم بشخصية الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين الذى أظهر استعداده أن يسلم جمال عبد الناصر مفتاح المركز العام، ولكنه لن يسلمه الإخوان المسلمين، فالإخوان المسلمون بغير مركز عام وبغير دور للشعب هم الإخوان المسلمون لاينقصهم شيء.. ورفض جمال عبد الناصر هذا العرض وأبى إلا أن يتسلم زمام الإخوان المسلمين.. وإذن فلابد لذلك من خلع هذا المرشد العنيد.. وتحت يد جمال عبد الناصر أكثر من واحد يطمع فى هذا المنصب ويسيل لعابه لمجرد الحلم به.. وإذن فلتوضع خطة، ولتدبر مؤامرة، وكل عناصر نجاحها فى متناول يده.. وإن هى إلا أيام ويخلو له الطريق بعد أن يخلع الإخوان مرشدهم ليضع بنفسه على رأس الهيئة صنيعة من صنائعه لتكون الهيئة بمرشدها الجديد فى ركابه.. مهمتها أن تطلق البخور بين يديه، وتسبح صباح مساء بحمده بل وتغسل على قدميه.

إن الخطة كانت سليمة، والمؤامرة كانت محكمة، والظروف كانت مواتية، والنجاح كان مضموناً. لولا إرادة الله التى شاءت أن تبقى فى هذا البلد هيئة واحدة تعمل لوجهه ومرضاة لأمره بين عشرات الهيئات التى مردت على الغش والختل والخداع. إرادة الله تدخلت، وخيبت ظن الحاسبين الذين جمعوا عناصر الجانب الأيمن فى المعادلة فأسفر حاصل الجمع عن شيء واحد لاشيء غيره وهذا الشيء هو النجاح التام الكامل فاطمأنوا وساروا فى خطواتهم بأقدام ثابتة لثقتهم فى النجاح.. ولكنهم نسوا حين كانوا يحسبون إدخال عنصر هام فى حسابهم هو عنصر «الله» وهو الفعال لما يريد؛ فانقلب نجاحهم فشلاً.

استند إخواننا هؤلاء إلى السلطة الكبرى فى البلاد، وظنوا فى القائم عليها أحسن الظن، وقالوا لأنفسهم: إذا أسندت الدعوة قيادتها إلى أخ قديم بها آلت إليه السلطة فإن ذلك أجدى على الدعوة وأنفع من إبقاء قيادتها فى يد رجل من عامة الناس ليس له من الأمر شيء، ولا يسند ظهره إلى سلطة ما.. ونسى إخواننا هؤلاء أو تناسوا ماأظهره هذا الأخ صاحب السلطة من مواقف وما أقدم عليه من تصرفات بتنكره لهذه الدعوة وتنصله من تبعاتها، وما يكن لها من عداء وتربصه بها الشر؛ فقد تنكر للحكم بما أنزل الله وأنشأ مسجداً ضراراً سماه هيئة التحرير وأراد أن يمحو شخصية الدعوة بإلزامها بالاندماج

والذوبان فى هذه الهيئة، فلما عجز عن حمل الإخوان على ماأراد لجأ إلى محاولة أخر إخواننا هؤلاء لأنفسهم أن يكونوا عدته فيها.

أما نحن فاستندنا إلى الله وحده، وواجهنا إخواننا هؤلاء ونحن نعلم أننا فى الحقيقة لانواجههم وإنما نواجه هذا الحاكم وهذه السلطة التى تربع على قمتها، وما كانت مواجهتنا اعتداءً عليه، ولا تنديداً به؛ بل كانت مجرد دفاع عن دعوتنا وعن كياننا؛ حتى إنك لتلمس هذا المعنى فى كل كلمة كتبناها فيما أجريناه من تحقيق وما اصدرناه من بيانات؛ لم نمس السلطة بحرف واحد، ولم نشر إليها بكلمة واحدة.. بل إننا حاولنا إشعارها بأملنا فيها ــ تقرباً لقلبها وفثئاً لما انطوت عليه جوانحها من حقد ــ فلجأنا إليها طالبين إليها أن تكون واسطة خير بيننا وبين إخواننا؛ وليس أدل على مسالمتنا وحسن نياتنا من ذلك..

فماذا كان رد الفعل لهذه المسالمة وقد فشلت المؤامرة وانتهت إلى عكس ماكانوا يتوقعون إذ انتهت بنبذ المتآمرين وبضم الصفوف ضماً صارت الدعوة به أقوى مما كانت؟

ماذا كان رد الفعل؟

* * *

الباب التاسع

فشلت الأقنعة كلها فى إخفـاء وجه مدبر المؤامرة

مقدمـــة

الفصل الأول : جمال عبد الناصر يسفر عن وجهه لأول مرة فيصدر قراراً بحل الإخوان المسلمين

الفصل الثانى: الاعتقـــال الأول

الفصل الثالث: قمة التهاب المشاعر الشعبية- إذعان جمال عبد الناصر

مقدمــة

يبدو أن هذه المؤامرة كانت آخر ماكان فى جعبة جمال عبد الناصر، وأن القناع الذى كان يخفى به وجهه فى أثنائها كان آخر قناع فى حوزته..

وكان فى كل مرة يجد بين يديه من يزج بهم على المسرح ويجد فى حوزته قناعاً يخفى به عن المشاهدين وجهه؛ فلما كانت هذه التمثيلية الدرامية المفزعة الأخيرة.. وانتهت بالفشل غير المتوقع.. بحث عن قناع آخر ـ استعداداً لتمثيلية جديدة بعدها ـ فوجدها قد نفدت.

ولم يكن بد حينئذ من أن يخرج من وراء الكواليس.. وبدلاً من أن يقتصر دوره ـ كما كان فى كل مرة ـ على التلقين أصبح عليه أن يغادر المكان الخفى للملقن وأن يظهر على المسرح وحده ـ بعد أن فقد الممثلون جميعاً شخصياتهم ولم يعودوا يصلحون لأى دور من الأدوار ـ كان عليه أن يظهر على المسرح سافراً ليؤدى بنفسه دوراً جديداً.. ولكن الدور هذه المرة كان دوراً طائشاً عنيفاً.

وقد كان هو فى كل مرة المؤلف والملقن والمخرج وبين يديه الممثلون يختار منهم من يشاء لما يشاء؛ فكان وجود الممثلين بين يديه يتيح له فرصة من الوقت ليؤلف التمثيلية من واقع الحياة.. ولكن غياب الممثلين عن المسرح هذه المرة فجأة لم يتح له فرصة التأليف من واقع الحياة فلجأ إلى الخيال واستمد منه تمثيلية هذه المرة.

ثم إن بروزه على المسرح هذه المرة وحده كان ملفتاً للنظر؛ فلم يتعود المشاهدون أن يروه بشخصه ممثلاً ـ فلما رأوه فى هذا الموقف ذهبت بهم الظنون كل مذهب، وشرعوا يراجعون الأدوار التى شاهدوها فى المسرحيات السابقة على ضوء هذا المشهد الجديد.. وقرروا فى أنفسهم أنه لابد أن يكون هو صاحب الوجه المقنع الذى كان يطل من وراء ولا يرون إلا قناعه.

وواضعو خطط المؤامرات حين تفشل مؤامراتهم أكثر من مرة يفضلون دائماً أن يتخلوا عن التآمر ليعيشوا بقية حياتهم عيشة طاهرة؛ متعظين بما أصابهم من فشل لكن شهوة جمال عبد الناصر إلى ارتقاء متن الزعامة الشعبية ـ التى يراها وهو محق ـ أعظم من رياسة الدولة ـ حالت بينه وبين الاتعاظ، وآثر أن يخاطر بنفسه هذه المخاطرة.

صدر القرار بفصل الثلاثة الكبار يوم ٩ ديسمبر ١٩٥٣ وصودق عليه من الهيئة التأسيسية مستأنفاً فى اليوم التالى.. وطبعت الرسالة التى تضمنت قرار الاتهام والتقرير المفصل للجنة العضوية يوم ١٥ ديسمبر واستغرق توزيعها على شعب الإخوان بقية الشهر وتمت دراستها.. وبدأت تمثيلية عبد الناصر الجديدة فى أوائل العام الجديد ١٩٥٤.

ولا شك فى أن مسارعة قسم نشر الدعوة بالمركز العام إلى طبع هذه الرسالة وتوزيعها كان إجراءً حاسماً، فلقد كان هناك من وراء الكواليس سباق لاهث.. فقيادة الإخوان تريد أن يصل إلى مسامع الإخوان فى كل مكان تفاصيل الحقائق فى هذه المؤامرة التى يغشاها الغموض.. وجمال عبد الناصر يريد أن يباغت الإخوان بإجراء جديد من طبيعته أنه يحول بين القيادة وبين توصيل هذه الحقائق إلى الإخوان حتى تكون أذهانهم خالية فتتقبل أنباء يختلقها فى خطة إجرائه الجديد ــ وقد لايكون سراً أن أذكر فى هذا المقام أنه لما تم طبع هذه الرسالة وقدّم لى قسم نشر الدعوة نسخة منها، ذهلت وسألتهم: كيف استطعتم أن تطبعوها بهذه السرعة؟ فقالوا لى: بل إنها أرسلت أيضاً إلى المكاتب الإدارية ــ كان وصول هذه الرسالة إلى الإخوان فى جميع أنحاء مصر وخارج مصر بهذه السرعة من أعظم مكاسب الإخوان المسلمين. وقد يأتى بيان ذلك إن شاء الله.

ومع ذلك فإن جمال عبد الناصر ــ وقد كان يعلم مدى أهمية السرعة فى إنجاز إجرائه الذى قرر اتخاذه ــ لم يقصر ولم يضيع دقيقة واحدة.. ولكن إنجاز الإخوان ــ والحمد لله ــ كان أسرع.

* * *

الفصل الأول

جمال عبد الناصر يسفر عن وجهه لأول مرة فيصدر قراراً بحل الإخوان المسلمين

كان آخر ماأنهينا به الباب الماضى سؤال يقول:

ماذا كان رد فعل جمال عبد الناصر على موقف الإخوان منه موقف الناصح الأمين؟

وقد خصصنا هذا الفصل لنص رد جمال عبد الناصر الذى ظهر فى صدر الصحف يوم ١٥ يناير ١٩٥٤ تحت العنوان التالى:

بيان خطير من مجلس قيادة الثورة عن الإخوان المسلمين لاتصالهم بالإنجليز، وإقامة منظمات سرية فى الجيش والبوليس ومحاولة قلب نظام الحكم القائم تحت ستار من الدين اعتقال ٤٥٠ والإفراج عن ٢٠

أصدر مجلس قيادة الثورة فى الساعة الواحدة إلا ربعاً من صباح اليوم قراراً باعتبار جماعة الإخوان المسلمين حزباً سياسياً يطبق عليها أمر المجلس الخاص بحل الأحزاب السياسية وفيما يلى نص البيان:

(ملاحظة ــ المؤسسات الاجتماعية تمارس نشاطها ــ صرح البكباشى أنور السادات بأن المؤسسات الاجتماعية لجماعة الإخوان المسلمين المنحلة كالمدارس والمستوصفات والمستشفيات وغيرها ستظل تمارس نشاطها تحت اسم جديدة يحدده وزير الداخلية ــ ولا ينطبق على هذه المؤسسات قرار المصادرة الذى يقضى به أمر حل الأحزاب ومصادرة أموالها وممتلكاتها).

إن كانت الثورة قد قامت فى ٢٣ يوليو، فقد ظل تنظيم الضباط الأحرار ينتظر من يتقدم الصفوف مخلصاً ليغير المنكر الذى كنا نعيش فيه، ويثبت بعمله جدية صدقه وإخلاصه لدينه ووطنه.. وكنا على استعداد أن نتبعه فى صف واحد كالبنيان المرصوص؛ حتى يحقق لوطننا العزيز عزتــه وكرامته وتحرراً من الاستعباد والعبودية.

ولما طال انتظارنا عقدنا العزم على القيام بالثورة، وكنا جادين ولا هدف لنا إلا حرية الأمة وكرامتها وإن الله تعالى لن يكتفى بإيمان الناس إذا لم يتبعوا هذا الإيمان بالعمل وبالعمل الصالح فيقول الله عز وجل ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون**﴾.

ومن يوم قيام الثورة ونحن فى معركة لم تنته بعد، معركة ضد الاستعمار لاضد المواطنين، وهذه المعركة لاتحتمل المطامع والأهواء التى نفذ الاستعمار من خلالها ليحطم وحدة الأمة وتماسكها فلا تقوى على تحقيق أهدافها.

وقد بدأت الثورة فعلا بتوحيد الصفوف إلى أن حلت الأحزاب ولم تحل الإخوان إبقاءً عليهم وأملاً فيهم وانتظاراً لجهودهم وجهادهم فى معركة التحرير، ولأنهم لم يتلوثوا بمطامع الحكم كما تلوثت الأحزاب السياسية الأخرى، ولأن لهم رسالة دينية تعين على إصلاح الخلق وتهذيب النفوس.

ولكن نفراً من الصفوف الأولى فى هيئة الإخوان أرادوا أن يسخروا هذه الهيئة لمنافع شخصية وأطماع ذاتية مستغلين سلطان الدين على النفوس، وبراءة وحماسة الشبان المسلمين، ولم يكونوا فى هذا مخلصين لوطن أو لدين.

ولقد أثبت تسلسل الحوادث أن هذا النفر من الطامعين استغلوا هيئة الإخوان والنظم التى تقوم عليها هذه الهيئة لإحداث انقلاب فى نظام الحكم القائم تحت ستار الدين.

وقد سارت الحوادث بين الثورة وهيئة الإخوان بالستلسل الآتى:

١ — فى صباح يوم الثورة استدعى الأستاذ حسن العشماوى لسان حال المرشد العام إلى مقر القيادة العامة بكوبرى القبة، وأبلغ إليه أن يطلب من المرشد العام إصدار بيان لتأييد الثورة، ولكن المرشد بقى فى مصيفه بالإسكندرية لائذاً بالصمت فلم يحضر إلى القاهرة إلا بعد عزل الملك ثم أصدر بياناً مقتضباً طلب بعده أن يقابل أحد رجال الثورة فقابل البكباشى جمال عبد الناصر فى منزل الأستاذ صالح أبو رقيق الموظف بالجامعة العربية. وقد بدأ المرشد حديثه مطالباً بتطبيق أحكام القرآن فى الحال، فرد عليه البكباشى جمال عبد الناصر أن هذه الثورة قامت حرباً على الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والاستعمار البريطانى وهى بذلك ليست إلا تطبيقاً لتعاليم القرآن الكريم.

فانتقل المرشد إلى تحديد الملكية وقال إن رأية أن يكون الحد الأقصى ٥٠٠ فدان، فرد عليه البكباشى جمال عبد الناصر إن الثورة رأت التحديد بمائتى فدان فقط وهى مصممة على ذلك.

فانتقل المرشد بالحديث قائلاً إنه لكى تؤيد هيئة الإخوان الثورة أن يعرض عليه أى تصرف للثورة قبل إقراره. فرد عليه البكباشى جمال عبد الناصر قائلاً إن هذه الثورة قامت بدون وصاية أحد عليها وهى لن تقبل بحال أن توضع تحت وصاية أحد، وإن كان هذا لايمنع القائمين على الثورة من التشاور فى السياسة العامة مع كل المخلصين من أهل الرأى دون التقيد بهيئة من الهيئات. ولم يلق هذا الحديث قبولاً من المرشد.

٢ — سارعت الثورة بعد نجاحها فى إعادة الحق إلى نصابه. وكان من أول أعمالها أن أعادت التحقيق فى مقتل الشهيد حسن البنا؛ فقبضت على المتهمين فى الوقت الذى كان المرشد لايزال فى مصيفه بالإسكندرية.

٣ — طالبت الثورة الرئيس السابق على ماهر بمجرد توليه الوزارة أن يصدر عفواً شاملاً عن المعتقلين والمسجونين السياسين وفى مقدمتهم الإخوان. وقد نفذ هذا فعلاً بمجرد تولى الرئيس نجيب رياسة الوزارة.

٤ — حينما تقرر إسناد الوزارة إلى الرئيس نجيب تقرر أن يشترك فيها الإخوان بثلاثة أعضاء على أن يكون أحدهم الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى — وقد تم اتصال تليفونى بين اللواء عبد الحكيم عامر والمرشد ظهر يوم ٧ سبتمبر ١٩٥٢ فوافق على هذا الرأى قائلاً إنه سيلغ القيادة بالأسمين الآخرين. ثم حضر الأستاذ حسن العشماوى إلى القيادة فى كوبرى القبة وأبلغ البكباشى جمال عبد الناصر أن المرشد يرشح للوزارة الأستاذ منير دلة الموظف بمجلس الدولة والأستاذ حسن العشماوى المحامى.

وقد عرض هذا الترشيح على مجلس الثورة فلم يوافق عليهما، وطلب البكباشى جمال عبد الناصر من الأستاذ حسن العشماوى أن يبلغ ذلك للمرشد ليرشح غيرهما — وفى الوقت نفسه اتصل البكباشى جمال بالمرشد فقال الأخير إنه سيجمع مكتب الإرشاد فى الساعة السادسة ويرد عليه بعد الاجتماع. وقد أعاد البكباشى جمال الاتصال مرة أخرى بالمرشد فرد عليه أن مكتب الإرشاد قرر عدم الاشتراك فى الوزارة، فلما قال له: لقد أخطرنا الشيخ الباقورى بموافقتك وطلبنا منه أن يتقابل مع الوزراء فى الساعة السابعة لحلف اليمين أجابه بأنه يرشح بعض أصدقاء الإخوان للاشتراك فى الوزارة ولا يوافق على ترشيح أحد من الإخوان.

وفى اليوم التالى صدر قرار من مكتب الإرشاد بفصل الشيخ الباقورى من هيئة

الإخوان فاستدعى البكباشي جمال عبد الناصر الأستاذ حسن العشماوى وعاتبه على هذا التصرف الذى يظهر الإخوان بمظهر الممتنع عن تأييد وزارة الرئيس نجيب وهدد بنشر جميع التفاصيل التى لازمت تشكيل الوزارة؛ فكان رد العشماوى أن هذا النشر يحدث فرقة فى صفوف الإخوان وليس لموقف المرشد العام ورجا عدم النشر.

٥ ــ عندما طلب من الأحزاب أن تقدم إخطارات عن تكوينها قدم الإخوان إخطاراً باعتبارهم حزباً سياسياً. وقد نصحت الثورة رجال الإخوان بأن لايتردوا فى الحزبية، ويكفى أن يمارسوا دعوتهم الإسلامية بعيداً عن غبار المعارك السياسية والشهوات الحزبية. وقد ترددوا بادىء الأمر ثم استجابوا قبل انتهاء موعد تقديم الإخطارات وطلبوا اعتبارهم هيئة. وطلبوا من البكباشي جمال عبد الناصر أن يساعدهم فى تصحيح الإخطار، فذهب إلى وزارة الداخلية حيث تقابل مع المرشد فى مكتب الأستاذ سليمان حافظ وزير الداخلية وقتئذ وتم الاتفاق على أن تطلب وزارة الداخلية من الإخوان تفسيراً عما إذا كانت أهدافهم سيعمل على تحقيقها عن طريق أسباب الحكم كالانتخابات وأن يكون رد الإخوان بالنفى لاينطبق عليهم القانون.

٦ ــ وفى صبيحة يوم صدور قرار الأحزاب فى يناير ١٩٥٣ حضر إلى مكتب البكباشي جمال عبد الناصر الصاغ صلاح شادى والأستاذ منير الدلة وقالا له: الآن وبعد حل الأحزاب لم يبق من مؤيد للثورة إلا هيئة الإخوان، ولهذا فإنهم يجب أن يكونوا فى وضع يمكنهم من أن يردوا على كل أسباب التساؤل. فلما سألهم ماهو هذا الوضع المطلوب أجابا بأنهم يريدون الاشتراك فى الوزارة. فقال لهما: إننا لسنا فى محنة، وإذا كنتم تعتقدون أن هذا الظرف هو ظرف المطالب وفرض الشروط فأنتم مخطئون. فقالوا له: إذا لم توافق على هذا فإننا نطالب بتكوين لجنة من هيئة الإخوان تعرض عليها القوانين قبل صدورها للموافقة عليها، وهذا هو سبيلنا لتأييدكم إن أردتم التأييد فقال لهم البكباشي جمال عبد الناصر: لقد قلت للمرشد سابقاً إننا لن نقبل الوصاية، وإننى أكررها اليوم مرة أخرى فى عزم وإصرار.

وكانت هذه الحادثة هى نقطة التحول فى موقف الإخوان من الثورة وحكومة الثورة؛ إذ دأب المرشد بعد هذا على إعطاء تصريحات صحفية مهاجماً فيها الثورة وحكومتها فى الصحافة الخارجية والداخلية، كما كانت تصدر الأوامر شفوياً إلى هيئات الإخوان بأن يظهروا دائماً فى المناسبات التى يعقدها رجال الثورة بمظهر الخصم المتحدى.

٧ ــ لما علم المرشد بتكوين هيئة التحرير تقابل مع البكباشي جمال عبد الناصر فى مبنى القيادة بكوبرى القبة وقال له: إنه لالزوم لإنشاء هيئة التحرير مادام الإخوان قائمين. فرد عليه البكباشي جمال: إن فى البلاد من لايرغب فى الانضمام إلى الإخوان،

وإن مجال الإصلاح متسع أمام الهيئتين. فقال المرشد: لن أؤيد هذه الهيئة. وبدأ منذ ذلك اليوم فى محاربة هيئة التحرير وإصدار أوامره بإثارة الشغب واختلاق المناسبات لإيجاد جو من الخصومة بين أبناء البلد الواحد.

٨ — وفى شهر مايو ١٩٥٣ ثبت لرجال الثورة أن هناك اتصالاً بين بعض الإخوان المحيطين بالمرشد وبين الإنجليز عن طريق الدكتور محمد سالم الموظف فى شركة النقل والهندسة — وقد عرف البكباشى جمال من حديثه مع الأستاذ حسن العشماوى فى هذا الخصوص أنه حدث اتصال فعلاً بين الأستاذ منير الدلة والأستاذ صالح أبو رقيق ممثلين عن الإخوان وبين مستر إيفانز المستشار الشرقى للسفارة البريطانية وأن هذا الحديث سيعرض حينما يتقابل البكباشى جمال مع المرشد. وعندما التقى البكباشى جمال مع المرشد أظهر له استياءه من اتصال الإخوان مع الإنجليز والتحدث معهم فى القضية الوطنية؛ الأمر الذى يدعو إلى التضارب فى القول وإظهار البلاد بمظهر الانقسام.

ولما استجوب الدكتور محمد سالم عن موضوع اتصال الإنجليز بالمرشد ومن حوله قال: إن القضية تبتدىء وقت أن كان وفد المباحثات المصرى جالساً يتباحث رسمياً مع الوفد البريطانى.

وفى إبريل سنة ١٩٥٣ اتصل به القاضى جراهام بالسفارة البريطانية وطلب منه أن يمهد مقابلة بين مستر إيفانز المستشار الشرقى بالسفارة وبعض قادة الإخوان، وأنه أى محمد سالم أمكنه ترتيب هذه المقابلة فى منزله بالمعادى بين منير دلة وصالح أبو رقيق عن الإخوان ومستر إيفانز، وتناول الحديث موقف الإخوان من الحكومة، وتباحثوا فى تفاصيل القضية المصرية ورأى الإخوان وموقفهم من هذه القضية — ثم قال الدكتور سالم إنه جاء فى رأى قادة الإخوان أن عودة الإنجليز إلى القاعدة تكون بناء على رأى لجنة مشكلة من المصريين والإنجليز وأن الذى يقرر خطر الحرب هى هيئة الأمم المتحدة.

ولعل هذا هو السبب فى تمسك الإنجليز بهذا الرأى الذى لم يوافق عليه الجانب المصرى للمفاوضات حتى اليوم. ثم قال الدكتور سالم فى اجتماع آخر مماثل فى منزله أيضاً حيث طلب مستر إيفانز مقابلة المرشد فوعد منير دلة بترتيب هذا الاجتماع. وفعلاً تم فى منزل المرشد. ودار فى هذا الاجتماع الحديث عن القضية المصرية وموقف الإخوان منها. وذكر الدكتور محمد سالم أن مستر إيفانز دعا منير دلة وصالح أبو رقيق لتناول الشاى فى منزله وقد أجابا دعوته مرتين.

٩ — وفى أوائل شهر يونيه ١٩٥٣ ثبت لإدارة المخابرات أن خطة الإخوان قد تحولت لبث نشاطها داخل قوات الجيش والبوليس. وكانت خطتهم فى الجيش تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: يهدف إلى عمل تنظيم سرى تابع الإخوان بين صفوف الجيش. ودعوا فيما دعوا عدداً من الضباط وهم لايعلمون أنهم من الضباط الاحرار فسايرهم وساروا فى خططهم، وكانوا يجتمعون بهم اجتماعات أسبوعية، وكانوا يتحدثون فى هذه الاجتماعات عن الإعداد لحكم الإخوان المسلمين والدعوة إلى ضم أكبر عدد من الضباط ليعملوا تحت إمرة الإخوان. وكانوا يأخذون عليهم عهداً وميثاقاً وقسماً أن يطيعوا مايصدر إليهم من أوامر المرشد.

أما القسم الثانى: فكان ينحصر نشاطه فى عمل تشكيلات من ضباط البوليس. وكان الغرض منها هو إخضاع نسبة كبيرة من ضباط البوليس لأوامر المرشد أيضاً. وكانوا يجتمعون فى اجتماعات دورية أسبوعية، وينحصر حديثهم فيها فى بث الحقد والكراهية بين ضباط البوليس بأنهم أحق من رجال الجيش بالحكم نظراً لاتصالهم بالشعب. وكانوا يمنونهم بالترقيات والمناصب بعد أن يتم لهم هدفهم. وكان يتزعمهم الصاغ صلاح شادى الذى طالما ردد فى اجتماعاتهم أنه وزير الداخلية المقبل.

وقسم ثالث: أطلق عليه قسم الوحدات. وكان الغرض منه هو جمع أكبر عد ممكن من ضباط الصف فى الجيش تحت إمرة المرشد أيضاً. وكانوا يجتمعون بهم فى اجتماعات سرية أسبوعية. وكان الحديث يشتمل على بث الكراهية للضباط فى نفوس ضباط الصف وإشعارهم بأنهم هم القوة الحقيقة فى وحدات الجيش، وأنهم إذا مانجح الإخوان فى الوصول إلى الحكم فسيعاملون معاملة كريمة — كما كان هذا القسم يقوم ببث الدعوة لجمع أكبر عدد من صف ضباط وجنود ليكون تحت إمرة المرشد.

ولما تجمعت هذه المعلومات لإدارة المخابرات اتصل البكباشى جمال بالأستاذ حسن العشماوى باعتباره ممثلاً للمرشد وصارحه بموقف الإخوان العام ثم بموقف الإخوان فى داخل الجيش ومايدبرونه فى الخفاء بين قوات الجيش والبوليس وقال له: لقد أمنا لكم ولكن هذه الحوادث تظهر أنكم تدبرون أمراً سيجنى على مصير البلاد، ولن يستفيد منه إلا المستعمر، وإننى أنذر أننا لن نقف مكتوفى الأيدى أمام هذه التصرفات التى يجب أن توقف إيقافاً كاملاً، ويجب أن يعلم الإخوان أن الثورة إنما أبقت عليهم بعد أن حلت جميع الأحزاب لاعتقادها أن فى بقائهم مصلحة وطنية، فإذا ماظهر أن فى بقائهم مايعرض البلاد للخطر فإننا لن نتردد فى اتخاذ ماتمليه مصلحة البلاد مهما كانت النتائج. فوعد أن يتصل بالمرشد فى هذا الأمر ولم يعد حتى الآن.

وفى اليوم التالى استدعى البكباشى جمال عبد الناصر الأستاذ خميس حميده نائب المرشد والأستاذ الشيخ سيد سابق وأبلغهما ماقاله لحسن العشماوى فى اليوم السابق فأظهرا الاستياء الشديد وقالا إنهما لايعلمان شيئاً عن هذا وأنهما سيبحثان الأمر ويعملان

على إيقاف هذا النشاط الضار.

ورغم هذا التحذير وهذا الإنذار استمر العمل حثيثاً فى صفوف الجيش والبوليس، وأصبح الكلام فى الاجتماعات الدورية يأخذ طابع الصراحة وطابع الحقد؛ فكانوا يقلبون الخطط فى هذه الاجتماعات بحثاً عن أسلم الطرق لقلب نظام الحكم. وكان الأحرار المنبثون فى هذه التشكيلات يبلغون أولاً بأول عما يدور فى كل اجتماع.

١٠ ــ بعد أن تعين الأستاذ الهضيبى مرشداً للإخوان لم يأمن إلى أفراد الجهاز السرى الذى كان موجوداً فى وقت الشهيد حسن البنا برياسة السيد/ عبد الرحمن السندى. فعمل على إبعاده معلناً بأنه لايوافق على التنظيمات السرية لأنه لاسرية فى الدين. ولكنه فى الوقت نفسه بدأ فى تكوين تنظيمات سرية جديدة تدين له بالولاء والطاعة. بل عمد إلى التفرقة بين أفراد النظام السرى القديم ليأخذ منه إلى صفه أكبر عدد ليضمهم إلى جهازه السرى الجديد ــ وفى هذه الظروف المريبة قتل المرحوم المهندس السيد فايز عبد المطلب بواسطة صندوق من الديناميت وصل إلى منزله على أنه هدية من الحلوى لمناسبة عيد المولد النبوى، وقد قتل معه بسبب الحادث شقيقه الصغير البالغ من العمر تسع سنوات وطفلة صغيرة كانت تسير تحت الشرفة التى انهارت نتيجة الانفجار.

وكانت المعلومات ترد إلى المخابرات أن المقربين من المرشد يسيرون سيراً سريعاً فى سبيل تكوين جهاز سرى قوى، ويسعون فى نفس الوقت إلى التخلص من المناوئين لهم من أفراد الجهاز السرى القديم.

١١ ــ وكانت نتيجة ذلك أن حدث الانقسام الأخير بين الإخوان، واحتل فريق منهم دار المركز العام. وقد حضر إلى منزل البكباشى جمال عبد الناصر بعد منتصف ليل ذلك اليوم الشيخ محمد فرغلى والأستاذ السعيد رمضان مطالبين بالتدخل ضد الفريق الآخر ومنع نشر الحادث. فقال لهم البكباشى جمال: إنه لن يستطيع منع النشر حتى لايؤول الحادث تأويلاً ضاراً بمصلحة البلاد ــ أما من جهة التدخل فهو لايستطيع التدخل بالقوة حتى لاتتضاعف النتائج، وحتى لايشعر الإخوان أن الثورة تنصر فريقاً على فريق، وأنه يرى أن يتصالح الفريقان وأن يعملا على تصفية مابينهما ــ فطلب منه الشيخ فرغلى أن يكون واسطة بين الفريقين وأن يجمعه مع الأستاذ صالح عشماوى ــ فطلب منه البكباشى جمال أن يعود فى اليوم التالى فى الساعة العاشرة صباحاً وأنه سيعمل على أن يكون الأستاذ صالح موجوداً ــ وفى الموعد المحدد حضر الشيخ فرغلى ولم يمكن الاتصال بالأستاذ صالح عشماوى، وكان الشيخ فرغلى متلهفاً على وجود الأستاذ صالح عشماوى مما دعا البكباشى جمال أن يطلب من البوليس الحربى البحث عن الأستاذ صالح وإحضاره إلى المنزل. وتمكن البوليس الحربى فى الساعة الثانية عشرة من العثور على الأستاذ صالح فحضر

هو والشيخ سيد سابق إلى منزل البكباشي جمال وبدأ الطرفان يتعاتبان.. وأخيراً اتفقا على أن تشكل لجنة يوافق على أعضائها الأستاذ صالح للبحث فيما نسب إلى لإخوان الأربعة المفصولين على أن لايعتبروا مفصولين وإنما يعتبرون تحت التحقيق، والعمل على أن يسود السلام المؤتمر الذى كان مزمعاً عقده فى دار المركز العام فى عصر ذلك اليوم. ولكن لم ينفذ هذا الاتفاق.

١٢ـــ وفى يوم الأحد ١٠ يناير ١٩٥٤ ذهب الأستاذ حسن العشماوى العضو العامل بجماعة الإخوان وأخو حرم منير الدلة إلى منزل مستر كروزويل الوزير المفوض بالسفارة البريطانية ببولاق الدكرور الساعة السابعة صباحاً ثم عاد لزيارته أيضاً فى نفس اليوم فى مقابلة دامت من الساعة الرابعة بعد الظهر إلى الساعة الحادية عشرة من مساء نفس اليوم. وهذه الحلقة من الاتصالات بالإنجليز تكمل الحلقة الأولى التى روى تفاصيلها الدكتور محمد سالم.

١٣ـــ وكان آخر مظهر من مظاهر النشاط المعادى الذى قامت به جماعة الإخوان هو الاتفاق على إقامة احتفال بذكرى المنيسى وشاهين يوم ١٢ الجارى فى جامعتى القاهرة والإسكندرية فى وقت واحد، وأن يعملوا جهدهم لكى يظهروا بكل قوتهم فى هذا اليوم، وأن يستغلوا هذه المناسبة استغلالاً سياسياً فى صالحهم، ويثبتوا للمسئولين أنهم قوة وأن زمام الجامعة فى أيديهم وحدهم ــ وفعلاً تم اجتماع لهذا الغرض برياسة عبد الحكيم عابدين حضره الأستاذ حسن دوح المحامى ومحمود أبو شلوع ومصطفى البساطى من الطلبة، واتفقوا على أن يطلبوا من الطلبة الإخوان الاستعداد لمواجهة أى احتمال يطرأ على الموقف خلال المؤتمر حتى يظهروا بمظهر القوة، وحتى لايظهر فى الجامعة أى صوت آخر غير صوتهم. وفى سبيل تحقيق هذا الغرض اتصلوا بالطلبة الشيوعيين رغم قلتهم وتباين وجهات النظر وعقدوا معهم اتفاقاً ودياً يعمل به خلال المؤتمر.

وفى صباح ١٢ الجارى عقد المؤتمر وتكتل الإخوان فى حرم الجامعة وسيطروا على الميكرفون، ووصل إلى الجامعة أفراد منظمات الشباب من طلبة المدارس الثانوية ومعهم ميكروفون مثبت فى عربة للاحتفال بذكرى الشهداء. فتحرش بعض الطلبة الإخوان وطلبوا إخراج ميكروفون منظمات الشباب. وانتظم الحفل وألقيت كلمات من مدير الجامعة والطلبة. وفجأة إذا ببعض الطلبة من الإخوان يحضرون إلى الاجتماع ومعهم نواب صفوى زعيم فدائيان إسلام فى إيران حاملينه على الأكتاف، وصعد إلى المنصة وألقى كلمة، وإذا بطلبة الإخوان يقابلونه بهتافهم التقليدى «الله وأكبر ولله الحمد» وهنا هتف طلبة منظمة الشباب «الله أكبر والعزة لمصر» فساء طلبة الإخوان أن يظهر صوت فى الجامعة مع صوتهم فهاجموا الهاتفين بالكرابيج والعصى وقلبوا عربة الميكروفون وأحرقوها وأصيب البعض إصابات مختلفة ثم تفرق الجميع إلى منازلهم.

حدث كل هذا فى الظلام. وظن المرشد وأعوانه أن المسئولين غافلون عن أمرهم— لذلك فنحن نعلن باسم هذه الثورة الى تحمل أمانة أهداف هذا الشعب أن مرشد الإخوان ومن حوله قد وجهوا نشاط هذه الهيئة توجيهاً يضر بكيان الوطن ويعتدى على حرمة الدين.

ولن تسمح الثورة أن تتكرر فى مصر مأساة رجعية باسم الدين. ولن تسمح لأحد أن يتلاعب بمصائر هذا البلد بشهوات خاصة مهما كانت دعواها، ولا أن يستغل الدين فى خدمة الأغراض والشهوات وستكون إجراءات الثورة حاسمة وفى ضوء النهار وأمام المصريين جميعاً والله ولى التوفيق.

* * *

الفصل الثانى

الاعتقال الأول

سأرجىء التعليق على بيان مجلس الثورة الذى أوردته فى الفصل السابق لأتحدث عن عملية الاعتقال التى لابست هذا البيان فحدثت قبيله بأيام أو معه أو بعده بأيام.

أما من ناحيتى فقد حضر إلىّ فى نحو الساعة العاشرة صباحاً يوم ١٥ يناير ١٩٥٤ فى مقر عملى بمجلح القناطر الخيرية ضابط بالملابس المدنية، وأخبرنى أنه مكلف باعتقالى وأنه تابع لمحافظة القليوبية التى تتبعها القناطر الخيرية. فسألته عما إذا كان من حقى أن أذهب إلى منزلى ـــ وكان منزلى مجاوراً للمحلج ـــ فأبدى الرجل استعداداً كريماً، وصعد معى إلى حيث أسكن، وأحضرت حقيبتى وبها بعض الملابس وأخذت معى كتاباً كنت أحبه هو شرح لحكم ابن عطاء الله السكندرى، ونزلت معه فركبنا سيارة المحافظة إلى القاهرة حيث سلمنى إلى مقر قيادة البوليس الحربى الذى قام بنقلى إلى السجن الحربى.

وكنا هذه المرة فى مبنى صغير من مبانى السجن الحربى حيث وجدت مجموعة قليلة العدد من الإخوان. وكانت الأوامر تقضى بحبسنا حبساً انفرادياً. وكان جارى فى الزنزانة التى تلى زنزانتى الأخ الشيخ محمد فرغلى، وكان من أحب الإخوان إلى نفسى، لأنه كان من أحب الإخوان إلى الأستاذ الإمام، وأعتقد أنه كان من أقرب الإخوان إلى نفوس جميع الإخوان.. لأنه كان مع تفانيه فى دعوته لايتكلف ولا يتصنع ولا يتشدق.. وأذكر بهذه المناسبة أنه ـــ وهو واعظ صناعته الكلام ـــ كان إذا دعاه الأستاذ الإمام فى اجتماع من الاجتماعات إلى الكلام للتعليق على رأى أبداه الأستاذ فى اجتماع للهيئة التأسيسية؛ فإنه كان يقف ولا يتكلم كأنما ارتج عليه؛ حياءً من أن يعقب على كلام أستاذه.. فيبتسم الأستاذ ابتسامة الإعجاب بحياء العلماء وأدب الفضلاء.

وكنا محبوسين حبساً انفرادياً، ولكن كل زنزانة كانت مزودة بسرير عليه مرتبة نظيفة ومخدة وبطانية وبمنضدة وبكرسى. وكان الطعام الذى يقدم إلينا طعاماً نظيفاً ومتقن الطهى، وفى أوان من الصينى، ومع الطعام ملعقة، وشوكة أيضاً فى بعض الأحيان.. ولكن الحبس الانفرادى على كل حال ثقيل على النفس ومحطم للأعصاب.. وكانت

الزنازين تفتح لنا أبوابها مرة أو مرتين فى اليوم حيث نجدد وضوءنا.. وكانت هذه هى فرصة تلاقينا معاً. ومع أن تبادل الحديث فيما بيننا كان ممنوعاً إلا أننا كنا نتمكن من ذلك.

وفى أول مرة فتحت الزنازين التقيت بالأخ الشيخ فرغلى فشكا إلىّ ضيقه بهذا الحبس الانفرادى دون أن يكون معه شىء يتسلى فيه ـــ ويبدو أن الضابط الذى اعتقله لم يسمح له باصطحاب شىء معه ـــ وسألنى: هل أحضرت معك كتباً؟ فقلت له: أحضرت معى كتاب شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى ومعى المصحف فقال: إنك طبعاً لاتستغنى عن المصحف فأعطنى كتاب ابن عطاء فأعطيته إياه.

وفى يوم آخر تقابلنا كالمعتاد فى دورة المياة فأخبرنا الأخ الأستاذ حسن العشماوى أنه نودى عليه فى الصباح. فإذا به يجد فى مكتب السجن الحربى فى انتظاره وكيل نيابة كان زميلاً له، وتبين له أنه جاء لإجراء تحقيق معه، فرحب حسن، وفتح محضر التحقيق.. ويقول حسن: كانت أكبر مفاجأة لى أن يقول لى وكيل النيابة رسمياً:

التهمة الموجهة إليك أنك تحرز أسلحة وذخيرة قدرها كذا ـــ وحددها ـــ فى مخبأ فى عزبتكم بجهة كذا فى المكان الفلانى ـــ بالتحديد ـــ على عمق كذا ـــ ووصف المكان وصفاً دقيقاً..

وبعد أن أتم وكيل النيابة توجيه التهمة قال موجها الكلام للأخ حسن: فما أقوالك؟ قال حسن: أنا ممتنع عن الإدلاء بأية أقوال وعن الإجابة على أى سؤال حتى يحضر هنا فى التحقيق جمال عبد الناصر لأنه هو الذى يعرف كل شىء عن هذه الأسلحة ويعلم قصة وجودها فى هذا المكان لأنها أسلحته.

يقول صاحب هذه المذكرات إنه قد تبين لنا فيما بعد أن الصحف فى يوم ١٨ يناير ١٩٥٤ نشرت صفحاتها الأولى بخط كبير:

ضبط ١٠٠ كيلو جلجانيت، ١٥ ألف طلقة
مستودع ملىء بالأسلحة والمواد الناسفة ـــ العثور عليه فى أملاك حسن العشماوى بالشرقية

فتشت عزبة حسن العشماوى تبع ناحية العطيف مركز ههيا شرقية فاتضح أن بها جراجاً أرضيته من التراب، وتحت التراب ضفيرة طوب تحتها اسمنت مسلح، وبها فتحة توصل إلى باب سرداب كانت مغطاة بالمشمع. ووجد بداخلها أسلحة وذخائر قدروها

بنحو ٢٠ ألف جنيه».

دلالة بعيدة المدى لهذه الواقعة:

أنا لم أكن ممن يحسنون الظن بجمال عبد الناصر، وكنت أعلم أنه يحاول احتواء الدعوة، وأنه فى سبيل ذلك يحيك المؤامرات ضدها وضد قيادتها ــ ولكن الذى لم يكن يخطر لى ببال أو حتى يلوح لى فى الخيال أن يبلغ فى استباحته الكذب حداً تترفع الدناءة عن أن تكون وصفاً له.

لقد قص علينا حسن العشماوى ونحن فى دورة المياة قصة هذه الأسلحة وكيف أنها هى أسلحة يملكها جمال عبد الناصر. ولما وقع حريق القاهرة خشى أن تصل إليها أيدى السلطات إذا فتشت مدرسة الأسلحة الخفيفة المخبأة بها؛ وطلب من حسن العشماوى إخفاءها عنده فى عزبتهم وقام جمال عبد الناصر بنفسه برسم كيفية تشييد المخزن تحت الأرض بعمق ثلاثة أمتار، وأشرف بنفسه على تشييد المخزن ووضع الأسلحة فيه ــ مما سبق تفصيله فيما نقلناه من كتاب «الصامتون يتكلمون» على لسان الأخ الأستاذ صلاح شادى.

إن هذه القصة دلتنى ــ لأول مرة ــ على أن هناك رذائل تخرج عن حدود ماعهد الناس من رذائل؛ فهى رذيلة تطوى بين جوانحها كل الرذائل. كما دلتنى على أن هذا الرجل جمال عبد الناصر لايقيم وزناً لخلق ولا لدين ولا لشرف ولا لعرف ولا لأية قيمة من القيم؛ ولا يبعد عليه ولا يستغرب منه أن يقتل أباه إذا وجد فى ذلك مايحقق مطامعه.. وقد ذكرتنى هذه القصة بالمثل العربى الذى يقول: رمتنى بدائها وانسلت.

ولقد كنت حين أقرأ حديث رسول الله ﷺ «إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة. وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار» فأقف عند لفظ الفجور ولا أتصور العلاقة بين الفجور وبين الكذب، حتى حدثنا حسن العشماوى بقصة الأسلحة هذه فلمست فى الحال هذه العلاقة لأننى وجدتنى أنطق تلقائياً حين سمعت القصة قائلاً: أما إنه حقاً فاجر.. وبدأت منذ ذلك اليوم أعلم أن الفجور هو الدرك الأسفل من الكذب.

كما أن هذه القصة قد وضحت لى غموضاً فى قصة أخرى كنت قرأتها منذ زمن بعيد فى كتاب من أمهات كتب الأدب لاأذكر اسمه الآن، ولكن القصة تحكى عن الحجاج بن يوسف الثقفى أنه خرج مرة إلى البادية مستخفياً فقابل أعرابياً فسأله عما يعرفه عن الحجاج بن يوسف فارتاب الرجل وأمسك عن الكلام فكشف الحجاج له عن شخصيته وقال له: نشدتك الله إلا صدقتنى بما تعرفه عنى وقد أمنتك.

فقال الأعرابى: أمّا وقد أمنتنى فوالله إنك لظلوم سفاك قتال كذاب.

فقال الحجاج: أما إنى حقاً ظلوم سفاك قتال ولكننى لست بكذاب وما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين أهله.

ولقد كنت أعجب كيف أن الحجاج رضى لنفسه ولم يأنف أن يوصف بالظلم والسفك والقتل ولكنه ربأ بنفسه أن يوصف بالكذب.

نعم إن التحقيق قد حفظ بأمر جمال عبد الناصر. وهذا الحفظ فى ذاته إحدى الفضائح التى لو وقع مثله فى بلاد كانجلترا أو فرنسا أو أمريكا لما اكتفوا بإسقاط هذا الرئيس بل لحاكموه وأودعوه السجن؛ لأنه غرر بالشعب وكذب عليه، واستهزأ بعقوله.

فكيف يلصق تهمة خطيرة بإنسان وتمتلىء الصحف بصور المخبأ الدفين وصور الأسلحة التى وجدت فيه، وعدد قطع كل نوع منها.. ثم يحفظ التحقيق بعد ذلك دون أى مبرر.

إن حفظ التحقيق فى هذا الأمر الخطير معناه أن الادعاء باطل، وأن رد المتهم على النيابة بأن هذه الأسلحة والذخائر هى ملك جمال عبد الناصر وهو الذى أخفاها عنده هو الصحيح.. وفى هذه الحالة كان على النيابة أن تحقق مع جمال عبد الناصر الذى هو ليس فوق القانون.. فإذا ثبتت صحة أقوال المتهم وجبت تبرئته ووضع جمال عبد الناصر فى قفص الاتهام بأكثر من تهمة أخفها إحراز الأسلحة؛ لأن إحراز الأسلحة بغير تصريح وإن حرمه القانون إلا أنه فى ذاته لايلحق عاراً بصاحبه، ولكن التهمة التى تلحق بصاحبها العار هى تهمة الكذب والافتراء واستغلال النفوذ لاتهام الناس بالباطل.. لاسيما إذا كان الذى ألقى عليه الاتهام هو صاحب الفضل على الذى اتهمه، وهو الذى آواه يوم كان مطارداً، وجاءه مستغيثاً، فأخفاه عن أعين السلطة وستر عورته.. وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به برئياً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبينا﴾ وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «ثلاثة لايقبل الله لهم توبة: شيخ زان، وفقير متكبر، وملك كذاب». المهم.. أننى خرجت من هذه القصة التى وقعت أحداثها أمامى؛ بأن جمال عبد الناصر شخص خطر لاأمان له؛ لأنه لامبدأ له ولا خلق ولا دين؛ وأنه يستبيح كل شىء فى سبيل تحقيق أغراضه الشخصية. وأن التعامل معه يجب أن يكون بحذر، وبأسلوب ماكر، فلا يفل الحديد إلا الحديد. كما أننى أقدمها للقراء مقياساً يقيسون به مدى صدق التهم التى كالها للإخوان كيلاً فى قراره بحل الإخوان.

معتقل العامرية:

بعد أسبوع من إقامتى بالسجن الحربى افتتحت الحكومة معتقلاً فى العامرية. وهو

معتقل فى وسط الصحراء كان فى الأصل معسكراً أقامه الإنجليز فى أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم تركوه فامتدت إليه يد التخريب ولم يبق منه إلا مايشبه الهياكل من نحو أربعة جمالونات لاتكاد تمنع المطر عن ساكنيها.. وملحق به دورة مياه وحوله سور من الأسلاك الشائكة.

ويكاد يكون هذا المعتقل فى مستوى السجن الحربى الذى كنا فيه من حيث النوم على سراير ومن حيث الطعام، ولكنه يختلف عنه فى أنه أولا تحت إدارة البوليس أو بالأدق تحت إدارة المباحث العامة حيث كان الضابط ممدوح سالم أحد ضباط المباحث المشرفين عليه— وفى أنه لم يكن الحبس فيه انفرادياً لأن العنبر كان يتسع لنحو مائة.

وكانت أيامنا فى هذا المعتقل أياماً مباركة. لأن هذا الجو الصحراوى مع وجود عدد من أكرم الإخوان يناهز الخمسمائة أتاح لهم الفرص للعبادة ومناجاة الله ودراسة القرآن. كما أتاح لهم تبادل الآراء وتبادل المعلومات؛ بل أفادهم صحياً فهو جو نقى تمام النقاء، وكان الأخ سعد العراقى— وكان إذ ذاك طالباً فى إحدى كليات الأزهر— يقوم بتمرينات رياضية مع بعض الإخوان كما كان الإخوان يقومون بتنظيم محاضرات تتناول مختلف المواضيع التى تتصل بالدعوة.

ومع أن الخروج فى وقت الفجر من عنابر النوم إلى دورة المياه التى تبعد عن العنابر بأكثر من مائة متر فى العراء كان كافياً لإصابة أفراد المعتقل جميعاً بأمراض خطيرة من أمراض البرد، إلا أن أحداً منا لم يصب بشىء من ذلك طيلة فترة إقامتنا به.

وكانت صلاة الفجر تقام جماعة وبعد أداء الصلاة كان الإخوان يستمتعون بالاستماع إلى تلاوة مشجية من القرآن الكريم من الأخ صلاح أبو إسماعيل— الطالب إذ ذاك— ذى الصوت الرخيم فتكون هذه الجرعة القرآنية فاتحه العمل فى اليوم الجديد.

الجو السياسى للبلاد فى أثناء هذه الفترة:

لم يكن بد من إدخالنا المعتقلات بعد أن وجد جمال عبد الناصر أن مؤامرته التى حاكها ضد قيادة الدعوة قد فشلت فشلاً تاماً.. ولكن يبدو أن هذه الخطوة جاءت متأخرة عن موعدها المناسب بعض الوقت، فقد دخل الإخوان المعتقلات بعد أن فهموا تفسير كل ماحدث فهماً دقيقاً وحددت المواقف أمامهم تحديداً واضحاً؛ كما أن الوعى السياسى فى البلاد قد نضج نضجاً كاملاً، ولم يعد اعتقال الإخوان يعوق سريان أفكارهم فى شرق البلاد وغربها وسيطرتها على أحاسيس الناس ومشاعرهم؛ بحيث أصبحت جميع فئات الشعب تهتف من صميم قلوبها للحرية، وتطالب القائمين على الحكم بإفساح الطريق لحكم نيابى حر يشعر الشعب بأنه يحكم نفسه بنفسه، ويمنح كل مواطن حق

التعبير عن رأيه والمطالبة بحقوقه..

وكان المثقفون من رجال الجامعة ورجال القضاء والقانون ــ وهم المعبرون عادة عن أماني الشعب بمختلف طبقاته وقطاعاته ــ يدبجون المقالات في المطالبة بحكم نيابي حر، ويطالبون رجال الثورة أن يتخلوا عن مكانهم في حكم الشعب مشكورين بعد أن أدوا مهمتهم وقاموا بدورهم.. وكانت جريدة «المصري» ــ باعتبارها جريدة رأي وفكرة ــ المجال الطبيعي لنشر هذه المقالات، وإعلان هذه المطالبات؛ وكانت كما قدمت قد صارت في ذلك الوقت أوسع الصحف انتشاراً لتجاوبها مع رغبات الشعب.

وجاء اعتقال الإخوان وحلهم في هذه الأثناء ــ وهم قادة الشعب في هذه المطالب ــ فكان وقوداً زادت به هذه المشاعر الشعبية اشتعالاً؛ فكانت تصل إلينا ونحن بالمعتقل ماتفيض به أنهار الصحف ــ لاسيما جريدة المصري ــ من مقالات تعبر عن هذه المطالب ــ كما وصلت إلينا أنباء خلاف دب بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب لأن محمد نجيب أيد مطالب الشعب حتى إن جمال عبد الناصر اتهمه بأنه متواطىء ضده مع الإخوان.

وفي هذه الأثناء كان الأستاذ عبد القادر عوده لايزال على وفاق مع جمال عبد الناصر ولذا فإنه لم يعتقل بل إن جمال عبد الناصر أعطاه حق دخول المعتقل وزيارة المعتقلين والتحدث إليهم. وقد حضر عندنا أكثر من مرة ــ لاسيما في الفترة الأولى من أيام الاعتقال ــ وتحدث مع بعض الإخوان ــ ولم أكن منهم لأنه كان يائساً من إقناعي بآرائه.. ولكن الأحداث التي وقعت بعد ذلك أخذت شيئاً فشيئاً تهز ثقته بجمال حتى أقنعته أخيراً بأنه كان مسرفاً في حسن الظن وبأنه كان على خطأ في آرائه وتصوراته.

فهو ماكان يتصور أن جمال عبد الناصر يعادي الحرية والحكم النيابي ويعتبر المنادين بذلك أعداءه؛ حتى ولو كان المنادي بها محمد نجيب نفسه؛ فينسى كل مواقف نجيب ويعلن عزله من مناصبه لمجرد أنه أيد الشعب في هذا المطلب.

ثم إن مارآه أو ماقرأه من اتهامات وجهت إلى الإخوان من جمال عبد الناصر في قرار الحل وبعد هذا القرار؛ كل ذلك ماهو إلا اختلاق لاأصل له، وفهم أن جمال عبد الناصر ــ اعتماداً على أنه هو وحده دون زملائه يعلم الحقائق ــ استباح أن يزور عليهم هذه الحقائق ويصدر هذا التزوير في بيان رسمي باسمهم.. ثم موضوع الأسلحة التي رمى بها حسن العشماوي ثم يتبين أنه هو صاحبها.. كل ذلك حمل الأستاذ عبد القادر عوده على تغيير آرائه والاستقامة مع إخوانه على رأي سواء.

مناورة مكشوفة:

في أثناء وجودنا في الاعتقال، وفي الوقت الذي أطلق جمال ألسنة رجاله من الضباط

فى سب الإخوان؛ فيخطب حسين الشافعى فى ٦/٢/١٩٥٤ فى المحلة الكبرى وأسيوط فينسب إلى الإخوان كل نقيصة؛ يخطب الصاغ وحيد رمضان فى هيئة التحرير بالإسكندرية فيقول:

إن الهضيبى ورجاله لم يكونوا من الإخوان فى يوم من الأيام، بل كانوا يعيشون حياتهم الماسونية فى أحضان الإنجليز. ويطلب الرجوع إلى تعاليم حسن البنا.

فى نفس الوقت وفى ١٣/١٢/١٩٥٤ تنشر الصحف صورة كبيرة تضم جمال عبد الناصر وصلاح سالم والباقورى وعبد الرحمن البنا وصالح عشماوى تحت عنوان «رجال الثورة يشاركون فى الاحتفال بالذكرى الخامسة للشهيد حسن البنا».

ولا داعى للتعليق على هذه المناورة المكشوفة لانها لاتحتاج إلى تعليق.

* * *

الفصل الثالث

قمة التهاب المشاعر الشعبية
إذعان جمال عبد الناصر

كانت قمة التهاب المشاعر التى أشرنا إليها آنفاً هى مواجهة جمال عبد الناصر بما لم يكن فى حسبانه من وقوف رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الثورة اللواء محمد نجيب بجانب الشعب فى مطالبته بإفساح المجال لمجلس نيابى تحكم البلاد عن طريقه.

ولما كان هذا المطلب هو الوتر الحساس الذى إذا ضرب عليه ضارب ثارت أعصاب جمال عبد الناصر حتى يكاد يفقد توازنه ويختل كيانه، فقد واجه هذا الموقف بأسلوب هو أقرب إلى الطيش منه إلى الصواب والحكمة؛ فقد استصدر قراراً من مجلس الثورة بتجريد محمد نجيب من جميع مناصبه.. وليس يعنينا هنا فى هذه المذكرات تفاصيل هذا القرار ولا ماانتحل من أسباب بعيدة عن الواقع بنى عليها اتخاذ هذا القرار.. ولكن الذى يعنينا أن هذا القرار قد اتخذ وأن جمال عبد الناصر اعتقد أنه هو الحل للأزمة التى يواجهها.

ولا نشك فى أن الذى شجع جمال عبد الناصر على اتخاذ هذا القرار هو اعتقاده بأنه بهزه كيان الإخوان بالمؤامرات التى حاكها وبثها فى داخل هذا الكيان، ثم بإصداره بيان الحل ووصمهم فيه بالخيانة، وباعتقال مرشدهم وقادتهم ونحو ألف من أبرز أعضائهم. اعتقد أنه بذلك قد تم له القضاء على الإخوان المسلمين ولم يعد بذلك فى البلاد عرق ينبض؛ فليتخذ إذن مايشاء من قرارات وليرفع من يشاء وليخفض من يشاء وليفعل مايشاء، فلن يجد من يرفع بذلك رأساً.

مظاهرة أول مارس ١٩٥٤ :

ولكن الذى حدث كان غير الذى دار بخلد جمال عبد الناصر.. فقد أقال محمد نجيب من مناصبه فى ٢٥ فبراير.. وإذا به فى أول مارس يواجه مظاهرة ضخمة ففى ذلك اليوم توجه جم غفير من طلبة الجامعة ـــ وأنا أكتب هذا ناقلاً من الصحف فقد كنت لاأزال فى

المعتقل — إلى ميدان الجمهورية معهم ألوف من الأهالى، يهتفون مطالبين برجوع محمد نجيب. ولم يبرحوا مكانهم إلا بعد أن أطل عليهم محمد نجيب من شرفة قصر عابدين وبجانبه جمال عبد الناصر يضحك. وخطب فيهم محمد نجيب خطبة طمأنهم فيها على الحكم النيابى.

ولابد هنا من الاعتراف بأن هذه المظاهرة التى كانت من أكبر المظاهرات التى شهدتها العاصمة المصرية فى تاريخها، فقد كان ميدان الجمهورية وهو أوسع ميادين القاهرة بحراً متلاطماً بأمواج البشر — كانت هذه المظاهرة بقيادة الإخوان المسلمين. وقد أشارت الصحف إلى بعض شخصيات إخوانية كانت بارزة فيها؛ ومن هذه الشخصيات إبراهيم كروم وكان من أشهر «فتوات» — القاهرة، وقد هداه الله وصار من أتقى الإخوان، وكان ممتطياً جواداً يتقدم المتظاهرين ويطلق أعيرة نارية فى الهواء. وعز الدين مالك كان يتزعم المتظاهرين راكباً سيارة جيب مركباً عليها ميكروفون يردد الهتافات ويوزع المنشورات.

ومما يجدر ذكره، وينبغى الالتفات إليه أن هذه المظاهرة الضخمة التى قامت بهذه القوة الجارفة؛ كانت قادرة على تغيير كل شىء تريد تغييره.. وكان ذلك كله فى غيبة قيادات الإخوان وراء أسوار المعتقلات — ولابد أن جمال عبد الناصر تصور وهو ينظر إليهم من الشرفة بجانب نجيب أنهم قادرون — لو شاءوا — على النفوذ إليه وإلقاء القبض عليه؛ ولا تستطيع قوة أن توقف زحفهم.. ولذا فإنه أوعز إلى نجيب بعد أن أنهى كلمته أن يطلب إليهم الانصراف.. غير أنهم لم ينصرفوا.. فحاول نجيب ذلك مرات دون جدوى. فأسعفته سرعة بديهته — وقد رأى وسط المتظاهرين الأستاذ عبد القادر عوده — فدعاه للوقوف معهما فى الشرفة وطلب إليه أن يأمر المتظاهرين بالانصراف فما كاد يأمرهم حتى انصرفوا فى التو واللحظة.

ومع أن تصرف عبد القادر عوده جاء إنقاذاً لجمال عبد الناصر — وهو يعلم ذلك يقين — إلا أن جمال عبد الناصر نظر إلى الموضوع من ناحية أخرى فتصور أن الذى استطاع فض هذه الجموع فى لحظة هو قادر على جمعها فى لحظة.. إذن هو قوة يجب التخلص منها.

هذا ماعلق به الكثيرون على ماكان من أمر هذه المظاهرة، ولكننى أرى أن عزم عبد الناصر على التخلص من عبد القادر عودة لم يكن وليد مارآه من قدرته على فض المظاهرة أو جمعها، وإنما كان وليد تحول عبد القادر عوده من الولاء له والانحياز لجانبه إلى الولاء للمرشد العام.. لاسيما والأستاذ عبد القادر رحمه الله كان من الرجال الصرحاء الواضحين الذين إذا اتجهوا إلى ناحية اتجهوا إليها بكل مافيهم، وإذا أعرضوا عنها أعرضوا

بكل مافيهم؛ لايعرف التوسط فى الأمور ولا أخذها برفق.. وليس هذا ـــ كما قدمنا ـــ عيباً فى الخلق، ولكنه ليس الأسلوب الأمثل فى تناول القادة لما ينشأ بين أيديهم من مواقف وقد كان رسول الله ﷺ يقول: «إنا لَنَبَشُّ فى وجوه قوم وقلوبنا تكرههم». وربما تناولنا هذا الموضوع فيما بعد إن شاء الله بمزيد بيان.

ثم إن المقدرة على جمع المظاهرة وفضها لم تكن تشغل بال عبد الناصر باعتبارها مقدرة خارقة فهو كان من الإخوان ويعرف أن الطاعة التامة من خصائص المجتمع الإخوانى.. ولكن الذى شغل باله هو: كيف تم جمع هذه المظاهرة فى حين أن جميع قادة الإخوان تحت يديه فى السجون؟ إذن هذا الأسلوب الذى اتبعه من اعتقال القادة والأعضاء البارزين فقط معتقداً أن ذلك يشل الأتباع الباقين عن الحركة أسلوب خاطىء إن جاز فى حق مختلف الهيئات فقد ثبت أنه لايجوز فى حق الإخوان المسلمين.. وإذن فلابد من أسلوب آخر...

أما الأسلوب الآخر الذى بيته جمال عبد الناصر ولم يفصح عنه لأحد حتى لزملائه فى مجلس الثورة فهو موضوع فصول قادمة إن شاء الله.. وقد يكون هذا الفصل أولها.

من نتائج هذه المظاهرة:

١ ـــ رجوع محمد نجيب إلى جميع مناصبه.
٢ ـــ خضوع جمال عبد الناصر لمطلب الشعب فى حكم دستورى.
٣ ـــ عملية إفراج واعتقال جزئية.
٤ ـــ تجاوب جميع المثقفين مع الاتجاه الجديد.
٥ ـــ الإفراج عن جميع الإخوان المسلمين.

ونتناول فى هذا الفصل النتيجتين الأوليين فنقول:

رجوع محمد نجيب إلى جميع مناصبه:

صحيح أن أول نتائج هذه المظاهرة رجوع محمد نجيب إلى جميع مناصبه التى كان يباشرها فرجع إلى منصب رئيس الجمهورية ورجع إلى منصب رئيس مجلس الثورة والوزارة. سلم بذلك كله جمال عبد الناصر ولكنه حرص فى أثناء تسليم السلطة إلى نجيب على أن يحتفظ لنفسه بمنصب الحاكم العسكرى..

وقد نشرت الصحف فى يومى ٨، ٩ مارس ٥٤ الآتى:

يعود اللواء محمد نجيب رئيساً للجمهورية والوزارة والثورة. وأذيع المرسوم التالى:

«...ل للسيد البكباشى جمال عبد الناصر حسين السلطة فى اتخاذ التدابير المنصوص

عليها بدلاً من السيد اللواء محمد نجيب، ويرخص له علاوة على ذلك باتخاذ أى إجراء آخر لازم للمحافظة على الأمن والنظام العام فى جميع نواحى جمهورية مصر أو فى جهات معينة فيها».

وإذا علمنا أن محمد نجيب ــ نتيجة هذه الأحداث ــ كان أقوى رجل فى مصر؛ كما أن جمال عبد الناصر كان فى نفس الوقت فى أضعف مركز مر به.. تعجبنا ــ بعدما فعله عبد الناصر بنجيب من أفاعيل ــ كيف ينخدع نجيب ويجيب عبد الناصر إلى مطلبه فيتنازل له عن سلطة الحاكم العسكرى بل يرخص له علاوة على هذه السلطة فى اتخاذ أى إجراء آخر لازم للمحافظة على الأمن والنظام العام فى....

ولا شك أن موافقة نجيب على هذا التنازل كان خطأً فادحاً. وكان كالذى اصطادوا له فهداً كاسراً وقيدوه وسلموه له مقيداً. فبكل سذاجة حرره من قيوده وأطلقه فكان هو نفسه أول فريسه من فرائسه.. لقد منح نجيب عبد الناصر سلاح الحاكم العسكرى فأشهر عبد الناصر هذا السلاح أول ماأشهر فى وجه مانحه..

خضوع عبد الناصر لمطلب الحكم الدستورى:

كان إذعان عبد الناصر لمطلب الحكم الدستورى أمراً لابد منه أمام الإجماع الشامل للأمة بحيث لم يعد مفر من الإذعان والخضوع.. أما أن هذا الإذعان كان عن اقتناع فهذا مالم يكن فى استطاعة أحد أن يفتح عن قلب عبد الناصر ليرى فيه حقيقة هذا الأمر. ولكن التصرفات الظاهرية كانت تشعر بوجود هذا الإذعان إلى حد تحس معه الجدية ففى نفس التاريخ ٩/٣/١٩٥٤ سأل مندوب «المصرى» البكباشى جمال عبد الناصر عن التطورات التى أعلنت أمس فقال:

«لقد بدأنا منذ شهرين نبحث الطريقة التى يمكن بها تكوين هيئة وطنية تمثل البلاد، على أن يكون هذا كفترة انتقال لتنتقل البلاد إلى الحكم النيابى السليم الذى نعتبره هدفاً أساسياً من أهداف الثورة ــ وقد كلف مجلس الثورة الأستاذ سليمان حافظ ليتصل بالشخصيات المختلفة للبحث معهم فى الأسس التى ينفذ على أساسها هذا المشروع. وقد أعدت جملة مشروعات أحدها من الأستاذ سليمان حافظ وآخر من الدكتور أحمد فكرى الأستاذ بجامعة الإسكندرية. وكانت هذه الموضوعات قيد البحث حتى يمكن الوصول إلى أصلح مشروع يوافق حالة البلاد. وكان السبب فى هذا هو الشعور بالفراغ بعد تحطيم جميع الأسس القديمة التى بنيت عليها الحياة السياسية البائدة فى هذه البلاد، وكان الجميع يشعرون أنه لابد من القيام بعمل لملء هذا الفراغ».

وفى غضون هذا التاريخ كتب أحمد أبو الفتح فى «المصرى» كلمة جاء فيها:

«أعلن المسئولون عن إطلاق حرية الصحافة ورفع الرقابة عن الصحف. وأعلن المسئولون عن انتخاب جمعية تأسيسية تراجع الدستور وتعتمده. وأعلن المسئولون أن أعضاء الجمعية التأسيسية سيختارون بالانتخاب الحر المباشر. وأعلنوا أن الأحزاب السياسية ستعود. وأعلن المسئولون أن رجال الجيش الذين سيعملون فى الحقل السياسى سيستقيلون من الجيش ويعملون كمدنيين لاعسكريين.. وهذه بواكير الحرية هبت على البلاد».

وفى نفس هذا التاريخ يعقد صلاح سالم عضو مجلس الثورة ووزير الإرشاد مؤتمراً صحفياً يعلن فيه:

«الرأى متفق على اختيار أعضاء الجمعية التأسيسية بالانتخاب لابالتعيين ـــ لن يقوم حزب من الأحزاب قبل إقرار الدستور الجديد ـــ مجلس الثورة يمارس سلطة السيادة ولا يشترك فى الحكم بعد قيام الجمعية التأسيسية ـــ فترة الانتقال بدأت فى أول يناير ١٩٥٣ وتنتهى بانتخاب الجمعية التأسيسية ـــ الإخوان كهيئة دينية ـــ سيفرج عن جميع المعتقلين وتلغى الأحكام العرفية عند إعلان الجمعية التأسيسية ـــ أعضاء مجلس الثورة لن يعودوا إلى مناصبهم فى الجيش، وسيخوضون المعركة السياسية كمواطنين مدنيين».

تجاوب جميع المثقفين مع الاتجاه الجديد:

وإذا طالعت الصحف الصادرة فى هذا التاريخ وحوله شعرت بأن الشعب كله كان من وراء هذا المطلب فنقابة الصحفيين تؤيد هذا المطلب وتطالب بإلغاء الأحكام العرفية، والصحفيون يدلون بآرائهم فى تفاصيل الإجراءات التى تؤدى إلى الحكم الدستورى؛ فبينما بعضهم يرى البدء بتكوين جمعية تأسيسية تضع الدستور وتعتمده، يرى آخرون منهم رأياً آخر كالأستاذ إحسان عبد القدوس فقد كتب مقالاً بجريدة «المصرى تحت عنوان «برلمان.. لاجمعية تأسيسية» يطالب فيه بانتخاب برلمان تكون مهمته الأولى وضع الدستور. ويقول فيه: وإذا قيل إن البرلمان لايقوم إلا بعد وضع الدستور، فإننا فى ظروف شاذة ولن يضيرنا بعد كل هذا الشذوذ الذى عشنا فيه أن ننتخب برلمانا يضع الدستور. ثم يقول: وأكتب هذا لأننى تبينت تردداً من أغلبية المواطنين فى التقدم للترشيح لجمعية لن تدوم مهمتها أكثر من شهر أو شهرين. ولأنى أريد أن أتعجل الاستقرار لمصر وأتجنب المزيد من الشذوذ».

وبمناسبة ذكر الأستاذ إحسان عبد القدوس أذكر أنه اعتقل وأودع السجن الحربى مع الإخوان بعد أن نقلت منه إلى معتقل العامرية. وأخبرنى الإخوان الذين بقوا فى السجن الحربى أن الأستاذ إحسان بعد أن فهم دعوة الإخوان أعلن توبته وعاهدهم على أن يكون لساناً لهذه الدعوة.

ثم إنك تقرأ فى الصحف مثل هذه العناوين:

إن البلاد كلها ترحب بإعادة الحياة النيابية ــ مجلس نقابة المحامين يطلب زوال كل القيود التى تحد من الحريات ــ نقابة الصحفيين تشكر رجال الثورة على إلغاء الرقابة على الصحف ــ هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية ترحب بالقرارات الجديدة ــ جامعة القاهرة تحذو حذو جامعة الإسكندرية.

كانت البلاد فى حالة نشوة أو صحوة على حلم لذيذ وجدت فى اليقظة بشائرة فطارت فرحاً تتعجل له التمام.

عملية إفراج واعتقال جزئية:

لم يكن منتظراً أن يكون فى أعقاب مظاهرة ٢٨ فبراير ٥٤ اعتقالات، ولكن جمال عبد الناصر قرر فى نفسه الانتقام من أشخاص معينين بعضهم من الإخوان وبعض آخر من غير الإخوان من معارضيه.. فستراً للإجراء الذى انتواه من اعتقال هؤلاء الأشخاص، ألحقه بالإفراج عن عدد من المعتقلين. ففى ٣ مارس ١٩٥٤ اعتقل باعتباره حاكماً عسكرياً ١١٨ شخصاً بينهم ٤٥ من الإخوان ، ٢٠ من الاشتراكيين ، ٥ وفديين ، ٤ شيوعيين .

وفى ٧ مارس أفرج عن الإخوان الأساتذة البهى الخولى وعبد المنعم خلاف وإسماعيل الداعور وحلمى عبد المجيد وعبد العزيز الشابورى ومحمد محمد عصفور.

وكان المقصود من بين الخمسة والأربعين الذين اعتقلوا بعد مظاهرة ميدان الجمهورية اثنين بالذات هما الأستاذ عبد القادر عودة والأستاذ عمر التلمسانى لأنه كان قد أبقى عليهما دون اعتقال فى حركة يناير ١٩٥٤ أملاً فى أن يحتويهما فلما وجد أنه فشل فى ذلك قرر الانتقام منهما فاعتقلهما ولما كان انقلاب الأستاذ عبد القادر عوده عليه انقلاباً مفاجئاً بعد أن كان يعده أقرب الإخوان إليه أراد أن يصب جام غضبه عليه فقد كلف من كلابه الآدميين من سامه هو والأستاذ عمر التلمسانى ومجموعة معهما ألوان الإهانة والعذاب ثم خص الأستاذ عبد القادر بلون آخر من القهر تمهيداً لخطة شيطانية رتبها بينه وبين نفسه؛ فقد لفق له قضية اتهمه فيها هو ومعه ثلاثة من الإخوان هم الأساذتة محمود القوّال وعز الدين مالك والشيخ وهبه الفرماوى بالعمل على قلب نظام الحكم فى حوادث مظاهرة ٢٨ فبراير.

* * *

الباب العاشر

الخدعة الكبرى

الفصل الأول : هبوط إلى الدرك الأسفل.هل الغاية تبرر الوسيلـــــــــــة ؟

الفصل الثانى : الإفراج عن الإخوان وقد عادت الأمور كلها فى أيديهم .

الفصل الثالث : الفتــرة الحرجـــة والفرصة المضيعة .

الفصل الرابع : مفاجــأة أجــهضت مكاسب الشعب .

الفصل الأول

هبوط إلى الدرك الأسفل
هل الغاية تبرر الوسيلة؟

يبدو أن مظاهرة ٢٨ فبراير ١٩٥٤ بميدان الجمهورية كانت طعنة نجلاء أصابت عبد الناصر فى مقتل لأنها قلبت كل حساباته، وجعلته يدور حول نفسه. يبحث عن مخرج، وكلما لجأ إلى طريق وجده مسدوداً وليس أمامه من طريق مفتوح إلا طريق واحد هو طريق الاستجابة للرغبة الشعبية الجارفة فى حكم نيابى دستورى حر.. ومع أن سلوك هذا الطريق هو الذى يمليه العقل والواجب فإنه يتعارض تعارضاً كاملاً مع الخط الذى رسمه لنفسه.

ولقد كنا نحن – الإخوان المسلمين – نتحدث بهذا فيما بيننا ونحن فى المعتقل مقدرين ما يعانيه من حيرة بين ما نعرف من آماله الديكتاتورية الواسعة، وبين ما أطبق عليه من ضغط شعبى لايقاوم. وقد لمسنا فعلاً هذه الحيرة فى الرسل الذين كان يرسلهم إلينا فى المعتقلين بالسجن الحربى والعامرية يتوسطون فى المصالحة.

وإذا كان هذا الذى كنا نتحدث به فيما بيننا فى المعتقل كان مجرد تصور قد يكون مطابقاً للحقيقة أو مبالغاً فى التعبير عنها لأن الحقائق الدفينة لم تكن غائبة عنا وحدنا لوجودنا بالمعتقل بل كانت غائبة عن غيرنا ممن يعيشون الحياة الحرة ويقرأون الصحف ويستمعون إلى الأخبار.

ولقد مرت الأيام وتغيرت الظروف وأتاحت لنا أن نعرف حقيقة ماكان عبد الناصر يعانيه فعلاً من جراء هذا الموقف من أزمة نفسية خانقة حملته على ارتكاب حماقات وجرائم لايكاد سامعها أن يصدقها لولا أن الذى يرويها أحد زملائه فى مجلس الثورة وشهودها بقية هؤلاء الأعضاء؛ فقد جاء فى مذكرات عبد اللطيف البغدادى فى صفحة ١١٩ من الجزء الأول، أنه فى جلسة مجلس الثورة المنعقدة فى ٤ مارس ١٩٥٤ اقترح جمال عبد الناصر حل المجلس وأن يعمل كل فرد من أعضائه على تكوين فريق Team مكون من

عشرة أفراد مهمته التخلص من العناصر الرجعية من الذين يناهضون الثورة وعلى رأسهم الإخوان المسلمون.

ويقول البغدادى فى صفحة ٩٨ من مذكراته فى نفس الجزء:

«فى اجتماع مشترك بين مجلس الثورة وأعضاء الوزارة فى ٢٠ مارس ١٩٥٤ أبلغ جمال عبد الناصر الاجتماع بوقوع ستة انفجارات نسف فى مبنى السكة الحديد وفى الجامعة وفى محل جروبى فى وقت واحد– وعلل لهم ذلك بسياسة اللين فى موقف الحكومة، وأن خطوة العودة إلى الحكم النيابى لاتصلح فى هذا الوقت».

ثم يقول البغدادى فى صفحة ١٤٦ من نفس الجزء:

«إن جمال عبد الناصر اعترف بأنه هو الذى قام بهذه الانفجارات. وذلك فى اليوم التالى لوقوعها. واعترف بذلك للبغدادى وحسن إبراهيم وكمال حسين. وعزا السبب فى قيامه بهذه الحوادث إلى أنه كان يرغب فى إثارة البلبلة فى نفوس الناس ويجعلهم يشعرون بعدم الطمأنينة حتى يتذكروا الماضى أيام نسف السينمات ويشعروا أنهم فى حاجة إلى من يحميهم».

وهذه الأنباء المرعبة التى لم نعلم بها إلا بعد أن أتاحت الظروف لزملاء عبد الناصر هؤلاء أن يبوحوا بها.. هذه الأنباء لفظاعة بشاعتها لانملك تعليقاً عليها وندع ذلك للقراء الكرام.. ومع ذلك فنتناولها نحن من ناحية مدلولها فقط وهو أن عبد الناصر كان فى أضعف موقف.. ولكن الشرفاء من الحكام مهما بلغ موقفهم من الضعف كل مبلغ وأحاطت بهم أحرج الظروف من كل جانب لايفكرون مجرد تفكير فى مثل مافكر فيه جمال عبد الناصر وما فعله فعلاً.

* * *

الفصل الثانى

الإفراج عن الإخوان
وقد عادت الأمور كلها فى أيديهم

من حق السادة القراء أن أكاشفهم بما يتتابني من شعور مما يتصل بتسطير هذه المذكرات باعتبار هذا الشعور وهذه الأحاسيس جزءاً لايتجزأ من المذكرات.. وقد أغفل ذلك فى بعض الأحيان حين لايكون انفعالى الشعورى شديداً، فكثير من الأحداث ينساب التعبير عنها من قلم الكاتب وتمر تحت عين القارىء ولا يرى كلاهما أن انفعالاً ذا بال يستوقفه عندها فهى أحداث عادية أو قريبة من العادية أو هى أحداث متوقعة.. أما الحدث الغريب أو غير المتوقع كما لو نبئت بأم قتلت ابنها فإنك لابد من انفعال يهز كيانك واندفاع نحو التعبير عن هذا الانفعال.

ولقد كنت أكتب هذه الفصول وما يتصل فيها بجمال عبد الناصر وفى مخيلتى صورة عن هذا الرجل تكونت فى خاطرى نتيجة أحداث مختلفة،مر حتى الآن فى هذه المذكرات بعضها وآت إن شاء الله بعض آخر منها، ولهذه الصورة فى مخيلتى معالم كثيرة لأرى داعياً لذكرها الآن، ولكن أذكر منها معلماً واحداً هو الخسة، ولكن هذه الخسة لم أنفعل بها انفعالاً يستوقفنى أمامها لأنها صفة شائعة فى كثير من أصحاب السلطة والحكام.

ولكن الذى قرأته مما سجله البغدادى فى مذكراته عن موقفين من مواقف الخسة لعبد الناصر وجدتنى قد انفعلت بهما انفعالاً كاد يحطم فؤادى.. كيف أن إنساناً ينحط إلى هذا الدرك الأسفل من الخسة والنذالة ثم يسمح لنفسه بعد ذلك أن يمشى بين الناس بله أن يكون حاكماً ؟!

أقسم.. لقد شعرت حين قرأت هذين الموقفين بما يعبر عنه فى اللغة الدارجة «بالقرف» وهممت بأن أنقطع عن الكتابة استقذاراً لهذه الشخصية.. وتوقفت فعلاً فترة حتى هدأت مشاعرى.. وتذكرت أننى لاأكتب عن هذه الشخصية وإنما أكتب عن الإخوان المسلمين.. ودار فى خاطرى مما يتصل بموقفى أن الذين سطروا أحداث السيرة

النبوية العطرة لم يمنعهم من تسطيرها ماالتصل ببعض أحداثها من أشخاص أخساء.. ولا أقصد بالأخساء أعداء الإسلام من المشركين أمثال أبى جهل والوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة فهؤلاء كانوا أعداءً ولكنهم لم يكونوا أخساء لأنهم كانوا يصارحون بالعداء، وإنما أقصد أقيال اليهود من أمثال مالك بن الصلت ووليد بن الأعصم وكعب بن الأشرف وشاس بن قيس الذى مر يوماً على الأنصار ـــ الأوس والخزرج ـــ وهم مجتمعون فساءه مارأى من ألفتهم بعد ماكان بينهم من العداوة، فأمر شاباً من اليهود وقال: اجلس بينهم ثم أذكر يوم بعاث – حرب كانت بينهم فى الجاهلية – ففعل فأذكى ذلك بينهم روح عداء خمدت وكادوا يقتتلون لولا حضور النبى ﷺ.

ولهذا شرعت أواصل الكتابة مستعيناً بالله ملتزماً أن أبرز الأحداث وأجلى المواقف مهما كان فى ذلك من مرارة.. فأقول:

إن جمال عبد الناصر بعد أن ارتكب جريمة النسف وعرض اقتراحه بارتكاب جرائم الاغتيال وحاول أن يثير بها زملاءه بمجلس الثورة ووزراءه ولم يجد لذلك أثراً فى إيقاف المد الشعبى المتزايد.. لم ييأس وعزم على تدبير خطة أخرى فادعى المرض واعتكف فى بيته خمسة أيام ولا أحد كان يعلم ماالذى انتهى إليه من خطة فى خلال هذا الاعتكاف، ولكننا عرفنا الخطة وعرفها غيرنا بعد أن نفذها.. وتفصيل الخطة الجديدة هو مايأتى فى هذا الفصل وفى الفصول القادمة إن شاء الله.

إفراجات ووسطاء:

فى خلال تلك الفترة كانت تتوالى إفراجات عن أعداد قليلة من الإخوان؛ فبين يوم وآخر يأتى ضابط من المسئولين عن المعتقل وينادى على عدة أسماء يطلب إلى أصحابها إعداد أنفسهم ومهماتهم للإفراج عنهم. ولما قارب شهر مارس على الانتصاف رأينا دفع الإفراجات تكبر وتتقارب حتى صار فى كل يوم إفراج عن مجموعة كبيرة.

وقد بلغنا ونحن فى معتقل العامرية أن هناك وساطات يرسلها عبد الناصر إلى المرشد العام فى السجن الحربى يعرضون عليه الصلح.. وكان المرشد فى ذلك الوقت قد تمكن من تهريب خطاب وجهه إلى مجلس الثورة الذى أصدر بيان حل الإخوان طالبهم فيه بالمباهلة فيما تسبوه إلى الإخوان فى هذا البيان من تهم، والمباهلة أسلوب قرآنى يتحدى المكذوب عليه الكاذب بأن يطلب الطرفان ـــ وقد جمع كل منهما أهله وذويه ـــ أن ينزل الله لعنته على الكاذب.. ولا يطلب المباهلة بطبيعة الحال إلا الطرف الواثق كل الثقة من براءته ولا يهرب منها إلا الكاذبون المفترون.

وتردد الوسطاء بين عبد الناصر والمرشد العام، والمرشد مصمم على أن لايغادر

السجن حتى تثبت براءة الإخوان مما نسب إليهم وأن يرد إليهم اعتبارهم..

وقد بلغنا ونحن بالعامرية حيث كنا آخر من غادرها أنه تم الاتفاق على أن يخرج المرشد العام وجميع المعتقلين، وأن يقوم جمال عبد الناصر ـ رداً لاعتبار الإخوان ـ فى نفس اليوم بزيارة المرشد العام فى منزله. على أن يكون للإخوان أن يزاولوا نشاطهم كاملاً وأن ترد إليهم ممتلكاتهم ودورهم وكل ماأخذ منهم. وأن يصدر مجلس الثورة بياناً يوضح فيه حقيقة الأسباب للحل على أن يكون هذا البيان مسك الختام فى هذه المعادلة.

والذى أذكره يوم خرجت من المعتقل مع المجموعة التى كانت معى يوم ٢٥ مارس ١٩٥٤، وأركبنا سيارة نقل حكومية أننا طيلة الطريق كنا نهتف بهتافات الإخوان ونهتف للحرية وللحكم الدستورى والحكم بالشريعة الإسلامية وكان الناس الذين نمر بهم فى كل مكان يصفقون لنا ويشيعوننا بعبارات التشجيع والتأييد.

يوم ٢٥ مارس هذا الذى أفرج فيه عن آخر دفعة من المعتقلين هو نفس اليوم الذى اجتمع فيه مجلس الثورة اجتماعاً استمر خمس ساعات بحث خلالها الموقف الداخلى. وبعد انتهاء الاجتماع خرج الصاغ كمال الدين حسين إلى الصحفيين وأذاع عليهم القرار التاريخى وهذا نصه:

قرر مجلس الثورة بجلسته اليوم ١٩٥٤/٣/٢٥:

أولاً ـ يسمح بقيام أحزاب.

ثانياً ـ المجلس لايؤلف حزبا.

ثالثاً ـ لاحرمان من الحقوق السياسية حتى لايكون هناك تأثير على الانتخابات.

رابعاً ـ تنتخب الجمعية التأسيسية انتخاباً حراً مباشراً بدون أن يعين أى فرد وتكون لها السيادة الكاملة والسلطة الكاملة، وتكون لها سلطة البرلمان كاملة، وتكون الانتخابات حرة.

خامساً ـ حل مجلس الثورة فى ٢٤ يوليو المقبل باعتبار الثورة قد انتهت وتسلم البلاد لممثلى الأمة.

سادساً ـ تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها.

ملحوظة: يقول صاحب المذكرات: فى الصحف التى نشرت هذه القرارات صورة واضحة لجمال عبد الناصر وبجانبه صلاح سالم؛ يبدو فيها عبد الناصر فى هيئة المغلوب على أمره والذى يفكر فى مخرج من هذا المأزق الذى وضع فيه.

وبعد أن نشرت الصحف هذه القرارات نشرت مايأتى:

«تم الإفراج أمس عن الأستاذ حسن الهضيبى من السجن الحربى كما أفرج عن باقى أعضاء جماعة الإخوان المعتقلين. وقد تم اتصال أمس بين المسئولين وبين السيد/ حسن

الهضيبى المرشد العام قبل الإفراج عنه بشأن عودة جماعة الإخوان المسلمين إلى نشاطها السابق.

وقد تم الاتفاق معهم على ثلاث نقط:

أولاً ــ أن تعود الجماعة إلى سابق نشاطها وكيانها بدون أى حد من حرياتها، وإعادة أموالها المصادرة وشعبها ومركزها العام.

ثانياً ــ الإفراج فوراً عن جميع الإخوان مدنيين أو عسكريين مع إعادة من فصل منهم إلى الخدمة العسكرية.

ثالثاً ــ أن يصدر مجلس الثورة بياناً يوضح فيه حقيقة الأسباب التى اعتبرها داعية إلى حل الإخوان. ويكون هذا البيان بمثابة الختام فى هذه المسألة المؤسفة.

وقد صرح السيد حسن الهضيبى للمسئولين بأن الإخوان سيكونون بعد عودتهم عوناً للحكومة على طرد الانجليز من منطقة قناة السويس ورد اعتداءاتهم الوحشية ــ وفى منتصف ليلة أمس توجه البكباشى جمال عبد الناصر إلى منزل الأستاذ الهضيبى حيث اجتمع به فى منزله.

* * *

الفصل الثالث

الفترة الحرجة والفرصة المضيعة

خرج الإخوان من هذا الاعتقال وهم سادة الموقف. لم يكونوا فى يوم من الأيام أقوى مما كانوا عليه فى ذلك اليوم. فالحكومة أفرجت عنهم وهى راغمة، بل إنها كانت فى إفراجها عنهم متوسلة إليهم، ملتمسة الرضا والصفح عنها والتجاوز عن سيئاتها معهم؛ حتى إنهم اشترطوا على الوسطاء الذين أرسلتهم الحكومة إليهم فى المعتقل أن لايخرجوا من المعتقل إلا إذا ردت الحكومة اعتبارهم بأن تصدر تكذيباً لنفسها فيما افترته عليهم — وانتهوا إلى حل وسط بأن يخرجوا ويقوم جمال عبد الناصر بزيارة المرشد العام فى بيته وقد فعل.

كما أن جميع أهل الرأى من صحافة وقانون، وجامعات أساتذة وطلبة، وقطاعات الشعب جميعاً حتى الجيش.. كلها تعج بالهتاف والدعوة إلى رأى الإخوان وفكرتهم، ويشيرون إليهم بأصابعهم، ويرمقونهم بأنظارهم وينتظرون خروجهم من المعتقلات ليقودوا الأمة إلى تحقيق أمانيها فى الحرية والحكم النيابى الصالح السليم.

بل إن الأجانب — وما كان أكثرهم فى تلك الأيام — كانوا فى نفس موقف الأهالى، ويسيطر عليهم نفس الشعور فى ترقب مايقرره الإخوان من خطوات.. حيث جاء مراسلو الصحف الأجنبية إلى المرشد العام يوجهون إليه الأسئلة عن معاملة الحكومة الإسلامية للأجانب ولغير المسلمين ويرد عليهم بالنصوص القرآنية والنبوية فيطمئنون.

وقد لمست هذا الشعور بنفسى حين خرجت من المعتقل وذهبت إلى عملى بمحلج القناطر الخيرية — وكان أكثر المتعاملين فيه تجاراً أجانب كما أن إدارته كانت من الأجانب.. ماكادوا يعلمون بحضورى إلى المحلج حتى أقبلوا علىّ والتفوا حولى يمطروننى بنفس النوع من الأسئلة التى وجهت إلى المرشد العام — ولأنهم علموا — ولا أدرى كيف علموا — بأننى من المسئولين فى دعوة الإخوان المسلمين؛ أحسست كأنهم يريدون أن يحصلوا منى على مايشبه الحماية لأنفسهم وأموالهم.. وقد أجبتهم إلى ماطلبوا مؤكداً لهم أن الإخوان المسلمين مضطرون إلى حمايتهم لابحكم صداقة شخصية وإنما بحكم القرآن نفسه؛ الأمر

الذى جعلهم يرحبون بالحكومة الإسلامية.

دليل آخر على أن الإخوان كسبوا الجولة:

ولا إخال القارىء محتاجاً إلى أدلة أخرى على أن الإخوان قد كسبوا الجولة وخرجوا من المعتقلات وهم فى أقوى المواقف، ولكنى مع ذلك أسوق دليلاً آخر؛ ذلك أن إخواننا الثلاثة الكبار الذين فصلوا يوم ٩ ديسمبر ١٩٥٣، واعتمدت الهيئة التأسيسية فصلهم يوم ١٠ ديسمبر، وقد قابلوا هذا الفصل بالهزء والسخرية، وذهبوا إلى أحضان محركهم يلتمسون فى ظل سلطته الحماية. هؤلاء الثلاثة لما رأوا الأوضاع قد انقلبت وأن الكفة التى قبعوا فيها وراء محركهم قد شالت وأن كفة الإخوان رجحت أيقظت فيهم قرارات ٢٥ مارس ١٩٥٤ عاطفة الأخوة الإسلامية التى كانت خابية فى نفوسهم منذ ١٥ يناير ٥٤ فأصدروا بياناً فى الصحف فى نفس يوم إعلان قرارات مارس ممهورا بتوقيعاتهم وتوقيع الأربعة الذين فصلوا قبلهم إليك نصه:

«رجال من الإخوان يطالبون الحكومة بعودة الإخوان بأوضاعها وقيادتها ومرشدها بتوقيع صالح عشماوى وعبد الرحمن السندى، وأحمد عبد العزيز جلال ومحمد الغزالى وأحمد زكى حسن وأحمد عادل كمال ومحمود الصباغ».

بسم الله الرحمن الرحيم — لقد أثبتت الحوادث أن قرار حل الإخوان المسلمين كان خطأ بالغاً من مجلس قيادة الثورة وانتكاساً أصيبت به البلاد — أما الخطأ فلأن المراقبين لتطور الحوادث الداخلية فى مصر فى السنين الأخيرة يعلمون تماماً أن هذه الثورة ماكانت إلا وليدة لكفاح دموى شاق قام به الإخوان المسلمون ضد الطغيان الملكى وضد الأوضاع التى كانت قائمة — وكان ثمن هذا الكفاح الشعبى خيرة شباب الإخوان المسلمين وفى مقدمتهم إمامهم ومرشدهم حسن البنا — وأما الانتكاس فلأن حل الإخوان المسلمين هو الفرصة الوحيدة التى كان يتطلع إليها الاستعمار، ويعمل لها أذنابه.. فكانت النتيجة أن برزت المؤامرات والفتن، وأسفر الاستعمار عن نواياه فى مصر والسودان والعالم الإسلامى.

ولا عجب أن يحدث هذا الخطأ وهذا الانتكاس وفى مصر نفر من عجائز السياسة الذين كانوا من عمد عهد الملكية السابق يتظاهرون بالالتفاف حول الثورة ورجالها، فى الوقت الذى يتربصون بهم الدوائر، وينصبون الشباك والأحابيل ويدفعونهم إليها دفعاً.

ونحن إذ نرى هذه السياسة التى تورط فيها رجال الثورة، وما نتج عنها من تحرش الإنجليز واعتداءاتهم المتكررة على المواطنين العزل، وتصريحات ساستهم — ونرى أيضاً استغلال اليهود لهذه الفرصة، وحشد قواهم على حدود الأردن وسوريا، ونرى كذلك أن

الأمة — كما يقال — مقبلة على انتخاب نواب عنها يقررون نظام الحكم فيها. فلذلك رأينا أن نوضح هذه الحقائق:

فالحقيقة الأولى، أن الإخوان المسلمين كتلة واحدة يعملون صفاً واحداً، وما كان لهم أن يعملوا إلا كذلك. وقد حاولنا منذ اللحظة الأولى لقرار الحل أن نوضح للحكومة هذه الحقيقة عملياً حينما وضعنا أنفسنا تحت تصرف قيادة الإخوان دون اعتبار لأى وضع سابق لنا فى تنظيمات الجماعة.

والحقيقة الثانية أن مصلحة الاستقرار الداخلية فى عودة الإخوان كهيئة إسلامية جامعة، وليس هذا العود فى صالح الإخوان فحسب كما يبدو للسطحيين، فقد أثبتت المحن السابقة أن مثل هذه القرارات بحقهم لم تصبهم بقدر ماتصيب أعداءهم ولكن المصلحة فى الاستقرار الداخلى والاستقرار وحده.

والحقيقة الثالثة أن الإخوان المسلمين سيقفون طبيعياً بالمرصاد لأى خطوة رجعية تعود بالبلاد نحو أوضاع استعمارية قديمة بعد أن دمرها جهادهم المرير وتضحياتهم الدموية الغالية. ولن يتخلى الإخوان المسلمون اليوم عن تاريخ الأمس؛ فليحذر أولئك الذين داعبهم الأمل ظناً منهم أن الإخوان قد غفلوا عن أسلحتهم، وما هى إلا الصبر والجهاد المستمر حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

والحقيقة الرابعة أن العود للحياة الطبيعة ليس معناه تمثيلية يخرجها عجائز السياسة حتى يخدع بها الشعب فالحياة الطبيعة فى عرف الإخوان المسلمين هى فى أوضاع سليمة تتفق ومبادئنا التى هى مبادىء شعب وادى النيل ويقف من ورائها أربعمائة مليون مسلم.

أما الحقيقة الخامسة فهى أنه يجب على الحكومة أن لاتستمر فى تورطها فى هذا الخطأ البالغ فى حق الوطن والإسلام خصوصاً بعد أن أنذرتها الحوادث والنذر بسوء العاقبة. ولن يكون ذلك إلا بأن تسرع بإعادة الإخوان المسلمين فوراً كاملة متكاملة. وبعبارة أوضح أن تعود الجماعة بأوضاعها وقيادتها ومرشدها. وأن ترد إليها جميع دورها وأموالها وأن يفرج فوراً عن جميع المعتقلين مدنيين وعسكريين، وأن يصفى الموقف بأجمعه بحفظ جميع القضايا التى نتجت عن هذا الوضع.

وهذه المطالب يقف جميع الإخوان من خلفها صفاً واحداً لايعرفون ولا يستسيغون فيها اشتراطات أو مساومات لايقبلها الأعزة المؤمنون. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

توقيعات

أوردت هذا البيان على طوله الذى صدر من هؤلاء الإخوان الذين كانوا سوطاً يلهب به جمال عبد الناصر ظهور الإخوان المسلمين.. أصدروا بيانهم هذا فى نفس يوم إذعان جمال عبد الناصر بصدور قرارات ٢٥ مارس.. وأين كان هذا البيان طيلة الفترة من ١٥ يناير حتى ٢٤ مارس وما قبلها؟!

ولم يقتصر هؤلاء الإخوان على إصدار هذا البيان بل كانوا من أوائل من زاروا المرشد العام فى بيته وطلبوا منه الصفح وأن يرجعوا إلى أماكنهم فى الدعوة، ولا أدرى ماذا قضى مكتب الإرشاد فى أمر الأربعة الذين كان قد فصلهم، ولكن الذى حدث أن سألنى المرشد العام عما إذا كنت أوافق على إلغاء فصل الثلاثة الذين فصلوا وقد جاءوا معتذرين وطلبوا تجديد البيعة فقلت له: إنما كان قرار الفصل إشعاراً لهم بخطئهم فإذا كانوا قد جاءوا معتذرين فكأنهم بذلك قد اعترفوا بخطئهم وأنا أول من يرحب برجوعهم إلى الصف.

ولكن المعنى الذى هدفت إليه من إيراد كل هذه القصة الطويلة التى لم يكن كل ماجاء فيها من مطالب إلا تحصيل حاصل جاء واضحاً فى قرارات مارس.. المعنى فى ذلك أن هؤلاء الإخوة شعروا بأن الدعوة التى خاصموها قد قهرت أعداءها فلم يكن أمامهم من سبيل إلا طلب الصفح منها.. وهذا وحده دليل على أن الإخوان قد كسبوا الجولة كسباً جعلهم سادة الموقف.

فرصة الفرص أضعناها

كانت الفكرة التى فى رأسى منذ أواخر أيام الاعتقال هى أن الإجراء الوحيد الذى علينا أن نتخذه فى اليوم التالى لخروجنا هو أن نضع يدنا على مرافق البلاد، ونتخذ لنا وضعاً فى حكومة انتقالية يشل حركة جمال عبد الناصر شللاً تاماً حتى نستطيع تنفيذ ماتخذه مجلس الثورة من قرارات رغم أنف جمال عبد الناصر.. ولعل القارىء يرى معى أنه فى ظل الظروف التى سردتها لم يكن أحد يستطيع أن يقف فى طريق الإخوان إذا هم تقدموا لاحتلال مكانهم.

ومن حق التاريخ أن أقرر هنا أن الإخوان لم يوفوا هذا الموقف حقه من الحركة؛ فقد كان الموقف يقتضيهم أن لايضيعوا ساعة واحدة بل دقيقة واحدة منذ خرجوا هذا الخروج المنتصر من المعتقل إلا استغلوها أكمل استغلال؛ لاسيما وهم قد جربوا أنهم يتعاملون مع ثعلب ماكر وشخص مجرد من الأخلاق والدين والضمير والإنسانية ـــ والتعامل مع مثل هذا الثعلب يوجب الحذر، ويتطلب المكر والحيلة والخديعة ولا يفل الحديد إلا الحديد.

كان على الإخوان أن ينتهزوا هذه الفرصة من أول لحظة خرجوا فيها من المعتقل

ليعملوا عملاً إيجابياً يحقق أمال الأمة التى تنتظر منهم هذا العمل مهما أدي هذا العمل السريع إلى تضحيات إذا ماتصدى لهم جمال مع فلوله إن كان بقى له فلول.

ولكن الذى حدث كان غير ذلك. ظن الإخوان أنهم وصلوا بالأمور إلى نهايتها، وأن الرقاب قد دانت لهم، وأن الظروف قد خضعت لمشيئتهم.. فخرجوا من المعتقلات مستسلمين إلى حالة من الاسترخاء والاستجمام أثارت غضبى.

فلقد كانت الفكرة التى أشرت إليها مسيطرة على رأسى تمام السيطرة. فذهبت فى مساء اليوم التالى لخروجنا إلى المركز العام كعادتى على أمل أن ألقى الأستاذ المرشد والإخوة المسئولين؛ لم أجد أحداً منهم. فسألت الأخ الأستاذ محمد الطوبجى مراقب المركز العام عنهم فقال لى:

إنهم فى بيت الأستاذ المرشد يستقبلون المهنئين بالخروج من المعتقلات.

وجئت فى اليوم الثانى فلم أجد أحداً.. وقيل لى إنهم لايزالون يستقبلون المهنئين.. فاستشطت غضباً. بل إن أعصابى كادت تحترق من الغضب. وأنا أعلم أن جمالاً لن يمهلنا حتى نستجم ونستوفى حقنا من تهانى المهنئين.

وذهبت إلى المركز العام فى اليوم الثالث فالتقيت بالأخ الأستاذ عبد الحكيم عابدين الذى بادرنى بقوله: إن الأستاذ المرشد عاتب عليك.

قلت: لماذا؟

قال: لأن جميع الإخوان المسئولين وغير المسئولين زاروه مهنئين حتى صالح عشماوى والغزالى والسندى وزملاؤه المفصولون. وأنت الوحيد الذى لم تزره.

فقلت له: إننى لم أزره ولن أزوره — وصببت عليه — رحمه الله — جام غضبى وقلت له أبلغ الأستاذ المرشد أن بقاءه فى بيته يستقبل المهنئين ليس هو العمل الإيجابى الذى ينتظره الشعب من الإخوان المسلمين فى هذا الظرف الدقيق. وإن الذى جربناه فوجدناه يستبيح الكذب والاختلاق والافتراء والغدر لن يمهلنا حتى نتم استقبال وفود المهنئين.

ولم يكن عبد الحكيم فيما يبدو لى يرى ماأرى، كدأب الإخوان عامة يغلب عليهم حسن الظن الذى جرَّ عليهم وعلى الأمة ماجر من مصائب وأهوال.

ولم ألتق بالأستاذ المرشد والإخوة المسئولين إلا فى اليوم التالى فى حفل شاى دعيت إليه فى منزل الأخ الأستاذ منير الدلة.. وقد أفضيت إلى الأستاذ المرشد بما عندى؛ فاعتذر إلىّ بأنه لم يستطع أن يغادر بيته لحظة لتدفق وفود المهنئين التى لم تدع له فرصة للراحة ولا حتى للاختلاء بنفسه ولو لحظة من ليل أو نهار.

وقد ساءنى أن وجدت الحديث الدائر بين كبار الإخوان فى هذا الحفل منصباً فى

أكثره على موضوع الانتخابات القادمة وموقف الإخوان منها، والتفاهم مع جمال على كيفية إجرائها.. مما جعلنى أتخلص من هذا الحديث وأنتحى جانباً مع الأخ الأستاذ الشيخ محمد فرغلى الذى كان دائماً يتفق معى فى الرأى. وقد كاشفته بما فى نفسى.. وخرجت وإياه من هذا الحفل غير منشرحى الصدر كأنما نتوقع شراً، ولكن لاندرى كيف يكون.

وقد حضر فى خلال تلك الفترة إلى مصر الملك سعود بن عبد العزيز لمحاولة التوفيق بين جمال عبد الناصر والرئيس محمد نجيب.. وقد استقبل الملك وفداً من الإخوان برياسة المرشد العام مرحبين بمقدمه وقد أعرب لهم عن سروره بأن يرى الإخوان يستأنفون نشاطهم ورسالتهم.

وفى أول يوم حضر فيه المرشد العام إلى دار المركز العام أدى صلاة الشكر بالفناء الخارجى للدار وأم المصلين — وفى جموع زاخرة من الإخوان قام الأخ الأستاذ عبد القادر عوده محمولاً على الأعناق وألقى الكلمة التالية:

«الحمد لله الذى أرجعنا إلى هذا المكان بعد أن غيبتنا غياهب السجون فترة من الزمن.. ثم أوصى الإخوان بأن يكونوا صفاً واحداً، تحت قيادة واحدة وقال: إن الله قد اختار لنا الخير كل الخير بهذا الحل. لأن القلوب قد تلاقت، والأقدار قد اتحدت — ثم قال: إن الدعوة الإسلامية الأولى لم تتحقق بأكثر من هذا العدد الموجود فى فناء المركز العام الليلة. وثقوا أنه مامن قوة تستطيع أن تقضى على هذه الدعوة بحديدها وتارها؛ مادمتم متمسكين بحبل الله المتين والحب القوى الذى يربط بين قلوبكم».

ثم تكلم الدكتور خميس والأستاذ عمر التلمسانى. ثم نهض المرشد فقال:

«إننا نؤثر دائماً المصلحة العامة. وإننا ندع الماضى فلن نتحدث فيه لنعمل جاهدين على طرد المستعمر الغاصب. وإن الإخوان المسلمين هم القوة التى تستطيع أن تدوخ المستعمر — وطلب بجمع الصفوف بين أفراد الأمة ليتحقق الغرض المأمول».

وفى خلال هذه الفترة قرر مكتب الإرشاد تكوين لجنة للاتصال بالحكومة ومجلس الثورة من الدكتور كمال خليفة والشيخ محمد فرغلى والأستاذ صالح أبو رقيق والدكتور عبد القادر سرور للتفاهم على المسائل المتعلقة بالجماعة.. وكان من أول ماطالب به الإخوان الإفراج فوراً عن باقى المسجونين ومن بينهم. الإخوة: الصاغ أمح معروف الحضرى وقائد اللواء الجوى عبد المنعم عبد الرءوف والبكباش أمح. أبو المكارم عبد الحى، والصاغ أمح حسين حمودة وغيرهم من الضباط الذين كانوا لايزالون محبوسين بسجن الأجانب وغيره من المعتقلات.

الفصل الرابع

مفاجأة أجهضت مكاسب الشعب

فى اليوم التاسع والعشرين من مارس ١٩٥٤ بينما كنت أباشر عملى بمحلج القناطر الخيرية — ويقع هذا المحلج على الطريق الرئيسى الموصل إلى القاهرة والمحاذى لشاطىء النيل — فوجئت بهتافات متواصلة، وبأصوات مرتفعة. فخرجت إلى بوابة المحلج فرأيت سيارات نقل ممتلئة بعمال، تبين لى أنهم من عمال وزارة الزراعة جاءهم أمر من الوزارة بترك أعمالهم وركوب هذه السيارات الحكومية — سيارات نقل — ومع كل سيارة شخص يحسن القراءة والكتابة، يقرأ الهتافات المكتوبة فى ورقة ويرددها خلفه ركاب السيارة دون أن يعرفوا معناها. وكانت هذه الهتافات متعددة، ولكن أبرزها وأكثرها ترديداً قولهم «لاأحزاب ولا حزبية ولا جمعية تأسيسية». ثم بلغنى أن جميع وسائل المواصلات معطلة فى شبة إضراب.

فتعجبت وتعجب الناس كيف استطاع العمال العاملون فى وسائل النقل المختلفة من ترام إلى أوتوبيس إلى مترو إلى سيارات الأجرة أن تلتقى إراداتهم المختلفة، وظروفهم المتباينة، وأماكنهم المتباعدة على هذا الإضراب المفاجىء، الذى شل حركة العاصمة شللاً تاماً — ثم كيف التقت إرادات عمال الحكومة من مختلف وزاراتها، وعلى تباعد أماكن العمل لكل نوع منها.. كيف التقت إراداتهم رغم ذلك كله؛ فخرجوا فى وقت واحد مضربين متجهين جميعاً إلى قلب القاهرة هاتفين بهتاف واحد وبصيغ واحدة ذات معان سياسية فوق مستوى إدراكهم وثقافتهم..

وكيف يقدم هؤلاء العمال على الإضراب وهم قد رأوا بأعينهم منذ قليل أن عمال شركة واحدة هى شركة كفر الدوار للغزل والنسيج أضربوا مرة واحدة فى عهد الثورة فشنقت الثورة اثنين من زعمائهم علناً..؟!

تحير الناس فى تعليل مارأوا وما فوجئوا به.. ولكن انكشف بعض هذا الغموض حين اتصل بعض من كان معنا بالمحلج ببعض هؤلاء العمال المحملين فى سيارات الحكومة فأخبروهم بأنهم مكلفون بهذا الإضراب من رؤسائهم بناءً على تعليمات من جهات عليا

وأنهم ستصرف لهم أجورهم عن هذا اليوم كاملة.

وصف المفاجأة

سأنقل من جريدة «المصرى» التى صدرت فى اليوم التالى وصفاً لما حدث فى خلال هذا اليوم العجيب حيث كتبت تقول:

«سيطر على القاهرة أمس جو غريب رهيب لم يكن فى يوم من الأيام مسرحاً لما يماثله.. فقد نزلت إلى الميدان عدة «فرق» معينة مكونة من بعض الأشخاص. نزلت هذه «الفرق» إلى القاهرة أمس فأدت إلى تكوين جماعات متعددة أخذت تطوف بمختلف أحياء العاصمة وطرقاتها الرئيسية — وعلى الرغم من أن هذه الجماعات كانت قليلة العدد إلا أنها كانت كثيرة العدة.

فلقد رددت هذه الجماعات الضئيلة العدد، العالية الضوضاء، هتافات غريبة، وكانت هذه «الجماعات» وتلك «الفرق» المعينة تهتف هتافات عدائية، وتندد بالحياة الديمقراطية وقيام الأحزاب.

تعطل المواصلات:

ولقد أدت هذه المظاهرات إلى تعطل جميع وسائل النقل فى مختلف أنحاء العاصمة؛ فتوقفت سيارات الأتوبيس ومركبات الترام والمترو.. حتى سيارات الأجرة التى ظل سائقوها فى عملهم حتى ساعة مبكرة من صباح اليوم سيتوقفون توقفاً تاماً.

مطالبة الموظفين بالتوقف:

ولم تقف موجة المظاهرات عند هذا الحد، فقد ظلت «جماعاتها» تطوف بدواوين الحكومة مطالبين موظفيها بترك أعمالهم. وهكذا تعطلت العاصمة وشلت حركتها تماماً، وانعدمت فيها كل مظاهر الحياة.

مظاهرة ضد «المصرى»:

وقد تجمعت بعض هذه «الفرق» أمام دار جريدة «المصرى» فى حوالى الساعة الثانية والنصف بعد ظهر أمس وهى تردد هتافات «تسقط المصرى العاهرة وتعيش الجمهورية الحرة».

ولما كانت الأوامر قد صدرت إلى رجال البوليس بعدم التعرض لهذه «الجماعات» أو تفريقها فقد اعترض طريقها إلى «المصرى» رجال البوليس الحربى. ولكن هذه «الجماعات» لم يرضها من البوليس الحربى ذلك فتراجعت إلى الوراء فى شارع القصر العينى وأفرادها يقذفون الحجارة ليحطموا بها زجاج نوافذ الدار وقد تحطم بعض زجاج غرفة رئيس التحرير. وقد أصابت حجارتهم فضلاً عن تحطيم النوافذ أربعة من رجال البوليس الحربى فى رؤسهم فأصابتهم بإصابات مختلفة ــ ثم انصرفت هذه «الجماعات» من أمام دار جريدة «المصرى» متجهة إلى جهات أخرى.

وخطب الصاغ صلاح سالم فى المتظاهرين أمام رياسة مجلس الوزراء أمس فقال: إن الثورة ستستمر فى طريقها، وإن الوجوه القديمة من الشيوخ والنواب السابقين لن تعود إلى الوجود.

ويلاحظ أنه بعد يوم واحد من اتخاذ القرارات المشار إليها أخذت الأزمة تشتد حتى بلغت ذروتها عقب عودة الرئيس نجيب من زيارته للإسكندرية يصحبه جلالة الملك سعود إذ فوجىء بمطالب تتعارض تماماً مع ماتخذه مجلس الثورة من قرارات. **وقال البكباشى جمال عبد الناصر إنها رغبة الجيش بجميع وحداته.**

ووجد الملك سعود أن من الواجب السعى لتقريب وجهتى النظر فدعاهما إلى قصر الطاهرة لبحث هذا الأمر. وأجل الملك العربى سفره أمس إلى اليوم أملاً فى حل الموقف ــ وفى صباح أمس زار جمال عبد الناصر الرئيس نجيب فى داره للتباحث فى هذا الشأن ــ وقبل ظهر أمس اجتمع المؤتمر المشترك لبحث المبادىء التى يمكن أن يتم الاتفاق عليها حلاً للموقف. وقد انتهى المؤتمر من إقرار هذه المبادىء على أن يتم بحث تفاصيلها اليوم. والمفهوم أنها لن تعترف بالأحزاب، وسيكوّن لمجلس الثورة السيادة، كما يدور البحث حول شكل الجمعية الوطنية وسلطة رئيس الجمهورية.

وعند اجتماع مجلس الثورة مع الوزراء حضر الرئيس نجيب، ولم يستطع الدخول إلا من الباب الخلفى لدار مجلس الوزراء؛ لأن المتظاهرين سدوا الباب الأصلى ــ ولما حضر جمال وصلاح وعامر حضروا فى سيارة واحدة هتفت لهم هذه المظاهرات. وقد ألقى جمال عبد الناصر كلمة فى المتظاهرين جاء فيها: «وسنسير حتى نحقق أهداف الثورة. وهذه الثورة ليست ثورة فرد أو أفراد، ولكنها ثورتكم ياشعب مصر. وليس جمال أو صلاح إلا أبناء هذه الثورة. وسنسير مع الشعب لتحقيق أهداف هذا الشعب. وقد غرروا بنا فى الماضى واستغلونا واستباحوا كرامتنا، أما اليوم فأنتم ياشعب مصر لن تمكنوا أى فرد من أن يخدعكم أو يضلل بكم، فأنتم الأمناء عليها. **ولن تكون هناك ديكتاتورية إلا ديكتاتورية الشعب**

أوامر من قيادة الحرس الوطنى بترحيل أفراده من الإسكندرية والأقاليم إلى القاهرة:

نشرت جريدة «القاهرة» أمس رسالة تلقتها من مكتبها بالإسكندرية قالت فيها: طلبت قيادة الحرس الوطنى بالإسكندرية إعداد قطار خاص مكون من سبع مركبات لنقل ٨٠٠ من قوات الحرس الوطنى الذين سيغادرون الإسكندرية فى طريقهم إلى القاهرة صباح الاثنين «اليوم».

وقالت الجريدة: وتلقينا أيضاً من مراسلنا فى مدينة الواسطى رسالة تليفونية عاجلة يقول فيها: وردت إشارة اليوم من الفيوم لمحطة الواسطى ونصها: رقم ٤٦ — إلى حركة القطارات بمصر ومفتش حركة الفيوم والواسطى مستعجل جداً:— مطلوب ترحيل ١٥٠ حرس وطنى لمصر بصفة عاجلة جداً بقطر رقم ٧٣٥ لقطر رقم ٧٧٧ اليوم— الواسطى تستعد بعربتين لإضافتهما إلى قطار رقم ٧٧٧ ويلاحظ ركوبهم والمختصون للتأكيد والإفادة للتنبيه باللازم— وقد نفذت محطة الوسطى هذه التعليمات.

وقالت جريدة القاهرة أيضاً فى عددها مساء أمس: إن مندوبها علم أن المسئولين عن منظمات الشباب برياسة الصاغ وحيد رمضان يقومون الآن بالتمهيد لتنظيم مظاهرة سلمية صامتة كبرى، تمر فى أنحاء شوارع القاهرة، وتهدف إلى مطالبة المسئولين بالسلاح للكفاح ضد الاحتلال— ومن المنتظر أن تخطر محافظة القاهرة بخط سير هذه المظاهرة السليمة.

وأدلى الصاغ خالد محيى الدين لمندوب «المصرى» بالإسكندرية أمس حين قال له المندوب إن بعض مدارس الإسكندرية قد أضربت فقال «عساهم أن لايكونوا قد هتفوا بسقوط الحرية والبرلمان والحياة النيابية».

الاعتداء على مجلس الدولة:

استقال الأستاذ سليمان حافظ الذى كان يمثل القانون فى الثورة. وقد هاجمت هذه «الفرق» مجلس الدولة، واعتدوا على الدكتور عبد الرازق السنهورى رئيس المجلس الذى أصيب بجراح، وقد استغاث بجمال عبد الناصر فأرسل إليه صلاح سالم وصحبه إلى منزله.

الحياة الطبيعية تستأنف اليوم :

على أثر إعلان القرارات الجديدة لمجلس الثورة عادت الحياة إلى طبيعتها— وفى المساء قصد جمال وصلاح وكمال حسين إلى مقر اتحاد عمال النقل المشترك وحثوهم على

العمل — ثم صدر بيان من وزارة الداخلية بمنع المظاهرات».

هذا هو وصف جريدة «المصرى» لما حدث فى ذلك اليوم.. ولقد قلت حين رأيت هذه المفاجأة: لقد سبقنا جمال عبد الناصر، وبقدر مامنحه سبقه فرصة يعمل فيها ويدبر؛ سلبنا تخلفنا الفرصة للتفكير والتدبير. ولم يعد أمامنا بعد ذلك إلا أن نحاول أن نكف عن وجوهنا مايوجهه إليها جمال عبد الناصر من لطمات؛ فليس لجمال عدو إلا نحن، وليس له منافسون سوانا؛ فلقد اختفت الأحزاب كأن لم تكن، ودار أكثر رجالها واستداروا ورضوا أن يكونوا أذناباً له فى هيئة التحرير.. إن الرجل يريد أن يحكم البلاد بنفسه وبرأيه وبتفكيره وحده؛ يضغط على زر فتقوم ويضغط على زر فتقعد.. أين هذا مما يريده الإخوان عليه من أن يدع البلاد تحكم نفسها بنفسها بدستور مستمد من القرآن الذى يقدس الشورى، ويندد بالأنانية والاستبداد؟!

ويلاحظ أن هذه الحركة المفاجئة التى باغتت الناس جميعاً، قام بها عبد الناصر فى الوقت الذى لم يكن له سند من الجيش بدليل أن «مجموعات» عمال النقل المشترك حين هاجمت جريدة «المصرى» تصدى لها البوليس الحربى، ولكن جمال عبد الناصر لجأ إلى طبيعته فى الكذب حين سأله الرئيس نجيب عن هذا الانقلاب المفاجىء فقال: إنها رغبة الجيش بجميع وحداته.

لقد استباح جمال عبد الناصر — لتثبيت نفسه وإجهاض كل ماأجمعت عليه طوائف الأمة — جرائم جساماً لن يتغاضى التاريخ عن الحكم عليها وتجريمها.. رجل ائتمنته الأمة على أموالها فيأخذ من هذا المال ويرشو به رئيس اتحاد نقابات عمال النقل المشترك واسمه «الصاوى» ليعلن إضراباً شاملاً لمطالب خاصة.. ثم يسخر وسائل الإعلام من إذاعة وصحافة لإذاعة أنباء هذا الإضراب.. ثم يوعز إلى الوزراء بإرسال العمال التابعين لوزاراتهم بسيارات الحكومة إلى القاهرة هاتفين ضد الحياة النيابة، ونظرا لعدم وجود نصير له فى الجيش يلجأ إلى الحرس الوطنى التابع لكمال الدين حسين فيسخر السكة الحديد لنقل شباب الحرس الوطنى من الإسكندرية والصعيد إلى القاهرة لتأييد حركة العمال المفتعلة المرشوة من خزانة الدولة.. ثم يسلط هؤلاء وهؤلاء على الجريدة الحرة الوحيدة فى مصر ليحطموا زجاجها ولولا دفاع البوليس الحربى عنها لحطموها وقتلوا من فيها — ثم يسلطهم على حرم القضاء فيهاجموا رئيس مجلس الدولة وكادوا يفتكون به.

هذه جرائم لن يغفرها التاريخ. ولئن حاول الذين انتفعوا من وراء هذه الجرائم وآل إليهم الأمر من بعده أن يتستروا على هذه الجرائم ويبسطوا عليها بساط النسيان — وإذا أحرجهم ذو جرأة وشجاعة لجأوا إلى وسائل ممقوتة من التبرير واختلاق الأعذار التى هى وحدها جريمة يحاول بها ستر جريمة.. لئن واتت الظروف هؤلاء ردحاً من الزمن، فإن

ذلك لن يطول بإذن الله.. ومهما طال فلن يمحى من صفحات التاريخ وسوف يأتى اليوم الذى ينشر فيه ويقول التاريخ فيه كلمته.

ولم نكن نحن وحدنا الذين ساءهم ماارتكبه جمال عبد الناصر من جريمة فى ذلك اليوم؛ بل إن زميله وصديقه فى مجلس الثورة عبد اللطيف البغدادى ذهل لما فعله جمال وكان يظن هو وزملاؤه أن هؤلاء العمال تحركوا من تلقاء أنفسهم، فلما علموا بأن جمالا دفع أربعة آلاف جنية من أموال الدولة رشوة للصاوى رئيس نقابة هؤلاء العمال «عاتبه» البغدادى فى هذا التصرف فرد عليه جمال بقوله: ماهو كان لازم ندفع لهم، لأن خالد محيى الدين ويوسف صديق كانوا جيدفعوا أيضاً لتحقيق غرضهم.

ومن هنا نستمد دليلاً جديداً على أن جمال عبد الناصر كان يتعامل مع من سماهم أعضاء مجلس الثورة لاتعامل الزملاء كما أوهمهم وأوهم الناس، بل تعامل صاحب الهدف الشخصى يحجبه فى طيات نفسه، ويستعين فى كل خطوة يخطوها نحو هذا الهدف بمن يراه صالحاً للاستعانة به من هؤلاء.. ويبدو أن البغدادى لم يكن صالحاً للاستعانة به فى هذه الخطوة فركنه جانباً وراح يستعين بمن هم أسلس منه قياداً وأكثر سذاجة ومن لايفهمون أنهم يشتركون بذلك فى ارتكاب جريمة.

ولكن الجريمة ارتكبت بكل جرأة وبكل صفاقة، وتم نجاحها، وخرج جمال عبد الناصر ظافراً على أنقاض أمة فقدت كل آمالها فى الحرية والأمن والاستقرار.. وظن السذج الذين أعانوه على هذه الجريمة أنهم ــ كما ألقى فى روعهم ــ أسدوا إلى أمتهم جميلاً عظيماً وصدق الله العظيم ﴿**قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً**﴾.

* * *

الباب الحادى عشر

مابعد إفلات الفرصة

أيام سوداء

الفصل الأول : عبد الناصر والإخوان يتبادلان المواقف

الفصل الثانى : تحرش مقدمة لخطوة سياسية مريبة

الفصل الثالث : التحرش لم يمنع الإخوان من انتقاد الاتفاقية

الفصل الرابع : عبد الناصر يقابل نقد الاتفاقية بخطه تنكيل وإبادة

الفصل الأول

عبد الناصر والإخوان يتبادلان المواقف

لاأدرى هل كنت منصفاً فيما حمّلت قيادة الإخوان وزره من تباطئها عن احتلال مكانها الذى كان شاغراً فى انتظارها لقيادة الشعب إلى حريته؟.. ولقد بسطت الظروف التى أحاطت باعتقال الإخوان ثم بالإفراج عنهم، قبل أن أحمل هذه القيادة الوزر حتى لاأكون متجنياً فى هذا التحميل.

وينبغى أن يكون معلوماً أن نقد القيادة نقداً مباشراً لامن وراء ظهرها فى موقف من المواقف لايقدح فى تقديرها والإخلاص لها.. هكذا علّم الإسلام أبناءه؛ حتى المرأة نقدت عمر بن الخطاب وهو على المنبر وأذعن عمر.

وقد يقوم عذراً للقيادة فى هذا الصدد أنها تعتصم فى كل تصرفاتها بالقيم الإسلامية.. ولكن هذه القيم لها موقف معروف ومحدد إزاء من جُرب عليه الكذب ونكث العهد.

وقد أثرت هذا الموضوع فى فصل سابق وما كان من حديث حوله بينى وبين الأخ الأستاذ عبد الحكيم عابدين ثم بينى وبين الأستاذ المرشد العام.

غير أن جديداً جد فى هذا الموضوع وإن كان هذا الجديد جديداً علىّ أنا شخصياً حيث لم يكن لى به سابق علم ولم أعلم به إلا بعد أن قرأت كتاب «صفحات من التاريخ» للأخ الأستاذ صلاح شادى، فقرأت فيه فى صفحة ٣٢٦ مايأتى:

«حتى بعد وضوح غدرته بنا فى سنة ١٩٥٤، ودخولنا السجن وخروجنا منه، وزيارته (جمال عبد الناصر) للمرشد فى منزله على سبيل الاعتذار، حيث طلب من المرشد أن لانهدده بإخراج مظاهرات تنادى بشجبه ووعده المرشد بذلك. ودعا المرشد فى بيان عام جموع الشعب إلى الإخلاد إلى الهدوء بغرض تهيئة الجو للإصلاح بين نجيب وعبد الناصر ـــ فلما خرجت مظاهرات مارس المزيفة توجه الأخوان هارون المجددى وتوفيق الشاوى إلى المرشد حسن الهضيبى وطالباه بإخراج مظاهرات مضادة، فأبى أن يجيبهما إلى ماسبق أن دعا الشعب إلى نقيضه فلا يتسق سره وعلانيته».

وقد طرق سمعى لأول مرة من هذه الفقرة التى اجتزأتها من كتاب الأخ الأستاذ صلاح شادى أنه كان هناك طلب من جانب جمال عبد الناصر أن لايخرج الإخوان مظاهرات تهدده، وأنه كان قد وعد من جانب المرشد العام بذلك.

وإن كنت ألفت النظر إلى بقية ماجاء بهذه الفقرة مما يتصل ببيان المرشد العام الذى يطلب من جموع الشعب الإخلاد إلى الهدوء، فأقول إن هذا البيان لم يصدر أو على الأقل لم ينشر إلا بعد وقوع المظاهرات المزيفة. وإنه لم يكن من الصواب إخراج مظاهرات مضادة لأن جمال عبد الناصر فى ذلك الوقت كان قد صار فى موقع القوة.

ثم قرأت فى مذكرات معدة للنشر إن شاء الله للأخ الأستاذ عبد الحفيظ الصيفى مايلى: «عندما اضطر جمال عبد الناصر إلى إخراج الإخوان من المعتقل الأول كانت هناك لجنة وساطة من الأستاذ فؤاد جلال والدكتور عبد القادر سرور. ووضع الطرفان شروطاً: أن يزور جمال المرشد فى بيته معتذراً — وأما من جانب جمال فاشترط أن يلتزم الإخوان الصمت لفترة معينة.

فى خلال هذه الفترة تحركت المظاهرات العمالية المدفوعة الأجر — ويقول الأخ هارون المجددى إنه توجه مع الأخ الدكتور توفيق الشاوى — كما توجه غيرهما — لمقابلة الأستاذ الهضيبى يطلبون منه أن تتحرك الجماعة لمواجهة مايجرى فى البلد، والعمل على إيقاف هذه المهزلة فكانت إجابته: لقد أعطيت كلمة ولمدة ثلاثة أيام ويجب أن أكون عند كلمتى.

لكن، وبعد صحوة من الغفوة..

يقول الأخ الدكتور كمال خليفة: إن الأستاذ الهضيبى اتصل به، وطلب منه الاتصال بجمال ليحدد موعداً معه للمقابلة. وتم ذلك بالفعل. وتوجه المرشد مع الدكتور كمال وتحدث فضيلته مع جمال عن هذا الذى يجرى فى شوارع القاهرة، وطلب منه العمل على إيقافه لأنه يعرض البلاد إلى عدم الاستقرار — ولكن عبد الناصر لم يأبه لهذا القول. بل نظر إلى المرشد غير مكترث بما يسمع — ويقول الدكتور كمال إنه نظر إليهما نظرات ذات معنى واحد؛ أنه نجح فى تحقيق مايريد ولا يهمه بعد ذلك مايقال».

قرأت هذا وكان نبأ جديداً علىّ، وفيه تفصيل لما جاء بكتاب الأخ الأستاذ صلاح شادى، فذكرنى ذلك بقصة التحكيم التى تروى فى بعض الكتب — وإن كنت قرأت تحقيقاً تاريخياً أثبت أنها لم تحدث — ولكنها لازالت تروى على الصورة الآتية:

لما اشتد الخلاف بين علىّ ومعاوية اتفق الطرفان على التحكيم بينهما فاختار طرف علىّ أبا موسى الأشعرى واختار طرف معاوية عمرو بن العاص.. واختلى الحكمان معاً

ليتفقا على رأى فاتفقا على أن يخلع كل منهما صاحبه، ويتركا الأمر بعد ذلك للمسلمين يختارون إماماً آخر.

ولما كان على كل منهما أن يعلن هذا الرأى على المنبر، اختلفا من يصعد المنبر أولاً؟ فتأخر عمرو ابن العاص مدعياً أنه ليس من حقه أن يتقدم على أبى موسى وأبو موسى يفضله بسابقته فى الإسلام وعلمه وفضله؛ فتقدم أبو موسى وأعلن قائلاً: إننى أعلن أننى أخلع علياً كما أخلع خاتمى هذا وخلع خاتمه ــ فلما جاء دور عمرو بن العاص صعد المنبر وأعلن قائلاً إننى أثبت معاوية كما أثبت خاتمى هذا وثبت خاتمه فى إصبعه.

ويستدل رواة هذه القصة بها على طيبة أبى موسى ومكر عمرو بن العاص.. وإذا فرضنا أن هذه الواقعة حدثت فإن أبا موسى لايلام على طيبته وحسن ظنه فإنه لم يجرب على عمرو بن العاص كذباً ولا نكثاً للعهد.. ولكننا جربنا على جمال عبد الناصر الكذب وآنسنا منه نكث العهد؛ فما كان ينبغى لنا أن نلدغ من جحر مرتين.

وأنا لازلت أكرر أن الفرصة التى كان يجب أن تستغل، وأن لانضيع ساعة واحدة منها هى فرصة الثلاثة الأيام التى أخذ بها جمال عهداً من المرشد العام فاطمأن بذلك أنه ضمن ثلاثة أيام تشل فيها حركة الإخوان وتكون له فرصة للتفكير والتدبير، وناهيك بثلاثة أيام للتفكير والتدبير من شخص لايحد تفكيره قانون ولا يقيد تدبيره دين ولا شرف ولا يرقب فى مؤمن إلاً ولا ذمة.

على العموم.. قد كان ماكان ولم يعد أمام الإخوان بعد أن أفلتت منهم الفرصة، وبعد أن سبقهم إليها جمال عبد الناصر، إلا أن يتلقوا منه ــ كما قلت من قبل ــ اللطمات، وكل مايملكه الإخوان أن يفكروا كيف يتفادون هذه اللطمات؛ إن استطاعوا أن يتفادوها.. وهيهات.

وكان للإخوان مجموعة خصصوها للاتصال بالحكومة أو بمعنى أصح بجمال عبد الناصر للتفاهم فى مختلف الشئون. وقامت هذه المجموعة بالاتصال مرة ومرات، ولكنها لم تأت بنتيجة ذات قيمة، لأن جمال عبد الناصر كان فى تلك الأثناء يتكلم من موقع القوة؛ فلقد آلت إليه مقاليد الأمور بعد أن أصبح محمد نجيب مجرد رمز وصورة يحركها كيفما شاء. ولا ننسى أن محمد نجيب هو الذى أجابه على طلبه فمنحه سلطة الحاكم العسكرى ــ التى كان يتمتع هو بها ــ وزاده عليها بسلطات لم يمنحها الحكام العسكريون من قبل ولو كانوا فى ميادين القتال.. ولقد كان عبد الناصر حريصاً على أن يخول هذه السلطة بطريقة قانونية؛ ولا يعنيه بعد ذلك أن يشغل أعلى المناصب أو أدناها؛ فإن كل هذه المناصب بغير هذه السلطة مناصب جوفاء ــ أما هذه السلطة فهى السيف الذى يستطيع به أن يذل الرقاب، ويطيح الرءوس، ويخضع الصغير والكبير، ويتحكم به فى أصحاب المناصب

حتى فى أولئك الذين منحوه إياها.

ولقد كنت أشرت من قبل إلى أن المرشد العام كان قد رفع دعوى أمام مجلس الدولة يطلب فيها الحكم ببطلان قرار الحل الذى أصدره مجلس الثورة؟ وإلى أن مجلس الدولة قرر نظر الدعوى يوم ٣١ مارس ١٩٥٤ — ولكن يوم ٣١ مارس جاء بعد يوم ٢٩ مارس الذى حدث فيه انقلاب جمال عبد الناصر.. وكان ضمن حلقات هذا الانقلاب اقتحام الرجال الذين استأجرهم عبد الناصر بمال الشعب لمبنى مجلس الدولة، والهجوم على رئيسه الدكتور السنهورى ومحاولة قتله.. ولذا فقد حاولت أن أجد إشارة فى يوم ٣١ مارس وماتلاه من أيام لموضوع دعوى الإخوان فلم أقف لها على أثر.. لقد قضى انقلاب عبد الناصر فيما قضى عليه على هيبة القضاء بعد أن ديس أكبر رجل فيه بنعال أبطال يوم ٢٩ مارس ١٩٥٤.

وأستطيع أن أختصر القول فأقول إنه مامن يوم جاء بعد ذلك إلا كان أسوأ مما قبله لاسيما فى العلاقات بين الإخوان وبين عبد الناصر، فضلاً عما حاق بالبلاد من دمار خلقى ومادى — ولكن الإخوان بالرغم من فقدهم موقع القوة الذى كانوا فيه، فإنهم لم يقفوا موقف المتفرج، بل تقدموا فى كل موقف بما يجب عليهم من النصح والإرشاد.. وهاكم خطاب المرشد العام إلى عبد الناصر فى غرة شهر رمضان ١٣٧٣ الموافق ٤ مايو ١٩٥٤: السيد رئيس مجلس الوزراء.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته   وبعد

فإنكم دون شك تذكرون أنكم اتفقتم معنا على إنهاء الوضع الشاذ الذى أوجده حل جماعة الإخوان المسلمين يوم دعوتم الإخوان إلى تناسى الماضى والتعفية على آثاره، ورأيتم أن خير البلاد ومصلحتها فى أن يبدأ الإخوان ورجال القيادة عهداً جديداً من التعاون.

وقد سلمتم يومئذ بوجوب إلغاء قرار الحل الخاص بجماعة الإخوان المسلمين وبالإفراج عن جميع المعتقلين، وبرفع الأثر الذى ترتب على بيان الحل رفعاً صريحاً يغنينا عن التعرض لمناقشة البيان.

وبصرف النظر عن أن المسائل الخاصة بالجماعة لم ينته الرأى فيها إلى ماإتفق عليه، فإن مصلحة الوطن تقتضينا أن نبذل لكم من الرأى فى مشاكله مانرى أنه يدعو إلى اطمئنان الناس كافة، ويحقق الاستقرار الذى لايمكن بدونه أن يتم شىء من إصلاح الأمور الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من الشئون على وجهه الصحيح. والدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم — كما قال رسول الله ﷺ — ومن حقنا أن نؤدى لكم الواجب علينا.

من ذلك؛ أن مصر اليوم تجتاز مرحلة من أدق المراحل التى مرت بها. فنحن جميعاً نهدف إلى تحرير البلاد وإخراج الإنجليز منها. ولن تخرجهم الخطب والبيانات، وإنما يخرجهم كفاح شاق طويل ليس هذا موضع بيانه. ونحن لانريد الدفاع عن أنفسنا فحسب ضد إسرائيل التى استأسدت علينا فى الأونة الأخيرة، بل نريد إخراجها من فلسطين، ولا تزال الحرب بيننا وبينها قائمة، وإن كنا فى هدنة.

وأول مايجب علينا؛ أن نتخذ العدة لذلك، وأن نعد جيشاً لمهمته الأصلية وواجبه الأول. فإن مصر لتحتاج إلى الاستقرار. وهو أمر لاينال بالكلام، ولا يدرك بالشدة؛ ولكنه ينال حينما يشعر الناس شعوراً حقيقياً بأنهم حماة الثورة. وحماة ماتجهت إليه من ضروب الإصلاح. والثورة لابد للمحافظة عليها من أن تحوطها القلوب وتذود عنها. أما القوة وحدها فإنها لاتحقق الغاية المقصودة. ويدرك الاستقرار كذلك بالعدل والإصلاح والرفق. وإنه لا يغنى واحد من هذه عن آخر — وإن للاستقرار وسائل أحب أن أضع تحت نظركم منها ما يأتى:

١ ــ إعادة الحياة النيابية

لاريب أن الحياة النيابية هى الأساس السليم لكل حكم فى العصر الحاضر. وإذا كانت تجارب الماضى قد أظهرتنا على بعض العيوب؛ فمن واجبنا أن نخلى حياتنا النيابية من العيوب، وأن نجعلها أقرب ماتكون إلى الكمال. والأمة لاتتعلم بإلغاء الحياة النيابية فى فترة الانتقال، وإنما تتعلم بممارسة الحياة النيابية بالفعل؛ فلنشرع فوراً فيما يؤدى بنا إليها فى أقرب وقت.

٢ ــ إلغاء الإجراءات الاستثنائية (الأحكام العرفية)

فإن الإجراءات الاستثنائية إذا أفادت الهدوء المؤقت، والاستقرار الظاهر؛ فإنها تخلق حالة من الغليان، وتذكى النار تحت الرماد. ولن يؤمن على مستقبل الوطن إذا اشتعلت النيران.

٣ ــ إطلاق الحريات

وأود أن تطلقوا الحريات جميعاً، وعلى الأخص حرية الصحافة؛ فإن فى ذلك خير مصر وأمنها وسلامتها. ولقد رأيتكم تأخذون على الناس أنهم لم يقولوا لفاروق «لا» حيث يجب أن تقال؛ وأنتم الآن بفرض الرقابة على الصحف تمنعون الناس أن يقولوا لكم «لا» حيث يجب أن تقال — وما هكذا تربى الأمة

على نصرة الحق وخذلان الباطل.

ونحن لانسلم بأن تتجاوز الصحافة حدودها، ولا أن يطلق لها العنان لتلبس الحق بالباطل؛ وإنما نحب أن تترك لتقول الحق فى حدود القانون، فإذا تجاوزته حق عليها العقاب ــ وقد تجدون فى معارضة الصحف لكم خيراً كثيراً:

وغنى عن القول أن إطلاق حريات المعتقلين وبعض المحكوم عليهم من المحاكم الاستثنائية أمر توحى به ضرورة جمع الشمل وتوحيد الكلمة، ويوجبه الحق والعدل.

أما الإصلاح فمجاله واسع. وقد رأينا أن إصلاح النفوس أولى من كل إصلاح لأنه أساس كل إصلاح. والله نسأل أن يرزقنا الصدق فى القول والعمل، وأن يعصمنا من الزلل وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل، إنه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

* * *

الفصل الثانى

تحـــرش
مقدمة لخطوة سياسية مريبة

لايستطيع أحد أن ينكر أن جمال عبد الناصر ــ بعد خديعته التى حاكها ــ صار فى المركز الأقوى داخلياً؛ بحيث صارت شئون البلاد الداخلية فى قبضة يده، ومقدراتها طوع يمينه.. وصار يأمر فيطاع، ويشير فيتسابق الناس إلى حيث يشير.. ويعلن عن حفل فى مناسبة من المناسبات يخطب فيه، فيجد فيه الألوف، وتقاطع خطبته بالتصفيق والهتاف.. إنه أصبح يسيطر على قوات الشرطة عن طريق وزير داخليته، ويسيطر على الجيش عن طريق زميله وصديقه المقرب عبد الحكيم عامر.. وأصبح يسيطر على موظفى الدولة وعمالها فأرزاقهم فى يده.. ماذا بقى من أسباب القوة لم تعد فى قبضته؟! أليس هذا هو الأمل الذى كان يراوده من أول يوم من أيام الثورة وأفضى به إلى أصدقائه من الإخوان شادى ومجموعته؟ إنه أضحى إذا ضغط على زر قامت البلاد، وإذا ضغط على زر آخر قعدت البلاد..

إنه رأى ذلك كله بنفسه يتحقق.. ولكنه فى قرارة نفسه لم يجد له طعماً، مثل أفخر طعام وأشهى غذاء يقدم إليك ولكن دون ملح، يحسدك عليه الناس ولا يعلمون أنك لاتجد له طعما.. إنه كان يحدث نفسه كلما رأى نفسه محاطاً بهالات من التوقير والاحترام من كل من يلوذبه.. كان يحدث نفسه ويقول: هل هذه هى القوة حقاً؟.. هل إذا أنا فقدت هذا المنصب أجد كل هؤلاء الذين يتزلفون إلىّ ويحيطون بى..؟

أما المنصب فالجيش والشرطة يحميانه فأنا ثابت فى منصبى، ولكن المشكلة ليست هى إخضاع الشعب فقد أخضعته، ولكن المشكلة هى مابين هذه البلاد وبين الإنجليز؛ وهى القضية الأساسية التى كم من حكومات تهاوت لعجزها عن حلها، وقمنا بالثورة وآزرنا الشعب آملاً أن يكون حلها على أيدينا.. وقد ضحى الشعب من أجل هذه القضية بالكثير وينتظر منا مواصلة النضال.. إننى أستطيع أن أوهم الشعب بأنى قوى، ولكن هذا

العدو الجاثم فوق صدرنا ليس بالأبله الذى يمكن التمويه عليه، فهو يعرف تماماً مدى شعبيتى.. نعم أنا أنشأت هيئة التحرير، وأصبح لها فرع ومقر فى كل مركز من مراكز القطر، وأصبحت تضم مئات الآلاف من الأعضاء ولكن الإنجليز رأونى بأعينهم حين ضيق مثقفو الشعب على الخناق لإلزامى بدستور وحكم نيابى، وأخذت أبحث لى عن معين يعيننى أو أسند إليه ظهرى أمام هؤلاء، فلم أجد من مئات الآلاف الأعضاء فى هيئة التحرير عشرة أشخاص يقفون بجانبى، واضطررت للخضوع حتى استأجرت عمال النقل المشترك.. لقد رأى الإنجليز كل هذا بأعينهم وعرفوا أن هيئة التحرير إن هى إلا وهم كبير، وأننى لاأستند إلى سند شعبى ــ وكان خزياً لى أنه فى الوقت الذى عجزت أنا ورجالى من الضباط أن نجمع عشرة أشخاص من هيئة التحرير يقفون بجانبنا؛ استطاع الإخوان المسلمون ــ وقادتهم فى السجون ــ أن يجمعوا أكبر مظاهرة حدثت فى مصر فى يوم واحد..

ولكن هل كنت أجهل كل هذه الحقائق ولم أعرفها إلا اليوم؟ لا.. لقد كنت أعرفها ولكننى وضعت خطتى على أساس أن القاعدة الشعبية جاهزة، وأنا أحد أعضائها من قديم، وكل مهمتى أن أحاول بكل الوسائل أن أتولى زمامها.. ولقد كان الإنجليز يعرفون أين القوة الشعبية منذ قامت الثورة فلما بدأت أنا وزملائى فى المفاوضة مع الانجليز، اتجه الانجليز مباشرة إلى المرشد العام ليعرفوا أدنى طلبات القوة الشعبية.

والآن أرانى أقف موقفاً لاأحسد عليه؛ فالهيئة الشعبية وقد استنفدتُ ماكان لدى من وسائل ولكنها فشلت جميعاً، ومع ذلك فما زال الباب مفتوحاً أمامى للتصالح معها لتكون لى سنداً يرهب الإنجليز حين أتفاوض معهم.. ولكنهم يشترطون للتصالح شروطاً لاأقبلها؛ من حكم دستورى نيابى قائم على الشريعة الإسلامية. ومعنى ذلك أننى أكون قد حطمت كل آمالى بنفسى.فأنا أريد حكماً لايشاركنى فيه أحد.. إذن الصلح مستحيل..

وإذا كان الصلح مستحيلاً فمعنى ذلك أننى سأواجه مفاوضاً يعرف المدى الحقيقى لشعبيتى، وإذن لابد من التساهل معه والتنازل عن بعض حقوق البلاد.. وفى هذه الحالة ــ وفى يدى كل وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وأحكام عرفية ــ أستطيع أن أوهم الشعب بأننى حصلت له على اتفاقية حققت كل أمانيه فى التحرر والاستقلال..

أما الإخوان فقد حرمتهم من جريدتهم وأصدرت أمراً إلى جميع الصحف بعدم نشر أى شىء عنهم أو منهم وبذلك لن يصل إلى مسامع الشعب إلا مايصدر عنى.. وسأضيق عليهم الخناق بمختلف الوسائل حتى يشغلوا بأنفسهم.. وعلى العموم فحسابى معهم لابد من تصفيته مالم يذعنوا ويلقوا إلىّ السلم.

معنى تبادل المواقف:

جعلت عنوان الفصل السابق «عبد الناصر والإخوان يتبادلان المواقف» وأحب أن أوضح هذا العنوان فأقول إن معنى ذلك أن الإخوان كانوا قبل خديعة ٢٩ مارس فى موقف القوة، وكان عبد الناصر فى موقف الضعف ثم انقلب الوضع بعد الخديعة فصار عبد الناصر فى موقف القوة وصار الإخوان فى موقف الضعف..

وهذا لايعنى أن الإخوان كانوا أقوياء فضعفوا وأن عبد الناصر كان ضعيفاً فصار قوياً، ولتقريب هذا المعنى أضرب مثلاً بطفل رأى رجلاً يطل من سطح منزل فاستفزه الطفل بشتائم دفعته إلى النزول إليه فى الشارع ليقتص منه، فانتهز الطفل فرصة الوقت الذى يستغرقه الرجل فى النزول وصعد هو إلى سطح المنزل من سلم خلفى، فلما صار الرجل فى الشارع والطفل على السطح أخذ الطفل يقذفه بالحجارة ولا يستطيع الرجل أن يقذفه من الأرض إلى أعلى.. فالطفل صار فى موقف القوة فى الوقت الذى قوته لازالت قوة طفل — والرجل صار فى موقف الضعف فى الوقت الذى قوته لازالت قوة رجل.

أما ضعف عبد الناصر وإن كان قد صار فى موقف قوة فقد شرحناه فى السطور السابقة، وأما الإخوان فلم يفقدوا شيئاً من مقومات قوتهم وإن كانوا قد صاروا فى موقف الضعف.

حرب النشرات:

هذا تعبير جمال عبد الناصر شخصياً. ولكن الموضوع يتلخص فى أن عبد الناصر وقد صار صاحب جميع السلطات أغلق للإخوان مجلتهم وفى الوقت نفسه سلبهم حق إصدار مجلة أخرى تعبر عن آرائهم ومنع الصحف من نشر أى شىء عنهم أو منهم.

صحيح أن الإخوان لم يعجزوا مع ذلك عن نقل آراء قيادتهم وشرحها إلى سائر الإخوان فى شعبهم عن طريقين:

طريق الانتقال؛ فقد كانت توزع محافظات القطر على مجموعة من القيادات الإخوانية بالمركز العام وتسافر هذه القيادات إلى عواصم المحافظات حيث يجدون فى انتظارهم ممثلين لجميع الشعب الرئيسية التابعة للمحافظة، فينقلون إليهم آراء القيادة ويشرحونها لهم ويتناقشون فيها معهم.. وبطريقة التسلسل تصل هذه التعليمات والآراء والتوجيهات إلى كل فرد من الإخوان فى المحافظة.. وعيب هذه الطريقة البطء فهى تستغرق وقتاً طويلاً ومجهوداً جسمياً وتضحيات مادية.

ولهذا استعانوا بطريق آخر وهو الطريق الذى سماه عبد الناصر حرب النشرات.. ولا

يخفى على القارىء أن ظروف طبع هذه النشرات تجعل نشرها محدوداً مهما بذل فى سبيل ذلك من جهد.. ولهذا كان الذين يقومون على إعداد هذه النشرات آراء وطبعاً وتوزيعاً هم أفراد النظام الخاص الذى كان شبه معطل فتقدم إلى حمل هذا العبء؛ فما كان لهيئة ذات كيان ضخم كالإخوان المسلمين أن يحجر عليها دون مبرر من قانون فتوصد فى وجهها أبواب الصحافة وتمنع من إصدار صحيفة، ثم يحال بينها وبين إبراز رأيها فى وريقة تبعث بها إلى أعضائها حتى يتبينوا الأمور ويتضح لهم الطريق.

مدى إزعاج النشرات لعبد الناصر:

وهذه النشرات لم تزد على أن تكون وريقة مطوياً بعضها على بعض حتى صارت أربع وريقات كل منها فى مساحة الكف، مطبوعة طبعاً رديئاً.. ومع ذلك كانت هذه النشرات فى نظر جمال عبد الناصر إحدى الكبائر، وكانت مثيرة له حتى إنها طيرت النوم من عينيه.. وفى الوقت الذى كنا نحن الإخوان لانكاد نقيم لها وزناً كان عبد الناصر يرى الواحدة منها كأنها صاعقة نزلت عليه من السماء، أو زلزال يكاد يقوض أركان سلطانه.

وقيام النظام الخاص بإصدار هذه النشرات وتفننه فى إخفاء المكان الذى تعد فيه؛ جعل يد عبد الناصر أقصر من أن تصل إليها، وكاد عقله يذهب هلعاً منها.. حتى إنه ــ وقد عجز عن منعها ــ حاول أن يخفف من حملتها عليه ــ وقد جاءنى مرة الأخ محمد جوده عضو الهيئة التأسيسية ومن أصدقاء جمال عبد الناصر من قبل الثورة، ويرتبط بى برباط المواطنة؛ فهو من أبناء رشيد وكان زميلاً لى فى المدرسة الابتدائية بها.. جاءنى مرة وأبلغنى شكوى جمال عبد الناصر من أن النشرة الأخيرة نسبت إليه أنه عقد معاهدة سرية بينه وبين الإسرائيليين.. وقد رأى الأخ محمد جوده أن يبلغنى هذه الشكوى لما يعلم من صلتى بأعضاء هذا النظام وبقيادته.

وقد تقابلت فعلاً مع الأخ يوسف طلعت رحمه الله ومع بعض الإخوة من قادة الجهاز وكلمتهم فى هذا الشأن. وقد احتدمت المناقشة بينى وبينهم لأننى.. وإن كنت أرى جمال عبد الناصر أسوأ مما يرون ــ فإننى لاأرضى لنفسى ولا لدينى أن أرميه بواقعة معينة ليس معى دليل عليها سوى مايشيعه زملاء له كانوا محاصرين معه فى الفالوجا.. وإذا كان هو قد رضى لنفسه أن يختلق علينا الأكاذيب فإن ذلك لايحملنا على نسيان أننا أصحاب دعوة ودين.. ومثل هذا الاتهام لايأتى استنتاجاً مهما تجمعت قرائن الاتهام.

وقد سقت هذا الحديث عن النشرات ليعلم القارىء مدى فزع جمال عبد الناصر من «الكلمة» المكتوبة مهما ضاق نطاق نشرها.. ولعل هذا هو الذى أوحى إليه بعد ذلك بوضع الأغلال فى أيدى الكتاب والصحفيين، ووضع الكمامات على أفواه رجال الفكر

مما أطلق عليه فيما بعد «حرية الصحافة».. ولنا عودة إن شاء الله إلى موضوع النشرات عودة يستبين منها القارىء أكثر مما استبان الآن مدى هلع عبد الناصر منها.

* * *

الفصل الثالث

التحــرش لم يمنع الإخوان من انتقاد الاتفاقية

قلنا فى الفصل السابق إن عبد الناصر ــ فى تهيئه لإنجاز اتفاقية للجلاء يحرز بها نصراً يكون له رصيداً سياسياً يقربه إلى نفوس الشعب ــ وضع خطة يضمن بها تقليم أظافر الإخوان فحال بينهم وبين جميع وسائل التعبير عن الرأى،وأخذ يتحرش بهم فيعتقل بين يوم وآخر عدداً من شبابهم من النظام الخاص ذوى النشاط فى القاهرة، ويسلط عليهم جهازه الإجرامى ــ البوليس الحربى ــ الذى يرأسه أحمد أنور، وصار كل يوم يزيد من عدد المعتقلين من هذا النوع من الشباب ويزيد من ألوان التعذيب.. كل هذا أملاً فى أن يشغل الإخوان بأنفسهم فلا يجدون جهداً ولا وقتاً للنظر فيما سوى ذلك من الأمور السياسية..

وكان فى هذه الأثناء جاداً فى أسباب الوصول مع الإنجليز إلى اتفاقية. وكلما قطعت المفاوضات مرحلة من المراحل زاد من ضغطه على الإخوان وتحرشه بهم، وكان فى حسبانه أنه حتى تصل هذه المفاوضات إلى نهايتها وتنجز الاتفاقية يكون الضغط والتحرش قد قطع أنفاسهم فلا يقوون على نقد هذه المعاهدة إلا همساً وأين لهم من وسائل إعلام تنشر همسهم.

وقد يكون من الطرائف أن نذكر أن عبد الناصر وقد عجز بدون الإخوان عن أن يشعر الإنجليز فى أثناء المفاوضات معهم بمقاومة شعبية لجأ إلى استئجار عصابات الإجرام للسطو على المعسكرات البريطانية؛ فلما أبرمت المعاهدة اعتقلهم فى السجن الحربى مدة ثم أفرج عنهم.

وشاءت الظروف أن يقوم المرشد العام فى أثناء إجراء المفاوضات برحلة فى البلاد العربية استجابة لدعوات وصلته من الإخوان فيها، فغادر مصر فى النصف الأخير من شهر يونية ١٩٥٤ وزار فلسطين وتناول طعام الغداء على مائدة الأنبا ياكوريوس مطران النصارى.

وفى أثناء تجواله فى لبنان وسورية وفى ٢٧ يوليه سنة ١٩٥٤ أعلنت حكومتا مصر وبريطانيا موافقتهما على رءوس موضوعات اتفاق لمعاهدة جديدة تسوى النزاع الانجليزى المصرى.

المرشد العام ينقد الاتفاقية:

وفى ٣١ يولية نشرت صحيفة بيروتية بأحرف ضخمة وعناوين بارزة رأى المرشد العام فى الاتفاقية.. والنقاط الرئيسية فى هذا النقد هى مايلى:

١ ــ كان المفروض أن ينتهى أجل معاهدة ١٩٣٦ بعد أقل من عامين. وإذ ذاك كان على بريطانيا أن تجلو عن القاعدة، وأن تتركها دون أساس قانونى يمكنها من العودة إليها فيما بعد ــ أما المعاهدة الجديدة فتمنحها هذا الحق باشتمالها على مادة تسمح بإعادة تشغيل القاعدة فى حالة حدوث أى اعتداء على أى دولة عربية أو على تركيا.

٢ ــ المادة التى تسمح بإعادة تنشيط القاعدة فى حالة الاعتداء على تركيا تربط مصر والدول العربية بتركيا وبالتالى تربطهم جميعاً بالمعسكر الغربى.

٣ ــ الفقرة التى تسمح لبريطانيا بصيانة القواعد الجوية تمثل تهديداً لمصر. وهى على المدى الطويل أداة لدوام السيطرة.

٤ ــ المدنيون الذين سيناط بهم المساعدة فى تشغيل المعدات هم بطبيعة الحال شخصيات عسكرية فى ثياب مدنية.

٥ ــ جددت الاتفاقية أجل معاهدة ١٩٣٦ لفترة خمس سنوات أخرى، وسمحت بإجراء تشاور لمراجعة الموقف عند انتهاء فترة العمل بها، وهو نفس النوع من البنود التى تكفل فى الواقع الاستمرار الدائم لمعاهدة ١٩٣٦.

وقد طلب المرشد العام أن أى اتفاقية بين مصر وحكومة أجنبية ينبغى أن تعرض على برلمان منتخب بإرادة حرة يمثل إرادة الشعب المصرى، وعلى صحافة متحررة من الرقابة وتملك حرية المناقشة.

هذا مانشرته الصحيفة البيروتية ــ ولا أعتقد أن نقد اتفاقية يراد إبرامها بين دولة وأخرى، هذا النقد الموضوعى مما يثير شجناً أو يبعث ضغنا أو يعتبر انتهاكاً لكرامة حكومة.. فالمفروض أن الحكومات ليست معصومة من الخطأ، وأن النقد الموضوعى من حق أى مواطن إن لم يكن من واجباته، ولكن الذى حدث هو أن عبد الناصر اعتبر هذا النقد كبيرة الكبائر، وهجوماً عليه بسلاح بتار فى مقتل. وقد يكون لعبد الناصر بعض

العذر من وجهة نظره فهو حاكم لارصيد له من قاعدة شعبية ولا من إنجاز سياسى، وهذا هو العمل السياسى الوحيد الذى يريد أن يكون له رصيداً، فمهاجمته فيه يعتبرها بمثابة القضاء عليه سياسياً.

هذا من وجهة نظره ولكن هذه الوجهة مرفوضة شكلاً وموضوعاً لأن الاتفاقيات تمس كل فرد من أفراد الشعب فلكل فرد أن ينقدها وأن يعلن عن وجهة نظره فيها— ولا أنسى أيام تم الاتفاق على أسس معاهدة ١٩٣٦ ولم يكن الذى قام بالمفاوضة فى شأنها فرد ولا حزب بل مجموعة من الزعماء.. ومع ذلك فقد امتلأت الصحف بمقالات ضافية فى نقدها واستمر هذا النقد فترة طويلة، ومع ذلك لم يغضب الحكام ولا المفاوضون بل انتفعوا بكثير مما جاء فى هذا النقد وكان ذلك سبباً فى تعديل بعض بنودها حتى صارت أقل إضراراً بالبلاد.

فماذا كان يضير عبد الناصر أن يتقبل هذا النقد كما تقبله سابقوه وأن يطلق للصحافة الحرية فى نقدها هى الأخرى ويستخرج من هذا النقد مايواجه به الإنجليز لتعديل الاتفاقية كما فعل سابقوه؟.. ولكن يبدو أنه كان متفهما موقفه فهو ليس كسابقيه فهو لايمثل حزباً ولا كتلة شعبية ويعرف أن الإنجليز يعرفون ذلك.. فلا بد أن يرضى بالقليل ولا بد أن يوهم الشعب بأن هذا القليل هو الكثير الذى يريده المواطنون.

وسيلة أخرى فى التحرش:

لم يقلع عبد الناصر عن وسائله التى كان يضايق بها الإخوان بل ضاعفها ثم استحدث وسيلة أخرى هى تشويه سمعة الإخوان المسلمين بنشر أكاذيب عنهم، وقلب حقائق تاريخية، واختلاق أخبار لاأصل لها ينسبها إليهم، ولم يكن يعجز عن ذلك؛ فالصحف كلها والإذاعة خاضعة له ومؤتمرة بأمره. وسأضرب لذلك الأسلوب الحقير، مثلاً مانشرته هذه الصحف عن اللقاء الذى تم بين الملك فاروق والمرشد العام، فلقد أبرزته صحف جمال عبد الناصر بأنه كان استجداءً للملك وتذللا له وتآمرا معه على الأمة.. ويكفى للرد على هذا التزييف خطة الإخوان بعد هذا اللقاء، وحملة الملك فاروق فى الصحف الأجنبية— بعد قيام الثورة وخروجه من مصر— على الإخوان وتحميلهم مسئولية قيام هذه الثورة.. وقد تعرضت لهذا اللقاء بشىء من التوضيح فى الجزء الثانى من هذه المذكرات فليرجع إليه من شاء من القراء.

ولم يكتف عبد الناصر بهذه الوسائل بل لجأ إلى وسائل أخرى سوف أتناولها إن شاء الله بالحديث، ولكن هذه الوسيلة بالذات كانت أخطر الوسائل جميعاً فهى أخطر من الاعتقال والسجن بل والتعذيب أيضاً لأن هذا كله حين يصيب يصيب أفراداً بعينهم—

أما تسخير وسائل الإعلام لنشر أنباء مكذوبة وحقائق مقلوبة فإنه يصيب الدعوة أو الهيئة كلها فى مقتل لاسيما وليس لدى المكذوب عليه وسيلة لبيان الحقيقة— ثم إن هذا الأسلوب هو من أخطر الأساليب للإثارة والاستفزاز ، ولذا فإن ردود فعل لهذا الأسلوب كان يستغلها عبد الناصر للتنكيل بالإخوان.

هل كان الإخوان متجنين فى انتقادهم الاتفاقية؟

هذا سؤال أعتقد أنه قد يساور بعض قراء من الأجيال الحديثة الذين لم يعاصروا عقد هذه الاتفاقية ولكنهم يقرأون التاريخ الحديث لمصر فلا يجدون فيه آثاراً ولا مضاعفات نشأت من عيوب هذه الاتفاقية.. ولهؤلاء نقول:

إن هذه الاتفاقية قد عقدت ولم يكن فى خاطر إنسان— لا من الذين عقدوها ولا من الذين نقدوها ولا من الذين عاصروها داخل مصر وخارجها— أن أحداثاً فى طى الغيب ستحدث بعد ذلك بسنتين ستغطى على عيوب هذه الاتفاقية وتجعل الاتفاقية نفسها كأن لم تكن..

وأية اتفاقية توضع موضع النقد؛ يصدر الناقدون نقدهم لها غير مفترضين ظروفاً شاذة قد تحدث فى المستقبل— وهكذا كان نقد الإخوان للاتفاقية.

على أن الإخوان لم يكونوا هم وحدهم الذين نقدوا هذه الاتفاقية، وإنما نقدها غيرهم؛ غير أن الآخرين كان نقدهم همساً ولكن نقد الإخوان كان جهراً آملين أن يكون فى هذا الجهر مايشعر الشعب بخطورة أخطاء هذه الاتفاقية حتى يهبوا للمطالبة بتعديلها. ولكن سياسة عبد الناصر القمعية ألجمت الألسنة .

نقد آخرين للاتفاقية

وقد قرأنا فى كتاب محمد نجيب «كلمتى للتاريخ» أن محمد نجيب نقد الاتفاقية فيقول فى صفحة ١٥٨ :

«ثم استؤنفت المباحثات للمرة الثالثة فى يوليو ١٩٥٤ ولم أعد رئيساً لوفد مصر.. كانت أحداث فبراير ومارس قد أدت إلى هذه النتيجة.. وتولى جمال الذى كان قد أصبح رئيساً للوزراء رياسة الوفد المصرى فى المباحثات التى وقعت اتفاقيتها الأولى بسرعة مذهلة بعد أيام فقط من بدايتها أى فى يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٤ ثم عقد الاتفاق النهائى التفصيلى فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤.

ولم أكن قد قابلت جمال بعد أحداث مارس إلا مرة واحدة.. وفى هذه المرة الوحيدة طلبت منه أن لايبرم اتفاقاً مع الإنجليز قبل أن يستمع إلى ملاحظاتى.. ولذا كانت مفاجأتى شديدة عندما وقع الاتفاق الأول دون أن يتيح لى فرصة إبداء الرأى.

وأعددت ملاحظاتى على الاتفاق فى كتاب بعثت به إليه مع رسول خاص وكانت ملاحظاتى فى إيجاز هى:

أولاً وجود الفنيين الإنجليز غير خاضعين لسلطة الحكومة المصرية يضعف من سيادتنا، ويحد من سيطرتنا على أرضنا.

ثانياً: قبول عودة القوات البريطانية فى حالة الهجوم على تركيا أمر يورطنا فى مشاريع الدفاع الغربية؛ حيث كانت تركيا مرتبطة بحلف الأطلنطى، وقد سبق ورفضت ذلك أثناء مفاوضاتى مع الإنجليز.

ثالثاً: طالبت بضرورة عرض الاتفاقية على الشعب فى استفتاء عام على أن تلغى الأحكام العرفية.

وكنت قد عقدت العزم على رفض التصديق على الاتفاقية باعتبارى رئيساً للجمهورية، ولكن الدستور المؤقت لم يرد فيه نص بالتصديق. وطلبت سليمان حافظ ــ الذى كان قد استقال من منصبه كمستشار لرئيس الجمورية بعد أزمة مارس والاعتداء على مجلس الدولة؛ إذ آثر الابتعاد عن الحياة السياسية ــ لأستشيره فيما يمكننى أن أفعله لوقف فرض هذه الاتفاقية على شعب مصر.

وعلمت منه أن الوزراء الذين أعلنت موافقتهم على الاتفاقية بالإجماع لم تتح لهم فرصة إبداء الرأى.. وأن جمال كان يقرأ بنود الاتفاقية عندما لمح ظواهر المعارضة على فتحى رضوان، فقال جمال: لعل الأخ فتحى معارض.. فرد عليه بأنه كذلك ولكنه ينتظر الفراغ من التلاوة، التى استمر فيها جمال حتى انقطعت بدخول إسماعيل الأزهرى وبعض زملائه من وزراء السودان إلى قاعة الاجتماع وما دار بين الفريقين من مظاهر الابتهاج وتبادل التهانى بالاتفاق، ثم انصراف جمال معهم إلى مكتبه الخاص، وعودته مرة أخرى لينهى الجلسة قبل إتمام تلاوة الاتفاق.

وصدرت الصحف فى اليوم التالى بأن مجلس الوزراء قد وافق على الاتفاق بإجماع الآراء ــ وكانت نصيحة سليمان حافظ لى هى أن أرفض التصديق، فإن صدرت الاتفاقية فليس أمامى إلا أن أستقيل».

كما قرأنا أن خالد محيى الدين يقول فى هذا الصدد إن صحفياً فرنسيا اسمه «روجيه استفانو» من مجلة «نوفيل أو بزرفاتير» قد أخبره أنه قد عرف بحكم صلته الوثيقة

بالسفارات الأمريكية والفرنسية والإنجليزية أن جمال عبد الناصر وبعض رفاقه قد أعطوا للأمريكان إشارة بالتساهل فى توقيع اتفاقية الجلاء وإدخال تركيا فى حالة العودة إلى القاعدة، وذلك ثمناً لتأييدهم فى المعركة ضد نجيب.

وقد تبينت صحة ذلك فيما بعد، إذ لم تستغرق محادثات الجلاء بين جمال والإنجليز إلا أياماً معدودة من شهر يوليو ١٩٥٤ وقع بعدها الطرفان بالأحرف الأولى اتفاقية الجلاء. وهى التى تعثرت عشرات السنين فى مفاوضات مرهقة.. ووافق جمال على عودة الإنجليز للقاعدة فى حالة الهجوم على تركيا.

مذكرة الإخوان المسلمين فى نقد الاتفاقية

وسط هذا الجحيم الذى كان يعانيه الإخوان المسلمون من كتم للأنفاس، ومن حملات الاستفزاز بما تزخر به أنهار الصحف من أكاذيب وافتراءات، ومن هجمات مسعورة لاعتقال أنضر شباب الدعوة من النظام الخاص ــ وسط ذلك كله رأوا من حق هذا الوطن عليهم أن يعلنوا برأيهم فى هذه الاتفاقية فكونوا لجنة من الإخوان المتخصصين؛ عكفوا على دراسة الخطوط الرئيسية لهذه الاتفاقية وخرجوا من هذه الدراسة بمذكرة شاملة تقدموا بها إلى رياسة مجلس الوزراء حيث أودعت الرياسة فى الثانى من شهر أغسطس ١٩٥٤.. ويلاحظ أنه قد تم هذا فى غيبة المرشد العام الذى لم يعد من رحلته إلا يوم ٢٢ من أغسطس.. وننقل فيما يلى نص هذه المذكرة:

السيد رئيس مجلس الوزراء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته   وبعد

فقياماً بواجب الشورى فى الأمر، والتواصى بالحق والصبر، والتعاون على البر والتقوى ــ قد اطلع مكتب الإرشاد العام على الخطوط الرئيسية للاتفاق المقترح عقده بين مصر وانجلترا، والذى وقعه رئيس وزراء مصر ووزير حربية انجلترا فى يوم ٢٧/٧/١٩٥٤. كما اطلع المكتب على الملحق رقم (١) الذى نشر مع الخطوط الرئيسية فى اليوم التالى للتوقيع. وقد تبين المكتب من دراسة الخطوط الرئيسية والملحق أموراً خطيرة يعرضها فيما يلى عليكم، ويتقدم بالرأى والنصيحة فيها إليكم ــ وهو إذ يفعل ذلك يقدر كل التقدير مابذله المفاوضون المصريون من مجهود كبير ومن محاولات ضخمة للوصول إلى حقوق الأمة.

أولاً ــ الخطوط الرئيسية:

(١)ـــ تحدد المادة الثانية مدة الاتفاق بسبع سنوات من تاريخ توقيعه، كما أنها تلزم الحكومتين المصرية والبريطانية بالتشاور خلال السنة السابعة فيما يتخذ من تدابير عند انتهاء المدة ــ ولما كان الجلاء سيتم كما اتفق فى ظرف عشرين شهراً فلا محل لجعل مدة الاتفاقية سبع سنوات إلا إذا كانت الاتفاقية تستهدف شيئاً آخر غير تنظيم الجلاء وهو ربط مصر بانجلترا طيلة السبع سنوات بنوع من التحالف أو الارتباط قد يمتد إلى مابعد السبع سنوات، كما يدل على ذلك التزام مصر بالتشاور مع انجلترا فيما يتخذ من تدابير عند انتهاء السبع سنوات.

(٢)ـــ وتعصى المادة الرابعة الحق لانجلترا فى العودة إلى قاعدة القنال إذا هوجمت مصر أو أى دولة من دولة الجامعة العربية والتى وقعت معاهدة الدفاع المشترك أو إذا هوجمت تركيا. وتوجب المادة على مصر أن تقدم لانجلترا كل التسهيلات اللازمة لتهيئة القاعدة للحرب وإدارتها إدارة فعالة ويدخل فى ذلك استخدام الموانىء المصرية.

وسنبين فيما يلى وجوه الخطر فى هذه المادة:ـــ

أ ـــ أعطت لانجلترا الحق المطلق فى العودة إلى القنال واحتلال القاعدة بجنودها لمجرد حدوث هجوم على مصر أو دولة عربية أو تركيا. ولانجلترا الحق فى العودة إلى القنال دون استشارة مصر ودون الحصول على موافقتها بل ودون رضاها؛ ولو كانت الدولة المعتدى عليها قادرة على رد الاعتداء وحدها.. والدول المستقلة لاتقبل أن يفرض عليها العون فرضاً، ولا تعرض أرضها للاحتلال بهذه السهولة، ولا تجعل دخول الأجانب بلادها راجعاً لمشيئة الأجنبى.

ب ـــ وإذا كان الاعتداء على تركياً أمراً يقلق راحة المسلم، وكان الدفاع عن كل بلد إسلامى واجباً إسلامياً؛ فإننا لانفهم كيف أن الاعتداء على تركيا يعطى انجلترا الحق المطلق فى احتلال القنال ويلزم مصر التزامات مادية وأدبية قبل انجلترا لاقبل تركيا المعتدى عليها ـــ إلا إذا كان المقصود تدعيم السياسة الإنجليزية وحماية الإمبراطورية.

جـ ـــ ولقد انتقدت مصر حلف باكستان ـــ وتركيا، ورفضت من قبل أن تدخل حلفاً بلقانياً أو فى حلف الإطلنطى؛ ولكنها طبقاً للمادة الرابعة دخلت فى كل هذه الأحلاف بطريق غير مباشر لأن تركيا حليفة باكستان وحليفة لبعض دول البلقان، كما أنها مرتبطة بحلف الإطلنطى؛ فإذا هوجمت أى دولة محالفة لتركيا ودخلت تركيا الحرب فقد حق

لانجلترا أن تحتل القنال بحجة مهاجمة تركيا، ووجب على انجلترا أن تدخل الحرب فى صف تركيا طبقاً لما بينهما من معاهدات. وإذا دخلت انجلترا الحرب وهى محتلة للقنال فقد اشتركت مصر اشتراكا فعلياً فى الحرب بسماحها باستخدام أراضيها ومطاراتها وموانيها، وبما تقدمه من معونة وتسهيلات لانجلترا. ولا شك أن هذه النتيجة التى وصلت إليها انجلترا عن طريق التحالف الواقعى الذى فرضته المادة الرابعة هى نفس النتيجة التى طالما حرصت انجلترا على الوصول إليها فى المفاوضات السابقة عن طريق التحالف الاتفاقى والدفاع المشترك.

ولعل هذا التحالف الواقعى الذى أقامته المادة الرابعة ولم تصرح به ألفاظها هو الذى دعا رئيس وزراء مصر ووزير حربية انجلترا إلى أن يعلنا فى البلاغ المشترك أنه ليس له غرض عدوانى، وأنهما يعتقدان أنه سيفضى إلى المحافظة على السلم والأمن.

د ــ أعطت المادة الرابعة لانجلترا الحق فى استعمال جميع الموانى المصرية. ويترتب على ذلك أن يكون لها الحق فى نقل جنودها وعتادها على الطرق البرية والمائية والسكك الحديدية المصرية التى تصل مختلف الموانى بالقاعدة، وأن يكون لها مندوبون فى كل ميناء. وما كانت انجلترا تستطيع أن تصل لشىء من هذا قبل أن تقرره لها المادة الرابعة.

(٣) ــ والفقرة الثانية من المادة الرابعة تلزم مصر أن تتشاور مع انجلترا فى حالة قيام تهديد بهجوم على أى بلد من البلاد التى سلف ذكرها فى الفقرة الأولى ــ ولم تبين هذه الفقرة حالة التهديد بالهجوم ــ تلك الحالة التى لاتكاد تختلف فى مدلولها عن عبارة «خطر الحرب» التى طالما حاولت انجلترا إلزامنا بالاتفاق عليها ولم تقابل إلا بالرفض.

(٤) ــ وتنص المادة السابعة على جلاء القوات الإنجليزية جلاء تاماً عن الأراضى المصرية فى مدة لاتزيد عن عشرين شهراً من تاريخ توقيع الاتفاق.

والجلاء التام الناجز غير المشروط بشرط هو حق الشعب الذى أجمع على المطالبة به، وهو مااستهدفته الحركة وصرح به رجالاتها، ولكن الجلاء الذى جاءت به المادة السابعة جاء مع الأسف مسبوقاً بالتزامات ومعلقاً على شروط تجعله حلاً مشروطاً وغير تام ولا ناجز.

وسنرى أن الملحق رقم (١) استبدل بالجنود الإنجليز فنيين وموظفين من الإنجليز يديرون القاعدة، ويحافظون عليها. وهذا يجعل الجلاء صورياً، ويحل محل الإنجليز الذين يلبسون الملابس العسكرية إنجليزاً يرتدون الملابس المدنية

ومهمة الفريقين واحدة.. ولذلك رأينا أن المادة الرابعة تعطى انجلترا حق إعادة جيشها للقاعدة بمجرد مهاجمة دولة من الدول التى عينتها المادة، كما تفرض على مصر محالفة واقعية مع انجلترا وحلفائها.

وإذا كانت مدة الاتفاقية سبع سنوات من تاريخ توقيعها، فمعنى ذلك أن تظل القاعدة محتلة بالمدنيين من الإنجليز ومعرضة لدخول الجيش الإنجليزى فيها طيلة سبع سنوات ــ وإذا كان هذا هو الجلاء الذى جاءت به المادة السابعة فلن يستطيع منصف أن يقول عنه إنه جلاء ناجز أو جلاء غير مشروط.

(٥) ــ وتنص المادة الثامنة على اعتبار قناة السويس ممراً مائياً له أهميته الدولية. هو تقرير للواقع، ودليل على بطلان ماكانت تدعيه انجلترا من أهمية القنال لها وحدها ــ لكن النص على احترام اتفاقية سنة ١٨٨٨ التى تكفل حرية الملاحة كان يقتضى النص على حق مصر فى تعطيل هذه الملاحة فى حالة الدفاع عن النفس. والمادة الثامنة بهذا الوضع الناقص لن يستفيد منها سوى إسرائيل.

(٦) ــ وتلزم المادة التاسعة مصر بأن تقدم التسهيلات الخاصة بالطيران والنزول والصيانة لكل طائرة تابعة لسلاح الطيران الإنجليزى بمجرد الإخطار عنها ــ وهذا النص يحمل مصر بالتزامات خطيرة: ــ

أ ــ فهو يلزم مصر قبول أى طائرة أخطرت عنها دون أن يكون لمصر حق الاعتراض أو الرفض.

ب ــ يلزم مصر أن تنشىء مطارات لنزول الطائرات الإنجليزية، وأن تنشىء محطات لإصلاح وصيانة هذه الطائرات، كما يلزم مصر أن تضع مطاراتها الحالية ومحطات الإصلاح والصيانة تحت تصرف الطيران الإنجليزى.

جـ ــ ويلزم مصر أن تقدم التسهيلات السابقة فى أى مكان من القطر المصرى لافى منطقة القنال وحدها ــ ويكمل هذا الالتزام الجوى التزام بحرى هو حق انجلترا فى استخدام جميع الموانى المصرية المنصوص عليه فى المادة الرابعة ــ ويترتب على هذين الالتزامين التزام برى ينقل الأشخاص والمهمات فيما بين بعض المطارات والموانى وبعضها الآخر، وفيما بين المطارات والموانى وبين القاعدة.

ثانياً ــ الملحق رقم (١):

(١) ــ أعطت الفقرة الثالثة لشركة إنجليزية تجارية أو أكثر حق حفظ المنشآت

البريطانية وإدارتها وأباحت لهذه الشركات أن تستخدم فنيين وموظفين من البريطانيين على أن لايزيد عدد الفنيين عن حد معين سيتفق عليه. وهذا النص إذا كان قد قيد عدد الفنيين فإنه لايقيد عدد الموظفين، ويسمح للشركة أن توظف عدداً كبيراً من الإنجليز، وهم جميعاً مجندون؛ فيكون هناك جيش من هؤلاء في القنال تحت اسم الموظفين.. ويستطيع هذا الجيش الأجنبي في أي وقت أن يكون خطراً على مصر خصوصاً وتحت يده العتاد الكثير، ولديه العدد الكافي من الفنيين. ولا يغير هذا المعنى ماقد توهم به عبارة الشركة جواز أن تكون الشركة مصرية وبين جواز استخدام المصريين مع البريطانيين؛ فإن حق اختيار الشركة أو الشركات متروك لانجلترا ولا يعقل أن تختار شركات مصرية، وحق اختيار الفنيين والموظفين متروك للشركة. ولا يعقل أن تختار الشركة الإنجليزية فنيين أو موظفين مصريين إلا إذا كانت أعمالهم تافهة، ولم يكن لديهم من يقوم مقامهم من الإنجليز.

ولو صح أن انجلترا لايهمها أن يشرف على القاعدة مصريون لما كان هناك دافع لهذا اللف والدوران ولسلمت القاعدة للحكومة المصرية وتركت مسئوليتها.وعلى كل حال فإن وضع إدارة القاعدة في يد شركة يشرف عليها موظفون بريطانيون ملحقون بالسفارة البريطانية يدل على روح الحكومة البريطانية واتجاهها وحرصها على أن تكون أمور القاعدة في أيد إنجليزية.

(٢)ـ وتلزم الفقرة الرابعة الحكومة المصرية أن تقدم المعونة الكاملة للشركة التجارية. وتعبير المعونة الكاملة تعبير واسع ومن شأنه أن يرتب على مصر التزامات غير محددة تنفرد الحكومة البريطانية بتقديرها.

(٣)ـ والفقرتان الأولى والخامسة معاً يفيدان أن معظم المنشآت الإنجليزية في القنال ستسلم للشركات التجارية لإدارتها وحفظها وصيانتها. وأن منشآت من نوع خاص كالكبارى والمواصلات وأيضاً أنابيب البترول قد تسلم للحكومة المصرية ــ ولكن الحكومة المصرية مع تسلمها هذه المنشآت لن تديرها إلا بواسطة الشركات التجارية.

ولا ندرى ماالحكمة التى تدعو لتسليم الحكومة المصرية بعض المنشآت وإلزامها بأن تديرها.

(٤)ـ وتجعل الفقرة السادسة للحكومة الإنجليزية حق التفتيش على جميع المنشآت مايسلم منها للحكومة المصرية وما يسلم منها للشركات. ويتم التفتيش بواسطة موظفين من الإنجليز يلحقون بالسفارة البريطانية في القاهرة.

وبمقتضى هذه الفقرة : ــ

أ ــ أن يكون التفتيش على جميع المنشآت ماسلم منها للحكومة المصرية وما سلم للشركات .

ب ــ أن يقوم بالتفتيش عسكريون من الإنجليز ، ولا يمكن إلا أن يكونوا عسكرين لأنهم سيفتشون على منشآت وأعمال عسكرية .

جـ ــ أن يمنح هؤلاء المفتشون الحصانة الدبلوماسية بحكم إلحاقهم موظفين بالسفارة البريطانية .

د ــ أن يكون لهؤلاء العسكريين حق الإقامة فى القاهرة بعد أن جلا العسكريون عنها منذ عام ١٩٤٦ .

هـ ــ وأخيراً فإن قيام شركات إنجليزية بإدارة القاعدة ، واستخدامها فنيين وموظفين من الإنجليز ، وجعل التفتيش على أعمال هؤلاء العسكريين بواسطة موظفين ملحقين بالسفارة البريطانية .. كل ذلك معناه أن انجلترا هى التى تدير القاعدة وتحافظ عليها وتصونها ، وتتصرف فيها ، وأن الوضع السابق على هذه الاتفاقية لم يتغير فى حقيقته وإن تغير فى مظهره .

المعانى التى قامت عليها الاتفاقية :

يستفاد من دراسة الخطوط الرئيسية والملحق رقم (١) أن الاتفاقية تقوم على المعانى الآتية : ــ

الأول ــ ربط مصر بالكتلة الغربية ربطاً فعلياً وذلك بإدخال تركيا فى الاتفاق . وهذا الرباط يجعل مصر حليفة لدول الكتلة الغربية وإن لم تذكر كلمة « التحالف » ، ويعرض مصر لويلات حروب لامصلحة لها فيها ، ولا فائدة تعود منها عليها ، ويجعلها تنفق أموالاً هى أحق بأن تنفقها فى محاربة الاستعمار وتدعيم استقلالها .

الثانى ــ تقرير الجلاء المشروط بإدخال تركيا فى الاتفاق واعتبار هذا الدخول شرطاً للجلاء وثمناً له ــ وهذا هو الجلاء المشروط الذى يحرص الإنجليز منذ سنة ١٩٤٥ على أن يتمسكوا به فى كل مفاوضة ، وليس الجلاء التام الناجز غير المشروط الذى نادت به الأمة المصرية وتعاهدت عليه واستشهد أبناؤها فى سبيله .

الثالث ــ استبدال الاحتلال المدنى بالاحتلال العسكرى طول مدة الاتفاقية . الأمر الذى يجعل الجلاء غير تام وغير ناجز ؛ لأن المدنيين الإنجليز لافرق بينهم وبين العسكريين إلا الملابس .

الرابع ــ إعطاء انجلترا الحق في إعادة الاحتلال العسكري إذا هوجمت مصر أو أي بلد من بلاد الجامعة العربية أو تركيا، وهذا المعنى مع سابقه يجعلان الجلاء جزئياً لاكلياً ومؤقتاً لانهائياً، وصورياً لاحقيقياً ــ وقد يقال إن تقديم مصر التسهيلات لانجلترا لايجعل مصر حليفة لها، ويستدل القائلون بما حدث في الحرب الماضية. وهؤلاء يجب أن يعلموا أن مصر بتقديمها التسهيلات في أراضيها لدولة محاربة تعتبر مشتركة في الحرب فعلاً، وإن ماحدث من إيطاليا وألمانيا في الحرب الماضية لن يحدث من روسيا مثلاً؛ ذلك أن ألمانيا وإيطاليا كانتا على علم بشعور الشعب المصري نحو الإنجليز، وكانتا تطمعان في الاستفادة من هذا الشعور لزعزعة مركز الإنجليز؛ ومع ذلك فإن حرصهما على عدم استثارة الشعب المصري لم يمنع من غارات طائراتها على المدن المصرية مما أدى إلى تخريب المنشآت وهلاك الأنفس

علاج الموقف:

إن أول علاج للموقف في رأينا هو أن توقف المفاوضات الدائرة بين الحكومة المصرية والحكومة البريطانية، وأن يعتبر ماتم منها كأن لم يكن مادامت المفاوضات أساسها المساومة على الجلاء. حتى إذا مااعترف الإنجليز بجلاء غير مقيد بقيد ولا مشروط بشرط ولا مرتبط باتفاق على أمر آخر، جاز للحكومة المصرية أن تدخل معهم في محادثات لاتتعدى تنظيم الجلاء، فإذا تم الجلاء وانتهت عوامل الضغط وأسباب المساومة؛ فإن لمصر أن تفاوض انجلترا وأن تتفق معها على ماتراه في صالحها.

والخطوة الثانية في علاج الموقف هي تحقيق ماأعلنته الحكومة الحالية من إعداد الشعب وتربيته تربية عسكرية وبث روح الجهاد فيه، وتجميع صفوفه، وتنظيمها لجهاد كريم هو السبيل الطبيعي لاستخلاص الحقوق وإجلاء الغاصبين والمستعمرين ــ ويوم تفعل الحكومة هذا فسيكون الإخوان في الصف الأول، وسترى الحكومة كيف سيبيعون أنفسهم وأفراد هذا الشعب الكريم في سبيل الله وتحرير وطنهم. وإن ذلك الاتجاه لقمين أن يوصلنا إلى الجلاء التام الناجز في أقرب وقت وأقل كلفة، ولن نبذل من التضحيات والخسائر في سبيل ذلك بعض مايصيب البلاد من إتمام الاتفاق المقترح بيننا وبين الإنجليز.

ولا نحب أن نلزم الحكومة الأخذ برأينا في علاج الموقف.. ويكفينا أن تعلم الحكومة المصرية أن مشروع الاتفاق ضار بمصر للأسباب التي ذكرناها، وأن الأمة لاترضاه ولا تقبله، ولن تسمح بأن تقيد نفسها به، وأن على الحكومة أن تراجع موقفها من الاتفاق، وأن تتخذ منه الموقف اللائق بوعي الأمة وجهادها الطويل بأهداف الثورة وما أعلنته منذ قيامها بأنها لاتقبل إلا الجلاء الناجز الطليق من كل شرط وقيد.

هذا مايرى الإخوان المسلمون التقدم به إلى الحكومة آملين أن تستجيب لهم؛ فإن أبت إلا المضى فيما بدأته من مفاوضات فإن الأمانة الوطنية تحتم عليها أن تتبين رأى الأمة فى هذا الأمر الخطير، الذى لايجوز أن تستأثر به حكومة دون شعب. وإذا كان قد فات الحكومة أن تتبين رأى الأمة فى المفاوضات قبل البدء فيها فلا يفوتن الحكومة أن تتبين رأى الأمة فى اتفاق الخطوط الرئيسية؛ ولن يكون ذلك إلا بإطلاق حرية القول والاجتماع، وتوفر الحرية للصحف لتنشر كل مايصل إليها عن الاتفاق.

ولا يغنى عن تبين رأى الأمة فى اتفاق الخطوط الرئيسية أن يعرض الاتفاق النهائى بعد إتمامه على ممثلى الأمة لإقراره والتصديق عليه؛ فإن تبين رأى الأمة فى الاتفاق قبل المضى فيه يوفر على الأمة وقتها وجهدها. ويجعل الحكومة على بصيرة من أمرها فيما تأخذ وما تدع. وهذا ماجرى به العمل فى كل مشروعات الاتفاقات السابقة فقد عرضت على الأمة لاستطلاع الرأى فيها ونوقشت فى الصحف وفى الاجتماعات العامة مناقشة حرة لاقيد عليها ولا تثريب على المشتركين فيها.

وما تقدمنا للحكومة فى هذا كله إلا للنصيحة التى يفرضها علينا الإسلام ــ والدين النصيحة ــ وما نريد إلا الخير للأمة والحكومة؛ إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الوكيل العام للإخوان المسلمين

ذى الحجة ١٣٧٣

٢ أغسطس ١٩٥٤

* * *

الفصل الرابع

عبد الناصر يقابل نقد الاتفاقية بخطه تنكيل وإبادة

ماكنت أتصور ولا أحد كان يتصور أن تتطور الأمور هذا التطور الخطير فيعتبر جمال عبد الناصر نقد الإخوان لاتفاقية الجلاء بمثابة إعلان حرب عليه؛ فى حين كان نقد هذه الاتفاقية واجباً قومياً على الإخوان المسلمين باعتبارهم الهيئة الوحيدة التى بقيت فى مصر بعد قيام الثورة، وعليها وحدها يقع العبء فى كل خطوة سياسية أو اجتماعية تمس كيان البلاد.. ولو أنها سكتت فى مثل هذا الموقف لكان سكوتها خيانة وطنية لايغفرها التاريخ..

ثم إن الاتفاقية فى ذاتها فيها من العيوب الكبيرة مالا يمكن السكوت عليه، وقد أوردت نص نقد الإخوان للاتفاقية ليرى القراء بأعينهم فداحة هذه العيوب. وأكرر هنا مرة أخرى أن عدم شعور المصريين بما كان سيحيق بمصر وقضيتها الوطنية من أضرار جسيمة نتيجة تنفيذ بنود هذه الاتفاقية إنما يرجع لحدث خارج عن إرادة الجميع لابسته تطورات شاذة كان من شأنه أنه أسقط هذه الاتفاقية قبل أن تظهر أضرارها، ذلك هو مايسمى بالعدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ وموقف أمريكا منه موقف التحدى لامراعاة لمصلحتنا وإنما ثأراً لكرامتها لأن المعتدين لم يستشيروها قبل اعتدائهم؛ فجاءت مصلحتنا عرضاً فى أثناء هذا الثأر. وتأديباً لهم أسقطت أمريكا حقوقهم التى كانوا قد اكتسبوها.

على أن مالرتكبه جمال عبد الناصر من مآثم لاينساها التاريخ ضد الإخوان متذرعاً فى ذلك بنقد الإخوان للاتفاقية كما كان يردد ذلك.. لايتناسب ولا يكون الجزاء الوفاق لنقد اتفاقية حتى لو فرضنا أنها اتفاقية مثالية وخالية من العيوب؛ فما بالك بها وعيوبها ظاهرة ملموسة.. ولكن يبدو أنه — مع إفلاسه السياسى فى ذلك الوقت — شعر بأن نقد الاتفاقية — وهى كل ماأراد أن يجعله رصيداً سياسياً له — إن هو إلا محاصرة له فى آخر

موقع بقى فى يده، وأنه القضاء المبرم عليه.. ولكن هذا كله لم يكن ليدفع الإخوان إلى التفريط فى حق الوطن مراعاة لخاطر حاكم أو خوفاً من غضبه وبطشه

وكان جمال عبد الناصر كلما أبدى له بعض من يتصل به ممن يعتبرهم محايدين استغرابهم لثورته على الإخوان لأنهم نقدوا الاتفاقية مع أن هذا حق مقرر لكل مصرى؛ يتهرب من حصارهم له بهذا الاستغراب بقوله إنه إنما يثور عليهم لأنهم أعلنوا نقدهم فى الصحف قبل أن يتقدموا إليه به.. والرد على هذا أولاً أن نقد خطوط رئيسية معلنة لاتفاق لايحط من قدر الحاكم فى شيء لأن إعلان هذه الخطوط قبل إعلان الاتفاقية لايكون له معنى مالم يكن قد قام بهذا الإعلان ليقول فيه كل ذى رأى رأيه، حتى يجرى فيه التعديل الممكن.. والرد الثانى على هذا الادعاء هو ماجاء فى كتاب اللواء محمد نجيب ونقلناه فى الفصل السابق من قوله «وتولى جمال الذى كان قد أصبح رئيساً للوزراء رياسة الوفد المصرى فى **المباحثات التى وقعت اتفاقيتها الأولى بسرعة مذهلة بعد أيام فقط من بدايتها أى فى يوم ٢٧ يوليو ١٩٥٤** ــ فاتفاقية لوحظت فيها العجلة إلى هذا الحد هل كان يريد عبد الناصر أن يرجأ نقدها حتى يرجع المرشد العام من رحلته وقد رجع يوم ٢٢ أغسطس بعد أن تفوت الفرصة المناسبة، وهل كان عبد الناصر يريد من المرشد العام وقد سأله الصحفيون فى لبنان عن رأيه فى خطوط رئيسية نشرت أن يمتنع عن إبداء رأيه، وبأى حجة كان يحتج أمامهم إذا هو امتنع عن الإجابة عن أسئلتهم.. إن موقف جمال عبد الناصر يذكرنا بقول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدى المساويا

هذا نقاش أدرناه ليتضح منه أن الإخوان لم يكن أمامهم إلا طريق واحد إزاء مفاجأة الشعب بما أعلنه عبد الناصر من الاتفاقية إلا أن يعلنوه ويعلنوا الشعب برأيهم فيها لعل ذلك يؤدى إلى تدارك عيوبها أو حتى بعض هذه العيوب قبل فوات الأوان.

أساليب تنكيل جديدة:

غنى عن الذكر أن أقول إن مابدأه جمال عبد الناصر من خطط اعتقال شباب الإخوان من النظام الخاص وتعذيبهم ونشر الأكاذيب والافتراءات على الإخوان فى الصحف كل يوم لم تقف عند حد بل ضاعفها وشدد فى الحملة على الإخوان بكل وسائل حكومة فى يدها كل الوسائل مع حرمان الإخوان من الرد.. كل ذلك لم يتوقف ساعة من ليل أو نهار بل إن الإخوان كل يوم كان يتفقد بعضهم بعضاً فيجدون أن المترددين على المركز العام من الشباب ينقصون عدداً فإذا سئل عنهم عرف أنهم قد اعتقلوا حتى كاد المركز العام يخلو من الشباب.

فلما اطمأن جمال عبد الناصر إلى وصول المركز العام إلى هذه الحالة بدأ فى خطة أخرى ماكرة وخطيرة ومؤثرة، تلك هى خطة نقل الموظفين.. وقد كنت من أوائل من جرب فيه هذا السلاح الجديد.. وإذ كان فى هذه التجربة معى من مرارة خالطها بعض اللطائف والمصادفات والمفارقات التى تبرز خصائص هذا المجتمع المصرى من النبل والمروءة والفطنة والذكاء.. فقد رأيت أن أعرضها بين يدى القراء أنموذجاً لما نال الإخوان من هذا الأسلوب فى التنكيل. واستميح السادة القراء عذراً إذا بسطت فى هذا العرض بعض البسط فأقول:

أمر بنقلى إلى قنا:

أ ــ وصلنى فجأة وبدون مقدمات ولا أسباب من الجهة التى أتبعها وهى مصلحة القطن برقية هذا نصها: «بأمر السيد وزير المالية تقرر نقلكم فوراً إلى مصلحة الأموال المقررة.

ب ــ كان مدير مراقبة القطن الذى يرأسنى صديقاً حميماً لى وكان من الاتقياء الصالحين وهو الأستاذ حسين الخضرى رحمه الله، وقد اتصلت به مستفسراً عن هذه المفاجأة؛ فأسر إلىّ بأن وزير المالية وكان السيد/ عبد الحميد الشريف وكانت مصلحة القطن تابعة له ــ اتصل به وطلب منه نقل محمود عبد الحليم فوراً إلى قنا؛ فقال له يامعالى الوزير إن آخر حدود مصلحة القطن هى سوهاج. فقال: إذن ننقله إلى مصلحة أخرى ــ وبعد قليل اتصل به وأمره أن يرسل البرقية التى وصلتنى.
وأفهمنى الاستاذ حسين معتذراً أن الوقوف أمام هذا الأمر فوق طاقته لأنه أمر ليس صادراً من وزير المالية وإنما هو صادر من جهات عليا لأهداف سياسية.
ولكنه قال لى: اكتب لى مذكرة تذكر فيها حاجة هذه المصلحة إلى الخبراء وأن الحكومة شعوراً منها بهذه الحاجة قررت استثناءها هى ومصلحة الجمارك من قرارها الذى منعت به التعيين فى الحكومة، وأن التضحية بخبير لم يكتسب خبرته إلا بعد ممارسة طويلة ليباشر عملا لاخبرة له به يضر الجهتين المنقول منها والمنقول إليها.. وكتبت المذكرة وسلمتها إليه. فأشر عليها بإقراره لكل ماجاء بها وأنه لامانع إذا رؤى نقله إلى مكان بعيد أن ينقل إلى أنأى بلد فى المصلحة وهى جرجا» ثم رفع المذكرة إلى الوزير.

جـ ــ لما علمت أننى منقول إلى قنا أحببت أن آخذ فرصة من الوقت استعد فيها لهذا السفر الطويل، وأرتب أمور أسرتى وأولادى فى فترة غيابى عنها الغياب الذى لاأعرف له كنها ولا مدى ــ وقد أفهمنى الأستاذ حسين فيما أفهمنى أن الوزير

أمرهم بعدم منحي أية إجازة من أى نوع — وكان مفتش صحة القناطر الخيرية التي أقيم فيها صديقاً لى. فذهبت إليه وعرضت له الموضوع وسألته عما إذا كان من الممكن أن يمنحنى إجازة مرضية لبضعة أيام.. فما كان منه إلا أن أخرج من مكتبه ورقة قدمها إلىّ فقرأتها فإذا هى إشارة تليفونية سرية من مفتش صحة محافظة القليوبية يحذر فيها مفتش صحة القناطر الخيرية من إعطاء فلان أية إجازة مرضية مهما كانت الأسباب — فعذرت الرجل وغادرته وهو يكاد يبكى من حرج موقفه.

د — ذهبت فى المساء إلى دار المركز العام، وأطلعت الأستاذ المرشد على البرقية وعلى المحاولات التى بذلتها . فقال لى: لامناص من التنفيذ. وإنهم يريدون أن يجردونا من أعز إخواننا. وهى خطوة من خطواتهم فى سبيل إخلاء المركز العام من القيادات بعد أن أخلوه من الشباب؛ ليتمكنوا من الإقدام على فعل شيء أسروه فى قرارة نفوسهم. وقال لى: إن هذا الإجراء الذى اتبعوه معك اتبعوه فى نفس الوقت مع الأخ طاهر عبد المحسن فقد نقلوه إلى سوهاج. ومع عدد آخر من أعضاء الهيئة التأسيسية البارزين والذين لهم مواقف تسوؤهم.
وقد لاحظت أن الأستاذ المرشد كان فى ذلك المساء فى حالة نفسية سيئة — وقد فهمت أن خطة تجريد المرشد العام من خلصائه ومعاونيه ومن أكرم مجموعة من الشباب حوله إنما هى خطة أعدها جمال عبد الناصر ليتمكن من اصطياد المرشد العام كما اصطاد إبراهيم عبد الهادى الأستاذ الإمام.. وبذلك يقضى على الدعوة من أقرب طريق.

هـ — أرسلت إلى والدى — رحمه الله — فى رشيد ليحضر إلى القناطر الخيرية ليتولى شئون أسرتى فى مدة غيابى وسافرت — وكلى قلق لاعلى أولادى وأسرتى — يعلم الله — وإنما على الدعوة الإسلامية المهددة، والمسخر للقضاء عليها كل إمكانات الدولة، وبطرق بعيدة كل البعد عن الشرف والمروءة والإنسانية — ووصلت إلى قنا على ماأذكر فى أواخر أغسطس، ونزلت بها لأول مرة فى حياتى فى فندق الجبلاوى.

وفى الصباح سألت عن مقر تفتيش الأموال المقررة، فعلمت أن مقره فى مبنى المحافظة، فذهبت إليه وسألت عن المفتش فقيل لى إنه فى إجازة، والقائم بعمله هو الأستاذ النبوى وكيل التفتيش — وكان للقائى بهذا الرجل أجمل الأثر فى نفسى؛ فقد وجدته رجلاً واسع الأفق، طيب القلب، صالحاً فاهماً للظروف كريماً ذا أدب وذا مروءة؛ رحب الرجل بى وأكرم وفادتى وظللت طيلة يومى الأول جالساً عنده فى مكتبه — وفى خلال جلوسى

فى ذلك اليوم استعرضت أكثر موظفى التفتيش كباراً وصغاراً، وكان الأستاذ النبوى حريصاً على تقديمى إليهم بأسلوب يفهمون منه ظروف نقلى عندهم — وقد فهمت فى ذلك اليوم أن رياسة تفتيش الأموال المقررة فى كل محافظة ليست للمفتش وإنما رئيس التفتيش هو المحافظ نفسه لأن كل القرارات والجزاءات والإجازات لابد أن توقع من المحافظ نفسه — كما فهمت حقيقة مزعجة لى هى أن محافظ قنا هو الأميرالاى محمد أبو السعود.

والمزعج لى فى هذه الحقيقة هو أن الأمير الاى محمد أبو السعود هذا هو نفسه اليوزباشى محمد أبو السعود الذى كان فى سنة ١٩٤١ معاون بوليس بندر دمنهور، والذى كانت بينى وبينه مواقع أيام كان يغير بنفسه على دار شعبه الإخوان فى دمنهور، ويحاول منع إلقاء المحاضرة الأسبوعية بها، كما أنه أغلق الشعبة بنفسه فى حين لم تغلق أية شعبة أخرى فى القطر، وكنت أنا دائماً الذى أتعرض له وأصطدم به، وهو يكن لى كراهية شخصية — وقد دارت الأيام بهذا الرجل حيث نقل إلى أسيوط فى وقت من الأوقات، واستطاع أن يقضى على عصابة خطيرة كان لها شهرة فى أنحاء البلاد كلها وتسمى عصابة «الخط» ونشرت الصحف فى ذلك الوقت صورة محمد أبو السعود وتحدثت عن شجاعته.. وبسبب ذلك فتح أمامه باب الترقى حتى وصل إلى هذا المنصب الرفيع فى سنة ١٩٥٤ الذى قلما كان يحظى به ضابط مثله.

وكانت خطتى حين علمت بذلك هى أن أتحاشى لقاءه، بل أن أتحاشى حتى مجرد أن يعلم بوصولى إلى قنا — وقد كان الأستاذ النبوى — من باب التكريم — يريد أن يقابلنى به فأفهمته بأسلوب ما أننى لاأرغب فى ذلك.. ففهم الرجل واكتفى بأن اتصل بالمدير العام لمصلحة الأموال المقررة فى وزارة المالية بالقاهرة وأبلغه بوصولى.

وفى مساء ذلك اليوم سألت عن مقر شعبة الإخوان المسلمين بقنا وقصدت إليه، وتعرفت بالإخوان فيه، وكانوا حفنة من الشباب الغض المؤمن فأحببتهم وأحبونى — وكان ممن تعرفت به منهم الأخ محمد الرشيدى الكاتب بتفتيش صحة بندر قنا — وقد فرح الإخوان بنقلى عندهم واستبشروا خيراً أن شعبتهم ستنهض؛ ولكننى أسررت بالظروف التى أواجهها وتواجهها الدعوة إلى الأخ محمد الرشيدى، وقلت له إننى سأحتاج إلى معونته فأبدى أتم الاستعداد.

وفى اليوم التالى ذهبت إلى عملى الجديد وجلست عند الأستاذ النبوى واستعرضت الموظفين الذين استعرضتهم بالأمس. ولكننى فى خلال هذا اليوم أحسست بأن تفاهماً قلبياً، وتجاوباً نفسياً، قد توطد بينى وبينهم. وأخذوا يبادلوننى التحية ممزوجة بعواطف الود والمحبة؛ وكانت العيون تنطق بما حالت الظروف دون أن تنطق به الألسنة.

وفى أثناء ذلك اليوم قلت للأستاذ النبوى سائلاً: ماهوالعمل المطلوب منى تأديته؟ فرد الرجل وكأنما كان يتحاشى أن أوجه إليه هذا السؤال وقال: هذا هو مايحيرنى.. وأنت بمؤهلك ومدة خدمتك جدير أن تتولى أعلى منصب فى التفتيش ولكن كل الأعمال عندنا مشغولة بموظفيها.. وبعد نقاش أخوى حول هذا الموضوع حاول الرجل بأدب وكياسة أن يقنعنى بأن أقضى وقتى معه فى مكتبه ولا داعى لتسلم عمل.

ومن طرائف مايشار إليه إشارة عابرة أن ظروفى كانت تستدعى أن أتصل بمصلحة القطن بالقاهرة وبالأخ الكريم الأستاذ أحمد عبد اللطيف مدير المستخدمين، ونوهت بذلك أمام الأستاذ النبوى فقال: هذا أمر ميسور نطلبه لك بالتليفون وكانت الساعة حوالى الثانية عشرة ظهراً؛ فقلت له إن الوقت الباق على موعد انتهاء العمل بالمصالح الحكومية لايكفى لتوفير هذه المكالمة؛ فقال: إننا نستطيع الحصول عليها فى دقائق.. وأمسك بالتليفون وما هى إلا دقائق لاتزيد على خمس حتى رأيتنى أتكلم مع الاستاذ أحمد عبد اللطيف رحمه الله.. وقد أردت من ذكر هذه الواقعة لنوازن بين ذلك وبين ماآلت إليه حالة مرفق التليفونات عندنا فى هذه الأيام.

وفى أثناء جلوسى مع الأستاذ النبوى فى اليوم الثالث وجهت إليه سؤالاً وأنا لاأدرى ماذا يكون جوابه عليه. غير أنى ماكدت أوجه إليه السؤال حتى بادرنى بموافقة ممزوجة بما يشبه الرجاء والتمنى. وكأنما أخرجت الرجل بسؤالى هذا من حرج كبير كان لايدرى كيف يخرج منه..

وكان هذا السؤال هو قولى له: ياسيدى الأخ الأستاذ نبوى هل عندك مانع من الموافقة على إحالتى إلى الكشف الطبى؟

سرتنى إجابة الرجل، وأذهبت عنى غماً كبيراً وهماً مقيماً.. إلا أن عقبة كئوداً فى الطريق كانت تعترض آمالى فى إنجاز هذا الأمر؛ وهو أن أسرق إجازة مرضية من بين براثن الوحش الكاسر الرابض على عرشه فى القاهرة، والذى وضعنا فى دائرة ضيقة بين براثنه فلا نستطيع حراكاً إلا أن يكون هذا الحراك إلى أنيابه.

حاولت التحرك فى القناطر الخيرية فوجدت مخالبه محيطة بى فى صورة إغلاق باب التحرك عن طريق الإجازات المرضية.. وهأنذا أجىء إلى قنا.. وهو يريد بذلك أن يعزلنى عن القاهرة التى هى فى ذلك الوقت فى أمس الحاجة إلى وجودى ووجود أمثالى من المبعدين.. وإذا لم أستطع الحصول على إجازة فلا مناص أمامى من ترك العمل والهروب إلى القاهرة، ويفعل الله ما يشاء، فأنا لا أستطيع أن أنام وأنا أعلم أن الأحداث فى القاهرة تتفاقم لا كل يوم بل كل ساعة.

أجيء إلى قنا لأجد عدوًّا قديماً لى ولدعوة الإخوان المسلمين هو محافظ الإقليم والرئيس المباشر لى، ولا أستطيع أن أحصل على إجازة أو على تحويل إلى الكشف الطبى إلا عن طريقه وبموافقته شخصياً.. وكانت الخطة التى وضعتها تقتضى أولاً أن لايعلم هذا الرجل بحضورى، كما تقتضى ثانياً أن أنجز عملية الإجازة المرضية فى أسرع وقت ممكن قبل أن تحدث اتصالات بين القاهرة وبين هذا الرجل فى شأنى ــ ولقد أخذت وعداً من الأخ الأستاذ محمد الرشيدى الكاتب بتفتيش صحة بندر قنا أننى إذا استطعت أن أحصل من مصلحة الأموال المقررة على إذن بتحويلى إلى تفتيش الصحة فعليه هو أن يحصل لى على إجازة بل على أطول إجازة يمنحها القانون.. ولكن أنى لى بالحصول على هذا التحويل وهو لابد أن يكون بأمر السيد المحافظ وبتوقيعه شخصياً.. ولم يكن أمامى إلا الاتكال على الله والمخاطرة.

وتوارد الموظفون الذين اعتدت أن أراهم كل يوم؛ يعرضون عمل التفتيش على الأستاذ النبوى.. وكان منهم موظف شاب مهمته أن يحمل كل يوم الأوراق من التفتيش ويقدمها إلى السيد المحافظ ليوقعها ثم يرتد بها موقعة إلى التفتيش لتأخذ كل ورقة منها طريقها إلى التنفيذ.. وكان هذا الشاب من أهل قنا وذا قلب كبير، ونفس شفافة، وبصيرة نافذة.. وكان من أكثر الموظفين مبادلة ود ومحبة معى ــ فتعمدت أن أثير موضوع طلب الإحالة إلى الكشف الطبى معه بسؤالى إياه عن إجراءاته.. فكأنما كان يعرف مافى نفسى فرأيته يقترب منى ويقول: اكتب الطلب ووقعه وأعطنيه ولا عليك بعد ذلك.

قلت: ولكن المحافظ هو الذى يوقعه بنفسه؟!

قال: نعم هو الذى يوقعه بنفسه، ودعنى أقم بهذا العمل فأنا أعرف ماتريد أن تقول.

واختار الشاب ورقة صغيرة أعطانيها وكتبت عليها الطلب ووقعتها ثم أخذها واستكتب عليها موافقة مبدئية من الأستاذ النبوى ثم أخذها بعدما وقعها الأستاذ النبوى وكتب تحت توقيعه كلمة «أوافق» وكتب تحتها كلمتى محافظ قنا والتاريخ، ثم فتح ملف الأوراق التى ستعرض على المحافظ ووضع الورقة وسط مجموعة من الأوراق الروتينية التى اعتاد المحافظ أن يوقعها كل يوم دون استفسار أو قراءة لتفاهتها وتكررها كل يوم. وأخذ الملف ونزل للسيد المحافظ..

وكانت اللحظات التى غابها هذا الشاب عند المحافظ لحظات استغرقت فى خلالها مع الله الذى بيده كل شيء وهو الرحيم بعباده وهو على كل شيء قدير. وقد توقعت كل شيء، ولكننى كنت أحسن الظن بالله عز وجل ــ وبعد نصف ساعة حضر الشاب الذى

أسرنى بحبه ونبله وبفضله، وقدّم لى الطلب موقعاً عليه من المحافظ وقعه دون أن يدرى.. ثم قال لى: إن الإجراءات تقضى بأن نرسل هذا الطلب مع أمثاله من الطلبات إلى تفتيش الصحة. وهذا يستغرق عدة ساعات. وغالباً مايؤجل الكشف الطبى إلى اليوم التالى— ولذا فإنى سأرسل هذا الطلب وحده مع عامل يرافقك ليسلمه إلى تفتيش الصحة ويحصل منهم على توقيع بتسلمه حتى تتاح لك الفرصة التى تساعدك على إنجاز ماتريد.

وهنا.. علىّ أن أقف وقفة أمام «الفرد» الفرد المسلم الكريم المعدن؛ الذى يبدو كرم معدنه فى المواقف الساخنة الملتهبة التى تحترق فى لهبها المعادن الخسيسة وتذهب هباءً حتى لايبقى منها إلا الرماد.. إن هذا الموظف الشاب الذى فهم بسليقته الصافية ماأعانيه من حرج؛ فتطوع بأداء دور ليس بالهين؛ لم يكن يربطنى به رباط قرابة ولا مصلحة ولا صداقة ولا حتى معرفة.. ولكنه رأى رجلاً ينكل به من أجل دينه؛ فعزم على أن يقدم إليه أقصى مايستطيع أن يقدمه، غير منتظر جزاءً ولا شكوراً؛ بل قد يتوقع إذا انكشفت الخدعة عقاباً شديداً. لم يكن هذا الموظف من الإخوان المسلمين الرسميين—وما أكثر أمثاله فى صفوف المسلمين— ولعل فى هذا رداً على من يظنون حين يضعون أيديهم على من سجلت أسماؤهم فى عضوية الإخوان المسلمين أنهم قد وضعوا أيديهم على كل العاملين للإسلام.

... وما هى إلا دقائق.. حتى كنت فى تفتيش الصحة.. وكان فى انتظارى الأخ محمد الرشيدى الذى رافقنى إلى الطبيب— وكان مسيحياً— وكنت قد عرفت أن الأطباء يحبون الأخ محمد لتفانيه فى عمله ولأنه يقدم إليهم خدمات تعود عليهم بالنفع؛ ولذا فإنهم يتمنون أن يردوا إليه بعض الجميل.. وكان من نتيجة ذلك أن منحنى الطبيب أطول إجازة ممكنة فى ذلك الوقت وهى سبعة أيام على أن يتاح لى مدها بعد ذلك عن طريق القومسيون الطبى. وتركت الأخ الأستاذ محمد الرشيدى مودعاً، واتجهت إلى محطة السكة الحديد وأخذت أول قطار إلى القاهرة وأنا أتلفت حولى كأنما أنا هارب من جريمة اقترفتها.

* * *

الباب الثانى عشر

إلى القاهرة فى أحلك الأيام

الفصل الأول

محاولة للإنقاذ

وصلت إلى القاهرة، واتجهت فوراً إلى دار المركز العام. فراعنى مارأيت. رأيت داراً غاب عنها أهلها، ولم يبق بها إلا عدد ضئيل. وهذا العدد الضئيل هم الإخوة الذين أطلق عليهم «مجموعة الروضة». ورأيت بجانبهم الدكتور محمد خميس حميده رحمه الله ــ وما كان بى من حاجة للسؤال عن الغائبين فأنا أعرف أين غابوا ولم غابوا؛ فبعضهم غيبته المعتقلات والبعض الآخر عرفوا أنهم متعقبون فحاولوا الاستخفاء حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

ولكن الذى سألت عنه هو الأستاذ المرشد العام، لأننى كنت حريصاً على الالتقاء به لأتبادل معه الرأى، وأستنير بتوجيهه، وأبثه ماعندى ــ سألت عنه الدكتور خميس فقال لى إنه مختف. فسألته عن سبب اختفائه فقال لى: إنه مهدد بالاغتيال.. فسألته عما إذا كانت الاتصالات مستمرة بيننا وبين جمال، فقال لى: إنها انقطعت تماماً.. ووجدت الرجل فى حال من الأسى والحزن كما رأيت ذلك مرتسماً على وجوه العدد القليل الموجود بالمركز العام.

وقد جلست إلى الإخوة «مجموعة الروضة» وحدثتهم عما كان من أمرى حتى استطعت أن أحضر إلى القاهرة، لأننى أحسست أن الحالة فى تفاقم مستمر ــ وقد وجدتها كذلك ــ فالحالة تتلخص فى أن الإخوان فى القاهرة والمركز العام يعيشون فى ظل سلطة إرهاب لاحدود لها.

وقد وجدت أن الإخوان بالمركز العام يغذون إخوان الأقاليم بسيل من المنشورات؛ منها خطابات موجهة إليهم من المرشد العام من مخبئه. ولاحظت أن هذه المنشورات والخطابات مما يرفع من حرارة الالتهاب فى أعصاب الإخوان ضد الحكومة حتى إن بعض هذه المنشورات رمت رجال الثورة بما تستباح به الدماء؛ كما وجدت حملة الصحف المصرية قد وصلت فى إثارتها للإخوان بنشر الأكاذيب واختلاق التهم، وقلب الحقائق، واستعداء الشعب عليهم إلى الحد الذى لايستطيع الإخوان أن يملكوا أعصابهم معه.

وهنا وجدتنى مطالباً — أمام ضميرى ومن أجل دعوتى وإخوانى — بالقيام بعمل مايضع حداً لهذا التفاقم المستمر، والغليان الذى لن يملك أحد أن يسيطر عليه بعد ذلك.

* * *

كان لابد لى من الإقدام على ماكنت أنفر منه من قبل؛ وهو أن أقوم بلقاء مع الطرف الآخر لإجراء تفاهم بعد أن انقطعت الاتصالات. وأنا أعلم أننى شخص غير مقبول عند رجال الثورة؛ بل إنهم يعتبروننى من ألد أعدائهم ولكن لابد مما ليس منه بد.

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له مامن صداقته بد

لقد كنت أرى صداماً عنيفاً مدمراً يوشك أن تسيل الدماء فيه أنهاراً؛ تتجمع سحبه فى سماء مصر. ولن تكون أرواح الألوف وحدها ضحية هذا الصدام؛ وإنما سيأتى هذا الصدام على الأخضر واليابس ويحيل هذا البلد الطيب إلى حطام — فحكومة الثورة وراءها الجيش المصرى بكل إمكاناته بعد أن أخرجت منه كل الأحرار وذوى المبادىء.. وأنا فى نفس الوقت أعرف قوة الإخوان الروحية والمادية؛ ولاحظت أن جمهور الإخوان يشحنون شحناً مضاعفاً؛ ففى نفس الوقت الذى تقوم النشرات السرية التى يصدرها المركز العام بالشحن، تقوم الحملة الصحفية الاستفزازية بمضاعفة هذا الشحن.. فكان لزاماً على كل من يستطيع أن يصنع شيئاً لتخفيف هذا التوتر أن يتقدم دون توان ولا تأخر؛ فإن كل ساعة لاتزيد النار إلا اشتعالاً.. وقد رشحت نفسى لهذا الأمر دون أن يرشحنى أحد، ورأيتنى مسئولاً أمام نفسى وأمام الله عز وجل إذا تخلفت عن هذا الموقف..

ولكننى فكرت؛ كيف يتم لى ماأريد؟! وأطلت التفكير حتى كاد ينتهى بى إلى مايشبه اليأس.. ولكن بريقاً من الأمل لاح فى الأفق حين تذكرت صديقاً من أعضاء الهيئة التأسيسية هو الأخ الحاج محمد جوده. وهو الأخ الذى سبق لى ذكره فى الصفحات القليلة الماضية، وقلت إنه كان زميلاً لى فى المدرسة الإبتدائية فى رشيد، وإنه صديق شخصى حميم لجمال عبد الناصر وزملائه الضباط من قبل قيام الثورة لأنهم كانوا عملاءه فى محله لتجارة الأرز الرشيدى فى شارع الموسكى، وقد ظلت صلتهم به بعد قيام الثورة على ماكانت عليه قبلها — وقد رأيت فيه خير سفير بينى وبينهم.

وكانت حاشية جمال عبد الناصر التى لاتكاد تفارقه حيث كان حتى وهو فى بيته مكونة من ثلاثة ضباط هم الصاغ إبراهيم الطحاوى والصاغ أحمد طعيمة واليوزباشى عبد الرحمن نصير. وهذا الأخير كانت مهمته مهمة حراسة، أما الآخران فكانت مهمتهما مهمة سياسية.

* * *

وتحدثت مع الأخ محمد جودة فى العلاقات بين الثورة والإخوان وما آلت إليه من تدهور، وأبديت رأيى فى أننا يجب أن نعمل على تلافى هذا الأمر. فقال لى: هذا واجب ولكن من الذى يقوم بهذا من الإخوان بعد أن امتنع المكلفون منهم بهذا الاتصال عن الاتصال؟ فقلت له: إن جمال عبد الناصر هو الذى رفض مقابلتهم. فقال: نعم لقد رفض مقابلتهم لأنه وجد أعضاء اللجنة المختصة بالاتصال سيئى النية ولا يريدون الإصلاح بل هدفهم هو زيادة العلاقات سوءاً؛ لأنهم لاينقلون مايتفق عليه بأمانة؛ يقصد إيغار صدور الإخوان.

قلت له: إن الأستاذ المرشد ـ توخياً لتحسين العلاقات ـ نحى هذه اللجنة وكلف الدكتور خميس نائب المرشد بالقيام بمهمتها. فلما قام الرجل بالمهمة مرة ومرتين رفض جمال مقابلته بعد ذلك فما السبب؟ قال: السبب أن جمال كان يعتقد أن الدكتور خميس وهو نائب المرشد العام يستطيع أن ينفذ مايتفق عليه فى هذه الاتصالات. ولكنه تبين أنه مجرد لقب بدليل أنه لم يستطع أن ينفذ شيئاً مما اتفق عليه؛ فلقد تعهد فى أحد الاتصالات لجمال بأن يوقف إصدار النشرة السرية فترة من الزمن اتفق عليها.. ولكن النشرة صدرت فى مواعيدها.

ومن حق التاريخ أن أقف هنا لأقرر صحة هذه الواقعة فلقد شكا إلىّ الأخ الدكتور خميس من هذا التصرف مر الشكوى. وقد تحدثت فى ذلك مع المسئولين من أعضاء النظام الخاص معاتباً، وذكرتهم بقول رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم» وقلت لهم: إذا كنا مطالبين بأن ننفذ عهداً قطعه لأعدائنا أدنانا منصباً ومكانة فى مجتمعنا فكيف إذا كان الذى أعطى العهد من أعلانا منصباً ومكانة. كما ذكرتهم بموقف أبى عبيد أحد قواد جيش المسلمين فى فتح فارس حين كان جيش المسلمين محاصراً أحد المواقع؛ وكان «جابان» قائد جيش الفرس فاجرا عنيداً تمنى المسلمون أن يظفروا به ليقتلوه. وكان أن أسره أحد صغار الجند ثم أمّنة فرآه المسلمون فأخذوه إلى قائدهم أبى عبيد ليقتله. فلما علم أن أحد صغار جنده مطر بن فضة أمنّه أبى أن يقتله وقال: لاأغدر. وتركه.

ـ وأنا حين أذكر هذا الذى أذكره لاأدعى أن تنفيذنا لما تعهد به الأخ الدكتور خميس كان سيغير الوضع ـ فهذا شىء كان فى قبضة القدر ـ ولكننى كنت حريصاً على أن لانتصرف تصرفاً يتعارض مع مبادىء ديننا ودعوتنا، ونضع فى يد خصمنا حجة يشهرها فى وجوهنا، ويستطيع أن يذيع بها على أنها دليل على تخبطنا واضطراب أمرنا.

* * *

قلت للأخ محمد جوده: هل هناك مانع من أن أقوم أنا بمهمة الاتصال؟

فإذا به يتلقى هذا السؤال بدهشة كأنها مفاجأة.. وسكت لحظة ثم اتجه إلىّ كأنه كذّب سمعه قائلاً: أنت تقوم بهذه المهمة؟! قلت: نعم أنا. قال: هذا شيء لم يكن يتوقع قلت: ياأخ محمد.. ليس فى هذا غرابة؛ إننا جميعاً جنود فى هذه الدعوة؛ نستجيب لندائها فى أى لحظة، ومن حقها علىّ فى هذا الموقف ـ وقد انقطعت الاتصالات بيننا وبين رجال الثورة وتأزمت الأمور ـ أن نحاول معالجة الأمور، ونضع حداً لهذا التفاقم الذى لايعلم إلا الله مدى مايخلفه من آثار على البلاد.

قال الأخ محمد: إننى أرحب بهذه الخطوة. ولكن ماالذى تقترح علىّ أن أفعله؟

قلت: تهيىء لى فى محلك اجتماعاً لى مع الطحاوى وطعيمة.

جاءنى الأخ محمد جودة فى اليوم التالى وأخبرنى بأن الطحاوى وطعيمة تلقيا نبأ رغبتك فى الاجتماع بهما بدهشة واستغراب وقالا: إننا نعتبر فلاناً هذا أشد من الهضيبى نفسه. ولكنهما رحباً بالاجتماع. وسيكونان عندى مساء اليوم فى الساعة السادسة إن شاء الله فى انتظارك.

رتبت فى خاطرى الطريقة التى أدير بها المناقشة بينى وبينهما؛ وكانت تدور على محورين؛ أولهما أن أشعرهما أننىَ أتكلم من موقع قوة. والآخر أننا نحن الإخوان مع مانملك من قوة نؤثر السلام على أن يقوم على دعائم أخوية متكافئة.

* * *

الفصل الثانى

المفاجأة المذهلة

ذهبت فى الموعد المحدد إلى محل الأخ الحاج محمد جودة والتقيت بالرجلين ــ وكان أول لقاء لى معهما ــ فتلقيانى بترحيب وود ــ وما إن تبادلنا عبارات التحية والترحيب حتى ألقيا فى وجهى بقنبلة مدوية ، أذهلتنى وأذهبت صوابى ، ونسفت كل ماكنت أعددته فى خاطرى ، وغشت على عينى فظللت برهة لاأكاد أرى شيئاً أمامى .. لهول الصدمة ، وفظاعة المفاجأة .. لقد تبددت أفكارى ، وانعقد لسانى ، وأرتجَ علىّ .. ولولا بقية من إيمان لجأت بها إلى ربى لما استطعت أن أواصل جلستى معهما .. ولكننى استلهمت ربى الذى عودنى أن يكون بجانبى فى لحظات تدلهم فيهاالأمور وتنقطع أسباب الرجاء .

وكانت المفاجأة هى أنهما فى أثناء ماأزجياً لى من عبارات الترحيب قال أحدهما ــ ولا أذكر من منهما ــ موجها السؤال إلىّ : ولكن يافلان لماذا لم تقبل المنصب (الفلانى) الذى عرضه عليك الأستاذ الهضيبى يوم كذا عندما اجتمعتما على انفراد بمكتبه بالمركز العام ؟

ولا أعتقد أن القارىء يجد فى هذا السؤال معنى من معانى المفاجأة التى تزلزل أركان من يوجه إليه .. ولهذا يكون لزاماً علىّ أن ألقى شعاعاً من ضوء على مايكتنف هذا السؤال من ظروف توضح مدى خطورته :

أولاً : لعل القارىء يتذكر الفتنة التى كادت تطيح بالدعوة من أساسها والتى ابتدأت بتمرد قيادة النظام الخاص وعلى رأسها عبد الرحمن السندى ، وانتهت بفصله وثلاثة معه وبفصل ثلاثة من أعضاء الهيئة التأسيسية .

ثانيـاً : كان الاجتماع الذى ضمنى والأستاذ المرشد على حدتنا لاثالث معنا إلا الله فى حجرة مكتبه بالمركز العام ، وأبواب المكتب كانت مغلقة ــ كان هذا الاجتماع عقب انتهائنا من معاناة هذه الفتنة ، وخروج الدعوة منها سالمة فى أتم عافية .

ثالثـاً : طلب إلىّ الأستاذ المرشد فى هذه الجلسة الثنائية طلباً يتصل بموضوع يعد فى

دعوة الإخوان المسلمين هو أدق أسرارها؛ ذلك أنه طلب إلىّ أن أتولى قيادة النظام الخاص. فلم أتوان عن الاعتذار عن إجابة هذا الطلب. فقال لى: أنت موضع ثقتى، ولك صلة قديمة بهذا النظام، والعاملون فيه يكنون لك الحب والثقة والاحترام، وأراك خير من يصلح لهذا المنصب. فقلت له: إننى أعتز بثقتك فى، ولعلك تحس بأننى أبادلك هذه الثقة، وإننى على استعداد أن أكون حيث تريد فى هذه الدعوة.. ولكن الظروف التى وضعت فيها أصبحت تحول بينى وبين هذا المنصب.. لقد كنت طيلة حياتى أتحاشى الظهور والشهرة؛ ولقد اعتذرت لهذا السبب عن عضوية مكتب الإرشاد حين عرضتها علىّ من قبل — ولكن الظروف والاستجابة لنداء الدعوة فى أحرج مواقفها أجبرتنى أن أتولى عملاً — لم يكن لى خيار فى تفاديه — كان سبباً فى توجيه أنظار الجميع إلىّ فى أنحاء البلاد أعداءً وأحباء؛ وذلك بنشر اسمى تحت قرارات خطيرة فى جميع الصحف — ورجل أصبح اسمه على كل لسان لايجوز أن يتولى عملاً طبيعته السرية.

رابعــاً: اقتنع الأستاذ المرشد برأيى ثم استشارنى حول أسماء أخرى. وانتهى هذا الاجتماع الثانى — وكان الأستاذ المرشد طيلة هذه الجلسة يجلس بجانبى على أريكة بجوار مكتبه.

خامساً: الأستاذ حسن الهضيبى من الشخصيات ذات الخبرة بالأمور السرية، وذات المقدرة على كتمان الأسرار ولا يمكن أن يكون قد باح بما دار بينى وبينه من حديث لأى إنسان.

* * *

إذن فكيف وصل نبأ هذا السر الدفين — الذى لايعرفه أقرب الناس إلىّ ولا أقرب الناس إلى المرشد العام — إلى هذين الضابطين، حتى وجها إلىّ هذا السؤال المحدد بالتاريخ والمكان على سبيل التحدى بل على سبيل التهكم؟.. إنهما أرادا أن يفجعانى فى أعز مانعتز به؛ وهو مقدرتنا على حفظ أسرارنا.. إنهما بإشارة واحدة، وكلمات وجيزة، أرادا أن يقولا لى: ابدأ كلامك معنا كما تشاء بعد أن تعلم أن كل أسراركم عندنا.

لقد ضاقت الدنيا فى وجهى، واسودت أمام عينى، وكاد يغشى علىّ من هول المفاجأة وهما يطلقان نحوى هذه القنبلة مبتسمين؛ زيادة فى التهكم والتحدى والسخرية.. موقف عدو ملك من أمرك كل شىء، وأصبحت بكل إمكاناتك فى قبضة يده أو بين فكيه، وصدق القائل:

أحـذر عـدوك مـرة .. واحذر صديقك ألف مرة
فلربمـا انقلـب الصديـق فكـان أعلـم بالمضـرة

إن وجود جمال عبد الناصر فى تشكيلات الإخوان، وإلمامه بأدق أسرارها، جعله على علم بأمضى سلاح فيها، وأعظم رصيد من القوة بها.. فوجه كل إمكانات مايملك من مقدرات الدولة للإخاطة بهذا الرصيد، ووضع أهم مافيه تحت رقابة فعالة تجعله على علم بأدق تفاصيله، وأعمق أسراره.

ولكن كيف استطاع أن يصل إلى أسرارنا؟ وأهم من هذا السؤال سؤال آخر وهو:

كيف وصل إلى هذا السر بالذات الذى كان بينى وبين الأستاذ المرشد فى حجرة مغلقة ليس معنا ثالث، ولشدة حرص الأستاذ المرشد على سرية الحديث ترك مكتبه وجلس بجانبى على الأريكة المجاورة للمكتب.. ومن ناحيتى فأنا أثق فى نفسي والحمد لله إلى حد أن أسراراً أقل من هذا السر أهمية يبلغ بى الحرص على كتمانها درجة تجعلنى أنساها، ولا تقل ثقتى فى هذه الناحية فى الأستاذ المرشد. عن ثقتى فيها فى نفسي.. إذن فكيف وصلوا إلى هذا السر؟

لم أجد لهذا السؤال إجابة إلا إجابة واحدة هى أن يكون ذلك عن طريق جهاز من أجهزة التسمع ولكن كيف استطاعوا أن يضعوا فى حجرات المركز العام أجهزة التسمع؟.. وهذا سؤال تجيب عليه الفصول السابقة من هذه المذكرات التى تكشف للقارىء عن مدى تغلغل جمال عبد الناصر بنفوذه وبإغراءاته فى صفوف الإخوان فى القاهرة.

قرائن مذهلة عن التصنت لم نعرفها إلا أخيراً

قرأت فى كتاب «جمال عبد الناصر» للأستاذ أحمد أبو الفتح فى صفحة ٥٩ فى هذا الصدد مايلى:

«وفى إحدى زياراتى لعبد الناصر التفت إلىّ وهو يضحك: هل سمعت بالمؤامرة الجديدة؟ فقلت: أية مؤامرة؟ ونظر عبد الناصر إلى حسن إبراهيم وجمال سالم الضابطين بسلاح الطيران وعضوى مجلس الحركة. وقال: لقد اكتشفنا أن أحد صولات الجيش يعد انقلاباً» فقلت: صول بالجيش؟ فرد عبد الناصر: نعم صول بالجيش. فقلت: إنك لاشك تهزل فمن غير المعقول أن يقدم صول على عمل انقلاب؛ إذ ماهى القوة التى يملكها هذا الصول حتى يستطيع القيام بانقلاب، ثم ماهى سلطاته على الجيش التى

ستمكنه من القيام بتدبير انقلاب ضدكم؟

ورد جمال عبد الناصر بقوله: لقد اتصل ببعض صولات الجيش وقال لهم لماذا ينفرد الضباط بأمر البلاد؟ إننا نستطيع أن نقوم بما قاموا به.

وأمسك عن الكلام لحظة ثم استمر قائلاً: وقد استطاع بعض الضباط دخول مسكنه ووضع آلات تسجيل داخل المنزل، وسجلوا بذلك كل ماكان يدور داخل المنزل من اجتماعات، وقد كان بين هذه التسجيلات بيان أعده ليذيعه عن طريق الإذاعة على الشعب المصرى.

وعندئذ أشار إلى حسن إبراهيم الذى أحضر جهاز تسجيل وأدار الشريط فإذا بصوت رجل يقول: «نحن رأفت شلبى رئيس الحركة الجديدة».

كان عبد الناصر فخوراً بالعمل الذى قام به ضباطه الذين دخلوا مسكن رأفت شلبى وأن يضعوا آلات تسجيل داخل المنزل.. وكانت هذه الحادثة هى بدء تطور جديد فى الحياة المصرية؛ إذ أصبح من المستطاع بل من المباح لضباط الجيش وعملائهم أن يتسللوا داخل المنازل للتجسس على حياة الناس..

وكانت هذه الحادثة بدء دخول أدوات التجسس على الناس؛ ألا وهى آلات التسجيل. ومنذ هذه الحادثة بدأ عبد الناصر يهتم بآلات التسجيل، فأرسل يشترى منها كل ماهو حديث. وكان من أهم هذه المسجلات الساعات المسجلة. وهى عبارة عن جهاز تسجيل صغير يوضع فى الجيب الداخلى للجاكتة وتتصل بسلك رفيع بساعة اليد. فإذا ماتحدث إنسان إلى من يحمل آلة التسجيل سجلت الآلة كل مايقول.

وقد انتشرت الساعات المسجلة انتشاراً غريباً بين خدم الفنادق الكبرى والنوادى الهامة وعملاء وجواسيس مجلس السيادة فى المصانع وفى دور الحكومة وبين الطلبة؛ وقد عرف الشعب المصرى بأمرها حتى بات كل إنسان يتجنب الحديث مع آخر فى السياسة، ويوجه نظره إلى يد زميله، وحركتها خشية أن يكون زميلة أو صديقه حاملاً لها.

ومنذ الأسابيع الأولى اهتم جمال عبد الناصر بتكوين شبكة ضخمة من رجال المخابرات، وأسند مهمة تنظيم هذه الشبكة والإشراف على أعمالها ورياستها إلى البكباشى زكريا محيى الدين عضو مجلس الحركة ـــ وتخصص زكريا بهذا العمل فنظمه تنظيماً واسعاً داخل الجيش، ثم ... نطاقه إلى المدنيين، وأصبحت مصر تعيش فى جو من الجاسوسية التى نمت وازدادت إحكاماً يوماً بعد يوم.

ونمت شبكة الجاسوسية نمواً خطيراً فى الشهور الأولى لقيام الحركة. وكان أهم

الوسائل التى لجأ إليها زكريا فى تنظيم جاسوسيته الاعتماد على طبقة الخدم فى المنازل والفنادق والنوادى وسائقى السيارات وماسحى الأحذية.

وروعت مصر ذات يوم؛ إذ علمت أن مجلس قيادة الحركة قد قبض على وكيل وزارة سابق وعلى لواء سابق بالجيش بتهمة التحدث ضد الحركة. وبإحالةالموظفين الكبيرين إلى محكمة الثورة، وكانت أدلة الاتهام جميعها تنحصر فى أجهزة مسجلة لأحاديث دارت على لسان المتهمين.

وأثناء نظر القضية تبين أن وكيل الوزارة السابق كانت قد جرت عادته على أن يشترى السجاير من تاجر مجاور، وأنه كثيراً ماكان يقابل صديقه اللواء عند هذا البائع فتدور بينهما بعض الأحاديث عن تطور الأحوال. وبطبيعة الحال كانت ترد فى سياق الحديث بعض ألفاظ تحمل نوعاً من عدم الرضا على مايقوم به الضباط ـ وكان يقف إلى جوار دكان بائع السجاير رجل رقيق الحال فى ملابس فقيرة، وقد أحاط ساعده بجبيرة. وفى بعض الأحيان كان يعطف وكيل الوزارة أو اللواء السابق على هذا الرجل فيمنحانه بعض المال أو يسمحان له بتنظيف حذاءيهما مقابل بعض المال.

واتضح بعد ذلك أن هذا الرجل لم يكن مكسور الساعد كما كان يدعى، بل قد خبأ فى ساعده آله لتسجيل العبارات التى يفوه بها الناس عند شراء السجاير.

وعلى ضوء هذه «البينة» وحدها قدم مجلس قيادة الحركة (الثورة) وكيل الوزارة السابق واللواء السابق للمحاكمة وحكمت عليهما المحكمة العسكرية بخمسة عشر عاماً أشغالاً شاقة.

هذا ماصادفنى من قرائن مذهلة عن التصنت وأنا أقرأ فى كتاب «جمال عبد الناصر» للأستاذ أحمد أبو الفتح وقد نقلت ماقرأته فى صفحة ٥٩.. ومعذرة للقراء إذا ماأنا استطردت فى هذا الموضوع بعض الاستطراد لما له من دلالات خطيرة بعيدة المدى فنقلت سطوراً أخرى من هذا الكتاب قرأتها فى صفحة ٢٢٨ حيث يقول الأستاذ أحمد أبو الفتح نقلاً عن صديقه جمال عبد الناصر:

«وعلى الرغم من أن إدارة المخابرات كانت تخضع لوزير الداخلية، فإن عبد الناصر قد كون لنفسه إدارة مخابرات أخرى تخضع له شخصياً. وكانت مهمة هذه المخابرات أن تجمع له تقارير عن أعضاء القيادة. ولم تكن فى بادىء الأمر إدارة بالمعنى الصحيح بل كانت عبارة عن عدد من الضباط يعمل كل واحد منهم فى مكتب عضو من أعضاء القيادة، ثم توسعت شبكة الجاسوسية على أعضاء مجلس القيادة فضم إليها عبد الناصر جواسيس آخرين يراقبون حياة زملائه الخاصة.

وقد تجمع لدى عبد الناصر فى السنة الأولى مئات التقارير عن جميع حركات وتصرفات زملائه. وقد أفاد منها فائدة كبرى فى إخضاع هؤلاء الزملاء لسلطانه، فكان يشهر ماتحويه تلك التقارير من تصرفات غير كريمة فى وجه العضو الذى تبدو منه أية بادرة لمعارضته. وساعده على ذلك أن حياته الخاصة كانت خالية من الفضائح والمغامرات لتحفظه فى حياته الاجتماعية الخاصة.

ومن القصص التى رواها لى وتأكدت من صحتها قصة عن أحد أعضاء مجلس القيادة (الثورة) الذى زار أحد الباشوات فى مدينة الإسكندرية، وكان قد أشيع عن هذا الباشا أنه سيقدم إلى إحدى محاكم الغدر بتهمة التلاعب فى الماضى بسوق القطن. وذكر عبد الناصر القصة مستهجناً زيارة عضو مجلس القيادة لشخص متهم. وذكر لى التفاصيل الكاملة لما حدث فى تلك السهرة؛ حتى الكلمات التى تبادلها زميله مع إحدى السيدات بعد أن لعبت برأسه الخمر، تلك الكلمات التى ضايقت السيدة فدفعتها إلى قذف الويسكى الذى كان فى كأسها فى وجهه.

وقد تحريت هذه الواقعة فعلمت أن هذه السهرة لم يحضرها من الضباط سوى عضو مجلس القيادة سالف الذكر؛ الأمر الذى جعلنى أفهم أن عبد الناصر لايقتصر فى تجسسه على زملائه من أعضاء مجلس القيادة على الضباط فقط بل يستعمل فى ذلك المدنيين أيضاً وخصوصاً السيدات.

وجمال عبد الناصر لايكتفى بتطبيق هذه القواعد على الأمور الداخلية بل إنه ليستغل الحياة الخاصة لأعضاء البعثات الدبلوماسية فى تحقيق أغراضه إلى أقصى حد. وللأسف فإن بعض الدول لاتدقق تدقيقاً واجبا فى اختيار أعضاء بعثاتها الدبلوماسية خصوصاً رؤساء هذه البعثات؛ فقد حدث أن كان على رأس بعثتين دبلوماسيتين لدولتين من أكبر دول الغرب سفيران مصابان بالشذوذ الجنسى. وقد حدث بالنسبة لأحد السفيرين الذى لم يكن كزميله مشهوراً بهذا الداء، حدث أن اكتشفت إدارة المخابرات أن هذا السفير يستأجر شقة خاصة لممارسة الشذوذ فيها.

وبينما كان السفير يمارس شذوذه فى هذه الشقة إذا ببوليس الآداب يداهم الشقة ويقبض على من فيها. وقد حرص البوليس على أن لايشعر السفير بأنه قد اكتشف شخصيته بل قاده إلى مركز البوليس هو ومن معه على اعتبار أنهما قد استأجرا شقة لأغراض مخلة بالآداب العامة. وحول السفير بادىء الأمر أن يخفى شخصيته ولكن بعد أن فتح ضابط البوليس المحضر للتحقيق أحس السفير بأنه لامفر من الفضيحة، وأبدى ضابط البوليس المحقق بادىء الأمر شكه فى ادعاء السفير بأنه سفير لدولة كبرى. وبعد أن أثبت الرجل حقيقة ماادعاه بادر الضابط إلى الاعتذار وقفل المحضر وأطلق سراح السفير.

وفى اليوم التالى وصل إلى السفير محضر التحقيق مع اعتذار الحكومة عما قام به البوليس. وبطبيعة الحال أخذت الحكومة صوراً لهذا المحضر قبل إرساله إلى السفير. وكان من نتائج ذلك أن تقارير هذا السفير وزميله الآخر المشهور بشذوذه الجنسى تحمل لحكومتيهما كل مايماشى رغبات عبد الناصر».

* * *

الفصل الثالث

تكتيك جديد

إن وقوف أصحاب الدعوات أمام المفاجآت ــ التى لم تكن فى حسبانهم ــ مشدوهين جامدين هو نوع من الغفلة والبله.. لابد لهم من أن يتصرفوا ويغيروا من خططهم تواؤماً مع هذه المفاجآت.. ولا أقصد من هذا أن يتناول التغيير مبادئهم ولا أهدافهم، وإنما أقصد أن يكون التغيير فى وسائلهم وأسلوبهم.

فإذا وضعت خطتك للقاء عدوك فى ساحة القتال ومعلوماتك عنه أنه غير كامل العدة والعتاد، ثم تبين لك فى آخر لحظة قبل اللقاء خطأ معلوماتك عنه وأنه كامل العدة والعتاد؛ فمن الخطأ الفادح أن تتمسك بخطتك دون تعديل..

وهذا هو ماألهمته بعد أن أفقت من صدمة المفاجأة؛ فلقد كنت معداً نفسى على أساس أنى سأتحدث من موقع القوة إلى قوم هم فى رهبة منى لأنهم لايعرفون ماورائى ــ ولكننى فوجئت بأن أدق أسرارى عندهم.. فعلىّ إذن أن أغير أسلوب حديثى معهم.

وقد فعلت.. إذ قلت لهما: دعونا نتكلم فيما جئنا من أجله. إنى رأيت الخلاف بيننا وبينكم قد تفاقم أمره مع أننا جميعاً إخوة، وقد علمت أنكم تتهمون لجنة الاتصال التى بيننا وبينكم بأنها مغرضة وليست أمينة على نقل مايقال فى الاتصالات. ولما كنت حريصاً على أن لايأخذ الاختلاف هذا الوضع الخطير، فقد رأيت أن أقوم أنا بهذا الدور؛ آملاً أن أوفق فيما لم يوفق فيه غيرى، وأنا ليس لى من هدف شخصى كما تعلمون.. فما رأيكم؟

قال الرجلان: إننا نرحب بكل مايقرب بين وجهات النظر.

قلت: أما وقد وافقتما على هذا المبدأ، وعلى أن أقوم بهذه الوساطة، فالخطوة التالية هى أن أعرض عليكم مذكرة أعددتها ولكنى آثرت قبل أن أعرضها عليكم أن أعرف مدى استعدادكم للتفاهم.. فإلى موعد آخر قريب إن شاء الله فى بيت الأخ الحاج محمد جوده.

المذكرة:

لم أكن أعددت مذكرة كما ذكرت، وإنما هي إحدى الأفكار التي نشأت في خاطري حين أفقت من المباغتة التي واجهني بها الضابطان، وكان عليّ إذن أن أعد هذه المذكرة في أقرب وقت. فذهبت إلى المركز العام؛ الذي كان في ذلك الوقت شبه مهجور؛.. فكل حجراته خالية ما عدا الحجرة التي يجلس فيها الدكتور خميس والإخوة المسمون «بمجموعة الروضه». . وعكفت في إحدى حجراته على كتابة المذكرة.

وقد شغلت المذكرة نحو ثلاث صفحات من الفولسكاب، وكانت على صورة خطاب موجه مني إلى الأستاذ المرشد العام. ولم تكن هذه المذكرة متعددة الصور بل كانت من صورة واحدة؛ ولذا فإنها فقدت أو أحرقت ضمن ماعبث بإحراقه مأجورو جمال عبد الناصر فيما بعد بالمركز العام— ومع طول المدة التي كانت كفيلة بإنسائي ماكتبته بها، إلا أنها كانت ذات أهمية خاصة عندي فعلق في خاطري مابنيت عليه من أفكار.. وتدور هذه الأفكار على النحو الآتي:

بدأتها بالتنوية برباط الأخوة الإسلامية الذي يربط بين رجال الثورة وبين الإخوان المسلمين، ثم أشرت إلى دخول شياطين الإنس والجن بين الطائفتين؛ مما نشأ عنه اختلافات بدأت صغيرة، وأخذت في الكبر حتى تفاقمت، وكادت تنذر بشر مستطير. ولا أعفى طائفة من الطائفتين من ملام على انسياقها لداعي التباعد وتوسيع شقة الخلاف؛ حتى وصل الأمر إلى حد لايليق أن يصل إليه طائفتان من المسلمين؛ فإحداهما استباحت إلصاق التهم بالأخرى وعاملتها معاملة العدو، والأخرى رمت أختها بالكفر لأنها نكلت عن الحكم بكتاب الله وما يستتبع ذلك من استباحة الدم.

ثم قلت: إنني أرى أن الانسياق مع داعي الخلاف قد خرج بكلتا الطائفتين عن الجادة، وعلى كل منهما أن تعيد النظر في موقفها وفي حكمها على الأخرى، لتصل إلى حكم صحيح غير ناشيء عن ثورة الغضب. فعلى الإخوان أن ينظروا إلى رجال الثورة على أنهم إخوان لهم ﴿**خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم**﴾.. وسردت الأعمال الطيبة التي قاموا بها من الإفراج عن الإخوان المسجونين، وإعادة التحقيق في قضية اغتيال الإمام، وعزمهم على إقامة السد العالي وغيرها مما لاأذكره الآن— وقلت إنهم لم يرفضوا الحكم بكتاب الله صراحة؛ ومثل هؤلاء لاينبغي رميهم بالكفر، وهناك مندوحة ..

ثم نعيت على الطرف الآخر إلصاق التهم بالإخوان واعتبارهم أعداءً يُنالون بما ينال به الأعداء، وقلت: إن على رجال الثورة أن لايستجيبوا لدواعي الغضب فينسوا أن الإخوان هم الذين تحملوا ماتحملوا في سبيل التمهيد لقيام هذه الثورة، وهم الذين آزروها ووقفوا

بجانبها، وهم وحدهم الذين يستطيعون أن يبثوا روح الإيمان والجهاد فى نفوس هذه الأمة، وهو مالا غنى عنه لثورة تريد أن تنقذ هذه البلاد من وهدتها.

ثم قلت: إننى أرى أن يراجع كل طرف من الطرفين نفسه، وينظر إلى الآخر النظرة التى صورتها متجرداً من سورة الغضب وهياج الانفعال. ثم نبحث عن طريقة للتقريب بين الطائفتين وإصلاح ذات بينهما.

واقترحت لذلك الإعداد لاجتماع بين الطرفين لايكون فى المركز العام ولا فى دار من دور الحكومة، بل يكون فى مكان يرضاه الطرفان. ورشحت لذلك منزل الأخ الحاج محمد جوده على سبيل المثال — على أن يحضر هذا الاجتماع ممثلون عن الإخوان المسلمين لامن القاهرة وحدها ولكن من جميع محافظات القطر، واقترحت أن يمثل كل محافظة اثنان من الإخوان — يجتمع هؤلاء الإخوان بالبكباشى جمال عبد الناصر ومعه من يشاء من رجاله.. ويقوم كل طرف بعرض وجهة نظره — ويتناقش الطرفان فى جو من التفاهم والرغبة فى الوصول إلى نقطة التقاء.. وبذلك لايدعى أحد الطرفين أن رسل الطرف الآخر أساءت فهم ماصدر عنه أو حرفت فى نقله بحسن نية أو بسوء نية.. وبذلك نقطع الشك باليقين، ونكون قد وضعنا ممثلى الطرفين وجهاً لوجه.. والوصول إلى نتيجة طيبة شىء مأمول بإذن الله.

أضواء على المذكرة:

هذا هو ملخص ماجاء فى هذه المذكرة، ويحسن أن ألقى بعض الضوء على ظروف أحاطت بهذه المذكرة أوجزها فيما يلى:

١ — كان صدور هذه المذكرة منى شيئاً مفاجئاً للجميع، أما مفاجأته للطرف الآخر أى رجال الثورة فقد أومأت إلى ماصدر منهم من عبارات التعجب والدهشة لاللمذكرة فحسب بل لمجرد تعرضى للوساطة.. وقد وضحت الظروف المؤلمة التى رأيتها فى المركز العام بعد رجوعى من قنا، مع اختفاء المرشد العام خشية اغتياله — وأما مفاجأته لطرفنا نحن الإخوان فكانت أشد.. لأننى كنت دائماً أنأى بنفسى عن الاتصال بالطرف الآخر لعدم ثقتى فيه.

٢ — كان الإخوان لاسيما إخوان الأقاليم فى موقف لايحسدون عليه؛ فقد وقعوا تحت تأثير شحن متواصل لاينقطع من جميع الجهات؛ فالحملة الصحفية المضللة المستفزة تحملها الصحف وتنقلها الإذاعة كل صباح ومساء إلى أعينهم وأسماعهم؛ فتلتهب لها صدورهم، وتشتعل مشاعرهم ثم يذكى هذه النار ويؤججها مايصدر عن المرشد العام من مخبئة بين يوم وآخر من منشورات

لاهبة.

٣ — لمست الأسلوب النارى الذى يصدر به المرشد العام منشوراته .أنه يصدرها بإحساس الذى يشعر أنه فى موقع قوة.. وهو ماكنت أنا شخصياً أعتقد أنه موقفنا جميعاً نحن الإخوان قبل أن تتكشف لى الحقيقة المرة عند لقائى بالضابطين — وقد وجدت لزاماً علىّ أن أتصل بالأستاذ المرشد لإحاطته علماً بهذه الحقيقة.. فطلبت من الإخوة «مجموعة الروضة» أن يسهلوا لى مهمة الوصول إلى المرشد فى مخبئه لإحاطته علماً بتطورات هى غاية فى الخطورة تتصل بسر بينى وبينه؛ فكان ردهم علىّ رداً لم أكن أتوقعه من مثلهم لمثلى، وهم يعلمون مدى ماأدين به من إخلاص للدعوة ولقائدها. ولكنهم كانوا يتصورون فى ذلك الوقت أن مجرد اتصال أخ أياً كان بالطرف الآخر — بعد انقطاع الاتصال الذى أشرت إليه — يعد انحرافاً بل خروجاً على الدعوة وقيادتها.. ولذا فإننى مع شدة تأثرى من ردهم علىّ بإنكارهم معرفة مكان المرشد؛ فإننى التمست لهم العذر لأنهم لايعلمون ماأعلم.. ولولا بقية ثقة منهم فىّ لرمونى بما كانوا يرمون به أى أخ غيرى من الخروج على الدعوة والقيادة.

٤ — من العجيب أن الدكتور خميس — وهو نائب المرشد العام — لم يكن يعرف مكان المرشد. وقد طلبت منه قبل أن أطلب من إخوة الروضة أن يصلنى بالمرشد فأقسم لى أنه لايعرف مكانه. ولم يكن رده مفاجأة لى بل كنت أتوقعه؛ فقد سبق أن ذكرت أنه حين كان مفوضاً فى الاتصال بجمال عبد الناصر تعهد لجمال بتعهدات خذله فيها الإخوان.

ومع ذلك فقد ظل الرجل مرابطاً بدار المركز العام ليل نهار تاركاً بلده — المنصورة — وأسرته ومصدر رزقه — صيدليته — على أمل أن يستطيع أداء خدمة لدعوته وإخوانه فى أحرج الأوقات وأعقد الظروف.

٥ — سلمت المذكرة التى أعددتها للدكتور خميس باعتباره نائب المرشد وطلبت إليه أن يقرأها ويبدى لى رأيه فيها، كما طلبت إليه أن يطلع عليها الإخوة «الروضيين» باعتبارهم المسئولين الفعليين عن الدعوة فى غياب المرشد. وقد فعل وقال لى إنه يؤيد كل ماجاء فيها. فطلبت إليه عرضها على أعضاء الهيئة التأسيسية فى جلسة الهيئة المقرر عقدها فى ٢٤ سبتمبر ١٩٥٤ والتى ستنعقد بعد أيام قلائل.

لقاء عاصف مع حبيب:

٦ — فى صبيحة اليوم التالى حضر إلى المركز العام — حيث كنت أقضى أكثر وقتى

فيه — الأخ الأستاذ عبد القادر عوده.. وكانت تربطنى به غير الأخوة العامة صداقة وحب متبادل.. وبعد أن صافحنى طلب إلىّ أن نجلس معاً جلسة على انفراد، فجلسنا فى إحدى حجر المركز العام التى كانت كلها خالية وأغلقنا علينا الباب.. ثم سألنى عن الدافع الذى دفعنى إلى كتابة هذه المذكرة، فقلت له إن الذى دفعنى إلى ذلك هو الآتى:

أولاً: انتقالنا من مركز القوة إلى مركز الضعف بتضييعنا الفرصة بعد خروجنا من المعتقل فى مارس ١٩٥٤، حيث أضعنا الوقت فى تبادل التهانى بخروجنا منتصرين حيث استطاع جمال عبد الناصر أن ينتهز هذه الفرصة ويعد مظاهرات الحكومة — سواء بالرشوة أو غيرها — مما أحبط كل الجهود، وقضى على كل الآمال؛ فقد أمكنه بذلك تبادل المواقف؛ فاحتل موقعنا الذى هو مركز القوة، ونقلنا إلى موقعه الذى كان مركز الضعف — وبذلك انتقلنا منذ ذلك اليوم من موقف المهاجم إلى موقف المدافع.

وهذا التغير الذى طرأ على موقعنا هو وحده كان يقتضى أن نغير فى أسلوب تعاملنا مع الطرف الآخر، والتغيير فى الأسلوب لايمس أفكارنا ولا أهدافنا، ولكنه يتيح لهذه الأهداف وهذه الأفكار الفرصة.

ثانياً: أن استمرار شحن الإخوان عن طريق منشورات المرشد الملتهبة — وهو بعيد عن مجريات الأحداث — وعن طريق حملات الاستفزاز التى تطفح بها جميع الصحف كل يوم لابد أن ينتهى بكارثة — فى الوقت الذى أرى فيه المركز العام خالياً من الإخوان؛ فالمرشد غائب خشية أن يغتال، وصفوة الإخوان بين معتقل وهارب من السلطة.. هذا وضع لاينبغى السكوت عليه، ولا تركه يزداد كل يوم تفاقماً دون وضع حد له يتيح لهذه الجموع الضخمة اللاهثة من الإخوان أن تتنفس بحرية، وتدرس الموقف دراسة متأنية مستبصرة، قبل أن تقدم على معركة لايقدّر أحد مدى ماتنتهى إليه، ولا ماتتمخض عنه — لاسيما إخوان الأقاليم الذين لايعرفون الكثير مما يعرفه إخوان القاهرة من ظروف وتطورات.

ثالثاً: أن التقائى بالضابطين الطحاوى وطعيمة كشف لى عن حقيقة ماكنت أتصورها هى أن أدق أسرارنا عندهم بتفاصيلها؛ فلقد واجهانى بأسرار خطيرة تتصل بى شخصياً لايعرفها إلا المرشد، وأنهم متمكنون منا تمكناً يلزمنا أن نعيد النظر فى جميع خططنا. ولن نستطيع ذلك إلا إذا عملنا على

إيجاد فرصة نتخلص فى خلالها من حالة التشنج والثورة العصبية التى صرنا فريسة لها.. وهذا هو ماأسعى إليه.

فلما أنهيت كلامى اتجه إلىّ الأخ الأستاذ عبد القادر وقال لى: أطمئنك بأننا لسنا فى مركز ضعف، بل إننا فى مركز قوة وهم فى مركز ضعف، وستظهر الأيام ذلك إن شاء الله، وسيعلمون أن الإخوان قوة لاتقاوم.. وعلى ذلك فلا داعى لهذه المذكرة التى تطلب عرضها على الهيئة التأسيسية ولا لهذه الجهود التى تبذلها.

فقلت له: ياأخى عبد القادر.. أنت صادق فيما تطمئننى به مما يعده الإخوان من قوة، وأنا لاأجهل ماتشير إليه من هذه القوة.. ولكن الجديد فى الأمر أننى اكتشفت أن القوم ـــ بكل الوسائل التى أتيحت لهم من خزائن الدولة، وولاء بعض إخوان لهم، ووسائل التسمع الحديثة ـــ استطاعوا أن يعرفوا أسرارنا مما يتصل بهذه القوة؛ فلا ينبغى لنا بعد ذلك أن نتعامى عن هذه الحقيقة المرة، ونكون كالنعامة التى تظن حين تدفن رأسها فى الرمال فلا ترى الصائد أن الصائد لايراها.. أنا لاأطالب بأكثر من أن نعطى لأنفسنا فرصة نتنفس فيها الصعداء، ونعيد فيها ترتيب بيتنا.

لما يئس الأخ عبد القادر رحمه الله من استجابتى لأسلوب المناقشة والإقناع، لجأ إلى أسلوب آخر كريم؛ فهو يعرف مكانته فى نفسى ومدى مايربطنى به من صداقة وحب فقال لى:

من أجل خاطرى، وبحق مابينى وبينك من أخوة وحب وصداقة أستحلفك بالله إلا عدلت عن هذه المذكرة وعن جهود الوساطة التى تقوم بها؛ فإن هذه المذكرة ستعوق حطة الإخوان، وستكون عقبة فى طريقها.. ثم قال كلمة أبكتنى هى قوله: إننى على استعداد أن أقبل قدمك..

ولقد أدت هذه الكلمات الأخيرة إلى انفجارى قائلاً:

ياأخى عبد القادر.. أنت أعز علىّ من هذا الذى تقول، وآثر عندى من أن ألجئك إلى هذا الأسلوب إن الموضوع الذى نعالجه ليس موضوعاً شخصياً حتى ترجونى فيه. إنه موضوع يتعلق بألوف الإخوان فى الأقاليم. إنه يتعلق بألوف الأسر والنساء والأطفال.. إنه يتعلق بدماء هؤلاء الألوف التى ستهدر دون ترو ولا تبصر ودون إحكام خطط.. إن دماء هؤلاء أمانة فى أعناقنا نحن الذين اختارونا قادة لهم، يتلقون منا دون مناقشة ولا مراجعة.. فمن حقهم علينا أن نطلعهم على ماعندنا، وأن نظهرهم على ماجد مما كشفته لنا الظروف. أو على الأقل أن لانخاطر بدمائهم مادام قد جد من الأمور مايلقى على خططنا ولو بظلال باهتة من الشك ـــ لأن هذه الدماء أعز من أن تهدر دون أن تكون على

بينة من الأمر لايخالطها شائبة من شك.

ياأخي عبد القادر .. إنني كنت حريصاً على لقاء الأستاذ المرشد فى مخبئه لأطلعه على ماعندى وأنا موقن أن الرجل ــ بثقته فىّ وبما أعرضه عليه من ظروف كشفتها تتصل بأسرار بينى وبينه ــ سيغير من خطته كما عودنى؛ لأنه ليس بالرجل المستبد ــ ولكن الإخوة الذين يستطيعون ذلك حالوا بينى وبين لقائه.. فلا أقل من أن أعرض رأيى على الهيئة التأسيسية فى أقرب اجتماع لها، حتى أكون قد أرضيت ضميرى، وأعذرت إلى الله، وبرئت من أبرياء ستهدر دماؤهم.

وأقسم لك بالله ياأخي عبد القادر إننى لن أتراجع عن تقديم هذه المذكرة، ولا عن مواصلة وساطتى؛ ولو كان فى ذلك سفك دمى .. لأننى إذا لم أفعل فسأظل طول حياتى مؤرق النفس تحت تأنيب ضميرى.

وهنا لم يكن بد من إنهاء الجلسة، وخرج كل منا وهو فى حالة من الثورة النفسية تكاد تعصف بقلبه.

* * *

وجلست بعد ذلك إلى نفسى ساعة .. حتى هدأت العاصفة النفسية التى استبدت بى. وأخذت فى مراجعة ماكان من أمر هذه الجلسة العاصفة .. وكيف تمت؟.. ولم تمت؟ ومن الذى اختار الأستاذ عبد القادر ورشحه للقيام بهذا الدور معى؟.. ولِمَ اختير هو بالذات دون غيره؟

وقد وضح أمامى أن الإخوة «الروضيين» هم الذين اختاروا الأخ الأستاذ عبد القادر للقيام بهذا الدور. وقد اختاروه دون غيره لما يعرفون من حسن صلتى به أولاً، ولأنه كذلك بعد تحول اتجاهه ــ إثر أحداث شهر مارس ١٩٥٤ ــ كان متوائماً فى أفكاره ــ رحمه الله ــ مع أفكارهم ــ وينبغى هنا أن أعيد ماسبق لى الإشارة إليه من أن الأستاذ عبد القادر رحمه الله كان على علو كعبه فى العلم، وسمو نفسه فى الخلق، وعمق عقيدته فى الإيمان.. كان إذا أحب أفرط فى الحب، وإذا أبغض أفرط فى البغض.. وليس من السهل عليه إلزام نفسه بالموقف الوسط الذى حث عليه الحديث النبوى الشريف «أحبب حبيبك هوناً ما؛ عسى أن يكون بغيضك يوماً ما. وأبغض بغيضك هوناً ما؛ عسى أن يكون حبيبك يوماً ما».

ويجب علىّ أن أقرر هنا قبل أن أغادر هذه النقطة، أننى مع اختلافى فى وجهة النظر فى تلك الأونة فى وسيلة معالجة الموقف الذى كانت تعانيه الدعوة بعد توالى الأحداث

المناوئة لها والمواتية لأعدائها .. مع اختلافى مع الإخوة «الروضيين» فإننى لم أشك لحظة فى إخلاصهم بل فى تفانيهم فى عملهم للدعوة، كما لم يتطرق إلى نفسى أثارة من شك فى ذلك حتى بعد أن تفاقمت الأحداث نتيجة أخذ الإخوان بسياستهم، وبعد أن ضربت الدعوة فى مقاتلها، وبعد أن نصبت المشانق، وسفكت الدماء، ومثل بالجثث .. وقد كانوا هم من أوائل من ذاق هذه المرارات وتجرع هذه الغصص، وعانى أهوال التنكيل.

أما ظنهم بى، واعتقادهم فىّ؛ فمما لا أدريه، ومما لم أكن أحسب له حساباً .. فلقد عاصرت هذه الدعوة منذ لم تكن شيئاً مذكوراً .. وعملت لها فى ذلك العهد كما عملت لها بعد أن صارت أعلى الهيئات صوتاً .. وأغلظها ساقاً، وبعد أن صارت مجالاً لذوى الأطماع، ووسيلة للبروز والظهور .. وما راعيت فى عملى لها فى كلتا الحالين غير وجه الله، لا أبغى سواه، ولا أحفل بغيره ممتثلاً أمر الله تعالى **﴿قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾**.

ولو كان التماس رضا المخلوقين يشغل خاطرى، أو هو شيئاً من أهدافى؛ لكان سكوتى على الأقل، ومسايرتى لآراء الإخوة «الروضيين» محققاً لذلك كل التحقيق؛ فلقد كنت أعلم أن رأيهم هو رأى الإخوان لاسيما إخوان الأقاليم وهم الأكثرية ــ ولكننى والحمد لله لم يكن يعنينى رضاهم عنى، ولا غضبهم منى هم أو سواهم؛ وإنما كان الذى يعنينى هو أن أعمل على حقن دمائهم، وأن أتفادى جرهم إلى حرب غير متكافئة تبين لى أن العدو كاشف أغلظ عوراتهم وهم لا يشعرون.

* * *

الفصل الرابع

هل كان اختفاء المرشد العام فى ذلك الوقت إجراءً سليماً؟

هذا موضوع تجب مناقشته قبل المضى فى سرد ماتوالى من الأحداث. لأن له من الدلالات ومن المقدمات ومن النتائج مالا بد للقارىء أن يلم به حتى ينظر إلى الأحداث التى وقعت فى تلك الحقبة من الزمن نظرة كاملة.

كانت الأحداث تتوالى، وكلها فى غير صالح الإخوان، وكان جمال فى كل يوم يكسب أرضاً على حساب الإخوان؛ بما سيطر عليه من وسائل الإعلام، وسلطة الحكم، وخزائن الدولة. وكان الإخوان يتلقون الضربات الظالمة صابرين، كاظمين غيظاً يكاد شرره يقفز من عيونهم.. ولكن حتى نفذت أمر النقل وسافرت إلى قنا، لم يدر فى خلد أحد من الإخوان أن يختفى المرشد العام.

فلما رجعت من قنا أنبئت بأن الأستاذ المرشد العام مختف لأن الإخوان علموا أن هناك تدبيراً لاغتياله.. ولكن كيف وصل نبأ عزم الحكومة على اغتيال المرشد إلى الإخوان؟

لقد كان الإخوان فى تلك الفترة واقعين تحت تأثير ثورة نفسية عارمة، وتوتر عصبى قد بلغ أقصى حدوده ــ وهو مارتب جمال عبد الناصر خططه بحيث يوقع الإخوان فيه، ويحيطهم به حتى يستطيع بعد ذلك استغلال هذه الحالة فى جر الإخوان إلى اتخاذ مواقف معينة، تزيدهم ارتباكاً، وتفقدهم السيطرة على مقدرات دعوتهم، وتقذف بهم فى صحراء التيه والضياع أو تلقى بهم فى هاوية التخبط والظلام.

وما من شك فى أن وجود المرشد العام بشخصه بين الإخوان هو فى ذاته أقوى عوامل الأمان فى نفوسهم أو هو مايسمونه صمام الأمان. وقلما تتمكن قوة معادية للدعوة مهما توفر لها من وسائل أن تنال من الدعوة نيلا مؤثراً فى وجود شخصية قائدها بين ظهرانيها، وعلى رأس أجهزتها، وفى مركز إدارتها.. ولهذا كان هدف من رأوا فى دعوة

الإخوان خطراً يهدد نفودهم؛ أن يختصروا الطريق فى القضاء عليها بحرمانها من قائدها بأية وسيلة من وسائل الحرمان.

ويخيل إلىّ أن هذه الأفكار دارت فى خلد عبد الناصر، وأنه استعرض وسائل الحرمان التى يستطيعها ــ وإخاله كان يستطيعها جميعا ــ لكنه استبعد وسيلة الاغتيال ــ لاتعففاً ولا نبلاً ــ وإنما لأنه إذ ذاك لم يبرح خاطره بعد كيف اغتالت دولة فاروق المرشد السابق حسن البنا، وكيف استغلت جميع إمكانات الحكومة فى التستر على هذه الجريمة حتى إن سلطات التحقيق والقضاء لم تجد إلى إثباتها دليلاً فنفضت يدها منها.. ولكن ذلك لم يدم طويلاً فقد تطورت الأمور تطوراً كشف ماطمس من معالمها، وأوضح ماكان خافياً من حقائقها.. ووضع القضاء يده على الجناة، وأشار إلى المحرضين عليها حتى يأخذ الحكام الجدد ــ وكان منهم جمال عبد الناصر ــ بتلابيبهم، وأن يصموهم بالخزى والعار.

كل هذا لابد أنه دار فى خلده فاستبعد هذه الوسيلة، وبحث عن وسيلة أخرى.. فكانت الوسيلة أن يعمل على أن يحجب شخص المرشد عن الإخوان بطريقة طواعية بحيث تبدو وكأن المرشد نفسه هو الذى احتجب، وهو الذى قرر الاحتجاب.. ولا أعتقد أن عبد الناصر قد تحمل كبير عناء فى تحقيق هدفه هذا؛ فالحالة التوترية التى أوجدها فى أعصاب الإخوان لم تكن فى حاجة ــ لإتمام تحقيق ذلك ــ إلى أكثر من بث شائعة فى أوساط الإخوان المحيطين بالمرشد بأن الحكومة عازمة على اغتياله.. فسارع هؤلاء الإخوة إلى إخفائه بعيداً عن متناول الحكومة وبالتالى عن أوساط الإخوان.

ومن المعروف أن شخصاً ماإذا قرر اغتيال عدو له؛ فإنه لايكتفى بتجنب التنويه بعزمه هذا، بل إنه يتظاهر بنسيان العداء، ويتقرب إلى عدوه بعبارات الود؛ أملاً أن تتم الجريمة فى يسر وشُبَهُ الاتهام بعيدة عنه منصرفة إلى غيره.

وأنا لاأبرىء نفسى بهذا التحليل من أننى كنت كغيرى من الإخوان واقعاً تحت نفس التأثير التوترى العصبى، وأننى لم أكن أرى فى اختفاء المرشد العام مايعد خلاف الأولى؛ لأن أى بشر تستهدفه حملة استفزازية مسعورة كتلك التى سلطها جمال عبد الناصر فى تلك الآونة على الإخوان.. لايملك إلا أن يقع فريسة لها، وأن تكون استجاباته فى التفكير والتصرف فى حدود ماتمليه حالته العصبية.

* * *

ولكن هدفى من هذا التحليل هو أن أوضح مدى ارتباط تصرفات وقعت فى ظل هذا الاختفاء، حتى يكون الحكم عليها حكماً أقرب إلى الصواب، وأدنى إلى العدل، وأدخل فى نطاق النتائج منها فى حدود التصرفات القائمة بذاتها.

وأضرب لذلك مثلاً؛ مااتخذته شخصياً من خطوات بعد رجوعى من قنا، تحدثت عن بعضها وسأتحدث إن شاء الله عن البعض التالى لها.. فالذى أملى علىّ اتخاذ هذه الخطوات أننى لم أجد أمامى المرشد العام لأتحدث إليه، وأتبادل معه الرأى، وأفضى إليه بكشف الطرف الآخر للسر الذى لم يكن يعلمه بعد الله سواى وسواه— وأعتقد لو أن الحديث جرى بينى وبينه لتغير وجه التاريخ، ولسارت الأمور فى مجرى غير الذى جرت فيه، ولحقنت دماء، ولتجنبت البلاد ويلات لايعلم إلا الله متى تخرج منها.. ولكن عدم وجود المرشد العام ألزمنى أن أتابع طريقاً هو— فى الوقت الذى رأيته هو الأسلم للدعوة— رآه غيرى غير ذلك، وظن أن تصرفى إنما أملاه خوف ألم بى أو فزع خلع قلبى.. وهذا الغير بلا شك معذور فيما يرى وفيما يظن؛ فإن الشخص الوحيد فى الدعوة المحيط بكل جوانبها، والذى تلتقى فى نفسه أفكار كل ذى فكر، والذى تجتمع كل أسرار الدعوة عنده هو المرشد العام.. ولذا فإن التفاهم معه هو التفاهم المجدى والمثمر.. أما من سواه من الإخوان؛ فتغيب كثير من زوايا الدعوة وأسرارها عن خاطره، فلا يكون التفاهم معه سهلا ولا مثمرا.. ولعل هذا هو ماهدف إليه جمال عبد الناصر من حجب المرشد العام عن الإخوان.

والمثل الآخر الذى أضربه، أو قل هو إحدى أخطر نتائج اختفاء المرشد العام فى ذلك الوقت أن هذا الاختفاء مع توالى الأحداث وتفاقمها، جعل تقييم هذه الأحداث خاضعاً لتقدير شخصى؛ مما كان سبباً فى تشتت أفكار الإخوان وتشعب آرائهم، مما أفضى إلى إشاعة الفرقة والانقسام بينهم— وكان الذى يحسم هذا دائماً هو وجود المرشد العام بينهم؛ تمر عليه الأحداث كما تمر عليهم، ويحس بآثارها كما يحسون.. وبمناقشته كل ذى وجهة نظر منهم تجتمع عنده كل الآراء؛ فيصل فى نهاية الأمر إلى قرار مبنى على إحاطة كاملة يخضع له الجميع غير راغمين ولا متحرجين.

* * *

كما أن غياب المرشد العام عن موقع الأحداث مع ظهور منشورات صادرة منه بين الفنية والفينة عن طريق غير شرعى— والطريق الشرعى أن تكون عن طريق نائب المرشد— جعل بعض الإخوان يتشككون فى هذه المنشورات، كما هز إيمانهم وضعضع ثقتهم بكفاءة البناء الإخوانى، وجعل الكثيرين منهم يتهامسون لم هذا التخطى؟ وما المقصود منه؟ وما الداعى إليه؟.. وهل توجيهات المرشد العام التى تتضمنها المنشورات الصادرة عنه صدرت عن إحاطة بكل الظروف والملابسات أم صدرت عنه بناء على ماوصل إليه عن طريق الفئة التى تتصل به فى مخبئه وحدها؟.. فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه التوجيهات لم تبن على إحاطة كاملة؛ فهى إذن توضع موضع المناقشة وهى غير ملزمة.

ونتائج احتجاب المرشد العام فى ذلك الوقت كانت كثيرة وخطيرة، وتعدت فى خطورتها ماذكرنا من أمثلة مما يأتى إن شاء الله فى سياق الحديث ــ وقد قصدت من ذكر بعض الأمثلة هنا أن أقرر أن الأمر الواقع الذى حدث من اختفاء الأستاذ المرشد كان سببا فى وقوع تصرفات، واتخاذ أوضاع، بل واقتراف أخطاء فى صفوف الإخوان لم يكن بد من قوعها؛ وأن النظر إلى هذه التصرفات والأوضاع والأخطاء نظرة مجردة هو بمثابة الاقتصار على نظر إلى رد الفعل دون النظر إلى الفعل الذى أنتجة وأدى إليه.

سؤال آخر:

وبعد ذلك كله نعود إلى السؤال الذى وجهناه فى أول هذا البحث الذى يقول: هل كان اختفاء المرشد العام فى ذلك الوقت إجراءً سليماً؟.. ونقول إن الإجابة على هذا السؤال قد وردت فى سياق ماذكرنا تحت هذا العنوان.

ولكن ــ إحقاقاً للحق، وإنصافاً للتاريخ ــ يجب أن نلحق هذا السؤال بسؤال آخر يقول: هل كانت هناك مندوحة لتفادى هذا الإجراء الذى وقع؟

والإجابة على هذا السؤال يقررها الجو النفسى الذى أحاط بهذا الإجراء ــ فالذين حضروا هذه الملحمة، وعاشوا فى جوها، واكتووا بنارها، يقررون أن هذا الذى حدث إنما كان خطأ لابد منه وتجاوزاً لامعدى عنه.

وقد يقول قائل اليوم إنه كان على المرشد أن يثبت فى مكانه ليقارع الأحداث وهو بين إخوانه مهما طاردته أساليب التهديد، حتى ولو بلغ التهديد مبلغ التنفيذ ــ فإن اغتياله وسط إخوانه كان سيجنب الدعوة كثيراً مما أصابها فيما بعد.. قد يقول اليوم قائل هذا الكلام؛ ولكن قوله هذا مبنى على علم بما وقع فعلاً بعد الاختفاء من أحداث، وما حاق بالدعوة فعلاً وبالبلاد من ويلات؛ مما لم يكن المرشد العام ولا أحد من الإخوان ولا أحد أيا كان يعلم أنه سيحدث «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء» ومن هنا جاء قول رسول الله ﷺ «من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد».

وعلى ضوء هذا التفصيل الحكيم ينبغى أن يكون نظرنا إلى ماكان من إجراءات وتصرفات وقعت فى تلك الظروف.. وهى نصيحة أقدمها إلى كل من أراد أن يقيِّم أحداث تلك الفترة وما وقع فيها من تصرفات ليصدر حكما عليها.

* * *

الباب الثالث عشر

خطوات عملية للإنقاذ

الـفصل الأول : حشد إخوانى يتبنى المذكرة

الفصل الثانى : إجتماع تاريخى جلسة طويلة مع عبدالناصر فى منزله

الفصل الأول

حشد إخوانى يتبنى المذكرة

حاولت مع الإخوة «الروضيين» أن يوصلوا هذه المذكرة إلى الأستاذ المرشد فى مخبئه؛ ولكنهم أصروا على ماأعلنونى به من قبل من أنهم لايعرفون مكانه.

أخذ نبأ المذكرة يطرق أسماع عدد من قادة الدعوة فى القاهرة، وأعطيت المذكرة للأخ الحاج محمد جودة ليسلمها إلى السيدين الطحاوى وطعيمة لعرضها على جمال عبد الناصر لإبداء رأيه فى الاقتراح الذى تضمنته؛ على أن نلتقى فى مساء اليوم بهما فى بيته أى فى بيت الأخ جودة.

ذهبت مساء ذلك اليوم إلى منزل الأخ الحاج محمد جوده بالموسكى، فوجدت فى انتظارى به مجموعة من قادة الدعوة فى القاهرة تبلغ نحو الأربعين بعضهم أعضاء بمكتب الإرشاد والباقون من أعضاء الهيئة التأسيسية ــ وهذه المجموعة فيما أرى تمثل أعلى المستويات فى الدعوة ثقافة وعلماً وفكراً وتاريخاً وسابقة فيها، كما أنها ــ بحكم وجودها الدائم فى القاهرة ــ أكثر الإخوان القياديين اتصالا بالأحداث، وأدقهم فهماً لها، وأشدهم إحساساً بوقعها، وألمسهم لآثارها، وأوسعهم إحاطة بظروفها، وأحسنهم تقديراً لقيمتها.. ولا أرى داعياً لذكر أسمائهم، وحسبى أن أذكر أن منهم من كان أستاذاً لى فى أيام الطلب، وسيأتى فى سياق الحديث إن شاء الله أسماء بعضهم مما يستطيع القارىء أن يرى فى ضوئه قدر هذا المستوى الذى وصفت.

كان لقاءً رائعاً أن ألتقى بهذا العدد الكبير من عيون الدعوة وأئمتها فى هذا البيت الرحب الفسيح الذى كانت الحجرة الواحدة منه تتسع لضعف هذا العدد جلوساً على أرائكها الدائرة مع جدرانها الأربعة والملتصقة بهذه الجدران من الطراز الفاره القديم.. فكان لهذا اللقاء حلاوة مسحت من حلوقنا ــ ولو إلى حين ــ ماتجرعناه من مرارة طيلة شهرين كاملين..

تعانقنا طويلا، وبث كل لكل شوقه وحزنه وآلامه.. وأخبرنى هؤلاء الإخوة أنهم لما سمعوا بنبأ تعرضى لمحاولة الإصلاح هشوا لهذا النبأ لأنه جاء فى أحرج الأوقات، وفى

موقف كادت فيه السماء تنقض على الأرض بعد أن أظلمت وأبرقت وأرعدت، ولزم كل داره.. ثم جئنا للقائك لتسمعنا نص ماحوته مذكرتك لنناقشها ثم نصل بعد ذلك إلى قرار؛ لعله ينقذ الدعوة مما هو محيط بها من أخطار؛ نتيجة البلبلة والتشتت الذى نعيشه لاسيما بعد غياب المرشد العام.

وأحب أن أنبه هنا قبل أن أسترسل فى الحديث إلى أن الدافع الحقيقى الذى دفعنى إلى انتهاج طريق الإصلاح هذا، قد احتفظت به لنفسى، ولم أبح به لإخوانى هؤلاء ولا لغيرهم، وظل ذلك حبيس أحناء ضلوعى حتى بحت به لهذه المذكرات؛ لأن هذا الدافع كان سراً بينى وبين المرشد العام لم يكن من حق أحد سواه أن أطلعه عليه أو أبوح له به.. ولقد شاءت الظروف منذ ذلك الحين أن لاتجمعنى به رحمه الله إلا فى مواقف المصائب والأهوال؛ حيث لامجال حتى لمجرد التقاء النظر بالنظر ولو من بعيد.

* * *

اقتراح بخلع المرشد:

وحضر الضابطان الطحاوى وطعيمة، وأخبرانا بأنهما أطلعا جمال عبد الناصر على المذكرة، فقرأها ووافق على ماجاء بها موافقة مبدئية، على أن يلتقى غداً صباحاً فى منزله بوفد يمثل الإخوان للتباحث معه فى هذا الموضوع.

وقرأت المذكرة على الاجتماع فنالت منهم موافقة إجماعية، وأمضينا معظم الليل فى مناقشات حول الموقف وتقدم بعض الإخوان بمقترحات كان أهمها وأخطرها اقتراح للأخ الأستاذ البهى الخولى بإعلان الإخوان خلع الأستاذ الهضيبى من منصب المرشد العام. وقد استغرقت مناقشة هذا الاقتراح أكثر الوقت وكان الأستاذ البهى جاداً أشد الجد فى عرض اقتراحه هذا، وجمع توقيعات أكبر عدد من إخوان الهيئة التأسيسية بالموافقة عليه، حتى إنه بعد أن طالت المناقشة فى شأن اقتراحه، طلب إلىّ أن ننتحى معاً ناحية فى حجرة أخرى، وطلب إلىّ التوقيع بعد أن شرح لى وجهة نظره؛ وهى تتلخص فى أنه يرى أن الأحداث تتفاقم يوماً بعد يوم، وقد بلغت جداً لم يعد فى طاقة الإخوان تحمله، وأن كيان الدعوة أضحى فى خطر لاسيما بعد اختفاء المرشد العام ــ الذى يعده الأستاذ البهى هروباً من المسئولية، ودليلاً على أن الأحداث قد وصلت فى تفاقمها إلى الحد الذى لايستطيع هو شخصياً (يقصد المرشد) الثبات أمامها.. ويقول الأستاذ البهى إن المسئول عن وصول الحالة إلى هذا الحد هو الأستاذ المرشد.. وإذا كنا نريد إنقاذ الإخوان مما ينتظرهم من أهوال فعلينا أن ننحى المرشد العام لننهج نهجاً جديداً..

كانت هذه وجهة نظر الأستاذ البهى ــ وهو من الأشخاص القلائل فى دعوة الإخوان

الذين تربطنى بهم صلات خاصة من الحب والاحترام منذ جمع الأستاذ الإمام بينى وبينه وآخى بيننا، وكان إذ ذاك مدرساً بمعهد طنطا الدينى ومقيماً بها، وكنت وإياه منذ ذلك العهد على وئام دائم فى الرأى، يأنس كل منا إلى صاحبه ويفضى إليه بما فى نفسه، ويلجأ إليه فيما يعترضه من عقبات ــ وأظننى قد أشرت فى فصول سابقة إلى ماقمت به من تقريب بينه وبين الأستاذ الهضيبى فى وجهات نظر قد تباعدت حتى أدت إلى جفوة بينهما.. وهكذا كنا معاً يداً واحدة، وقلباً واحداً..

ومثل الأستاذ البهى لاتحوم حوله أثارة من شك حول حسن نيته وبراءة قصده.. ولم يشب اختلافى معه فى هذا الموضوع ثقتى فيه بأدنى شائبة من الشك؛ وإنما هى وجهات نظر فى محاولة الوصول بالدعوة إلى بر السلام..

قلت له: ياأخى إن تنحية المرشد العام فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة سيكون لها من الأخطار والأضرار مايتضاءل أمامه أشد مانخشاه على الدعوة من أخطار وأضرار.. لأنها ستشقق الإخوان شيعاً وأحزاباً يقاتل بعضها بعضاً حتى يقضوا بأنفسهم على دعوتهم، ويوفروا بذلك على غيرهم الجهد فى محاولة ذلك.. قلت له: إن محاسبة القائد على أخطاء يرى بعض الجنود أنه مسئول عنها لاتكون وسط المعركة وهى تدور رحاها، وإنما يجب أن نتماسك حتى تنتهى المعركة؛ فإن كان حساب فليكن حينئذ.. وقلت له إن علاج مانعانيه لايكون بهذا الأسلوب. والذى أراه ــ وأختلف معك فيه ــ هو أن هذا الرجل لاعيب فيه، وهو قائد كفء وله فى أعناقنا بيعة. ودعنى أواصل طريقتى فى الإصلاح التى عرضتها عليكم وحظيت منكم جميعاً بالقبول.

ورجعنا بعد ذلك إلى الاجتماع فطلبت إلى الإخوة الحاضرين أن يختاروا من بينهم وفداً يمثلهم فى مقابلة جمال عبد الناصر ــ رئيس الحكومة آنذاك ــ فى بيته فى صباح الغد فاختاروا من بينهم الأخوة: الدكتور خميس والأستاذ عمر التلمسانى والدكتور عثمان نجاتى والأستاذ محمد حلمى نور الدين والشيخ أحمد شريت ومحمود عبد الحليم.

وبتنا جميعاً تلك الليلة عند الأخ الحاج محمد جوده.. وأصبحنا حيث وافانا السيدان الطحاوى وطعيمة وتناولا معنا طعام الإفطار. ثم اتجه الوفد فى رفقتهما إلى منزل جمال عبد الناصر فى منشية البكرى حيث التقينا به فى الساعة التاسعة صباحاً.

* * *

الفصل الثانى

إجتماع تاريخى
جلسة طويلة مع عبد الناصر فى منزله

كانت هذه أول مرة ألتقى فيها بجمال عبد الناصر . وكنت حريصاً فى هذا اللقاء أن استكشف الكثير عن شخصية هذا الرجل ــ وكان إذ ذاك فى ربيع عمره ، لم تتعقد أمامه الحياة بعد ، ولم تأخذ منه الأيام ، فهو أقرب أن يكون على طبيعته ــ رأيت شاباً فارع الطول ، عريض المنكبين ؛ وهى إحدى مؤهلات من يرشح نفسه للزعامة ؛ فالجسم القوى المتين البنيان مطلوب لمقارعة الخطوب وسهر الليالى وتلقى الضربات .. وكان حتى ذلك الحين منتسباً إلى منصبه العسكرى فهو مرتد بزته العسكرية .

وكان مجلسنا فى حجرة صغيرة فى الدور الأرضى على يســار الداخل من باب المنزل ، مؤثثة بأثاث كأثاث بيوتنا لايزيد عنه شيئاً . وقد شغلنا نحن الستة ومعنا الطحاوى وطعيمة كل مقاعد هذه الغرفة إلا مقعداً قرب الباب جلس عليه جمال . وجيء بكرسى من خارجها ووضع بجانب جمال وعلى يساره جلس عليه الضابط عبد الرحمن نصير الذى كان حارسه الذى لايفارقه .. وجاء ولداه الصغيران خالد وعبد الحكيم وجلسا بجانبه بعض الوقت .

وبدأ هو الحديث فقال : أنا قرأت مذكرة فلان وأرى فيها روحاً طيبة ، ولهذا طلبت أن ألتقى بوفد يمثل الإخوان لمناقشة أسباب الخلاف بينى وبين الإخوان ..

فقلنا له : أليس من الممكن أن نتجاوز أسباب الخلاف ونتجه إلى وسائل الإصلاح ؟

فقال : إن هذا ليس بالطريق السليم لمعالجة الخلاف . لابد أولاً من معرفة أسباب الخلاف حتى نبحث بعد ذلك عن وسائل تلافى هذه الأسباب .

فقلنا : إذن ماهى أسباب الخلاف ؟

أخذ جمال عبد الناصر يشرح أسباب الخلاف فى حديث طويل لم يبق فى خاطرى منه

بعد هذا الأمد الطويل إلا نقاط وإن كانت قليلة إلا أنها تعد رءوس مواضيع لأهم ماجاء فى حديثه أسوقها فيما يلى:

أسباب الخلاف كما يرويها عبد الناصر:

أولاً : بدأ حديثه بالإشارة إلى اتصاله بالجهاز السرى للإخوان (النظام الخاص) وإلى تعاونه معهم وذكر فى سياق هذا التعاون أنه كان يسرق لهم السلاح والذخائر من الجيش— ثم ذكر أنه فى آخر مرة أعطاه الإخوان ٢٥٠٠ جنية لهذا الغرض فاتصل بالمسئولين عن مخازن السلاح (وذكر الجهة التى بها هذه المخازن ولكنى نسيتها) وأعطاهم هذا المبلغ كاملاً، وملأوا له عربة قطار بالأسلحة والذخائر أوصلها إلى الإخوان.. ثم قال: والآن تصدر نشرة الجهاز السرى للإخوان تتهمنى بأننى استوليت على هذا المبلغ لنفسى ولم أحصل لهم على أسلحة إلا بجزء يسير منه..

ثانياً : تكلم بعد ذلك عن اتصالاته بالمرشد العام فقال: إننى كنت حريصاً منذ قيام الثورة على أن أتشاور مع المرشد العام فى الشئون الهامة للدولة (وشرح المناقشات التى دارت خلال بعض هذه الاجتماعات) ولكننى لاحظت أن المرشد العام لايهتم بلقائى وزملائى معه بل ينظر إلينا نظرات لاتشعرنا بالتقدير؛ حتى إننى عقب كل اجتماع لنا معه كنت أشكو هذا الشعور إلى صلاح سالم الذى كان يرافقنى فى أكثر هذه الاجتماعات، وكان صلاح يهوّن علىّ الأمر ملتمساً الأعذار للرجل ولطبيعته. ولكننى عقب إحدى هذه الاجتماعات التى كانت تتم عادة فى بيت المرشد شعرت بمهانة وعدم مبالاة بى لم أتعودها فى حياتى؛ إلى حد أننى قررت أن أقطع اتصالاتى بهذا الرجل. وقلت لصلاح إن الاجتماع القادم تذهب إليه وحدك؛ لأننى لم أعد أطيق هذه المعاملة.. ولكن صلاح رجانى أن أحضر معه الاجتماع القادم على أن تكون هذه آخر مرة إذا حدث فيها مايحدث عادة فلن أرغمك بعد ذلك.

قال جمال: وذهبنا أنا وصلاح إلى منزل المرشد، وجلسنا فى حجرة الصالون حتى دخل علينا وألقى السلام وجلس دون أن يتكلم، وطال صمتنا وصمت الرجل الذى كنا ننتظر أن يبتدرنا بالكلام كما هو معتاد باعتباره صاحب البيت ونحن ضيوفه؛ إلا أن الرجل اعتصم بالصمت حتى تصبب العرق من وجوهنا خجلاً؛ لأننا شعرنا كأنما نحن دخلاء اقتحمنا على الرجل بيته دون رغبته مع أننا كنا على موعد..

قال جمال: فإنقاذاً لموقفنا، وحفظاً لماء وجوهنا بدأت أنا بالكلام فقلت:

يافضيلة المرشد جئنا اليوم لنناقش موضوع كذا (وحدد الموضوع ولكنى نسيته) فما رأيك؟

قال جمال: وبعد أن ألقيت السؤال انتظرنا أن يتكلم الرجل ولكنه لم يتكلم فقلت إننا نرى فى هذا الموضوع كذا وكذا. ولم يرد الرجل بأكثر من كلمة «لامانع» ممزوجة بنظرات معناها أنه غير مبال بنا. وهكذا مر الاجتماع ونحن نعانى هذا الشعور، وأنا أنتزع من الرجل الألفاظ إالقلائل انتزاعاً حتى استطعت إنهاء الاجتماع وخرجت أنا وصلاح عازمين على أن لانضع أنفسنا بعد اليوم هذا الموضع المزرى بالالتقاء مع هذا الرجل.

ثالثاً : ثم تكلم مرة أخرى عن الجهاز السرى للإخوان (النظام الخاص) وقال: كان وجود هذا الجهاز للإخوان المسلمين فيما قبل الثورة ضرورة لاغنى عنها، لمقاومة الظلم، ولحماية الدعوة من ظلم الملك وظلم أذنابه الحكام. أما وقد قامت الثورة فلم يعد هناك داع لوجوده؛ حيث إن الإخوان والثورة شىء واحد ــ وقال إننى سبق أن تحدثت مع المرشد العام فى هذا الشأن وقلت له إن الواجب يقتضى من الإخوان أن يحلوا تشكيلاتهم التى فى الجيش ويحلوا الجهاز السرى حيث لامبرر لوجودهما الآن بعد أن قامت الثورة، فكان رد المرشد قوله: إننا ليس لنا تشكيلات فى الجيش ونحن بصدد حل الجهاز السرى فقلت له يافضيلة المرشد أنا أعرف أن تشكيلات الإخوان فى الجيش لازالت موجودة ولكنه أصر على الإنكار.

رابعاً : وتحدث عن اتفاقية الجلاء وقال إن هذه الاتفاقية تضمنت كل مانريد وهى تضمن لنا الجلاء. وإن معارضة الإخوان لها هى نوع من التحدى لاأقبله. وأخذ فى شرح محاسن الاتفاقية ووجهة نظره، متجاوزاً النقاط التى تولاها الإخوان بالنقد ــ وشدد على أن تحدى الإخوان له فى هذه الاتفاقية أمر خطير لن يسكت عليه.

خامساً: ثم أثار مايطالب به الإخوان من إجراء انتخابات. وقال: إن إجراء انتخابات الآن معناه أن يحصل الإخوان على أغلبية مقاعد المجلس المنتخب إن لم يحصلوا على جميعها ــ لأن الإخوان تستطيع بتشكيلاتها العلنية والسرية أن تحصل على ذلك ــ ولذا فإننى لن أسمح بإجراء انتخابات تحت تأثير التشكيلات الإخوانية، لأن هذا يتعارض مع مناخ الحرية الذى يجب توفيره لإجراء هذه الانتخابات ــ وسمى جمال إجراء الانتخابات الفورية انتخابات فى ظل الإرهاب الإخوانى.

سادساً: وتكلم عن حركة مارس ٥٤ وأثرها فى الجيش. وألقى مسئولية حدوثها على

عاتق الإخوان. وقال: إنها كانت لعبة خطرة، ولن أسمح بتكرارها مرة أخرى. وقال فى معرض حديثه عن تفصيلات هذه الحركة.... «وحين ذهبت إلى سلاح الفرسان جاءنى الولد الشيوعى (وذكر فى وصفه لفظاً يعف القلم عن كتابته) خالد محيى الدين يطالبنى بالاستقالة» - ثم أعاد غدة مرات أنه لن يسمح بإعطاء الفرصة للإخوان لإثارة مثل هذا الذى حدث فى مارس ولذا فإنه مصمم على أن يصفى الإخوان تشكيلاتهم فى الجيش وفى خارج الجيش إما من تلقاء أنفسهم وإما رغماً عنهم.

سابعاً: وتحدث عن تسلط الإخوان على الجامعات وقال: إننى لن أقف مكتوفاً أمام هذا التسلط؛ فسأعتقل كل من يقف فى وجهنا من الطلبة. وقد كلفت كمال الدين حسين (كان وزير التعليم فى ذلك الوقت) بفصل الأساتذة الذين يعارضوننا مهما كان عددهم. وقد أعددت لهم معتقلات من نوع جديد... إن المعتقلات التى تكلف الدولة إطعامهم وإسكانهم وكسوتهم لن نلجأ إليها، وإنما سنعد لهم معتقلات فى الوادى الجديد يعملون فيها فى إصلاح الأرض وفلاحتها، ويأكلون ويلبسون من عرق جبينهم. وقد أمرت فعلاً بإعداد هذه المعتقلات - أما أعضاء الجهاز السرى والتشكيلات العسكرية فهؤلاء سيحاكمون بتهمة الإعداد لقلب نظام الحكم.

وقال: إن الإخوان ينظرون إلى الثورة على أنها جمال عبد الناصر الذى يعرفونه ويعرفهم، ويظنون أن الضباط الأحرار من الإخوان كجمال عبد الناصر.... هذا ظن خاطىء.. إن أكثر الضباط الأحرار ليسوا من الطراز الذى يتوهمه الإخوان.. إن أكثرهم ليسوا على دين ولا على خلق.. ولولا كبحى جماحهم لانطلقوا كالكلاب على الإخوان بلا رحمة.. وقد حاولوا مراراً أن ينطلقوا عليكم ولكننى كنت فى كل مرة أكبح جماحهم وأقول لهم: اتركوا لى التعامل مع الإخوان. ولكن إلى متى أكبح جماحهم وأقول لهم ذلك؟ لن أستطيع ذلك إلى الأبد.. إننى ألقى أشد المقاومة منهم فى منع شرهم عنكم.. وإذا انطلقوا فسيكونون كالكلاب الهائجة.

هذا هو تلخيص لما بقى فى خاطرى الآن من حديث جمال عبد الناصر فى هذه الجلسة - أما نص الحديث فكان من التفصيل والاتساع بحيث شغل قرابة ست ساعات متصلة من الساعة التاسعة صباحاً حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، لم يقطعه إلا أداء صلاة الظهر حيث أديناها نحن الإخوان جماعة فى حديقة المنزل وكنا جميعاً على وضوء، وإلا مكالمة أو مكالمتان فى التليفون أجراهما جمال وهو جالس معنا مع نائبه فى رياسة الوزارة جمال سالم لم يستغرقا إلا دقائق، وإلا بضعة أسئلة وجهناها إليه فى أثناء الحديث.

وكان مما وجهناه إليه فى أثناء الحديث حين تحدث بعنف عن الجهاز السرى للإخوان ومزج هذا العنف بالتهديد والتوعد إذا لم يوقفوا أعمالهم العدوانية ضده من إصدار النشرات وغيرها أن قلت له: إنك تعلم أن هؤلاء الأفراد من الجهاز السرى شباب، ومن صفات الشباب الاندفاع، ولا يمكن وقف هذا الاندفاع فجأة، وأنت أعرف الناس بهم— فيجب أن تعطى لنا فرصة كافية لإقناعهم.

وقلت له: إنك تقول فى حديثك إنك لاتطاوع من وراءك من الضباط فيما يريدون أن يواجهوا به الإخوان من عنف، ولكننى أرى أن السياسة المتبعة فى مواجهة الإخوان هى سياسة العنف والإثارة.. فكيف نستطيع أن نقنع هؤلاء الإخوان بوقف مايواجهون به هذا العنف والإثارة..؟.. فقال لى جمال: وكيف كان ذلك؟ إن تعليماتى كانت بغير ذلك.

فقلت له: لازالت سياسة الاعتقال سارية، فكل يوم يعتقل عدد من الأفراد. ولا زالت سياسة تشتيت الموظفين سارية.

فقال لى: هذا شيء لايمكن أن يحدث وقد تكون مبالغاً.

فتذكرت أن برقية نقلى إلى قنا لازالت فى جيبى فأبرزتها له وقلت له: لن أقول لك إن فلاناً وفلاناً نقل ولكن مارأيك فى هذه البرقية؟

فأخذها وقرأها.. وأبدى مايشعر بالاستغراب. ومال على من كان بجانبه من الضباط كأنما يطلب إليهم مراجعة هذه الأمور.

ملامح فى شخصية جمال عبد الناصر:

لم أكن قد التقيت بجمال عبد الناصر من قبل؛ حيث كانت هذه الجلسة هى أول لقاء لى معه كما قدمت وكنت حريصاً على أن أحدد ملامح هذه الشخصية؛ لأن أول مايجب أن يتوفر لك للتعامل مع أى إنسان تعاملاً مثمراً هو أن تحدد ملامح شخصيته؛ لأن التعامل مع إنسان هو فى الحقيقة التعامل مع مابنى عليه من طبائع وصفات وأخلاق.. وكان قد وقر فى صدرى حين رأيت الاتصالات التى تتم بيننا وبين جمال لاتثمر دائماً إلا تباعداً وتفاقماً أن إخواننا الذين يقومون بهذه الاتصالات؛ إما أنهم لم يعرفوا مابنيت عليه شخصيته من طبائع وخصائص، وإما أنهم يعرفون ذلك ولكنهم لايحفلون بمراعاتها ولا يجعلونها عنصراً أساسياً يقيمون على دعامة منه تعاملهم معه.. ولذا كان همى الأكبر أن أعرف مقومات هذه الشخصية حيث هى مفتاح التعامل معه.

وقد وضحت لى هذه الجلسة كثيراً من الملامح الأساسية لشخصية جمال مع أنها

جلسة واحدة وهى اللقاء الأول للأسباب الآتية:

١ ــ أن الجلسة كانت من الطول بحيث لايستطيع متحدث فيها أن يسيطر على أحاسيسه سواء منها السطحى والعميق طول هذا الوقت.

٢ ــ أن جمال شغل بحديثه أكثر من تسعة أعشار هذا الوقت.

٣ ــ أن حديثه كان متصلاً لايكاد يقطعه إلا أقل القليل.

٤ ــ أن موضوع الحديث كان بطبيعته مثيراً للعواطف لأنه يدور حول محاور كلها تعتمد على أسس من الارتباط النفسى والامتزاج الروحى.

٥ ــ أن الحديث يمس شخصية المتحدث والمتحدث إليه فى الماضى والحاضر والمستقبل؛ فهو يعالج أموراً قد يتوقف عليها مستقبله.

٦ ــ حكمة الإمام على كرم الله وجهه حيث يقول «من كثر كلامه كثر خطؤه» أفهم منها فضلاً عما يفهم من ظاهرها أن الإنسان قد يستطيع تحضير كلام يحدث به قوماً، فيتحكم فى عواطفه ليبرز منها فى أثناء الكلام مايريد ويخفى منها مايريد.. ولكنه إذا طال به الحديث فإن عواطفه التى أراد أن يخفيها ستطل فى أثناء حديثه بأعناقها رغم أنفه ودون إرادته..

أما الملامح التى وضحتها هذه الجلسة فى شخصيته فهى:

أولاً :ــ أنه يتمتع بشخصية قيادية بدليل تزعمه لمجموعات متباينة من الضباط وكلها تدين بالخضوع له والائتمار بأمره.

ثانياً : ــ أنه يتمتع بذاكرة وحافظة قويتين؛ فقد كان فى سرده للأحداث التى كانت بينه وبين الإخوان يذكر كل حدث منها بتاريخه محدداً مع أن منها أحداثاً كان قد مضى عليها أكثر من خمسة أعوام.. وإذا فرضنا أنه كان قد عكف على تحضير هذا الحديث الذى تضمن عشرات الأحداث قبل أن نلتقى به، فإن حفظ تواريخ هذه الأحداث وإلقاءها إلينا دون خلط أو خطأ؛ ينهض دليلاً على قوة ذاكرته ومتانة حافظته.

ثالثاً : ــ أنه ذو شخصية متماسكة ذات أعصاب قوية ثابتة، لاتكاد تستجيب للمؤثرات الخارجية مهما قويت هذه المؤثرات ــ وقد شعرت بذلك فى أثناء إلقائه حديثه الطويل دون أن يجرفه الموقف المثير جرفاً يخرج به عن سياق حديثه أو ينسيه مارتب فى ذهنه من نقاط.. كما شعرت بذلك حين كنا نتحدث إليه ونحن مجموعة لها وزنها فى الإخوان، وكان حديثنا فى ذلك اليوم حديثاً عاطفياً فياضاً تثور له وتستجيب له عاطفة كل سامع.. ومع ذلك فإن ذلك لم يحرك عواطفه حركة توائم مانغمره به من عواطف؛ بل كانت إجاباته تتمشى مع المنطق الذى

اختاره لنفسه ــ وتماسك الشخصية قد يكون نتيجة الثقة بالنفس أو قد تكون الثقة بالنفس وليدة تماسك الشخصية، أو قد يكون التعبيران لصفة واحدة.

رابعاً: ــ هناك ملمح من ملامح شخصيته كشف لى عنه حديثه الممتزج بالمرارة حين كان يتحدث عن لقاءاته مع الأستاذ المرشد العام. وهذا الملمح لازلت فى حيرة من تسميته، ولكننى أشير إليه بما كان يبعث هذا الحديث فى ملامح جمال وفى قسمات وجهه، وفى تقطيب جبينه، وفى توقد عينيه مايكاد يخيل إلينا أن لو كان الأستاذ المرشد أمامه لأطاح برأسه شفاءً لما يتأجج فى صدره من غضب منه وحقد عليه...

وهو يرمى المرشد العام بصفات لم نعهدها فيه، ولم نسمع أن أحداً نسبها إليه ــ وفحواها أنه يتجاهل جليسه ويحقر ضيفه ــ ولست أدرى لماذا يشكو جمال وحده دون غيره ــ على كثرة من قابل المرشد العام من جميع المستويات ــ ويشكو صفة لم يشك منها غيره من هؤلاء المتعاملين سواء منهم العدو والصديق.. وأرانى إزاء هذه الشكوى أمام أحد هذه الافتراضات:

١ ــ أن يكون احتفال الأستاذ المرشد به وبزملائه كاحتفاله بسائر الأفراد من الإخوان فى حين أن جمال يرى نفسه أعظم من أن يقتصر المرشد فى احتفاله به على القدر الذى يبذله فى الاحتفال بسائر الإخوان ــ وحينئذ يرى هذا القدر من الاحتفال به نوعاً من الإهانة لأنه ليس كسائر الإخوان ولا حتى كسائر الناس؛ بل هو القابض بيديه على مقاليد السلطة فى البلاد. ويرى نفسه متفضلاً فى زيارته للمرشد فى بيته.
ونحن نرى فيمن نخالط من الناس أشخاصاً فى بعض المناصب يرون فى عدم مثول مرءوسيهم أو ذوى المصالح عندهم قياماً إذا مروا إهانة لهم تستحق أن يجأروا بالشكوى منها وتستحق أن يوقعوا على من صدرت منهم هذه الإهانة العقوبة.. فكيف بمن يرى نفسه رئيس البلاد والمتصرف فى مقدراتها؟!

٢ ــ أن لايكون احتفال المرشد به أقل مما يتناسب مع منصبه، ولكن شيئاً فى نفس جمال جعله لايرى إلا المساوىء، أما المحاسن فإنه لايراها.. وهذا داء شائع بين الناس فى كل زمان ومكان، ولا ينجو منه إلا الأقلون ممن صفت نفوسهم، وطهرت قلوبهم، وهذا الداء هو الذى أشار إليه الشاعر الحكيم الذى ذكرناه من قبل ونعيده الآن:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدى المساويا

٣ــ أن يكون المرشد العام قد تجهمه فعلاً أو تجاهله.. ولكن هذا التجهم الذى هو ليس من طبيعة الرجل لابد أن يكون حلقة فى سلسلة أحداث أغفل المتحدث ــ جمال ــ ذكرها لأنه يعلم أن ذكرها فى غير صالحه ــ وفى هذا الصدد يُتمثل بالقول المأثور: قبل أن تقول للباكى لاتبك قل للضارب كف عن الضرب ــ والقول الآخر: إذا جاءك أحد الخصمين يشكو فقء إحدى عينيه فلا تعجل بالحكم، فقد يكون المشكو قد فقئت كلتا عينيه.. وقد يكون فى سياق مانقلناه فى أول هذا الجزء عن الإخوة صالح وصلاح وفريد مايلقى أضواء على خلفيات هذه الشكوى إن كان لهذه الشكوى من أساس.

هذه أوضاع ثلاثة لاأعتقد أن تعليل هذه الظاهرة المشكو منها يخرج عن أن يكون واحداً منها. وقد يكون خليطاً منها؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها متشعبة المسالك، قد تستوعب الأوضاع الثلاثة معا، بالرغم مما يبدو فيها من تعارض فى بعض أجزائها.

وإذا كنت قد أجهدت نفسى فى البحث عن تعليل لشكوى جمال من المرشد، فإنما أردت بذلك أن أجد تفسيراً لحالة نفسية استبدت بجمال نحو هذا الرجل الذى يشغل منصب المرشد العام ــ وكنت أعرف من قبل أن عنده هذه الحالة، ولكننى لم أكن أعتقد أنها قد بلغت به إلى الحد الذى لم يعد يستطيع معه السيطرة عليها أو إخفاءها.. ولقد تحدثت عن تماسك شخصية جمال وثبات أعصابه؛ فقد كانت هذه الصفة واضحة ملموسة فى حديثه الطويل المتنوع الذى مس الكثير من الأمور الشديدة الحساسية التى من طبيعتها أن تثير الأعصاب؛ ومع ذلك كان فى أثناء الحديث عنها والمناقشة حولها ثابت الأعصاب، ولكنه كان حين يتكلم عن المرشد العام ولقاءاته معه تتغير حاله بالوصف الذى أوردته فيما يبدو فى لهجة حديثه، ونبرات صوته، وتقاطيع وجهه وبريق عينيه.

ولقد شعرت أننى وصلت إلى ماكنت أسعى إلى الوصول إليه من معرفة العقدة الأصيلة التى انبثق منها هذا الخلاف المتشعب بين جمال وبين الإخوان، وهو الخلاف الذى لايزداد على الأيام إلا تشعباً، ولا يثمر أمام المعالجة إلا تفاقماً ــ لقد فهمت أن كل ألوان الخلاف إن هى إلا مظاهر وأعراض لداء واحد متغلغل فى نفس جمال عبد الناصر هو كراهيته لهذا الرجل وحقده عليه.. ولكن التخلص من هذا الرجل فى ذلك الوقت هو هدم لكيان الدعوة، وتقويضها من أساسها، والخروج بها عن دائرة الدعوة الإسلامية، وتحويلها إلى لعبة فى أيدى الحكام.. وهو مالا نستطيع أن نسمح به.. ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾.

وإذن فليس أمامنا إلا المصابرة، ومحاولة كسب الوقت للخروج من المأزق القاتل الذى حصرنا فيه حتى نسترد أنفاسنا، ونتصرف فى ظل جو تسيطر فيه على أعصابنا فيكون تصرفنا

سليماً ومنتجاً .

خامساً : والملمح الخامس والأخير فى شخصية جمال هو عدم مبالاته بالقيم ولا بالعلاقات وهو مايعبر عنه بمبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » . وهذا المبدأ يستبيح الدم والعرض مادام ذلك يحقق هدف الشخص . والهدف فى هذه الحالة عادة يكون هو السيطرة والاستئثار بالسلطة . وصاحب هذا المبدأ مادام يملك القوة فإنه لا يرحم ولا يرعى إلاً ولا ذمة .

ولقد وضح هذا الملمح حين كان جمال يتكلم عن طلبة الجامعة وأساتذتها وما أعده لهم من معتقلات أخذ يصف بشاعتها .. كما وضح حين كان يتكلم ــ وهو يشعر أنه فى مركز القوة ــ فتراه يرفض عروضنا عليه ، وهى عروض كان هو يتمناها من قبل ، وطالما سعى هو إليها . وحين سعى وجد منا قلوباً مفتوحة ، وعواطف فياضة ، وتغاضيا عن الإساءة .. وناهيك ماكان منا عقب خروجنا من المعتقلات فى مارس ١٩٥٤ ونحن فى أوج القوة وهو فى حضيض الضعف ، وطلب أن يزور المرشد فى بيته ، فرحب المرشد بلقائه ونسينا ماكان من إساءاته التى بسطنا الحديث عنها من قبل .

وعلى كل فإن هذا الملمح الذى بدا لنا منه مابدا فى هذا الاجتماع وكان مجرد كلام وتهديد ؛ مما جعلنى أتشكك فى أصالة هذه الصفة المرذولة فى نفسه ، وأحسن الظن فأتصورها مجرد عارض نفسى تنزع إليه بعض النفوس فى أثناء الحديث لتظهر أمام مستمعيها بمظهر يتسم بالقوة والبطش .. ولكن الأحداث بعد ذلك أبانت عن أن حسن ظننا لم يكن فى موضعه ، وأثبتت أصالة هذه الصفة فى نفسه ، بل وضحت أنها الصفة المسيطرة عليه ، والتى تتحكم فى جميع تصرفاته وخطواته .

القرارات التى اتخذت :

فى نهاية هذه الجلسة الطويلة المضنية كان لابد لنا من الوصول إلى اتفاق محدد ، وكان أملنا جميعاً ــ نحن الإخوان ــ أن يكون اقتراحى الذى ذيلت به مذكرتى هو الذى يتم عليه الاتفاق . وتكون مهمتنا ــ نحن المجتمعين ــ أن نبحث تفاصيل تنفيذه ــ ولكن جمال فاجأنا فى نهاية الجلسة برفضه هذا الاقتراح بل برفضه أى اقتراح للصلح قائلاً :

« إن الدعوة إلى إجراء صلح بينى وبينكم فات أوانها . ولم تعد الثقة التى هى أساس الصلح موجودة » . وتناقشنا معه حول هذه النقطة نقاشاً طويلاً غير أنه أصر على الرفض . وماكنا نملك شيئاً بعد أن صار هو يملك جميع أوراق اللعب فى يده ونحن لانكاد نملك منها شيئاً .

قلنا : إذن لم كان هذا الاجتماع ؟ ولو علمنا أنك ترفض الصلح لما أتعبنا أنفسنا . ولكن الأستاذ الطحاوى والأستاذ طعيمة أبلغانا أنك قرأت المذكرة ووافقت على ماجاء بها .. وعلى هذا حضرنا ، فقال : أنا وافقت على المذكرة كمبدأ . فالصلح هدف . ولكنه الآن ليس الهدف المباشر . لكن الهدف المباشر الآن سيكون مقدمة للصلح ؛ وإذا استطعتم أن تقوموا بأعباء الهدف المباشر انتقلنا إلى الصلح .

قلنا : وما هو الهدف المباشر ؟

قال : كل الذى أستطيع أن أبذله لكم الآن أن أعقد معكم هدنة ؛ فإذا نجحتم فيها كان لكم أن تطالبوا بصلح .

قلنا : وما شروط هذه الهدنة ؟

قال : هما شرطان :

١ ــ أن توقفوا حملتكم على اتفاقية الجلاء .

٢ ــ أن توقفوا إصدار النشرات .

قلنا : ولنا شرطان مقابلان هما :

١ ــ أن توقف الاعتقالات والتشريد .

٢ ــ أن توقف الحملة الصحفية .

قال : أنا موافق على شروطكم إذا وافقتم على شروطى .

قلنا : إننا موافقون .

قال : إذا نفذتم الشروط فلنا اجتماع آخر بعد اجتماع الهيئة التأسيسية ــ أما إذا لم تستطيعوا تنفيذ الشروط فلا اجتماع ولا تلومونى بعد ذلك .

وهنا اختتمت الجلسة وخرجنا وكلنا أمل فى الوفاء بما اشترط علينا لنخرج بالدعوة من هذا المأزق الخطير الذى وضعت فيه .

* * *

كان مبيتى عادة حين أكون فى القاهرة عند الأخ الحبيب ــ رحمه الله ــ الدكتور جمال عامر زميلى القديم فى الدعوة وعضو الهيئة التأسيسية وصاحب صيدلية الصليبة بالقاهرة .. فلما ذهبنا فى تلك الليلة إلى البيت وجدنا فى انتظارنا الأخ الأستاذ عبد العزيز كامل ؛ الذى ابتدرنى قائلاً : إننى كنت فى انتظارك على أحر من الجمر ، لأننى أقدر أهمية هذه الجلسة وأؤمل فيها خيراً للدعوة ، وقد قدمت لأعرف منك ماتم فيها وأعرف رأيك شخصياً فى جمال عبد الناصر فحدثته بكل ماتم فى الجلسة كما شرحت له وجهة نظرى فى شخصية جمال عبد الناصر على الوجه الذى أجملته فى هذه المذكرات ، ولكننى أقرر أن ماحدثت به الأخ عبد العزيز لابد أنه كان أوفى وأشمل لاسيما وأنا أثبت ماأثبته فى هذه

المذكرات بعد مرور اثنين وعشرين عاماً على هذه الأحداث.. وأذكر أننى أنهيت حديثى إلى الأخ عبد العزيز بقولى: إننى أرى أن شخصية جمال عبد الناصر كانت تستحق منا دراسة أكثر وعناية فى التعامل معها أكثر مما كنا نوليها.

الباب الرابع عشر

اللغم الذى دمّر واضعيه ودمّر الجميع

الفصل الأول : اجتماع الهيئة التأسيسية المرتقب

الفصل الثانى : فى انتظار الكارثة

الفصل الثالث : فى أعقاب حادث المنشية

الفصل الأول

اجتماع الهيئة التأسيسية المرتقــب

لم يعد باقياً فى خاطرى التاريخ الذى انعقدت فيه الهيئة التأسيسية، ولكننى أقرأ فى الكتب التى تصدر فى أيامنا هذه أن تاريخ هذا الاجتماع كان فى الرابع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٤.

وعلى العموم فالذى أذكره أن اجتماعنا بجمال عبد الناصر كان قبل اجتماع الهيئة التأسيسية بيومين أو ثلاثة على الأكثر. وكنت متفائلاً بعد خروجنا من بيت جمال لثقتى فى أن يؤدى اجتماع الهيئة إلى معاونتنا فى تحسين الموقف أو فى التخفيف من حدته للأسباب الآتية:

أولاً — أن الوفد الذى مثل الإخوان فى الاجتماع بجمال كان فوق الشبهات إذ يضم أعرق الإخوان فى الدعوة، وأعلاهم ثقافة، وأشدهم غيرة، وأقدرهم على تقدير المواقف، وهم موضع احترام الجميع.

ثانياً — أن الذى سيرأس الجلسة ويدير النقاش فيها هو الدكتور خميس حميدة نائب المرشد وهو أحد أعضاء الوفد.

ثالثاً — أننى اتفقت مع الدكتور خميس فى ترتيب بنود جدول أعمال الجلسة أن يكون عرض مذكرتى أول هذه البنود، وأن يتيح لى فرصة قراءة هذه المذكرة وشرحها — وكان هو واثقاً بأن قيامى شخصياً بهذا الدور كافٍ أن يقنع إخوان الأقاليم وهم الكثرة الغالبة من أعضاء الهيئة، وكانت ثقة الدكتور خميس هذه مبنية على ماكان يعرف من حب هؤلاء الإخوان لى، وتقديرهم لآرائى، لحسن ظنهم بى فى عزوفى عن المناصب، وإيثارى البعد عن مواطن الشهرة، ولأنهم يعلمون أننى ملم من أسرار الدعوة بما لايلم به أكثر قادتها.

هذا هو ماكان يبعث فى نفسى التفاؤل بما قد يتمخض عنه هذا الاجتماع.أما العقبات التى كانت ماثلة أمامى ولا بد من اقتحامها لإنجاح الاجتماع فهى:

أولاً ــ أن إخوان الأقاليم من أعضاء الهيئة التأسيسية يكادون أن يكونوا فى عزلة عن حقائق مايجرى فى القاهرة فهم خالو الأذهان عنها، وكل مايصل إلى أسماعهم هو نشرات تشحنهم شحناً يعدهم لدخول معركة فاصلة.

ثانياً ــ أن الظروف لم تتح لنا فرصة للمرور على هؤلاء الإخوان فى الأقاليم لشرح حقائق الموقف لهم حتى يحضروا الجلسة وهم ملمون بكل أطراف الموضوع. وكان هذا الإجراء ضروزياً لولا أن ماوصلنا إليه من نتائج لم نصل إليه إلا قبل يومين فقط من موعد انعقاد الهيئة المحدد من قبل.

ثالثاً ــ أن المرشد العام مستمر فى إصدار النشرات والبيانات من مخبئه لتزيد النار اشتعالاً ومعلوماته ناقصة عن حقائق الموقف وما استجد بعد اختفائه من معلومات تدل على أننا مكشوفون للطرف الآخر دون أن ندرى.

رابعاً ــ أن الإخوة المسيطرين على المركز العام والمتصلين بالمرشد فى مخبئه لايريدون أن يقتنعوا بوجهة نظرنا؛ بل إنهم يرون فى تحركنا تخاذلاً وانحرافاً، وإن كانوا لايبدون به، ولكن تصرفاتهم إزاءنا كانت توحى بذلك. كما توحى بانعقاد عزمهم على أن يخوض الإخوان المعركة على أساس من معلوماتهم القاصرة، ولا قبل لهم بسماع آراء أخرى، ولا بالسماح بتوصيل هذه الآراء إلى المرشد العام؛ اعتقاداً منهم بأن هذه الآراء تفت فى عضد الإخوان، وتعوق الخطة التى وضعوها لشحن الإخوان وإعدادهم لخوض المعركة.

مفاجأة المفاجآت أو انفجار اللغم

كنا قد أبلغنا إخواننا المسئولين بالمركز العام بنص ماتم الاتفاق عليه من قرارات فى اجتماعنا بجمال عبد الناصر فور انتهائنا من هذا الاجتماع. وكان أملنا أن يعاوننا إخواننا هؤلاء فى النهوض بما يخصنا نحن الإخوان من هذه الشروط أو القرارات، وأهم مافيها إيقاف النشرات، وهم وحدهم القادرون على تنفيذ هذه‌الشروط؛ لأنهم هم المتصلون بالأستاذ المرشد.

ولكن الذى حدث كان عكس ماتوقعناه؛ ففى الليلة المقرر عقد جلسة الهيئة التأسيسية فيها وفى أثناء توارد وفود إخوان الأقاليم، وقبل موعد الاجتماع بنحو ساعة؛ فوجئنا بمنشور صادر عن المرشد العام يوزع على هؤلاء الإخوان، يحرضهم فيه على

مواجهة رجال الثورة ويرميهم بما يشبه الكفر..

ومع أن هذا المنشور كافٍ أن يقوض كل مابنيناه؛ فإننا لم نيأس لأن آمالنا كانت معقودة على جلسة الهيئة التأسيسية التى نشرح للأعضاء فيها الموقف شرحاً يبصرهم بما خفى عنهم من جوانبه ونواحيه، ثم نكلهم بعد ذلك إلى عقولهم وضمائرهم.. وهم نعم الأكفاء.

وصعدنا إلى الدور العلوى من المركز العام. وأخذ كل عضو من أعضاء الهيئة مجلسة فى مكان الاجتماع. وافتتحت الجلسة حيث صعد الأخ الدكتور محمد خميس حميدة نائب المرشد العام إلى المنصة ليدير الجلسة.. وما كاد يبدأ حتى رأينا منظراً عجيباً لم نصدق أبصارنا حين رأيناه، ولا أعتقد أن أحداً كان يتصوره..

رأينا الأخ الأستاذ عبد القادر عوده يصعد هو الآخر إلى المنصة، وينحى الأخ الدكتور خميس ــ رحمهما الله ــ فى غير رفق ويقول له: أنا أحق منك بإدارة الجلسة.

ولشدة المفاجأة،وهول المباغتة، وخشية أن يُؤَوَّلَ الموقف على أن الإخوان يتنازعون المناصب؛ تنحى الدكتور خميس.. وسكتنا ــ نحن الحاضرين ــ ونحن فى ذهول من هذا التصرف المفاجىء وما فيه من تعد على الحقوق وخروج على النظام.

وقلنا فى أنفسنا: ربما كانت فى نفس الأخ الأستاذ عبد القادر بقية من تأثر لما اتخذه الأستاذ المرشد إزاءه حين كان مفتوناً برجال الثورة.. فلعل تبوأه منصب رياسة هذه الجلسة يمحو من نفسه هذه البقية.

خطة مدبرة:

ولكن مالبثنا بعد برهة أن فهمنا أننا قد تورطنا بحسن الظن، وعلمنا أن المسألة لم تأت عفواً، ولا جاءت بدافع شخصى، وإنما هى خطة مدبرة..

تكشف لنا أن إخواننا المسئولين فى ذلك الوقت عن المركز العام لما يئسوا من أن أسحب مذكرتى أو أن أتراجع عن خطتى؛ رتبوا خطة أخرى لإحباط جهودى وجهود من معى.. وكما كان الأخ الأستاذ عبد القادر ــ رحمه الله ــ هو رسولهم إلىّ فى محاولتهم الأولى؛ فقد اتخذوا منه هو نفسه الأداة المنفذة للخطة الجديدة..

وهى خطة مضمون لها النجاح؛ لاسيما وقد احتفظوا لها بالسرية التامة، وأحاطوها بستار كثيف من الكتمان ــ كما أنهم كانوا واثقين من أننا مهما قلبنا الأمور، واستعرضنا مختلف الاحتمالات ــ لأننا فى استعراضنا للاحتمالات لم ولن نخرج بها عن حدود مايمكن أن

يحدث فى المجتمع الإخوانى القائم على المثل العليا والخلق الرفيع ــ فلن يخطر ببالنا هذا الذى بيتوه .

ولكن يبدو أن إخواننا هؤلاء فى هذه المرة ــ وإنى أعدها منهم سقطة ــ قد استباحوا القاعدة الميكيافيلية التى تقول : إن الغاية تبرز الوسيلة .. فأمام مااعتقدوا أنهم على الحق ، وأن طريقهم هو الطريق الأمثل لمصلحة الدعوة ، وعلى أساس أن التيار المضاد لهم صار من القوة بحيث لايستطيعون التصدى له بالأساليب المشروعة .. لجأوا إلى أسلوب وإن كان غير كريم إلا أنه يضمن لهم تحقيق مايأملون .

تفاصيل الخطة :

والذى أكد لنا أن هذا الذى فوجئنا به إنما هو خطة مدبرة ، وخطوات مدروسة ، وأسلوب تمخض عن بحث مستفيض ؛ هو أن الأستاذ عبد القادر حين استوى على المنصة تناول من الدكتور خميس الورقة المكتوب فيها جدول الأعمال ، وكان أول بند فيها عرض مذكرتى وقيامى بشرح الموضوع من جميع جوانبه ، ويلى هذا البند بنود أخرى عادية .. فإذا بالأستاذ عبد القادر يبدأ مخاطبة أعضاء الهيئة بقوله :

« يشتمل جدول الأعمال على البنود الآتية : « بند بموضوع العلاقات بيننا وبين رجال الثورة . وهناك لجنة وكل إليها أمر الاتصال بهم منذ قامت الثورة ويجب أن نسمع منها ماتم فى هذا الصدد .

فقام بعض أعضاء الهيئة القاهريين الذين يعلمون أهمية قراءة مذكرتى وقالوا : نسمع أعضاء اللجنة ، ولكن يجب أن نسمع مذكرة فلان أيضاً لأنها فى غاية الأهمية .

فقام آخرون قاهريون ــ وهم من الإخوة المسئولين عن المركز العام فى ذلك الوقت ــ وقالوا : لاداعى لقراءة مذكرة فلان .. وكانت نبرات صوتهم تشعر بأن زمام المبادرة أضحى فى أيديهم .

ويبدو أن اتصالاً كان قد تم بين هؤلاء وبين إخوان الأقاليم ألقى فى روعهم أن مذكرتى ومن يؤيدها ليست فى مصلحة الدعوة .. وإذا لم يكن قد تم هذا الاتصال فيكفى لإثارة شعورهم ولإشعال حماسهم ضد كل مافيه معنى تقريب وجهات النظر ماتلقوه صادراً عن الأستاذ المرشد ساعة حضروا إلى المركز لحضور الاجتماع .

وطال الخلاف بين أعضاء الهيئة ، واحتدم النقاش ، وتعالت الأصوات حول موضوع المذكرة .. وكان الفصل الأخير من المسرحية التى وضعت بدقة ، وأخرجت بإحكام أن قال الأستاذ عبد القادر واثقاً :

«حسماً للخلاف نلجأ إلى الهيئة ونأخذ الأصوات هل تقرأ مذكرة فلان أم لاتقرأ» وأخذت الأصوات فكانت الأغلبية فى جانبهم؛ وهو ماكانوا واثقين منه. وإلا لما لجأوا إلى هذا الأسلوب.

تم إجهاض جهودنا:

وبذلك تم إجهاض جهودنا، وبدأ اليأس يدب إلى نفوسنا، وفكّرنا فى مغادرة الاجتماع، ولكننا خشينا أن يؤخذ ذلك على أنه نوع من التمزق فى صفوف الإخوان.

ومع أننا نحن وحدنا دون بقية إخوان الهيئة الذين كنا نعلم ماسوف يحيق بالإخوان من التنكيل بعد إهدار آخر سهم فى جعبتنا لإنقاذ الموقف؛ فإننا قررنا أن لاننجو دونهم من أن نكون معهم حطاماً لنيران أو قدوها أو ساعدوا على إيقادها ثم حالوا بيننا وبين محاولة إطفائها.

وقد يسأل سائل ماالذى قيل فى الاجتماع وما القرارات التى انتهى إليها؟ ونجيب هذا السائل فنقول: إنك تستطيع أن تستنتج كل ذلك من اجتماع كانت مقدماته ماعرفت..

الأسلوب الحكيم:

لما تم الفصل الأول من المسرحية، وانتقلت إلى فصلها الثانى وعنوانه التهاتر بين الممثلين والمشاهدين ــ الذى لم يخرج عن كونه تراشقاً بالألفاظ، وإن كانت الصحف ظهرت فى صبيحة اليوم التالى تصوره على أنه كان تماسكاً بالأيدى ــ اقترح علىّ بعض إخواننا أن أطلب الكلمة وأعرض فكرتنا ولكننى رفضت وكان رفضى يقوم على الحجة التالية:

كان الجو فى أعلى درجة من درجات التوتر.. وفى مثل هذا الجو لاينبغى لصاحب رأى معارض أن يعرض رأيه ارتجالاً، وإنما لابد من أن يكون العرض عن طريق مذكرة مكتوبة.. وهو ماقصدت إليه من كتابة مذكرة، ومن أن أبدأ عرضى لرأيى بقراءتها عليهم؛ لأن المذكرة حين كتبتها راعيت فيها تنظيم الأفكار وتسلسلها، ومراعياً فيها مخاطبة العواطف تارة، ومخاطبة العقول تارة أخرى، كما راعيت أن تكون موجهة منى للمرشد العام وفى هذا طمأنة للسامعين..

ويبدو أن هذه المعانى كانت بعض مادفع إخواننا هؤلاء إلى الحيلولة دون سماع إخوان الهيئة هذه المذكرة منى؛ فلا يكون أمام إخواننا المناصرين لفكرتنا فى الإصلاح إلا الارتجال الذى ــ فى هذا الجو ــ لايكاد يبين.. وقد تنبهت لهذا فرفضت أن أتكلم فى هذا الجو

مرتجلا.

القرار:

وخلاصة ماكان؛ أن ظل الاجتماع ماظل لاتسمع إلا تهاتراً؛ هذا يطلب محاولة الإصلاح، وآخرون يردون عليه بصوت أعلى يرفضون الإصلاح ثم كان القرار وهو:

«تكليف اللجنة التى كان موكولا إليها الاتصال برئيس الحكومة، وإخطار الهيئة بنتائج هذا الاتصال فى اجتماع الهيئة التأسيسية القادم» ولا أذكر التاريخ الذى حدد له.

معنى هذا القرار:

ومعنى هذا القرار هو أنك تريد أن ترغم الجانب الذى أضحى بيده زمام المبادأة على التحدث مع لجنة أعلن رفضه الاتصال بها من قبل، متهماً أعضاءها بتهم مختلفة منها سوء النية ومنها عدم الأمانة فى نقل الأحاديث.. تريد أن ترغمه على استقبالها والتحدث معها وإلا فلا كلام معه.

وأنا أعود هنا وأقرر أننى شخصياً لايخامرنى شك فى هؤلاء الإخوة أعضاء لجنة الاتصال فى حسن نيتهم وفى أمانتهم فى النقل؛ ولكننى مع ذلك أرى أن هناك بواعث نفسية لايمكن إغفالها، تتدخل فى العلاقات بين الناس بعضهم مع بعض؛ فتجعل إنساناً من الناس مقبولاً عند شخص من الأشخاص، ولا تجعله هو نفسه مقبولاً لدى شخص آخر.. وكل من الشخصين ينتحل أسباباً يبرر بها مسلكه نحو هذا الإنسان.. وقد لاتمت هذه المبررات إلى الواقع بصلة.

أما فى الصلات الفردية؛ فقطع الفرد صلته بفرد آخر لايقبله أمر سهل، فقد يجد الفرد عشرات من الأفراد آخرين يقبلون ويرحبون؛ وفى هذا يقول الشاعر:

كلانا غنى عن أخيه حياته ... ونحن إذا متنا أشد تغانيا

أما أصحاب الدعوات فى علاقاتهم مع الحاكم ـ إذا ماأريد تحسين العلاقات أو التخفيف من التوتر أو تفادى أزمة ـ فعليهم أن يكونوا من المرونة بحيث لايصرون فى جميع الظروف ومختلف الأحوال على أن يكون الاتصال مقصوراً على أشخاص معينين؛ مهما أظهر الحاكم ضيقه بهؤلاء الأشخاص ـ بل عليهم أن يبادروا من تلقاء أنفسهم باختيار آخرين وآخرين حتى يصادف وفد منهم قبولاً نفسياً من الحاكم فيصل معه إلى حلول للمشاكل المستعصية.

وأذكر فى هذا المقام ماسبق لى قوله فى الجزء الثانى من هذه المذكرات حين كنت

أتحدث عن حسن البنا فقلت إنه كان من المرونة وسعة الأفق بحيث كان لديه لكل موقف الكثير من البدائل، وحسبك أن تعلم أنه أمام محنة عام ١٩٤٨ لم يكتف بتوسيط الأحباب والأصدقاء بينه وبين الحكومة بل لجأ في بعض الأحيان إلى الأعداء متغاضياً عن سابق مواقفهم — وأعتقد أن المرشد العام حسن الهضيبي لو أن الظروف أتاحت له أن يلم بما جد من تطورات لما وافق على سياسة الجمود التي مثلها قرار الهيئة ولوجد في سياسة البدائل مايعين على الخروج من المأزق.

أخطر المشاكل سببها العقد النفسية:

وتبرئة لإخواننا هؤلاء من أعضاء لجنة الاتصال مما رماهم به جمال عبد الناصر من تهم أقول: إن بعض هؤلاء كان من الإخوان الذين شاءت الأقدار أن يتصلوا بجمال عبد الناصر، ويتعرفوا عليه، ويتعرف عليهم قبل الثورة.. وهم الذين شهدوه وهو في أضعف أحواله، وهم الذين يشعرون أنهم أصحاب الفضل عليه، ويشعر هو نفسه حين يلقاهم أنه يتكلم مع أشخاص يشعرون نحوه بهذا الشعور.. وجمال عبد الناصر إنسان لايطيق — وقد ملك — أن يرى إنساناً تذكره رؤيته بسابق فضل له عليه، لأن طبيعته تأبى أن يرى إنساناً أعظم منه، ولعل هذا كان الدافع الحقيقي الذي دفعه إلى:

١ — إخراج القائمقام أحمد شوقي والقائمقام يوسف صديق من مجلس الثورة لأنهما أعلى منه رتبة عسكرية، وللثاني فضل إنجاح الثورة بالقائه بالقبض على هيئة قيادة الجيش ليلة الثورة.

٢ — إخراج اللواء محمد نجيب من مجلس الثورة ومن جميع المناصب واعتقاله لأنه أعلى منه رتبة وأكثر منه شعبية.

٣ — إخراج جميع الضباط تقريباً — الذين تعلو رتبهم العسكرية رتبته — من الجيش وإلحاقهم بأعمال مدنية.

٤ — وضع خطة لإخراج بقية زملائه في مجلس الثورة إذا مابدا من أحدهم مايشعر معه أن له كياناً بجانبه.

.. ومن أصدق مايعبر عن هذه الحالة النفسية في جمال عبد الناصر ماجاء في كتاب: «صفحات من التاريخ» للأخ الأستاذ صلاح شادي في صفحتي ١٩٦، ١٩٧ حيث يقول:

«عجيبة هذه النفس البشرية إذا أصابها الكبر، ولم تعوزها الحاجة إلى الله، وكنت أعلم أنه (يقصد جمال عبد الناصر) لايحب مني أن أبدو أمام الناس معه على المستوى الذي

تنهض عليه علاقتنا الحقيقية؛ فالناس من حوله يقومون ولا يقعدون، وترتعد فرائصهم ولا تسكن، وتنحني جباههم ولا تنهض، وتسره هذه الانحناءة لشخصه فيضفي على صاحبها حينئذ رضاه. وعلى العكس كان يرى فى كل من يرفع رأسه عدواً ولا يسأل بعد ذلك ماذا يقدم، فكل مايقدمه مرفوض لأن رأسه المرفوعة كانت تعنى عنده عدم الولاء.

وكنت أسمع شعاره الذى أطلقه «ارفع رأسك ياأخى» فأوقن أنه شعار بلا مضمون، بل انفعالة معكوسة لحقيقة مايضمر من كبر.

ولم يغب عنى أننى أستطيع أن أكسب وده بقليل من الإغضاء ومزيد من الإطراء.. ولكن لاأكون فى هذه الحال متسقاً مع نفسى وكرامتى وفضائلى».

.. وأرجع إلى السياق فأقول: لذا لم يكن غريباً من جمال عبد الناصر أن يضيق ذرعاً بلقاء إخواننا هؤلاء باعتبارهم الممثلين الدائمين للإخوان فى التفاهم معه. وهو طبعاً لايستطيع أن يذكر السبب الحقيقى لضيقه بهم، فيبرر ذلك باختلاق أسباب هو نفسه ينكر صحتها فى قرارة نفسه.

كل هذه المعانى كنت أحب أن أشرحها للأستاذ المرشد العام الذى حيل بينى وبين الالتقاء به، وهو وحده كان القادر على استيعاب مثل هذه المعانى لأنه رجل دقيق الفهم، حسن التقدير، يعرف كيف ينتفع بما يسمع.. لاسيما إذا كان يسمع من إنسان لم يجرب عليه انحرافاً مع هوى أو جرياً وراء منفعة شخصية... ومن حق التاريخ علىّ أن أذكر لهذا الرجل أننى ماأشرت عليه برأى إلا درسه معى دراسة انتهت بالأخذ به، مع أننى كنت إذ ذاك أكاد أكون فى سن أبنائه؛ فهو لم يكن رحمه الله بالرجل المستكبر ولا بالمستبد بل يتوخى دائما الرأى الأصوب عن طريق المناقشة والمشورة.

* * *

الفصل الثانى

فى انتظار الكارثة

لم يكن إخواننا هؤلاء ولا إخوان الأقاليم يتوقعون ماكنا نتوقعه من أهوال ستنصب على رءوسنا صباً؛ لأنهم حجبوا أنفسهم عن الحقائق، ورضوا أن يعيشوا سابحين فى الأوهام، ولم يصدقوا ماأنذرتهم به من أن أسرارنا مكشوفة لهؤلاء الناس.. وأرادوا أن يفرضوا على الواقع ماتخيلوه من أوهام.

والتضحية بالنفس والمال لاتغلو على الدعوة، بل إنها أمنية ترنو إليها نفوسنا جميعاً — ولكن ليس معنى هذا أن يطالب الإخوان بتقديم تضحيات دون مبرر؛ فإذا كانت هناك مندوحة لإرجاء هذه التضحيات أو لتقليص حجمها فيجب أن نضن بكل قطرة دم بل وبالخدش مجرد الخدش يصيب أخا من الإخوان؛ مالم يكن الضن به عقوقاً لدعوة، وتضييعاً لحقها وفى الحديث « ماخُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثماً ».

ولقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على حقن دماء أصحابه؛ فلم يقاتل بهم مكشوفين للعدو، ولم يقدهم إلى زحف إلا بعد أن يتحسس لهم الطريق، ويرسل السرايا لتعرف له قوة العدو، ومواضع الضعف فيه؛ وقد يبعث إليهم من يعطيهم معلومات مضللة عن جيش المسلمين.. فإذا اطمأن بعد كل ذلك باغت العدو بالزحف باذلاً من جيش المسلمين أدنى حد من التضحية محققاً أعظم قدر من النصر.

وهكذا كان يفعل الإمام الشهيد.. وسبق أن أوضحت فى أبواب سابقة إلى أى حد كان حرصه على دماء الإخوان وعلى مالهم ووقتهم — وما إخال المرشد العام حسن الهضيبى إلا كان فاعلاً مثلما فعل الإمام — إلا أن اختفاءه حال دون تزويده بمعلومات لو أنه علمها لما اتخذ من الإجراءات مااتخذ.

* * *

غادرنا اجتماع الهيئة التأسيسية ونحن نقول: وداعاً أيتها الدار.. كنا نعرف مانحن

مقبلون عليه، وما ينتظر الإخوان فى كل مكان من ظلم وعسف وتنكيل ــ ولكننا أو أقول عن نفسى بالذات إننى كنت مرتاح الضمير لأننى بذلت آخر مافى وسعى لدفع النكبة عن إخوان لى فى القاهرة والأقاليم ولكنهم رفضوا فكنت وإياهم كما قال الشاعر العربى :

أبتغى إصلاح سعدى بجهدى وهى تسعى جهدها فى فسادى

وقد أيقنت أن لن يكون هناك اجتماع بعد اليوم .. فقررت أن أترك عملى وأسافر إلى بلدتى رشيد أطلب إجازات حتى أستنفدها ثم أظل بها حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

وسافرت إلى رشيد أنتظر ماتتمخض عنه جهود إخواننا الذين نجحوا فى إجهاض مساعينا ــ فكان أول خطوة قاموا بها أنهم ذهبوا يطلبون مقابلة جمال عبد الناصر ، ولكنهم انصرفوا حين جاءهم رسول منه يقول لهم : إن الرئيس يرفض مقابلتكم .

فــى رشيــد :

كانت إقامتى فى رشيد إقامة الثاكل المحزون .. كلما انتهت إجازة مرضية طلبت أخرى فى انتظار حلول الكارثة التى لاأعرف كنهها ولا أعرف مداها .. ولكننى كنت ألمح مقدماتها فى الحملة الصحفية المكثفة التى كنت أعتبرها أمضى سلاح يشهر فى وجه الإخوان ؛ لاسيما ووسائل الإعلام كلها محتكرة للحكومة ومحرمة على الإخوان .. وقد كان هدفى من جهودى كلها هو إتاحة فرصة للإخوان يفلتون فيها من براثن هذه الحملة الظالمة الشديدة التأثير ، فى النفوس والعقول ، والتى تهيىء النفوس والعقول لتصورات خاطئة .

والكلمة المقروءة والمسموعة أشد تأثيراً فى العقول ، كما أنها أشد فتكاً للنفوس ؛ من الجيوش الجرارة والبندقية والمدفع .. وإذا كان جمال عبد الناصر قد ضج واستغاث من نشرة صغيرة يصدرها الإخوان سراً كل شهر .. فكيف بالإخوان وثلاث صحف تصدر كل يوم تسيل أنهارها بفيض زاخر من الأكاذيب والافتراءات ضدهم ومقالات بأقلام مشاهير الكتاب ؛ فضلاً عن الإذاعة المسخرة لنفس المهمة ، ثم مجلات وكتيبات تطبع مزينة بالصور وتوزع عن طريق الحكومة وعن هيئة التحرير ؛ كل مابين دفتيها سم ناقع .. حتى المساجد سخرت للنيل من الإخوان وسبهم وتشويه سمعتهم فى خطب الجمعة .

فإذا علمت أن هذه الحملة يواكبها حملة استفزازية أخرى من الاعتقالات والتعذيب والتشريد والإهانة التى لاتقيم للإنسانية وزناً .. فى الوقت الذى انقطعت فيه الصلات بين شباب الإخوان وبين القيادة التى خطط لها أن تختفى فى أحوج الأوقات إلى وجودها ..

إذا وضعت كل هذه الظروف المستفزة كلها معاً .. وتصورت أعصاب شباب

وصلت من التوتر إلى أقصى حالات التوتر مع الضرب القاسى المستمر عليها.. إذا فعلت ذلك تصورت ما لابد أن يؤدى إليه هذا الاستفزاز من أخطر النتائج.. وهو ماكنت أتوقعه وهو أيضاً ماكان جمال عبد الناصر يسعى إليه ويهدف له.

شر متوقع:

خلاصة ماأريد أن أقول: إننى ذهبت للإقامة فى رشيد وأنا أتوقع شراً مستطيراً. ولكننى لأدرى كيف يقع ولا كيف يكون.

فالحملة الاستفزازية الجائحة التى دأبت على شنها وسائل الإعلام على الإخوان ليل نهار ودون انقطاع، يقابلها أن للإخوان رصيداً ضخماً من الأعمال المجيدة والسمعة التى لاتطاول يعتز بها الشعب فى مصر وفى خارج مصر.

وكان اعتقادى أن جمال عبد الناصر بالرغم من تملكه خزائن مصر وجميع وسائل الإعلام، كما أن طوع أمره وزارة الداخلية بما فيها من أساليب القهر والاستبداد، فإنه لن يستطيع مهما استعمل من أساليب الإرهاب مع الإخوان فلن يصل بذلك إلى قهرهم القهر الذى يتمناه والذى يقضى به عليهم، ولقد جرب ذلك معهم من قبل ففشل.

ولكننى لاأنسى أنه هذه المرة فى موقف أقوى مما كان عليه فى المرة الأولى؛ فقد استطاع هذه المرة أن يسيطر على الصحافة بالذات سيطرة تامة، باستيلائه على جريدة «المصرى» التى كانت الصوت الصحفى الوحيد المتحرر من أسر السلطة، والتى كانت عاملاً لايمكن إغفاله فى تأييد المطالبين بالحرية.. كما أنه فى هذه المرة سيكون أشد حذراً منه فى المرة السابقة؛ فقد تعلم من فشله فى المرة السابقة الكثير مما لابد أن سيتجنبه هذه المرة؛ فهو مثلاً تعلم أن إلصاق تهم مفتراة على الإخوان لايهز ثقة الشعب بهم، كما تعلم أيضاً أن قرارات الحل التى تصدرها الحكومة لاقيمة لها ولا تنال من البناء الإخوانى فى قليل ولا كثير.

لهذا كنت فى حيرة من الأسلوب الذى سيتخذه جمال عبد الناصر هذه المرة بحيث يتجنب أخطاءه التى ارتكبها فى المرة السابقة.. ولكن الذى كنت واثقاً منه أن الأسلوب أو نوع الشر المتوقع لابد أن تكون حملة الاستفزاز الجائحة التى شنها منذ حوالى الثلاثة الأشهر مقدمة له.. وأنه لابد أن يستثمر هذه الحملة أسوأ استثمار.

الأسلوب المبتكر أو حادث المنشية

مع كل ماذهبت إليه تصوراتى كل مذهب، ومع إطلاق مخيلتى للسبح فى أجواز

الخيال لاقتناص افظع صورة فيه من صور الهول والفزع، فإننى لم أصادف الصورة التى أعدها جمال عبد الناصر ولا حتى ماهو قريب منها.. ولا أدرى حتى اليوم هل هذه الصورة التى انتهت إليها خطته هى نفسها التى كان يعد لها ثم التقى تخطيطه مع الواقع، أم أنها كانت رمية من غير رام؟

وقد يبدو هذا التساؤل غريباً. ولكن القارىء إذا علم أن لكل مقدمة نتيجة لتبددت هذه الغرابة. ولقد سبق لى أن ذكرت أن أهم هدف لى فى حملتى الإصلاحية كان إراحة أعصاب الإخوان من الحملة الإعلامية المستفزة التى يشنها جمال عبد الناصر عليهم ليل نهار ــ ذلك أننى أعلم أن لهذه الأعصاب حداً من التحمل لاتستطيع أن تتعداه، ولا تطيق أكثر منه ــ دأب البشر جميعاً مهما بلغوا من الإيمان والصبر ــ فإذا تعدى الاستفزاز هذا الحد، فقد الإنسان السيطرة على أعصابه.. ومن فقد أعصابه كان مهيئاً أن يكون ألعوبة فى يد عواطفه، وفى يد من يستغل عواطفه.

وقد كان خوفى أن تصل الإثارة بالإخوان إلى هذا الحد فى الوقت الذى كانت فيه سيطرة القيادة غائبة عن الساحة.. وهذا هو الذى دفعنى أن أقول لجمال عبد الناصر بالحرف الواحد عن إخوان النظام الخاص حين حمل عليهم «أنت أدرى الناس بنفسيات هؤلاء الشبان وأنها لاتتحمل كل هذه الإثارة، فاعطنى فرصة لأهدىء من روعهم، وأنا أستطيع ذلك بإذن الله».. ولكنه فيما يبدو كان حريصاً على أن لايعطى هذه الفرصة لغرض فى قرارة نفسه؛ فهو يريد أن يصل بالإثارة إلى منتهاها...

ولا يخفى على أحد أن محاولة تهدئة هؤلاء الإخوان فى خلال هذا الجو الصاخب محاولة فاشلة ولا يقدم عليها عاقل.. وهذا أسلوب لم يكن يجهله جمال عبد الناصر ومن حوله من المخططين؛ ولذا فإنه أصر على أن لايتيح لنا الفرصة. وحين اضطر قيدها بشروط كان يعلم مسبقاً أننا سنعجز عن إنفاذها.

* * *

فى مساء يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ وضح أن خطة جمال عبد الناصر قد وصلت إلى الهدف الذى كانت تسعى إليه وتوجه الأحداث نحوه.. ذلك أن إذاعة مصر وإذاعات العالم نقلت إلى الناس نبأ مفاجئاً بأن جمال عبد الناصر نجا من محاولة لاغتياله، وهو يخطب فى دار هيئة التحرير بالإسكندرية، وأنه قد تم القبض على الجانى.

كان هذا النبأ مفاجأة للناس جميعاً، ولكنه كان بالنسبة لى لم يبلغ مستوى المفاجأة؛ لأننى كنت أتوقع حدوث شىء.. وإن كان الذى أتوقعه شيئاً أقل من ذلك مثل تفجير قنابل أو نحوها.

تحليل هذا الحادث:

وإذا كان ينبغى لمن يستعرض الأحداث أن لايدع هذا الحدث دون تحليل؛ فإننى أرى الغناء كل الغناء فيما ورد من تحليل فى مدخل هذا الجزء من الكتاب على لسان الإخوة صلاح وصالح وفريد.. وإذا كان لى أن أضيف شيئاً إلى ذلك فإننى أقول:

١ ــ إذا كان الإخوان يريدون إتيان عمل كهذا، أفلم يكن الأولى بالقيام به إخوان الإسكندرية، والمثل يقول «أصحاب الدار أدرى بمسالكها» والمفروض فيمن يرشح نفسه لمثل هذا العمل أن يرتب لنفسه خطة الهرب؛ ولا يستطيع هذا إلا من له دراية كاملة بمعالم هذا البلد وأدق تفاصيل مسالكه.

٢ ــ لاشك فى أن جمال عبد الناصر ومن حوله من حرس حكومى يدخل فيه المباحث العامة والمباحث الجنائية والشرطة العسكرية والمخابرات العسكرية والمخابرات العامة وغيرهم ــ كانوا يتوقعون كل شىء من ناحية الإخوان لاسيما النظام الخاص كرد فعل لحملاتهم الاستفزازية؛ وهم فى نفس الوقت ملمون إلماماً تاماً بجميع شعب الإخوان فى القطر كله وبأفراد «النظام الخاص» على وجه الخصوص؛ بدليل أنهم بعد حادث المنشية مباشرة ألقوا القبض على جميع أفراد هذا النظام فضلاً عن اعتقال غيرهم من الإخوان.. فلو أنهم أرادوا منع محمود عبد اللطيف ــ وهو معروف لهم بالذات ومعروف لجمال نفسه ــ من السفر إلى الإسكندرية فى ذلك اليوم لفعلوا ــ فعدم منعهم إياه يشتم منه رائحة التواطؤ أو على الأقل التغافل لحاجة فى نفس يعقوب.. قد كان يعلمها محمود وقد لا يعلمها هو ويعلمها من يرأسه فى النظام الخاص.

٣ ــ لو كان الإخوان يريدون اغتيال جمال عبد الناصر، فقد كانت أمامهم عشرات الفرص لتنفيذ ذلك دون مخاطرة تذكر ــ ولو فرضنا أن كل الفرص فاتتهم وأرادوا أن ينفذوها بعد ذلك لما وقع اختيارهم على تنفيذها فى حفل عام يضم هذا العدد الضخم وهم يعلمون أن رجال المباحث مندسون وسط كل صف من صفوف الجالسين والواقفين، ولما اختاروا أن يصوبوا إليه مسدساً من أسفل إلى أعلى على بعد لايقل عن عشرين متراً.. ولكان تصرفهم غير هذا التصرف الذى هو أشبه أن يكون عملاً استعراضياً منه بأن يكون عملاً جاداً.

٤ ــ إذا افترضنا جدلاً أن هذا العمل قام به أفراد من الإخوان، فإن إتيانهم إياه بهذه الطريقة يدل على أنه ليس من تدبير هيئة كهيئة الإخوان المسلمين فيها من العقول ومن الخبرة مالا يتمخض عن مثل هذه الخطة الصبيانية.. وبهذا كان ينبغى اعتباره عملاً فردياً لاعلاقة له بدعوة الإخوان المسلمين، ولا بهذه الهيئة المترامية

الأطراف؛ وما كان ينبغى أن تؤخذ هذه الهيئة بجريرة فعل فردي، بل يؤخذ هؤلاء الأفراد وحدهم بجريرة مافعلوا.. ولكن يبدو أن الهدف كان مبيتا لدى أصحاب السلطة.

* * *

الفصل الثالث

فى أعقاب حادث المنشية

كان حادث المنشية ذروة الحملة الجائحة التى شنها جمال عبد الناصر على الإخوان المسلمين، وكانت من وجهة النظر المجردة ذروة انتصاره على الإخوان المسلمين الذين كانوا المنافسين الوحيدين له، والفئة الأخيرة التى تقف عقبة أمام آماله وأطماعه التى لم يكن قد تكشف منها للشعب شىء بعد...

وافتتان الشعب به غشى على أعين الناس فى مصر وخارج مصر، حتى إنهم حملوا ماتدفقت به أبواق الدعاية المصرية من تجريم الإخوان المسلمين على محمل الصدق، ولم يحاولوا أن يعرضوا على عقولهم ظروف الحادث وما أحاط به من ملابسات.. وأنشئت المحكمة التى كانت محاكمتها للمتهمين بأكبر جريمة أقصر محاكمة فى التاريخ وأشدها غموضاً، ونفذت الأحكام فور صدورها مما يشعر بأنهم يتسترون على أسرار يخشون أن تتسرب إلى الشعب لو أن هؤلاء المتهمين طال بقاؤهم أحياء.

قضية من الواقع تعرض نفسها على العقل:

وبدأت فى نفس الوقت بل فى نفس الساعة بل فى نفس اللحظة حركة مجنونة للقبض على الإخوان فى كل مكان، بطريقة توحى هى وحدها بأن حادث المنشية كان حادثاً مدبراً، رسمه واضعو خطته، ووضعوا معه خطة القبض، وأعدوا أسماء من يقبض عليهم، وسلموا القوائم إلى المسئولين عن الأمن؛ حتى إذاجاءت ساعة الصفر ألقوا القبض على الأشخاص الذين تضمنت أسماءهم القوائم.

وإلاّ فبأى تعليل يمكنك أن تعلل الآتى:

«تقابلت صدفة فى السجن الحربى بعد بضعة أشهر من اعتقالى مع الأخ الأستاذ محمد سالم عضو الهيئة التأسيسية وهو من أهالى سوهاج وكان مفتش وزارة التربية والتعليم بها فقال لى: إن حادثة المنشية إذيعت على الهواء فى الساعة الثامنة مساءً.. وفى الساعة الثامنة

والنصف وصل إلى بيتى مفتش المباحث العامة بسوهاج وفى يده كشف به اسمى واسمك واسم الأخ الأستاذ طاهر عبد المحسن — وثلاثتنا أعضاء بالهيئة التأسيسية — وقال لى مفتش المباحث إنه قد اعتقل الأستاذ طاهر عبد المحسن، وجاء لاعتقالى، وقال إنه لايعرف عنوان إقامة محمود عبد الحليم فأين هو يقيم؟ فقلت له: إننى لأعلم أنه جاء إلى سوهاج لأنه لو كان وصل إلى سوهاج لزارنى أو على الأقل لعلمت بوصوله».

ولموضوع اعتقالى ظروف معينة سأعرض لها بعد ذلك إن شاء الله — ولكننى أوردت هذه المناقشة ليعلم القارىء أن كشوف الاعتقال كانت معدة من قبل، ولكن تنفيذها كان مرهوناً بوقوع حادث المنشية أو قل موقوتاً بها أو مرجأً حتى تتم إجراءات وقوعه.

وهنا يجب أن نوضح ماأشرنا إليه من قبل من أن اعتقال الحكومة للإخوان فى يناير ١٩٥٤ بعد حل هيئتهم، وما تكشف بعد ذلك من براءتهم مما نسبَ إليهم من تهم؛ جعلت الشعب لايتقبل اعتقالهم مرة أخرى إلا إذا اقترفوا جريمة يراها الشعب بعينيه — ومن هنا كان لابد من ترتيبات محكمة لوقوع حادث المنشية بهذه الطريقة المسرحية المثيرة التى يراها الشعب كله بعينيه فقد كان الجميع فى أنحاء البلاد فى تلك الليلة أمام أجهزة الراديو مرهفين آذانهم لسماع خطبة الزعيم التى روجت وسائل الإعلام لها طيلة أيام قبلها.

حتى تم اعتقالى

قدمت فى فصل سابق أننى بعد ماتم فى اجتماع الهيئة التأسيسية من إجهاض خطتنا لتفادى الصدام أو تأجيله، قررت أن لاأتخلى عن إخوانى وإن كنت أراهم قد تنكبوا طريق الصواب، حيث أديت واجبى وأرضيت ضميرى. وما كان لى بعد ذلك أن أتخلف عن الركب وإن كنت أعتقد أنه متجه إلى ملاقاة المصائب والأهوال، وقديما قال علىّ كرم الله وجهه «كدر الجماعة خير من صفو الفرد» وكنت وإياهم كما تمثل فى مثل هذا الموقف على كرم الله وجهه مع أصحابه بقول أخى هوازن:

أمرتهمو أمرى بمنعرج اللوى   فلم يستبينوا النضح إلا ضحى الغد

ماكان لى أن أتخلف عن الركب وألاقى مايلاقى راضى النفس مستريح الضمير، موقناً على كل حال بوعد الله الذى لايتخلف حين قال ﴿والعاقبة للمتقين﴾ والإخوان مهما أخطأوا فإن أخطاءهم لاتمس صميم دعوتهم، ولا تنال من صلابة مبادئهم، ولا من عمق إيمانهم، ولا من جلال إخلاصهم؛ وإنما هى وسائل تختلف حولها وجهات النظر؛ فطريقان كلاهما يوصل إلى الهدف أحدهما سالك والآخر شائك، فإذا اختلفنا حول أيهما نسلك، واتفق الأكثرون على الطريق الشائك فلابد أن نسلكه جميعاً ونصل إلى الهدف أخيراً ولكن

بعد أن تتمطع أقدامنا وتتمزق ثيابنا وتدمى وجوهنا وجلودنا.. وهكذا سرنا مع الركب ونحن نعرف ماوراء هذا السير من أهوال.. وهكذا كان سفرى إلى موطنى الأصلى رشيد.

الصداقات فى الريف:

الصداقات عموماً عامل مؤثر فى حياة الناس، ولكن تأثيرها فى الريف أبعد مدى منه فى العواصم والمدن الكبيرة.. وحين رأيت بعد اجتماع الهيئة التأسيسية الأخير أن آوى إلى رأسى رشيد، شعرت بالتأثير العميق للصداقات بين الناس من أهالى الريف.. وقد تجلى هذا التأثير العميق خلال فترة إقامتى فى رشيد على الوجة الآتى:

أولاً: مع احتجابى معظم الوقت فى البيت فإننى فى الفترات القليلة التى كنت أقضيها خارج البيت كنت أشعر بتعاطف كبير ممن ألقى من أهل بلدى— ولعل ذلك نابع من أنهم يعرفون عنا أننا أهل بيت عريق فى التدين والتعليم الدينى، ومن الخطب والأحاديث التى كنت ألقيها عليهم فى مقتبل أيامى فى دعوة الإخوان المسلمين.

ثانياً: أن الصداقات التى كانت تربط بين والدى وعمى وبين رجال الإدارة فى مركز رشيد؛ جعلت هؤلاء الناس يحاولون التستر على وجودى فى رشيد ويحاولون أن يدفعوا عنى كل خطر يستطيعون دفعه.. وقد قاموا فى هذا الصدد بمجهود كبير لاأنساه وأسأل الله أن يحسن جزاءهم عليه؛ فكم كتبوا ردوداً على المسئولين عند استفسارهم عنى.

ثالثاً: صداقة عمى مع مفتش صحة المركز أتاحت لى فرصة إجازة مرضية امتدت نحو خمسة وأربعين يوماً. ولولا ظروف طرأت سأذكرها إن شاء الله لامتدت أكثر من ذلك. ولولا هذه الإجازات لتغير الوضع بالنسبة لى.

رابعاً: على أثر وقوع حادث المنشية جاءنى أحد أقربائى موفداً من رجال الإدارة بالمركز— الذين كانوا حريصين على عدم الاتصال المباشر بى إيثاراً لمصلحتى ومصلحتهم— وقال لى: إن رجال الإدارة يطلبون منك أن تستنكر حادث المنشية وتعلن تبرؤك ممن دبروها.. وقال لى: اكتب هذا الاستنكار وسيصل إلى الصحف عن طريقهم دون أن تعرف الصحف المكان الذى جاءهم منه..

ولما كنت فى جميع مواقفى منذ عرفت دعوة الإخوان المسلمين أوثر التجاوب دائماً مع العقل والمنطق دون العاطفة؛ فقد وجدت ماطلب إلىّ وإن كان يلذع قلبى ويتجافى مع عواطفى فإنه يتجاوب مع العقل ويتمشى مع المنطق.. فالحادثة

وإن كان لها من الظروف مايوحى بأنها مسرحية حكومية ؛ إلا أن الشعب فى مصر وفى خارج مصر خالى الذهن عن هذه الظروف، ولا يعرف إلا أن الذى حدث هو اعتداء غاشم على رجل لايزالون يرون فيه تحقيق آمالهم.. فعدم استنكارى للحادث وتبرؤ من مدبريه لايغير من فهم الشعب للحادثة على الصورة التى تصوروها وإنما سيحرجنى ويحرج هؤلاء الرجال الذين يحاولون أن يدفعوا عنى خطراً هو فى نظرهم عظيم؛ ولكننى كنت أعلم أنه خطر أعظم مما يتصورون؛ لأننى أعلم أننى أطوى أحناء ضلوعى على أسرار كنت أبتهل إلى الله أن يعفينى من موقف اضطر فيه إلى إفشائها لاحرصاً منى على نفسى فحسب بل حرصاً على هذه الدعوة.. ولهذا استجبت لما طلبوا وكتبت الاستنكار ونشر فى الصحف، ولا أدرى كيف وصل إلى الصحف.

خامساً: إشاعة هروب الأخ يوسف طلعت إلى رشيد:

بصدد تأثير الصلات أرانى مديناً بدين كبير إلى زملاء لى كراماً بمصلحة القطن التى كنت أعمل بها ولا سيما للأستاذ حسين الخضرى مدير مراقبة القطن وإلى الأخ العزيز الأستاذ أحمد عبد اللطيف نجيب مدير المستخدمين بالمصلحة فقد عملا أولا على تعديل نقلى وإرجاعى من مصلحة الأموال المقررة بقنا إلى مصلحة القطن بجرجا وقد قاما بابلاغى هذا النبأ عن غير الطريق الرسمى — عن طريق صديق — حتى لاتستدل وزارة الداخلية على مكان وجودى.

وقد تبين لى فيما بعد أن وزارة الداخلية حين أرسلت إلى رجالها فى سوهاج.. حيث كان يجب أن أكون — لاعتقالى ليلة حادث المنشية وردوا عليها بأننى غير موجود — اتجهت وزارة الداخلية إلى مصلحة القطن تسألها عنى وعن مقر إقامتى، وأرسلت إليها أكثر من خطاب فى هذا الشأن؛ فكان الأخ الأستاذ أحمد عبد اللطيف باعتباره المسئول عن المستخدمين بالاتفاق مع الأستاذ حسين الخضرى يرد عليهم فى كل مرة بقوله: إن هذا الشخص ليس بالمصلحة.. ومع أن هذا الإجراء خطير ومجازفة من هذين الرجلين الكريمين إلا أن الله الذى كان إرضاؤه هدفهما قد سلّم، وقد ساعد على ذلك طبيعة الروتين الحكومى الذى يخفى كثيراً مما يراد إخفاؤه. وقد نجح هذا الأسلوب نجاحاً كبيراً فيما يختص بى؛ فقد ظللت مجهول المكان قرابة شهر ونصف شهر حتى حدثت الحادثة التالية:

كان مأمور مركز رشيد حين قدمت إليها الأستاذ الحبال وكان رجلاً فيما بلغنى طيباً، وإن كانت الخدمات التى قدمت إلىّ فى أيامه لم تأت عن طريقه مباشرة، بل كانت تأتى عن طريق مرءوسيه من رجال الإدارة وهو قد لايدرى عن وجودى برشيد؛ حتى طرأ على الموقف طارىء لم يكن يخطر على البال.. اضطرب معه حبل الصلات، بل

تقطعت تحت عنف شدته وسائل الصداقات، واكفهر الجو فجأة حتى صار كالليل البهيم، ذلك أن القبض على الأخ يوسف طلعت باعتباره رئيس النظام الخاص كان هدفاً أساسياً من أهداف حملة الإرهاب التى شنتها الحكومة على الإخوان عقب حادث المنشية.. وقد قبضوا عليه فعلاً من الإسماعيلية ــ كما شاع ــ وأركبوه القطار المتجه إلى القاهرة مع حرسه. ثم قالوا إنه غافل الحرس وقفز من شباك القطار فى أثناء سيره وهرب. ثم قالوا: إن بعض الأشخاص أبلغوا وزارة الداخلية أنهم رأوا شخصاً تنطبق عليه أوصافه فى ناحية رشيد.

وهنا قامت قيامة وزارة الداخلية على رشيد.. وحينئذ تذكروا أن رشيد هى مسقط رأس محمود عبد الحليم ومقر أسرته. فطلبوا فى حالة هيستيرية من مأمور مركز رشيد التحرى عما إذا كان محمود عبد الحليم موجوداً فى رشيد.. وأمام هذه الحالة الهستيرية لم يكن بد من أن يبلغ رجال المباحث رغم أنفهم عن وجودى برشيد ولكنهم قالوا: إنه كان فى رشيد وغادرها منذ فترة.

وكان من أثر ذلك أن اعتبروا هذا إهمالاً من مأمور المركز ونقلوه فى الحال وطلبوا من محافظ البحيرة انتداب موظف كبير للقيام بمهام مركز رشيد فى خلال تلك الفترة العصيبة؛ فانتدب المحافظ لهذه المهمة مأمور ضبط المحافظة الذى قدم فى الحال وتولى مهمته.

ولقد كانت مصادفة طيبة أن اختير لهذه المهمة هذا الرجل بالذات؛ فإن الأستاذ عبد العزيز منصور مأمور ضبط المحافظة كان قبل ذلك بسنوات طويلة معاون إدارة مركز رشيد وكان صديقاً حميماً لوالدى وعمى وكانت بيننا وبينه صلة عائلية، وهو يعرفنى شخصياً أيام كنت صغيراً.. وما كادت تطأ قدمه رشيد حتى أرسل فى طلب والدى وعمى وأسرّ إليهما الحديث التالى:

قال: إن وزارة الداخلية فى حالة هستيرية لما بلغها من أن يوسف طلعت رؤى فى ناحية رشيد، وقالت الوزارة لمحافظ البحيرة إنها تعتقد أن يوسف طلعت اختار رشيد لأنها بلد محمود عبد الحليم، ولابد أنه يعلم أن محمود عبد الحليم فى رشيد، ولهذا جاء إليه ليختفى عنده.. ولهذا فإننا نطلب إليك انتداب موظف كبير ليذهب إلى رشيد ويلقى القبض على محمود عبد الحليم فى الحال.. ثم قال الأستاذ عبد العزيز: لما بلغنى هذا الموضوع سارعت إلى ماطلبه إلىّ المحافظ من القيام بهذه المهمة لانقاذ ماأستطيع إنقاذه.. ثم قال: أنتم إخوتى ومحمود ابنى. وأنا لاأستطيع أن أقبض عليه لسببين:

أولهما: عاطفتى نحوكم ونحوه.. وثانياً: لأنه إذا قبض عليه فى رشيد فستوجه إليه تهمة إيواء يوسف طلعت ويعتبر حينئذ شريكاً له.

ثم قال: ولهذا فرجائى أن يسافر محمود اليوم إن أمكن أو صباح غد على الأكثر إلى مقر عمله فى جرجا ليعتقل من هناك ـــ لأننى سأبلغ الداخلية أنه ليس موجوداً فى رشيد وأنه بمقر عمله بجرجا، وسأرتب مع المباحث تقريراً بأنه غادر رشيد إلى مقر عمله قبل أن يشاع أن يوسف طلعت رؤى فى رشيد.

وجاء والدى وعمى، وأبلغانى ماقاله الأستاذ عبد العزيز منصور، فقمت فى الحال وأعددت حقيبتى للسفر إلى جرجا وسافرت فى الحال.

فـى جرجـا:

وصلت إلى جرجا. وكانت أول مرة أنزل فيها ذلك البلد الذى كان فى يوم من الأيام عاصمة المحافظة وكان لى فى جرجا ابن خالة من أبر وأكرم أقاربى، هو الحاج سيد أحمد عثمان تاجر الحبوب. ولكننى كنت حريصاً على أن لاأنزل فى بيته. فنزلت فى أحد الفنادق. وذهبت فى المساء لزيارته فاستقبلنى بما طبع عليه من كرم وحسن وفادة وأقسم لأنزلن عنده، ولكننى أصررت على الاعتذار وشرحت له الظروف وقلت له فى صراحة: إننى قدمت إلى جرجا لاعتقل، وأنا فى انتظار ذلك بين لحظة وأخرى، ولا أحب أن يعرف أننى اعتقلت من بيتك فأسبب لك متاعب بدون داع ولا مبرر..

وبعد بضعة أيام لاأذكر عددها الآن ولكنها لاتعدو الثلاثة حضر إلى المحلج حيث هو مقر وظيفتى مأمور المركز وطلب مقابلتى فقابلته فعرفنى بشخصيته وقال لى إنه يأسف لأنه كلف بالقبض على.. وكان الرجل يعتقد أنها مفاجأة لى.

ركبت السيارة مع مأمور المركز. وقد سألنى عن محل إقامتى فأخبرته بالفندق الذى أقيم فيه فصعد معى إلى حجرتى، ولم يكن لى متاع سوى حقيبتى ففتشها ثم ذهبت معه إلى مبنى المركز حيث قدمنى إلى نائب المأمور حيث بقيت معه فى حجرة مكتبه وجلست على «كنبة عربى» فى هذا المكتب فى انتظار وصول أول قطار يصل إلى القاهرة.. وقد أمضيت فى مكتب نائب المأمور ساعتين قدم فى خلالهما بعض من تعرفت عليهم من العاملين بالمحلج فغمرونى بعواطفهم التى لاأنساها حتى اليوم لأن المجاملة فى موقف كالذى كنت فيه تعد شجاعة أصيلة وكرماً بل ومجازفة.. وشعبنا ـــ بالرغم مما رزح تحته من كلاكل الظلم والاستبداد ـــ فإنه لايزال كثيرون منه محتفظين بما طبعوا عليه من نبل ووفاء.. أما ابن خالتى الحاج سيد فأكل إلى الله وحده حسن جزائه على ماقدّم لى فى هذه الفترة العصيبة فقد أرسل إلىّ نجله الأستاذ محمد رحمه الله بطعام فاخر وفاكهة، وظل بجانبى حتى تحرك القطار بل وقد حاول أن يرافقنى إلى القاهرة لولا أن أقسمت عليه أن لايفعل.

ويحق لى هنا أن أسجل موقفاً يدل على أن نفوس الكثيرين من هذا الشعب الأصيل

هى كالذهب الذى انهال عليه التراب والأقذار حتى طمست معالمه، وخبا تحت ظلامها نوره.. بينما كنت جالساً عند نائب المأمور أدخل عنده مجموعة من الناس تمثل فريقين بينهما خصومة، وقد اعتاد هؤلاء الناس على الكذب والاختلاق لنفى تهم موجهة إليهم.. وأخذ الرجل يستجوبهم بالحسنى ولكنهم لجوا فى أساليبهم الملتوية مما جعله يلجأ هو الآخر إلى معاملتهم بأسلوب خشن استعمل فيه بعض الألفاظ النابية والسباب مع التهديد..

لم يكن فى كل ماحدث أمامى شيء يستوقف النظر لأنه التصرف المألوف فى مثل هذه الحالات ولكن الذى استوقف نظرى أننى رأيت نائب المأمور يلتفت إلىّ قائلاً: «ياأستاذ لاتؤاخذنى فى هذه الألفاظ التى لايليق أن أتفوه بها فى وجودك، وليست هى من طبيعتى، ولكن معذرة؛ فكثرة احتكاكنا بالأشرار علمتنا ألفاظاً كهذه.. وسأل الرجل الله أن يتوب عليه من هذا العمل الذى يؤدى به إلى التفوه بمثل هذه الألفاظ».

كان لهذه الواقعة أثر عميق فى نفسى لأن لها دلالتين:

الأولى: أن الدنيا لازالت بخير، وأن فى هذا الشعب معادن نفيسة تتمنى أن ترفع عن نفسها ماتراكم عليها من أقذار.

الثانية: أن المجهود الذى بذله جمال عبد الناصر لتلويث سمعتنا ــ نحن الإخوان ــ سيضيع هباءً بإذن الله.. فنحن فى ذلك الوقت كنا تحت نير حملة التلويث، وكانت هذه الحملة قد وصلت إلى ذروتها، ثم إننى مقبوض علىّ باعتبارى من أئمة الفساد ورءوس الضلال كما كان مكتوباً فى الصحف؛ ومع ذلك فالمكلف بالقبض علىّ ينظر إلىّ نظرة الإجلال والاحترام، ويعتبرنى ممثلاً للطهر والنقاء إلى الحد الذى جعله يعتذر إلىّ من ألفاظ وجهها لغيرى أمامى.

الباب الخامس عشر

فى السجن الحربى

الفصل الأول : إلى السجن الحربى

الفصل الثانى : مآثم لاتنسى

الفصل الثالث : طغيان الأقزام

الفصل الرابع : دراسات

الفصل الأول

إلى السجن الحربى

لما جاء القطار الذاهب إلى القاهرة، ودعنى قريبى وعدد من العاملين بالمحلج حتى قام القطار. وكنت فى صحبة معاون بوليس جرجا. وكان إنساناً لايقل نبلاً عن زملائه ورؤسائه فى المركز — وكان المعتاد فى تلك الأيام — مظهراً من مظاهر الإهانة والتنكيل — أن توضع القيود فى يدى المعتقل حتى يسلم إلى السلطات فى القاهرة؛ ولكن هذا الرجل ورؤساءه رفضوا أن يعاملونى هذه المعاملة.. حتى وصل القطار بنا إلى محطة القاهرة، فكان فى انتظارنا سيارة من سيارات البوليس أوصلتنا إلى وزارة الداخلية؛ حيث سلمنى هذا الضابط الكريم إلى المسئولين فيها الذين سلمونى بدورهم إلى إدارة المعتقل الذى كان هو السجن الحربى بالعباسية.

(١) الاستقبال

والاستقبال فى السجن الحربى كان مفاجأة؛ لأنه كان شيئاً غير الذى سمعناه من جمال عبد الناصر وهو يتوعدنا وظنناه يومئذ أنه قد تخطى بوعيده هذا حدود اللائق والمعقول.. ولكن الذى استقبلنا به فى السجن الحربى كان شيئاً جديداً فى تاريخ مصر.. وكان عاراً لطخ سمعة هذه البلاد تلطيخاً لن يمحى على مر الزمن؛ لأنه كان إهداراً للإنسانية والآدمية.

عند دخول باب السجن الحربى يقابل المعتقل بعاصفة من الصفع بالأيدى والركل بالأقدام والضرب بالعصى فى كل مكان من جسمه، ثم تحلق رأسه حلقاً يكاد يزيل كل مابها من شعر، ثم يؤمر بحمل أمتعته والجرى بها إلى زنزانته تحت عاصفة أخرى من الصفع والركل حتى يدخل باب زنزانته وتغلق عليه — أما السباب والألفاظ البذيئة فقد نغفلها لأنها لاتعد إهانة إذا قيست بما سواها من الإهانات.

(٢) الزنزانة

أما الزنزانة فهى حجرة صغيرة تقل مساحتها عن ثلاثة أمتار فى مترين. أرضيتها من

الإسفلت. وبابها قطعة واحدة من الحديد ليس به إلا ثقب صغير فى مساحة العين يمكن إغلاقه من الخارج. ومزلاج الباب من الخارج. وليس بهذه الحجرة نوافذ إلا طاقة صغيرة قرب سقفها مساحتها نحو ٦٠ سم× ٣٠ سم شبه مسدودة بأعواد من الحديد. وبالزنزانة جردلان أحدهما للتبول والآخر للشرب ونظراً لضيق الزنزانة بنزلائها من المعتقلين رفع جردل شرب الماء منها وأعطى لكل معتقل قلة من الفخار؛ فقد وصل عدد المعتقلين فى الزنزانة إلى ثمانية أفراد.

ومصروف لكل معتقل بطانيتان سوداوان من بطانيات الجيش وعليه أن يدبر لنفسه وسادة يضعها فى النوم تحت رأسه، وكانت الوسادة عادة هى الحذاء مغطى بجزء من إحدى البطانيتين ــ وهذه الزنازين كانت مجردة من أى شىء ينام عليه، فليس بها أسرة طبعاً، ولا ألواح من الخشب ولا حتى «البرش» الذى اعتاد الناس أن يتندروا به رمزاً لمعنى الإهانة، هذا البرش لم يكن موجوداً بل كان النوم على الأسفلت مباشرة فكنا ننام على إحدى البطانيتين ونتغطى بالأخرى.

وتظل الزنازين مغلقة طول اليوم والليلة ولا يفتح بابها إلا خمس مرات: فى الثالثة صباحاً أى بعد منتصف الليل وقبل الفجر وفى الساعة السابعة صباحاً لتقديم الإفطار وفى الواحدة بعد الظهر لتقديم الغداء وفى الخامسة مساء لتقديم العشاء، وتفتح وقت الضحى للخروج إلى الطابور اليومى.

وإذا تصورت ثمانية أشخاص نائمين فى هذه الحجرة الصغيرة المغلقة والمحكمة الإغلاق ولا منفذ لها إلا الطاقة الصغيرة قرب سقفها فإنك لاشك تعتبرهم غارقين فى عرقهم.. يأتى العسكرى فيفتح باب الزنزانة فى الساعة الثالثة صباحاً سواء فى الصيف أو فى الشتاء، فإذا كان الوقت شتاءً فإن الفرق بين الحرارة فى داخل الزنزانة وفى خارجها كاف أن يصيب أى إنسان بمرض يقضى عليه إذا تعرض فجأة لهذا الفرق مرة واحدة.. فما بالك إذا تعرض له كل يوم.. وإذا فتح الباب فالويل لمن أبطأ فى الخروج إلى العراء حيث السقف هو السماء.. يجب أن يكون الجميع فى خارج الزنزانة وفى يد كل منهم قلته وفى قدميه قبقابه فيما لايتجاوز دقيقة واحدة.. والجميع يهبطون السلم فى أسرع جرى حيث يقفون مصطفين أمام دورة المياه؛ حيث لايسمح للشخص أن يمكث داخل المرحاض أكثر من دقيقتين ثم يخرج.. والمسموح له بعد ذلك أن يغسل وجهه ويملأ قلته ثم يصعد إلى زنزانته، ولكننا كنا نتوضأ وضوءاً سريعاً خاطفاً.

وكان علينا أيضاً فى هذه المرة من الفتح أن نصحب معنا جردل البول لصبه فى دورة المياه فكنا نتناوب هذه المهمة ــ وكان مسموحاً لنا بالاستحمام فى هذه الفترة قبل الفجر مرة كل أسبوعين تقريباً ولكن بدش بارد تكاد تصل برودته فى ليالى الشتاء إلى مايقرب

من التجمد؛ على أن لايستغرق الاستحمام أكثر من ثلاث دقائق .

والعجيب فى هذا أننا قضينا فى هذا السجن ماقضينا تحت هذه الظروف القاتلة التى أشرت إلى القليل منها؛ ومع ذلك لم يمت أحد منا بل ولم يمرض والحمد لله، وكان منا الشيوخ والشباب .

وصف السجن الحربى

وينبغى قبل أن أسترسل فى شرح الأسلوب الذى كنا نعامل به أن أصف السجن الحربى حتى يستطيع القارىء أن يتصوره.

هذا السجن مبنى على ربوة فى منطقة العباسية . وهو معد لاستقبال المحكوم عليهم من جنود الجيش وضباطه فى جرائم عسكرية خطيرة. وظل منذ إنشائه لايدخله إلا العسكريون حتى جاء جمال عبد الناصر فجعله لأول مرة معتقلاً للمدنيين.

والسجن مكون من عدة أبنية ، كل بناء منها مستقل عن غيره . ويسمى كل بناء منها سجناً ، ويميز كل سجن عن الآخر إما برقم وإما بصفة معينة؛ فهذا سجن (٤) وهذا السجن الكبير، وهذه الشفخانة أى المستشفى ــ وهناك سجون من دور واحد كالشفخانة وسجون أخرى من عدة أدوار وكان الإخوان يشغلون سجن (٤) والسجن الكبير . وبين بعض السجون وبعض أرض فضاء واسعة جداً . كما أن داخل كل سجن فناء تتناسب سعته مع سعة السجن. وبجانب البوابة العمومية للسجن الحربى توجد المكاتب وهى عبارة عن عدة حجرات متلاصقة من دور واحد بها القائمون على إدارة السجن، وهم مجموعة من الضباط كان على رأسهم فى ذلك الوقت ضابط برتبة بكباشى (مقدم) اسمه حمزة البسيونى هو قائد السجن الحربى.

والسجن الكبير الذى كنت نزيله هو مبنى على أرض مربعة الشكل ومقام على كل ضلع من أضلاع المربع بناء من ثلاثة أدوار ، كل دور عبارة عن صف من الزنازين المتلاصقة أمامها ردهة بعرض متر تقريباً تفتح عليها أبواب الزنازين، وللردهة سور يطل على فناء السجن. وبهذا السجن ثلاثمائة زنزانة وبالدور الأرضى توجد دورتان للمياه كما توجد عدة مكاتب ــ وسجن (٤) الذى يشغله الإخوان أيضاً هو على نسق السجن الكبير وصورة مصغرة منه .

وأما فتح الساعة السابعة صباحاً فهو لتقديم طعام الإفطار، وقد نسيت ماكانوا يقدمونه لنا فى الإفطار ولكن الذى أذكره أنهم كانوا يقدمون لنا الشاى فى أقداح من الألومنيوم القذر ، وإنى أذكر هذا الشاى دون غيره لأننى لم أكن أشربه لالأنه فى إناء قذر

وإنما لأننى أقاطع الشاى من قبل أن أدخل السجن الحربى بسنين طويلة لأسباب ذكرتها فى الجزء الأول من هذه المذكرات.

وأما فتح الساعة الواحدة بعد الظهر فلتقديم طعام الغداء ويتكون عادة من رغيف وحلاوة طحينية وتكاد تكون الحلاوة الطحينية هى أحسن ماكان يقدم لنا من طعام — وفتح الساعة الخامسة مساء كان لتقديم وجبة العشاء وهى عادة عدس أو خضار مطبوخ مع رغيف وأرز وقطعة من اللحم.

وعلى العموم فإن الطعام الذى كان يقدم لنا كان هو نفسه الطعام الذى كان يقدم للجنود مع ملاحظة أن الجنود هم الذين كانوا يتولون طهى الطعام وتقسيمه وتوزيعه فكانوا بطبيعة الحال يؤثرون أنفسهم علينا مستبيحين ذلك نحو قوم يرون فى اضطهادهم زلفى إلى رؤسائهم وسادتهم.. وقد رأوا بأعينهم رؤساءهم وسادتهم يرغمون هؤلاء المعتقلين على أكل الطعام ممزوجاً بالتراب، ولا يجد هؤلاء المعتقلون بدأ من تناوله وابتلاعه. كما أن هؤلاء الرؤساء والسادة قد أفهموا هؤلاء الجنود أن هؤلاء المعتقلين خونة للوطن وسفاكون للدماء.

وقد علمنا بعد أن ألقى بنا فى غياهب السجن الحربى أن الجنود الذين يختارون للعمل بالسجن الحربى يختارون عادة من المشهود لهم بالغلظة والفظاظة والقسوة والجهل، مع المقدرة على كيل السباب وبذاءة اللسان. ويميزون على زملائهم الذين لم يصلحوا للعمل بالسجن الحربى بعلاوة يمنحونها تسمى علاوة الإجرام.

وطعام العشاء — والمفروض أنه الوجبة الرئيسية فى اليوم لأنه طعام مطهو — لم يكن طهيه أكثر من إلقاء الخضار كما هو تقريباً فى ماء مغلى ولا تستطيع أن تميز أى نوع من الخضار هو،لأنه لاطعم له.. ومع ذلك كنا نقبل عليه بشهية.

نسمة وسط الضيق:

ولا يفوتنى أن أذكر أننا عند دخولنا هذا السجن عندما استقبلونا بعواصف الإجرام، كان هؤلاء الجنود حريصين على سؤال كل منا عن بلده؛ فلما ذكرت بلدى تقدم جندى منهم نحوى وأسر فى أذنى أنه «بلدياتى» أى من رشيد وأنه سيحاول الاتصال بى بطريقة غير مكشوفة.. وقد فعل.. وكان هذا الجندى «محمود» تخفيفاً من الله عنى فى هذا الجحيم الملتهب.. وكثيراً ماكان يحمل منى خطابات لأسرتى ومنها إلىّ حتى نقل من السجن بعد بضعة أشهر — ولقد كان هذا الجندى معرضاً لأخطر العقوبات فى مجازفته بحمل خطابات منى وإلىّ. ومع ذلك فقد كان يجازف هذه المجازفة بغير مقابل.. وفى هذا دلالة واضحة على أن أبناء هذه البلاد تنطوى جوانحهم على مشاعر من النبل تختفى تحت

ظواهر ــ قضت بها الظروف السيئة ــ تتنافى مع النبل والكرم والمروءة.

فتح الضحى والأغنية المشئومة:

أخرت الكلام عن فتح الضحى وتكلمت عما قبله وعما بعده؛ لأن فتح الضحى هذا كان له وضع خاص؛ إذ كان هو الهوان الذى مابعده من هوان؛ فإن الكريم يصبر على الجوع والعطش وعلى العرى وعلى النوم على التراب، ولكنه قد لايصبر على أن توجه إليه كلمات تطعن شرفه وتمتهن كرامته.. فما بالك إذا أرغم على أن يوجه إلى نفسه بنفسه هذه الكلمات..

لقد كان فتح الضحى سحقاً لكرامتنا وتحطيماً لنفوسنا.. لقد كان السجن أحب إلى نفوسنا من الخروج من ظلام الزنازين وقارس جوها إلى هذا الفناء المترامى الأطراف حيث الهواء النقى والشمس الساطعة والجو الدافىء المطلق الذى هو أعز أمنية يتمناها مسجون.

كنا فى السجن الكبير نحواً من ثلاثة آلاف. وربع هذا العدد كان فى سجن (٤).. كانت تخرج فى فتح الضحى هذه الآلاف وتصطف صفوفاً.. وتحت سياط الجلادين كان على طائفة منا أن تنشد بأعلى صوت نشيداً أو أغنية كانت تغنيها أم كلثوم بعد حادثة المنشية تمجيداً لجمال عبد الناصر وتحقيراً للإخوان المسلمين.. وعلى بقية هذه الآلاف المصطفة أن تردد فاصلة واحدة معينة بعد كل فاصلة تنشدها الطائفة الأولى. وكل هذا بنغمة الأغنية؛ ويظل هذا الإنشاد أكثر من ساعة وقد يصل إلى ساعتين ــ يتخلله تحول هذه الصفوف إلى طوابير جرى سريع تحت وطأة السياط المنتهبة.

وكان أشد مايمزق قلبى أن يقع نظرى فى أثناء هذه الطوابير على الأستاذ المرشد العام وهو يجرى فى الصف كما يجرى أصغر الشباب منا، مع أن سنه فى ذلك الوقت كان نيفا وستين عاماً.. ودع عنك أمر السن، وانظر إلى مكانة هذا الرجل الذى يجرى وهو يلهث ويناديه الجلاد فى أثناء الجرى باسمه المجرد فى استهزاء وسخرية.

* * *

واستمر فتح الضحى على هذا الأسلوب المهين المتهتك فى فنون الإهانة حتى انتهت محاكمات ماسموه محكمة الشعب ونفذوا حكم الإعدام فى الإخوة الأعزاء الشيخ محمد فرغلى والأستاذ عبد القادر عوده والأستاذ يوسف طلعت والأستاذ إبراهيم الطيب.

وفى هذا الصدد أنقل من كتاب «جمال عبد الناصر» للأستاذ أحمد أبو الفتح فقرة يتحدث فيها عن صفة حب الانتقام المتأصلة فى نفس جمال عبد الناصر إلى حد شاذ جاء فى صفحة ٢٣٨ : «وقد حدث بعد ذلك حوادث كثيرة تثبت هذا الشذوذ لدى عبد

الناصر؛ فقد حدث فى فترة شهر مارس ١٩٥٤ أن اشترك أثنان من المحامين فى المطالبة بالحريات؛ وكان أولهما المغفور له عبد القادر عوده الذى انضم للمتظاهرين ترحيباً بعودة نجيب بعد إبعاده وخطب فى الجماهير، والثانى هو أحمد حسين المحامى وكان قد أرسل برقية شديدة اللهجة إلى عبد الناصر يطالب بتحقيق الحريات. وأمر عبد الناصر باعتقالهما.

وفى اليوم التالى للاعتقال طلبت عبد الناصر تليفونياً فرد علىّ بقوله: أهلاً أحمد.. تعرف العساكر عملوا إيه بعبد القادر عوده وأحمد حسين فى السجن؟.. فلما سألته عما فعلوا بهما قال: ضربوهما بالأحذية حتى كان صراخهما يسمعه جميع من فى السجن»

لقد كان جمال يروى لى القصة وصوته يحمل كل معانى الفرح والنشوة والسرور.

وفى مقابلة لى معه بعد ذلك عاد إلى ذكر المغفور له عبد القادر عوده فقال إنه لن يستريح حتى يسفك دمه «يسيح دمه» وفعلاً عقب حادث المنشية اعتقله عبد الناصر ضمن من اعتقل من الإخوان المسلمين، وقدمه للمحكمة العسكرية التى شكلها من أعضاء مجلس قيادته وسماها «محكمة الشعب» وأصدرت المحكمة حكمها بإعدامه.. ورغم تدخل جميع رؤساء الدول العربية لمنع تنفيذ أحكام الإعدام، أصر عبد الناصر على التنفيذ ونفذ حكم الإعدام».

أما المرشد العام والأستاذ عبد العزيز عطية فقد خفف عنهما حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة لتخطيهما سن المعاش — وسحب هؤلاء الإخوة هم ومن حكم عليهم بأحكام مختلفة إلى السجون المدنية.. وحينئذ بدأوا فى تغيير أسلوب فتح الضحى بأن جعلوه طابوراً يجمع نزلاء كل سجن فى فنائه على الجرى السريع الممتزج بالإهانة اللفظية والمادية الجسدية.

هل اجتاز عبد الناصر امتحان الأصالة أم سقط؟

ولقد كنت أتحدث مع نفسى وأنا واقف فى طابور الضحى قبل تنفيذ هذه الأحكام وأقول: إن جمال عبد الناصر قد ظفر بنا بعد المعركة التى دارت رحاها بيننا وبينه، وهاهو ذا قد أخذنا أسرى تحت يده. فهل يلهم هذا الرجل مايلهم الكرام فيسجل لنفسه مجداً يخلده الزمن؟.

إن الكرام إذاما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم فى الموطن الخشن

فلا زالت الدنيا بأسرها منذ أربعة عشر قرناً وستظل إلى الأبد تقرأ تمجيد محمد بن عبد الله حين دخل مكة منتصراً وجىء بأعدائه الذين أخرجوه من مكة بعد أن حاولوا قتله.. جىء بهم إليه ليفعل بهم مايشاء، ولينتقم منهم انتقاماً يشفى صدره.. فقال لهم:

ماتظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم.. فكان رده عليهم أن قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

كنت كل يوم أتحدث مع نفسي وأسائل نفسي هذا السؤال: هل يلهم هذا الرجل مايلهم الكرام؟ هذه فرصة ذهبية قلما تتاح للرجال، وهي فرصة إذا أفلتت فلن تعود.

إنه امتحان ينصهر في أتونه النفوس لتظهر على حقيقتها.. فنفوس معدنها الذهب، والذهب سيد المعادن فهو لايخشى من معدن آخر أن يتفوق عليه فيسلبه السيادة؛ فهو إذن في غير حاجة إلى إظهار تفوقه بسحقه المعادن الأخرى؛ بل إنه قد يدعوها، ويوسع لها بجانبه.. فيكون في ذلك تجلٍّ لمزاياه، وتلألؤ لجماله، وسطوع لرونقه، وتوهج لبريقه يزيد الناس إعجاباً به وإقراراً بسيادته.

ونفوسُ معدنها الحديد فهو دائب الغيره مما حوله من معادن، يحاول أن يطفىء كل لمعان يبدو منها، بل إنه يتمنى لو تتاح له الفرصة ليوريها التراب ويهيل عليها من تلاله مايحجبها عن العيون فلا يبقى أمام عيون الناس غيره.. وحينئذ يستطيع أن يدعى أنه ليس حديداً وإنما هو ذهب.. وإذا فقدت العيون كل معدن نفيس، لم يعد أمامها إلا أن تقنع بالحديد.

ولكن البلاد إذا اشمخرت وصوّح نبتها رعى الهشيم

كل هذا كان حديث نفسي مع إقرارها بالهزيمة. كانت تتوق إلى أن ترى من انتصر عليها وعلى زملائها قد انتصر على نفسه.. كانت تتوق بل كانت تتحاشى أن تتحول هزيمتها إلى هزيمة لهذا الشعب أمام نفس تعالت عن الخضوع للمثل العليا والمروءة، وغلبت عليها خستها فأعمتها عن سلوك طريق الكرام الذين إذا قدروا عفوا، وإذا ملكوا أسجحوا.. وكان من وصية خلفاء الإسلام لقوادهم «وأن لاتجهزوا على جريح» لأن الإجهاز على الجريح لاينبيء إلا عن خسة نفس المجهز ولؤم طبعه ووضاعة أصله؛ لأنه يعلم أن الجريح لايستطيع أن يدفع عن نفسه، وهذه من صفات اللئام.. وقديماً قال الشاعر المسلم:

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وكثيراً ماينشب بينك وبين صديق لك من أسباب العداء مايؤدى إلى القطيعة، وإلى نيل كل منكما من أخيه؛ ولكن حين يتدخل بينكما القضاء، ويقضى لك على أخيك فتظفر به ويصير في قبضتك وتشعر بأنه قد سقط في يدك.. حينئذ تنضح عليك أصالتك فتتعفف عن أن ترغم أنفه وهو ملقى بين يديك. وبدلاً من أن تمد يدك إلى وجهه بصفعة؛ تمد يدك إلى وجهه تمسح عنه التراب، ثم تمد يدك مرة أخرى تأخذ بيده لينتصب واقفاً، وتجلسه بجانبك.. وتطفر الدموع من عيونكما تغسل قلبيكما من آثار مادب بينكما من

شقاق .. ويعتبر الذى كسب الجولة هو الذى فتح ذراعيه لعدوه القديم بعد أن انتصر عليه وأحاط به وملكته الظروف أمره .. ولكن هذا الموقف لايقفه إلا الكرام الأصلاء وهم الأقلون «ذوو القلوب الكبيرة» ﴿**وما يلقاها إلا الصابرون**﴾.

كل هذه الأحاديث كانت تدور فى خاطرى وأقول لنفسى: لو أن بجانب هذا الرجل ناساً مخلصين وذوى بصائر لما فاتهم أن يسدوا إليه النصيحة بأن يقتنص هذه الفرصة السانحة التى إن فاتت فلن تعود، وأن يمديده وهو منتصر فيسجل لنفسه مجداً خالداً، ويجنب البلاد أخطاراً لايعلم مداها إلا الله.

ولكن يوم أعلنوا أمامنا فخورين أحكام الإعدام بعد تنفيذها أيقنت أن لاأحد حول هذا الرجل إلا جاهل أو منافق، وأن الرجل ذاته رجل قصير النظر غلب كبره على عقله، والتهمت آماله دينه وخلقه.

سبكناه ونحسبه لجيناً   فأبدى الكير عن خبث الحديد

وصدق الله العظيم ﴿**قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا**﴾.

* * *

الفصل الثانى

مآثم لاتنسى

١ ــ أول الآثام ابتداع أن يكون السجن مكاناً للاعتقال :

إن مجرد إيداع المعتقلين فى سجن هو خروج على العرف والقانون. فإذا كان هذا السجن سجناً حربياً مخصصاً لمن صدر ضده حكم فى جريمة بالغة الخطورة من العسكريين فإنه اعتداء آخر على القانون.. وكان معروفاً أن العسكرى الذى كتب عليه أن يقضى مدة سجن فى السجن الحربى هو إنسان كتب عليه الشقاء لأنه سيقضى مدة سجنه فى جهنم الدنيا.

ومحال أن ينسى معتقل دخل هذا السجن ماقوبل به لحظة دخوله مما أشرنا إليه من قبل ــ وقد يلقى داخله بعد ذلك أشد مما لقى فى هذه اللحظة، ولكن الذى لقيه فى هذه اللحظة لاينسى مهما نسى مابعدها؛ لأن المفاجأة المذهلة، والمفارقة المزلزلة جرحت فى القلب جرحاً عميقاً غائراً لايندمل.

وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا الاستقبال إن هو إلا نوع من التعذيب، ولكن الواقع ليس كذلك؛ فالتعذيب أمر شائع فى كل عهود الظلام؛ يطلب من الرجل الاعتراف بأمور معينة لمصلحة الحاكم، ويكون الحاكم نفسه أو معاونوه هم الذين يتفاوضون مع هذا الرجل؛ فإذا لم يعترف أمروا بضربه أو تعذيبه بمختلف ألوان التعذيب.. فيكون التعذيب حينئذ نتيجة لمقدمات مهدت النفس لما سوف ينتابها من عنت وإرهاق وإهانة، ويشعر الذى يحيق به ذلك أنه إنما يحيق به لقاء ثمن هو استمساكه بالحق وصبره عليه.. ثم إن الذين فاوضوه وأمروا بتعذيبه هم أفراد من مستواه الثقافى والاجتماعى؛ أما الاستقبال فهو إهانة مفاجئة بغير مقدمات، وصادرة من أدنى المستويات إلى أعلى المستويات؛ أدنى المستويات سناً وثقافة ومكانة فى المجتمع إلى أعلاها فى كل ذلك.. وقديماً قالوا «لو ذات سوار لطمتنى؟!».

٢ ــ طوابير الإهانة:

أشرت إلى هذه الطوابير التى كانت فى أوائل أيامنا بالسجن الحربى، وقد أعتبرها امتداداً لإهانة الاستقبال. وأحب أن أزيد على ماقلت أننى حتى بعد أن انتهت مدة اعتقالى وخرجت إلى الحياة كنت لاأطيق أن تطرق سمعى هذه الأغنية اللعينة لأم كلثوم.. إنها كانت تشعل فى صدرى ناراً لأنها كانت تذكرنى بالإهانة التى لحقت بنا فى الأيام السوداء التى أومات إليها.

٣ ــ طوابير الإرهاب:

لقد كانوا فى كل يوم وقت الضحى يفتحون لنا الزنازين ويأمروننا بالنزول فى أسرع جرى إلى فناء السجن حيث نصطف طوابير؛ ولفظاعة ماكان يتتابنا فى هذه الطوابير من إرهاب وإجرام كنا نخرج من زنازيننا ولا نعرف هل نعود إليها أحياء أم لانعود حيث نضرب بالرصاص وندفن فى سفح الجبل.

إننى لاأزال أذكر أننا بعد أن نستمر ساعة على الأقل فى جرى مستمر تحت وابل من السياط التى لاتبالى على أى جزء من أجسامنا تقع؛ نؤمر بالوقوف فى ثبات كثبات التماثيل ثم يوجه إلينا كلام فحواه أننا لم يعد لنا قيمة، وأن الأوامر صدرت باستئصالنا من الوجود، وأن علينا أن نظل فى هذه الوقفة حتى تأتى إلى هذا القائد (وهو باشجاويش) الأوامر بما يفعله فينا. ونظل فى هذه الوقفة ونحن نتوقع أن نضرب بالنار من خلفنا أو أن يأتينا الموت من كل مكان.

لقد كنت فى هذه الوقفة أتذكر وقفة يوم القيامة، لقد جعلتنى هذه الوقفة أقدر فظاعة وقفة يوم القيامة حق التقدير، وأقدر كيف أن الناس من شدة الموقف يتمنون أن يصرفوا ولو إلى جهنم. وهنا كنا نتمنى أن ينهوا حياتنا مرة واحدة فينقذونا من هذا الانتظار الذى هو أشد ألف مرة من الموت، لقد حببت إلينا هذه الطوابير الإرهابية الموت، بل إنه صار لنا أمنية من أعظم أمانينا.

كنت فى تلك الأثناء فى سن تناهز الأربعين أو تطل عليها، وكان أكثر من معنا فى المعتقل فى أسنان تقارب هذا السن. ولكن كان معنا عدد لايستهان به ممن هم فى سن آبائنا ممن تخطوا الستين؛ ومع ذلك فإن زبانية السجن الحربى لم يكونوا يرحمون هؤلاء الشيوخ فيعفوهم من الاشتراك معنا فى هذه الطوابير؛ بل إنهم كانوا يتعمدون أن يسوقوهم بالسياط فيجروا كما نجرى تماماً.. ولا أدرى كيف نجا هؤلاء من الموت؛ فلقد كنت أتوقع فى كل طابور أن يقعوا صرعى ولكن عناية الله كانت أعظم من كيد الظالمين.. ولا أنسى بهذه المناسبة أن أذكر أن شاباً من إخوان قنا كان إذ ذاك طالباً أزهرياً بالقسم الثانوى

ويحضرنى من اسمه الآن لقبه «العنانى» أجريت له عملية استئصال الزائدة الدودية وجىء به بعد ثلاثة أيام فلم يرحموه من هذه الطوابير اللعينة وكان يجرى معنا تحت وابل من السياط وجرحه يدمى.. ولا أدرى كيف نجا هذا الشاب من الموت.

٤ ــ مهزلة المحاكمات:

إذا أردنا الحديث عن المحاكمات فى السجن الحربى فلا يمكن فصل الكلام عنها عن التعذيب؛ لأنهما كانا متلازمين تمام التلازم ولا ينفصلان أبداً. وإذا كان تصور الفصل بينهما جائزاً فى خاطر الذين كانوا يعيشون خارج السجن الحربى ولم تلق بهم المقادير يوماً داخل أسواره؛ فإن الذين عاشوا داخل هذه الأسوار وكانوا يرون مايجرى فيها، ويسمعون ماينبعث من حجرات التحقيق من صراخ واستغاثات تفتت الأكباد، وتقطع نياط القلوب.. هؤلاء لايعرفون المحاكمات إلا أنها الفصل الأخير من مسرحية التفنن فى انتهاك آدمية الإنسان، والتوحش الذى انحدر إليه العاملون بهذا السجن وسادتهم حتى أتوا من الوحشية ماتعاف أن تأتيه الكلاب والذئاب.

وهؤلاء الذين كانوا يعيشون معى فى زنزانة واحدة مغلقة عليهم.. فيأتى ناعق البوم ويفتح الباب فى هدأة الليل فيهبوا من نومهم واقفين، فينادى على أحدهم فيتقدم إليه وهو صحيح معافى فيأخذه ويغلق الباب ويمضى به.. وفى غسق الفجر يفتح الباب مرة أخرى فيهبون من نومهم واقفين مذعورين فإذا بصاحبهم الذى خرج ماشياً على قدميه أتى به محمولاً على نقالة والدماء تنزف من كل مكان من جسمه وهو فاقد الوعى، لايدرى أين هو ولا من هم الذين حوله..

ولن أثير موضوع جيران هؤلاء الذين يعيشون فى الزنزانة المجاورة؛ والذين أخذ واحد منهم بنفس الأسلوب وفى نفس الوقت من الليل؛ ثم جاء الفجر ولم يجيئوا به، وطلع النهار وأقبل الليل التالى وتوالت الأيام ولم يجيئوا به.. ثم أعلنوا أنه هرب من السجن.. وهم يعلمون وكل من دخل السجن الحربى فى أيامنا يعلم أن الهروب من السجن الحربى نوع من المحال بل هو المحال نفسه.. فلهؤلاء قضية أخرى لن يحكم فيها إلا الزمن.

قصدت من هذا الذى ذكرت أن أوضح أن محاكمات السجن الحربى لم يكن التعذيب منفصلاً عنها بل كان جزءاً منها وهى جزء منه.. وأنا لازلت أعجب من قوم فى بلادنا هذه إذا أرادوا أن يستشهدوا على ماارتكب فى حق الإنسان من ظلم، وعلى تجريد الذين قدموا للمحاكمة من حق الدفاع عن أنفسهم ومن ضمانات العدالة؛ استشهدوا بمحاكم التفتيش التى جرت فى القرون الوسطى بأوروبا؛ مع أن محاكم التفتيش هذه لم تعد فى ميزان الظلم فى حق الإنسان شيئاً يذكر بجانب محاكمات السجن الحربى عامى ١٩٥٤، ١٩٥٥.. ولكننى مع ذلك ألتمس عذراً لهؤلاء الذين لم يزالوا يستشهدون بمحاكم التفتيش؛ فمحاكم

التفتيش مع ماكان فيها من مآثم فإنها كانت محاكمات علنية سجلها التاريخ بل سجل كل ماقيل فيها كما سجل أحكامها..

لقد أبقت محاكم التفتيش على بعض ضمانات لم تبق عليها محاكم السجن الحربى.. أبقت محاكم التفتيش على العلانية وعلى إعلان مكان المحاكمة وزمانها، فكان الذى سيحاكم يعلن بمكان المحاكمة وزمانه كما كان يعلن ذلك لغيره من الناس.. أما محاكم السجن الحربى فإنها لم تبق على شيء؛ جعلت المحاكمة سرية؛ فالمتهم لايعلم أنه سيحاكم إلا قبل موعد المحاكمة بساعات، كما جعلت مكان المحاكمة وزمانها سراً لايعرفه لاالذى سيحاكم ولا أهله ولا أى أحد داخل البلاد ولا خارجها. ثم إنها جعلت الدفاع محرماً كما جعلت إصدار حكمها على المتهم سراً.. كأنما يحس هذا الحاكم وزبانيته الذين جعلهم قضاة أنهم لايجرون محاكمة بل يدبرون مؤامرة، ويأتون أمراً إداً، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً.. وصدق رسول الله ﷺ: «الإثم ماحاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس».

ولكن الناس حتى يومنا هذا لازال أكثرهم يجهلون حقيقة ماكان يجرى فى هذا السجن بالرغم مما كتب فى هذا الشأن من كتب؛ لأن المسيطرين على وسائل الإعلام فى بلادنا لازالوا يعملون جاهدين على ستر مآثم ذلك العهد وحجب حقيقته.. ولا أدرى ماالذى يدفعهم إلى ذلك؛ فإن كانوا من الضالعين فى هذه المآثم فقد تابوا ﴿**إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً**﴾ وإن كانوا برءاء من هذه المآثم فماذا يضيرهم من كشف النقاب عن الحقيقة.. ومهما يكن من أمر فإن الأيام كفيلة بإماطة اللثام عما يراد إخفاؤه.

ومهما يكن عند امرىء من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

٥ ــ التعذيب على نغمات أم كلثوم:

ومن تغالى المشرفين على هذا السجن فى التهتك أنهم كانوا يبدأون عمليات التعذيب الذى يسمونه التحقيق بعد عشاء كل يوم. وكنا نعرف أنهم بدأوه حين كانت تنطلق ميكروفونات السجن بأعلى صوتها الذى كان يصم الآذان بأغانى أم كلثوم، وتظل على هذا الضجيج حتى الفجر.

والناس الذين يمرون بجانب السجن الحربى أو الذين يسكنون قريباً منه؛ معذورون حين يسمعون هذه الأغانى تذاع أن يحسنوا الظن بإدارة هذا السجن ويعتقدوا أنهم من الرحماء الذين يريدون أن يخففوا عن السجناء مرارة السجن فلجأوا إلى إذاعة هذه الأغانى ترفيها عنهم وشفقة بهم. وما علم هؤلاء أن هذا الذى يسمعون إن هو إلا تمويه ليستروا فى ضجيجه صراخ من يسامون ألوان العذاب.. وهى حيلة شيطانية ماكرة، وأسلوب فاجر

مبتكر، ونسيان تام لوجود إله يسمع ويرى.

ويجدر بى فى هذا السياق أن أسجل ظاهرة عجيبة انتابتنى طيلة فترة التحقيقات، تلك هى ماكان الله تعالى يلقيه علىّ من النوم الذى لاأستطيع مغالبته فى كل ليلة بعد انطلاق المكبرات فلا أكاد أسمع منها نصف ساعة حتى أكون مستغرقاً فى نوم عميق لاأستيقظ منه إلا حين تفتح الزنازين علينا قبل الفجر.. وكلما تذكرت هذه الظاهرة تعجبت لرائع صنع الله وسابغ فضله علىّ.. فأنا الذى كنت لاأستطيع أن أنام إلا فى هدوء وفى أمان؛ أنام فى مكانٍ النوم فى غابة الذئاب والنمور والضباع والثعابين آمن منه، وأنام ومكبر الصوت موجَّه إلى أذنىّ يكاد يخرقهما ويصمهما. وكأن شيئا مما حولى لايحدث.. هذا فضل من الله علىّ لاأنساه.. ولولا هذا الفضل لأقول لتحطمت أعصابى بل أقول لفقدت أعصابى ولفقدت نفسى.

٦ ــ لجنة حقوق الإنسان:

فى كل يوم كان يرسل إلى قاعة المحاكمة ــ التى لايعرف مكانها أحد حتى المتهمين ــ عدد يتراوح بين العشرة والعشرين ممن تم التحقيق معهم بالأسلوب الذى أشرنا إليه. وكانت المحكمة السرية تحكم عليهم جميعاً بأحكام تتراوح بين خمسة أعوام وخمسة وعشرين عاماً؛ حتى إنه فى يوم من الأيام تقابلت فى دورة المياه ــ وكانت الفرصة الوحيدة للمقابلة ــ مع الأخ الأستاذ محمود عبده؛ وكان إذ ذاك ناظر مدرسة ثانوية ومن الإخوان الذين أبلوا بلاءً حسناً فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ــ فقال لى: تصور يافلان أن الأحكام التى أصدرتها هذه المحكمة ضد الإخوان بلغت حتى الآن كذا ألف عام (ولا أذكر الآن عدد الآلاف الذى قاله) ــ قال: إن هؤلاء الناس لايعلمون أن العالم ينظر إلى هذه الأحكام باعتبارها مقياساً لمدى استقرار الحكم فكلما زاد عددها نقصت ثقة الدول فى الحكومة التى أصدرتها.

وبالرغم من الحجاب الحديدى الذى كان يعيش الإخوان فى السجن الحربى من ورائه والرقابة الصارمة حتى على أنفاسهم، فإن الإخوان استطاعوا أن يتصلوا بمن يعيشون خلف الأسوار من الإخوان المستخفين.. وعن طريق هذا الاتصال استطاع إخوان السجن أن يعرفوا أن إخوانهم فى الخارج أرسلوا إلى هيئة الأمم المتحدة وإلى لجنة حقوق الإنسان بها برقية يشرحون فيها عمليات التعذيب التى يقع الإخوان فريسة لها فى السجن الحربى، والمحاكمات السرية التى تعقد لمحاكمتهم؛ فاستجابت لجنة حقوق الإنسان وقررت إرسال مندوب عنها إلى القاهرة. وقد طلب هذا المندوب من الحكومة المصرية أن يحدد له يوم يحضر فيه المحاكمة، واضطرت الحكومة أن تحدد له اليوم.. وقد أمكن تبليغ اليوم المحدد

إلى الإخوان فى السجن الحربى.

الخطوات المتبعة فى المحاكمات:

وكانت الخطوات المتبعة فى المحاكمات هى:

أولاً — يسحب المطلوب محاكمته من زنزانته سراً بعد العشاء ويقاد إلى المكاتب.

ثانيـاً — يكون المحققون قد كتبوا محضراً كاملاً للتحقيق مع هذا الشخص قبل حضوره بما فيه من أسئلة وأجوبة كما يريدون.

ثالثـاً — يقدم الأخ المطلوب إلى المحقق الذى يجلس بجانبه قائد السجن الحربى وضباط المخابرات وضابط على الأقل من رجال جمال عبد الناصر الشخصيين — ويقرأ المحقق على الأخ التهمة المطلوب اعترافه بها فينفيها الأخ لعدم معرفته بها ولا بالأشخاص الواردة أسماؤهم فيها.

رابعـاً — يأمر الزبانية عساكر التعذيب بخلع ملابس الأخ عن جسمه فيفعلون.

خامساً — يبدأ بضربه بالكرابيج على جميع أجزاء جسمه وهو طبعاً يصرخ ويستغيث.

سادساً — يؤمر بإيقاف الضرب ويطلب منه الاعتراف بالتهمة فيقول لهم كيف أعترف بشىء لم يحصل ولا علاقة لى به.

سابعاً — **يؤمر بمعاودة تعذيبه فتستعمل طرق أخرى من التعذيب غير الضرب لأن جسمه لم يعد فيه سنتيمتر واحد خال من آثار الكرابيج — فتستعمل وسائل أخرى كالإحراق بأعقاب السجاير والكى بالنار فى أماكن متباينة وحساسة من جسمه — أو يعلق منكساً مع ضربه وهو فى هذا الوضع — أو يضرب مرة أخرى حتى يلتهب جسمه كله وينزف من جميع أجزائه ثم يلقى وهو فى هذا الالتهاب فى زنزانة مجهزة تجهيزاً خاصاً ومملوءة بالماء المثلج بحيث يغمر الشخص حتى رقبته — أو يلجأ إلى أحط الوسائل بإحضار زوجته أو بناته أو أخواته وتهديده بهتك أعراضهن أمامه أو وسائل أخرى لاتقل انحطاطاً ووحشية عن هذه الوسائل.**

وهكذا يجرب معه من هذه الوسائل حتى يضطر إلى التوقيع على المحضر الذى عرضوه عليه من أول الأمر إنقاذاً لحياته وعرضه.

ثامنـاً — **تضمد جراحه النازفة، ويلقى به فى زنزانته.. حتى إذا توقف النزف واستطاع المشى على قدميه؛ اعتبروه صالحاً للتقديم إلى المحكمة.**

تاسعاً — **ينادى عليه وعلى زملائه الذين مروا بكل مامر به. وتكون المناداة ليلاً؛ فيقابلهم قائد السجن الحربى أو من ينيبه ممن هم على شاكلته، ويخبرهم بأنهم**

سيذهبون غداً إلى المحكمة فى الصباح، ويحذرهم من أن ينكر أحد منهم شيئاً مما هو متهم به أو أن يشكو أى نوع من التعذيب وإلا عادوا إلى تعذيب أشد.

عاشراً — يذهب بهذه المجموعة إلى المحكمة التى لايعرفون مكانها ولا زمانها ولا أشخاصها، فيجدون أنفسهم أمام حجرة داخل ثكنات الجيش ليس فيها أحد مطلقاً إلا ثلاثة ضباط ممن يسمون الضباط الأحرار، فيشعر هؤلاء المتهمون أنهم — بوقوفهم أمام هؤلاء — لم يخرجوا عن حدود السجن الحربى، وأن هؤلاء ليسوا إلا فصلاً من المسرحية المجرمة الهازلة — ويسأل رئيس هذه المحكمة الهازلة كل واحد من المتهمين: أهذا توقيعك؟ فيقول: نعم فيحكم عليه بما طلب إليه الحكم به. ثم يرجعون إلى زنازينهم بالسجن الحربى كما كانوا.

هذه خطوات المحاكمة — فلما علم الإخوان بالسجن الحربى باليوم الذى سيحضر فيه مندوب الأمم المتحدة جلسة المحاكمة أخبروا الإخوان الذين سيقدمون إلى المحاكمة فى ذلك اليوم بهذا النبأ وطلبوا إليهم أن يكشفوا للمحكمة أمام الحاضرين فيها عن شيء من آثار التعذيب فى أجسامهم.

ودعى هؤلاء الإخوان فعلاً للذهاب إلى المحكمة حيث وجدوا — على غير المعتاد — أشخاصاً حاضرين منهم مندوب الأمم المتحدة.. ونودى على أول المتهمين فسأله رئيس المحكمة كالمعتاد:

هل هذا توقيعك؟

قال: نعم ولكننى لم أرتكب التهم المكتوبة.

قال: فلم إذن وقعت عليها؟

قال: سأريك لماذا وقعت عليها.. وخلع ملابسه التى كشفت عن ظهره فرأى جميع الحاضرين ظهره مشرحاً بطريقة مثيرة.. وقال لهم إن هذا الأثر هو أثر تعذيب مضى عليه الآن خمسة أشهر.

فتنبه «القاضى» إلى الترتيب الذى وضعه الإخوان فى غفلة من «آلهتهم» الذين ظنوا أنهم قد أحاطوا بكل شيء علماً. فأوقف المحاكمة مدعياً تأجيلها لتحقيق مازعمه المتهمون من التعذيب. وأمر برجوع هؤلاء المتهمين إلى المعتقل.

أنا القانون:

وفى مساء ذلك اليوم حين أرخى الليل سدوله، فتحت الزنازين كلها فجأة وعلى غير المعتاد وبطريقة هستيرية. وصدر أمر فى مكبر الصوت بخروج المعتقلين جميعاً من زنازينهم والوقوف أمامها فى الطرقة مطلين من السور الحديدى الذى أمامها، فخرجنا وهالنا

مارأينا.. رأينا حول السارية العالية التى تتوسط فناء السجن ناراً تتأجج وقد علا لهيبها حتى كان أعلى من سقف الدور الثالث فى السجن، وحولها عساكر السجن يمدونها بقطع ضخمة من جذوع الأشجار لتزداد تأججاً ــ فأحسسنا بأن شراً مستطيراً يقترب منا وأننا على وشك خطر داهم. ورأينا بجانب السارية قائد السجن حمزة البسيونى بشاربه المتهدل الذى تصل ذؤابته إلى ماتحت ذقنه، وبشعر رأسه المشعث، وكرباجه تحت إبطه.. رأينا أمام حمزة البسيونى طابوراً من المعتقلين ــ هم الذين كانوا يحاكمون صباح هذا اليوم.. ثم انطلق حمزة يقول بصوت المغضب الحانق المتغطرس:

اسمعوا.. إن كنتم تريدون القانون فأنا القانون.. انظروا إلى هؤلاء الكلاب (وأشار إلى الطابور الذى أمامه) لقد ظنوا أنهم يستطيعون أن يشكونى.. ولكن هيهات.. لقد رجعوا إلىّ وهاهم أولاء فى قبضتى وتحت قدمى وسأسحقهم حتى لايفكر أحد منكم أن يتجرأ ويفعل مثلما فعلوا.

أنا أحيى وأميت:

ثم أخذ يتوعد بألفاظ وعبارات لم يفه بأخطر منها قارون، ولكنها تشبه ماقاله النمروذ لإبراهيم حين كان يحاجه إذ قال «أنا أحيى وأميت».. والنمروذ كان ملكاً لامعقب لحكمه كما زين له غروره، ولكن هذا الحمزة البسيونى كان إذذاك «مقدماً» يرأسه من الضباط العقداء فالعمداء فالألوية فالفرقاء فالمشير؛ هذا فى قطاع الجيش، ثم هناك رياسات أخرى فى أبنية الدولة الأخرى.. فإذا وصل الغرور بمثل هذا الصعلوك إلى حد ادعاء مااستأثر الخالق جل وعلا به لنفسه من خصائص الإحياء والإماتة؛ فإنه يكون بذلك قد جاوز غروره غرور النمروذ.

أما ادعاؤه أنه هو القانون؛ فهذه قضية لم تكن موضع خلاف بيننا وبينه؛ فإننا كنا نعلم علم اليقين أن لاقانون فى البلاد منذ تمكن جمال عبد الناصر من السلطة. ومعنى عدم وجود قانون فى البلاد هو أن يدعى كل من بيده أى قدر من السلطة أنه هو القانون. وإذا أردت توضيحاً لهذا المعنى يصل بك إلى لبه؛ فإن القانون فى هذه الحالة يكون هو الأهواء.

وإذا كان النمروذ ملكاً ادعى خصائص الألوهية، فإن هذا الصعلوك ادعى خصائص الألوهية فى الوقت الذى اتخذ له إلهاً من البشر هو جمال عبد الناصر.. ولقد كنا نعجب أشد العجب لهؤلاء الناس.. كيف يظنون بأنفسهم هذا الظن وهم يعلمون أنهم سوف يموتون؟ **﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون، ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾**.

أربعمائه كرباج:

وبعد أن هدد وتوعد وأفاض فى تأليه نفسه ناسياً خالقه وبارئه؛ قرر تأديب هؤلاء

الإخوة الكرام. فدعا بأولهم فتقدم إليه، فأمر بربطه فى السارية. فربطوه ربطاً قاسياً وكان ظهره عارياً. ثم قرر بصوت جهورى هز السجن بمن فيه أنه صرف له أربعمائة كرباج — ومعذرة فى استعارتى هذا اللفظ «صرف» فإنه كان هو الاصطلاح المعمول به فى السجن الحربى — كما أنه قرر — شفاءً لنفسه — أنه سيقوم هو بنفسه بضربه.

واستل المغرور الكرباج من تحت إبطه، واعتدل منتفخاً، وأخذ يضرب الأخ بكل ماأوتى من عزم وقوة.. وقد سالت دموعنا من هول الضرب الذى لايعرف الرحمة. ولكن كانت مفاجأة.....

المفاجأة هى أن المغرور قبل أن يوفى على المائة الأولى رأيناه قد انهار، وكاد يسقط السوط من يده؛ فى حين أن الأخ الكريم لم يصدر منه مايشعرنا ولا مايشعر من حوله من الزبانية بالألم فلا صراخ ولا استغاثة ولا حتى مجرد تأوه.. بل ثبات وصمت.. وكل الذى سمعناه فى هذه اللحظة قول المغرور له: ياابن الكلب (بمد الكاف للتعجب الشديد) كل ده وانت لاتحس دا أنا فرهدت..

وأعطى المغرور السوط لأمين — وأمين هذا هو الآدمى الذى وكلت إليه الآلهة المغرورة تدريب المعتقلين تدريب الإذلال والإهانة والإشراف على التنكيل بهم داخل السجن الكبير. كما كانت مهمته تنفيذ ماتقرره هذه الآلهة من وسائل التعذيب لمن يحقق معهم فى المكاتب. وهو شاب نحيل لا يجاوز الثلاثين ورتبته باشجاويش بأربعة أشرطة على ذراعه. وأمين هذا شخصية وإن كانت ضئيلة القدر إلا أنها تستحق مع ذلك أن يتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله.. وتسلم أمين السوط واستأنف ماانهار دونه سيده، ولكنه بدا عليه علائم الانهيار وهو فى أواسط المائة الثانية.

ولقد رأيت بنفسى آثار التعذيب فى ظهر أحد الإخوة الذين كشفوا ظهورهم فى المحكمة، فقد استطاع الأخ نصار أن يتسلل إلى زنزانتنا، وكشف لنا عن ظهره فرأينا آثار الضرب فى ظهره بعد خمسة أشهر من شفائه، ومع ذلك فلا زالت آثار السياط متلاصقة زرقاء.

ومع أن مندوب لجنة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة رأى بعينه آثار التعذيب الوحشى.. فماذا فعل؟ إنه لم يفعل شيئاً.. وهذه اللجان ماهى إلا أسماء سماها رؤساء أمريكا والدول الكبرى ليضحكوا بها على الناس ويوهموهم بوجود شىء هو فى الحقيقة غير موجود.

ومما يذكر أن جمال عبد الناصر اعتبر حضور مندوب الأمم المتحدة المحاكمات اعتداءً على كرامته وتدخلاً فى شئونه الداخلية فلم يستطع منعه من الحضور ولكنه أراد أن يعاقب

أمريكا فأعدم اثنين من اليهود.

٧ ــ ضرب الأخ محمد مؤمن:

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر؛ فلنعرض هنا لأخ كريم كان إذ ذاك فى مقتبل شبابه. وقد هاله مايلقاه كرام الإخوان على يد هذه الوحوش الآدمية التى تسمى العساكر.. رأى الأخ محمد مؤمن وهو من إخوان دمياط منظراً حز فى نفسه، ولذع كبده.. وكثر تكرر هذا المنظر أمامه فهانت عليه الحياة، وأسر فى نفسه أن يمنع تكرار هذا المنظر أو يموت دونه.

والمنظر المثير يتلخص فى أن يأمر العساكر أن يصفع الإخوان بعضهم وجوه بعض وبطريقة قاسية وإلا أذاقهم هؤلاء العساكر ألوان العذاب.

وطوى الأخ محمد جوانحه على هذا العزم. وطرأ طارىء جديد زاد نار هذا العزم اشتعالاً، ذلك أن إدارة السجن منعت الماء عن الإخوان، واتخذت من الإجراءات التعسفية مايكاد يصل إلى حد منعهم من قضاء حاجتهم فى دورة المياه..

وفى خلال هذه المأساة استطاع أحد الإخوان وهو الأخ حسن عبد الفتاح من إخوان كرداسه وأحد زملاء الأخ محمد مؤمن فى الزنزانة أن يحصل على قليل من الماء، وبينما هو فى دورة المياه ضبطه أحد العساكر فأخذ منه الماء، وأخرج زملاءه فى الزنزانة وأمرهم بصفعه على وجهه. وتصادف أن كان الأخ محمد مؤمن هو أول الصف، فامتنع عن تنفيذ الأمر.. فهجم عليه العسكرى ليصفعه ويضربه كالمعتاد، فقاومه الأخ محمد مقاومة شديدة انتهت بوقوع العسكرى على الأرض.. وكان فى نية الأخ محمد أن يقتل العسكرى دفاعاً عن كرامة الإنسانية أو حتى الآدمية، ولكن الإخوان حالوا بينه وبين العسكرى.. فما كان من العساكر الآخرين إلا أن اجتمعوا على الأخ محمد لينتقموا منه؛ فجاءوا به إلى السارية وأرادوا أن يربطوه إليها بحبل فرفض الأخ محمد وقال لهم إننى سأحتضن السارية دون حبل واضربونى كما تشاءون.

واحتضن الأخ محمد مؤمن السارية، وجاء كل عسكرى بكل مايضرب به من كرابيج وقطع من الخشب وعصى، وظلوا يضربونه حتى تعبوا جميعاً.. فألقوا مابأيديهم متعجبين ذاهلين.. والذى أذهلهم وأدخل اليأس فى نفوسهم هو أن الأخ محمد مع كل هذا الضرب القاتل لم يتأوه ولم ينبس ببنت شفة وهو أمر لاعهد لهم به.. بل إننا نحن الإخوان كنا فى دهشة من هذا الصبر العجيب.. حتى إننا سألنا الأخ محمد بعد ذلك كيف استطاع أن يصبر على هذا الضرب المميت دون أن يصرخ أو يتأوه؟ فقال: إن الذى أقدم على ماأقدم عليه وهو ينتظر الموت؛ فإذا جاء ماهو دون الموت فإنه لايكاد يحس

له بألم.

واعتقد هؤلاء العساكر ــ بسذاجتهم ــ أن الأخ محمد وليّ من أولياء الله؛ ولهذا لم يحس بألم الضرب واعتقدوا أنهم إذا لم يعتذروا إليه، ويطلبوا منه الصفح عنهم فسيصيبهم شر مستطير. فذهبوا إليه فى الزنزانة التى كان ملقى بها يتشحط فى دمه، واعتذروا إليه، وأحضروا له الأخوين الدكتور أحمد الملط والدكتور كامل سليم فضمدا له جروحه..

٨ ــ قانون الحرمان :

سميت هذا البند بقانون الحرمان؛ لأن القائمين على إدارة السجن الحربى ــ بوحى من سادتهم ــ قرروا حرمان المعتقلين بهذا السجن من كل الحقوق الطبيعية التى يتمتع بها المسجونون حتى المحكوم عليهم بالإعدام:

أولاً: نصيب الحيوان الناطق من المكان للإقامة:

من المعروف أن الزنزانه فى السجون المصرية لايزيد عدد نزلائها على ثلاثة أفراد. علماً بأن نزلاء السجون هم عادة من المجرمين والعوام.. أمانزلاءالسجن الحربى فى خلال تلك الفترة فكانوا من أعلى طبقة فى الشعب ثقافة وعلماً ومكانة اجتماعية ومع ذلك فإن المسئولين استباحوا أن يحشروا فى كل زنزانة عدداً وصل إلى ثمانية أفراد. وظل هؤلاء الثمانية فى الزنزانة مغلقة عليهم أكثر من عام.

نعم كان العدد فى أول الأمر أقل من هذا، ثم وصل إلى هذا الرقم ثم نقص ثم عاد ثم نقص ثم عاد ثم استمر على ذلك أكثر من عام. وتفسيراً لذلك أقول: إن الأفواج كانت تأتى تباعاً فيكثر العدد، ثم يطلب إلى المحاكمة بعض أفراد ويحاكمون ويحكم عليهم فينتقلون إلى السجون المدنية كسجن مصر وسجن طره وغيرهما فيقل العدد، ثم تأتى أفواج أخرى فيرتفع العدد مرة أخرى. ثم يحاكم آخرون وينقلون إلى السجون المدنية فيقل العدد ثم......

الدرك الأسفل:

حين قال تعالى: ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾ فهمنا أن فى النار دروكاً كلها سافلة وأن هذا الدرك الذى فيه المنافقون هو أسفلها جميعاً.. وقياساً على ذلك نقول: إن أساليب جمال عبد الناصر التى عامل بها الإخوان كلها أساليب سافلة ولكن أسفل أسلوب اتبعه هو الأسلوب الذى يأتى بعد كلمة «ثم» التى انهينا بها الفقرة الماضية، وهو ماتكمل به الفقرة السابقة فنقول:

ثم تأتى أفواج أكثرهم ليسوا من الإخوان، وإنما هم قوم هزتهم المروءة حين رأوا أبناء المعتقلين يتضورون جوعاً وعرياً فمدوا إليهم يد المساعدة.. فاعتبرت الحكومة حكومة الثورة ذلك جريمة يعتقل صاحبها ويعذب ويحاكم ويحكم عليه بعشر سنوات.

وننقل فى هذا الصدد فقرة من كتاب «جمال عبد الناصر» للأستاذ أحمد أبو الفتح فى صفحة ٢٣٨ يقول: «ولعل المثل الصارخ على حب جمال للانتقام وشذوذ مزاجه فى التنكيل بخصومه؛ هو الإجراء الشاذ الذى اتبعه مع أسر المعتقلين من الإخوان المسلمين؛ ذلك أنه حرم على أى إنسان أن يمد يد المعونة إلى هذه الأسر.

ولما كان الإخوان المسلمون من الطبقات الشعبية التى لاتملك رأس مال مدخر، فقد أحدث اعتقالهم وانقطاع المال عن أسرهم مصائب لاحصر لها. فأخذت الشفقة بعض المصريين الذين راحوا يتبرعون ببضع دراهم لهذه الآلاف من الأسر التى نكبت إما بإعدام أو سجن أو اعتقال عائليها، ونكبت بانقطاع المال عنها. فلم يرق هذا التبرع لعبد الناصر فأمر بتصيد كل من تسول له نفسه مساعدة أية أسرة ممن أسر المعتقلين من الإخوان.

وفعلاً استطاع أعوانه من رجال المخابرات إلقاء القبض عليهم— وقد لايصدق القارىء أن هؤلاء الناس قد قدموا لمحاكمات عسكرية سرية دون حضور محامين أو شهود أو ممثلى الصحافة وصدرت ضدهم جميعاً أحكام تتفاوت بين الأشغال الشاقة المؤبدة والسجن مع الشغل خمس سنوات— والأعجب من ذلك أن تصدر هذه المحاكم أحكامها بمصادرة المبالغ المضبوطة مع هؤلاء، وينص الحكم على أن المصادرة «لصالح الشعب».

ثم نرجع بعد ذلك إلى السياق فنقول: فلما جاءت هذه الأفواج من الناس أهل المروءة ضاقت بهم الزنازين فأسرعوا فى محاكمتهم ونقلهم إلى السجون المدنية. فاستقرت الزنازين بعدهم على هذا العدد.

ولقد كان وجود هذا العدد فى الزنزانة الواحدة هو وحده تعذيباً ومأساة. ففى الزنزانة ثمانية أفراد معهم بطاطينهم ومتاعهم وجردل الماء وجردل البول وثمانية قباقيب وثمانى قلل، ثم إنهم يتناولون الطعام ثلاث مرات فى اليوم داخل الزنزانة.

جيــوش البــق:

ولن أتعرض لآثار هذا الوضع الشاذ على الصحة ولكنى سأعرض على القارىء شيئاً بلوته بنفسى: فى خلال هذه الفترة، وفى أواخر السنة التى استقر هذا الوضع عليها؛ فتحت حقيبة ملابسى وكانت حقيبة كبيرة من الجلد وأخرجت الملابس منها، وبدأت لأول مرة أنظر فيها فهالنى مارأيت.

رأيت أسراباً من البق تجرى هنا وهناك فى جوانبها، فتعجبت لكثرتها وأخذت أتصيدها فى قطعة من الورق حتى اصطدت منها عدة مئات، ولكن بعضها كان سريع الجرى بحيث يسبق أصابعى ورأيته يدخل تحت الكرتون الذى يبطن الحقيبة من الداخل. فتتبعت الأفراد التى اختفت تحت البطانة، واضطررت إلى أن أفصل حروف البطانة التى كانت ملصقة بجدر الحقيبة؛ فذهلت لما رأيت.

رأيت البطانة شبه مفصولة عن الجلد وقد رصت رصاً تاماً بالبق— فاضطررت إلى نزع البطانة كلها حيث قتلت مايزيد على بضعة آلاف من البق غير الذى هرب دون أن أدركه، واضطررت إلى أن ألقى بالبطانة بعيداً. وظلت الحقيبة بغير بطانة حتى أفرج عنى.. ولا زلت أحتفظ بهذه الحقيبة بهذه الحالة ذكرى لهذه الأوضاع الشائنة التى كنا نعيشها.

ولا يفوتنى هنا أن أقول: إن وجود هذا الازدحام داخل الزنزانة كان وحده كافيا— إذا كان نزلاؤها من غير الإخوان المسلمين— أن يثير المتاعب بين هؤلاء النزلاء بعضهم وبعض، وأن يخلق مشاكل لانهاية لها؛ بل قد يؤدى إلى جرائم.. لكن هذا الازدحام مع مافيه من مضايقات تفوق كل تصور؛ لم يثر فى الإخوان إلا أسمى المعانى وأنبل العواطف.. فلقد أنشأت هذه الزنازين تعارفاً بين إخوة لم يكونوا متعارفين من قبل، وأوجدت تعاوناً على البر والتقوى؛ فكانت مجالاً لتلاوة القرآن الكريم وحفظه؛ وكانت فرصة انتهزها الإخوان للاستزادة من العلم؛ فالمتعلم علّم الأمى، والحاصل على الشهادات الجامعية أخذ بيد المبتدىء الذى استطاع بعد الإفراج عنه أن يحصل على شهادات أعلى مما كان بيده— وكان بعض الوقت يقضى فى مناقشات علمية وأدبية نافعة.

ثانياً: حق المراسلة والزيارة:

وأعنى بذلك حق المعتقل فى الاتصال بأهله بأن يزوروه ويراسلوه— وهذا حق مقرر فى جميع سجون الدنيا وفى سجون مصر. ولكن إدارة السجن الحربى بوحى من سادتهم حرموا المعتقلين من هذا الحق فمنعوا زيارة أهليهم لهم كما منعوا المراسلة فيما بينهم وبين أهليهم.. وفى هذا من التعنت والإرهاق النفسى مافيه، ولكن هذا الحرمان لم يتعب الإخوان كما يتعب غيرهم؛ لأن كل واحد كان يشعر وهو بين إخوانه أنه بين أهله وذويه. كما أنهم بفضل مايستمتعون به من ثقة فى الله وإيمان به كانوا مطمئنين على أهليهم لأنهم قد نزعوا من بينهم وتركوهم وديعة فى يد الكريم الرحمن.

ثالثاً: منع الطرود:

وكان هذا النوع من الحرمان هو أقسى أنواع الحرمان.. وقد يعجب القارىء حين

أعد منع الطرود أقسى أنواع الحرمان ويقول فى نفسه : لابد أن المعتقلين كانوا مترفين إذ يعدون حرمانهم من الطرود بهذا القدر من القسوة.. ظناً من القارىء أن الطرود إنما تطلب لما فيها من ألوان الطعام والحلوى.. وهذا الظن فى محله إذ اعتاد الأهلون أن تكون الطرود التى يرسلونها لذويهم فى السجون لوناً من ألوان الترفيه..

ولكن الطرود التى منعوها فى السجن الحربى لم تكن طروداً من هذا النوع المألوف وإنما هى طرود تحتوى على مايطلبه المعتقل من أهله أو مايرسلونه إليه من ضروريات الحياة؛ فهى طرود لاتحتوى عادة إلى على الملابس الداخلية والبيجامات والبلوفرات التى يستعان بها على تحمل برد الشتاء.

بيجامتى بها ست وثلاثون رقعة:

ولم يكن أحد حتى ذلك العهد يتصور أو يخطر بباله أن يعتقل إنسان ليمكث فى الاعتقال أكثر من بضعة أشهر. ولذا فإن أحداً من المعتقلين لم يصحب معه يوم اعتقل أكثر من غيارين.. ولكن الموكول إليهم أمر التنكيل بعباد الله وقد رأوا كل معتقل يبادل بين هذين الغيارين يغسل هذا ويلبس الآخر.. زين لهم الشيطان أن يحولوا بين المعتقلين وبين أن تصلهم ملابس من أهليهم؛ فلا يكون لهم إلا هذان الغياران.. وتطول المدة فيهلك الغياران، فلا يجدون منهما بديلاً فيرقعونهما.. ثم يستعرضونهم بهذه الملابس المرقعة فتهنأ بذلك نفوسهم، وتشفى من الغل صدورهم، ويضحكون منهم ملء أشداقهم، ويطلبون من سادتهم الحضور لمشاهدة هذا المنظر المضحك المبكى، فتسخوا أكفهم لهم من مال الدولة بالعطاء، ويجزلون لهم الجزاء؛ لقاءماابتكروا من أساليب الإهانة والسخرية والتنكيل.

وكان لهم ماأرادوا؛ فجاء الوقت بعد أن طال الزمن؛ حيث هلكت الملابس، وأعطى من كان عنده فضل من الملابس إخوانه المحتاجين.. ولكن لم يثبت أمام طول الوقت وقذارة المكان، وشدة الحر، وكثرة الجرى، وغزارة العرق.. فتهلهلت الملابس. وكنت ترى كرام الناس من الإخوة الفضلاء ذوى المكانة العالية فى المجتمع المصرى والعربى العلمى والأدبى والمادى تراهم يلبسون أسمالاً بالية، تناثرت فيها الرقع من كل شكل وكل لون. ولازلت أحتفظ حتى الآن ببجامة كنت أرتديها وبها ست وثلاثون رقعة.. ومع ذلك كانت تعد من أسلم مايلبسه الإخوان من البيجامات.. ولا أنسى أن أشيد بمجهود إخواننا الخياطين فى عملية الترقيع التى كانت إسعافاً لاغنى عنه لكل أخ فى هذا المعتقل.

وهلكت كذلك البلوفرات الصوف وتهلهلت، وهى مما لايصلح معه الترقيع، ولكنها كانت ترتق من كل ناحية حتى لم تعد صالحة للرتق. ولما كان الإخوان حريصين على أن

ينتفعوا بكل شيء لأنهم يعلمون أن لن يعوض فلم يلقوا بهذه البلوفرات كما كان منتظراً؛ بل تخصص عدد منهم فى فك خيوطها ونسجوا منها بأيديهم الماهرة طاقيات رائعة تضاهى أحسن مايعرض من طرازاتها فى السوق؛ حتى إن بعض المشرفين على إدارة المعتقل كلفوا هؤلاء الإخوة بصنع عدد منها لهم. ولازال عندى إلى اليوم طاقية من هذا الطراز صنعت لى فى خلال هذه الفترة.

مسنا وأهلنا الضر:

ولقد تجسم لى معنى التعبير القرآنى الدقيق فى قوله تعالى: ﴿**مسنا وأهلنا الضر**﴾ فكنت كلما نظرت إلى إخوانى فى هذه الملابس المهلهلة والرقع المتصلة رأيت هيأتى فى هيآتهم، ومنظرى فى منظرهم فيهتف فى نفسى القول الكريم ﴿**مسنا وأهلنا الضر**﴾.

إن إخواننا فى السجون يلبسون ملابس السجون وهى ملابس على كل حال سليمة ليس بها خدش واحد، تستر أجسامهم.. ولكن هنا.. كثيراً ماكانت فى أثناء الجرى فى الطوابير تنهتك بعض الرقع فيظهر من تحتها جسم بعض الإخوان فيكاد هؤلاء الإخوة يكون ونكاد نحن الذين رأينا أجسامهم تنكشف تطفر دموعنا بل كثيراً ماطفرت..

كان الإخوة الذين تصدر عليهم أحكام من المحاكم السرية، وينادى عليهم ليرحلوا إلى السجون المدنية، كنا نهنئهم، وكانوا يتقبلون هذا الترحيل بفرحة ويعدونه إفراجاً؛ لأنهم سيذهبون إلى سجون تحكمها قوانين، وكانوا يتركون لنا ملابسهم المهلهلة لعلها تعيننا فى ترقيع ملابسنا بقطع منها.

رابعاً: منع الحلاقة وإزالة الشعر:

كان أمرا مألوفاً أن تجرد إدارات السجون المسجونين من الأمواس والآلات الحادة، خوفاً عليهم من أن يستعملوها فى ذبح أنفسهم للتخلص من الحياة.. فإذا عاملونا هذه المعاملة فلا تثريب عليهم. وقد فعلوا.. ولكن الدافع لهم لم يكن الخوف منها على حياتنا؛ لأنهم يعلمون أننا معتصمون بإيمان تتزلزل دونه الجبال.. أما الدافع الحقيقى لهم فهو نفس الدافع الذى يدفعهم إلى كل إجراء يتخذونه حيالنا؛ وهو الإهانة والإيذاء والتنكيل بصور مختلفة يتبارون فى ابتكارها تزلفاً إلى سادتهم، وتقرباً إلى من يعتقدون أن بيده مفاتيح الخير فمن تقرب إليه ضمن الخير الذى لاينفد ولا يزول.

إن إدارات السجون تفعل ذلك وتأمر فى نفس الوقت الحلاقين التابعين لها بقص شعر المسجونين وحلق ذقونهم؛ ولكن السادة المشرفين على السجن الحربى سلبونا الأمواس وأمروا الحلاقين بحلق رءوسنا وترك لحانا لتستطيل وتتشعب وتتشعث كل تشعث حيث

لأمشاط ولا حتى ماء لتنظيفها.. واستطالت لحانا بطريقة غير مهذبة وغير نظيفة وصارت فى مناظر منفرة.. وكان يلذ لهم بين يوم وآخر أن يستعرضونا فى زنازيننا ليمتعوا أنظارهم بثمار غرس أيديهم من وسائل الإهانة.

وأذكر بهذه المناسبة أننا فى يوم من هذه الأيام نودى علينا بالوقوف «انتباه» فى الزنازين لأن لجنة منن كبار المسئولين سيمرون علينا. ووقفنا وفتحت الزنازين ومرت اللجنة ولما مروا بزنزانتنا تقدم كبيرهم يستعرضنا فرداً فرداً ثم تقدم نحوى وقال: ألا تعرفنى؟ فقلت: لا، قال: ألست محمود عبد الحليم؟ قلت: بلى. قال: ألم تكن طالباً بالمدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية؟ قلت: بلى. قال: أنا حسن طلعت الذى كنت أجلس بجانبك فى السنة الثالثة بالمدرسة.. فرحبت به ثم انصرف مع اللجنة لإتمام مروره على بقية الزنازين.

وقد فهمت من هذه الواقعة أن تشويه هيئتنا باللحى القذرة المشعثة ليس الأمر به صادراً من المشرفين المحليين، بل هو صادر من السادة الكبار.. وإلا لكان لمثل حسن طلعت أن يتصرف نحوى تصرفاً يخفف من هذا المنظر الشاذ، ولو بالإذن لى بفرصة أغسل فيها هذه اللحية بالماء والصابون، وقد كان هذا يحتاج إلى نحو عشر دقائق على الأقل حتى أزيل ماتحمله هذه اللحية من قذارة ودهون وبقايا طعام.

ولما وصلت اللحى إلى طول لاتكاد تطول بعده، نودى علينا بالنزول إلى فناء السجن ثبات ثبات، نجلس على الأرض، ثم ينادى على كل فرد منا ليقف أمام كاميرا تلتقط له صورة بهذه اللحية.. وقد سمعت أحد ضباط المباحث المشرفين على تصويرنا يقول: إن هذه الصور أخذناها لكم بلحاكم حتى إذا هرب واحد منكم وهام على وجهه، وأراد أن يغير من منظره بترك لحيته؛ فسنعرفه من هذه الصورة التى نأخذها لكم الآن.. وقد قلت فى نفسى حين سمعت ذلك: ياعجباً.. إن هؤلاء الناس اعتقدوا أننا قد وضعنا فى أيديهم ولا مفر لنا منهم إلا إليهم. ألم يقرأوا قول الله تعالى ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾؟؛ وليتهم قرأوا قول الشاعر:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل ... عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط فى الحقائق نفسه ... ويسومها طلب المحال فتطمع

خامساً: جمع المصاحف:

فاتنى أن أذكر أننا كنا محرومين من أول يوم فى هذا السجن من الكتب.. ولم يبق مع المعتقلين بعد ذلك إلا مصاحفهم، التى كانت خير مؤنس لهم ومعلم وهاد، وخير ملجأ يلتجأون إليه حين تدلهم الخطوب، وما أكثر ماتدلهم داخل أسوار هذا السجن الرهيب..

وقد استطاع الإخوان أن يجنوا ثمرات طيبة من وجود المصاحف الكريمة معهم؛ فقد تفقهوا وأحسنوا التلاوة وحفظوا؛ ولقد من الله تعالى عليّ فى هذه الفترة فحفظت القرآن كله.

ويجدر بى فى هذا الصدد أن أذكر أن مداومة الإخوان على مصاحفهم تلاوة وحفظاً وتفقهاً مع طول المدة قد أوهن من تماسك أوراقها، كما أدى إلى بلى أغلفتها؛ فتفصصت المصاحف وكادت تتبدد أوراقها.. وفى نفس الوقت كانت حقائب بعض الإخوان المصنوعة من الكرتون أو الفبر قد أصابها بطول الأمد أيضاً مع الاستعمال اليومى ومع الاحتكاك بالأرض الاسفلت والحوائط الخشنة حيث هى الوعاء الوحيد لمتاعنا، أصابها البلى كذلك ـــ فقام إخواننا الذين مهنتهم التجليد والطباعة، وأخذوا على عاتقهم إصلاح المصاحف؛ فكانوا يعيدون خياطة أوراقها، ويصنعون لها من كرتون الحقائب البالية وفبرها أغلفة؛ حتى إنها صارت أشد تماسكاً مما كانت عليه، كما صارت أجمل شكلاً. ولا زال عندى مصحفى الذى كان معى فى تلك الأيام وأجرى عليه هؤلاء الإخوة الكرام هذا الإصلاح شاهداً على تضامن الإخوان وبراعتهم.

أحس السادة المسئولون الذين يرفع إليهم المشرفون على إدارة السجن كل مايحدث بالسجن حتى الهمسات، أحسوا بحقد حين علموا أن الإخوان يجدون فى الكتاب الكريم سلوى من كل مايلقون من عنت وظلم وإهانة فقرروا حرماننا من الأنيس الوحيد. وجاء ناعق البوم ينادى فى ساحة السجن:

جاء أمر بسحب المصاحف من المعتقلين. وعلى كل معتقل أن يسلم مصحفه لإدارة السجن. ومن يعثر معه بعد ذلك على مصحف سيقدم للتحقيق.. وما أدراك ماالتحقيق.

وجمعت المصاحف.. وكان هذا الإجراء أشد إجراءات الحرمان التى اتبعت إيلاماً لنفوسنا.. وكان الواحد منا وهو يسلم مصحفه ويرجع كأنما وتر أهله وفقد كل أحبابه ورجع وحيداً لاأنيس له ولا جليس ولا معين يعينه على نوائب الزمن.

ولم يبق للإخوان إلا مايحفظون من هذا الكتاب الكريم. فصار كل يستعيد مايحفظه، ويحاول أن يتصل بأخ يكون أوثق حفظاً ليراجع عليه مايحفظ.. وكان هذا متعذراً لندرة الفرص التى يتلاقى فيها الإخوان.. وعلى العموم فقد كانت هذه الفترة هى أشد الفترات وأشقها علينا، وقد كنا نحس خلالها بأننا أصبحنا يتامى نستحق الرثاء والمواساة.

سادساً: منع العلاج:

كان بالسجن الحربى كسائر السجون طبيب معهود إليه الإشراف على علاج المرضى من نزلاء هذا السجن كما كان بالسجن الحربى بناء منعزل من دور واحد يسمى

«الشفخانة» وهى كلمة تركية معناها بالعربية المستشفى. وبالرغم مما عليه هذه الشفخانة من تواضع فى حجراتها ووسائل الراحة بها فإنها كانت تعد متعة وترفهاً حين تقاس بزنازين السجن الحربى.

وكانت هذه الشفخانة فى أكثر الوقت الذى قضيناه بالسجن الحربى شبه محرمة على الإخوان مهما اشتد بهم المرض، لأنها كانت معدة لذوى الحظوة لدى حكام البلاد؛ فكان يقيم فيها أفراد من اليهود الذين كانوا يظهرون نحونا ــ حين يرون مانسامه من ألوان العذاب ــ شعوراً من الإشفاق والله أعلم بالسرائر.

كما أن العلاج كان محرماً على من يمرض من الإخوان، ومحظور على طبيب السجن أن يمد أى مريض منهم بدواء، فى الوقت الذى حظروا فيه ورود أدوية على حساب المرضى من خارج السجن لأن الطرود ممنوعة.

وهذا أسلوب لايقف عند حد الإذلال والتنكيل، وإنما يتعدى ذلك إلى تأديته بهذه الجموع الغفيرة من المعتقلين إلى الموت. وحينئذ لايقال إن المشرفين على السجن قتلوهم بل يقال إنهم مرضوا فماتوا شأن كل إنسان.

ولقد لمست يد الله تمتد إلينا حين انقطعت بنا جميع الوسائل؛ فالمريض الذى أثخنه المرض، ويعجز الطب فى الحياة الحرة الطليقة عن علاجه؛ تمتد إليه هذه اليد الكريمة القادرة وتمسح على موضع الألم فيصبح معافى سليماً. كأنما نشط من عقال دون طبيب ولا علاج ولا دواء؛ اللهم إلا مايلجأ إليه إخواننا الأطباء المعتقلون معنا من أسلوب الطمأنة والدعوة إلى الصبر والتهوين من شأن المرض، وهو مالا يملكون سواه.

أما الإخوان ذوو الأمراض المزمنة من أمثالى؛ حيث كانت نوبات الربو قبل دخولى المعتقل تنتا بنى طيلة الشتاء وعند انتقال الفصول، ولا أفيق منها إلا بدواء منفث معين كان لايبرح منزلى طيلة أيام السنة.. أما هؤلاء فقد تولاهم الرحمن الرحيم فحال بينهم وبين المرض؛ فلقد مكثت طيلة العشرين شهراً التى مكثتها فى هذا السجن لم يمسسنى ضر هذا المرض المزمن قط.

فإذا أضفت إلى أنواع الحرمان هذه التى ألمحت إليها الحرمان من الأمن والحرمان من الغذاء تصورت أن الهدف الذى كان يرمى إليه جمال عبد الناصر وأعوانه إنما هو القضاء على هذه الجموع باعتبارها حملة الفكرة الإسلامية: فإذا قضى عليهم قضى على هذه الفكرة واستراحوا منها إلى الأبد.

ولقد كانت هذه الخطة قمينة أن تؤدى إلى ماهدفوا إليه لولا أن التحدى كان موجها هذه المرة إلى الله صاحب الفكرة التى آمن بها هؤلاء الناس وعاهدوا على الدفاع عنها **﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لايحب كل خوان كفور﴾**.

الفصل الثالث

طغيان الأقزام

لم يقتصر الطغيان على جمال عبد الناصر باعتباره قد احتل الموقع الذى قال صاحبه من قبل «**أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون**» وإنما سرت روح الطغيان منه إلى كل من هم تحته حتى تلبست بأصغر جندى من جنوده. وسنعرض فى هذا الفصل لوناً من طغيان قزم من الأقزام بلغ به الطغيان أن نسى نفسه وظن أنه مارد اخترق بقدميه الأرض ونطح برأسه السماء.

الحبس الانفرادى وبدائع صنع الله

فى أحد أيام هذه الفترة العصيبة نعق ناعق البوم بأن تفتح الزنازين ويصطف المعتقلون وقوفاً بداخلها لأن القائد ــ قائد السجن الحربى ــ سيمر. وفتحت الزنازين وامتثلنا للأمر، وأخذ حمزة البسيونى ومعه كلبه الذى قد يبلغ ارتفاعه قامة الرجل والذى يعتبره حمزة البسيونى أشرس وسائل التعذيب حين يطلقه على معتقل لينهش لحمه، وهو يكاد لضخامته أن يكون فى قوة الأسد وبطشه.

ومر الرجل. ولا أدرى كما لم يكن أحد يدرى لماذا كان يمر، ولانزال حتى هذه اللحظة لاندرى لم كان يمر.. ذلك أن مروره هذا قد أسفر عن شىء عجيب لايفهم له معني، ولا يدرك له مغزى، ولا يقوم على أية قاعدة..

أما الذى يخصنى فى هذا الشىء العجيب أنه حين مر على زنزانتنا وهى فى الدور الثالث من السجن، وكنا فى الزنزانة ثمانية أفراد.. فإنه نظر فى وجوهنا ثم أشار إلىّ فتقدمت إليه، فأمر أحد الجنود الذين معه بمصاحبتى إلى فناء السجن؛ حيث وجدت ستة من الإخوان لأذكر منهم الآن إلا أخاً واحداً هو الدكتور مصطفى عبد الله.. وكان الدكتور مصطفى عبد الله إذ ذاك إما أنه بالمعاش وإما أنه كان قد شارفه. وكان آخر منصب له قبل الاعتقال مفتش صحة محافظة القليوبية.

وكانت لى صلة قديمة بالدكتور مصطفى ترجع إلى الفترة مابين عامى ١٦٣٧، ١٩٣٩ حيث كنت لاأزال طالباً وكنت أقضى أكثر إجازة الصيف فى ربوع محافظة البحيرة لنشر الدعوة ولجمع الأسلحة لمجاهدى فلسطين. وكان الدكتور مصطفى فى ذلك الوقت مفتش صحة مركز كفر الدوار، وكان من الإخوان العاملين بشعبة كفر الدوار وكان ممن لايدخرون شيئاً دون دعوتهم؛ ولذا فإنه كان من أوائل من اختيروا أعضاء للهيئة التأسيسية عند تكوينها، وظل الرجل على ولائه وتفانيه للدعوة دون صخب ولا جعجعة؛ لأنه كان يعتبر أن المسلم لكى يكون باراً بإسلامه يجب أن يكون جندياً فى دعوة الإخوان المسلمين.. والرجل فى ذاته رجل تقى صالح ورع ممن قال رسول الله ﷺ فيهم «لو لم يطع الله لم يعصه».

وخصصت لنا سبع زنازين متجاورة فى أحد أضلاع الدور الثانى من السجن أخليت من سكانها حيث وزعوا على عدد آخر من الزنازين، حشروا فيها حشراً مع من تزخر بهم من سكانها الأصليين. وأدخل كل واحد منا — نحن السبعة — زنزانة وحده أغلقت عليه. وليس بالزنزانة إلا بطانيتان رقيقتان وجردل الماء وجردل البول..

لم توجه إلينا تهم، ولم نؤخذ بذنب ولا جريرة. ومع ذلك كان لابد لنا من الأمتثال لأوامر من يعتبر نفسه إلهاً فى هذا السجن. وقد فهمنا أنه قرر لنا سبعة أيام فى هذا السجن الانفرادى.. وفى حالتنا هذه بلغ الفجور بهذا الرجل حداً لايعبر عنه إلا بأنه تحد مباشر لذات الله سبحانه وتعالى؛ ذلك أنه لم يكتف بحبسنا حبساً انفرادياً بغير جرم ولا مبرر؛ بل إنه اختار أضعفنا جسماً، وأكبرنا سناً، وأقربنا إلى الشيخوخة، وأمر أن يوضع معه فى الزنزانة كلبه المتوحش؛ وكان هذا الأخ هو الدكتور مصطفى عبد الله.. وكان معنى هذا الأمر الفاجر أن لايصبح الصباح على الدكتور مصطفى عبد الله إلا وقد فتك به، ومزق إرباً إرباً.. وما كنا نملك له ولا لأنفسنا شيئاً.

واختير لحراستنا حارس يبدو أن الذى اختاره ليس هو ذلك الفاجر لأنه كان الحارس الوحيد الذى كنا نلمس فى تصرفاته معنا الأدب والرحمة وقد نسيت اسمه ولابد أن بعض من زاملونا فى خلال تلك الفترة فى هذا السجن من الإخوان يذكر اسمه.

وقضينا الليلة الأولى ونحن أقرب مانكون من الله حيث كان التجرد كاملاً.. ولم أكن فى تلك الليلة مشغولاً بنفسى وإنما كنت مشغولاً بالدكتور مصطفى ذلك الشيخ الضعيف الذى حكم عليه بأن يعيش مع الكلب الكاسر فى زنزانة مغلقة وكنت أتذكر فى تلك الليلة قول الشاعر:

من جاور الشر لم يأمن عواقبه   كيف الحياة مع الحيّات فى سفط

وكان قلبى يهلع كلما تذكرت فى أثناء تلك الليلة كيف أتلقى فى الصباح حين يفتح

الحارس الزنزانة ليلقى إلىّ بلقيمات الإفطار نبأ وفاة الدكتور مصطفى ممزقاً كل ممزق.. وأصبح الصباح، وفتح الحارس باب زنزانتى ليقدم لى اللقيمات فابتدرته سائلاً عما إذا كان قد فتح زنزانة الدكتور مصطفى فأجابنى بالإيجاب؛ وفهمت منه أنه لازال على قيد الحياة.. فتعجبت وقلت: لعل الكلب لازال شبعان، ولكنه بعد انقضاء يوم وليلة لابد أنه سيجوع، وإذا جاع كلب كهذا دون أن يقدم له طعام فلن يجد غذاءً له إلا لحم الإنسان الوحيد المسجون معه.

ويبدو أن هذا المعنى الذى دار بخاطرى كان هو نفسه المعنى الذى دار بخاطر الفاجر صاحب الكلب، كما أنه هو ماكان يتوقعه الحارس المكلف بشئوننا.

وأحب فى هذه المناسبة أن أقرر حالة شعورية كانت مستحوذة علينا ـــ نحن نزلاء هذا السجن فى تلك الأيام ـــ تلك هى أن استقبال الموت كان من الأمور المتوقعة فى كل لحظة، ثم إنه من الأمور العادية بل أكاد أكون أُصَرِّحَ فأقول إنه كان من الأمور المحببة؛ لأننا وجدنا أنفسنا قد وضعنا فى أيدى قوم متخلين عن الدين والخلق والإنسانية والحياء، غير مقيدين بعرف ولا أدب ولا قانون. ولا فرق فى ذلك بين أكبرهم رئيس الجمهورية وبين أصغرهم وهو جندى الحراسة فى هذا السجن.. ولذا فقد كان كل منا يتوقع الموت فى كل لحظة، ولكنه يجهل الطريقة التى يزهقون بها روحه.

وقضينا الليلة الثانية فى الحبس الانفرادى. وفى الصباح فتح باب الزنزانة وجاء الحارس ليلقى إلىّ بلقيمات الإفطار. وهممت أن أسأله عن الدكتور مصطفى ولكنه بادرنى بقوله:

ألا تعرف ماحدث للدكتور مصطفى؟

قال: لقد كنا جميعاً متوقعين أن يصرعه الكلب، وينهش لحمه وعظمه. ولذا كان همى طول الليل أن أنظر إليه من ثقب الباب بين لحظة وأخرى.

قلت: فماذا رأيت؟

قال الحارس: لقد رأيت عجباً.. لعلك لاتعلم أن الباشا (قائد السجن الحربى هكذا كانوا يلقبونه) كان قد أمر بأن لانقدم طعاماً للكلب طول الأسبوع.. فلما أدخلت للدكتور طعام العشاء أمس ثم نظرت من ثقب الباب فرأيت الكلب جاثياً أمام الباب ووجهه نحو الباب، لايتحرك كأنه يحرس الزنزانة من داخلها.. ورأيت الدكتور يقدم الطعام للكلب والكلب لايقربه، والدكتور يكلم الكلب كأنه إنسان، ويعزم عليه أن يأكل والكلب يرفض ـــ ويأكل الدكتور ثم يقدم للكلب بقية الطعام فيأكله الكلب.. ويقدم له الماءُ فلا يمد فمه فى الجردل، وينتظر حتى يتوضأ الدكتور فيلحس الكلب الماء الذى وقع فى أثناء الوضوء على الأرض. ويقضى الدكتور الليل يصلى والكلب جاثم أمام الباب

يحرسه.. والدكتور حين يغلبه النوم فيضع جنبه أنظر فأرى الكلب فى حالة تحفز نحو الباب، كالحارس الذى يخشى أن يقتحم عدو الباب على صاحبه وهو نائم.. وكنت أرى الدكتور فى بعض الأوقات يكلم الكلب كأنه إنسان، ويضع يده على ظهره فينيخ الكلب ويبسط أقدامه بجانب الدكتور كأنه ولده الصغير.

ملاحظة:

(ماذكرته هنا على لسان الحارس ليست هى ألفاظه التى حدثنى بها لأنه رجل أمى ولكننى عبرت عنها بألفاظ عربية وعبارات عربية فصحى).

وما من شك فى أن الذى أدهش هذا الحارس قمين أن يدهش كل إنسان.. ولكن لايلبث صاحب القرآن أن يجد فيه مايرد هذا الأمر المثير للدهشة إلى قواعد قررها فى قوله: **﴿أليس الله بكاف عبده، ويخوفونك بالذين من دونه، ومن يضلل الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما له من مضل، أليس الله بعزيز ذى انتقام﴾** وقوله **﴿قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾** وقوله **﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**.

وجاء الحارس بعد انتهاء الليلة الثالثة ليقول لنا: إن الباشا (قائد السجن) سألنى عما كان من شأن الدكتور مصطفى فأخبرته بما رأيت فاغتاظ ثم أمر بإنهاء الحبس الانفرادى لكم.

وقد يعجب القارىء حين يعلم أن هذا الفاجر بعد أن رأى كيف رد الله كيده إلى نحره، وكيف تحطمت وحشيته الدنيئة على صخرة إيمان رجل ضعيف لايملك إلا الإيمان.. كيف لايفيق من غفلته، ويفيء إلى رشده، وينحنى ساجداً أمام عظمة الله وقدرته، ويكفر بمن دونه من المخلوقين؟

وقد تكون إجابة هذا السؤال التعجبى فى قوله تعالى: **﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله؟ أفلا تذكرون؟﴾** وفى قوله تعالى **﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها. إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم. فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون**

وجوههم وأدبارهم. ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾

وفى قوله تعالى **﴿كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون. كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون. ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾**.

وإلى الذين فتنهم العلم المادى وبهر عيونهم بما حقق من تقدم ومخترعات وازدهار، فوقفوا عند حدوده وظنوا أنها آخر الحدود، وأن ليس وراءها شىء، فإذا قيل لهم إن وراءها أشياء لاشىء واحد قالوا: هى خرافات.. إليهم نسوق هذه الواقعة التى عشناها وعاشها معنا آلاف على أنها ثقب فى الجدار المادى الذى حجب عنهم ماوراءه، لعلهم ينظرون منه فيرون أنهم ليسوا على شىء وأن عالمهم المادى بكل مافيه ليس إلا ذرة من بحر علم الله ومحيط قدرته، وأعيد هنا ماأردده دائماً وما كان يكثر من ترديده إمامنا حسن البنا من تائية ابن الفارض حيث يقول:

ولا تك ممن طيشته طروسه ... بحيث استقلت عقله واستبدتِ
فإن وراء العقل علماً يجل عن ... مدارك غايات العقول السليمةِ

ثم أرجع إلى السياق فأقول: وكان خروجنا من السجن الانفرادى إلى زنازيننا بعد هذا الحدث الإيمانى العظيم خروج المنتصرين. وقد كنا فرحين برجوعنا إلى إخواننا فى زنازيننا كما يفرح المسجون بالإفراج عند رجوعه إلى أهله.

وقبل أن أصل فى هذه الواقعة إلى نهاية الحديث عنها أحب أن ألفت النظر إلى أن القدرة الإلهية لاتتدخل فى شئون البشر إلا بالقدر الضرورى الذى لاغنى عنه؛ حتى تدع للسنن الكونية أن تأخذ مجراها فى حياة الناس.. فهذا الكلب الذى وقف حارساً للدكتور مصطفى هو نفسه الذى سلطه صاحبه على بعض من حقق معهم من الإخوان فنهشهم.. فإذا سأل سائل لم هذا الاختلاف فى سلوك الكلب بين الحالتين ؟ فنقول إن هذا الاختلاف فى سلوك الكلب لم يكن لأن من حقق معهم كانوا أضعف إيماناً من الدكتور مصطفى ولا أقل إخلاصاً، وإنما السبب أن الذين كان يجرى معهم التحقيق كانت لاتزال أمامهم فرصة **﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾** فالاعتراف بما هو مطلوب أن يعترفوا به ينجيهم من فتك الكلب بهم.. أما الدكتور مصطفى فكان فى وضع انقطعت فيه كل الأسباب فهو مجردٌ من كل سلاح والكلب معه والباب مغلق من خارجه عليهما، فكان تدخل القدرة الإلهية ضرورياً لاغنى عنه..

ويشبه هذا الموقف موقف إبراهيم عليه السلام حين قالوا **﴿حرقوه وانصروا آلهتكم**

إن كنتم فاعلين. **قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم﴾**.. ويشبه موقف يوسف وامرأة العزيز وهو غلام مشترى بالمال ليس له حق التصرف حتى فى نفسه وليس أمامه طريق للهروب من بيت يعتبر هو فيه من متاع البيت، وقد استطاعت امرأة العزيز أن تنال تأييداً من مؤتمر النسوة اللاتى كن يلمنها فقالت ﴿**فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ماآمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين**﴾ حينئذ بعد أن سدت أمامه جميع السبل لجأ إلى السبيل الأخير حين قال ﴿**رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين**﴾ وهنا كان تدخل القدرة الإلهية ضرورياً لاغنى عنه ﴿**فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم**﴾ وينبغى التنبه إلى أن المشكلة المستعصية التى كان يعانيها يوسف عليه السلام لم تكن أن يلقى به فى السجن أو لايلقى، وإنما كانت المشكلة أنه وضع وسط فتنة لايمكن مقاومتها ولا يمكنه الهرب منها، فكان صرف كيدهن عنه بالسجن هو الحل الوحيد.

التكدير والتنكيل بالكرام:

لست أدرى على أية قاعدة قانونية أو عرفية أو عقلية بنى هؤلاء العسكريون تصرفهم المسمى «بالتكدير».. ونظريتهم فى ذلك أنه إذا أخطأ فرد ينتمى إلى جماعة أخذوا الجماعة بجريرة الفرد، حتى بعد أن يستوفى الفرد جزاء جريرته.

والسجن الكبير الذى كنا نزلاءه يضم نحو ثلاثمائة زنزانة، والزنزانة وحدة مستقلة ومعزولة عزلاً كاملاً عن بقية الزنازين بفضل الإغلاق المستمر، والتعليمات الصارمة التى كانت تعتبر اتصال فرد من زنزانة بفرد من زنزانة أخرى جريمة يعاقب عليها باعتبارها تآمراً على الدولة وإعداداً لقلب نظام الحكم، وتهديداً خطيراً للأمن العام.. مع أن هذا الفرد وزنزانته والسجن كله معزول عزلاً تاماً لاعن المجتمع المصرى وحده بل عن العالم كله.

هذا السجن بنزلائه المقاربين الثلاثة آلاف كانوا يعاقبون جميعاً إذا مابدر من فرد واحد منهم مايعتبره السادة المشرفون على السجن خطأـ ولست بصدد مناقشة هذا التصرف الذى اعتبروه خطأً وجريمة هل هو حقا جريمة أم أنه مجرد الحصول على أدنى حقوق الإنسان؛ من محاولة دخول دورة المياه فى حالة مغص شديد، أو ملء قلة بالماء لإسعاف مريض أو ماشابه ذلك.. لست بصدد هذه المناقشة وسأفترض أن الذى بدر من الفرد جريمة؛ فما ذنب ثلاثة آلاف لم يرتكبوا الجريمة ولم يشتركوا فيها، ولم يعلموا بها؟ لم يحشد هؤلاء الآلاف فى صعيد واحد، ويعاقبون عقاباً تهدر فيه كرامتهم، وتؤذى أجسامهم؟

ألم يقل خالق الخلق ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ كما أن القوانين على اختلاف نزعاتها لم تخرج عن القاعدة التى قررها خالق الخلق؛ لأنها هى العدالة وهى مالا يقول العقل بغيره.

ولقد كانت حياتنا فى هذا السجن سلسلة من حلقات التكدير؛ لانكاد نخلص من تكدير حتى يبدأ تكدير.. وناهيك بمجتمع من ثلاثة آلاف هل يمكن أن تمر أيام دون أن يرتكب فرد منهم جريمة؟ باعتبار الجريمة عندهم هى مخالفة أهواء صعاليك جهال موكول إليهم الإشراف على أرقى مجتمع لاأقول فى مصر بل فى العالم كله.

وإذا كنت قد تحدثت فى سياق ماقدمت عن ألوان من التنكيل التى تناولوا بها المجتمع الإخوانى؛ فإنى أخص بالذكر الآن لوناً معيناً هو التنكيل بالكرام كبار السن والمقام الذين تواضع الناس على احترامهم وتوقيرهم.

الأخ الحاج حامد الطحان؛ رجل من كرام الناس، مرموق فى المجتمع؛ بسط الله تعالى له فى الرزق؛ فبسط كفه فى الإنفاق على كل ذى حاجة وعلى الدعوة الإسلامية.. لاأقول لايتخلف عن سد ثغرة بل إنه سباق إلى البذل فوقته وجهده وماله لله..

لاأنسى أننى زرته فى بلدته «كفر بولين» مركز كوم حماده فى عام ١٩٣٧ وكنت إذ ذاك لاأزال طالباً فى كلية الزراعة؛ فسألته بسذاجة الطالب عن مقر شعبة الإخوان المسلمين فى كفر بولين، فأخذنى إلى مبنى مكون من ست عشرة غرفة وقال لى: هل يعجبك هذا المبنى ليكون مقراً للشعبة؟.. وقال لى: إننا جميعاً هنا رجالاً ونساءً وأطفالاً من الإخوان المسلمين، وبيوتنا كلها دور للدعوة وكلنا ملك لها..

وأذكر أننى فى أواخر الثلاثينيات بعد أن فتحنا شعباً كثيرة فى محافظة البحيرة اقترحت على الأستاذ الإمام أن يزور شعب الإخوان فى المحافظة. وكانت البحيرة فى ذلك الوقت من أعسر بلاد القطر مواصلات؛ فإذا بالحاج حامد يأتى بسيارته ويقضى بها أكثر من أسبوعين يسوقها بنفسه مع أن عنده أكثر من سائق، لكنه كان حريصاً أولاً على أن يغبر وجهه فى سبيل الله، وثانياً على أن يكون بجانب الأستاذ الإمام ليفديه بنفسه عند الخطر وثالثاً لتتسع لراكب آخر من الإخوان يأخذ مكان السائق.

والحديث عن الحاج حامد وعن كرمه ونبله وبذله يطول ويتشعب. وخلاصة القول فيه أنه كان عثمان هذه الدعوة.

لم يستطيعوا أن يلفقوا للرجل تهمة يأخذونه بها فاعتقلوه، وجرى عليه ماجرى على إخوانه من المعتقلين مما أشرنا إلى طرف منه من التنكيل العام والإهانات العامة ــ ولكنهم لم يكتفوا بذلك فأرادوا أن يخصوه بتنكيل يشفى غلهم ويرضى حقد قلوبهم؛ فرأينا الرجل

الفاجر (حمزة البسيونى) الذى طوق فضل الحاج حامد جيده وجيد أسرته يأمر به أن يحمل جردلاً ليفرغ به ماء بركة الماء التى فجرها لنا إلهنا جل شأنه— وهى باعتبارها عينا لاتفرغ— ووكل به سفهاء السجن ليوالى العمل دون هوادة.

ولو كان نزح هذه البركة أمراً مطلوباً إنجازه، فإن مئات من الإخوان الشبان كانوا على أتم استعداد لإنجازه.. ومع أن هذا النزح كما قلت من قبل لاداعى له لأن أخذ الإخوان حاجتهم من هذا الماء يجدده، فإن كل شباب الإخوان فى السجن كانوا على استعداد أيضاً لنزحه بدلاً من أخيهم الكبير الحاج حامد.. ولكن الأمر صدر لالإنجاز عمل وإنما لإهانة شخص معين وإذلاله وإرهاقه.

وبهذه المناسبة أذكر أن أخوين كريمين قد رضيا أن يقوما بعمل قد يأنف الكثيرون من مزاولته؛ ذلك هو تنظيف دورات المياه.. وكان بالسجن الكبير هذا دورتان متقابلتان يفصلهما فناء السجن.. عهد بإحداهما إلى الأخ الكريم الشيخ منصور وهو جواهرجى من إخوان القاهرة وكانت ورشته فى شارع الموسكى وعهد بالأخرى إلى الأخ الكريم حسنى كوتش من كرام إخوان الإسكندرية..

ولقد كان لهذين الأخوين— فضلاً عن مهمة التنظيف— أعمال جليلة فى خدمة المجتمع الإخوانى فى هذا السجن فقد استطاعا بمهارة ولباقة أن يستغلا وجودهما خارج الزنازين أحسن استغلال بحكم اتصالهما بجنود السجن. فعن طريقهما كان الإخوان يعرف بعضهم أخبار بعض. وعن طريقهما أرسلت رسائل هامة إلى خارج السجن، وعن طريقهما وردت رسائل هامة إلى الإخوان فى السجن. وعن طريقهما خفف تنفيذ كثير من الأوامر الإجرامية.

ويلحق بهذين الأخوين عدد آخر من الإخوان ممن يتقنون أعمال الرسم والزخرفة. كانوا يطلبون لإعداد أعمال فنية لحساب السيد القائد.. فكان خروجهم خارج الزنازين وخارج السجن الكبير يعود على المجتمع الإخوانى بمنافع مختلفة— كما كان إخواننا الطباخون الذين يشتركون مع العساكر الطباخين فى إعداد الطعام يقومون هم الآخرون بدور كبير فى تحسين الطعام وفى إتاحة الفرصة للاتصال بخارج السجن فى بعض الأحيان— ولقد قام إخواننا الفنانون هؤلاء بإنجاز أعمال فنية رائعة استحل هذا الرجل الفاجر أن يستغل جهودهم فيها أسوأ استغلال، وأن يزود بيته وبيوت آلهته بها سحتاً دون مقابل.

الواعظ:

ومن أساليب التخبط والهزل التى تمخضت عنها عقولهم التافهة أنهم فى خلال إقامتنا

بهذا السجن أرسلوا إلينا واعظاً من وعاظ الأزهر. ومن حسن الحظ أن هذا الواعظ واسمه الشيخ محمد عثمان كان رجلاً عاقلاً. فقد فهم الرجل أنه رشح لمخاطبة أعلى المستويات، كما أنه فهم الظروف المحيطة بهذه المهمة؛ فكان الرجل فى حديثه فى غاية الحذر. وبالرغم من شدة حذره ومحاولته تفادى مواطن الحرج؛ فإن سفالة حرس السجن أوقعته فى حرج كبير. ولذا فإن أيامه لم تطل معنا، مما يشعر بأنه استطاع أن يفلت من مهمة قد تنتهى به إلى أن يصبح هو الآخر نزيلاً معنا.

فمهما كان الإنسان ثابت الجنان، مالكاً لأزمة شعوره، مسيطراً على أعصابه.. فقد تجدُّ مواقف لايستطيع أقوى الناس سيطرة على نفسه إلا أن ينفجر غضبه بكلمات لايجد من يعذره عليها من هؤلاء الأوغاد الذين يلتمسون للبرءاء العيب.

ولا أنسى بهذه المناسبة موقفاً لهذا الرجل ـــ وهو من أهل إسنا ـــ عندما وجه الحديث إلى الأخ البكباشى معروف الحضرى إجابة عن سؤال وجهه.. والبكباشى معروف الحضرى ضابط له شهرة فى مختلف الأوساط المصرية والعربية لمواقفه التى طيرتها وكالات الأنباء فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ـــ فاستعمل الرجل الكريم فى الإجابة عن السؤال أسلوباً يشعر باحترام الأخ معروف.. فما كان من الحراس السفهاء إلا أن اعترضوا على هذا الأسلوب بطريقة مجرمة، جعلت الرجل لايعرف ماذا يقول وماذا يفعل وكيف يخرج من هذا المأزق.. وأذكر أن الرجل قد انقطع عنا بعد هذه الحادثة.

* * *

الفصل الرابع

دراسـات

وسط هذا الجو الخانق الذى كان الإخوان يعانون وطأته فى هذا السجن الذى انعدمت فيه القيم الإنسانية وديست فيه بالنعال الكرامة الآدمية، ولم يعد لإنسان فيه عاصم يعصمه أو يحتكم إليه أو يحتمى فيه من عرف أو قانون، وكان كل فرد فيه مهدداً بفقد كرامته ورزقه بل وحياته فى كل لحظة تمر عليه.. وسط هذا الجو لم يفقد الإخوان ثقتهم بأنفسهم، ولا إيمانهم بفكرتهم؛ فكانوا لايفتأون يتدارسون كل جديد يصل إليهم نبأه مما يتصل بشئون أمتهم؛ ناسين ماهم فيه من كروب وآلام، وما يسامون من ظلم وعذاب. فكانت اللحظات النادرة التى تتيح للأخ منهم أن يلقى أخاه لايستغلها فى استعانة به على تخفيف عبء عنه من أعباء الحياة القاسية التى يعيشها؛ بل يستغلها فى مناقشة أمر من أمور الأمة وصل إليه نبأه؛ هادفين من ذلك إلى أن يكون المجتمع الإخوانى دائماً إزاء كل جديد، على رأى سواء فى ضوء الفكر الإسلامى.

كسر احتكار السلاح

جرياً على أسلوب الطغمة الحاكمة فى محاولة عزل المجتمع الإخوانى عن الحياة؛ كان محرماً دخول الصحف إلى السجن، كما كان محرماً وجود الراديو.. إلا أننا فوجئنا فى يوم من الأيام بفتح الزنازين ووجود جهاز للراديو بمكبر للصوت فى فناء السجن. وسمعنا الإذاعة المصرية لأول مرة منذ وصولنا إلى عتبة هذا السجن.. وقد توقعنا من هذا الإجراء المفاجىء أنهم يريدون أن يسمعونا خبراً ذا بال.

وكان ماتوقعناه؛ فسمعنا المذيع يلقى إلى المستمعين فى أسلوب ينم عن الزهو والتفاخر أن الرئيس جمال عبد الناصر استطاع أن يكسر احتكار السلاح.

وموضوع احتكار السلاح موضوع قديم. وكان دائماً إحدى الدعائم الأساسية التى يقوم عليها صرح السياسة الغربية؛ حيث كانت صلاتنا مقصورة على الكتلة الغربية دون الكتلة الشرقية التى لم نكن نعترف بها اعترافاً رسمياً، ولم نعترف بها إلا قبيل الثورة..

وكانت سياسة الدول الغربية أن لاتبيعنا من السلاح إلا ماتشاء لامانريد حتى تضمن أن نكون فى حدود معينة من القوة لانتعداها لنظل دائماً دائرين فى فلكها.

وقبل إذاعة هذا النبأ علينا كان قد تسربت إلينا أنباء عقد مؤتمر باندونج. وقد نوقشت أنباء هذا المؤتمر على أساس ماوصل إلينا من قصاصات من الصحف تحمل بعض أنبائه. ولم تكن صورة هذا المؤتمر واضحة فى أذهاننا لأن الدول التى اشتركت فيه لم تكن تبلورت مواقف كثير منها بعد. ولكننا مع ذلك لم نحسن الظن به؛ لأن الدول الشيوعية الكبرى كانت مشتركة فيه.. وقد لاحظنا أن رئيس وزراء الصين شواين لاى ـــ وهو أحد دهاقين السياسة ـــ كان محتفياً بجمال عبد الناصر احتفاءً أحسسنا أن له مغزى، وأن له هدفاً. وكانت الصين لاتزال بعد حليفة لروسيا وكانت يدها اليمنى كما يقولون.

ويبدو أننا كنا على صواب فى نظرتنا إلى هذا المؤتمر.. فقد تمخض هذا المؤتمر عن قرارات رائعة، ولكنها جميعاً كانت حبراً على ورق مثل وثيقة حقوق الإنسان التى أصدرتها هيئة الأمم المتحدة ـــ أما النتائج العملية المحسوسة التى أسفر عنها فكانت فتح أبواب كانت مغلقة فى وجه الشيوعية الدولية.

وجاءت خطوة كسر احتكار السلاح مفاجأة لنا وللعالم كله. وبدا بها جمال عبد الناصر بطلاً تاريخياً حيث صار أول حاكم لمصر استطاع أن يخرج ببلده من النطاق المضروب عليها من الغرب؛ إذ وصل السلاح الذى تريده مصر إليها من تشيكوسلوفاكيا أولاً ثم من روسيا بعد ذلك. ولا شك فى أن هذه الخطوة أغضبت دوائر الغرب قاطبة باعتبارها إفلاتا من قبضتها.

ووقف الإخوان فى السجن حائرين أمام هذه الخطوة يريدون أن يصلوا فيها إلى رأى. وكثرت المناقشات حولها، واختلفت الآراء.. ولاحظت أن أكثر الاختلاف كان ناشئاً من تحكيم العاطفة بدلا من تحكيم العقل والمنطق.

وجاءنى فريق من الإخوان يسألوننى الرأى فى الموضوع فكانت إجابتى على الصورة التالية:

أولاً: نحن الإخوان المسلمين كنا أول من دعا منذ عام ١٩٣٧ إلى تسليح الجيش وتسليح الأمة بأحدث الأسلحة مُتَحَدِّينَ فى ذلك إرادة الحكومة المصرية والقصر والإنجليز؛ مثيرين بذلك الدهشة والاستغراب فى أوساط الأحزاب المصرية بما فيها حزب الوفد.. وقد نشرت جريدة «المصرى» حديث المرشد العام حسن البنا فى ذلك الموضوع على أنه إحدى المفاجآت والأعاجيب. (وقد أشرنا إلى ذلك فى الجزء الأول من هذه المذكرات).

ثانياً : كراهيتنا لجمال عبد الناصر أمر مقرر ومفروغ منه وأسباب ذلك كلها تتصل بالله، ولكن هذه الكراهية لاتمنعنا من الثناء على عمل نافع إذا صدر عنه. فكراهيتنا لشخصه لاتحملنا على الغض من كل مايصدر عنه من عمل؛ لأن المسلم يجب أن يكون متخلقاً بخلق القرآن الذى يقول ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ .

ثالثاً : إذا نظرنا إلى العمل فى ذاته وجدناه عملاً نافعاً؛ لأنه إخراج للبلاد من الدائرة المفرغة التى تدور فيها منذ بدء الاحتلال البريطانى — وتقوية الجيش بتسليحه بأسلحة حديثة أمر مطلوب شرعاً وهو مطلبنا من قديم نحن الإخوان.

وهنا توجه إلىّ هؤلاء الإخوة بسؤال آخر فقالوا: أما وهذه الخطوة خطوة نافعة فلماذا لم يقدم عليها أحد من حكام مصر السابقين وأقدم عليها جمال عبد الناصر؟

فكانت إجابتى على سؤالهم هذا كما يلى:

جمال عبد الناصر بالرغم من أننا بلونا منه النفاق والكذب والغدر والخديعة والتجرد من الشرف والأخلاق، فلا نستطيع أن ننكر أن فيه لمحة من عبقرية، وأن له طموحاً يفوق كل تصور. وهو يعلم أن الذى منع سابقيه من الإقدام على هذه الخطوة، هو خوفهم من الفشل دون إتمامها لأنهم سيواجهون العالم الغربى كله.. والرجل إذا كان له مجد شعبى يحرص عليه؛ يحسب ألف حساب لكل خطوة يقدم عليها؛ لأن مخاطرته إذا لم يكتب لها النجاح فلن تودى به وحده، بل ستودى به وبمن وراءه ومن هو مرتبط بهم.. أما إذا لم يكن له مجد شعبى فعلى أى شىء يخشى إذا هو فشل؟

وتوضيح ذلك أن الذين حكموا مصر قبل جمال عبد الناصر أحد رجلين؛ إما رجل ارتبط بالشعب وهو الوفد، وإما رجل ارتبط بالملك وهم الأحزاب الأخرى — أما الوفد فإنه كان يمثل تراثاً شعبياً ضخماً تم بناؤه فى عشرات السنين، وتحت وطأة ظروف قاسية.. فإقدامه على مثل هذه الخطوة مخاطرة؛ إذا قدر لها الفشل تحطم هذا البناء الشامخ وضاع هذا التراث العزيز — وأما الأحزاب الأخرى فما كان لها أن تقدم على خطوة فيها إغضاب للمستعمر الذى هو سند القصر الذى هم سدنته وخدمه.

لهذا رأى جمال عبد الناصر أمامه فرصة سانحة؛ إذا أقدم عليها ففشل فلن يخسر شيئاً؛ لأنه هو نفسه لم يكن شيئاً حتى يقال إنه فقد شيئاً؛ كالمفلس إذا قامر يقامر وهو مطمئن لأنه إما أن يكسب فيغتنى من العدم، وإما أن يخسر فلا تضيره الخسارة. والمثل العربى يقول: أنا الغريق فما خوفى من البلل؟!

كان هذا هو ملخص رأيى الذى أدليت به إلى الإخوة الذين جاءوا يسألوننى. ويبدو أن هؤلاء الإخوة أذاعوا هذا الرأى فى أنحاء المعتقل حتى وصل إلى أسماع جبهة إخواننا

الكبار، الذين ساءهم أن يصدر هذا الرأى عنى، فأرسلوا إلىّ يطلبون الالتقاء بى، وتم الالتقاء بهم، وكان الأخ اليكباشى معروف الحضرى أشدهم غضباً.

ولم أكن من قبل على صلة بالأخ معروف، فكانت هذه أول مرة نلتقى فيها ونتعارف. وفهمت من إخواننا هؤلاء أنهم كانوا يريدون أن لايصدر عنى مافيه إطراء لعمل يأتيه رجل فعل بنا مافعل مهما كان العمل فى ذاته جليلاً — وقد رددت عليهم بأن هذا يتعارض مع الخلق الإسلامى الذى قرره القرآن الكريم. وقرره عمر بن الخطاب حين التقى بالرجل الذى قتل أخاه ضراراً — وكان الرجل قد أسلم فقال له عمر: والله لاأحبك حتى تحب الأرض الدم. فقال له الرجل: وهل يمنعك هذا أن تؤدى إلىّ حقى؟ قال عمر: لا. قال الرجل: فلا عليك إذن فإنما يبكى على الحب.. النساء.

أما الأخ معروف فكان اعتراضه منصباً على ماوصفت به عبد الناصر فى هذا التصرف من أنه عبقرى. وقد غضب أشد الغضب من وصفى جمالا بالعبقرية فى هذا التصرف، وقال: كيف تصف بالعبقرية رجلاً لاوفاء عنده ولا خلق ولا شرف.. ولم يستطع الأخ معروف أن يستسيغ أن يكون إنسان موصوفاً بالذكاء والتفوق الفكرى والنضج العقلى وهو فى نفس الوقت فاقد كل مايتعلق بالنفس من صفات خلقية كالصدق والوفاء والمروءة والشرف.. ثم أخذ يدلل لى على صواب رأيه وخطأ رأيى فقص علىّ القصة التالية:

قال: «بايعنا الأستاذ الإمام حسن البنا على المصحف والمسدس باعتبارنا عسكريين فى عام ١٩٤١ وكان معنا فى المبايعة جمال عبد الناصر. وكانت تربطنى بجمال صداقة شخصية وعائلية، كما كانت تربط كلينا رابطة صداقة من نفس الدرجة بالأخ عبد المنعم عبد الرءوف الذى اختير مسئولاً عن تنظيم الإخوان فى الجيش.. ثم علمنا أن جمال أنشأ تنظيماً آخر خاصاً به لايتقيد بمقاييس الإخوان.. وحاول استغلال صداقته لى فى جذبى إلى تنظيمه فرفضت. وحاول إغرائى بكل وسائل الإغراء ولكنه فشل.. فلجأ إلى أسلوب الإحراج بأن انتهز فرصة مناسبة من المناسبات فدعانى إلى حفلة فى منزله فوجئت بأنها تضم أعضاء تنظيمه، وقدمت المرطبات. ثم وقف جمال ليتكلم فرحب بالذين لبوا الدعوة وشكرهم ثم خصنى بالشكر وقال: وأبشركم بانضمام الأخ معروف الحضرى إلى تنظيمنا.. ففهمت فى الحال أن الحفل إنما أقيم وافتعلت له المناسبة وكان المقصود منه إحراجى ووضعى أمام أمر واقع.. ولكننى بالرغم من المفاجأة ومن الإحراج الذى أحكمت حلقاته حولى تمالكت أعصابى وشكرت جمالا على تقديره لى وشعوره نحوى، وأبديت اعتذارى بأننى لاأستطيع أن أتخلى عن تنظيمى، ولا أستطيع أن أعمل فى تنظيمين معاً.. وكانت هذه آخر محاولة لجأ إليها لجذبى إلى تنظيمه.. ولكننى عرفت بعد ذلك أنها

لم تكن آخر ماقى جعبته من أساليب.

«جاءنى جمال بعد ذلك فى منزلى، وأفهمنى أنه يريد أن يسر إلىّ بحديث خاص دفعه حبه لى إلى الإفضاء به إلىّ؛ قال لى: يامعروف: هل بينك وبين عبد المنعم سوء تفاهم؟ قلت: لا — فأبدى تعجبه وقال: إذن فلم هذا الكلام الذى يقوله عنك؟ يبدو أنه يخشى على منصبه فى التنظيم من وجودك فيه.. لقد كنا معاً بالأمس، وجاءت سيرتك فقال: أنا لأستخف دم هذا الشخص لأنه يعمل فى هذا التنظيم لشخصه، وسأحاول بتره من التنظيم.

«يقول معروف: وقد وقع منى كلام جمال موقع المفاجأة وكدت أشك فيه لولا أننى فى أول لقاء لى مع عبد المنعم لاحظت أنه معرض عنى، وينظر إلىّ شزراً، مما أكد لى صدق جمال فيما نقله إلىّ. فما كان منى — وأنا بشر — إلا أن قابلت إعراضه بإعراض وتجاهله لى بتجاهلى له. واستمر الخصام بينى وبين عبد المنعم لاأكلمه ولا يكلمنى حتى قامت الثورة، وجمعنى وإياه السجن الحربى حيث اعتقلنا جمال، فأخذنا نستعيد الأحداث ونتعاتب.. وفى هذه اللحظة فقط فهمنا أن جمالا استطاع أن يوقع بيننا بأن أسر إلى كل منا على انفراد حديثاً مختلفاً يوغر صدر كل منا على أخيه. وقد نجحت حيلته فى شل حركتنا بعد أن يئس من اجتذابنا إلى تنظيمه».

وهنا قال لى معروف: فهل مثل هذا الرجل الذى يستبيح الكذب ويوقع بين الناس ويسعى بينهم بالنميمة يقال إنه عبقرى؟

فقلت له: ياأخى معروف: العبقرية صفة تتصل بسرعة الخاطر. وإحكام التدبير، وبعد النظر، وبراعة التخطيط للوصول إلى الأهداف التى يسعى صاحبها للوصول إليها، ولا تتصل بالأخلاق والنبل والوفاء والمروءة والضمير.. فقد يكون الرجل عبقرياً وليس على شيء من الخلق والضمير، وقد يكون الرجل وفياً صادقاً نبيلاً ولا نصيب له من العبقرية — وقد يجمع بعض الناس بين العبقرية والخلق وهؤلاء هم الذين جمعوا أطراف الكمال الإنسانى وهم القلة دائماً.

وأنا حين وصفت جمال بالعبقرية وصفته وأنا أعلم أنه من الصنف الأول الذى ليس له نصيب من خلق ولا دين ولا شرف ولا ضمير — واسمح لى ياأخى معروف أن أقول لك إنك بما قصصته الآن علىّ؛ قد أضفت برهاناً آخر على عبقرية جمال كما أضفت برهاناً جديداً على سذاجتنا ورسول الله ﷺ يقول «المؤمن كيس فطن» وعمر بن الخطاب يصف نفسه فيقول «لست بالخب ولكن الخب لايخدعنى».

* * *

هذه قضية عرضت لنا فى أثناء وجودنا بهذا السجن أردت بإيرادها أن أثبت أولاً أن حيوية الإخوان لم تستطع كل أساليب القهر والكبت والإذلال أن تحتويها ولا أن تنال منها ولا أن تحد منها، ثم إننى قصدت عرضها على جمهور القراء لينا قشوها وهم متمتعون بالحرية كما ناقشناها ونحن تحت وطأة ظروف قاسية ربما كان لها بعض التأثير فى حكمنا على الأمور.

وقد قرأت فى هذه الأيام فى كتاب «جمال عبد الناصر» للأستاذ أحمد أبو الفتح فى صفحة ٢٦٢ مما يمس هذا الموضوع حيث يقول: «إن صفقة الأسلحة فى الحقيقة كانت بمثابة العصا السحرية التى مست قلوب الشعوب العربية فحولتها بسرعة فائقة إلى حب وتقدير بل تقديس لشخص جمال عبد الناصر — لقد كانت الأسلحة الروسية نقطة تحويل حاسمة فى سياسة عبد الناصر؛ فقد أوضحت له معنى لم يكن يعرفه من قبل، ورسمت له الطريق نحو زعامة لم يصل إليها أى زعيم عربى من قبل — لقد أوضحت له معنى وهو أن مشاعر العرب يمكن إثارتها وكسبها عن طريق مناهضة الغرب والوقوف فى وجهه».

وقد رأيت أن أنقل رأى الأستاذ أحمد أبو الفتح فى هذا الموضوع. لأن الأستاذ أحمد أبو الفتح وإن كان ليس من الإخوان المسلمين فإنه من الكتاب المنصفين، وقد ناله من ظلم جمال عبد الناصر وغدره مثلما نالنا.

على أن هذه القضية لم تكن القضية الوحيدة التى دار حولها نقاش فى خلال وجودنا فى السجن، وإنما كانت هناك أكثر من قضية، ولكننى اخترت هذه القضية لأنها كانت أهم القضايا، وكانت مناقشتها على أوسع نطاق. كما أننى لم أكن وحدى الذى يُستطلع رأيه بل كان هناك غيرى من الإخوة تستطلع آراؤهم. وقد أكون أنا أضيقهم نطاقاً فى إسماع رأيه؛ فقد كان غيرى حريصاً على إسماع رأيه فكان ينتقل من زنزانة إلى أخرى مع مافى ذلك من مجازفة. أما أنا فكنت معتصماً بزنزانتى لاأغادرها إلى غيرها ولا أبدى رأيى إلا لمن ينتقل إلىّ.. لأننى كنت أعتقد أن وقتنا فى هذا السجن متجردين التجرد التام لاينبغى أن يستغل أى جزء منه فى غير العكوف على كتاب الله. وقد وفقنى الله عز وجل كما أشرت من قبل فحفظت القرآن كله والحمد لله من قبل ومن بعد.

الثمانية عشر شهراً:

قضى الإخوان فى هذا السجن ثمانية عشر شهراً تحت وطأة لاتحتمل من الضنك والضيق والإرهاق لايكاد الواحد منهم يستطيع حتى التنفس؛ فكل همسة معدودة عليه، وكل لفتة محاسب عليها، بل إنه يكالُ له العذاب على مالم تجن يداه، ولم يفه به فمه بل ولم يخطر على باله..

وقد أثبت الإخوان فى خلال هذه الفترة جدارتهم باعتبارهم المجتمع الفاضل الذى تحدث عنه الفلاسفة وتخيله المثاليون؛ فقد اعتصموا بجميع الفضائل فى الوقت الذى كان الاعتصام فيه بفضيلة واحدة يكلف صاحبها حياته.

ففضيلة الصدق كلفت الكثيرين من الإخوان حياتهم نفسها. ومنهم من كلفته من الصبر على الأذى ماكان الموت أهون منه. ولقد كانت لهم رخصة فى مثل قوله تعالى ﴿**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ ولكنهم اختاروا العزيمة خوفاً من أن يوقعوا ظلماً ببرىء، فآثروا إخوانهم على أنفسهم، ورضوا بأن يموتوا تحت تأثير العذاب فى سبيل إنقاذ إخوانهم مما يريد الطغاة أن يلصقوه بهم من تهم.

وفضيلة الوفاء لدعوتهم التى عاهدوا الله عليها؛ هان عليهم فى سبيلها مفارقة الأهل والزوجة والأبناء وهجر التجارة وانقطاع موارد الرزق؛ فلقد كان أكثر من نصف نزلاء هذا السجن من ذوى المهن الحرة من صناع وزراع وتجار.. وهؤلاء انقطعت مواردهم من أول يوم اعتقلوا فيه. ولم تقف حقارة الطغاة عند هذا الحد بل إنهم اعتقلوا من هزتهم الأريحية من كرام الناس — الذين ليسوا من الإخوان — فمدوا يد المعونة إلى أسر هؤلاء المعتقلين الذين انقطعت مواردهم. واعتبر الطغاة هذه المعونة جريمة يعاقب عليها القانون وأوقفوهم أمام المحاكم المستخفية التى حكمت عليهم بعشر سنين.

وقد حقق الإخوان بذلك قول الله تعالى ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين**﴾ وقوله تعالى ﴿**من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾.

ولقد التقيت بعد خروجنا من هذا السجن بأخ كان معنا وكان عنده منحل كبير يدر عليه ربحاً عظيماً، وسألته عن منحله فقال لى: إننى خرجت فلم أجد للمنحل أثراً، لا النحل ولا العسل ولا الخلايا حتى الأرض التى كانت خضراء حوله وجدتها **جرداء**.

وفضيلة التعاون والإيثار جعلت الشاب يحمل العبء عن الشيخ، والقادر على الشىء يمد به غير القادر سواء كان هذا الشىء مالاً أو علماً أو فناً أو فضل قوة، ولا يرى القادر لنفسه فضلاً على أخيه بل يشعر بسعادة أنه يحقق معانى الإسلام التى آمن بها ودعا الناس إليها.

* * *

الأشهر الستة الأخيرة:

استفرغ الطغاة كل ما فى طاقتهم من وسائل الظلم والقهر والإرهاب.. وأخيراً تنبهوا فوجدوا أن سمعتهم وصلت إلى الحضيض سواء فى داخل البلاد وخارجها.. فأخذوا فى تعديل أسلوب تعاملهم فأمروا بما يسمونه «تحسين المعاملة».

وكان مظهر تحسين المعاملة فتح الزنازين وترك الحرية للمعتقلين للتنقل فيما بينها، والسماح بالمراسلات وإرسال الطرود والزيارات والسماح بالعلاج – كما بدأوا فى تنظيم عملية الإفراج؛ حيث قسموا المعتقلين أقساماً أو أفواجاً يفرج عنهم تباعاً على أن يتم الإفراج عن آخر فوج فى شهر يونيه ١٩٥٦.

والظاهرة العجيبة التى أسجلها هى أن أبرز ما كان من شأن المعتقلين فى خلال هذه الفترة ظهور الأمراض بينهم، وهذا مصداق للمعادلة المعروفة التى يمثلها القول الشائع «إن الله يعطى البرد على قدر الغطاء»، وكنت أنا شخصياً أحد الذين مرضوا فى هذه الفترة وعولجوا.

استغلال الحرية داخل السجن:

وقد رأينا أن نستغل هذه الفترة بما فيها من حرية التنقل داخل السجن فى عمل نافع. فقسم الإخوان أنفسهم جماعات، تضم كل جماعة المشتغلين بمهنة واحدة؛ فهذه جماعة الأطباء، وهذه جماعة الصيادلة، وهذه جماعة التجار وهذه جماعة العاملين فى صناعة الطباعة، وهذه جماعة العاملين فى الزراعة وهكذا.. وعلى كل جماعة أن تنظم لنفسها اجتماعات دورية تناقش فيها شئون مهنتها من الوجهة العلمية والوجهة العملية.

ولقد كان لهذه الدراسات المهنية نتائج طيبة فى إيجاد فرصة للتعارف الشخصى فيما بين الإخوان المشتغلين بمهنة واحدة، وفى تزويد كل ذى مهنة بما ليس عنده من شئونها ووسائلها مما عند الآخرين.

وأستطيع أن أجزم بأن الإخوان المهنيين قد أفادوا إفادة كبيرة من هذه الندوات. وقد كنت المسئول عن ندوة الزراعيين وكان عددنا نحو العشرين، وكان منا الزراعيون ذوو المؤهلات الزراعية، وزراعيون غير ذوى مؤهلات زراعية ولكنهم يباشرون العمل الزراعى. وقد تقدم كل منا بالمشروع الذى باشره بنفسه وما كلفه القيام به، وما أنتجه وما اعترضه من عقبات، وكيف تغلب عليها، وكيف كان يسوّق إنتاجه؛ وكل ذلك من واقع التجربة.

فخرجنا بمحصول لا بأس به من المشاريع المدروسة فى زراعة المحاصيل وزراعة الخضر

والفاكهة والأشجار، وفى تربية النحل وتربية دودة القز وفى الألبان وفى إصلاح الأراضى وفى تربية الماشية وفى الدواجن. خرجنا من هذه الندوة بمعلومات علمية وعملية وخلاصات تجارب قلما تجتمع لدارس. وكان من نتيجة هذه الندوة أن خرج عدد من هؤلاء الإخوان فأسسوا أعمالاً على أساس من هذه المشاريع فرادى ومتشاركين ونجحت أعمالهم نجاحاً كبيراً.

* * *

ولما قارب المعتقل على الانتهاء اجتمع إخوان الهيئة التأسيسية الذين بالمعتقل وناقشوا قضية كان لابد من مناقشتها؛ تلك هى أنهم حين يخرجون إلى الحياة سيجدون مجتمعاً ذا صبغة معينة، وسيجدون حكومة هى وليدة الصراع الذى كان بينهم وبين الثورة.. فما موقفهم منها ومن هذا المجتمع؟ هل يقفون منها موقف المقاومة أم موقفاً سلبياً أم يتجاوبون معها؟

وقد تمخض نقاشهم عن قرار مؤداه: أننا مهما كان رأينا فى الحكومة فإن الشعب الذى تحكمه هو شعبنا، ومسئوليتنا عن مصالحه لاتقل عن مسئوليتها؛ فعلينا أن نتعاون معها فيما يعود على هذا الشعب بالخير؛ منحين جانباً مابيننا وبينها من خلاف سياسى، وبذلك نكون فى كل أحوالنا متجاوبين فيما عدا الاتجاه السياسى.

وتوالت الإفراجات.. وكلما غادرتنا دفعة أفرج عنها تخلخل المجتمع الذى عشنا فيه سنتين وأحسسنا بلوعة الفراق.. حتى أهَلَّ علينا شهر يونيه ١٩٥٦ ولم يبق بالمعتقل إلا مائتان وخمسون من الإخوان وكنا الدفعة الأخيرة التى خلا السجن بعدها من المعتقلين.. وانتقلنا من السجن الحربى إلى سجن القلعة حيث مكثنا أسبوعين تم بعدهما الإفراج عنا.

بعد الإفراج:

لم تعد القاهرة فى نظرى بعد الذى حدث مكاناً تهوى إليه النفس، بل إنها صارت من أبغض البلاد إلىّ بقدر ماكانت أحبها إلى نفسى وصدق الشاعر الذى يقول:

وما حب الديار شغفن قلبى ... ولكن حب من سكن الديارا

ورأيت أن أقطع آخر خيط من صلة لى بها حيث كانت لى حقيبة تركتها قبل أن أعتقل عند الأخ الكريم الدكتور جمال الدين عامر رحمه الله فسافرت إلى القاهرة وأخذتها.

وكان المقر الرسمى لوظيفتى هو مدينة جرجا، ولكننى رأيت أن لاأذهب إلى البلد الذى اعتقلت منه، وعزمت على أن أسلم نفسى إلى الرياسة العليا للقطن بالإسكندرية

حيث على رأسها الزميل العزيز والصديق الوفى والأخ الحبيب الأستاذ حسين الخضرى رحمه الله.

وصلت إلى الإسكندرية وسلمت نفسى للرياسة فتلقتنى بالعناق كما تلقانى بقية الزملاء. وكانت قد أنشئت بكلية الزراعة بالإسكندرية قبل عام من خروجى من المعتقل دراسات عليا فى القطن فرأيت أن أتزود بها وتقرر نقلى إلى الإسكندرية التى رأيت أن أجعلها لى مستقراً بعد الرحلة الطويلة التى جبت خلالها القطر من أقصاه إلى أقصاه.

وفوجئت حين تسلمت عملى بأن زملائى جميعاً السابقين لى واللاحقين بى قد رقوا إلى الدرجة الرابعة دفعة واحدة سواى. وأسرّ إلىّ الأخ العزيز الأستاذ أحمد عبد اللطيف رحمه الله مدير المستخدمين بأن أعضاء لجنة شئون الموظفين جبنوا جميعاً عن الموافقة على ترقيتى مع أن اسمى مثبت فى الكشف المقدم لهم وسط الدفعة ظناً منهم أن فى هذا إغضاباً لرئيس الدولة فآثروا إرضاءه بهضم حقى.. ولكننى عن طريق الأخ الأستاذ أحمد عبد اللطيف والتهديد برفع الأمر إلى القضاء استرددت حقى.

ومعذرة فى ذكر أمر يعد من أشد خصوصياتى ولكننى أردت أن أعرض للقارىء صورة من جو الإرهاب والرعب الذى كان الشعب فى مصر يعيشه ويعانيه.

* * *

الباب السادس عشر

بين المعتقلَيْن

الفصل الاول : مسئولية الأسير أمام العواطف الثائرة

الفصل الثانى : فصائل الإخوان.. إلى أين؟

الفصل الأول

مسئولية الأسير
أمام العواطف الثائرة

خرجنا من المعتقل فى ٢٦ يونية ١٩٥٦. وكان المقصود من إخراجنا أن تكون مظاهرة سياسية تبدو بها حكومة مصر أمام العالم فى صورة حكومة ديمقراطية؛ بدليل أنها أفرجت عن عدة آلاف من المعتقلين، ولم تبق فى داخل السجون إلا من صدرت ضدهم أحكام من محاكم.

وقد اعتمدت الحكومة على جهل من يعيشون خارج مصر بل وأكثر من بداخلها بحقيقة هذه المحاكم وبحقيقة الإفراج الذى تتباهى به هذه الحكومة.. أما المحاكم فقد عرضنا لها بإشارات فى فصل سابق تكشف عن شىء من حقيقتها البشعة.. وأما الإفراج فإنه لون من الخداع لأن هؤلاء المفرج عنهم خرجوا من سجن إلى سجن. ومن معتقل إلى معتقل. ومن قيد إلى قيد؛ ولكن القيد الجديد يجمع إلى القيد قيداً آخر هو الحرج.

ففى المعتقل الرسمى كنا متخففين من المسئولية، وكان الذى نسامه من العذاب محجوباً عن أعين الناس؛ أما المعتقل الجديد الذى انتقلنا إليه ويسمونه إفراجاً فإن المسئولية التى كنا متخففين منها عادت إلينا بثقلها، كما قيدت حركتنا بقيود ثقال، وأصبحنا ملاحقين فى كل لحظة وفى كل مكان.

ثم أنشأت الحكومة نظاماً مستحدثاً فى صورة قانون، سرعان ماأقره مجلس الأمة سموه «قانون العزل السياسى». هذا القانون يحرم من أفرج عنهم من المعتقلين من الحقوق السياسية؛ فلا يكون من حقه أن يرشح نفسه للانتخابات ولا أن يدلى بصوته لانتخاب غيره، ولا أن ينتسب إلى الحزب السياسى الوحيد وهو الاتحاد الاشتراكى.. ثم جعلوا عضوية الاتحاد الاشتراكى شرطاً لتولى أى شخص منصباً قياديا فى العمل الحكومى مهما بلغ هذا الشخص من الكفاءة والأمانة والإخلاص وحسن الأداء والمقدرة الإدارية..

ومع مافى قانون العزل السياسى هذا من الغبن والإجحاف؛ فقد كنت سعيداً به لأنه حرمنى من الانتساب إلى الاتحاد الاشتراكى الذى لو فتحوا بابه لى لما ولجته، ولو أرغمونى على الدخول فيه لحاولت الفرار منه. وأرجو أن لايفوتنى فى فصل قادم أن أتعرض لهذا الموضوع بشرح مسهب إن شاء الله.

وإجمالاً أستطيع أن أقول: إن هذه الفترة التى بدأت بخروجنا من السجن الحربى كانت من أحرج الفترات التى مررنا بها؛ لأن أشد المواقف إحراجاً للرجل أن يعيش فى مجتمع يعتقد أنه حر كغيره من الأفراد وهو فى حقيقة أمره مقيد ولا يستطيع أن يقول إنه مقيد.. وكثيراً ماثارت النفس وتمنت أن لو كان اعتقال أعفاها من ذلك الحرج.

مسئولية الأسير:

لعل فى هذه المقدمة من إشارات من بعيد إلى بعض معاناتنا بعد الإفراج مايعين القارىء على تقييم الوضع الذى وضعنا فيه، والذى سلبنا فيه حرية التحرك حتى فى شئوننا الخاصة التحرك الذى تتطلبه هذه الشئون.

ولكن مجموعة من الإخوة الكرام كانوا فى خلال هذه الفترة فى حيرة من أمرهم؛ فهم يرون حكومة لاترعى للإسلام حرمة ولا كرامة، ولا تبالى باقتراف أضعاف سيئات العهد الملكى من الإباحية والتهتك تقتحم بها على الناس فى بيوتهم عن طريق وسائل الإعلام، وتشيع الفاحشة فى المجتمع بتشجيعها المتفحشين ومطاردتها أصحاب الفضائل والمتدينين.. ويرون الحال لايزداد كل يوم إلا سوءاً.. ولا يرون مع ذلك أحداً يقف فى وجهها أو يرفع صوتاً بمعارضتها.

وكان أكثر هؤلاء الإخوة من الشباب الغض الذى كان فى أوائل الخمسينيات لايزال نبتاً ثم ترعرع واستوى فى أواخر الخمسينيات وفتح عينيه على الصورة التى أومأت إليها، فهاله مارأى، وذهب يتلمس الطريق.. كما أن قليلاً منهم كانوا من الإخوة الأكبر سنا والذين حجبتهم ظروف أقرب إلى الصدفة عن أعين الظالمين فنجوا من ظلمهم.. وسار هؤلاء فى ثورة نفسية يبحثون عن قيادة ترشدهم إلى الطريق الأقوم لإصلاح هذا الفساد؛ فلا يجدون؛ لأن القيادات تعيش وراء القضبان حتى من كان منهم فى مظهره خارج القضبان كان مضروباً عليه حصار من كل جانب.

أما الذين كانوا لايزالون وراء القضبان فقد التمس هؤلاء الإخوة لهم العذر، وأما الذين كان مضروباً عليهم الحصار ــ وهو حصار فى الخفاء ــ فلم يلتمس لهم هؤلاء الإخوة العذر وحملوهم المسئولية كاملة وطالبوهم بقيادتهم إلى ميدان العمل..

جاءنى نفر من هؤلاء الإخوة، وبثونى مافى صدورهم من حرج، وما فى نفوسهم من

ضيق ، وطالبونى بعمل إيجابى . فقلت لهم : إن الذى بين حنايا ضلوعكم من ألم ولوعة وحزن هو بعض ماعندى . لأنكم غاضبون وليس فى أيديكم قيود ولا فى أرجلكم أصفاد ؛ بدليل أنكم جئتمونى وتتحركون كما تشاءون . أما أنا وأمثالى فنحس ماتحسون ؛ ولكن الأغلال جعلت فى أيدينا وأرجلنا ، وإذا كنتم لاترون السور المضروب من حولنا فإننا نراه محيطاً بنا ، والسجانون يلاحقوننا فى كل مكان وفى كل وقت . وكانوا فى السجن الحربى بملبسهم العسكرى ظاهرين ولكنهم هنا بالملابس العادية غير معروفين .. إننا أسرى معركة ، والأسير غير مطالب بما يطالب به الجندى الحر ، وقد أعفاه الله وأعفته القوانين لأن أمره لم يعد بيده بل صار بيد آسريه .

فقالوا : إذن نقعد ونستكين ويستمر الظالمون فى ظلمهم ولا يجد الشعب المسكين من ينقذه ؟! قلت : إننى لم أنهكم عن العمل ، ولم آمركم بالاستكانة .. فالمسلم مطالب بالعمل فى كل الظروف ولكن فى حدود استطاعته .. وأدنى درجات العمل أن يعكف المسلم على القرآن عكوفاً يربط قلبه به ويأخذ نفسه وذويه بأحكامه وآدابه ، وأن ينشر مبادىء هذا الكتاب الكريم وهى ماسماه الناس مبادىء الإخوان المسلمين عن طريق القدوة ؛ وهى أقرب طريق إلى قلوب الناس .. وهذا هو القدر المطالب به أسرى المعارك من أمثالنا ...

وليس فى هذا القدر من العمل مايمت إلى الاستكانة بسبب ؛ فالقلب العاكف على القرآن لاتبرحه الحياة ولا تجتمع الحيوية والاستكانة فى قلب فإحداهما تطرد الأخرى .

والتاريخ يحدثنا ــ وهو صادق . والتاريخ ليس إلا سنة الله فى خلقه .. يحدثنا أن الدنيا دول ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ .. فدولة تدوم إلى الأبد أمر محال .. تبدأ الدولة بدءاً صالحاً ثم يدب الغرور فى نفوس حكامها فيظلمون فتدول دولتهم ﴿**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً**﴾ .

والذى يكاد يدخل اليأس إلى نفوسكم أنكم تظنون أن هزيمة هؤلاء الظالمين لابد أن تكون بأيديكم وإلا فلا أمل فى الإنقاذ . وهذا الظن يبين خطؤه حين ترجعون إلى صفحات التاريخ ؛ وليكن تاريخ أمتنا ؛ فسترون بنى أمية قد انتزعوا السلطة من بنى هاشم ، ودانت لهم الدنيا من أدناها إلى أدناها ، وظل يهتف لهم بالدعاء على منابر الدولة الإسلامية مائة عام ؛ فتكوا فى خلالها بكل من رفع رأسه من بنى هاشم ؛ فقتلوا الحسين بن علىّ ، كما أعملوا القتل فى أنصاره ، وقضوا على عبد الله بن الزبير ومن كان معه .. ولم يعد فى جزيرة العرب ولا فى خارجها من لايدين لهم بالولاء .. فظنوا أنهم قد استأصلوا شأفة منافسيهم وقضوا عليهم إلى الأبد .. وطابت لهم الحياة ، واستقرت الدولة ، وباتوا آمنين .. ولكن بعد مائة عام قام من بنى هاشم ــ الذين استؤصلوا ــ من انتزع السلطة منهم ، وشتت شملهم ، وأسس الدولة العباسية التى تتبعت الأمويين تتبعاً اعتقدوا معه أنهم لم يبقوا

لهم فى الدنيا على أثر.

وتوطد الأمر لبنى العباس، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا أن يخضعوا الأيام لإرادتهم، فمالبث الأمويون ــ الذين أبيدوا فى ظنهم ــ أن أنشأوا دولة فى الأندلس تضارع دولة العباسيين وظلوا يحكمونها سبعة قرون.

وإذا كانت السنة ذات الثلاثمائة والستين يوماً فى حياتنا زمناً ذا بال، فإن عشرات السنين فى حياة الأمم وفى حركات التاريخ لاتعد زمناً يذكر. وأصحاب الدعوات الذين يريدون أن يلووا عنق الزمان، لايلبثون أن تدكدكهم الأيام بأقدامها الثقال.. أما الذين يفهمون التاريخ فإنهم يخطون بخطى وئيدة ثابته؛ لايدعون يوماً يمر دون أن يملأوه بعمل يناسبه، لايحاولون أن يثبوا عليه وثباً.. يفعلون ذلك وهم واثقون من أن الغد غدهم، وأن اليوم الذى يأملون أن يأتى سوف يأتى؛ ولكنه قد يكون من أيام حياتهم وقد يكون من حياة جيل يأتى بعدهم وسنة الله لاتتخلف.

إننى واثق كل الثقة أن دعوتنا التى حيكت لها المؤامرات ودبرت لها المكايد، وحوصرت من كل مكان، وعمل الحاقدون الظالمون على إطفاء جذوتها واستئصال شأفتها؛ ستنتصر آخر الأمر، وستعود لها الكلمة العليا والصوت الأعلى والصدى المستجاب.. ولكن كيف يتم ذلك ومتى يتم؟ هذا هو مالا أعلم، وهذا هو مااستأثر به علم الغيب..

نعم إن الظروف التى نعيشها الآن لاتوحى بذلك، ولا تسلمنا إلا إلى اليأس.. ولكن الله تعالى شأنه وجلت قدرته صاحب هذه الدعوة أخبرنا أنه ﴿**يخلق مالا تعلمون**﴾ فهو الذى يخلق فيما يخلق مالا نعلم، ومالا يدور فى خلدنا، ومالا يدخل فى حساباتنا ولا فى حسابات أعدائنا من الظروف والأحوال.. وهذا النوع من الظروف التى تعجز الحسابات البشرية عن الإحاطة به هو الذى يفاجأ به الطغاة، وتدول من هوله الدول.

ومجرد إيماننا بالله وبدعوتنا يطرد كل خاطرة من خواطر اليأس من نفوسنا، ويملؤها بالثقة المطلقة بحيث يكون يقيننا بنصر الله كيقيننا بوجوده سبحانه.. وإذا كان للإنسان أن يلجأ إلى عقله ومواهبه فى استغلال الظروف؛ فإنه عاجز عن أن يخلق الظروف؛ لأنه هو نفسه ليس إلا بعض هذه الظروف التى تفرد الخلاق العليم بخلقها.

وإذا كنا نقول ذلك ونؤمن به ونثق فى تحقيقه؛ فلسنا نقوله كما يقوله الموتى القاعدون، الذين آثروا متع الحياة وتمنوا على الله الأمانى؛ وإنما نقوله الآن بعد أن قدمنا لدعوتنا كل مافى وسعنا؛ فمنا من قضى نحبه ومنا من ينتظر.. ولكن الكَرَّةَ كانت هذه المرة علينا لالنا فوقعنا فى أسر العدو.. وليس أمامنا الآن إلا أحد أمرين؛ إما أن نقدم أعناقنا

لمقاصلهم دون مقابل؛ وإما أن ننتظر وعد الله تعالى وما سوف يخلق من ظروف واثقين فى وعده آملين فى نصره ﴿**قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معم متربصون**﴾.

وتحضرنى الآن صورة المسلمين فى المدينة وقد بوغتوا بمالا قبل لهم به من قدوم جميع قبائل الجزيرة العربية حيث ضربوا حصاراً خانقاً حول المدينة فى تحالف سرى بينهم وبين يهود المدينة، وما عاد هناك مايمنعهم من أن يمسكوا المسلمين بالأيدى دون أن يجد واحد منهم لنفسه مهرباً.. ورأى المسلمون الموقف على هذه الصورة فماذا فعلوا.. إنهم فعلوا ماف طاقتهم وتركوا مافوق طاقتهم للقدرة الإلهية.. كل الذى فعلوة أنهم حفروا الخندق حول المدينة ولجأوا إلى حيلة فصمت عرى التحالف المعقود بين العرب واليهود.. ولم يكن فى استطاعتهم أن يفعلوا أكثر من ذلك.. ولكن هل كان الذى استطاعوا أن يفعلوه كافياً لرد هذا البحر المتلاطم من قبائل العرب.. لا.. ولا هذه يقولها كل من له عقل؛ فالتكافؤ مفقود فى كل مقومات الحرب ولكن الذى ﴿**يخلق مالا تعلمون**﴾ لايطالب المدافعين عن دعوته بأكثر من أن يراهم قد بذلوا ماف استطاعتهم وعليه هو أن يتولى الأمر.. فماذا خلق مما لايعلمون؟ خلق ريحاً نسفت المهاجمين نسفاً وأنزل جنوداً لاتراها أعين البشر — وهذا الموقف من المواقف البالغة الدقة التى لايمكن التعبير عنها إلا بالنص القرآنى نفسه ﴿**ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً**﴾ ﴿**ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً. من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا**﴾ ﴿**ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً**﴾.

كانت هذه صورة من صور النقاش الذى دار بينى وبين بعض الإخوة الشباب المتعجلين الذين هالهم وأفزعهم مايسام الشعب من هوان، وما تنتهك له من حرمات، باسم الشعب وباسم الحرية وباسم الكرامة، والشعب فى حال من الذهول.

وإذا كانت حججى قد أقنعت عقول هذا الشباب، فإنها لم تتجاوب مع عواطفهم الثائرة، التى لم يستطيعوا لسيلها الدفاق دفعاً؛ فذهب كثير منه ليعمل عملاً يرضى هذه العواطف، ولكنهم كانوا كالفأر الذى يبيت خطة الهرب ولم يدر أن جدران المصيدة تحيط به من كل جانب؛ فالبلد لم تكن إلا سجناً كبيراً سجانه هو حاكم البلد، وقد وزع زبانيته على الأبواب والأسوار.. فلم يشعر هؤلاء الإخوة بعد قليل إلا وهم فى قبضته ليفعل بهم الأفاعيل.

الفصل الثانى

فصائل الإخوان.. إلى أين؟

فصائل الإخوان:

عزلنا الحديث عن السجن الحربى ومصائبه ومآسيه عن متابعة الحديث عن الآثار المدمرة لمؤامرات جمال عبد الناصر فى صفوف الإخوان وما انتهت به من انقسام الإخوان إلى فصائل يمكن إجمالها فى ثلاث فصائل؛ فصيلة انتمت إلى عبد الناصر وعلى رأسها قيادة النظام الخاص والمفصولون من أعضاء الهيئة التأسيسية، وفصيلة رأت آخر الأمر فى عزل المرشد العام إنقاذاً للدعوة، وفصيلة رأت فى تماسك الدعوة بمرشدها هذا الإنقاذ.

أما ثالثة الفصائل فتضم سواد الإخوان المسلمين وإن كانت قيادتها قد انقسمت فى أول الأمر قسمين اختلفت وجهة نظر كل منهما عن الأخرى؛ فقسم وكنت منه اكتشف مالم يكتشفه القسم الآخر من اطلاع جمال على أدق أسرارنا فرغب فى تعديل خطتنا لتتواءم مع الوضع الذى اكتشف؛ والقسم الآخر رفض إجراء تعديل. وقد صاحب عملية هذا الرفض بعض تجاوزات.. وساد رأى هذا القسم الآخر، فكان أن تخلى أصحاب فكرة التعديل عن فكرتهم وساروا فى الركب عملاً بقول علىّ كرم الله وجهه «كدر الجماعة خير من صفو الفرد».

وهذه الفصيلة هى التى اعتبرها عبد الناصر أعداءه الألداء ورسم خطة لإبادتهم، وعرضنا فى فصول سابقة نماذج من هذه الخطة.

وأما الفصيلة الثانية التى رأت فى عزل المرشد العام إنقاذاً للدعوة، ففى اعتقادى أنها قد تلحق بالفصيلة الثالثة لسببين: أولهما أن أعضاءها هم من خيرة الإخوان ولم يؤثر عنهم من قبل انحراف عن الدعوة ولا ارتياب فى القيادة. والسبب الآخر أن إعلانهم بهذا الرأى كان وليد ظروف قاسية ألمت بالدعوة أشرنا من قبل إلى طرف منها، وصار كل غيور على الدعوة يتلمس أى وسيلة للخروج بها من المأزق القاتل الذى وضعت فيه.. وحين يكفهر الجو، ويسود الظلام، تتعذر الرؤية الصحيحة لاسيما والقائد غير موجود فكانت هذه

الرؤية التي لاأشك فى صدورها عن حسن نية، وإن كان الطرف الآخر قد استغلها لصالحه.

وأما الفصيلة الأولى فقد طال الحديث عنها فى هذه المذكرات لأنها هى أصل البلاء وسر الداء، ولكن الذى يعنينا فى هذا التلخيص للمواقف أن نلم بمواقفها إزاء التطورات التى حدثت. ونستطيع أن نجمل هذه المواقف فيما يلى:

١ ــ كان لهم موقف عدائى عند اختيار المرشد العام، ثم تراجعوا عن هذا الموقف وساروا مع الركب.

٢ ــ بعد قيام الثورة وبدأ الخلاف بينها وبين الإخوان اتخذوا مرة أخرى موقفاً عدائياً من دعوتهم وظاهروا عبد الناصر على إخوانهم.

٣ ــ لما حل عبد الناصر الإخوان واعتقلهم فى يناير سنة ١٩٥٤ وفشلت خطته وخرج الإخوان من المعتقل منتصرين وصاروا سادة الموقف وصار عبد الناصر فى أضعف حالاته؛ جاءوا مرة أخرى إلى دعوتهم تائبين.

٤ ــ لما غدر عبد الناصر بما أعلنه مجلس الثورة من قرارات فى ٢٥ مارس ١٩٥٤ ودبر المظاهرات المأجورة وتبادل المواقف مع الإخوان ثمرة هذا الغدر فصار هو فى الموقف الأقوى والإخوان فى الموقف الأضعف اتخذ إخواننا هؤلاء موقف السكون والانتظار.

٥ ــ لما أعلن عبد الناصر الأسس التى قامت عليها اتفاقية الجلاء التى عقدها وحده مع انجلترا دون الرجوع إلى الشعب وجاءت مخيبة للآمال؛ فقام الإخوان بنقدها؛ وكان عبد الناصر يريد أن يجعل منها تراثاً شعبياً لنفسه.. وكان تساهله فى شروطها المجحفة بحقوق الأمة ثمناً لقبول الإنجليز التفاوض معه مما يكسب حكومته صفة تمثيل الشعب ويضفى عليها معنى من معانى الشرعية والقوة.. لأن الإنجليز كانوا حريصين دائماً فى عقد معاهداتهم مع مصر أن لايتفاوضوا وأن لايوقعوا على اتفاق إلا مع من يمثلون الأمة حتى تكون لاتفاقياتهم قوة وثبات.

وقد اعتبر عبد لناصر كما قدمنا نقد اتفاقيته بمثابة إعلان الحرب عليه فعزم على إبادتهم، ووضع كل إمكانات الدولة فى خدمة خطط هذه الإبادة.. وبدأت الحرب غير المتكافئة وأشرنا فى الفصول السابقة إلى أقل القليل مما ارتكب فيها من مظالم وما اقترف فيها من إجرام وما اندفعوا فيه من فجور.. فماذا كان موقف إخواننا هؤلاء؟

هذا ماكنت أجهله ولكننى قرأت فى مذكرات للأخ الكريم الأستاذ عبد الحفيظ الصيفى يعدها للطبع نبأ استميحه عذراً فى نقله للقراء لعله يلقى شعاعاً من الضوء نستبين

معه إجابة لهذا السؤال:

«يقول الأستاذ عبد الحفيظ فى مذكراته: سألت الأستاذ أحمد عادل كمال ـــ وكان من قيادة النظام الخاص التى فصلها مكتب الإرشاد ـــ سألته: لماذا اعتقلت مع أنك كنت أحد المفصولين؟

فرد قائلاً إنه هو أيضاً كان فى حيرة من هذا الأمر.. لماذا..؟ إلى أن عرف أخيراً السر فى ذلك.. يقول الأخ أحمد عادل كمال إنه كان فى زيارة لأقارب له ليقوم بواجب عزاء، والتقى عندهم بضيف يقوم بنفس الواجب. وعندما قام بعض أقاربه بتقديمه لهذا الضيف فوجئت بأنه يقول لهم: إننى أعرفه ـــ وعرض علىّ أن يكشف لى عن موضوع ربما يكون خافياً علىّ دون أن يعرفنى بشخصيته. وعندما سألته عن الموضوع أجابنى: هل تعرف السر فى اعتقالك بعد أن فصلت مع آخرين من الإخوان؟

فقلت: إننى فى حيرة من هذا الأمر بالفعل.

فقال: هل تذكر يوم اجتماع الهيئة التأسيسية الأخيرة؟ وحضرت إلى دار المركز العام. وفى الميدان قابلك أحد الإخوة من النظام الخاص، وعرفت منه أن هناك مجموعة من النظام فى بيت فى القلعة ـــ وهم مسلحون ـــ وفى النية مهاجمة أعضاء الهيئة التأسيسية فى حالة صدور قرارات منها لاتؤيد الجماعات المعارضة للمرشد العام الأستاذ الهضيبى والقيادة الشرعية للجماعة.. وبعد أن استمعت للأخ الذى تحدث معك سارعت متوجهاً إلى المنزل المجتمع فيه بعض إخوة النظام المسلحين وطلبت منهم إنهاء اجتماعهم وفض هذا التجمع المسلح، وقلت لهم: كفاية مانحن فيه.. وفى الحال بلغ جمال عبد الناصر ماقمت به فقرر يومها أن تكون فى قائمة المعتقلين بل فى قائمة من ينالهم التعذيب فى السجون والمعتقلات وكان ذلك بالفعل».

ويقول الأستاذ عبد الحفيظ: ويظهر أن عبد الناصر قد وضع تحت تصرف هؤلاء المنشقين كثيراً من إمكانات الحكومة وأجهزة مخابراتها وإشاعاتها ووسائلها بل صحافتها التى كانت فى ذلك الوقت أكبر أداة فى يد مجلس الثورة لتسميم الأفكار وتضليل الرأى العام.

* * *

الباب السابع عشر

اعتقالات سنة ١٩٦٥

الفصل الأول

فى سجن أبى زعبل

لعل التوقيت الذى اختير لهذه الحملة قد بنى على أساس حسابى بسيط؛ فالإخوان الذين اعتقلوا عام ١٩٥٤ أنشىء لهم قانون يجردهم من حقوقهم السياسية، ويجعل لأجهزة الأمن حق مراقبتهم وتقييد حريتهم، ورصد كل مايصدر عنهم، ومحاسبتهم على ذلك بوسائل لاتخضع لسلطة القضاء— وخلاصة القول: يجعلهم ألعوبة فى أيدى هذه الأجهزة. ولما كان هذا القانون أو القرار الجمهورى صادراً على أساس استثنائى فإنه كان لابد من تحديد فترة لسريانه. وقد حددت هذه الفترة بعشر سنوات ابتداءً من عام ١٩٥٦ .. ومعنى هذا أن القانون تنتهى فترة سريانه فى عام ١٩٦٥ .

فخوفاً من إفلات الإخوان من قبضتهم رأوا أن ينشئوا ملحمة جديدة يضمنون عن طريقها تجديد هذه الفترة تجديداً إلى أجل غير مسمى؛ بحيث يظل الإخوان فى قبضتهم، وتحت رحمتهم حتى تفنيهم الأيام، وتعفى على آثارهم، وتطمس معالم تاريخهم.

وقد رأوا أن يجعلوا الفترة عشر سنوات؛ على أساس أن هذه الفترة كافية أن تعدم أية هيئة مهما عظم شأنها إذا ماوجهت الدولة كل إمكاناتها للقضاء عليها.

أسلوب جديد:

كان الأسلوب الذى اتبعه جمال عبد الناصر مع الإخوان فى سنة ١٩٥٤ أسلوباً إجرامياً، ولكنه كان بدائياً أو كما يعبرون عنه بالعامية «أسلوب فلاحى». فهو باعتباره ضابطاً يعرف أن السجن الحربى هو أشد السجون معاملة، ويعرف أن القائمين على إدارته أفراد من الجيش، وطبيعة عملهم السرية؛ فارتكاب جرائم التعذيب فى ظل هذه السرية يحقق المطلوب.. ثم إنه سبق أن أجرى فى الجيش حركة تطهير ضمن معها أن الباقين فيه على ولاء تام له؛ لاسيما بعد أن أخرج منه كل ذى مبدأ أو شخصية.

ثم إن أسلوب التعذيب يتلخص فى عدة طرق مألوفة من الحبس فى الزنازين والحبس الانفرادى والإجاعة والضرب بالكرباج والحرق بأعقاب السجاير والنفخ والتعليق والإلقاء بعد الجلد فى ماء مثلج، ثم التعذيب الجماعى بالطوابير المرهقة ومنع الملابس وما إلى ذلك مما أشرنا إليها آنفاً.

أما فى حملة ١٩٦٥ فقد تغير الأسلوب حيث كان التقارب المصرى السوفييتى، الذى أخذ فى التطور السريع حتى صار تحالفاً ثم صار تلاحماً.. وإذا كان الغرب قد سبق السوفييت فى تكنولوجيا الحضارة الحديثة؛ فإن السوفييت قد سبقوا الغرب فى نوع من التكنولوجيا التى لم يفكر فيها الغرب حتى الآن؛ وهى تكنولوجيا إهدار الكرامة الإنسانية والتعذيب، التى قامت عليها الفكرة الشيوعية سواء فى داخل روسيا أو خارجها من عمليات الإفناء والتدمير الجماعى والفردى بأساليب متطورة حديثة.

وقد أفاد جمال عبد الناصر من التقدم التكنولوجى للروس فى هذه الناحية أعظم إفادة ــ فقد استورد من روسيا أجهزة للتعذيب تعمل بالكهرباء واللاسلكى والخلايا الضوئية والالكترونية، ومنها أجهزة للتعذيب البدنى، وأخرى للتعذيب النفسى وتحطيم الأعصاب. وأجهزة تحطيم الأعصاب منها مايسلط على شخص واحد ومنها مايسلط على جماعة.

وصف سجن «أبو زعبل»:

هو سجن بنى حديثاً بجانب سجن «أبو زعبل» القديم. وقد بناه جمال عبد الناصر على طراز السجون الحديثة؛ فهو يشبه السجن الحربى فى كونه ذا أربعة أضلاع تحصر بينها فناءً واسعاً لاسقف له. إلا أنه يختلف عن السجن الحربى فى كون فنائه ببلاط اسمنتى مضلع. وهو وإن كان مكوناً من ثلاثة طوابق كالسجن الحربى إلا أن الطابقين الثانى والثالث مكونان من عنابر واسعة يزيد طول العنبر منها على عشرة أمتار وعرضه نحو ستة أمتار، والعنابر مبلطة وذات نوافذ واسعة وإن كانت مرتفعة، ولكل عنبر باب ليس من الحديد المصمت كأبواب زنازين السجن الحربى بل مصنوعة من عيدان من الحديد بين العود والآخر نحو عشرة سنتيمترات. والسقوف عالية، والتهوية صحية، وملحق بكل عنبر دورة مياه على طراز حديث.

فهذا السجن من طراز آخر غير السجون المصرية قديمها وحديثها؛ بحيث يصلح أن يكون منتجعاً للسياح الذين يفدون إلى بلادنا جماعات يرتبط بعضها ببعض؛ فكل وسائل الراحة متوفرة فيه. وقد أنشىء فى منطقة رائعة الجو، بعيدة عن المدن وضجيجها، وهو

مطلق الهواء من جميع نواحيه الأربع لاتحجب عنه الشمس والهواء حواجب من أبنية أو غيرها .

فإذا زود كل عنبر بعشرة أسرة ودولابين للملابس وبعض الأدوات اللازمة للمعيشة فإن المقيمين به من السياح يشعرون بالمتعة والسعادة؛ لاسيما وتصميم المبنى يسمح بوصول الموسيقى الهادئة إلى جميع الحجرات إذا ماأذيعت من الدور الأرضى فكأنها مذاعة من داخل الحجرة.. كما أن المقيمين فى هذه الحجرات إذاماأطلوا من الطرقات الممتدة أمام الأضلاع الأربعة فإنهم يستطيعون أن يشاهدوا عروض التسلية التى تعرض فى الفناء.

لماذا استغل عبد الناصر هذا السجن معتقلاً للإخوان؟

من الوصف الموجز الذى قدمته لهذا السجن يتبين للقارىء أن مثل هذا السجن ماكان ينبغى لحاقد مثل جمال عبد الناصر أن يستعمله معتقلاً لأعدائه.. فلم استعمله وكيف استعمله؟ وقد تفهم الإجابة على هذه الأسئلة مما يلى:

٢ ـــ هذاالسجن بعيد عن العمران . ويمكن اعتباره منعزلاً عن البلاد . فالذى يجرى بين جدرانه لايسمع به أحد ولا يدرى به أحد . وهذا يحقق هدفاً أساسياً فى العملية .

٢ ـــ استعمال هذا السجن فيه إرضاء لمشاعر العاملين بوزارة الداخلية الذين يريدون أن يثبتوا ولاءهم للحاكم، ليغترفوا من الخزانة التى فتحت من قبل على مصراعيها للذين أثبتوا ولاءهم من العاملين بالجيش فى سنة ١٩٥٤ ـــ والحكم فى ذلك الوقت قد أيقن أنه لايقوم على سند من الشعب بعد فشل هيئة التحرير والاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى، ولم يعد له سند إلا من الجيش الذى صنعه على يده وإلا من رجال الشرطة الذين كان عليه أن يستميلهم بالوسائل التى ترضيهم.. ومعروف طبعاً أن السجن الحربى تابع للجيش وأن السجون الأخرى تابعة لوزارة الداخلية.

٣ ـــ يبدو أنه بعد أن ساءت العلاقات بين جمال عبد الناصر وأمريكا، وأصبح الروس حلفاءه الوحيدين؛ تبادل معهم البعثات فأوفد إليهم واستوفد منهم، وكانت أكثر البعثات الموفدة من مصر بعثات من رجال القوات المسلحة ومن رجال وزارة الداخلية، كما أن بعثاتهم إلى مصر كانت من نفس النوع.. وقد بلغنا أن بعثات من رجال وزارة الداخلية اطلعوا هناك على أجهزة الكترونية للتعذيب أذهلت هؤلاء الرجال، وأظهرتهم على مدى تقدم تكنولوجيا

التعذيب فى هذه البلاد وعلى مدى تخلفنا فى هذا المضمار؛ فقرروا اللحاق بهم مهما كلفنا ذلك من جهد ومال.. واشتريت الأجهزة وقدمت إلينا كما قدم معها وفود من الأخصائيين فى التعذيب.. وقد وقع اختيارهم على سجن «أبو زعبل» لتركيب هذه الأجهزة فيه لميزات رأوها فيه قد تتضح للقارىء فى سطور تالية.

٤ ــ إذا صرفنا النظر عن كل ذلك فإن استعمال هذا السجن كان أمراً لامفر منه، لأن الخطة التى وضعت هذه المرة كانت تقضى باعتقال عدد كبير جداً من الإخوان قد يفوق أضعاف من اعتقل فى المرة السابقة.

٥ ــ مكاتب هذا السجن مكاتب فسيحة جميلة صحية مزودة بوسائل الراحة والترفيه مما يرغب المحققين المطلوب منهم هذه المرة أن ينشئوا من القضايا مايكفى للقضاء التام على البقية الباقية من هذه الدعوة.. وكان فى جمال هذه المكاتب مايغرى المحققين بطول البقاء فيها بخلاف مكاتب السجن الحربى التى كانت تشبه الزنازين أو تقاربها.

٦ ــ الدور الأرضى ــ باعتبار هذا المبنى سجناً ــ مجهز بعدد لابأس به من الزنازين كان المفروض أنها معدة لينقل إليها من سكان العنابر من المسجونين من تمرد منهم على لوائح السجن ونظمه والذين انحرفوا انحرافاً يستحق التأديب العنيف بأن يحبسوا فى زنزانة من هذه الزنازين لمدة محددة..

وقد وجد علماء تكنولوجيا التعذيب من السوفييت وتلاميذهم المصريين فى هذه الزنازين وفى بعض الصالات والمنشآت فى الدور الأرضى مكاناً مناسباً لتثبيت بعض آلات التعذيب أو لوضعها بدلاً من آلات الموسيقى التى أنشئت هذه الأماكن من أجلها.. وعن طريق استغلال هذه الأماكن استطاعوا أن يصدروا من آلات وضعوها بها أصواتاً تبعث الرعب فى نفوس سكان هذا السجن جميعاً؛ تبعث ليلاً وتخترق سمع كل فرد فيه بطريقة معينة تخلع القلوب، وتصوّر للسامع أن قوة ضخمة من الهمجيين من جلادى السجن منطلقة نحوه بالكرابيج والبنادق لإبادة ساكنى السجن دون رحمة ولا تمييز.. ولا يملك معتقل مؤمن بالله وأعزل من كل سلاح فى هذه الحالة إلا أن يبتهل إلى الله أن يقبض روحه التى قد تفيض بعد لحظات على الإيمان..

ولم نتنبه إلى أن هذه الأصوات مجرد خداع من آلة إلاّ بعد عشرات المرات فى عشرات الليالى وكنا نعتقد أنها تجريدة حقيقية، وأنها تجتاح كل ليلة عدداً من إخواننا، وأننا ــ نحن نزلاء الدور الثالث ــ لابد أن يأتى دورنا إن عاجلاً وإن

آجلاً.. ومع علمنا بعد ذلك بأنها آلة فإنها كانت بأصواتها المنكرة تبعث فينا الكآبة والخوف والانقباض.

٧ ــ يبدو أنه كان من أهداف استعمال هذه الآلة أيضاً أن تغطى بصوتها على مايصدر فعلاً من تأوهات الإخوة الذين يعذبون بآلات أخرى.. فكان سماعنا صوتها فى كل ليلة نذيراً ببدء عمليات التعذيب التى تستمر طول الليل حتى الفجر.. وقد تناول التعذيب فى هذا السجن عدداً كبيراً جداً يفوق عدد الذين عذبوا فى عام ١٩٥٤ .

٨ ــ لم يقتصر الاعتقال هذه المرة على الإخوان المسلمين بل تناول معهم كل الذين يعملون فى الحقل الإسلامى وكل من ينتسب إلى الدين الإسلامى بصلة؛ فالجمعيات الإسلامية حتى تلك التى لم يكن أسلوبها يمس الحكام من قريب ولا من بعيد كالجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة وجمعية التبليغ الإسلامى؛ كل هؤلاء اعتقلوا وكلهم عذبوا وكلهم نكل بهم وكلهم ووجهوا بتهمة التدين. ولقد سمعنا فى بطون الليالى أنات زعماء هذه الجمعيات وهم يتقلبون على جمر آلات التعذيب الإلكترونية وكلما استغاثوا قائلين يارب قال لهم الجلادون: أين هذا الرب؟ لو كان موجوداً لجاء لينقذكم من أيدينا.. ثم يوضعون على آلات تصدر مايشبه الصواعق الكهربائية فتسمع صراخاً شديداً متصلاً ثم يخفت مرة واحدة.

٩ ــ أما العنابر الفسيحة التى أشرت إليها فقد استغلت أسوأ استغلال، ومسخت كل المسخ حتى فقدت كل مزاياها وصارت لوناً من ألوان العذاب؛ ذلك أن العنبر الذى كان مفروضاً أن يسكنه عشرة أشخاص حشر فيه مائة صارت بعد ذلك مائة وعشرين يصرف لكل منهم بطانية واحدة يفترش نصفها على البلاط ويتغطى بالنصف الآخر، ولا يكاد يجد الفرد منا مكاناً يضع فيه جنبه ومع ذلك فلا يستطيع أن يغير وضعه طول الليل.

أما الأبواب شبه المفتوحة التى نعمت بها هذه العنابر فقد تمنينا من أول ليلة نمناها أن لو كانت سداً مصمتاً لاينفذ منه حتى الهواء؛ لأنها استغلت أسوأ استغلال فى توصيل أصوات الإرهاب وصرخات المعذبين التى كانوا يريدوننا أن نسمعها وأن تخترق آذاننا حتى لانحظى بفرصة تغفو فيها عيوننا طول الليل.. كما أنهم كانوا حريصين على تسليط الأضواء الباهرة علينا طول الليل.

١٠ ــ كنا نعامل فى السجن الحربى معاملة جنود الجيش فى الطعام فكان لنا مثل تعيين (نصيب من الطعام) الجنود تماماً. أما فى هذا السجن فكان طعامنا طعام

المشاجين.. وفرق شاسع بين الطعامين سواء فى النوع أو فى التجهيز أو فى الكمية، حتى الخبز.. ولم يكن مسموحاً لنا بشراء طعام آخر أو الحصول عليه بأية وسيلة أخرى. وأذكر أن الخبز الذى كان يصرف لنا لم يكن إلا قطعاً من العجين أدخلت النار ثم أخرجت فى الحال لدرجة أن بعض الإخوان كانوا يصنعون منه قطع الشطرنج ويتركونها أمام الهواء حتى تتماسك وتجمد.

١١ ــ كان هذا السجن يدار بجهاز من رجال الشرطة. وكنا نعتقد أن عملاً تديره الشرطة لابد أن يكون فى ظل القانون والنظام؛ فرجال الشرطة يدرسون القانون ومهمتهم المحافظة على القانون.. ولكن تجربتنا فى هذا السجن أثبتت لنا أن التربية التى يتلقاها الفرد فى منزله هى وحدها التى تميزه فى كل موقع يكون فيه فى المجتمع.. فلقد رأينا ضباطاً شباباً فى هذا السجن كانوا كالملائكة وزملاء لهم كانوا شياطين؛ وكلاهما يتلقى أوامر واحدة، ولكن منهم من يزعه إيمانه، ويحجزه حياؤه عن أن يكون أداة بطش وتنكيل، فى حين ترى زميله يلذله أن يكون كذلك، ولا يجد لديه من إيمان ولا حياء ولا تربية تكفه عن ذلك أو تحجزه عنه.. وكنا إزاء النوعين فى حيرة؛ ماذا يبغى هذا المتجبر السفيه من وراء هذا التجبر والسفه والبذاءة؟ وليست هذه المفارقات بين الضباط فحسب بل إنها كانت موجودة بين الجنود أيضاً.. والواقع هو أن الموظف أياً كانت وظيفته مدنية أو عسكرية، وأياً كان موقعه فى سجن أو فى مدرسة، يستطيع أن يكون كما يشاء أن يكون؛ فهؤلاء الذين نراهم فى المدارس معاول إفساد للخلق، هم أنفسهم الذين نراهم فى السجون أدوات البطش بالأبرياء.. قلوب خاوية، ونفوس دنسة حاقدة.. وادعاء هؤلاء أنهم كانوا مكرهين أو مسلوبى الإرادة ادعاء باطل ومحض افتراء ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام. وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد. وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد. ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد**﴾.

أسلوب جديد مستورد

كما استورد السادة الحكام من حليفتهم روسيا آلات التعذيب، استوردوا منها أسلوباً جديداً إذا لم يعدّ من أساليب التعذيب فإنه من أساليب الإرهاب التى لم يكن لنا بها عهد.. فلقد عاشرنا هؤلاء الحكام سنوات ١٩٥٤، ١٩٥٥ وردحاً من ١٩٥٦ استعرضوا

خلالها كل مافى حوزتهم من أساليب الإرهاب وطرق التعذيب، ولكن هذا الأسلوب لم يكن من بينها. ونستطيع أن نجزم بأنه لم يدر بخلدهم ولم يخطر ببالهم، ولو خطر لاستعرضوه أمامنا ولاستعملوه معنا فهم لم يتورعوا عن شيء عرفوه أو سمعوا عنه — وكما أننا جزمنا بعدم خطوره على بالهم فإننا نقرر أنه لم يخطر ببالنا نحن أيضاً مع أننا كنا نتوقع منهم أسوأ مايخطر على بال.

بدىء بالحملة الجديدة فى شهر يوليو ١٩٦٥ حين اعتقلت السلطات عدداً محدوداً من الإخوان من بلاد متفرقة. وقد عرفنا فيما بعد أنهم كانوا يرسلون إلى السجن الحربى فى القاهرة. ولم تكن الصحف تشير إلى هذه الاعتقالات ولا إلى أسبابها أو دواعيها، كما أن أهل هؤلاء المعتقلين لم يعرفوا شيئاً عن سبب اعتقالهم ولا عن المكان الذى يوجدون فيه — ثم قامت حملات بمهاجمة منازل عدد آخر من الإخوان فى بلاد متفرقة وتفتيشها تفتيشاً دقيقاً بعد منتصف الليل، وكان منها بيتى الذى أقيم فيه بالإسكندرية، وقد سألت الضابط الذى كان على رأس القوة إن كان هناك أمر بالاعتقال — وكنت أعرف هذا الضابط — فقال لى: إن أمراً بالاعتقال لم يصدر، ولكن التفتيش إجراء لابد منه.. وأخذت القوة كمية ضخمة من المجلات والرسائل والصور والكتب.

وفى أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر بدأت حملة مركزة من الدعاية الصحفية المنظمة ضد الإخوان المسلمين، ناسبين إليهم تهماً لاتكاد تختلف فى كثير ولا قليل عن تلك التى نسبوها إليهم فى ١٩٥٤ ولا عن تلك التى نسبت إليهم فى ١٩٤٨، ١٩٤٩؛ وهى تهم تحتفظ بها وزارة الداخلية فى أرشيفها، وتخرجها عند الطلب وتوزع نسخاً منها على الصحف والإذاعة التى عليها أن تخصص أكثر صفحاتها ومعظم وقتها لتكون أبواقاً لهذه الوزارة.

وشعبنا المصرى شعب أمى مغلوب على أمره، دأب على تقبل مايصل إلى سمعه دون تمحيص، كما أن القارئين منهم أميون دينياً وسياسياً يصدقون مايقرأون ناسين أو متناسين أن الذى يسمعون أو يقرأون إنما هو صادر من طرف واحد، وأن الطرف الآخر مَحُولٌ بينه وبين الكلام.

والعنصر الجديد الذى أدخلوه هذه المرة من عناصر الاتهام كتاب أصدره الأخ الشهيد الأستاذ سيد قطب بعنوان «معالم فى الطريق» ضمنه آراءه وأفكاره فيما يعتقده من المعانى الإسلامية العليا والمقاييس التى تقاس بها المجتمعات المختلفة. ومع أن الكتاب هو مجرد أفكار وآراء فإنهم اعتبروا هذه الآراء جريمة، وهو مالم يحدث فى أى مجتمع متمدين.

ومع الحملة الصحفية والهجوم الإذاعى بدأت الاعتقالات الجماعية فى جميع بلاد القطر بتخطيط منظم وأسلوب موحد. ففى الساعة الثالثة صباحاً بعد منتصف الليل

يطرق الباب طارق عنيف، يستيقظ على طرقته أهل البيت مذعورين، فيرون وراء الطارق قوة مدججة بالسلاح كأنما جاءوا يفتحون عكا كما يقولون ــ وتقتحم القوة البيت وتعيث فيه فساداً يبعثرون محتوياته.. ثم يصحبون معهم رب البيت إلى حيث لايدرى ــ ثم يلقى بمعتقلى كل مركز أو قسم فى حجرة من حجر مركز الشرطة أو قسم الشرطة. وتزدحم الحجرة حتى لايجد الفرد مكاناً يجلس فيه فضلاً عن أن ينام فيه. وتطول الإقامة فى هذا المكان حتى تصل إلى أسبوع.. ثم تصدر الأوامر بجمع معتقلى كل محافظة فى مقر مديرية الأمن حيث يعبأون فى سيارات نقل مغلقة تنقلهم جميعاً إلى مكان مجهول فى حراسة مشددة من جنود الشرطة.

المفاجأة:

بعد انتقال رتل السيارات المغلقة تمام الإغلاق على من فيها من المعتقلين بحيث لايرون شيئاً من الطريق الذى تنطلق فيه.. وبعد أكثر من ساعة توقفت السيارات وفتحت أبوابها، وأمر المعتقلون بالهبوط منها، وهبطوا ومع كل منهم قليل من المتاع يحمله، ثم أدخلوا إلى مبنى قديم مهدم حيث أوقفوا طوابير، وتقدم شخص مجهول ومعه مجموعة مما يشبه المناديل الكبيرة، وبدأ بالمعتقل الذى يقف فى أول الصف فعصب عينيه بمنديل من هذه المناديل، ثم أخذ فى عصب عينى الذى يليه والذى يليه وهكذا حتى عصب عيون الجميع.

ووقفنا بعد ذلك فى هذا المكان تحت شمس محرقة حاملين أمتعتنا معصوبى العيون، وطال الوقوف. ولم نكن ندرى أنهم يأخذون عدداً من المعصوبين يقودونهم إلى حيث لايعرفون ثم يجدون أنفسهم أمام شخص يسألهم عن أسمائهم وألقابهم ومهنهم وعناوينهم وسنهم. ثم يأمر بهم فيقادون إلى مكان آخر حيث ترفع عن أعينهم العصابات فيرون فى هذا المكان زملاء لهم من الإخوان سيقوهم إليه بعد أن عوملوا نفس المعاملة. وتبين بعد ذلك أن هذا المكان هو سجن «أبو زعبل» الذى تحدثنا عنه آنفاً.

كانت المفاجأة هى هذا الأسلوب الجديد المستورد من عصب العيون، والذى لم يقتصر استعماله على دخول المعتقلين السجن، بل كان كل انتقال لفرد أو مجموعة من المعتقلين من مكان لآخر داخل السجن أو خارجه لايتم إلا بعد عصب العيون.. وكان كل تحقيق يجرى مع معتقل لايتم إلا بعد أن تعصب عيناه؛ فلا يعرف أين يحقق معه ولا من الذى يحقق معه ولا من الذين يوجدون فى المكان الذى يجرى فيه التحقيق، كما أنه لايعرف ماذا يحدث له بعد لحظة أو ماذا ينزل به أو ينزل عليه.

كانت عملية عصب العيون هذه كارثة وحدها تهون أمامها كل كوارث التنكيل

والتعذيب. لأنها كانت تفقد المعصوب كل عناصر الأمن من أول لحظة يؤخذ فيها من عنبره؛ فهو يتوقع الموت فى كل لحظة، ويتوقع أن يلقى به من علٍ ليصل إلى الأرض محطماً، ويتوقع أن تضرب عنقه، ويتوقع أن تصيبه رصاصة تأتيه من أية ناحية، ويتوقع أن تنهال عليه الكرابيج ولا يدرى من أية ناحية تأتيه، ولا إلى أى موضع من بدنه توجه. ثم هو لايعرف من الذى يحقق معه. وإذا واجهوه بشخص لايعرف إن كان هذا الشخص هو صاحب الأسم الذى أطلقوه عليه أم هو شخص آخر قصد به التضليل.

ماالذى دفعهم إلى هذا الأسلوب؟

ولجوؤهم هذه المرة إلى هذا الأسلوب يثير التساؤل. هل دفعهم إليه محاولتهم حجب شخصية المحققين والجلادين عن المعتقلين؟ إن الذين يحرصون على عدم الكشف عن شخصياتهم للمعتقلين لابد أن يكونوا غير واثقين فى مركز الحكومة التى يعملون لحسابها، فهم يؤدون المهمات الموكولة إليهم على وجل، ويحتفظون لأنفسهم بخط رجعة يلجأون إليه حين تتغير الظروف وتتبدل الأحوال.

ولكن يرد على هذا بأن جمال عبد الناصر لم يكن فى يوم من الأيام يشعر بالقوة والثبات والتمكن كما كان فى تلك الفترة. كما أن جميع من كانوا يعملون معه كانوا يشعرون بأضعاف هذا الشعور من الثقة والتمكن. بل إنهم وصلوا فى هذه الثقة إلى الحد الذى جعلهم فى أثناء إجرائهم التحقيقات يفوهون بألفاظ تشعر بعدم إيمانهم بوجود إله، غير خاطر ببالهم أن هذا الحكم معرض أن تتزلزل أركانه لأنه ـــ فى نظرهم ـــ قد استكمل كل أسباب البقاء؛ فهو حكم قوى مسيطر، استطاع أن يسيطر على الناس حتى فى بيوتهم، وعلى الألسنة فى أفواه أصحابها، وعلى الكلمة التى تقال أو تكتب، ثم استطاع أن يسيطر على أرزاق الناس؛ فلا عمل لعامل إلا فى مصانعه أو أرضه أو دواوينه.. فكل ذلك صار ملكاً خالصاً له. ثم إن أحداً لايستطيع أن يدخل البلاد أو يخرج منها إلا بإذنه؛ فمفاتيح أبوابها صارت كلها تحت يده.. وبعد كل هذا هو مستند إلى دولة كبرى تسنده بجيوشها وأساطيلها وطيرانها.. فكيف ينال هذا الحكم؟ ومن الذى يقوى على النيل منه أو حتى على التصويب نحوه؟

هكذا كانت نظرتهم إلى الأمور. وكانت هى أيضاً النظرة التى ينظرها سائر الناس.. ولم يكن يشذ فى نظرته إلى الأمور فى ذلك الوقت عن ذلك إلا قلة من المؤمنين الذين يؤمنون بقول الله عز وجل **﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** وبقوله **﴿ويخلق مالا تعلمون﴾** وهى النظرة التى شرحت فى صفحات سابقة **بعض نواحيها.**

فكيف إذن يكون الخوف هو دافع هؤلاء العملاء إلى اللجوء إلى هذا الأسلوب

الجديد أسلوب عصب العينين ؟.. لابد أن يكون الدافع أشياء أخرى.. إنه أسلوب الحليف الذى تتلمذ على يديه فى مبتكراته التكنولوجية التى يعتبرها أسراراً لايفضى بها إلا للحليف المقرب الذى يريد أن يبنى حكمه بنفس الأساليب التى بنت بها الدولة الأم دعائم حكمها، ولا زالت تثبت هذه الدعائم وتحميها بنفس الأساليب.

إن هذا الأسلوب فى ظاهره هو أسلوب عصب العينين. ولكنه فى حقيقته هو أسلوب محق الشخصية؛ لأنه الأسلوب الذى يجعل المتهم ألعوبة فى يد المحققين الذين يريدون أن يحصلوا منه على اعترافات بما يشاءون، مهما أدت اعترافاته هذه إلى الإعدام؛ لأن مواجهة الموت أخف وطأة من توقعه لاتدرى من أى ناحية يأتيك ولا فى أى لحظة يأتى.

وكانوا لايتورعون عن استعمال هذا الأسلوب ليلاً أو نهاراً، حتى أصبح من الأمور العادية أن يأتى مبعوث من قبل مجهولين ينادى على أحد الإخوان فيتقدم إليه فيخرج المبعوث من جيبه عصابة يعصب بها عينيه قبل أن يغادر باب العنبر، ثم يقوده معصوباً إلى هؤلاء المجهولين. وقد يرجع بعد ساعة، وقد يرجع بعد يوم، وقد يرجع بعد أيام، وقد لايرجع.

* * *

الفصل الثانى

أحداث وملاحظات وخواطر فى هذا السجن

كان اعتقالنا فى عام ١٩٥٤ أمراً طبيعياً متوقعاً؛ حيث كان معركة بين طرفين — مهما قيل فيها فإنها معركة — وقد انجلت عن انتصار طرف وانهزام الطرف الآخر؛ فكان من حق المنتصر أن يأسر المهزومين.. ولهذا فإننى فى خلال اعتقال ١٩٥٤ لم أكن أشعر بمرارة الاعتقال فى ذاته، وإنما كنت أشعر بمرارة الهزيمة. وكنت طيلة مدة الاعتقال أفكر فى أخطائنا فى المعركة ومن أين أتت الهزيمة، ولا أفكر فى الطرف الآخر واعتدائه علينا؛ لأننا كنا حتى آخر لحظة ندين متكافئين، وكنا كفرسى رهان.

أما اعتقال ١٩٦٥ فكان طرازاً آخر ولوناً جديداً لم تسبقه معركة فتكسب منتصراً حقاً على مهزوم، بل كان اعتداءً على أسير، وإجهازاً على جريح — لقد وصفت فى صفحات سابقة كيف كان الفرد منا يعيش محاصراً فى بيته محاصراً فى عمله محاصراً فى طريقه، محصياً عليه كل لفظ ينطق به، معدوداً عليه أنفاسه... فإذا أتى بعد ذلك آسرك مشهراً نحوك سلاحه وأنت أعزل، لابل وأنت فى قبضته؛ فإن ذلك لايكون منه اعتداءً فحسب بل يكون خسة ونذالة.

إننى فى ١٩٥٤ وفى أثناء اعتقالنا لم أكن أوافق من كان حولى من الإخوان حين كانوا يعدون مجرد اعتقال جمال عبد الناصر إيانا اعتداءً؛ للمعنى الذى أشرت إليه الآن؛ وقد كان هذا يغضب بعض الإخوان.. أما فى ١٩٦٥ فقد أحسست فى جمال عبد الناصر الخسة التى يحسها كل إنسان فى حارس مدجج بالسلاح يريد أن يتفاخر بقوته، ويزهى بسلاحه؛ فلم ير سبيلا إلى ذلك إلا أن يغمد سلاحه فى ظهر أسير أعزل مريض مقيد اليدين والرجلين. ولذا فقد استقبلت هذا الاعتقال بشعور مخالف تماماً للشعور الذى استقبلت به اعتقال ١٩٥٤.. استقبلته بغضب عارم، وثورة نفسية مضطرمة، وحزن شديد لازمنى طيلة مدة اعتقالى، ولم يفارقنى بعدها ساعة من نهار.. حتى قضى الله أمراً

كان مفعولاً.

وقد يحسن بي أن أثبت هنا بعض مامر بنا في فترة إقامتي بهذا السجن مما لايزال عالقاً بالخاطر، ومما يجلى للقارىء صورة لهذه الفترة:

١ ــ في هذا السجن رأيت إخواناً لم أكن رأيتهم من زمن بعيد. كما رأيت إخواناً ماكان يخطر ببالي أن يعتقلوا في يوم من الأيام، فعجبت أشد العجب. وأكد لي ذلك المعنى الذي أحسسته نحو جمال عبد الناصر من النذالة والخسة؛ إذ لم تكن الاعتقالات عادة تتناول إلا قادة الإخوان في القاهرة والإسكندرية وبعض العواصم، أما هذه المرة فقد امتدت إلى المراكز والقرى وإلى إخوان يعدون من أطراف الإخوان.

إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى:

٢ ــ كان قد مر على قرار حل الإخوان حتى ذلك الوقت اثنتا عشرة سنة انقطعت خلالها الصلة بين هذا الشعب وبين دعوة الإخوان المسلمين تمام الانقطاع. وسلط خلالها تيار جارف مستمر من الأكاذيب والأراجيف والافتراءات على الإخوان لاقتلاع الدعوة من جذورها، وإحلال شعارات جديدة في نفوس النشء تقدس شخصية القائد الملهم، وتغرس أفكاره، وتفرش طريق المستقبل بالورود والرياحين لمن يتبنى هذه الأفكار، كما تفرش هذا الطريق بالشوك لمن يحاول اعتناق أفكار أخرى.

في خلال هذه الاثنتي عشرة سنة نشأ جيل جديد، فتح عينيه فلم يجد أمامه إلا القيم المقلوبة، والأفكار المسمومة، والشعارات الزائفة التي عرضها عليه جمال عبد الناصر وزبانيته الذين احتكروا وسائل الإعلام والتعليم وحجبوا ماعداهم.. وما كان لجيل كهذا إلا أن ينشأ كما شاء له هؤلاء أن ينشأ؛ فمن أين له أن يعلم الحقيقة وأصحابها مكممة أفواههم، ومعزولون عزلاً كاملاً عن المجتمع؟!

وكانت المفاجأة أن رأينا معنا في هذا السجن صبية في سن الخامسة عشرة والسادسة عشرة لايعدون ذلك. وهذه المفاجأة لم تكن مفاجأة لنا وحدنا بل كانت مفاجأة أيضاً لعبد الناصر الذي وجد هذه الدعوة قد نبتت من جديد بعد أن أحرق كل أشجارها، واقتلع كل جذورها.. فكيف نبتت، ومتى وضعت بذورها، ومن الذي تعهدها؟.. كل هذه أسئلة سألها عبد الناصر لنفسه ووجهها لمن حوله وسألناها نحن لأنفسنا ولمن معنا ولكن سرعان ماعرفنا الجواب حين تذكرنا أنها دعوة الله الذي قرر من قبل خلق السموات والأرض قراراً لارجعة فيه **﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾**.. وأروع الروعة حين تعلم أن هؤلاء الإخوة الناشئين كانوا أصبر على البلاء من كثير ممن يكبرونهم سناً.

التلاعب بمشاعر المعتقلين:

٣ ــ لما كان عدد المعتقلين من الإخوان الذين ضمتهم المعتقلات هذه المرة كبيراً يكاد يفوق الحصر، وكان أكثرهم ممن لم يجربوا الاعتقال من قبل، فقد شاعت بينهم شائعة أن الحكومة ستفرج عنهم بعد أسبوع ــ وكان اعتمادهم فى ذلك على ماتنشره الصحف ــ التى كانت تظهر فى يد بعض الضباط ــ كل يوم مما يفهم منه ذلك، ولم يتصور إخواننا هؤلاء أن هذه خديعة تلجأ إليها الحكومة لتخدير الرأى العام وإقناعه بأنها لاتبغى من الاعتقال إلا مجرد التحفظ حتى تجرى تحقيقاتها الأمنية العادلة..

وقد تعلق هؤلاء الإخوة بهذه الشائعة واعتبروها حقيقة لامرية فيها.. فلما انقضى الأسبوع الأول دون تحقيق الأمل؛ وجدوا فى الصحف ماأقنعهم بأن الإفراج تأجل إلى أسبوع آخر وهكذا.. وقد حاولت عبثاً أن أصرف بعضهم عن التعلق بمثل هذه الأساليب الخادعة.. ومع ذلك فقد أظلمهم إذا قلت إنهم فى هذا التعلق لم يكونوا على شىء من الواقعية؛ فالإنسان الذى يحس فى نفسه البراءة، ولم يجرب الخداع من قبل جدير أن يصدق من يقول له: سيفرج عنك..

ولما كان جميع المعتقلين هذه المرة ــ سواء منهم من سبق اعتقاله ومن لم يسبق ــ قد اخذوا بغير جريرة، وكلهم يحسون فى أنفسهم البراءة؛ فقد سرت شائعة الإفراج إليهم جميعاً لكثرة ماسمعوا من إخوانهم الجدد عنها؛ فلقد جاء وقت لم يكن لإخواننا هؤلاء حديث ولا شاغل يشغلهم إلا الحديث عن الإفراج وتوقعه فى صباح كل يوم وظهره ومسائه.

رؤيـــا:

٤ ــ ولقد بلبلت كثرة الحديث عن الإفراج أفكارى؛ حتى صار هذا الموضوع عبئاً على نفسى، ولجأت إلى الله عز وجل أن يرفعه عنى، ونمت بعد اللجوء؛ فرأيت فيما يرى النائم أن والدى رحمه الله ــ وكان إذ ذاك على قيد الحياة ــ قد أرسل إلىّ خطاباً. ففتحت الخطاب فوجدت فيه قصاصة من الورق عرضها نحو ثلاثة سنتيمترات وطولها نحو اثنى عشر سنتيمتراً وقد كتب لى فيها هذه العبارة بخطه الذى أعرفه:

«الإفراج ٢٧ ديسمبر / نوفمبر سنة ١٩٦٥».

فلما قرأت ذلك سرى عنى، واستيقظت من النوم فوجدتنا قبيل الفجر. وتذكرت نص ماكان مكتوباً فوجدتنى أذكر كل مافيه إلا شيئاً واحداً وجدتنى لاأذكره؛ ذلك أن العبارة جاء بها اسم الشهر مشطوباً ومكتوباً فوقه اسم الشهر الآخر فأيهما المشطوب

وأيهما المكتوب فوقه هذا ماوجدتنى مرتاباً فيه هل هو «٢٧ ديسمبر» أم «٢٧ نوفمبر؟» .

كنا إذ ذاك فى أوائل العشرة الأخيرة من سبتمبر، ووجدت أننى إذا أخبرت إخواننا الذين معنا فى العنبر والذين يبيتون على اعتقاد أن الإفراج فى الصباح. ويصبحون على اعتقاد أن الإفراج فى المساء.. إذا أنا أخبرتهم بالرؤيا التى رأيتها فإنها ستكون صدمة عنيفة لهم، فعزمت على كتمانها عنهم رأفة بهم وإشفاقاً عليهم.

أعظم منن الله علىّ:

٥ ــ قدمت من قبل أن السنوات العشر التى مضت منذ الإفراج عنا فى عام ١٩٥٦ قد أنستنى ماكان قد أكرمنى الله به من حفظ القرآن كله خلال إقامتى بالسجن الحربى. فلما جاء هذا الاعتقال عزمت على أن أسترد أثمن مافقد منى وهو الكتاب الكريم، فعكفت على حفظه من جديد. وقد تضاعف نشاطى فى الحفظ بعد أن رأيت فى الرؤيا أن إقامتى فى الاعتقال قد حددت إما بثلاثة أشهر وإما بأربعة.. وقد ساعدنى على الحفظ وجود أخوين كريمين معى فى العنبر هما الأخ مصطفى عنانى من إخوان فوة ــ الأوفياء ــ والأخ الشيخ محمد (نسيت لقبه) من إخوان قلين ومن الحفاظ المجيدين؛ فكنت كلما حفظت قدراً سمعه منى الأخ مصطفى ثم قرأته مع الأخ الشيخ محمد قراءة متناوبة مجودة ــ وأقرأ كل يوم الجديد على الأخ مصطفى ثم أقرأ الجديد والقديم مع الأخ الشيخ محمد ــ ولم أزل كذلك حتى حفظت أو استعدت حفظ العشرين جزءاً الأولى حفظاً مثبتاً والحمد لله. ثم افترقنا وأنا عازم أن أجعل هذه العشرين جزءاً وردي لاأنقطع عنه يوماً حتى ألقى الله آملاً أن يعيننى على ذلك.

وقد يكون مستغرباً أن أقول: إنه بالرغم مما كنا نقاسيه فى هذا السجن من عنت وإرهاب لاينقطع ليلاً ولا نهاراً؛ فإننى يوم فوجئت بانتهاء أيامى بهذا السجن وجدتنى متألماً متمنياً أن لو طالت أيامى به حتى أتم استعادة حفظ القرآن كله.. وإذا كان هذا الشعور يقع من القارىء موقع الاستغراب؛ فربما زال هذا الاستغراب حين يعلم أننى مع ماأتقلب فيه من فضل الله فى هذه الحياة؛ فإننى أشعر أن أعظم نعمة لله علىّ هى نعمة توفيقه إياى لحفظ ماحفظت من كتابه، ولا زلت أسأله وألح فى السؤال أن يحفظ علىّ هذه النعمة حتى ألقاه بها غير مفرط ولا مبدل.

ونصيحة أقدمها إلى من يريدون أن يحتفظوا بما وفقهم الله إليه من حفظ القرآن كله أو بعضه هى أن وسيلة ذلك أن يرتبوا لأنفسهم ورداً يومياً دون انقطاع مما يحفظون يقرأونه على أنفسهم. وهذه هى الوسيلة الوحيدة وإلا تعرضوا لمثل ماتعرضت له فيما بين

معتقلى ١٩٥٤، ١٩٦٥ وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «تعهدوا هذا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل فى عقلها».

٦ ـ وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن هذا الحديث الذى سقناه عن التجرد يذكرنا بأخ كريم كان معنا فى العنبر وكان أكبرنا سناً، وأعظمنا بلاءً، وأجملنا صبراً.. كان الرجل إذ ذاك قد جاوز العقد السابع من عمره، وكان مع ذلك أكثرنا نشاطاً، وأوسعنا أملاً، وأنشطنا فى العبادة.. ذلك هو الأخ الكريم الدكتور أحمد القاضى.

ومع أن الطعام الذى كان يقدم إلينا لايقيم أوداً؛ فإن هذا الرجل ظل طول مدة اعتقاله فى هذا السجن صائماً لايفطر. حتى إن بعض زملائنا من الشبان فى العنبر أخذوا يقتدون به ويصومون معه، ولكنهم لم يستطيعوا المواصلة فى حين أنه لم ينقطع.

أما أنا فقد وجدت الصيام مع هذا الطعام التافه سيحول بينى وبين إتمام مقصدى الأسمى من التوفر على حفظ الكتاب الكريم؛ فلم أشترك مع إخواننا هؤلاء إلا قليلاً. ولكننى عزمت على أن آخذ نفسى بشيء من هذه العبادة بعد الإفراج عنى، وكان هذا الشيء أن أصوم يوماً واحداً فى الأسبوع لاأزيد عليه ولا أنقص عنه اهتداء بقول رسول الله ﷺ «خير الأعمال أدومها وإن قل» وقد وفق الله عز وجل إلى تحقيق هذه العزيمة وأسأله أن يعيننى على المواظبة حتى ألقاه.

٧ ـ المباحث والمخابرات:

أشرت فى صفحات قريبة إلى أننى قبل أن أعتقل هذه المرة بفترة قصيرة، حضر إلى منزلى ضابط المباحث المرحوم الأستاذ عبد العزيز الصوابى وفتش المنزل وأخذ كميات كبيرة من الصحف والكتب والمجلات. وقد سألته فى تلك الليلة عما إذا كان هذاالتفتيش مقدمة لاعتقالى حتى أستعد وأحضّر حقيبتى فنفى ذلك وقال لى: إننى قمت بهذا التفتيش حتى لاأجعل للمخابرات حجة علينا؛ فلا يصح أن تقوم المخابرات باعتقال زوج أختك الأستاذ مصطفى كال من منزلكم برشيد ثم لايفتش منزلك بالإسكندرية. فقلت له: إننى كنت معتقداً أن الأستاذ مصطفى اعتقل بواسطة رجال المباحث العامة فى دمنهور فقال: لا.. إن المخابرات العامة أرسلت عدداً من رجالها من القاهرة إلى رشيد لاعتقال الأستاذ مصطفى دون أن نعلم أو نتدخل.. كل دورنا أنهم سألونا عن مقر الأستاذ مصطفى فأجبناهم بأنه فى منزل أنسبائه فى رشيد.

كانت هذه المناقشة التى دارت بينى وبين المرحوم الأستاذ عبد العزيز الصوابى أول شيء لفت نظرى إلى أن للمخابرات هذه المرة ضلعاً فى الاعتقالات. وتعجبت من قوله إنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن اعتقال الأستاذ مصطفى. ثم جاء اعتقالى شخصياً بعد

ذلك ــ وقد نفى الأستاذ الصوابى حدوثه ــ مفسراً لما جاء بحديثه.

ولما نقلنا إلى سجن «أبو زعبل» وأقمنا به فترة من الزمن؛ جاء إلى عنبرنا موظف مدنى يبدو أنه كان مرموقاً لأنه كان يمشي خلفه جندى من جنود السجن مما يشعر بأنه ذو حيثية ومكانة، ثم تقدم الجندى إلى باب العنبر وسأل عن اسم أحد المعتقلين فأجابه الأخ فإذا بهذا الموظف يتقدم نحوه ويصافحه ويعانقه ثم رأيت عدداً من «بلديات» هذا الأخ من زملائنا بالعنبر يتقدمون ويصافحون الموظف ثم طلبوا إلىّ أن أصافحه وأجروا التعارف بينى وبينه؛ فتبين لى أنه من أسرة كريمة من أسر هذا البلد وأنه موظف بمخابرات رياسة الجمهورية.. وقد تحدث إلى مواطنيه حديثاً طويلاً ولكننى كنت حريصاً على أن أتحقق مما فهمته من مناقشتى للأستاذ الصوابى.

ولم يكتمنى هذا الشاب ماعرف أننى أتوق إلى معرفته؛ فقصَّ علىّ القصة التى مؤداها أن المخابرات اتهمت المباحث العامة بالكسل والتراخى فى أداء مهمتها، وكادت تتهمها بالتغافل عما يدبر من مؤامرات ضد الدولة. واقتنعت الجهات العليا بصحة هذا الاتهام بالرغم من دفاع المباحث عن نفسها.. ونقلت قيادة الكشف عن المؤامرات من يد المباحث العامة إلى يد المخابرات العامة، ثم نقلت إلى فرع أساسى من فروعها هو مخابرات رياسة الجمهورية..

ثم قال: إن دور المباحث العامة هذه المرة هو الدور التنفيذى الذى ترسمه لها مخابرات رياسة الجمهورية، لأن هذه المخابرات هى التى كان لها الفضل فى كشف المؤامرات التى كانت تدبر ضد الدولة، وهى التى أمرت باعتقال كل من اعتقل هذه المرة.

وقال: إننى موفد من قبل مخابرات رياسة الجمهورية لإعداد العدة لعقد اجتماعات لجميع المعتقلين بهذا السجن تقدم إليهم فيها أسئلة مكتوبة ويطلب إليهم الإجابة عليها كتابة.

وكان فعلاً ماقال هذا الشاب.. فبعد حديثه هذا ببضعة أيام عقدت هذه الاجتماعات وقدمت الأسئلة وأجبنا عليها. والأسئلة تدور حول صلة المعتقل بالإخوان المسلمين. وأسباب اعتقاله، وتاريخ الاعتقال، وتاريخه فى الإخوان المسلمين، والأماكن التى يغشاها بعد الإفراج عنه، ونحو ذلك.

وكان واضحاً مما يجرى فى هذا السجن أن الجهة المسيطرة عليه جهة أعلى مركزاً وأقوى نفوذاً من المباحث العامة ومن أدلة ذلك أنه فى أثناء وجودنا فى هذا السجن جيء بشخصيات لم يكونوا ممن يدخلون فى أفق المباحث العامة وعذبوا وشرحت أجسامهم بالسياط وسمعنا صراخهم كصراخ النساء ومنهم صلاح الدسوقى الذى كان أحد عتاولة

الثورة المتصدرين فى سنة ١٩٥٤ لتعذيب الإخوان بالنفخ والكى، والذى كان منذ استقرت الثورة محافظاً للقاهرة، منحوه هذا المنصب نكاية فى زميله الأخ الضابط صلاح شادى.

٨ــ قضية سنفا:

كتبت تحت هذا العنوان لأن العنبر الملاصق لعنبرنا كان يطلق عليه «عنبر سنفا» ــ وكان لسنفا هذه ضجة فى عام ١٩٦٥. وقد تابع الرأى العام اتساع نطاق الاعتقالات على ذمة هذه القضية باعتبارها قضية خطيرة لقلب نظام الحكم بالقوة. ويكفى لتصور مدى اتساع الاعتقالات لحساب هذه القضية أن العنبر الملاصق لعنبرنا وعدد نزلائه أكثر من مائة كلهم اعتقلوا على ذمة هذه القضية. ومع ذلك فهناك عدد آخر أودعوا السجن الحربى.

أما نحن ــ نزلاء سجن «أبو زعبل» فقد كان لكل عنبر شأن يغنيه عن الالتفات إلى من يجاوره.. ولكن وجود أبواب العنابر بالوصف الذى وصفته هو الذى لفت نظرنا إلى هذا العنبر المجاور لنا بالذات.. لأنه لم يكن يمضى يوم تقريباً حتى تقوم إدارة السجن بتكدير هذا العنبر. وإحدى صور هذا التكدير التى لابد منها عادة هى إخراج نزلاء هذا العنبر فى طابور جرى بالخطوة السريعة فى الطرقة الممتدة أمام عنابر الدور الثالث الذى نسكنه وملاحقتهم بلذعات من سوط أو ضربات بعصا.. وقد كنا نعتقد أن تخصيص هذا العنبر بالذات بهذا التكدير المستمر يرجع إلى أن نزلاءه متهمون على ذمة القضية المسماة بقضية سنفا.

وقد لفت نظرى والطابور يجرى أمام بابنا أن لمحت زوج شقيقتى الأستاذ مصطفى كمال بينهم.. وكان قد اعتقل قبلنا بفترة حيث اعتقل فى أواخر يوليو ١٩٦٥.. ومع أننى رأيته والعنبر ملاصق لعنبرنا فإننى لم أستطع أن أتصل به طيلة الفترة التى قضيتها فى هذا السجن؛ لما كان فى ذلك من مخاطرة فضلا عن الاستحالة. ولكننى كنت فى حيرة ماالذى جاء به فى هذا العنبر، وما علاقته بقضية سنفا، وسنفا هذه قرية من قرى محافظة الدقهلية؛ بعيدة كل البعد عن القاهرة التى هى موطنه وعن رشيد التى هى موطن زوجته.. ولم أستطع أن أصل إلى حل لهذا اللغز حتى التقينا بعد أن انقشع ظلام الإرهاب الحكومى فسألته.

وقبل أن أنقل للقراء حل هذا اللغز أذكرهم بما كان قد دار بينى وبين المرحوم الأستاذ عبد العزيز الصوابى ضابط المباحث العامة حين حضر لتفتيش منزلى بالإسكندرية وأخبرنى أنه يفعل ذلك لأن زوج شقيقتى اعتقل من منزلنا برشيد. فلما سألته عن سبب اعتقاله

أخبرنى بأنه لايعرف عن هذا الموضوع شيئاً لأن الذين اعتقلوه أرسلتهم المخابرات العامة من القاهرة إلى رشيد لاعتقاله.

ثم أرجع بعد ذلك إلى ماكنت بصدده من استفسارى من الأستاذ مصطفى كمال عن سبب اعتقاله حيث أجابنى بقوله:

كنت بمنزلكم برشيد فى إجازتى الصيفية أستمع إلى خطاب جمال عبد الناصر بالراديو فى ذكرى ٢٦ يوليو ١٩٦٥ وكان يتوعد فى خطابه أعداء الشعب. ولم أكن أتصور وقتها أنه يقصد الإخوان.. ولم يمر يومان حتى حضر إلينا زبانيته إلى رشيد ليلقوا القبض علىّ دون أن أعرف لذلك سبباً. وفوراً رحّلت إلى مديرية أمن دمنهور حيث قضيت الليل.. وفى أول قطار صباحاً رحّلت إلى القاهرة وإلى إدارة المباحث العامة. وبقيت مع حارسى على باب اللواء حسن طلعت حوالى ثلاث ساعات كان يخرج من مكتبه كل فترة ليتفرس فى وجهى ثم يدخل مغيظاً دون أى سؤال.. وبعد ذلك أحضر حارس آخر شخصين لاأعرفهما ــ وحوالى الظهر رحلنا ثلاثتنا إلى السجن الحربى واستقبلنا بما هو معروف عن هذا المكان البغيض.

وقد نال أكبرنا سناً أشد الإهانة فى الاستقبال من الصول صفوت الروبى وبأمر من اللواء حمزة البسيونى. وكان ذنب هذا الرجل أنه لم يكن يعرف نظام وأدب الدخول.. ثم ساقونا نحن الثلاثة إلى سجن رقم ٤ حيث أودع كل واحد منا فى زنزانة ــ سجناً انفرادياً، وبقينا هكذا حوالى ٢٥ يوماً.. وكانت الزنزانة المجاورة لزنزانتى معدة لاستقبال الذين يحقق معهم بوجبات من الضرب بالكرابيج مابين ٢٠٠، ٣٠٠ كرباج ثم يلقى بالمتهم جثة تنزف دماً من جميع أجزائها وتئن أنيناً موجعاً.. وكل يوم كان يمر أتوقع أن دورى قد قرب. ولم أستطع فى هذا الجو أن أتبين شخصية أحد من نزلاء سجن رقم ٤.

وبعد ٢٥ يوماً أخرجونا من الزنازين وساقونا إلى مبنى السجن الكبير حيث حبسنا حبساً انفرادياً لمدة أسبوع ــ ثم نودى علىّ ضمن مجموعة من الأفراد حيث ساقونا مجتمعين إلى مخزن كبير فى مدخل السجن الكبير وجدت به عدداً كبيراً من الأشخاص تبينت منهم بعض الإخوة أصحاب وموظفى شركة التوكيلات التجارية للنقل، والأخ سعد كمال والأخ محمد الجريسى أما الأشخاص الآخرون فكانوا كثيرين وعرفت أنهم من قرية سنفا بجوار ميت غمر دقهلية.

وقد أخبرنى هؤلاء الأشخاص أنهم عذبوا عذاباً شديداً خلال الأيام الماضية وأنهم كانوا يسألونهم عن أشياء لاعلم لهم بها ولا يعرفون عنها شيئاً. وبالتحدث معهم وجدت أنهم مجموعة من الشباب منهم فلاحون أميون ومنهم مدرسون ومنهم طلبة فى الجامعة كانوا

يقضون إجازاتهم فى قريتهم كما كنت أنا الآخر أقضى إجازتى فى رشيد.. وقد فوجئت بأن رأيت فى وسطهم الرجل الكبير الذى دخل معى السجن الحربى فى يومه الأول وعرفت منه أنه ناظر مدرسة وكان قد حضر من القرية إلى القاهرة لزيارة ولده الطالب بكلية العلوم. ولما جاء الزبانية فى ذلك اليوم للقبض على ولده فلم يكن موجوداً فى ذلك الوقت فأخذوا الوالد ولقى مالقى من عذاب وإهانة.

وبعد حوالى أسبوع فى هذا المخزن جاءوا ليقولوا لنا: ليس ضدكم تهم وقد صدر أمر الإفراج عنكم. فاعتقدنا أنه إفراج حقاً، وأركبونا أوتوبيس ومعنا الحرس وأنزلونا فى مبنى وزارة الداخلية.. وبعد عدة إجراءات ركبنا ثانية وإذا بنا نرى أنفسنا فى سجن «أبو زعبل».

وحشرنا حشراً داخل إحدى الحجرات التى لاتتسع لأكثر من ٣٠ شخصاً حيث بلغ عددنا أكثر من مائة.. ولأن معظم الموجودين بالحجرة من قرية سنفا، ولأنهم ليسوا من الإخوان المسلمين ولم تكن تجمعهم فكرة أو مبدأ، وكل الذى يجمعهم أنهم أبناء قرية واحدة؛ فقد كانوا كثيرى العراك بعضهم مع بعض وترتفع أصواتهم مما أثار ضباط السجن فكانوا يخرجوننا يومياً ليذيقونا من ألوان الإيذاء والإهانة.

ولم أكن قد عرفت لماذا اعتقلت، وما هى قضية سنفا بالذات.. حتى جمعتنى الظروف أخيراً بأحد الذين كان قد وجه إليهم الاتهام وهو الأخ يحيى القللى وكان موظفاً فى شركة التوكيلات التجارية للنقل.. وعرفت سر اعتقال موظفى هذه الشركة؛ فقد عرفت منه أنه كان ينقل بضاعة بسيارة من سيارات الشركة لأحد الأشخاص ــ ولا أذكر اسمه الآن ــ وكان لهذا الشخص معاملات مع بعض أشخاص فى قرية سنفا ــ وتخيلت أجهزة المخابرات أن هذه الصلة مقصود منها العمل على قلب نظام الحكم بالقوة لاسيما وأن من البضاعة التى كنا ننقلها لعب أطفال وتحتوى على مايلعب به الأطفال من بمب وصواريخ ومسدسات ونحوها.

يقول الأستاذ مصطفى كمال: ودارت القضية حول نشاط يحيى القللى مع بعض من تعامل معهم فى قرية سنفا من التجار ومن حولهم. وكان من نصيبى أن اعتقل لالشىء إلا لأننى كنت متهماً مع يحيى فى القضية التى لفقت ضدنا فى عام ١٩٥٤. كما اعتقلوا جميع من كان يعمل فى شركة التوكيلات من أول مديرها إلى أصغر سائق فيها وتباع.

ثم يقول: كان الذين قاموا باعتقال المجموعات الأولى فى عام ١٩٦٥ هم رجال المخابرات، وكانوا يتفاخرون على رجال المباحث العامة بأنهم أصحاب السبق فى كشف الكثير من القضايا والمؤامرات ــ فى زعمهم ــ ضد نظام الحكم.. ومع ذلك لم تسفر جهودهم عن شىء رغم مالقى الناس فى السجن الحربى والمعتقلات من ظلم وعذاب

وآلام.

قضية كرداسة:

ويمكن أن يكون هذا العنوان «مذبحة كرداسة» كما يمكن أن يكون «مهزلة كرداسة» أما العنوان الأخير فإنما يقصد به وصف للعهد، وقد حدثت هذه المهزلة وصهرى الأستاذ مصطفى فى السجن الحربى وقد راعه مارأى حين جاءوا إلى السجن بأهل كرداسة وفعلوا بهم الأفاعيل.. وقد قصَّ علىّ الأستاذ مصطفى مارآه بعينيه ثم ماسمعه منهم وقد وجدته مطابقاً لما قرأته فى كتاب «الموتى يتكلمون» فرأيت أن أنقله إتماماً للفائدة:

كان من بين الأسماء التى ذكرها على عشماوى (أحد المتهمين فى قضية قادة التنظيم سنة ١٩٦٥) اسم «السيد نزيلى» على أنه مسئول عن مجموعة الإخوان فى إمبابة.. ويقيم فى كرداسة.. وتوجهت مع غروب الشمس يوم ٢١ أغسطس مجموعة من زبانية المباحث الجنائية العسكرية بملابسهم المدنية إلى القرية الهادئة فى إمبابة.. كان عددهم ثمانية.. وسألوا عن منزل السيد نزيلى.. واعتقد أهالى القرية أنهم أصدقاء له حضروا لتهنئته بزفافه فقد كان زفافه تم قبل ذلك بأيام.. وتوجهوا إلى المنزل.. واقتحموه عنوة.. ولم يكن السيد نزيلى موجوداً.. كانت عروسه فقط هى التى بالمنزل مع شقيقه عبد الحميد.. وسألوا عن السيد، ولما علموا بعدم وجوده تفرقوا فى غرف المنزل يفتشون وينهبون.. وكانت هذه عادتهم بجانب البحث عن أى أدلة، يبحثون عن المال والمصوغات.. يقدمون الأدلة إن وجدت وأغلبها الكتب الدينية إلى رؤسائهم، ويخفون فى جيوبهم المال والمصوغات..

واعتقد عبد الحميد أن الثمانية عصابة من اللصوص.. خرج إلى الشرفة يستغيث، وتجمع أهالى القرية.. وأراد الثمانية اصطحاب عبد الحميد وعروس شقيقه إلى السجن الحربى ليضطر السيد نزيلى إلى تسليم نفسه.. واعتقد الأهالى أن الثمانية يخطفون ابن قريتهم وعروس شقيقه.. وتصدى كل أهالى القرية للثمانية.. ونشبت معركة رهيبة انتهت بهروب سبعة من الثمانية أما الثامن فقد سقط قتيلاً..

وبعد ساعة.. تحرك موكب من المصفحات إلى القرية الساكنة وأكثر من ألفى جندى من جنود الجيش فى حملة تأديبية للقرية وأهلها الذين تجرأوا على «ضرب الحكومة» وكانت أوامر الحملة صادرة من شمس بدران (الذى استطاع الهرب حالياً إلى انجلترا لينعم بالملايين التى سرقها من مال الشعب وتمكن من تهريبها..) وتحولت القرية إلى ساحة معركة.. واستمر دوى الرصاص طول الليل.. والصرخات.. صرخات الرجال والنساء والأطفال تنطلق إلى السماء تحمل الأنين والشكوى إلى الخالق العظيم..

وتم تفتيش كل منازل القرية.. ونهب كل قرش فى كل بيت.. ثم تم جمع الرجال وربطهم بالحبال كقطيع ماشية، واقتادوهم إلى اللوريات لتنقلهم إلى السجن الحربى.. وفى لوريات أخرى تم تجميع الزوجات والأمهات واقتدن أيضاً إلى السجن الحربى..

وفى فناء السجن.. جمعوا الرجال.. ووقف الفريق محمد فوزى يستعرض «السبايا» وكأنه قائد جيش يستعرض أسرى جيش الأعداء.. وكان الرجال وقوفاً.. وصرخ فيهم مايسترو التعذيب صفوت الروبى أن يركعوا أمام القائد ويسجدوا.. وانهالت الكرابيج على ظهورهم..

ثم صدرت الأوامر أن تمتطى كل امرأة من كرداسة ظهر زوجها أو أبيها أو جارها.. وأن يحبو الرجال ـــ والنساء فوق ظهورهم ـــ فى الفناء.. بينما اصطف عدد آخر من أهالى كرداسة على هيئة دائرة وصدرت إليهم الأوامر أن يصفع كل منهم جاره، ويبصق فى وجهه.. ولاحــظ السجانون أن بعض الصفعات ضعيفة.. فكانوا يلهبون أصحابها بالكرابيج..

وكانت تلك صورة ماتعرض له أهالى كرداسة الذين اقتيدوا إلى السجن الحربى ليبقوا بداخله تسعة وعشرين يوماً يكررون فيها المشاهد السابقة.. أما نفس القرية فقد احتلتها قوات من المباحث الجنائية العسكرية وأصدرت أوامرها أن يلزم الكل منزله لايغادره أبداً.. وأغلقت المساجد وأمرت بتعطيل الصلاة.. وتصادف أن مات أحد شيوخ القرية وهو محمد عبد العزيز حيدر.. ورفض رجال المباحث الجنائية العسكرية دفنه.. وبقى فى فراشه ثلاثة أيام حتى تعفنت جثته.. وعندما صدرت الأوامر بأن يتم دفنه خرج نعش الرجل يحمله أربعة رجال فقط ولا يتبعه أحد إلى المقابر.

٩ ـــ إفراجــات:

فى خلال فترة إقامتنا فى «أبو زعبل» نودى مرتين؛ كل مرة على عدد من الإخوان نحو الخمسين أو الستين من الإخوان الكرام الذين ذكرت أنهم لم يكونوا فى يوم من الأيام هدفاً لاعتقال.. وسلموا أماناتهم وهنأناهم بالإفراج.

وفى منتصف أكتوبر نودى على عدد كبير من الإخوان يبلغ بضع مئات، أكثرهم من الإخوان ذوى النشاط وفيهم مجموعة كبيرة من إخوان الإسكندرية وكنت منهم، كما كان منهم الإخوة الأساتذة نجيب عبد العزيز ومحمود السعدونى ومحمد فهمى القراقصى وغيرهم من خيرة إخوان الإسكندرية والقاهرة وبعض الأقاليم.. وأمرنا بتحضير حقائبنا، وسلمتنا إدارة السجن أماناتنا وقدمت لنا التهنئة بالإفراج كما فعلوا مع المجموعات السابقة. وجلسنا فى فناء السجن ننتظر حضور السيارات التى تقلنا. وجلس الإخوان من حولى يتحدثون

ولمحات السرور على وجوههم وفى ثنايا حديثهم للإفراج الذى جاء مبكراً.

وجلست أنا شارد الذهن، أحدث نفسى حديثاً لاأجرؤ أن أبوح به؛ لأنه يعكر صفو إخواننا المسرورين بالإفراج. وحديثى لنفسى دار على نحو قريب من هذه المعانى: هل صحيح أن هذا إفراج؟ إن هذا يتعارض مع سياسة الحكومة نحونا.. إذا كانوا يريدون الإفراج عنا بعد نحو شهر فلم إذن كان الاعتقال؟ وهل هناك ضغط على الحكومة؟ ممن يكون الضغط وكل حلفاء الحكومة أعداء لنا يتربصون بنا الدوائر؟... وإذا كانوا يريدون بالإفراج الدعاية لكسب الرأى العام فقد حصلوا على هذا الكسب بالإفراج عن الذين ليس لهم معهم تاريخ.. أما هذه الدفعة فأكثرها ممن كان لهم دور معهم.. إننى عقلاً لاأتصور أن يكون هذا إفراجاً.

ثم إن هناك الرؤيا. والرؤيا كما يقول رسول الله ﷺ «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».. هذه الرؤيا حددت تاريخ الإفراج باليوم والشهر والسنة، والشك الوحيد فى تفاصيلها محصور فى اسم الشهر الذى يقع فيه الإفراج فهو إما نوفمبر وإما ديسمبر ونحن الآن فى أكتوبر.. وإذن فلن يكون هذا إفراجاً بحال.. إذن فماذا يكون؟ هذا ماأقف أمامه حائراً.

* * *

ومضت الساعة تلو الساعة ونحن فى انتظار السيارات.. حتى جاءت فتهللت وجوه إخواننا. ولكننى كنت حائراً لايرتسم على وجهى شعور إلا شعور الريبة والشك والحيرة، وشعور آخر هو شعور الحرج من المكاشفة بما يدور فى داخل نفسى..

وركبنا السيارات.. وكانت بضع سيارات. وكان معنا عدد لابأس به من الطلبة والشباب الذين لايستطيعون فى كل موقف إلا أن يظهروا شعورهم. ولما كانوا يشعرون بالسرور، فقد أظهروا ذلك فى عدة أساليب من المرح المباح.. وبقدر ماكانت هذه الأساليب تثير البهجة فى نفوس زملائنا من الإخوان الكبار وتشيع المتعة فى جميع السامعين؛ كانت تثير الألم فى نفسى لإشفاقى على هؤلاء الإخوة الكرام حين لايتحقق لهم ماينتظرون، وحين يفاجأون بما لم يكونوا يحتسبون.

وسارت السيارات، وواصلت السير، وقطعت بنا وقتاً طويلاً، ومسافات شاسعة. والإخوان مستغرقون فى لهو برىء.. حتى تنبه بعضهم فجأة فنظر فى ساعته فوجد أن الوقت الذى مضى كان ينبغى أن يوصلنا إلى طريق كذا وإلى بلدة كذا، ولكن معالم الطريق الذى نحن فيه تختلف عن ذلك كل الاختلاف فما هذا الالتواء فى السير وإلى أين نحن سائرون؟

وهنا بدأت عقارب الشك تدب إلى نفوس الإخوان.. وخفتت أصوات الشباب المبتهج، وأخذ الجميع يتهامسون. وبدأت أدعو الله أن يربط على قلوب إخوانى حتى يتحملوا هذه الصدمة.

ابتكار شيطانى جديد:

ويبدو أن السادة الجدد الذين ألقى إليهم بقياد الحملة الجديدة على الإخوان من رجال مخابرات رياسة الجمهورية — تهتكاً منهم فى فنون الإيذاء والتنكيل — أرادوا أن يبهروا سيدهم الكبير بابتكارات يعجز الشيطان عن مثلها.. وكان من ابتكاراتهم التلاعب بالنفس الإنسانية، وإيصال الإيذاء إلى صميم هذه النفس مباشرة بدلاً من توقيع الأذى على البدن فلا يصل هذا الأذى إلى النفس أذى، وإنما يصل إليها مجرد شعور بالألم؛ فإذا طاب البدن — وسرعان مايطيب — برئت النفس من شعورها بالألم واستوت على ماكانت عليه.. أما إذا وقع الأذى على النفس توقيعاً مباشراً فإن النفس تمرض.. وإذا مرضت النفس فقلما تبرأ، وقلما ترجع إلى ماكانت عليه.. ومن هنا كان الفرد من الإخوان الكرام يعذب بمختلف ألوان التعذيب بإيذائه فى بدنه بكل وسائل الإيذاء حتى يتقطع لحمه ويتناثر هنا وهناك، ويعلق مقلوباً.. فيتحمل كل هذا ولا يعترف بما يريدون.. فإذا يئسوا من الوصول معه إلى مايريدون لجأوا إلى التعذيب النفسى؛ بأن يحضروا زوجته ويهددونه بهتك عرضها؛ فترى هذا الذى تحمل من التعذيب البدنى ماتنوء به الجبال لم يقو على تحمل مجرد التهديد بهذا اللون من التعذيب النفسى؛ فيذعن فى الحال ويوقع مايشاءون من اعترافات تؤدى به إلى الإعدام.

ومن هذا الباب قولهم «إن أعظم مصيبة تصيب الإنسان هى الفقد بعد العطاء؛ فالفقير مهما طال به الفقر حتى لو قضى حياته فقيراً؛ فإن نشرءه فى الفقر وتقلبه فى رغامه، وإلفه معاشرته لايكاد يشعره بمرارة.. أما إذا افتقر الموسر فإنه يحس لهذا الضيف الذى حل بساحته بمرارة قد تقضى عليه.. وكذلك المسجون مهما طالت أيامه فى السجن فإنه لايكاد يحس بمرارة سجن ألفه وعرف أنه ممس فيه ومصبح.. أما إذا منّى بالحرية، وأوهم بالإفراج، وطلب إليه أن يعد نفسه للذهاب إلى بيته، وانهال عليه المهنئون حتى قدم إليه التهانى هيئة إدارة السجن.. فإذا تبين له فجأة أن كل هذا لم يكن إلا خدعة؛ فإن ذلك يجرح نفسه جرحاً عميقاً يعز على البرء، ويستعصى على الشفاء، ويولد فى نفسه حسرة تستقر فى سويداء قلبه، وتكسو نظرته إلى الأمور لوناً أسود قاتماً. وحين يستولى عليه اليأس فيرى الدنيا كلها سوادا؛ يسلمه هذا الشعور إلى التخلص من الحياة بأسلوب أو بآخر.

هذا ماأراده السادة الجدد وما هدفوا إليه من أسلوبهم هذا المستحدث.. ولكنهم نسوا

أنهم إنما يتعاملون مع مؤمنين وصفهم ربهم بقوله ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾.

ظل الإخوان فى سياراتهم فى حيرة من أمرهم وهم لايكادون يصدقون أن الوعود التى وعدوها كانت برقاً خُلَّباً وخداعاً ماكراً إلا بعد أن رأوا السيارات تدخل بهم فى بناء متهالك قديم، وطلب منهم أن ينزلوا من السيارات ومعهم متاعهم. ففعلوا وهم لايعرفون أين نزلوا وما هذا البناء القديم. وبعد نحو ساعة من نزولهم والحسرة تقطع قلوبهم علموا أن هذا البناء القديم هو سجن مزرعة طره.

وهنا ازددت بالله إيماناً حيث سارت الأمور حتى ذلك اليوم مصدقة الرؤيا التى قال عنها النبى ﷺ إنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

* * *

الفصل الثالث

فى سجن مزرعة طـره

دخل الإخوان هذا المبنى وهم لايكادون يستطيعون الوقوف على أقدامهم من شدة هول المفاجأة؛ لاسيما بعد أن علموا أن المبنى سجن آخر .. كادت تتمزق نفوسهم، وتطير قلوبهم شعاعاً لولا بقية من إيمان بالله تتبدد على عتبته سحائب اليأس، وتتحطم على صخرته جيوش الهموم.

بدأوا المشوار من جديد.. أُخذت بياناتهم، وتسلمت أماناتهم، وقيدت أسماؤهم، وقسموا أقساما فى عنابر، على أن يشغل كل عنبر مجموعة اعتقلت من محافظة واحدة، وكان نصيبى هذه المرة أن أكون فى عنبر إخوان الإسكندرية وإن كان إخوان الإسكندرية قد شغلوا أكثر من عنبر، والعنبر يضم مائة معتقل.

ولست أدرى هل كان العاملون فى إدارة السجن ملمين بظروف هؤلاء النزلاء الجدد الذين وردوا إليهم فى تلك الليلة أم أنهم ألموا بها من أفواه هؤلاء النزلاء حين واجهوهم لأول مرة فلاحظوا أنهم فى حالة هى أقرب إلى أن تكون انهياراً عصبياً، وبالتفاهم معهم ألموا بما حاق بهم من كيد وما دبر لهم من صدمة.. على أى حال لقد كان الضباط المسئولون عن إدارة هذا السجن يتحدثون معنا حديث المقدرين لما أصابنا والمواسين فى المصيبة التى نزلت بنا.. وقد يكون هذا إلهاماً من الله لهؤلاء الناس حتى يخففوا من وطأة الصدمة، وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

ألقى الضباط فى روعنا أننا إنما أحضرنا إلى هذا المكان لقضاء أسبوع واحد تمهيداً للإفراج النهائى.. وفى الوقت الذى وقع كلام الضباط على أعصاب إخواننا برداً وسلاماً فاستطاعوا أن يخلدوا إلى النوم بعد أن كان قد طار من عيونهم؛ تلقيت هذا الكلام على أنه نوع من المواساة يستحق عليها الضباط كل ثناء لأن الرؤيا عندى هى الأصدق وهى قد حددت الميعاد أدق تحديد.. ولكننى مع ذلك ظللت حريصاً على أن لاأكاشف الإخوان بها حتى لاأدخل اليأس فى قلوبهم، لاسيما والميعاد المحدد ليس بالقريب. وأكثرهم لم يعد

يستطيع أن يتحمل أن يسمع عن تأجيل الإفراج يوماً واحداً.

معالم هذا السجن

وهل اختير للإخوان عفوا ؟

وقبل أن أسترسل فى حديث الترجمة عن مشاعر الإخوان التى كانت هى الوتر الحساس الذى يضرب عليه عازفو قطع العذاب بدون رحمة؛ يحسن بى أن أتحدث عن معالم هذا السجن حتى تكون صورته واضحة فى مخيلة القارىء. لاسيما وفى هذا السجن من المعالم مالا يتصوره قارىء يعيش فى القرن العشرين، بل ماقد لايصدقه القارىء إذا ماصورته له ولا يحمله إلا على أنه نوع من الأساطير.

صورة هذا السجن مغايرة تمام المغايرة لسجن «أبو زعبل» ومضادة له كل التضاد.. فهذا سجن قديم مضى على بنائه مايربو على مائة عام؛ أرض فسيحة شاسعة من الأراضى الزراعية، مبنى عليها صف طويل من دور واحد من العنابر المتلاصقة العالية السقوف ذات النوافذ القريبة من السقوف — وأمام هذه العنابر صف من حجر مختلفة المساحات منها مايشبه العنابر ومنها مايشبه الزنزانات. وفى بعض هذه الحجر مكاتب لإدارة السجن وبجانبها شفخانة السجن، كما يوجد قريباً منها المطبخ — ويحيط بهذه المبانى أرض شاسعة مزروعة يبدو أن السجن قد اكتسب اسمه منها.. وفى جانب من هذه المزارع ترى مبان جديدة تشبه أن تكون صالات.

وعنابر هذا السجن فى سعة عنابر سجن «أبو زعبل» إلا أنها بناء عتيق من طبيعته أن لايكون نظيفاً: جدراناً وسقوفاً وأرضاً. فإذا علمت أن وسائل التنظيف منعدمة لاوجود لها فلك أن تتصور مدى قذارتها — وأرضية العنابر من الإسفلت الخشن — ولا داعى لتكرار ماقلته من قبل من سعة مثيلاتها فى سجن «أبو زعبل» وما حملته أكثر من سعتها من النزلاء؛ حيث كان هذا هو العيب الوحيد فيها؛ ولكن عنابر هذا السجن لاتصلح حتى أن تكون اصطبلات للخيل والحمير؛ ولا داعى بعد ذلك إلى القول بأن الواحد منها يصلح لسكنى عشرين مسجوناً ولكننا حشرنا فيه مائة.. والضوء فى هذه العنابر شديد الخفوت مهما كانت الشمس مشرقة لأنها دور أرضى ويخيل إلىّ أن السجن فى مجموعه منخفض عن أرض الطريق العام. وباب العنبر صغير ومن الخشب المصمت، وهو مغلق دائماً إلا فى لحظات معينة. وكان الباب فى «أبو زعبل» يلعب دوراً هاماً فى التهوية حيث ينطلق الهواء من النوافذ إليه فى تيار متجدد.

ومهما يكن من أمر فإننا نحن الإخوان المسلمين قد أخذنا أنفسنا من أول أيامنا فى

هذه الدعوة على أن نعيش فى مختلف الظروف والبيئات؛ ننام على الأرض وعلى البلاط وعلى الأسفلت بدون فراش ولا وسادة ولا غطاء، كما ننام على الأسرة الوثيرة الفراش الدافئة الغطاء؛ لانكاد نحس للتغير مايحسه المترفون. ولذا فإن السطور التى أومأت فيها لوصف المكان الذى انتقلنا إليه لم يكن الهدف منها أن أشعر القارىء بأن شيئاً من الامتعاض قد ألم بنا، وإنما قصدت أن أقدم إليه صورة المكان الذى انتقلنا إليه حتى يتمشى بمخيلته معنا فى كل خطوة تمهيداً لسماع ماأشرت إليه فى السطور الأولى من هذا العنوان مما قد لايتصوره ولا يخطر له ببال.

إذلال مهيـن:

قدمت أن الإخوان لايضيقون ذرعاً بضيق المكان ولا بسعته، ولا بخشونة العيش ولا بنعومته، ولا بقلة الطعام ولا بكثرته، ولا برداءته ولا بحسنه. كما لايضيقون ذرعاً بالجوع ولا بالعرى ولا بالحر ولا بالبرد؛ فإن هذه أمور أخذوا أنفسهم بها من قبل واستطاعوا أن يوطنوا أنفسهم على كل الأحوال فى معسكرات الجوالة وفى ليالى الكتائب وفى رحلات الدعوة وغيرها من الأساليب التى عالجوا بها نفوسهم حتى أسلمت لهم قيادها.

والنفـس راغبـة إذا رغبتهـا وإذا تـرد إلـى قليـل تقنـع

وأعداء الإسلام من الحكام القدامى والجدد جربوا ذلك فى الإخوان وأيأسهم صبرهم وجلدهم على كل ماتعرضوا له من سهل وصعب وحلو ومر.. فلجأ فريق المتخصصين فى فنون التنكيل والتعذيب إلى ابتداع أسلوب جديد؛ ليس فيه ضجة التعذيب بالضرب والكى بالنار والنفخ بالمنفاخ، ولا يبذل القائم بالتعذيب فيه جهداً ولا وقتاً ولا انفعالاً، ولا يتكلف حتى فى الآلات التكنولوجية الحديثة ثمناً لكهرباء ولا إهلاكاً للآلات؛ كما أنه لايترك فى أجسام المعذبين آثاراً تشهد فى يوم من الأيام على التعذيب وتفضح الطغاة.

لقد لقينا فى السجن الحربى مالقينا، ولقينا فى سجن «أبو زعبل» مالقينا، ووصل التعذيب إلى الموت أو مايقارب الموت.. ولكن حاجات الطبيعة البشرية كانت ميسرة باعتبار ذلك أمراً متفقاً عليه يخرج من دائرة العداء بين الأطراف المتنازعة.

كان بالسجن الحربى دورات مياه صحية كتلك التى فى بيوتنا، وكان فى سجن «أبو زعبل» دورات مياه صحية تفوق مثيلاتها فى السجن الحربى إعداداً ونظاماً ونظافة، فهى على نظام أحدث.. والمقصود بدورة المياه الصحية أن يكون لها تهوية خاصة تفصل هواءها عن مكان المعيشة وتصله بالجو الخارجى المطلق، كما أن فضلات الإنسان التى يتخلص منها فى هذه الدورات تنصرف بنظام خاص له طرق مختلفة تختلف باختلاف درجة العمران.

وحتى قبل انتشار العمران وتقدم فن البناء؛ كان مراعى فى مايسمى الآن دورات المياه توفر الشرطين الضروريين المشار إليهما؛ فلقد كانت أماكن قضاء الحاجة بعيدة عن المساكن حيث يقضى الناس حاجتهم ويتخلصون من فضلاتهم فى الخلاء؛ حتى سمى قضاء الحاجة «الذهاب إلى الخلاء» وفى الخلاء المنفصل تماماً عن المساكن التهوية الكاملة التى تتكفل أيضاً بما فيها من رياح وأتربة بمواراة هذه الفضلات حيث تتحلل ولا يبقى لها أثر.

وليس الإنسان وحده هو الذى إذا تخلص من فضلاته لم يعد مسئولاً عنها ولا مطالباً بشىء نحوها، بل إن الحيوان أيضاً اكتسب هذا الحق.. حتى القائمون على عملية الصرف الصحى وهم عمال المجارى لايتعاملون مع هذه الفضلات إلا بعد تحللها وتحولها إلى مادة أخرى تختلف عن الفضلات فى اللون والقوام والرائحة.. ولن يقبل عامل من هؤلاء العمال مهما أجزلت له الأجر أن يتعامل مع فضلات أى إنسان وهى فى حالتها الأصلية ولا حتى مع فضلات نفسه.

أما فى سجن مزرعة طره فإنهم اقتطعوا من كل عنبر من عنابره جزءاً فى أحد أركانه، وأقاموا حائطاً بارتفاع قامة الإنسان وجعلوا هذا المكان لقضاء الحاجة دون باب ولا نافذة ولا سقف— وليس بالعنابر مياه إلا مايحضره المعتقلون فى صباح كل يوم من مياه فى جرادل من حنفية فى فناء السجن.

وعلى من يريد قضاء حاجته أن يأخذ معه قدراً من هذا الماء ويدخل هذا المكان وهو لايكاد يستطيع التنفس كما أن عدم وجود تهوية إلى خارج العنبر تجعل ماينبعث منه من روائح تنتشر فى أرجاء العنبر.. وكان الإخوان فى أول الأمر يعانون مشقة استنشاق هذه الروائح؛ ولكنهم— بطبيعة حاسة الشم وباستمرار هذه الروائح— فقدوا الإحساس بها.. وهذا من تخفيف الله عن الناس الذين لامتنفس لهم.

ثم يأتى بعد ذلك الدور الخطير.. أين تذهب هذه الفضلات؟ هل لها نظام للتصريف كما يوجد فى كل مكان فى الدنيا حتى ولو كان هذا النظام بدائياً؟

لا.. ليس لها من تصريف. وليس لها خزان كبير أو صغير يتشربها ويحللها.. ليس لها شىء من ذلك.. تحيرنا فى أول يوم وسألنا السادة مديرى السجن. فقالوا: عليكم أن تحملوها كل يوم وتنقلوها إلى أرض خالية فى آخر السجن.

فى هذه اللحظة فقط فطنا إلى السبب الذى من أجله اختاروا لنا هذا السجن بعد سجن «أبو زعبل» لمن كانوا فى «أبو زعبل» وبعد السجن الحربى لمن كانوا بالسجن الحربى.

هذا هو الإذلال الذى لم تتفتق عنه أذهان الذين سبقوا بالإساءة والظلم، وتفتقت عنه

أذهان أخلافهم الذين ظنوا أن الدنيا دانت لهم، فاستباحوا مالم يستبحه الظالمون من قبلهم.

هل كانت الدولة عاجزة عن توصيل هذه الدورات بالمجارى العمومية أو عن إنشاء نظام صرف خاص بها؟ إن هذا لن يعجز عنه فرد واحد لو كان يملك هذه المبانى، ولكن الدولة أبقت عامدة على هذا الوضع القذر الوقح كما تبقى عصابات اللصوص ومحترفو الإجرام على إظلام الشوارع لتسهيل سطوهم على بيوت الآمنين.. أبقت عليها لإذلال رقاب لم يستطيعوا إذلالها بكل وسائل العنف والقهر والإرهاب.

إن الأخ المسلم وقد مر بمختلف وسائل القهر والتنكيل والتعذيب طيلة شهور وسنين؛ قد ينسى على مر الأيام كل مامر به من ذلك.. ولكنه لاينسى هذا الإذلال الذى يحنى له رأسه كل صباح، والذى يعانى طول يومه وليلته من العيش فى جواره وفى الجو المشبع به، والباب مغلق عليه ثلاثاً وعشرين ساعة أو يزيد.

لقد كان مقصوداً بجانب الإذلال القضاء على هذه الفئة المؤمنة، بالأوبئة والأمراض التى هى النتيجة المنتظرة لهذا الأسلوب من المعيشة الملوثة بكل أوبئة الموت والهلاك.. ولكن كان من عناية الله بأهل دينه وبالمدافعين عن كلمته أن حال بين هذه الأوبئة ـــ المحيطة بهم ـــ وبينهم كما فعل مع جدهم إبراهيم عليه السلام ﴿**وقلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم. وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين**﴾.

كان المقصود بعد الإذلال أن تموت هذه الجموع فلا يقال إنها ماتت من الضرب ولا من التعذيب، ولكن شاء الطغاة وشاء الله فكانت مشيئة الله هى الغالبة ﴿**ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين**﴾.

إن الإخوان المسلمين الذين سيموا الخسف وعذبوا ونكل بهم؛ إذا سألهم سائل عما لاقوا من مشقات سواء أكان هذا السائل صديقاً أو قريباً أو محققاً بعد انتهاء عهد الظلام؛ قد يقولون الكثير والقليل عما لاقوا.. ولكنهم يستحيون أن يشيروا إلى هذا اللون من الإذلال ولو مجرد إشارة، لأن ألسنتهم لاتستطيع النطق به، ولأن حياءهم يمنعهم من الحديث عنه. وهذه مشقة نفسية قاتلة قد لايقدرها حق قدرها إلا من عاشها وعاناها.

وصل ماانقطع من الحديث:

مضى الأسبوع الأول الذى علل ضباط السجن به الإخوان حين رأوهم فى حالة انهيار نفسى خطير. واشرأبت أعناق الإخوان يسألون هؤلاء الضباط وعدهم الذى وعدوهم، فقالوا لهم: إن الجهات العليا رأت قبل الإفراج عنكم أن تحضروا محاضرات

توعية تستغرق أسبوعاً.. فتقبل الإخوان هذا الوعد الجديد على مضض ضائقين ذرعاً بهذا التأجيل.

محاضرات التوعية :

تحقق ماقاله ضباط السجن، فقد دعيت مجموعتنا الموجودة بهذا السجن فى ذلك التاريخ إلى الاستماع إلى ثلاثة محاضرين يلقى كل منهم ثلاث محاضرات. وكان إلقاء المحاضرات فى قاعة المحاضرات التى بنيت حديثاً بالسجن، وكان الإخوان خلالها يجلسون على الأرض والمحاضر يلقى محاضرته من فوق منصة.

وكان المحاضر الأول هو الأستاذ كمال رفعت. وكان إذ ذاك إما وزيراً فى الوزارة وإما رئيساً للجنة الفكر فى الاتحاد الاشتراكى. وكان هذا الرجل من عتاولة التعذيب فى عام ١٩٥٤، ولكن قد يعجب القارىء حين أقرر مبتغياً وجه الحقيقة أن الرجل خلال محاضراته كان ملتزماً حدود الأدب فى حديثه الموجه إلينا، وكان حريصاً على أن يشعرنا بأنه لايخاطبنا من علٍ. كما كان حريصاً حين يتكلم عن دعوة الإخوان أن لايمسها بكلمة نابية أو يجرحها بأسلوب من أساليب التجريح.. وكان كل اهتمامه موجهاً إلى أن يظهر فكر رجال الثورة على أنه فكر إسلامى ولا داعى إذن لوجود شقاق بين إخوة أفكارهم كلها نابعة من مصدر واحد هو الإسلام.

وكان المحاضر الثانى مفاجأة لنا إذ وجدنا المحاضر هو الأخ الدكتور عبد العزيز كامل. وكانت محاضراته تدور على محورين؛ المحور الأول «الميثاق» وإثبات أن نصوصه مستقاة من الفكر الإسلامى. والمحور الآخر هو نقد كتاب «معالم فى الطريق» للأخ الأستاذ سيد قطب رحمه الله نقداً يبرزه منافياً للفكر الإسلامى خارجاً على حدود الدعوة الإسلامية.

ويجدر بى فى هذا المقام أن أذكر أن أكثر الإخوان أصيبوا بصدمة عنيفة حين سمعوا عبد العزيز فى هذا الموقف وأساءوا به الظن. إلا أننى كنت أتصوره مكرها يظله قول الله تعالى ﴿**إلاَّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾.

وكان المحاضر الثالث والأخير هو الدكتور الشيخ محمد سعاد جلال وكان أستاذاً بجامعة الأزهر ومن العلماء الذين يساهمون بلسانهم وقلمهم فى الحياة الاجتماعية ومن ذوى الشخصية والرأى.. ولعله اختير لهذه الميزات.

وقد تكلم الرجل فى محاضرته الأولى فأحسن الكلام، وتحدث حديثاً مثيراً عن الإسلام وعما آلت إليه حال الأمة الإسلامية مما هاج الشجن فى نفوسنا؛ فاشترك عدد منا فى الحديث إليه فى صورة أسئلة فى نهاية المحاضرة.. وكان ممن ساهموا فى توجيه الأسئلة إليه

الأخ الكريم الأستاذ الشيخ صلاح أبو إسماعيل.. وكان منظره وهو يوجه السؤال منظراً مؤثراً؛ فقد كان إذ ذاك شاباً طوالاً وسيماً، وكان الجو بارداً ولم يكن معه مايحتمى به من غوائل البرد فارتدى ماقد يسمىَ جاكتة السجن وهى نوع من الخيش أو اللباد السميك الشديد القذارة فهى فى منظرها أشبه ببرذعة الحمار، ولم يكن هو وحده الذى يرتديها وإنما كان أكثر الإخوان يرتدونها كارهين.. فوقف يوجه السؤال إلى الشيخ وهو فى هذا المنظر المثير، ثم كان السؤال على سبيل الاستفهام الاستنكارى:

فضيلتك تشكو إلينا حال المسلمين، وتطالب كل ذى جهد أن يبذل جهده فى سبيل إنقاذهم.. فهل ترى أن هذا الوضع الذى وضع فيه أكرم رجال الأمة وصفوة شبابها المثقف الواعى مما يعمل على الإنقاذ؟!

وهنا لم يملك الرجل سوابق دمعه التى انهمرت على خديه لايملك لها دفعاً، ولا يستطيع لها منعاً.. بكى الشيخ محمد سعاد جلال فكشف بكاؤه عن أصالة نفسه وكرم محتده وقوة إيمانه. ورد إلينا ماكنا قد فقدناه من ثقة فى الأزهر ورجاله، وعمنا أن هذه الأمة بخير مهما طفا على سطحها من شر، وأن الإيمان الذى غرس فى النفوس منذ ثلاثمائة وألف عام هو منها فى مكان أمين، لايصل إليه بطش الجبارين ولا إغراء الذين ملكوا خزائن الأرض من المغرورين والظالمين.

الفصل الرابع

أحداث وملاحظات وخواطر في هذا السجن

انتفاعي بشعور الاستقرار :

كان إخواننا يستمعون إلى محاضرات التوعية كما سميت وعيونهم معلقة بآخر يوم من أيامها حيث وعدوا بالإفراج بعده.. ولما كان هذا المعنى الذى شغلهم غير وارد على خاطرى؛ فقد شعرت بالاستقرار الذى فى ظله يستطيع الإنسان أن ينتفع بالوقت أكمل انتفاع..

كان الذى يشغل بالى ويملأ خاطرى هو أن لاأضيع لحظة من لحظات وجودى فى هذا السجن دون أن أشغلها بالقرآن.. لقد حفظت أو استعدت فى «أبو زعبل» حفظ عشرين جزءاً؛ فعلىّ إذن فى هذا السجن أن أثبت هذه العشرين جزءاً.. جعلت هذه الأجزاء العشرين وردى أقرأه على نفسى ليلاً ونهاراً، وعلى غيرى إن وجد من يسمع منى وقلما يوجد. كنت أقرأ هذا الورد ابتداءً من وقت السحر قائماً فى الصلاة ثم أقرأ بعد الفجر وأنا فى هيئة النائم، ثم أقرأ بقية النهار حتى النوم فى كل وقت فراغ.. لازلت أذكر أننى كنت فى فترة اضطجاعى بعد صلاة الفجر وَصَلَ ماكنت أقرأه على نفسى خلالها فى بعض الأيام إلى تسعة أجزاء.

كنت حريصاً على أن لاأشغل نفسى بغير القرآن. وكان الإخوان — أكرمهم الله — قد لاحظوا ذلك علىّ فكانوا يعينوننى عليه، ولا يتحدثون إلىّ إلا الحديث الضرورى الذى لامناص منه..

أما إخواننا الذين يتعلقون بوعود الإفراج فقد انتظروا بعد انتهاء أسبوع المحاضرات أياماً دون أن يتم إفراج، فراحوا يسألون ضباط السجن الذين وعدوهم فلم يجدوا عندهم

إجابة، فتولتهم الحيرة من جديد وطفقوا يضيقون بهذه الحياة ذرعا

زائر يبعث الأمل:

وبينما إخواننا فى هذا الضيق القاتل طلب أحدهم للخروج من العنبر لمقابلة زائر حضر لزيارته وكان معروفاً أن الزيارات والمراسلات ممنوعة سواء فى «أبو زعبل» أو فى هذا السجن.. وإذن فلن يسمح بزيارة نزيل منا إلا إذا كان الزائر شخصية كبيرة من الشخصيات ذات الصلة بدوائر الجهات العليا فى الحكومة.. وكان مفهوماً كذلك أن مثل هذا الزائر لابد أن تكون رابطة قرابة تربطه بالمزور، وأنه لايقوم بالزيارة إلا إذا كان لإبلاغ قريبه بأمر ذى بال.

وتعلقت آمال إخواننا بهذا الزائر، وقعدوا على أحر من الجمر فى انتظار زميلهم بعد انتهاء الزيارة ليسمعوا منه الأنباء الهامة.. ورجع الأخ الكريم من الزيارة مبتهجاً؛ فتهللت وجوه إخواننا والتفوا حوله ينصتون إليه.. وبعد قليل هتفوا مسرورين.. وجاءوا يخبروننى بأن الزائر أخبر الأخ الكريم بأنه قد تقرر الإفراج يوم ٢٥ نوفمبر؛ فقلت فى نفسى: إذن المشطوب هو ديسمبر والمكتوب فوقه هو نوفمبر.. وكنا إذ ذاك على مقربة من هذا اليوم فقضى إخواننا هذه الفترة الباقية فى سرور ومرح.

وأقبل يوم ٢٥ نوفمبر وترقب الإخوان من يناديهم مناداة الإفراج الموعود. ومرت ساعات النهار الساعة تلو الساعة وهم ينتظرون الفرج فى كل ساعة حتى مضى اليوم بطوله وهم حيث هم مما أعقبهم هماً وحزناً.. وكان نبأ هذا اليوم قد وصل إلى أسماع ضباط السجن، وهم يعرفون أن مصدر النبأ من المصادر العليمة المطلعة فتعجبوا لعدم وصول الأمر المعهود بالإفراج والذى كانوا هم الآخرون يترقبون وصوله إليهم لحظة بعد أخرى.

ولشدة ثقة ضباط السجن فى مصدر النبأ طلبوا من الإخوان أن يستعدوا للإفراج ويحزموا أمتعتهم حتى إذا ورد الأمر بالإفراج لم يستغرقوا وقتاً فى حزم المتاع. وقد فعل الإخوان.

ومضى يوم ٢٦ ويوم ٢٧ وأقبل يوم ٢٨ نوفمبر وقد سقط فى أيديهم، ولكن ضباط السجن لم يفقدوا الأمل، وطلبوا من الإخوان أن يظلوا على أهبة الاستعداد.. ولم يكن هؤلاء الضباط هازلين ولا مغررين بالإخوان بل كانوا واثقين وتواقين أن يتم الإفراج على أيديهم فكانوا فعلاً يتناوبون الوجود أمام التليفون ليلاً ونهاراً لاستقبال إشارة الإفراج.

مكاشفة الإخوان بالرؤيا:

ولما رأيت يوم ٢٨ نوفمبر قد مضى دون إفراج، ورأيت الإخوان فى حرج شديد

أمام مايعدهم به ضباط السجن يوماً بعد يوم ، وأمام مايعانون من فقد الاستقرار النفسى؛ طلبت الأخ الحاج نجيب عبد العزيز باعتباره قائداً للعنبر وقلت له : ياأخى مادام قد فات يوم ٢٧ نوفمبر دون إفراج فنبىء الإخوان بأن الإفراج سيكون بإذن الله يوم ٢٧ ديسمبر . فسألنى عن السبب فقصصت عليه الرؤيا وما دعانى إلى كتمانها طيلة المدة السابقة حتى لاأدخل اليأس على نفوس كانت تترقب الإفراج فى كل يوم.

ولا أدرى هل أبلغ الحاج نجيب إخوانه بما سمع منى أم تصرف بأسلوب رآه أنسب لحالتهم. ولكننى لاحظت أنهم حلوا أمتعتهمُ ورجعوا إلى متكئهم وزاولوا أعمالهم اليومية كعادتهم .

وأذكر بهذه المناسبة أن الحاج نجيب قص على رؤيا رآها أيضاً إلا أنها لم تتحقق إلا فى عام ١٩٧٠ حين بارح جمال عبد الناصر بآثامه هذه الدنيا.

إحاطة اليأس بالنفوس:

لم أر اليأس أحاط بالنفوس كما رأيته ، وقد غلب على أكثر المجموعة التى كانت معنا فى هذا العنبر لاسيما بعد مرور يوم ٢٥ نوفمبر الذى كانوا قد أعدوا أنفسهم للإفراج فيه .. رأيت هؤلاء الإخوة وقد أنهكت نفوسهم من كثرة الوعود وخلفها ومن كثرة الجذب والإرخاء التى تعرضوا لها؛ فبدأوا يكلمون أنفسهم ويكلم بعضهم بعضاً.

ومما زاد الطين بلة أن فوجئنا بشىء لم يكن فى الحسبان ، فقد ظللنا طيلة مدة وجودنا فى هذا السجن وفى سابقه منقطعين عن العالم الخارجى ، فلا صحف ولا راديو ولا زوار ولا خطابات .. وفى مساء يوم ٢٠ ديسمبر إذا بصوت مذياع مزود بميكروفون يذيع ، فتعجبنا من هذه المفاجأة ، ولكن لاندرى لم اختاروا هذا اليوم بالذات ؛ ولم يكن بد من الاستماع فالصوت قوى يخترق الآذان .. وبعد قليل فهمنا أن الحكومة قررت إذاعة جلسة تعقد هذا المساء لمجلس الأمة .. فقلنا لعل الحكومة فاءت إلى رشدها ورأت أنها قد ضلت الطريق فأرادت أن تتلافى أخطاءها إزاء الإخوان ، فوسطت مجلس الأمة فى القيام بهذا الدور ولا سيما أن الإجراءات التعسفية التى اتخذتها ضد الإخوان هذه المرة لامبرر لها ، وتبدو مفتعلة لاأصل لها .. وأنصتنا إلى المذياع لعلنا نسمع خبراً يعود على البلاد بالنفع ويجمع الكلمة على الإصلاح .

قانون فرعون

وكان الذى سمعناه عجباً .. خيب الظنون لمن يحسنون الظن ، وقطع خط الرجعة على

من قد تحدثهم نفوسهم بالدخول بين الطوائف بالإصلاح، وأعلن الحرب قاطعاً كل أسباب المودة.

سمعنا هذا المجلس يتبارى أعضاؤه فى النهش فى عرض جماعة لاتملك أن تدافع عن نفسها، ولا أن تذود عن عرضها، ولا أن تعلن حجتها.. وهذا لون من المجالس النيابية يسجل على نفسه دون أن يدرى الضعة والحقارة والخسة؛ لأنه يرتع فى غير مرتع، ويعب من دماء جريح مثخن.. كل عضو من أعضائه ينظر إلى مايعود على نفسه من نفع من توطيد للصلة بينه وبين من يعتقد أنه هو وحده المانع المانح المذل المعز؛ فيفرح بذلك ويسعد ظناً منه أنه حقق الفوز وحاز النصر ولا يدرى أن يد التاريخ تسطر عليه وعلى زملائه سطور الخزى والعار والفضيحة؛ سيذهب هو وزملاؤه وسيدهم وتبقى هذه السطور لاتمحى ولا تنسى على مر الأيام والأعوام والدهور:

كان رئيس الجمهورية قد أصدر قانوناً فى غفلة من مجلس الرياسة فى ٢٤ مارس ١٩٦٤ وهو القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ وقد زوره على هذا المجلس الذى كان إذ ذاك بحكم الدستور هو صاحب الحق فى إصدار القرارات والقوانين، فانتحل جمال عبد الناصر شخصية هذا المجلس فى غيبته ــ مع أن أعضاءه موجودون ــ وأصدر هذا القانون باسم المجلس.

«وهذا القانون يخول رئيس الجمهورية فى غير الحالات الاستثنائية والطارئة المقررة فى قانون الطوارىء، وبدون إبداء الأسباب، أن يقبض على المواطنين، وأن يحتجزهم فيما أسماه بمكان أمين. وأن يفرض الحراسة على أموالهم وممتلكاتهم، وأن يكون للنيابة العامة لدى تحقيقها سلطات مطلقة وغير مقيدة بما ورد فى قانون الإجراءات الجنائية من قيود وضمانات للأفراد.

كما يخول رئيس الجمهورية الحق فى أن يأمر بتشكيل محاكم استثنائية من العنصر العسكرى الخالص لمحاكمة المواطنين عما هو منسوب إليهم من جرائم، بل وإنه أعفى هذه المحاكم من أى تقييد إلا بما ينص عليه فى أمر تشكيلها من إجراءات.. وحظر فى النهاية الطعن بأى وجه من الوجوه فى أحكامها».

لم يكتف جمال عبد الناصر بهذا القانون الفاجر الذى تبرأ منه أعضاء مجلس الرياسة، والذى كان مخالفاً لوثيقة إعلان حقوق الإنسان وكافة المبادىء الدستورية بل وللقوانين العادية.. بل أصدر وحده أيضاً قانوناً آخر فى ٩ نوفمبر ١٩٦٥ خص به الإخوان المسلمين وكان هذا القانون مكوناً من ثلاث مواد:

المادة الأولى: لرئيس الجمهورية أن يستخدم الحق المخول له بمقتضى المادة الأولى من القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ المشار إليه بالنسبة إلى أى شخص من الأشخاص الذين

سبق لسلطات الضبط والتحقيق ضبطهم أو التحفظ عليهم.. وذلك فى جرائم التآمر ضد أمن الدولة والجرائم المرتبطة بها والتى تم اكتشافها فى الفترة مابين مايو ١٩٦٥ وآخر سبتمبر ١٩٦٥. وله أن يطبق فى شأنهم التدابير الخاصة بوضع أموالهم وممتلكاتهم تحت الحراسة. ولا يقبل الطعن بأى وجه من الوجوه فى الأوامر أو القرارات التى أصدرتها سلطات الضبط والتحقيق قبل العمل بهذا القانون.

المادة الثانية: تنص على أنه لايجوز الطعن بأى وجه من الوجوه أمام أية جهة كانت فى قرارات رئيس الجمهورية الصادرة وفقاً لأحكام هذا القانون.

المادة الثالثة: هى المادة التقليدية وتنص على نشر هذا القانون فى الجريدة الرسمية ويعمل به من تاريخ نشره.

ولكى يقطع خط الرجعة على زملائه أعضاء مجلس الرياسة الذين شغبوا عليه حين تجاهلهم وأصدر القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤؛ لجأ بقانونه الجديد إلى صنائعه وعبيد إحساناته الذين أطلق عليهم أعضاء مجلس الأمة للموافقة عليه وإصداره.. فلم يكتفوا بمجرد الموافقة عليه بل أصدروه مجللا بالعار المتمثل فيما يسمى بتقرير اللجنة التشريعية. ذلك التقرير الذى يندى له الجبين خجلاً مما تضمن من إفك وكذب وافتراء.

وعلى من يريد أن يطلع على هذا التقرير أو يرغب فى مزيد من التفصيل فى هذا الموضوع أن يرجع إلى كتاب «الموتى يتكلمون» للأستاذ سامى جوهر، الذى استطاع أن يجمع فى كتابه هذا نصوصاً لقوانين وتقارير ومحاضر تحقيقات ومحاكمات قبل أن تتمكن الأيدى الآثمة من سحبها من مظانها لطمس معالمها وإخفاء جرائمها.. وهذا الكتاب فى مجموعه وثيقة تاريخية سوف يرجع إليها فى يوم من الأيام حين تحين ساعة المحاسبة.

* * *

وقعت إذاعة هذه الجلسة على إخواننا موقع الضربة القاضية التى قضت على البقية الباقية من آمالهم وأسلمتهم إلى يأس عميق. وبدا ذلك جلياً فى قسمات وجوههم وفى حركاتهم وسكناتهم وفى أثناء أحاديثهم. وكأنما كان بينهم وبين الحرية مائة باب مفتوح فجاءت هذه الجلسة فأغلقتها جمعياً دون رحمة ولا هوادة.. فزاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظنوا بالله الظنونا.

أما موقع هذه الإذاعة علىّ فقد كان غير موقعها على إخواننا. فلقد كنت كلما سمعت عبارة من عبارات القانون تضع قيداً جديداً على حرية الإخوان أشعر كأن هذه العبارة فكت قيداً عنا، وكلما سمعت الحاكم يضيق الخناق حول رقابنا أشعر كأنما ينقله من

رقابنا إلى رقبته. وكلما جرفه الغرور فانزلق إلى مهوى جديد من مهاوى الاستبداد شعرت أنه إنما ينزلق إلى مافيه نهايته.

كنت أسمعه وقصة فرعون مع بنى إسرائيل ماثلة فى خاطرى. فكلما قال كلمة مما قاله فرعون أقول فى نفسى ليته يقول الكلمة التالية فيقولها، فأتمنى أن يتبعها بالتالية لها وهكذا حتى إذا قال الكلمة الأخيرة التى قالها فرعون كدت أصفق فرحاً لأنه أصبح أمام نهايته ﴿**فهل ينظرون إلا سنة الأولين؟ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً**﴾.

كلمتى الوحيدة إلى إخوان العنبر:

كان إخواننا فى العنبر يقضون الكثير من الليالى فى شبه ندوات تلقى فيها الكلمات النافعة. وكنت محجماً عن الاشتراك معهم عازفاً عن التحدث إليهم.. ولكننى فى الليلة التالية لهذه الإذاعة وجدت أن لهؤلاء الإخوة حقاً فى أن أتحدث إليهم وأن أبثهم مافى نفسى لعلى أرفع عن قلوبهم ماأحاط بها من أسداف اليأس؛ فما كدت أدعى للكلام حتى سارعت، وقلت لهم كلاماً لاأنساه لأن معانيه كانت ممتزجة بدمى ولا زالت تجرى فى عروقى، فهى مستمدة من سنن الكون التى سجلها القرآن فصارت جزءاً من إيماننا.. تضمنت كلمتى المعانى الآتية:

أولاً : أننى حين اعتقلت هذه المرة كنت حزين القلب خلافاً لما كنت عليه فى اعتقالات ١٩٥٤.. لأن اعتقالنا هذه المرة كان أشبه بالاعتداء بالسلاح الآثم على أسير أعزل مقيد اليدين والرجلين. وهذه حال تمثل أحط معانى الخسة والنذالة؛ فهى اعتداء بلا مبرر، لايدفع إليه إلا غريزة الاستعلاء والغرور وغرائز نابعة من حقارة النفس ودناءتها.

ثانياً : إن قصة فرعون مع بنى إسرائيل لم تبرح خاطرى منذ نشب الخلاف بين الإخوان وبين جمال عبد الناصر عندما استوى على ملك مصر وصارت هذه الأنهار تجرى من تحته.. كلما خطا خطوة رأيت لها مثيلاً فى قصة فرعون.

ثالثاً : كان اعتقالنا هذه المرة بهذا الأسلوب المتعسف الغاشم خطوة فى طريق القصة ولكنها لم تكن الخطوة الأخيرة.. ولما كانت رحمة الله تسبق غضبه فقد أحسنت الظن بالحاكم وقلت لعل الله ــ من أجل إنقاذه وإنقاذ البلاد ــ يوفقه لتوبة تمحو حوبة ماارتكب من مظالم؛ ولاعجب فى ذلك فقد قال الله تعالى فى سورة البروج ﴿**إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق**﴾ فكأن الذين ألهموا التوبة ممن فتنوا المؤمنين والمؤمنات تشملهم

رحمة الله وعفوه ومغفرته.. وظللت أنتظر منه مايشعر بهذه التوبة حتى كانت الليلة الماضية.

رابعـاً: تسمعت إلى المذياع لأول مرة منذ ألقى بنا فى هذه السجون آملاً أن أسمع منه ماأتمناه له.. فكان كما يقول المثل: سكت دهراً ونطق كفراً.

خامساً: إنه قبل الذى سمعناه أمس كان على مفترق طريقين؛ طريقة التوبة وطريق التردى إلى الهاوية بالخطوة الأخيرة. وقد اختار الخطوة الأخيرة ليتم بها خطوات فرعون مع بنى إسرائيل حين قال له الملأ من قومه **﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك؟ قال: سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾** والقانون الذى سنه هذا الحاكم لنفسه واستخف قومه فأطاعوه وأصدروه وسمعناه بالمذياع أمس هو ترجمة باللغة العصرية وبالأسلوب الركيك لهذه الآية الكريمة التى سجلها القرآن الكريم على فرعون حين استبد به الغرور فختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة.

سادساً: أقسم لكم أيها الإخوة: إننى لم أشعر بسعادة وسرور منذ شملنا هذا الظلم الأخير إلا بعد أن سمعت ماسمعت فى الليلة الماضية؛ فلقد أتم الحاكم الخطوات ولم يعد أمامه إلا النهاية **﴿وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين. فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾**.

لقد أراد فرعون ــ وقد أحس بأن نواصى الشعب أصبحت فى يده ــ أن يستأصل شأفة بنى إسرائيل من الوجود؛ فأصدر قانوناً تقتل الدولة بمقتضاه كل رجالهم وتستبقى رهن الأسر النساء، ويظل هذا الشعب من بنى إسرائيل دائماً تحت سطوة قانون الإرهاب هذا حتى يفنى عن آخره.

أليس المعنى واحدا، والهدف واحدا بين ماسنه فرعون للقضاء على بنى إسرائيل، وبين ماسنه حاكمنا للقضاء على الإخوان المسلمين، واستئصال شأفتهم وإفنائهم؟!

﴿إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين. ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون﴾.

سابعاً: وأخيراً فإنى أصارحكم بشعور يغمرنى، وكأنما كشف الله حجب الغيب فرأيت هذا الحاكم على حقيقته؛ رأيته مسكيناً قضى الله عليه ــ جزاء ماشارك الله عز وجل فى كبريائه وجبروته ــ أن ينكل به فسخره للإيذاء والشر ﴿**وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى**﴾ فهو يعمل مايعمل ويظن ــ وهو سادر فى ظلمه مخدوع فى نفسه ــ أنه فعال لما يريد.. وهو فى حقيقة أمره أداة يسرت للشر؛ لأنه لم يعد يستحق عند الله ــ بعد الذى اكتسب من الإثم ــ إلا أن يضعه هذا الموضع حتى إذا أخذه لم يفلته.. لقد حددت المواعيد، ولن يستطيع هو إلا أن يدور فيما حدد له من دائرة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.. وإنى والله أيها الإخوة لأنظر إليه نظرة الرحمة والإشفاق وأتمنى لو استطاع أن يعرف حقيقة نفسه حتى يتدارك أمره.. ولكن أنى له ذلك وقد خطا الخطوة الأخيرة؟!

أما نحن.. ففى كنف الله وعنايته.. مظلومون مجردون من جميع وسائل الدفاع.. ماالذى يقلقنا؟ ماالذى يفض مضاجعنا؟ ماالذى يخيفنا؟ هل ارتكبنا جرماً؟ هل اقترفنا ظلماً؟ هل اجترحنا إثماً؟ هل باشرنا اعتداءً؟

مادمنا نشعر بأننا برءاء من ذلك كله فلنهنأ بالاً، ولنقرعيناً، ولنطمئن قلباً.. هل يؤلمنا أننا مظلومون؟ إذن فلتبكوا على الظالمين ﴿**فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾.

وإذا كنا نخاف على أبنائنا وأهلينا؛ فلسنا رازقى أنفسنا حتى نرزقهم، ولسنا كالئى شئوننا حتى نكلأهم ﴿**قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون**﴾ ﴿**إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين**﴾ ﴿**قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم**﴾.

إننى أيها الإخوة أصبحت أنعم بشعور فياض من السعادة والاستبشار؛ فالظلم هذه المرة بينّ وكله فى جانب، والبراءة البيضاء البيّنة كلها فى الجانب الآخر، وليس بينهما اختلاط ولا تداخل ولقد بلغ الظلم منتهاه بما سمعنا بالأمس. وسنة الله لاتتخلف.. فاصبروا أيها الإخوة وكونوا على بينة من أمركم وانتظروا وعد الله الذى لايتخلف وترقبوا الخير وتجلدوا ﴿ **اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون**﴾.

شعرت بعد إلقائى هذه الكلمة براحة ضمير؛ كأنما هى أمانة كانت فى عنقى أديتها إلى أصحابها.. ولاحظت ولله الحمد من قبل ومن بعد أن قلوب إخوانى قد استراحت كأنها ألقت عن نفسها أحمالاً ثقالاً من الهموم. وساد العنبر جو من الراحة النفسية والاطمئنان؛ فقد استردوا الثقة فى أنفسهم بعد أن ازدادوا ثقة فى الله ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم**

طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ وما أبلغ الكلام وأعمقه تأثيراً فى النفس إذا ماكان شعوراً صادقاً يبث، وأحاسيس يضطرم بها القلب، ويجيش بها الصدر.

هل هى إشاعة؟:

وقبل أن نبلغ بالكلام فى موضوع هذا القانون إلى نهايته، ينبغى أن أسجل قالة سرت بين الإخوان عند مقدمنا إلى سجن مزرعة طره، وتناقلتها الألسنة، ولكننى كنت أحملها على محمل الإشاعة التى تختلق من عدم، ثم تثار فتسرى. إلا أننى حين سمعت نصوص هذا القانون أيقنت أنها لم تكن كما ظننت إشاعة وإنما هى خبر أصيل تسرب إلينا وإن كنت لأدرى كيف تسرب.. وكانت هذه القالة هى أن الحكومة فى هذه المرة قررت اعتقال جميع من كانت له صلة فى يوم من الأيام بالإخوان، حتى إنها اعتقلت الباقورى وعبد العزيز كامل فى هذا السجن أياماً قبل مجيئنا إليه.

ولست أدرى حتى هذه اللحظة هل اعتقل الباقورى وعبد العزيز كامل اللذان خصوهما بالذكر أم لا. ولكن الذى أعلمه ورأيته بعينى أنهم جمعوا فى هذه المرة كل من وصل إلى علمهم أنه كان من الإخوان فى يوم من الأيام. وكنت فى دهشة من هذا التصرف الذى حملته على النزق..

ولكن بعد أن سمعت نصوص هذا القانون فهمت أنه لم يكن نزقاً من الطغمة الحاكمة بل كان ترتيباً منطقياً متمشياً مع ماأعدوه من خطة وتدبير. فالمادة الأولى من القانون تبدأ بهذا النص:

«لرئيس الجمهورية أن يستخدم الحق المخول له بمقتضى المادة الأولى من القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ المشار إليه **بالنسبة إلى أى شخص من الأشخاص الذين سبق لسلطات الضبط والتحقيق ضبطهم أو التحفظ عليهم**، وذلك فى جرائم التآمر ضد أمن الدولة والجرائم المرتبطة بها والتى تم اكتشافها فى الفترة مابين مايو ١٩٦٥ وآخر سبتمبر ١٩٦٥».

وإذن فيجب أن يسبق هذا القانون ضبط لأكبر عدد ممكن من هذه الفئة حتى يستطيع رئيس الجمهورية أن يستعمل حقه القانونى معهم، الحق الذى لايخضع لقانون ولا يحده دستور ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.. وهذا لعمرى إجراء لايقدم عليه إلا إنسان اتخذ إلهه هواه، والحاكم إذا اتخذ إلهه هواه جره ذلك إلى أن يجعل من نفسه إلهاً.

فى شهر رمضان

أقبل علينا شهر رمضان ونحن فى سجن مزرعه طره، ويبدو أنهم أرادوا أن يشعرونا

بأنهم يقدرون هذا الشهر . ولما كانوا حريصين على أن لايدخلوا على الطعام تحسيناً فى النوع أو فى الكم أو فى الطهى ؛ فقد رأوا أن يجعلوا ميزة الشهر فى أن يفتتحوا فى السجن « كنتيناً » ويسمحوا لنا بالشراء منه .

ومع أن الظروف كانت لاتسمح لنا بالاستمتاع بهذا الكنتين فإننا هششنا لنبأ افتتاحه . أما هذه الظروف فكان منها مايتصل بالكنتين نفسه فإنه لم يكن مسموحاً للعاملين فيه بأن يحضروا فيه إلا بضاعة معينة . وأما مايتصل بنا نحن النزلاء فجيوبنا كانت خاوية ، ولم يكن مسموحاً حتى ذلك الوقت بالكتابة لأهلينا حتى يرسلوا إلينا نقوداً ..

كان الذين معهم بعض النقود فى العنبر عدداً قليلاً ، ومع كل منهم النزر اليسير وكنت من هذا العدد ــ وكانت إدارة العنبر ــ الإدارة الداخلية من الإخوان ــ قد قسمت الإخوان فيه إلى مجموعات كل مجموعةٍ تضم أربعة أو خمسة . ويوزع الطعام على هذه المجموعات ، وتقوم كل مجموعة بالأكل معاً ، وتتكفل بتنظيف الأطباق الخاصة بها وما إلى ذلك .

إلى المترفين والمتبطرين :

كان الطعام خشناً ورديئا وقليلاً كما قدمت من قبل ، ولم يحاولوا أن يقللوا من رداءته ولا أن يزيدوا من كميته ولا أن يغيروا من أنواعه . وجاء الشهر المبارك وافتتحوا الكنتين وجاءوا فيه بالبرتقال ، وقرروا بيعه بالثمن الذى أرادوا . ولم نكن نعترض على الثمن ولكن الذى بأيدينا من النقود قليل ، وأكثر المجموعات فى العنبر خاوية الوفاض من النقود ؛ فكانت المجموعة التى مع أفراد منها نقود لاتستطيع أن تشترى إلا ثمرة واحدة من البرتقال أو ثمرتين ؛ وعليها أن تقسم ماحصلت عليه على نفسها وعلى من حولها من الإخوان ؛ ومع ذلك فإن مجموعات من العنبر لايصل إليها شىء .. ولم يكن امتلاك النقود دليلاً على أن الذى يمتلك أثرى من أخيه الذى لايمتلك ، وإنما امتلك الذى يمتلك لأنه تصادف حين ألقى القبض عليه أن كان فى جيبه نقود ، فى حين أن أخاه لم يكن حين القبض عليه فى جيبه نقود .

ونظراً لشدة خشونة الطعام وخلوه من الطعم أراد الإخوان أن يبتكروا شيئاً يخففون به من هذه الخشونة ولو كان هذا عن طريق الإيحاء والإيهام .. تمنوا أن لو كان لديهم طماطم أو أى نوع من الخضرة ليصنعوا منه « سلاطة » .. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن من سبيل إلى الوصول إليه .. وانتهى تفكير بعضهم إلى هذه البرتقالة .. إن الذى يؤكل منها هو مابداخل قشرتها ، أما القشرة فيلقى بها بعيداً .. ولكن هنا يجب أن ننتفع بكل شىء .. إن هذا القشر يصلح أن تصنع منه : « السلاطة » .

ومن أول يوم حصلنا فيه من الكانتين على البرتقال قام الإخوان بإعداد السلاطة من قشر البرتقال أما كيف يصنعون هذه السلاطة؟ فشيء فى غاية البساطة؛ يقطعون القشر قطعاً صغيرة ثم يخلطونها بقليل من الملح.. أما لماذا لايخلطونها بأشياء أخرى؟ فلأنهم لايملكون إلا هذا.

وفى يوم من أيام الشهر المبارك، وكنا قبيل أذان المغرب، وكنا جالسين ننتظر الأذان وكان أحد إخوان مجموعتنا ينزع القشر عن جزء من البرتقالة التى نملكها، ونزع قطعتين من القشر فعلاً، وأخذ فى تقطيع القطعة الأولى.. أقبل فى هذه اللحظة أخ كريم من مجموعة أخرى ــ وكان هذا الأخ مهندساً كبيراً فى أحد مصانع الإسكندرية وإن كنت الآن قد أنسيت أسمه ــ وطلب من الأخ الذى كان يصنع السلاطة لنا القطعة الأخرى من القشرة التى لم تقطّع بعد.. ويبدو أن صاحبنا الذى بيده القشرة رفض إجابة طلبه قائلاً إننا محتاجون إليها.. هنا التفت إلىّ الأخ المهندس فرأيت الدموع تترقرق فى عينيه وقفل راجعاً إلى مجموعته فناديته وأعطيته قطعة القشر التى طلبها.. فإذا بالفرح يتهلل فى وجهه، وذهب إلى مجموعته فتلقت منه قطعة القشر وكأنها قطعة من الشواء الشهى.

عيد النصر

كانت الليلة الثانية أو المرة الثانية التى شنفوا آذاننا فيها بصوت المذياع هى ليلة ٢٦ ديسمبر التى تسمى عيد النصر. سمعنا الحاكم يتكلم فى عيد النصر. ويبدو أنه نسى المناسبة التى دعى للحديث عنها فقد قصر كلامه على الحديث عن الإخوان وأخذ يكيل لهم التهم ويصب عليهم الشتائم واللعنات كما أخذ فى الاستهزاء بمرشدهم.. وكرر نظريته التى يحاول بها التملص من المسئولية عما انحدر إليه الشعب من انحلال خلقى؛ فيقول إن مسئولية هذا الانحلال تقع على كاهل رب الأسرة والحكومة غير مسئولة عن ذلك وغير مطالبة بالتدخل لوضع حد له ــ يقول هذا وهو يعلم أن الحكومة ضالعة فى إفساد الشعب والأسرة والفرد بما تطلقه عليهم فى مسارحها وسينماتها وصحفها وإذاعتها من تيارات الإلحاد والفسق والفجور.

وأخذ يكرر ماسمعنا سماعه من أن المرشد العام الأستاذ الهضيبى الذى طالب بحجاب المرأة. ابنته تعمل أستاذة فى معهد التربية، وأخذ يشنع على الرجل المحتجز وراء القضبان بذلك وهو يعلم أن ابنة المرشد العام تعمل أستاذة فى معهد التربية وهى متحجبة الحجاب الإسلامى. وأن الحجاب الإسلامى لايمنع المرأة من أن تتعلم وتعلم، وأن تباشر الأعمال التى تناسبها موفورة الكرامة.

كانت كلمته فى تلك الليلة تحاملاً على الإخوان، وتملصاً من المسئولية عن الفساد الذى استشرى فى الشعب وقد ذكرتنى كلمته هذه بالمثل العربى الذى يقول «رمتنى بدائها وانسلت».

الإفراج:

لم يكن الإخوان فى عنبرنا مشغولين بما كانوا مشغولين به من قبل من التعلق بالإفراج والتفكير فيه، بل كانوا ينعمون باستقرار واطمئنان.. ولكن الذى كان يشغلنى ويشغل مجموعة من الإخوان معى تصديق الرؤيا؛ لاتوقاً إلى الإفراج ولكن لأن فى تصديق الرؤيا تثبيتاً للإيمان فى قلوبنا، وبرهاناً جديداً على استئثاره سبحانه وحده بعلم الغيب ﴿**لايظهر على غيبه أحداً؛ إلاَّ مَنْ ارتضى من رسول فإنه يَسْلُك مِنْ بَيْن يديه ومن خَلْفِه رَصَداً**﴾.

لاأنكر أننى شخصياً قد تولانى كثير من القلق فأنا بشر ولم تكن هناك دلائل ولا قرائن ولا علامات ولا إشارات أن سيكون إفراج قريب.. بل إن إذاعة كلمة رئيس الجمهورية علينا فى ليلة ٢٦ ديسمبر قد باعدت بين تفكير كل إنسان وبين الأمل فى إفراج.. ولم يكن هذا القلق عدم ثقة فى وعد الله، ولكن البشرية تفتقر دائماً إلى ما يشبه علاقة بين المادة والروح لتبث الاطمئنان فى قلبها؛ كما كان من شأن أبينا إبراهيم عليه السلام حين قال ﴿**رب أرنى كيف تحيى الموتى**﴾ ﴿**قال أولم تؤمن؟**﴾ ﴿**قال بلى ولكن ليطمئن قلبى**﴾ ﴿**قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم**﴾.

ولا أنسى فى تلك الليلة أن الأخ الكريم الأستاذ محمود إبراهيم وكان جارى فى العنبر، كان بين الفينة والفينة يعيد علىّ هذا السؤال:

هل أنت متأكد من المعلومات التى أخبرتنا عنها فى هذه الرؤيا؟

فأقول له: نعم.. فيبتسم وكأنه يريد أن يقول لى: ولكن الظروف التى نعيشها لاتوحى بشىء من ذلك.

وانبلج الصباح.. وما كادت تشرق الشمس حتى سمعنا مكبراً للصوت ينادى على أسماء ويصمت فترة ثم ينادى على عدد آخر من الأسماء.. وهكذا حتى سمعنا أسماءنا ينادى عليها. وفتح باب العنبر، وجاء من يقول لنا: حضروا أمتعتكم فإنه الإفراج.

إيمان باللمس:

حين جاء بشير الإفراج حمدت الله أعظم الحمد لاعلى الإفراج فى ذاته ــ فقد كان

شوقى إلى إتمام استعادة حفظ مابقى من القرآن يجعل بقائى فى السجن أحب إلىّ من الخروج منه — بل على مامنحنى الله عز وجل من برهان جديد على الإيمان بوجوده، وعلى الثقة بإحاطة علمه، وعلى قدرته على إتمام مشيئته. وقد سميت هذا النوع من الإيمان بالإيمان باللمس؛ لأنه جل شأنه قرّب الإيمان الذى هو روح منه إلى عقولنا وقلوبنا بما يشبه المزج بين روحانيته تعالى وماديتنا؛ فالأرقام والمواعيد مادة، وإحاطته جل شأنه بالغيب روح ﴿**ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون**﴾ ﴿**ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم. صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور**﴾.

أشهد أننى خرجت من هذه المحنة بكسبين لا يعدلهما كسب كسبته فى حياتى، ولا أعتقد أن يعدلهما كسب أكسبه ماحييت؛ ذانكم هما حفظ مااستعدت حفظه من القرآن، وتجديد إيمانى بالله عز وجل إيماناً باللمس.. والإيمان باللمس لايزعزعه مايزعزع الجبال، ولا تنال منه المصائب والأهوال. وأحمد الله على ماأكرم به وأسأله الثبات عليه والمزيد منه حتى ألقاه عليه إنه على مايشاء قدير وهو بعباده خبير بصير.

* * *

الباب الثامن عشر

بعد الإفراج

الفصل الأول : حالة المجتمع المصرى وقتئذ

الفصل الثانى : إن الرواية لم تتم فصولا

الفصل الثالث : اليوم الموعود.. جاء مبكراً

الفصل الأول

حالة المجتمع المصرى وقتئذ

خرجنا إلى مايسمونه الإفراج. فلما جربناه تمنينا أن لو عدنا إلى السجن؛ فهو أهنأ بالاً من هذا الإفراج الذى قصد منه إفراغ أماكن فى السجون لاستقبال أفواج أخرى ثم اعتبار المساكن التى يسكنها المفرج عنهم سجوناً، ومقار أعمالهم سجوناً، والشوارع التى يمشون فيها سجوناً؛ فأينما كنت ترى من يتبعك، وحيثما استقر بك القرار تجد من يطرق الباب عليك ويجرى معك تحقيقاً. وإذا زارك زائر استدعيت للمثول بين يدى ضابط المباحث للاستفسار منك عن أسباب الزيارة وعما دار فيها.. ثم يقدم إليك نصيحة فى صورة إنذار أو إنذاراً فى صورة نصيحة أن لاتستقبل زواراً.

وأنت حين كنت بين جدران سجن من السجون فأنت آمن أن تؤخذ بجريرة لم تجنها، لأنك فى مكان مغلق؛ أما فى حالة الإفراج المدعاة فإنك معرض أن تؤخذ بجرائر لم ترتكبها، وبتصرفات لم تصدر منك، ولكن المكلفين بمتابعتك قد يحلو لبعضهم أن يخترع قصة من محض خياله ينسبها إليك أملاً فى أن ينال عند سيده الضابط حظوة، ولا يبالى مايصيبك ويصيب أهلك من جرائها من قلق وعنت وإهانة.

وقد تقابل صديقاً عزيزاً عليك أثيراً عندك وأنت مشتاق إليه؛ فتحاول أن تتفادى اللقاء به وأنت فى شوق إليه؛ وقد يلاحظ ذلك فيسيء بك الظن وهو لايعلم أنك تفعل ذلك خشية أن يكون لقاؤك به سبباً فى إثارة المتاعب له— وقد تلتقى بمثل هذا الصديق مصادفة وجهاً لوجه فلا تملك إلا أن تصافحه وتعانقه وتتحدث معه، ثم يطالبك فى نهاية الحديث بزيارة له فى منزله، فعتذر بأعذار تلفقها، فيعدك هو بزيارة منه، فيسقط فى يدك.. فإذا استطعت أن تجمع كل ماتملك من شجاعة رأيت نفسك توجه إليه النصح بأن لايفعل.. والله وحده يعلم وقع هذه النصيحة فى نفسه، وعلى أى محمل حملها.. وهكذا تجد نفسك محاصراً حيثما كنت ولا تضمن فى كل مرة أن يكون محاصروك ممن لايزالون يحتفظون ببقية من ضمير.

أذكر بهذه المناسبة واقعة حدثت لى؛ وإن كانت قد وقعت بعد انتهاء عام ١٩٧٠ حين أتيح للناس أن تتكلم.. كنت فى انتظار الترام صباحاً للذهاب إلى مقر عملى، فوجدت أخاً عزيزاً لى على محطة الترام، وكان هذا الأخ قد قدم حديثاً من بلد عربى غاب فيه بضع سنوات فكنت مشوقاً إليه، فأقبلت عليه مصافحاً ومعانقاً.. وماكدت أبدأ حديث الشوق إليه حتى قدم الترام الذى كان فى انتظاره فاستأذن منى واستقله. ووقفت أنتظر ترامى متمنياً أن لو كان ترامه تأخر حتى أروى غلة الشوق من لقائه الذى لم يستمر إلا دقيقتين.

وفى مساء اليوم التالى استدعيت لمقابلة ضابط المباحث الذى بدأ حديثه بتوجيه هذا السؤال إلىّ: هل قابلت بالأمس صباحاً السيد (فلان) وقرأ لى اسمه من ورقه بيده اسماً رباعياً أى اسمه واسم أبيه واسم جده واسم والد جده ــ ثم قال: واستمرت المقابلة بينكما ساعتين؟

فأجبته: نعم قابلته.. ولكن المقابلة لم تستمر إلا دقيقتين، وكنت أتمنى لو طالت إلى أكثر من ذلك.

ثم قلت له: من الذى جاءك بنبأ هذه المقابلة.
قال: هو أحد رجالنا المكلفين بمراقبتكم. قلت: إذن فلتسمح لى بمواجهته؟
قال: لماذا؟ قلت: لأننى مصمم أن أصفعه لأنه مجرم وكذاب..
فلما رآنى مغضباً قال: لاداعى لكل هذا. قلت: إن صفع مثل هذا الكذاب قد يكون رادعاً له وقد يكون عبرة لغيره.. ثم قلت للضابط: إذا كنتم تستقون أخبار الناس من أمثال هذا الكذاب المختلق الذى لاضمير له فيكف تستقيم الأمور؟! قال: لاتهتم بالأمر إلى هذا الحد.

قلت: كيف لاأهتم وأنت قد بلغ من اهتمامك بهذا التقرير أنك استدعيتنى، ثم إنك تقرأه لى كأنه مستند خطير تعتز به؛ فتقرأ اسم الصديق الذى قابلته اسماً رباعياً، أنا شخصياً والله لاأعرف كل أجداده كما تعرفون.. وكنا إذ ذاك فى أوائل عهد جديد بعد العهد الذى طال ظلامه.. فما كان من الضابط الفاضل وأقول الفاضل ــ لأنه رجع إلى الحق،والرجوع إلى الحق فضيلة ــ إلا أن اعتذر لى ووعدنى بأن لايتكرر هذا الازعاج.

السجل أو الدليل وما يرمز إليه:

كنت قد تحدثت ــ كما قدمت ــ إلى إخوانى فى العنبر بسجن مزرعة طره عقب صدور القانون الذى أسمعونا موافقة مجلس الأمة عليه ــ حديثاً مستفيضاً أثبت لهم فيه أن هذا الحاكم قد استكمل بهذا القانون آخر حلقات القهر والجبروت التى أحكم بها سلسلة

الغل حول أعناقنا ليطبق على هذه الأعناق فى أى لحظة يشاء فتفارق الحياة.. وقلت إننى بذلك أتربص به ماحل بفرعون.. قلت ذلك ولم أكن أعلم بأن هذا الشعور نفسه كان هو شعور السيد كمال الدين حسين حتى إنه أطلق على هذا القانون «قانون فرعون» ولم أعلم بهذه التسمية إلا من كتاب «الموتى يتكلمون» للأستاذ سامى جوهر الذى أشرت إليه من قبل والذى صدر فى عام ١٩٧٧.

وقد استلزمت المادة الأولى من هذا القانون لتنفيذها إعداد سجل أو دليل يثبت فيه أسماء كل الذين تناولهم الاعتقال عام ١٩٦٥ حتى ولو كان الاعتقال ليوم واحد.. مع بيانات مستفيضة عن كل معتقل. ولم يكتفوا بالبيانات التى تطلبّ من أى مواطن حتى فى أخطر الظروف بل تعدوها إلى بيانات لاتخطر على البال، وقد لايعرف الغرض من ورائها إلا من درس هؤلاء القوم وألم بأهدافهم ومراميهم.

وكان معنى هذا أنه قد استقر فى خاطرهم أننا نحن الإخوان المسلمين قد أحيط بنا، وقد وضعنا فى أيديهم، ولم يعد لنا من مفر إلا لهم، ولا من مهرب إلا إليهم.. واعتبروا ذلك حقيقة مادية تمخضت عنها جهودهم طيلة اثنى عشر عاماً؛ فلما وصلوا إلى هذه الحقيقة المادية اطمأنت قلوبهم، وأمنوا بذلك صروف الزمان، وما كان لهم بعد ذلك إلا أن يرتقوا فى الأسباب..وما كان علينا نحن إلا أن ننتظر ألوان الكوارث وأسباب الفناء..

الحال التى آل إليها المجتمع :

ولا ينبغى أن نخدع الناس ونخدع أنفسنا فندعى أن اليأس لم يحوّم على قلوبنا.. فالإخوان صاروا فى ذلك الوقت بين غائب وراء أسوار السجون، وبين حاضر محاصر يشتهى أن يلحق بإخوانه الغائبين، والكل بأهله وأقاربه وذويه فى سجل حافل بين يدى الجلادين-الذين لايرحمون.. الأنفاس تعد، والنظرات ترصد، والكلمات يحاسب عليها.. ويوم يرى إله الجلادين أن اجمعوا جمعت هذه الألوف المثبتة فى السجل فى أقل من ساعة.. وله حينئذ أن يلصق بهم من التهم مايشاء، وأن يحكم عليهم بما يشاء ولا معقب لحكمه.. لم يعد فى البلاد من يستطيع أن يرفع رأسه أو أن ينبس ببنت شفة إلا أن يكون مادحاً أو منافقاً.

حالة يعذر من يغلبه اليأس فيها. وأقسم لقد كنت أجلس إلى نفسى فأتمنى أن أغيب مع إخوانى وراء الأسوار؛ لأن الله تعالى وإن ابتلاهم بالسجن فقد أعفاهم من كثير مما لو رأوه وشاهدوه لتفطرت نفوسهم حزناً وأسى.. فمرافق البلاد تحولت إلى الصورة التالية:

المدارس: لم تعد المدارس هى تلك الأماكن التى يتلقى فيها أبناؤنا أصول التربية ومكارم الأخلاق. فالقدوة انعدمت؛ لأن المدرس رأى بعينيه أن أهل الدين والفضيلة

يداسون بالنعال؛ فكيف يتمسك بما لو تمسك به لوضع فى نفس الموضع، ورأى بعينيه أن أهل النفاق والمتزلفين هم الذين يرفعون إلى أعلى المناصب. فصار همه أن يبحث عن وسائل الزلفى ليتقرب.

ومن هذا الطريق تسربت إلى مناهج الدراسة أشياء مسخت عقول التلاميذ ونفوسهم.. امتدت يد الزيف إلى التاريخ الوطنى فحقرت من شأن كل ذى شأن لتظهر أن الفترة الوحيدة المشرقة فى تاريخ البلاد هى الفترة التى سعدت البلاد فيها بأعظم رجل فى التاريخ.. حتى اللغات التى اعتاد واضعو مناهجها أن يتخيروا النصوص ومواضيع القراءة لها من أبلغ التراث العربى لفصحاء العرب؛ مسخوها فاتخذوا خطب الحاكم وبياناته — وهو أمى من الناحية اللغوية — نصوصاً ومواضيع للقراءة.. فنشأ الشباب معوج اللسان سوقى العبارة، ضعيف الأسلوب.. وسرى هذا المسخ إلى الصحف وإلى الكتب.. ولم ينج من هذا الطوفان الغث من الكتاب إلا القليل الذى اعتصم بكتاب الله وحديث الرسول وروائع المراجع الأدبية.

ونشأ الشباب غير ذى عهد بقيم؛ فرأيناه يملأ الشوارع يلعب بالكرة لايبالى من أصابته الكرة من المشاة رجالاً ونساءً، ورأينا الطلبة يضربون مدرسيهم، ويضربون آباءهم، ويتبادلون الشتائم على قارعة الطرق بألفاظ نابية.. ورأينا الشباب يطاردون الفتيات، والفتيات كاسيات عاريات. قلما تجد من يحترم كبيراً أو يعين عاجزاً.. كل همهم المظهر حتى لم تعد تميز الولد من البنت.

وسائل الإعلام:

لاعمل لها إلا أمران: إطراء الحاكم بنسبة كل المحاسن إليه، وإلقاء المساوىء جميعاً على من سواه — ونفث السموم فى عقول الشباب من فتيان وفتيات بما تعرض من مقالة وتمثيلية وفيلم وأغنية.. فمن نجا من مسخ المدارس لأفكاره ونفسيته لم ينج من وسائل الإعلام التى تلاحقه حيثما كان.

المجتمعات:

أما المجتمعات التى لابد لكل فرد أن يساهم فيها؛ كالأعمال فى دور الحكومة والمصانع والشركات والنوادى والمقاهى والجمعيات والنقابات ودور العلاج وغيرها؛ فإن الناس أصبحوا لايأمن أحدهم على نفسه إذا هو تكلم أن يجد نفسه فى مكان سحيق حيث لايصل إليه قريب ولا صديق.. لأن الحاكم قد بث فى كل مجتمع مهما صغر أو كبر أذناً من آذانه، لاتنقل إليه جرائم المجرمين بل تنقل إليه كلام أصحاب الفكر على أنه اعتداء عليه ومؤامرة تعد للإطاحة به.

أذكر بهذه المناسبة أن أحد الإخوان بالإسكندرية تعود فى خلال تلك الحقبة أن يؤدى صلاة المغرب فى زاوية صغيرة بجانب منزله ثم يلقى درساً بين المغرب والعشاء. وفى أحد هذه الدروس تكلم عن عدالة عمر بن الخطاب.. وفى اليوم التالى جاءه استدعاء لمقابلة ضابط المباحث الذى سأله: هل ألقيت درساً أمس فى زاوية كذا؟ قال: نعم. قال: ماذا كان موضوعه؟ قال: كان موضوعه عدالة عمر بن الخطاب. قال الضابط: إذن فتقرير المخبر فى محله.. أنا أنذرك هذه المرة وبعدها أنا غير مسئول عما يحدث لك. قال الأخ: ولم هذا الإنذار؟ قال الضابط: ألا تعلم أن حديثك عن عدالة عمر بن الخطاب معناه أنك تشير بذلك إلى ظلم جمال عبد الناصر؟

يقول لى الأخ وهو يروى لى هذه القصة: فضحكت فى نفسى وتذكرت حكاية العسكرى الذى سمع رجلاً يسب الحكومة (الكذا) فأمسك به وقال له: أنت تسب حكومتنا. قال الرجل: وما أدراك أننى أسب حكومتنا؟ قال العسكرى: وهل هناك حكومة (كذا) إلا حكومتنا.. وقد جاءنى هذا الأخ عقب مساءلته فى ذلك الوقت فعجبت لهذه الحساسية.

وكان أعوان الحاكم يندبون شباباً غضاً للقيام بهذه المهمة فى مختلف المجتمعات. ولما كان هذا الشباب قد نشأ فى جو خال من القيم فإنه كان يسارع إلى الاستجابة ويرى فى ذلك شرفاً، ويظنه - كما علموه - جهاداً ووطنية.. وأذكر أن شاباً يافعاً جاء فى تلك الحقبة يزور أصدقاء له وزملاء فى مقر العمل الذى كنت فيه. فلما جلس إليهم وأخذ يتحدث صارحهم متفاخراً أنه إذا سمع أحداً منهم يذكر الحكومة بسوء أو ينقد عملاً من أعمالها فإنه سيرفع إلى الجهات المسئولة تقريراً بذلك. فقال له بعضهم: ألا ترى فى مثل هذا العمل خيانة لزملائك ونذالة؟ قال: لا.. هذه هى الوطنية.. فما كان منهم إلا أن أمسكوا عن الكلام حتى غادرهم.

وأذكر أن كان لى صديق رئيساً لشركة من الشركات الكبيرة، وكنت فى زيارته فى تلك الأيام، فدخل عليه شاب صغير من موظفى الشركة فرأيته قد أولاه من الاهتمام، وحباه بألوان من الاحترام، مما لايتناسب مع سنة ولا مع وظيفته - وكان صديقى هذا مشهورا بجده فى عمله وبأنه لايبالى بمن يتعامل معه من موظفى شركته مهما علت وظيفته فهو رئيس والكل مرءوس.. فلفت نظرى هذا التصرف الغريب منه مع هذا الموظف الصغير.. وقد عزمت على أن أسأله فى ذلك بعد خروج الشاب.. ولكنه كان أسرع منى؛ فما كاد الشاب يخرج حتى قرب من أذنى وقال لى: لعلك استغربت ماكان من مبالغتى فى الاحترام لهذا الشاب؟! فقلت له: لقد سبقتنى فقد كنت عازماً على سؤالك فى هذا الشأن. قال: لاأستطيع أن أفعل إلا مافعلت.. ألا تعلم أن هذا الشاب يستطيع بتقرير يكتبه عنى أن

أفصل من وظيفتي؟! إنهما شابان فى شركتنا اختيرا ليكونا عينا علينا .. لم أعد استطيع أن أقطع فى أمر من أمور الشركة إلا بعد أن أرجع إليهما؛ فإن أقراه أمضيته وإن رفضاه ألغيته.

قلت: وهل هما من سعة العلم وطول التجربة بحيث يستطيعان أن يعرفا النافع من الضار فى كل أمر من أمور الشركة؟ قال: لا. قلت: إذن فقد يكون رأيهما فى كثير من الأحيان خاطئاً. قال: نعم. قلت: وتمضى مع ذلك مايريان؟ قال: نعم. قلت: وقد يودى ذلك بمصالح الشركة. قال: نعم ولكن هكذا أرادت الحكومة.

وقد يلحق بهذا الذى سقناه لبيان ماآلت إليه حال المجتمعات أن أذكر واقعة تتصل بى شخصياً ففى يوم من أيام تلك الحقبة كنت فى منزلى فطرق الباب طارق ففتحت فرأيت شخصاً أمامى لاأعرفه فقال: سيادتك (فلان)؟ قلت: نعم. قال: معى موضوع أحب أن أعرضه عليك فهل تسمح لى بالدخول؟ فأذنت ــ قال: إننى من رجال المخابرات، وقد بلغنا أنك من أهل الرأى فى أوساط الإخوان ونحب أن نتبادل معك الرأى، أستغفر الله لابل أن نسألك الرأى فى بعض الأمور التى تهم الدولة فهل لديك مايمنع؟ قلت: إذا كانت الأسئلة تتعلق بالإخوان فليس عندى ماأجيب به لأننى منقطع عن الإخوان ولا أعرف عنهم شيئاً. قال: لا .. إننا نريد رأيك فى أمور أخرى. قلت: أجيبكم إذن على ماأعرف .

وتكرر ترددهم، وما كان فى وسعى أن أعرض عنهم، ولكننى سألت الله تعالى أن يعيننى عليهم، وأن يخلصنى من شرهم.. وسألوا عن رأيى فى الأعمال الحكومية التى نباشرها وعن العيوب التى أراها فيها. فأجبتهم وأبرزت لهم عيوباً ملموسة زعموا أنهم سيعملون على إصلاحها..

وكان مما سألونى فى شأنه وأظهروا اهتماماً كبيراً به موضوع الطرق الصوفية وهل من الصالح للدولة إلغاؤها وقالوا إن الدولة الآن فى سبيل إلغائها؛ فإن كنت ترى رأياً آخر فادعمه بالحجج واكتبه لنا.

وقد رأيتنى بصدد هذا السؤال فى حرج؛ فأنا أعلم أن أكثر الطرق الصوفية الآن ليست على الصورة التى كانت عليها فى صدر الإسلام، وأنها فى أمس الحاجة إلى من يردها إلى الطريق السوى، وأن المآخذ عليها كثيرة، وأن من المسلمين من يراها جديرة أن تحارب .. كل هذا علمته، ولكننى رأيت هذه الحكومة قد قضت على كل مايمت إلى الإسلام بصلة؛ حتى صار النشء الجديد تائها وسط بحر مائج من الترهات والأكاذيب الملبسة ثياب المبادىء والقيم وكلها تؤدى إلى الانحلال الخلقى والإلحاد، ولا يجد هذا النشء من يأخذ بيده إلى طريق أسلم ومبادىء أقوم. وأحسست بأن وراء الخطوة المعدة لإلغاء الطرق الصوفية قوة لاتبغى الإصلاح كما تتعمد أن تبدو، بل هى قوة ملحدة .. بعد أن قضت على القوة العاملة بلب الإسلام أرادت أن تمحو كل أثر إسلامى؛ فلم يبق أمامها إلا المتزين

بمظاهر الإسلام المتشبثين منه بالقشور.

فقلت قد يكون فى الإبقاء على هذه المظاهر والقشور مايذكر الناس بالإسلام وسط هذا الليل الحالك البهيم المخيم على البلاد.. فكتبت لهم عن الصوفية وتاريخها ماجعلهم يعدلون عن قرار إلغائها.

* * *

الفصل الثانى

إن الرواية لم تتم فصولا

خرجنا من المعتقل وكنت شخصياً فى حال من أسمى مراتب الروحانية، وإن كنت ـ جسماً ـ قد نقص وزنى سبع كيلوجرامات حتى لم تعد كل ملابسى تصلح لى. ولكننى لبستها غير مبال بشيء فقد كنت فى الحال التى قال فيها رسول الله ﷺ لصاحبه «قد عرفت فالزم»؛ فلقد آمنت بالله إيماناً باللمس واطمأننت إلى وعد الله الذى سجله فى كتابه حين قال ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ وحين قال ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون﴾ وحين قال ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون﴾)

كنت موقنا أن النهاية آتية لاريب فيها. ولكن كيف تأتى ومتى تأتى؟ فهذا مااستأثر به علم الله. ويبدو أن نهاية الظالم لاتأتى إلا بعد أن يصل إلى الغايات.. فما دام يرى على وجه الأرض من أعدائه ومنافسيه من لايزال فيه بقية من عرق ينبض؛ فإنه يعتقد أن سلطانه الذى يريد أن يبسطه على كل شيء لايزال مهدداً.. فعليه إذن أن يقطع هذا العرق النابض لتكتمل له أسباب السلطان، ولينعم بسلطة لم ينعم بمثلها أحد سبقه فى حكم مصر..

المحاكمات :

وبوحى من الحساسية التى سيطرت على أعصابه، والتى وصلت به وبمن حوله إلى الحد الذى صورته الآية الكريمة ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ أخذ يجمع من خيالات الوهم المحيط به خيوطاً تكفى لنسج مؤامرة جديدة للإطاحة به، واستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين.. كانت مهمتهم أن يوجدوا من بين منافسيه ومخالفيه فى الرأى أشخاصاً يلبسونهم ثياب المتآمرين، ويوقعون بهم من الأذى والتعذيب مايرغمهم على

الاعتراف بما أسند إليهم من أدوار فى المؤامرة .

وقد استمدت خيوط المؤامرة المتوهمة من سطور كتاب ألفه رجل من الإخوان تزخر المكتبة الإسلامية بالكثير من مؤلفاته.. ولم يفكر عهد من عهود الدولة الإسلامية أن يعتبر الآراء جريمة يعاقب عليها.. وإذا كان القرآن نفسه قد سجل حرية الرأى وقدسها حتى إذا بلغ الخلاف فى الرأى مبلغاً يتناول العقيدة نفسها قال ﴿لا إكراه فى الدين﴾ فكيف تحاكم حكومة تدعى الانتساب إلى الإسلام وتدعى بلغة العصر أنها حكومة ديمقراطية إنساناً على آراء ضمنها كتاباً وهو لا يرغم أحداً على انتحالها؟! ولكن «الملأ» كانوا يملكون الوسائل التى يحولون بها هذه الآراء إلى مؤامرة يعترف أصحاب هذه الآراء بتدبيرها.

كان صاحب هذه الآراء هو الأخ الكريم الأستاذ سيد قطب وكان كتابه بعنوان «معالم فى الطريق» وينبغى هنا أن أذكّر بأن العداء قديم بين الأستاذ سيد قطب وبين جمال عبد الناصر، منذ أنشأ هذا الأخير هيئة التحرير وطلب من الأستاذ سيد قطب أن يرعى هذه الهيئة وشاع فى ذلك الوقت أنه يرشحه وزيراً للتربية والتعليم.. فرفض الأستاذ سيد هذا العرض مؤثراً أن يبقى حيث هو وفياً لدعوته.. والأستاذ سيد قطب رحمه الله من العلماء الصرحاء الذين ينبذون إلى مخالفيهم بآرائه على سواء.

ولن أتعرض للمحاكمات التى تمت فى خلال هذه الفترة بشرح ولا تفصيل فقد أفردت لها كتب، وسالت فى التنديد بها أنهار الصحف. ولازال هذا كله قليلاً من كثير مما سيتناول هذه المحاكمات من شرح وتفصيل ــ لأن هذه المحاكمات ليست مجرد قضايا نظرت مما تزخر به ملفات المحاكم فانتهت بانتهاء وقتها، وكان إصدار الحكم فيها هو خاتمة المطاف، وإنما هى قضية التاريخ التى يصدر الحكم فيها من التاريخ نفسه لامن الذين انتحلوا فيها شخصية القضاة.. وبصدور حكم التاريخ فيها يتحدد مصير هذا البلد ومستقبله.

نعم هناك قوى ذات شأن تعمل بكل جهدها على طمس معالم هذه الفترة العصيبة من تاريخ البلاد، وتحاول بذلك مصادرة التاريخ حتى لا يصدر حكمه، ولكن هذه الجهود ذاهبة سدى لأن التاريخ أقوى من أن يصادر، وتياره أعتى من أن تعترض طريقه عقبات.. ولكن التاريخ قد يؤجل نطقه بالحكم حتى تصل الأمور إلى مداها.

إن محكمة «الدجوى» ــ التى حاكمت الأستاذ سيد قطب وزملاءه ــ وأمثالها مما سميت زوراً محاكم، ستحاكم هى نفسها أمام محكمة التاريخ، وستجر هذه «المحاكم» من كان وراءها من المجرمين الذين تواروا خلفها فى أثواب حكام؛ ويومئذ يأخذ هذا الشعب جلاديه بالنواصى والأقدام.

لقد أعدموا فى المرة الأولى سنة ١٩٥٤ ستة من أكرم الإخوان، وأعدموا فى هذه

المرة سنة ١٩٦٥ ثلاثة آخرين من أكرم الإخوان، وفعلوا ببقية الإخوان مافعلوا وهم يحسبون أنهم أضحوا بذلك فى مأمن من تقلبات الأيام، وحسبوا أنهم قد آن لهم بعد ذلك أن ينعموا بهدوء لاتقطع سكونه الفواجع، وبنوم لاتؤرقه الأحلام.

إزالة الآثار أو المحو من التاريخ:

والعجيب فى تصرفات هذا الرجل هو أنه قد حقق لنفسه من السلطان كل ماكان يحلم به؛ ومع ذلك فإنه كان يعيش فى خوف دائم لايفارقه من ليل ولا نهار.. وأبرز مظاهر خوفه أنه يتصرف كأنه متهم هارب من العدالة؛ فأول شيء يحرص عليه هو أن يحرق الأوراق التى يعتقد أن فيها دلائل اتهامه. فكل تفتيش كان رجاله يقومون به فى دور الإخوان وفى بيوتهم كانوا حريصين فيه أن لايدعوا كتاباً ولا كراساً ولا ورقة فيها كتابة إلا استولوا عليها ونقلوها إلى مقرهم وأحرقوها حتى لايبقى منها إلا الرماد.

وتجلى هذا الشعور واضحاً فيما يتصل بالأخ الكريم الأستاذ سيد قطب وكان رجلاً كاتباً وأديباً. فكان جمال عبد الناصر حريصاً قبل كل شيء على التخلص من كل ماكتبه الشهيد.. وقد أخبرنى أحد الإخوة الكرماء ــ وكن مدرساً إذ ذاك فى مدرسة بنات إعدادية ــ أنه قرأ بنفسه الأمر الصادر إلى جميع المدارس والمعاهد والجامعات بتكوين لجنة فى كل مدرسة وكل معهد وكل كليه مهمتها جمع كل ماكتب الأستاذ سيد قطب ثم حرق ماجمعته على أن تحرر محضراً بذلك موقعاً من أعضائها جميعاً. وقال لى الأخ الكريم: إن اللجنة الخاصة بمدرسته قد صدعت بالأمر. وأخبرنى أيضاً أن هذه اللجان فى المدارس الإبتدائية كانوا يجمعون كتب القراءة المقررة وفى الكتاب ورقة واحدة فيها نشيد وطنى من تأليف الأستاذ سيد فكانوا يقطعون هذه الورقة من كل كتاب ويحرقونها بمحضر.

وقد ذكرنى هذا التصرف البالغ الوقاحة والخوف معاً بقول الله تعالى فى كتابه العزيز **﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾**.

* * *

الفصل الثالث

اليوم الموعود

سيطر على الإخوان فى تلك الحقبة الكئيبة مايشبه اليأس وكادوا يظنون بالله الظنون؛ فقد رأوا الظالم يبطش بأهل الحق وبالداعين إلى الله سنة ١٩٥٤ فتربصوا به أن يصيبه الله بعذاب من عنده فلم يصبه بشيء بل زاده سعة فى الملك، وثباتاً فى الحكم، وتمكيناً فى الأرض.. فلما سولت له نفسه أن يعيد الكرة مع المثخنين الذين باتواكلهم فى أسره منذ عام ١٩٥٤ أعادها بوحشية تعافها الوحوش الكاسرة، وتأنف منها الذئاب الجائعة.. وفى الوقت الذى يطأ بنعاله جثث القتلى والجرحى ممن طوح بهم ظلمه؛ رأوه يعلو فتنحنى لجبروته رءوس الشعب، وتخطب وده — اتقاء شره — ملوك العرب؛ فيزداد علواً فى الأرض، وعتواً فى الحكم، واستهانة بالقيم.

ولقد طالما صارحنى بعض كرام الإخوة الفضلاء بما يوصف بأنه ليل لافجر له.. فالرجل لايزيد كل يوم إلا علواً، ولا يكتسب مع كل ظلم إلا تمكيناً.. فهل تبدلت كلمات الله، ونسخت سنن الخالق؟ وكنت أرد عليهم — واثقاً من سنن الله التى لاتتبدل؛ مستنداً إلى الإيمان باللمس الذى مَنَّ الله به علىّ — فأقول: إن اليوم والله لآت لاريب فيه. ولكن متى يأتى وكيف يأتى؟ فهذا ما استأثر به علم الله ولكنه أشار إليه بقوله **﴿ويخلق مالا تعلمون﴾** وبقوله **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم﴾**.. وأقول لهم: لاتظنوا أن نهاية الظالم لابد أن تأتى على أيديكم فإذا عجزتم عن ذلك كان عجزكم هو نهاية المطاف؛ فعند الله من القوى مالا يخطر على بال ولا يجول بحسبان، وتذكروا أن الله تعالى قال **﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا﴾** فإذا عجزت أيدينا فالله عز وجل يتولى الأمر بنفسه. وناهيك بأمر يتولاه الله بنفسه.. ولقد كنت مع ثقتى التامة بالعاقبة التى وعد الله بها لاأتعجل هذه العاقبة فقد تطول الأيام، ويوم التاريخ طويل؛ فكنت أقول لهم قد لانرى هذه العاقبة وقد يراها أبناؤنا ولكنها لامحالة واقعة.

جاء اليوم مبكراً:

ماكنت أحسب أن اليوم المرتقب سيأتى قريبا إلى الحد من القرب الذى جاء به.. بل

إنه جاء مفاجأة لنا وللظالم نفسه ولكل الناس؛ حتى إن الإنسان لم يكد يصدق ماسمع.. لما جاء النبأ المفاجيء المزلزل شخصت الأبصار، وسهمت الوجوه، وفغرت الأفواه.. لو قيل لك إن الهرم الأكبر قد اندك فلم يعد له أثر، أو أن جبال المقطم قد ابتلعتها الأرض لكان ذلك أقرب إلى التصديق من هذا النبأ.

إن الرجل قد أضحى فى عنفوان قوته.. ولما وجد نفسه قد أخضع العرب لسطوته؛ راح يتطاول على حكام الغرب وأساطينه ودهاقينه.. فعقد مؤتمراً صحفياً اجتمع فيه صحافيو العالم كله فى مساء يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧ وسمعنا فى الإذاعة صحفياً اسمه ستيفن هاربر محرر الديلى اكسبريس البريطانية يوجه إليه سؤالاً عجيباً يقول له فيه:

«لقد مررتم كإنسان بمرحلة ضغط كبيرة فى أثناء أزمة مشابهة تقريباً للأزمة الحالية فى خلال صيف عام ١٩٥٦ — فهل تجدون من السهولة بمكان تحمل أعبائها كإنسان أكبر سناً مما كان عليه من قبل بأحد عشر عاماً؛ أم أنكم تجدونها أصعب شأناً.. وكيف تستريحون من مشاكلكم؟» فيجيبه المارد الجبار بقوله: بالنسبة للسن أنا ماعجزتش، وأنا لسه مابلغتش الخمسين وأنا مش خرع زى المستر إيدين أبداً بأى شكل من الأشكال. يعنى لازم تفهموا هذا الكلام وطمنهم فى انجلترا إنى أنا ماكملتش الخمسين وقاعد لسه مدة طويلة موجود هنا فى هذه البلد وفى هذه المنطقة من العالم.

وأنا فى هذه الأزمة بالذات وفى هذه الأيام باصحى بدرى وصحتى كويسه. والأزمة صحتى بتبقى فيها أحسن. وبأنام وخرى، وأظن شايف إن صحتى كويسة وقادر إنى استمر فى هذه المعركة وفى معارك أخرى».

إجابة ليس لله فيها نصيب، بل كلها غرور وإعجاب بالنفس، واعتقاد صارخ بأنه القادر الفعال.. هذا الكلام سمعناه بألفاظه ومعانيه منذ أسبوع واحد بآذاننا.. فهل يعقل أن مثل هذا الرجل يقال لنا إنه محى من الوجود؛ وإنه أضحى يحمل عار الهزيمة والذل والضياع، وإنه قد سجل على نفسه وعلى أمته خزى الأبد وذل الدهر؟!

لقد ابتغى الرجل بهذه الحرب ضد إسرائيل أن يمد رواق مجده وسلطانه على مابعد أرض العرب ليرضى كبرياءه الذى يلح عليه فلا يقنعه شيء ملكه حتى يملك غيره.. فكيف تكون هذه الحرب هي قاصمة ظهره وآكلة كبده، وماحية أثره؟!

إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد

وصدق الله العظيم **﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون. إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾**.. ليس هذا وصف الظالمين يوم القيامة فحسب؛ بل هو وصفهم أيضاً يوم يأتيهم العذاب فى

الدنيا من حيث لايحتسبون، وتنزل بهم القواصم وهم منها بسلطانهم معتصمون .

لقد كان غاية مايرجوه من ذاقوا العذاب على يديه أن يهديه الله إلى الحق أو أن يقبضه إليه فيريح الناس من ظلمه .. ولكن الله وهو مطلع على ماارتكب من جرائم فى حق الناس، وعلى ماانتهك من حرماتهم؛ أبى أن يهديه لأنه قرر فى محكم كتابه أن لايهدى من رأى آياته فلم يؤمن بها **﴿إن الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله ولهم عذاب أليم﴾** والذى رأى وقرأ وسمع عن آيات الله فى كونه وفى عباده فعلم نهاية الظالمين؛ مثل هذا لايقدم على ظلم، ولا يستبيح تعذيب الناس وقتلهم .. فأنى يهديه الله إذا هو أعرض عن هذه الآيات وظلم وتمادى فى الظلم .. أليس هو الله تعالى الذى قال: **﴿والله لايهدى القوم الظالمين﴾**

كما أن الله تعالى أبى أن يقبضه إليه فيذهب رجال دولته، وسدنة عرشه، فى تمجيد أيامه كل مذهب؛ فيكون موته أشد فتنة للناس من حياته .. واقتضت حكمته تعالى وسابغ عدله أن لايقبضه إلا بعد أن يمحو تاريخه بيده،وإلا بعد أن يشهده أهله وذووه، ويشهده العالم كله وهو يسطر وثيقة الذل والهوان لنفسه ولبلده،وإلا بعد أن ينطق بلسانه أمام شعبه وأمام العالم كله أنه هو وحده الذى يحمل تبعة هذا العار والخزى والهزيمة وأنه لايستحق أن يبقى فى دست الحكم بعد ذلك ساعة من نهار .. وإلا بعد أن يمد أكف الضراعة إلى الرجل الذى طالما تهكم عليه وهاجمه لأنه أراد أن يجمع كلمة المسلمين وذلكم هو الملك فيصل بن عبد العزيز .

لقد أراد الظالم أن ينتصر بجيش هو حقاً كان جيشاً جراراً مدججاً بأحدث سلاح؛ ولكنه كان قد أخرج منه كل ذى دين وكل ذى مبدأ وكل ذى كرامة، وحال بين هؤلاء وبين أن يتسربوا إليه؛ فلم يعد فى الجيش إلا أخشاب مسندة من أهل ثقته الذين كانت سمتهم المميزة الاستهتار بالدين، والاستخفاف بالقيم؛ فلم تغن هذه الحشود المدججة يوم الجد عنه شيئاً، وفى أول لقاء فرُّوا هاربين، وتركوا أسلحتهم للعدو .

أسد علىّ وفى الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

ليت الظالمين يعتبرون؛ فإن حرب يونيو ١٩٦٧ ستظل إلى الأبد عظة وعبرة لكل متكبر لايؤمن بيوم الحساب، ليس الظالم فى حاجة إلى من يحفر له قبره؛ فإن من تنكيل الله العلى القادر به أن يسخره هو نفسه لحفر هذا القبر لاليدفن فيه جثته وحدها وإنما ليدفن فيه مع جثته تاريخه وأمجاده التى كان يتيه بها على الناس؛ ولا يبقى له بعد ذلك إلا الخزى والهزيمة والذل والعار .

أراد الظالم بهذه الحرب لاأن يستخلص فلسطين من أيدى اليهود، وإنما أراد أن يحقق فيها نصراً يتيه به على منافسيه، ويستكمل به عدة التسلط والجبروت، ويستعيد به مكانة

فقدها بانسلاخ سورية عنه وليكون فى الموقع من القمة الذى يَفْتِكُ فيه بالحفنة من الرجال فى هذه الأمة الذين ـــ بالرغم مما يرسفون فيه من أغلال ـــ لازالت فى صدورهم قلوب تنبض، وألسنة تنطق ولكنها تأبى أن تقدس غير الله، وترفض أن تقر بالذل لغير الله.

وتقدرون وتضحك الأقدار

وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿**قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون. ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين. الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون. فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين**﴾.

حقاً ﴿**إن بطش ربك لشديد**﴾ إنه لايأخذ الظالم إلا من علٍ. حتى إذا وقع كان لوقوعه ضجة وصخب يلفت الأنظار، ويوقظ النائمين، وينبه الغافلين، ويقرع أقفاء السادرين فى الضلال والموغلين فى الظلم والظلام.. إنه إذا أراد أخذهم لم يهدم بنيانهم ـــ كما عهد الناس الهدم ـــ من فوق حتى يهوى به إلى تحت؛ فإن هذه الطريقة فى الهدم تستغرق وقتاً طويلاً تضيع فيه قيمة المباغتة، وتترك فرصة للظالم ومن معه أن يهربوا أو حتى أن يفيئوا إلى رشدهم، ثم إنها قد تترك قواعده وأسسه باقية مما يغرى ظالماً آخر برفع هذه القواعد مرة أخرى.. وإنما اقتضت إرادته أن يبدأ فى هدم البناء بنسف أساسه وقواعده فيخر البنيان كله دفعة واحدة على من فيه فلا يجدون لهم مفراً ولا منجىً، ويكون فى هذا النسف الفورى معنى الأخذ والمباغتة التى يريد بها التنكيل للظالمين والثأر للمظلومين والعبرة للناس أجمعين.

بعد حرب يونية ١٩٦٧:

لن أتعرض هنا أيضاً للمهازل التى تلت الهزيمة التاريخية والتى انتهت بالإبقاء على جمال عبد الناصر فى رياسة الدولة؛ فهذا موضوع سالت به أنهار الصحف، وزخرت بمناقشته بطون الكتب، وسيظل على مر الزمن موضوع مناقشة حتى يستطيع المصريون جيلاً بعد جيل فك رموز هذه المعادلة الصعبة المستعصية على الفهم والتى تقول بأن هزيمة ٥ يونيه الماحقة تساوى النصر الذى يستحق الإشادة به والفخر.. نعم ظل عبد الناصر فى موضعه ولكنه رجع مصدوع القلب، مفرى الكبد، محطم الفؤاد. وكأنما أحس بنهايته ـــ وقد اعتبر كتاب الغرب يوم ٥ يونيه يوم وفاته ـــ تقترب، وبجرائمه تطبق على عنقه فأراد أن

يتوب.. وكأنى برب العزة يرد عليه قائلاً ﴿**آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون**﴾ فلقد تقدم إلى الشعب ببيان مارس ٦٨ ولا أعده إلا بمثابة توبة فقد اشتمل على مبادىء طيبة لإصلاح المجتمع.. فاستبشر الناس وما كادوا يفعلون..

كأن رب الناس أبى أن يجرى خيراً على يدين ملطختين بدماء الأبرياء.. غلبت على الرجل طبيعته فابتلع كل ماجاء ببيان مارس ورجع إلى حكم الفرد.. ولكن بقلب كسير، وجناح مهيض.. فالحكم بوليسى إرهابى كما كان، ولكن اليد التى تعودت البطش تبطش وقد نزعت مخالبها.

* * *

الباب التاسع عشر

الدعوة المستهدفة بأمكر الأساليب

الفصل الأول : مراجعة عامة

الفصل الثاني : كبح مؤامرة اشرأبت بعنقها مرة أخرى

الفصل الثالث : إلى هذا الحد يزيف التاريخ

الفصل الأول

مراجعة عامة

من حق القارىء علىّ بعد استيعابه هذه الصفحات التى كان جل همى فيها منصباً على تسجيل الأحداث بطريق أقرب إلى السرد منها إلى الإفاضة والتحليل؛ أن أتناول فى هذه الخاتمة بعض مامر من أحداث بشىء من التعليل والتحليل والتعليق والإفاضة حتى تتألق الحقائق الهامة تألقاً يبدد كل إبهام:

أولاًــ قامت دعوة الإخوان المسلمين منذ أول يوم على أساس فكرة شاملة واضحة محددة. وإن هذه الفكرة ظلت كما هى تماماً لم يطرأ عليها أى تغيير بنقص أو زيادة مع تغير القيادات وتطور الأيام وتباين الظروف.

ثانياًــ قد يقال إن هذا يعزى إلى أنها دعوة منزلة من عند الله. ولكن هذا ليس السبب؛ فإن الذى تكفل الله تعالى بحفظه هو القرآن الكريم وحده إذ يقول ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ أما الفكرة الإسلامية المستنبطة من الكتاب والسنة فهى وإن كانت محددة المعالم بمقتضى هذين المرجعين **إلا** أن الناس من أتباعها ذهبوا فى تصورها كل مذهب؛ إذ دخلت عناصر أخرى من الطبائع والأهواء.. فهؤلاء قعدت بهم الهمم فحصروها فى نطاق ضيق حدوده جدران المساجد وصوامع العبادة، وآخرون اعتبروها نظريات فلسفية ميدانها حلقات الجدل، ومستودعها مابين دفات الكتب؛ فهى لون من الرياضات الفكرية، وضرب فسيح من المتع العقلية ــ وطائفة شط بهم الخيال فنأى بهم عن واقع الحياة فارتفعوا بها ــ غلوا فيها ــ ثم انقضوا بها على هذا الواقع كما ينقض الصقر على فريسته، ونسوا أن هذه الفكرة لم تنزل من سمائها لتبيد من هم على الأرض، وإنما نزلت للأخذ بيدهم وإسعادهم.

وهكذا تناول أتباع الفكرة الإسلامية فكرتهم بالنقص تارة وبالزيادة تارة أخرى، وأخذ كل فريق يُلَوِّنُها بلون نفسه وهواه.. ولم تكن هذه الفكرة ــ فيما تناولها من تغيير وتبديل ــ بدعاً من الفكر المنزلة من السماء؛ فمن قبل كان ذلك شأن الناس مع ما نزل على موسى وعيسى.. والقرآن مترع بالآيات الفاضحة لأتباع موسى وعيسى فيما غيروه

وبدلوه، وفيما اختلقوه، وفيما أخفوه من حقائق، وفيما نسبوه إلى الفكرة الإسلامية زوراً وبهتاناً ﴿يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾ ﴿يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ ﴿يأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل﴾.

وفكرتنا الإسلامية الشاملة الخاتمة التى جاء بها خاتم الرسل محمد ﷺ لم تسلم من تغيير وتبديل؛ إلا أن ماتناولها من تغيير وتبديل لم يصل إلى أغوارها؛ لأن جوهرها وهو القرآن الكريم تكفل الله بحفظه.. ولذا فإن التحريف الذى استطاعه المحرفون والمغرضون والقاعدون والمتغالون لم يزد عن أن يكون اعتسافاً فى التفسير منشؤه فى كثير من الأحيان حمل الأسلوب القرآنى العربى على مالا يحتمله من الأساليب الأعجمية الدخيلة؛ حيث يفضى هذا الاعتساف إلى خلق ألوان من التعقيد ماأنزل الله بها من سلطان، وما كانت لتخطر على بال قارىء يقرأ القرآن بسجيته العربية.. وأضرب لذلك مثلاً بما فسره بعض المفسرين الأعاجم لقول الله تعالى: ﴿ليس كمثله شىء﴾ فالقارىء العربى سواء كان أمياً أو فى أعلى درجات الثقافة والعلم يفهم من الآية نفى وجود شريك لله تعالى أو مثيل.. ولكن المفسر الأعجمى يحمِّل الآية مالا تحتمل فيدعى أن الكاف حرف تشبيه؛ وبذلك فإن الآية تنفى وجود شبيه لمثل الله.. ثم يبدأ فى مناقشة فلسفية يحاول أن يدحض بها أن لله مثلاً، ويبحث عن تأويل للآية لتفادى ماتشعر به من أن لله مثلاً.

وعن طريق هذا الاعتساف نشأت نظريات تناولت عدة قضايا تتصل بصفات الله وأعمال العباد وشروط الإمامة وغيرها أدت إلى تشتيت شمل الأمة الإسلامية ومقاتلة بعضها لبعض.. وانتهت إلى كوارث لازال العالم الإسلامى حتى اليوم يلعق جراحه من آثارها.

كما نشأ التحريف من فهم سقيم لبعض أحاديث النبى ﷺ، ومن التذرع بأحاديث تحتاج فى سبيل استنباط حكم شرعى منها إلى الإلمام الواسع المتبحر بعلوم عميقة الغور كعلم تاريخ الرجال وعلم أصول الحديث وعلم أصول الفقة وعلوم اللغة مع قاعدة راسخة فى علوم القرآن.. مع أساس من عقلية خصبة قادرة على الاستنباط ومقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل.

وقد يصلح أن يكون مثالاً لهذا ماسبق أن أوردته فى سياق هذه المذكرات من حديث رسول الله ﷺ «من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لايتمثل بى» فعن طريق فهم هذا الحديث فهما سطحياً نشأ فى هذه الأمة ضلال كثير؛ واستطاع جاهلون ومغرضون أن يطلوا من الإسلام ماشاءوا من شرائعه وأحكامه، وأن يحملوا أتباعهم على شرائع وأحكام ابتدعوها.. ولكن بالفهم المستنير القائم على علم متبحر فى العلوم مع عقلية ناضجة مستنيرة؛ استطاع الإمام الشاطبى رحمه الله أن يفسر هذا الحديث ــ فى ضوء ذلك ــ التفسير الصحيح الذى لاتضل معه العقول، ولا تزيغ به الأهواء حيث قال: إن هذا الحديث موجه إلى فئة معينة هى فئة الصحابة الذين عاشوا مع الرسول ﷺ ورأوه بأعينهم؛ وبذلك صارت له صورة محدده واضحة فى خواطرهم؛ فإذا رأوه فى المنام على الصورة التى رأوها بأعينهم فإنه سيكون هو نفسه حقاً لأن الشيطان لايتمثل به.. أما من عدا هؤلاء ممن لم يروا النبى ﷺ رأى العين فأنى لهم إذا رأوا فى المنام من يدعى أنه النبى أن يعرفوا إن كان هذا الادعاء حقاً أم باطلاً.. لاسيما إذا علمنا أن من آيات الله عز وجل أنه لم يخلق اثنين من خلقه على صورة واحدة ﴿**ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين**﴾.

فقد يتشابه اثنان حتى إذا دقق الناظر فيهما وأجال نظره فى خلقتهما وجد اختلافاً لاتدركه النظرة العابرة من لون فى البشرة، أو طول فى القامة، أو قصر أو لون فى العينين أو طول فى الأنف أو اختلاف فى شكل الأصابع أو فيما عدا ذلك مما يدركه من ينعم النظر.. ومن عاشر إنساناً وأطال عشرته انطبعت صورته بكامل تفاصيلها فى نفسه وعقله حتى لايمكن التلبيس عليه.. فهذه الفئة التى عاشت مع النبى ﷺ وامتزجت به، ولم تكن تصبر على مفارقته ساعة من زمان؛ هى التى تستطيع أن تميز صورته إذا رأتها فى صحو أو منام.. أما غيرهم فإن ادعاءهم رؤيته فى المنام، وأن الصورة التى رأوها هى صورته ﷺ هو ادعاء مردود، وكل ماترتب على هذا الادعاء من أمر أو نهى مردود. وبذلك تسلم الأمة من غائلة ادعاءات قد تنحرف بها عن شريعة الله، وتنزلق بها إلى متاهات من الضلال والإفك والبهتان.

ثالثاً ــ الوسطية والقيمية:

هما سمتان من السمات المميزة للفكرة الإسلامية.. وسمة الوسطية هى التى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً**﴾ وسمة القيمية هى التى أشار إليها الكتاب الكريم فى قوله ﴿**قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيماً**﴾.

وقد لفت نظرى إلى علو شأن الوسطية فى الإسلام أن رأيت الإسلام يلتزم الوسطية فى نظرته إلى المجتمعات حتى فى ناحية العقيدة.. فأقرأ فى السيرة النبوية الشريفة أنه لما

نشبت الحرب بين الفرس والروم وانتهت بهزيمة الروم؛ حزن المسلمون بمكة لهذا النبأ، وتمنوا لو أن النصر كان حليف الروم باعتبار الفرس مجوساً يعبدون النار، والروم أهل كتاب — وإن حرفوا فيه — فهم على كل حال أقرب إلى المسلمين من عبدة النار.

ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد من العواطف، لجاز لنا أن نتشكك فى صدق هذه العواطف من مسلمى مكة، وفى سلامة اتجاهها.. ولكننا رأينا الوحى يتنزل على رسول الله ﷺ مزكياً هذه العواطف، ومؤيداً هذا الشعور، ومبشراً بتحقيق أمنيات مسلمى مكة بنصر للروم قريب.. وقد افتتح سورة الروم بذلك فقال ﴿**الٓمٓ. غلبت الروم. فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم**﴾.

وإذا كان للوسطية هذا القدر فى الإسلام حتى فى تصنيف الناس عقدياً والتعامل معهم على أساس هذا التصنيف الرحب الفسيح؛ فلا شك فى حرص الإسلام على الوسطية وسيلة فى تعامله مع ماهو دون العقيدة قدراً وأهمية.

ومقتضى ذلك أن لايقف المسلمون أمام من يعيشون معهم فى المجتمع موقف الجمود الذى ينظر فلا يرى أمامه إلا الأبيض والأسود، وإنما عليهم أن يوسعوا معهم من مجال نظراتهم ليجدوا حلولاً مابين هذين اللونين.. وقد يتبدى ذلك واضحاً فى صلح الحديبية وما تضمن من شروط رأى فيها عمر بن الخطاب وأمثاله من الصحابة تنازلات جعلت عمر يعترض ويقول «لماذا نعطى الدنية فى ديننا؟».. وتمتد الأيام وتثبت آخر الأمر أن هذا الصلح بشروطه كان خيراً عظيماً.

ومن هذا يتبين أن نظرة بعض المنتسبين إلى الإسلام إلى المجتمع فيصنفونه صنفين ليس غير — إن هى إلا نظرة ضيقة بعيدة عن سمة الوسطية التى من طبيعتها أنها تترك الباب دائماً مفتوحاً أمام التفاهم والتقارب والاتصال، وتنتهى دائماً بإثراء الفكرة الإسلامية بوفود متلاحقة ممن يقتنعون بها نتيجة لهذا التفاهم والتقارب والاتصال.

والقيمية وإن كانت من سمات الفكرة الإسلامية فإنها كذلك سمة كل فكرة نزلت من السماء أو تمخض عنها فكر بشرى سوى؛ فما من فكرة إلا ودعت إلى الصدق والوفاء والكرم والشجاعة والمروءة والرفق والصبر وما إليها من القيم — ولكن الذى اختصت به الفكرة الإسلامية دون سواها من الفكر هو امتزاج الوسطية بالقيمية؛ فالقيم فى ميزان الفكر الإسلامى إذا أفلت زمامها من يد الوسطية فإنها لاتُعَدّ من القيم فى شىء وصار الفكر الإسلامى براءً منها.

فالصدق دون أن تحكمه الوسطية قد يكون وقاحة، والشجاعة قد تتحول إلى تهور،

والكرم قد يصل إلى إسراف ونزق، والصبر قد ينتهى بصاحبه إلى الاستكانة.. وهكذا يتغير وجه القيم إلى وجه آخر كريه مرذول، لايقبله الطبع السليم، ولا يستقيم مع ميزان العقول.

وقد جعل القرآن الكريم القيمية صفة للفكرة الإسلامية فى ذاتها ﴿**ديناً قيماً**﴾ ولكنه جعل الوسطية صفة للقائمين على هذه الفكرة الحاملين للوائها ﴿**أمة وسطاً**﴾؛ لأن الاحتفاظ بقيم الفكرة فى حدود الوسطية يحتاج إلى العامل البشرى.

ومن هنا كان العنصر البشرى هو فى ذاته جزءاً من الدعوة الإسلامية لايمكن فصله عنها، إذ بدونه تفقد قيمها، وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾ وقوله ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون**﴾.. ومن هنا نفهم لماذا قضى رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة فى مكة فى تربية أصحابه ليكونوا أهلاً لحمل أعباء الدعوة الإسلامية دون أن ينحرفوا بها عن الوسط إلى يمين أو شمال.

وقد يكون من أعظم إنجاز الإخوان المسلمين، أنهم استطاعوا أن يحفظوا للفكرة الإسلامية وسطيتها دون انحراف أو انجراف وسط تيارات عاتية من طبائع شائهة، وأهواء جامحة، وظروف قاسية.

رابعاً: الداعية البصير:

فالفكرة إذن ليست شيئاً جديداً؛ بل إنها فكرة قديمة قدم رسالات السماء. ولكن الجديد هو إيجاد الأمة التى تؤمن بالفكرة، وتعمل لها، وتصوغ نفسها فى قالبها.. هذا هو الجديد الذى تطلبه الفكرة فى كل زمان ومكان، وتلح فى طلبه من كل جيل.. تريد أن ترى أمة تنادى بها، وتقوم بأعبائها، وتكون هى المتحكمة فى حياتها.. وبديهى أن أمة لن توجد؛ إلا بعد أن يوجد الداعية الذى يرفع اللواء ويدعو الناس إلى الالتفاف حوله.. ودون وجود الداعية فلن تكون أمة.

وقام دعاة اتخذ كل منهم وسائل لنشر دعوته، ثم جاء حسن البنا فاتفق فى الفكرة والهدف مع سابقيه ولكنه اختط فى نشرها أسلوبا آخر.. كان هدفه أن تكون دعوته عالمية، ولكنه رأى أن يخاطب بهذه الفكرة أول مايخاطب عامة المسلمين وجماهيرهم؛ بادئاً بأطراف البلاد وسكان القرى، ثم قرر أن يكون له مركز فى القاهرة لايتصل بالذين تتركز السلطات فى أيديهم، وإنما ليتصل بفئة أخرى من جماهير الشعب هم فئة الناشئة من

طلبة المدارس والجامعة؛ فقسم وقته وجهده بين هؤلاء فى القاهرة وبين جماهير الشعب فى بطون الريف، ونشر هذه الفئة من الناشئة بعد صقلهم وتربيتهم دعاة بين جماهير الريف؛ فكون من هؤلاء جميعاً قاعدة عريضة آمنت بالفكرة، وعاهدت على العمل لها، والبذل فى سبيلها.

فلما جاء دور مخاطبة علية القوم وأصحاب السلطة بالفكرة الإسلامية — وهم بطبيعة تربيتهم وحكم مناصبهم يرون فى هذه الفكرة منافساً لهم، ينتقص من سلطتهم، ويحد من ترفهم.. فأرادوا — كَدَأْبِهم مع دعاة سابقين — أن يعصفوا بأصحابها، ولكنهم وجدوا أنفسهم هذه المرة أمام مدٍّ عَارِمٍ هم عاجزون عن مواجهته؛ من هذه القاعدة الشعبية الراسخة المتشعبة فى قلوب أمة كاملة فاستعانوا بشياطين الإنس فى داخل البلاد وخارجها؛ غير أن ذلك كله لم يتمخض عن شيء يذكر.. فالفكرة هى الفكرة والدعاة هم الدعاة، والمؤمنون بها فى نمو على مر الأيام وازدياد.

وقد يكون هذا هو السر فى ثبات هذه الدعوة دعوة الإخوان المسلمين واستمرارها؛ ذلك أن حسن البنا بذر بذور هذه الفكرة فى أصلح بيئة لها، فنبتت نباتاً حسناً، تعهدها فيه عاكفاً على تعهدها حتى أينعت وأثمرت وملأت الربى والوديان، ضاربةً بجذورها إلى أعماق الأعماق **«ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير»**.

خامساً: الغلطة الكبرى لجمال عبد الناصر:

إذا استبعدنا سوء النية وحب الاستئثار بالسلطة، فقد تكون الغلطة الكبرى لعبد الناصر هى أنه — تحدياً للإخوان المسلمين — أراد أن يثبت لهم أنه يستطيع أن يرسى دعائم حكمه دون الحاجة إليهم؛ ظناً منه أن الإخوان المسلمين هى مجرد فكرة ليس من الصعب على حاكم أن ينتحل مضمونها فتستقيم له الأمور كما لو كان الإخوان المسلمون هم القائمين بأعباء الحكم.

واستطاع فعلاً — عن طريق خزانة الدولة — أن يملأ مناصب الحكومة بأعظم الخبرات وأعلى المؤهلات. ولكنه مالبث أن رأى الخلل والفساد يهز أركان الدولة، ويهد فى كيانها.. فأخذ بتلابيب هؤلاء الخبراء وذوى أعلى المؤهلات.. فقدمهم إلى المحاكم التى دمغتهم بفساد الذمة وموت الضمير.

وكان المنطق يقضى — والحالة هذه — أن يقر الحاكم بخطئه، ويفيء إلى رشده.. ولكن حاكمنا ما كان يستطيع أن يفعل؛ فهو بحكم حقده أسير هذا الحقد؛ ثم إنه كان قد

قطع على نفسه خط الرجعة؛ بما ارتكب من فظائع ضد الإخوان، وبما سفك من دمائهم وصار كما يقول المثل السائر «ليس بعد حرق الزرع جيره».

وهكذا لم يجد الحاكم الحقود أمامه إلا طريقاً واحداً ليس غير، هوالطريق الذى سلكه من قبل ووجد فيه الأفاعى والشياطين.. وظن أنه إذا لجأ إلى العسكريين الذين اعتادوا أن تحكم تصرفاتهم الأوامر والعقوبات، فسيجد فيهم طلبته التى تدير شئون الدولة كما تدور الساعة؛ فملأ المرافق والإدارات والشركات والمؤسسات بهم فماذا كان من شأنهم؟

كل الذى حققوه هو إحكام الشكليات لهذه الأعمال. فمواعيد الحضور ومواعيد الانصراف أصبحت تراعى بكل الدقة، والعقوبات توقع على من يتأخر عن الحضور دقائق، كما أن التقارير والمذكرات تكتب ببراعة وإسهاب، يضرب فيها على الوتر الذى يطرب الرئيس العسكرى.. وكل الذى يطربه أن تكتب هذه التقارير بأسلوب يقربه إلى سيده الحاكم؛ الذى ــ بحكم رغبته فى الاستئثار بكل شيء ــ أضحى لايعرف شيئا اللهم إلا مايصله من هذه التقارير التى لاتمت إلى الواقع بصلة.. فإذا جاءت مناسبة من المناسبات يلقى فيها على الشعب بياناً؛ ضمنه ماجاء بهذه التقارير.. والشعب يسمع ويضحك، ويرسل النكات؛ لأنه يسمع من الحاكم بيانات وأرقاماً ليس لها فى واقع حياتهم أثر؛ إذ هى مختلقة لاأصل لها.

وأخيراً اكتشف الحاكم أن هؤلاء العسكريين ضللوه، وأنهم أفسدوا مرافق البلاد. وتعجب كيف يقع هذا الإفساد من رجاله الضباط الأحرار؟.. ونسى الحاكم أن الضباط الأحرار ــ كما يسميهم ــ ليسوا إلا ناساً كسائر الناس.. إن كانوا قد أدوا ماوكل إليهم من أعمال فى الجيش على الوجه الأكمل؛ فإنما فعلوا ذلك تحت سوط القانون العسكرى الذى لايرحم. أما وقد زفع عنهم هذا السوط ــ بعد أن انخرطوا فى سلك الحياة المدنية والوظائف المدنية ــ فلم يعد من رقيب عليهم إلا ضمائرهم إن كانت لهم ضمائر.. وأنى يكون لإنسان ضمير وهو لايعرف الله، ولا يخطر بباله أن هناك حساباً على كل صغيرة وكبيرة بين يدى إله مطلع على القلوب يعلم السر وأخفى.

قلة قليلة من هؤلاء الضباط الأحرار هى التى كانت تطوى على قلوب عامرة بالإيمان.. وهؤلاء ممن تربوا فى أحضان الإخوان المسلمين ثم أحسنوا الظن «بالحاكم» وانضموا إليه.. أما غير هذه القلة من الضباط الأحرار فالجميع ــ إذا أحسنا بهم الظن ــ قلنا إنهم ناس كسائر الناس؛ ولكن الحاكم وصفهم لنا يوم كنا فى بيته بمنشية البكرى فى ١٩٥٤ فقال «إنهم كالكلاب المتوحشة إذا أنا أطلقتهم نهشوكم» وقال «إنهم غير متدينين ومنهم شيوعيون» فهل يستغرب من أمثال هؤلاء ــ وقد أطلقوا على الشعب ــ أن ينهشوه ويمزقوه ويمتصوا دمه؟

من الذى ربى هؤلاء حتى صقل نفوسهم، وملأ قلوبهم من خشية الله، وتعهدهم بالصقل والتذكير باللفظ والعمل والقدوة؟ أهو «الحاكم» قبل الثورة وبعدها؟ إن القول المأثور يقول «فاقد الشيء لايعطيه».. إن الحاكم قال لنا فى منزله إنه جمع هؤلاء الضباط من مختلف المشارب والاتجاهات والآراء والأهداف، لايبالى بخلق ولا دين.. كل الذى يهمه أن يكون الضابط مغامراً.. فأين التربية؟!

إن المصائب التى تعانيها بلادنا حتى اليوم، وقد تظل تعانيها عشرات السنين بعد اليوم؛ هى حصاد هذا الغرس النكد الذى غرسه «الحاكم» بغطرسته وكبريائه وصلفه، وبتمرده على القواعد التى يقوم عليها الكون: «إنك لاتجنى من الشوك العنب» ولكنه يستنكر هذه الحقيقة ويصر على جنى العنب من الشوك، فتتقطع يداه، ويدمى جسده ولا يجنى من الشوك العنب.. «متى يستقيم الظل والعود أعوج».. هو يجحد هذه الحقيقة ويصر على أنه يستطيع أن يحصل على ظل مستقيم من أعواد عوجاء — فيضيع وقته ووقت الأمة ويتحطم وتتحطم الأعواد، وتتحطم الأمة.. ولا يستقيم الظل والعود أعوج.

ترى.. لو كان النبى ﷺ اكتفى بنصف المدة التى قضاها بمكة بعد البعثة ثم هاجر إلى المدينة.. هل كانت دعوته تقوم وتثمر على الصورة التى رواها التاريخ، ونراها اليوم باعيننا وسيراها أبناؤنا وأحفادنا إلى يوم القيامة؟!

لاإخال ذلك كان يكون.. لقد كانت سنى تكوين وتربية وصهر وصياغة للنفوس، حتى تقوم الدعوة على أقوى دعامة وأمتن أساس.. وهذا الرعيل الأول الذى صهرته الأحداث فى مكة هو الذى حمل لواء الدعوة حتى ركزه على قمم جبال الصين شرقاً، وعلى ضفاف الأطلس غرباً. وكان فى كل مكان يحل فيه صورة حية من دعوته، وقدوة تتوق النفوس إلى الاقتداء بها.. تجبى إليه الثمرات، وتجمع عنده كنوز الأرض؛ فتعف نفسه عن مسها، ويؤثر أن يعيش كما يعيش عامة الناس.. ولولا هؤلاء، ولولا السنوات الثلاث عشرة التى قضوها فى طور التربية فى مكة لما ظهر الإسلام، ولما عم نوره بقاع الدنيا.

هل ترك مجالاً لسماع نصيحة؟ يقول رسول الله ﷺ «الدين النصيحة. قالوا لمن يارسول الله؟ قال «لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

يفهم من هذا الحديث أن النصيحة واجبة، وأن هذا الوجوب على الطرفين معاً؛ على الناصح والمنصوح، فعلى الناصح أن يؤدى النصيحة، وعلى المنصوح أن يستمع إليها.. وبهذا يستقر المجتمع ويسعد.. فما من إنسان يستطيع أن يرى وحده الوجه الصحيح فى كل شيء، ومن هذا النقص فى العلم وجبت النصيحة حيث يكمل الناس بعضهم بعضاً ولذا كان على الحاكم أن يفسح المجال أمام الناصحين.

ولهذا كان حكام المسلمين حين يشعرون — وهم فى أوج خيلاء السلطة — أن موجات الغرور كادت تجرفهم لاينتظرون حتى يفد إليهم من ينصحهم بل كانوا يبعثون فى طلبهم، ويجلسون إليهم مجلس التلميذ من أستاذه:

« بعث الرشيد فى طلب ابن السماك فدخل عليه وكان الرشيد قد طلب كوباً من الماء فأتى به، فقال له ابن السماك: على رسلك ياأمير المؤمنين .. لو منعت هذه الشربة بكم تشتريها؟ قال: بنصف ملكى. قال: اشرب هنأك الله بها. فلما شربها قال: أسألك لو منعت خروجها بماذا كنت تشترى خروجها؟ قال: بملكى .. قال: إن ملكا قيمته (كذا) و (كذا) لجدير أن لايتنافس فيه .. فبكى الرشيد.

وقال الرشيد يوماً لشيبان: عظنى -

قال: « لأن تصحب من يخيفك حتى يدركك الأمن، خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف » فقال الرشيد: فسر لى هذا .. قال: من يقول لك إنك مسئول عن الرعية فاتق الله، أنصح لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم وأنتم قرابة نبيكم ﷺ ».

وما من أمة إلا وهى تزخر بأهل الرأى والحكماء، ولكن الحاكم الذى يرى فى نفسه أنه قد أحاط بكل شىء علماً لايرى أنه فى حاجة إلى مثل هؤلاء، ولذا فقد أوصد بابه دونهم، واعتبر من تجرأ منهم فتقدم له بنصح اعتبره مجرماً جزاؤه السجن والتعذيب.

سارت البلاد خمسة عشر عاماً برأى رجل واحد، وبفكر رجل واحد، وببصر رجل واحد .. وكان حريصاً خلالها على تحصين هذه الوحدانية بكل وسائل التحصين: كمم الأفواه، واعتقل الأفكار فى رءوس المفكرين وغيَّبَ كل ذى رأى خلف أسوار السجون فأمن بذلك أن يكون فى الشعب من ينقده. ثم أراد أن يفى بما تعهد به أمامنا فى بيته؛ فحال بين الإخوان المسلمين وبين الوظائف القيادية فى الدولة وأخلى الجيش من ضباط يمتون إلى الإخوان المسلمين بصلة ولو من بعيد، بل إنه حرم على أبناء الإخوان المسلمين أن يلتحقوا بالكليات العسكرية حتى يضمن أن جيشه منسجم تماماً مع آرائه واتجاهاته .. فماذا كان من أثر لهذا كله؟

أما فى الحياة المدنية فكان الذى أشرنا إلى طرف منه من الفساد والعفن. وأما فى الحياة العسكرية فكان خزى الأبد وعار الدهر .. لخصها رجل أمى أمامى فقال: تسلم عبد الناصر البلاد وأرضها محتلة من أعظم دول العالم وتركها وأرضها محتلة من أحقر دول العالم.

* * *

إن هؤلاء الحكام الذين يظنون أن سلطان الحكم، وخزائن الدولة، تختصر لهم الطريق ليكونوا قاعدة شعبية ببضع خطب يلقونها فى ظل أبهة الحكم وهيلمان السلطة.. هم واهمون.. ولن يلبثوا أن يواجهوا الحقيقة المرة حين يزول سلطانهم، فلا يجدون حولهم أحداً. وقبل أن يزول سلطانهم لن يجدوا حولهم إلا الأفاقين والمنافقين والمخادعين والكذابين الذين يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم.

وهذا مع الأسف ماواجهه «الحاكم» بعد سنوات من حكمه، فإنه لم ير من حوله إلا لصوصاً ومخادعين؛ ثم رأى جهاز الدولة فى جميع المرافق خرباً دَبَّ فيه السوس والعفن.. ولكن الظالم حين يصل ظلمه إلى أن تتدنس يداه بدماء الأبرياء والمجاهدين.. حينئذ ييسره الله تعالى للعسرى، ويغلق دونه أبواب الخير حتى يأخذه وليس له حسنة تشفع له.

* * *

سادساً: الأمة المسلمة هى المعضلة :

يخطىء إذن من يظن أن مجرد المناداة بالفكرة الإسلامية وجعل الشريعة الإسلامية الأساس الذى تستمد منه الأحكام هو نفسه الأخذ بنظام الإسلام.. فالنظام الإسلامى كل لايتجزأ، والأمة المسلمة جزء منه لاينفصل عنه ــ والأمة المسلمة هى الأمة التى صيغت فى بوتقه التربية القرآنية صياغة أنشأت من كل فرد منها صورة حية لهذا الدين بما فيه من خلق وآداب وعبادات ومعاملة، وبحيث يكون هذا الفرد أداة إيجابية لها أثرها فى الحياة وتترك طابعها على كل من تخالطه أو تحتك به.

ومن هنا كان تركيز الطغاة والمخططين لهم لاعلى القضاء على الفكرة الإسلامية فى ذاتها، وإنما كان تركيزهم دائماً على القضاء على هذه الأمة التى أوجدها حسن البنا فى هذا العصر، والتى هى وحدها القادرة على جعل الفكرة الإسلامية حياة سارية فى أوصال الأمة، ونبضاً دفاقاً فى قلبها الواهن المخدر.

وإذا كان تحديد الفكرة الإسلامية، وتوضيح معالمها قد تناوله القرآن الكريم بعشرات من آياته؛ فإن آلاف الآيات خصصت لبيان خصائص الأمة المسلمة، وكيفية تكوينها والحث على إيجادها، والتحذير من آفات تفت فى عضدها أو تهدد كيانها أو تقضى عليها.. وترى هذا واضحاً فى سور القرآن الكريم طوالها وقصارها على السواء؛ ففى الوقت الذى تفتتح فيه سورة البقرة.. ببيان أخص خصائص هذه الأمة فتقول ﴿**آلَمّ. ذلك الكتاب لاريب فيه. هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون. أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾ ثم تأخذ فى بيان آفات الأمم والتحذير

منها.. نرى آخر سورة فى القرآن تعلم هذه الأمة كيف تأخذ حذرها من وساوس شياطين الجن ودسائس الإنس فى قوله تعالى ﴿**قل أعوذ برب الناس. ملك الناس. إله الناس من شر الوسواس الخناس. الذى يوسوس فى صدور الناس. من الجنة والناس**﴾.

وحسبك أن تقرأ سورة كاملة كسورة التوبة لترى الروعة الأخاذة فى كشف وسائل المخربين، ودخائل المنافقين؛ فضلاً عما جاء فى صدر سورة البقرة فى مفتتح الكتاب الكريم من اجمال مافسرته سورة التوبة وسورة النساء وأكثر سور القرآن.. مما يدل دلالة واضحة على أن المعضلة الكبرى ليست فى مجرد تحديد الفكرة وتوضيحها، وإنما هى فى العمل على إيجاد الأمة التى تحمل لواء هذه الفكرة، وتأخذ على عاتقها نشرها بالقول والقدوة والعمل وما يقتضيه ذلك من حكمة وجهاد وصبر.

فالفكرة إذن بغير أمة متشربة لمعانيها، قائمة على إبرازها وصيانتها، متصدية لكل من يعتدى عليها، ساهرة على أطرافها وحدودها.. لاتكون شيئاً مذكوراً حيث تفقد كيانها، وينعدم أثرها فى الحياة.

لقد سمعنا من عبد الناصر فى بيته فى سبتمبر ١٩٥٤ حين كان يقص علينا ماعده رغبة من الإخوان فى الوصاية عليه قوله: إن المرشد أرسل إلىّ فلاناً وفلاناً (وذكر اسمين من الإخوان) يطلبان أن أعرض على الإخوان كل قرار للحكومة قبل صدوره لكى أضمن تأييد الإخوان للثورة ــ وأنا لاأقبل هذه الوصاية وسأستغنى عن الإخوان، وسترون كيف سأحكم البلد بغير الإخوان.. وفى كفاءات البلد مايغنى عن الإخوان.

وقد غاب عن الرجل أن المعضلة ليس حلها أن تجد الكفاءات وحسب، وإنما المعضلة أن تجد الذين يجمعون إلى الكفاءات الأمانة والإخلاص ــ وهما ثمرة الخوف من الله ــ ولا زالت كلمة عمر بن الخطاب دستوراً لمن يبغون الإصلاح «أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى». ورحم الله ابنة يوشع حين قالت لأبيها بعد تجربتها مع موسى ﴿**ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين**﴾.

ويبدو ــ بوجه عام ــ أن الحاكم إذا كان كل همه أن يمكن لنفسه فى الحكم استئثاراً بالسلطة وحباً فى السيطرة؛ نفرت منه هذه الأمة المسلمة ونفر هو منها.. ونشأت عن ذلك سلسلة من الأخطاء، لايكاد ينتهى من إحدى حلقاتها حتى يقع فى أخرى، وتتفاقم الأمور وتحل الكوارث به وبشعبه فيتحطم تاركاً وراءه تركة مثقلة بالمصائب والهموم.

* * *

سابعاً ــ تكاليف الوسطية:

التزام الإخوان حد الوسط فى فكرتهم وسلوكهم كلفهم كثيراً من المشقات والآلام

والتضحيات. فلقد نكبت الإخوان بسبع فتن عمياء. وقد تحدثنا عن هذه الفتن فى ثنايا الحديث الذى مضى فى هذه المذكرات ونكتفى هنا بالإشارة إليها فيما يلى لحصرها:

١ ــ فتنة رفعت وصديق
٢ ــ فتنة زواج عبد الحكيم عابدين من شقيقة الإمام
٣ــ فتنة شباب سيدنا محمد
٤ ــ فتنة حسين عبد الرازق وأحمد السكرى
٥ــ فتنة مابين الوفد والإخوان
٦ ــ فتنة تمرد رياسة النظام الخاص
٧ــ فتنة مابين الثورة والإخوان

وليس معنى حصرنا الفتن فى هذه السبع أن الإخوان كانوا يعيشون فيما بين كل فتنة وأخرى من هذه الفتن فى هدوء واطمئنان، ولكننا قصرنا الإشارة على الفتن الجائحة التى كادت كل واحدة منها أن تطيح بالدعوة.

وما دام التطرف والحقد والأنانية والغرور من الغرائز المتأصلة فى الإنسان، فلا مناص فى أى مجتمع من ظهور آثارها، وهذه الآثار هى مانسميه الفتن.. إذ يريد أصحابها أن يكتسحوا كل مايعترض طريقهم فيجدون فى قبالتهم دائماً «الأمة الوسط» التى التزمت بتعاليم الإسلام وآدابه دون مغالاة ولا تقصير. ومن هنا يكون صدام. يتخلف عنه حطام، كانت هذه المجتمعات أحوج ماتكون إليه لو أنه قاوم فى نفسه هذه الغرائز والتزم حد الوسط.

ولست هنا بصدد إحصاء الحطام الذى تخلف من وراء هذه الفتن فى دعوة الإخوان المسلمين؛ فحسبى ماقدمت من إلقاء الضوء عليها فى سياق الحديث.. ولكنى أقرر أن الذين أوقدوا نار هذه الفتن كانوا هم حطامها.. فبعضهم جنى على نفسه وذهب ضحية باردة بغير مبرر ولا ثمن، وبعضهم صار رماداً تذروه الرياح، وبعضهم ظن أنه سيقيم الدنيا ويقعدها، فلما واجه واقع الحياة تخاذل وتراجع وتضاءل حتى تقوقع وصار اسماً بغير مسمى.

أما الذين بقوا من هؤلاء جميعاً على قيد الحياة، ورأوا بأنفسهم أن الهيئة التى رموها بالضعف والتخاذل لأنها لم تطاوعهم فى آرائهم بالنبذ إلى الأعداء على سواء وهى بعد بادرة غضة الإهاب.. رأوها فى الوقت المناسب ــ وقد اشتد عودها ــ قد صارت العقبة الكبرى أمام قوى الشر من طغاة ومستبدين ومستعمرين.. ووجدوا أن إخوانهم القدامى ــ الذين طالما رموهم بالضعف والخور ــ هم الذين يتصدون بصدورهم لسهام هؤلاء الطغاة لايهابون ولا يخافون ــ.. ورأوا بأعينهم أن صلابة البناء الذى علا بجدرانه حسن البنا فى غفلة من قوى الشر هو الذى ثبت أمام الغارات الشرسة المتواصلة التى شنها العدو ولا زال يشنها دون هوادة.. ورأوا بأعينهم أخيراً أن الفكرة التى كانوا يتسارون بها لغرابتها على المجتمع فى ذلك الوقت؛ قد صارت فكرة عالمية وأصبحت الهيئة التى تنادى بها

هيئة عالمية، حتى من غير دور أو لافتات أو كيان رسمى.

ويُخَيَّلُ إلىّ أن كل الذين خرجوا على خط هذه الدعوة فى يوم من الأيام فى أعقاب فتنة من هذه الفتن، قد آمنوا الآن بأن قيادة هذه الدعوة كانت أبعد نظراً منهم، وأبصر بالعواقب؛ وأنهم كانوا على خطأ فيما كان منهم.. ولذا فلا أراهم اليوم إلا قد رجعوا إلى الصف الذى ليس بالغريب عليهم وليسوا هم غرباء عنه، وما أحوجهم إلى الصف وما أحوج الصف إليهم ﴿وإن فاءوا فإن الله غفور رحيم﴾.

ويبدو أن شعور الإخوان بوجود قيادة قوية موهوبة شامخة راسخة كالجبل الأشم كان يبعث فى نفوس بعضهم لوناً من الاسترخاء يجعلهم يسرحون بأفكارهم فى جو خيالى بعيد عن واقع الحياة، يتمخض عن أفكار جوفاء، وآراء فلسفية غامضة.. فإذا صادفت هذه الأفكار مسترخين آخرين تجاوبوا معها فنشأت فتنة؛ لايبالى القائمون بها ماتسفر عنه من نتائج؛ لأن عقلهم الباطن مستقر فيه شعور بأن الدعوة الإسلامية فى أمن وأمان مادامت قيادتها هذا الجبل الراسخ الأشم.. وبتعبير آخر أقول: إن كثيراً من هذه الفتن كانت نوعاً مما يشبه تدلل الأطفال على والديهم. والطفل يرى والديه قمة القوة والرحمة معاً.. وقد يتقبل الوالدان تدلل أطفالهما إلى حد، فإذا تعدوه كبحوا جماحهم فى عنف ممتزج بالرحمة والرفق.

وعندما تفقد الدعوة قائدها ومؤسسها، ويشب الأطفال عن الطوق؛ ينسون أيام التدلل، ويهرعون إلى حمل العبء، والنهوض بالمسئولية، فيسدون فراغ القيادة الشاغر باتحاد كلمتهم وائتلاف قلوبهم وتناسى أشخاصهم.

* * *

ثامناً: كيف نؤمن بالقيادة؟

قد يلاحظ قراء هذه المذكرات أننى لم أفرد باباً أو فصلاً أسرد فيه صفات قائد هذه الدعوة سرداً. وهو ماعتاد مسجلو تواريخ الدعوات أن يفعلوه ــ ومع تقديرى لهذا الأسلوب فى كتابة تاريخ الدعوات فإننى آثرت العدول عنه لسببين:

أولها أن صفات القيادة ــ مهما اختلفت الدعوات والفكر ــ صفات معينة. وجه الاختلاف بين قائد وآخر فيها منحصر فى مقدار حظه من كل من هذه الصفات؛ فإفراد باب أو فصل لسرد صفات القائد ــ والحالة هذه ــ لن يعدو أن يكون شيئاً مألوفاً وكلاماً معاداً.. والسبب الآخر هو أننى أرى قائد الدعوة والدعوة شيئاً واحداً أو قل هما شيئان ممتزجان معا لاتكاد تميز واحداً منهما عن الآخر، أو قل هما شيئان متكاملان يكمل

كل منهما الآخر؛ وتاريخ الدعوات مواقف؛ والموقف هو طريقة فى معالجة معضلة بأسلوب يحل هذه المعضلة دون مساس بالدعوة.. وطرق معالجة هذه المعضلات هى عرض تفصيلى وتطبيقى لمواهب قائد الدعوة ومقدار حظه من صفات القيادة.

ولأن أترك للقارىء التعرف على صفات القائد ومواهبه ومقدرته وخصائصه من أعماله ومواقفه؛ خير من أن ألقنه هذه الصفات بسردها.

كما لايفوتنى أن أقرر أننى لم أومن بقيادة الدعوة إلا بعد أن خضت معها المواقف، وقد أحببت أن يكون قرائى على شاكلتى فى تعرفهم على القائد.. وهذا هو أسلوب فى نظرى يجنب المؤمنين بالدعوات والفكر غوائل التطرف الذى يعبرون عنه فى أيامنا هذه بعبادة الأشخاص وهو من أخطر مايصيب مجتمعاً من المجتمعات لأنه يعمى أتباع القيادة عن أخطائها، فتنحرف بهم هذه القيادة انحرافاً غير مأمون العواقب وهم لايشعرون.

ولست أنكر أن الإيمان بالقيادة جزء لايتجزأ من الإيمان بالفكرة. ولكن هناك فرق بين الإيمان المطلق بالقيادة مهما انحرفت بالفكرة عن طبيعتها، وبين الإيمان المقيد بالتزام فكرة محددة المعالم، وأضحة الأسارير.. ولقد كان إيماننا بقيادتنا من هذا النوع المقيد.. وإذا كان النوع المطلق هو الإيمان الأعمى، فإن الإيمان المقيد هو الإيمان البصير.

ومن هنا كان الإيمان بالفكرة أساساً للإيمان بالقيادة. فإذا لم تكن الفكرة واضحة محددة، وارتضت فئة من الناس لنفسها أن تؤمن بها على هذا الوضع الغائم الباهت المائع؛ فإن المؤمنين بالقيادة على أساس فكرة كهذه لن يشعروا فى يوم من الأيام مهما انحرفت قيادتهم أن قيادتهم قد انحرفت.. لأن فى ميوعة الفكرة التى آمنوا بها متسعاً لكل انحراف.. ولعل هذا بعض ماتعانى منه بلادنا فى هذه الأيام .

فلقد ادعت قيادة هذه البلاد منذ ربع قرن من الزمان أنها ابتدعت فكرة إصلاحية سمتها أول الأمر اشتراكية تعاونية، ثم دعتها بعد ذلك ديمقراطية اشتراكية، ثم اشتراكية عربية.. وفى خلال ذلك كله لم تستطع أن تحدد معالم لهذه الفكرة تميزها عن غيرها؛ بل تركتها غائمة هلامية، تشكلها حسب الأهواء والظروف، وتزيد عليها، وتنقص منها.. ولما كان سلاح السلطة فى يد هذه القيادة، فقد استطاعت أن تحجب عن الجيل الناشىء كل الفكر والمبادىء والدعوات؛ فلم ير أمامه إلا هذه الفكرة الهلامية، فآمن بها وآمن بصاحبها.. واعتماداً على هلامية الفكرة، استطاع صاحبها أن ينحرف بها كما شاءت له أهواؤه وحكمت عليه ظروفه.. حتى صارت فى يوم من الأيام أقرب إلى الفكر الشيوعى بل وجدنا أنفسنا ندور مع الدائرين فى فلك الفكر الشيوعى.

وهكذا جنت هلامية الفكرة على من ارتضوا اعتناقها؛ حيث ظل إيمانهم بقيادتها على

نفس المستوى ، فى حين انحرفت الفكرة وانحرفت القياده وهم لايشعرون .

وهنا تكمن خطورة أشخاص اختصتهم القدرة الإلهية بحظ لابأس به من مواهب القيادة، فاستعملوا هذا الحظ الذى أنعم الله به عليهم فى غير ماشرع الله.. استغلوه فى تحقيق أغراض شخصية، وبناء زعامة لأنفسهم تثبت أقدامهم فى أسباب السلطة، مهما اقتضى ذلك من إغفال لمصالح الشعوب التى ائتمنتهم على مصالحها.. فضلوا وأضلوا وانتهوا إلى كوارث حاقت بهم وببلادهم.. وإخال أن هؤلاء هم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة ﴿**ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار**﴾ .

* * *

تاسعاً ــ معايير للإيمان عند البلاء :

أصحاب الدعوات الجادة معرضون لألوان مختلفة من المشاق عليهم أن يخوضوها ويصبروا عليها . والقرآن الكريم يزخر بفيض من الآيات التى لاتدع لمؤمن عذراً أن يهرب من الميدان، بدعوى أنه بوغت بهذه المشاق التى كان خالى الذهن عنها؛ فمثل هؤلاء يفضح كذبهم ماافتتحت به سورة العنكبوت ﴿**آلَمٓ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾ ويصدعهم قوله تعالى ﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب**﴾ .. ولو شئنا أن نأتى بعشرات الآيات فى هذا الصدد لما بذلنا أى جهد، ولكننا نكتفى بهذه الإشارة، وننتقل إلى السنة المطهرة فنقتطف من بستانها الوارف زهرة واحدة؛ فهى بمثابة شرح ماأجمله القرآن: يقول الإمام أحمد بن حنبل:

حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إنى قد كبرت سنى وحضر أجلى، فادفع إلىّ غلاماً لأعلمه السحر . فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر . وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه ــ وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ماحبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا: ماحبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسنى أهلى. وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسنى الساحر .

قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة، قد حبست الناس فلا

يستطيعون أن يجوزوا فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر. قال: فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس. ورماها فقتلها ومضى الناس.. فأخبر الراهب بذلك فقال: أى بنى، أنت أفضل منى. وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل علىّ فكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم.. وكان جليس للملك فعمى فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفنى ولك ماهاهنا أجمع. فقال ماأنا أشفى أحداً، إنما يشفى الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك. فآمن فدعا الله فشفاه.

ثم أتى الملك فجلس منه نحو ماكان يجلس. فقال له الملك: يافلان، من رد عليك بصرك؟ فقال: ربى.. فقال: أنا؟ قال: لا، ربى وربك الله. قال: أولك رب غيرى؟ قال: نعم، ربى وربك الله.. فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام.

فبعث إليه فقال: أى بنى، بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ماأشفى أنا أحداً، إنما يشفى الله عز وجل. قال: أنا؟ قال: لا. قال: أولك رب غيرى؟ قال: ربى وربك الله. فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب فقال: ارجع عن دينك. فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه. وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض.

وقال للغلام: ارجع عن دينك. فأبى. فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدهوه من فوقه. فذهبوا به فلما علوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون.. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: مافعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله.. فبعث به مع نفر فى قرقور (سفينة صغيرة) فقال: إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه فى البحر. فلججوا به البحر. فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت. فغرقوا أجمعون. وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ماذا فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله.

ثم قال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ماآمرك به، فإن أنت فعلت ماآمرك به قتلتنى، وإلا فإنك لاتستطيع قتلى. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس فى صعيد واحد، ثم تصلبنى على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتى ثم قل «باسم الله رب الغلام» فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى. ففعل ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه وقال «باسم الله رب الغلام» فوقع السهم فى صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات.. فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: أرأيت ماكنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فخدت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران. وقال: من

رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها. قال: فكان الناس يتعادون فيها ويتدافعون. فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع فى النار، فقال الصبى، اصبرى ياأماه، فإنك على الحق».

وتعليقاً على هذا الحديث الشريف نقول:

١ ـ هذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده، ورواه الإمام مسلم فى صحيحه، كما رواه النسائى، وقد جوّده الإمام الترمذى.

٢ ـ قرر هذا الحديث أن الحق والباطل لايجتمعان فى مكان واحد، وأنهما إذا وجدا فى مكان واحد فلابد من صدام، يبدأه الباطل بالاعتداء، بعد أن تعوزه الحجة فلا يجد أمامه من سلاح إلا البطش والظلم والتنكيل.

٣ ـ يظن أهل الباطل أنهم يستطيعون بما أوتوا من وسائل القهر والبطش والتعذيب والإبادة أن يستأصلوا شأفة الحق ويمحوه من الوجود؛ ولكن واقع التاريخ ينبئنا بغير ذلك، فالعاقبة تكون دائماً للحق وأهله ﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾.

٤ ـ ليس شرطاً على الله عز وجل أن يخرق العادات لينجي أهل الحق من بين براثن المبطلين فقد يترك سنن الكون تأخذ مجراها امتحاناً لأهل الحق وإملاءً لأهل الباطل؛ حتى يأخذهم بجريرتين جريرة اعتناقهم الباطل، وجريرة اعتدائهم على أهل الحق، وحتى يسجل عليهم الخزى فى الحياة الدنيا.. فلا تزال الأجيال المتعاقبة تدرس ممارستهم للظلم، واعتداءهم على العزل من أهل الحق؛ فتلحقهم بذلك لعنة هذه الأجيال حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿**وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة. ويوم القيامة هم من المقبوحين**﴾.

٥ ـ من أخطر أضرار السلطة، أنها تبعث فى نفس صاحبها أسباب الغرور. ولا يزال هذا الغرور يستبد بصاحبه حتى ينسى أنه مخلوق حقير، فيدعى الألوهية. ويظل يعيش فى هذا الوهم ضالاً هائماً لايوقظه إلا قارعة تصيبه أو تحل قريباً من داره.. وليته يفيء إلى الحق، وقد امتلأ صدره بكبر ماهو ببالغه.

٦ ـ هؤلاء المغرورون من أصحاب السلطة لن يعدموا أن يجدوا بطانة تؤمن بباطلهم، وتقدس أشخاصهم، وتضع نفسها فى خدمة ظلمهم، وتزين لهم أعمالهم، وتجد سعادتها فى مشاركتهم فى البطش والإرهاب. وهؤلاء هم الذين يقولون يوم القيامة ﴿**ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً**﴾ فيرد عليهم الله عز وجل بقوله

﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ ولكن لاتعلمون﴾.

٧ ــ حين يخرق الله تعالى العادات لإنسان مقرب إليه، لايفعل ذلك تكريماً لهذا الإنسان، بقدر مايفعله تحقيقاً لأمر عظيم يتغير معه مجرى الأحداث ويتبدل به وجه التاريخ. فلم يكن خرق العادات للغلام مجرد تكريم له، وإنما كان وسيلة لدخول أهل المملكة بقضهم وقضيضهم فى الإيمان بعد أن كانوا كافرين.

٨ ــ للإيمان باللمس حلاوة تهون أمامها كل المرارات؛ مرارة الإيذاء والإهانة، ومرارة التنكيل والتعذيب وحتى مرارة الموت، وهذا كان حال الراهب وحال الغلام وحال جليس الملك الأعمى وحال أهل المملكة الذين احتشدوا ليشهدوا قتل الغلام.. ولذا فإنهم كانوا يتسابقون إلى النار التى أججها الملك فى الأخاديد غير هيابين ولا مترددين ولا جزعين.

والإيمان باللمس هو النوع من الإيمان الذى لايتطرق إليه الشك، ولا يطرأ عليه الضعف، ولا يتسرب إليه الوهن، وهو النوع الذى طلبه إبراهيم من ربه سبحانه حين قال: ﴿رب أرنى كيف تحيى الموتى﴾ ﴿قال أولم تؤمن؟﴾ ﴿قال بلى ولكن ليطمئن قلبى﴾ ﴿قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً، واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

٩ ــ حكم العقل والمنطق كان يقضى ــ وقد رأى الملك بنفسه صدق الغلام ــ أن يكون هو أول المؤمنين برب الغلام، ولكن الذى حدث كان عكس ذلك. فقد جحد وتغطرس، وازداد إمعاناً فى الظلم والعسف فهل كان الملك فاقداً عقله؟ والرد على ذلك يقرره القرآن فى قوله تعالى ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله﴾.

وفى قوله ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾.

فالإنسان ليس مسيراً بعقله وحده، وإنما تسيره مع العقل عواطفه وهواجس نفسه والظروف المحيطة به. وهواجس النفس وعواطفها إذا وجدت من البيئة المحيطة بها مايستجيب لها ويفسح المجال أمامها، تنطلق متضخمة معربدة حتى تكون لها السيطرة على صاحبها، فيقول العقل كلمته، ولكن هذه تقذف بهذه الكلمة بعيداً لتكون هى وحدها القاضية الحاكمة.. وأولئك الذين بوأتهم

الظروف دست السلطة يجدون ممن حولهم عادة من ينفخون فى أوداجهم، وينفثون فى روعهم ماينسيهم — كما قدمنا — حقيقة أنفسهم، وتستبد بهم الأوهام يوماً بعد يوم حتى يحملوا الناس على عبادتهم — وقليل من الحكام من استطاع النجاة من هذا الأخطبوط اللعين.

١٠ — طلب الراهب من الغلام إذا هو امتحن أن لايدل عليه. ولا شك فى أن الغلام قد تعهد للراهب بذلك.. ثم جاء الامتحان، وأمر الملك بتعذيب الغلام حتى يدل على الذى علمه.. وظلوا يعذبون الغلام حتى دل على الراهب. وأتى بالراهب فقتل.

وهنا قضية ينبغى تمحيصها وتتلخص فى هذا السؤال:

هل إخلال الغلام بعهده للراهب، وإفضاؤه باسمه تحت تأثير التعذيب، وكشفه لهم عن مكانه.. هل فى هذا جريمة خلقية تمس الإيمان وتجرحه؟

لاشك فى أن الغلام كان يعلم أن ظفرهم بالراهب معناه قتله، فهل باء الغلام بذنب مقتل الراهب؟ إن الحكم فى هذه القضية يهمنا نحن الإخوان المسلمين باعتبارنا أصحاب دعوة تعرضنا لما تعرض له هذا الغلام، وكان من بعضنا ماكان منه، وتسبب إفضاء بعضنا بأسماء آخرين فى القبض عليهم وإرهاقهم وسجنهم وتعذيبهم وقتلهم.. واعتقد الكثيرون من الإخوان أن هؤلاء الإخوة الذين دلوا على غيرهم تحت سوط التعذيب ناكثون بعهدهم، مفرطون فى حق دعوتهم، واعتبروهم قد وهنوا واستكانوا. وأخذوا يغضون عنهم الطرف حتى شعروا بأنهم منبوذون.

إن قصة الغلام تقضى بأن على الإخوة اللائمين أن يعيدوا النظر على ضوء هذا الحديث.. فلو كان الإدلاء بشيء مما يرضى الأعداء تحت تأثير التعذيب يجرح الإيمان، لرفع الله تعالى يده عن هذا الغلام الذى دل على الراهب، ولما أبقاه فى كنفه، وأجرى على يديه خوارق العادات حتى أسلم شعب المملكة بأسره على يديه.

على أن ذلك لايتناقض مع صريح القرآن حيث يقول تعالى **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان. ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾**

* * *

عاشراً — بعد كل الذى حدث أين الإخوان المسلمون الآن؟

والآن وقد وضعت التجربة بين يدى القراء الكرام بحذافيرها، نريد — ونحن نطل

الآن على منتصف الثمانينيات ــ أن نعيد النظر فى هذه التجربة ونحيله فيها من أول يوم فيها حتى آخر يوم. ولقد استغرقت التجربة ربع قرن أو يزيد، وأمكن عرضها فى هذه الصفحات، ويمكن إجمالها فى النقاط التالية:

١ ــ نشأة فى أحضان الإخوان المسلمين.

٢ ــ قيام «بالثورة» فى حماية الإخوان المسلمين بعد التعهد بجعلها لحساب الإسلام.

٣ ــ نجاح «الثورة» والتملص من العهد.

٤ ــ محاولات لاحتواء هيئة الإخوان المسلمين وتطويعها لإرادة عبد الناصر وأهوائه بوسائل منها:

أ ــ باللف والدوران حولها.

ب ــ بإنشاء هيئات ضرار بجانبها.

جـ ــ باستغلال قيادة النظام الخاص فى افتعال فتن داخلية.

د ــ بإصدار قرار بحل الهيئة واعتقال المرشد العام وقيادات الهيئة مع تسوىء سمعتها باللجوء إلى الكذب.

٥ ــ فشل كل هذه الجهود، واضطرار عبد الناصر للتظاهر بالإذعان مع تنويم الإخوان مستغلاً فى ذلك ماهو معروف عنهم من تمسكهم بعهودهم ــ حيث دبر فى ظل ذلك مظاهرات مأجورة قلبت الوضع وجعلته فى موقف القوة وجعلت الإخوان فى موقف الضعف.

٦ ــ محاولة لتدارك الموقف بعد أن أخذ فى التدهور السريع؛ فى محاولة للحصول على هدنة يسترد الإخوان فيها أنفاسهم ويراجعون فيها خططهم على ضوء واقع جديد ــ وفشل هذه المحاولة.

٧ ــ محاولة عبد الناصر خلع المرشد العام، وتسخير وسائل الإعلام لنشر الأكاذيب عن الإخوان مع حرمان الإخوان من جميع وسائل النشر.

٨ ــ فشل هذه المحاولة وظهوره بنفسه على المسرح.

٩ ــ استخدامه جميع وسائل البطش والإرهاب عام ١٩٥٤، مما لم يسبق له مثيل بقصد إبادة الهيئة مع تسخير جميع وسائل الدولة وإمكاناتها فى ذلك.

١٠ ــ أحكام بالإعدام والسجن المؤبد وبآلاف السنين على مختلف أفراد الإخوان مع استعمال كل أساليب التعذيب حتى الموت.

١١ ــ إعادة الكرة مرة أخرى فى عام ١٩٦٥. وكانت الأولى لحساب الغرب أما هذه المرة فكانت لحساب السوفييت ــ وهذه المرة كانت على أوسع نطاق

وبوسائل تعذيب وإبادة مستحدثة للقضاء هذه المرة لاعلى الإخوان المسلمين فقط بل على كل من يمتون إلى الفكرة الإسلامية بسبب من قريب أو من بعيد.

* * *

هذه هى خطوات التجربة مجملة غاية الإجمال. وقد قصدنا بجمعها فى هذه السطور بعد أن قرأ القراء تفاصيلها لنوجه إليهم بعد ذلك سؤالاً:

هل نجح عبد الناصر فيما كان يريد تحقيقه فيما يتصل بهيئة الإخوان المسلمين؟ — ولتوضيح هذا السؤال نقول: إن عبد الناصر كان يريد فى أول الأمر أن يطوع هذه الهيئة لإرادته، فلما فشل فى ذلك نتيجة وجود حسن الهضيبى حول كل جهوده إلى إزاحة هذا الرجل من مكانه، فلما فشل فى ذلك قرر القضاء على هذه الهيئة قضاء مبرماً لاقيام لها بعده، وفعل فى سبيل ذلك مالا يخطر ببال إنسان من البطش والقتل والتعذيب والإرهاب. ومات عبد الناصر والمرشد وآلاف الإخوان فى السجون.. فهل حقق عبد الناصر هدفه فى إبادة الإخوان؟

والإجابة على هذا السؤال ليست فى حاجة إلى إعمال فكر، ولا الغوص وراء حسابات ولا إلى الحدس والتخمين، وإنما هو مجرد النظر إلى الواقع الذى نعيشه ويعيشه الناس.

هل انقرض الإخوان المسلمون؟ سؤال يجيب عليه الواقع فيقول:

إن هؤلاء الذى ادعى عبد الناصر أنه أبادهم أصدروا مجلة الدعوة فكان توزيعها يفوق الثمانين ألف نسخة من العدد الواحد.. إن هؤلاء الذى ادعى عبد الناصر أنه أبادهم هم الذين رشحوا فرداً منهم فى إحدى دوائر الإسكندرية ضد خمسة عشر مرشحاً أكثرهم من وزرائه فى أول انتخابات حرة لمجلس الشعب فنجح هذا الفرد وسقط الباقون.

هؤلاء الذين اعتقد عبد الناصر أنه أبادهم هم الذين تشهد المناسبات التى تتبارى فيها كل الأحزاب والهيئات فى إظهار مدى نفوذها الشعبى.. فتشهد هذه المناسبات بأن جموع المستجيبين لنداء الإخوان أضعاف المستجيبين للحكومة وحزبها مع مافى الاستجابة لحزب الحكومة من مغريات وما يرجى من حوله من مغانم — بل إن اجتماعاتهم الأسبوعية فى بيوت الله — دون دعوة ولا تحضير — تفوق اجتماعات أنصار الحكومة التى تعد لها بكل

وسائل الإعداد والإغراء.

لازال الإخوان يحتلون مكانهم المرموق فى الحياة الاجتماعية والحياة السياسية فى مصر، ولا زالت تتحرك بإشارتهم عشرات الألوف فى كل موقع من مواقع الحياة فى مصر — ولازالت فكرتهم عالية شامخة، ولا زال تيارهم دفاقاً قوياً يشق طريقه وسط كل التيارات لايتوقف لحظة واحدة مهما ووجه مده بمعوقات وعقبات.

لاننكر أن الإخوان فقدوا الكثير من الأرواح والأجسام، ولكنهم لم يفقدوا ذاتهم التى أحاطوها بأرواحهم وأجسامهم فنال البطش كثيراً من هذه الأرواح والأجسام ولكن ذاتهم لم تمس، ولم تصل إليها اليد الباطشة، مع أن الذات كانت هى المقصودة.. لقد كانت ذاتهم فى ذلك الوقت متمثلة فى مرشدهم؛ فلو أنهم فرطوا فيه أو سلموا بتنحيته لذابت فكرتهم فى محيط أهواء عبد الناصر، ولخرجت آخر الأمر شيئاً آخر اسماً على غير مسمى، ولفظاً بلا معنى؛ كأحزاب الحكومة معالم فكرتها ماتحدده لها أهواء رئيسها.. وإذن لحفر التاريخ بيده قبراً يوارى فيه رفاتها، ولكانت لافتاتها بعد ذلك عند الشعب بمثابة شواهد لهذا القبر كتب عليها اسم صاحبه.

ولكن صبر عشرين عاماً على أشد مايخطر ببال من القهر والعذاب والإذلال حفظ لهذه الفكرة تميزها. فلا زال يهتف بها اليوم بنفس الصيغة وبنفس الألفاظ التى هتف بها حسن البنا فى أول هتاف له بها — ولا زالت تزهى بطهرها وبراءتها ونقائها مثل صرة من الجواهر النفيسة ألقيت فى القذارات.. وأهيل عليها جبل من هذه القذارات. فلما رفعت هذه القاذورات إذا بالجواهر النفيسة محفوظة داخل صرتها، محتفظة بلمعانها وبريقها ونفاستها ﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم**﴾.

إنك لتقابل الأخ المسلم الذى قضى زهرة شبابه فى أتون البلاء.. فماذا تقرأ فى ملامح وجهه؟ وماذا تسمع من بنات لسانه؟.. إنك لاتلمح إلا الرضا، وكأن هذا الوجه لم تسل دماؤه تحت أسواط العذاب، وكأنه لم يضرج بدمائه فى الرغام.. ثم إنك لاتسمع منه إلا حمد الله وشكره لاعلى أنه نجا من أيدى الظالمين، وإنما على أن دعوته خرجت من المعركة سالمة لم تستطع يد الظلم والإرهاب — التى نالت من أصحابها — أن تنال منها ولا أقل القليل!.. حقا صدق رسول الله ﷺ «ألا إن سلعة الله غالية».

لقد فشل عبد الناصر فيما قيض لتحقيقه كل جهوده، وبذل للوصول إليه كل حياته.. فراح إلى حيث يروح كل جبار عنيد.. راح تلحق به مظالمه.. ولكن دعوة الإخوان المسلمين بقيت كما كانت عزيزة شامخة.

ومثل ماكان من أمر الإخوان المسلمين مع عبد الناصر، كمثل رجل آلت إليه عن أبويه وثيقة يمتلك بها داراً فارهة عظيمة. فجاء أحد أقاربه ــ وقد نفس عليه أن يمتلك مثل هذه الدار ــ طامعاً فى أن يضع يده عليها، وحاول ذلك بوسائل وحيل ماكرة ففشل.. فألب عليه خاصة أهله الأقربين ملوحاً لهم بأنه إذا آلت إليه الدار فسيكونون شركاءه فيها ــ ولكن هذه المحاولة فشلت كذلك.. فراح واستأجر عصابة من المجرمين، وهاجموا الرجل محاولين استخلاص الوثيقة منه، ولكنهم وقد استفرغوا كل جهدهم معه وأذاقوه ألوان العذاب حتى شرحوا جسده ضرباً وتجريحاً.. ومع ذلك ظل مستمسكا بالوثيقة.. وخارت قواهم ومات مستأجرهم ففروا هاربين.. وقام الرجل مثخنا بالجراح ولكن الوثيقة فى قبضة يده.

وعند هذا الحد من الكتابة فى هذا الفصل فكرت فى عبارات أختمه بها، وأرجأت ذلك بعض الوقت حتى قرأت فى ٢٩/٧/٨٤ بجريدة الأهرام تحت عنوان «ثرثرة مع الحكيم على فراش المرض» وهو نقاش يديره الأستاذ صلاح منتصر مع الأستاذ توفيق الحكيم ينشره فى حلقات أسبوعية بمناسبة ذكرى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ــ وكان دور هذه الحلقة الرابعة من النقاش يدور حول كتاب «عودة الوعى» الذى أصدره توفيق الحكيم بعد وفاة عبد الناصر، فرأيت أن أنقل منه فقرات تكون خاتمة لهذا الفصل:

يقدم الأستاذ صلاح منتصر لنقاشه مع الحكيم بهذه المقدمة: لماذا كتب توفيق الحكيم «عودة الوعى»؟ لماذا قال عن عبد الناصر ماقاله بعد أن مات، وهو الذى منحه حياً أرفع الأوسمة وأعلاها؟ ماذا يقول لعبد الناصر عندما يلتقى به فى الآخرة؟ ثم وجه إليه السؤال:

سؤال: ماالذى بهذا المفهوم أردت أن تقوله فى «عودة الوعى»؟

الحكيم: أن تفتح الملفات.. أن يكون هناك نقد موضوعى للنظام الذى استقبلته بالحماسة، والذى تحول شيئاً فشيئاً إلى نظام بوليسى، وأدى إلى هزيمة منكرة من عدو صغير.

هزيمة أى دولة عسكرياً ليست مصيبة. ولكن المصيبة الأعظم والأكبر والأخطر فى هزيمتنا من إسرائيل هى أن البرلمان المفروض فيه أن الشعب اختاره ليسأل ويستجوب؛ لم يجرؤ نائب واحد من أفراده أن يقف ويقول: إنه مع حبنا وإجلالنا العميق لزعيمنا، فإننا فى إطار حبنا له وإخلاصنا له وللثورة فإننا نريد أن يوضح لنا أمراً واحداً.. هو كيف وقعت الهزيمة.

مجرد سؤال يلقيه نائب واحد بكل الاحترام.. لم نسمعه.. وبدلاً من ذلك فإن الذى حدث فى مجلس الشعب عندنا بعد الهزيمة هو الرقص؟! نعم.. نائب يرقص!!

إذن كنا وكان نوابنا فى حالة وعى غائب، أو فى نظام جعل الناس يعتادون الهتاف والتصفيق. وغاب عنهم الوعى بضرورة السؤال والمناقشة.

سؤال: ماذا تقول لعبد الناصر عندما تلتقى به فى الآخرة؟ لو سألك فى هذا اللقاء عن أخطائه فى الحكم فماذا سوف تقوله له؟

الحكيم: سأقول له: إنك حاولت أن تكون أباً يفعل مالا يجوز أن يفعله الأب؛ عندما يحدد لابنه كل خطواته؛ ماذا يأكل وماذا يشرب، ومن يحب ومن يكره، ومن يتزوج، وماذا يقرأ، وماذا يقول، وأين يسهر، ومن يصادق ومن يعادى.

سأقول له: إنك جعلت البلد فى إطار من صنع عبد الناصر. وهذا أدى بنا إلى فقد شخصيتنا، ووصل بنا إلى فقد وعينا. وعندما وقعت الهزيمة لم يجرؤ واحد على الوقوف وتوجيه مجرد سؤال بسيط عن سبب ماحدث.

سأقول له أيضاً: إنك حجبت قراءة تاريخ مصر عن الشعب، وإنك أمسكت تاريخ مصر وضغطته ووضعته فى جيب الثورة؛ وهذا أضعف شخصية مصر، بينما كانت مسئوليتك أن تثقف الشعب وتعلمه وتجعله يختار الطريق الذى يريده».

هذا.. وهناك نقطة هامة لايفوتنى أن أنبه إليها وأعدها غاية فى الأهمية؛ تلك هى أن الخطة التى وضعت بإحكام للقضاء على الإخوان المسلمين ــ والله يعلم أين وضعت هذه الخطة هل فى مصر أم فى خارج مصر ــ كانت أن يقضى الإخوان المسلمون بأنفسهم على أنفسهم حتى يكون القضاء بذلك قضاء مبرماً لاقيام بعده.

ولكن الذى حدث أن كل الأساليب التى خطط لها ليكون القضاء عن طريقها بهذه الطريقة ــ باءت جميعاً بالفشل.. فلم يبق أمام المخططين والمنفذين إلا الطريق الوحيد الذى حاولوا تفاديه من قبل وهو طريق المواجهة، وهو طريق بالرغم من كل مافيه من قسوة وفجور ووحشية، فإنه لايؤدى فى النهاية إلى القضاء على هيئة تقوم على أسس راسخة من المبادىء السامية، والتربية الروحية الصافية والارتباط القلبى بخالق الكون.. وهم كانوا يعلمون ذلك ولكن لم يكن أمامهم من سبيل آخر بعد أن جربوا كل وسائل التفجير من الداخل.

وهكذا تفادى الإخوان المسلمون ــ بتوفيق من الله وحده ــ قفزة الموت التى حوصروا من كل مكان حتى يقفزوها، ولكن الحق تبارك وتعالى عصمهم وأبقى عليهم.

ولما وصلت إلى هذا القدر فى المذكرات التى أنقلها من مسوداتها، وجدتنى كنت فى هذه

المسودات قد تجاوزت هذا القدر وكتبت عن عهد السادات إلى أواخر عام ١٩٧١ . ويبدو أننى حين كتبت ماكتبت عن هذا العهد إلى هذا التاريخ قد خطر لى آنذاك أن أضمن هذا القدر من عهد السادات الجزء الثالث هذا ولكن خطر لى فى نفس الوقت خاطرة أخرى جعلتنى أذيِّل ماكتبت بالعبارة الآتية التى أنقلها للقراء من المسودات: «ولابد أن القارىء واجد نفسه مشغوفاً إلى مواصلة قراءة التعليق على ماجد من أحداث بعد ذلك ولكننا نقف فى هذه المذكرات عند هذا الحد، لأن الحكم الصحيح لاينبغى أن يجتزى فترة من عهد من العهود فيحللها ويصدر حكمه عليها، بل ينبغى أن يتريث المراقب حتى يتم العهد كاملاً بما فيه من سلب وإيجاب، فينظر فيه نظرة شاملة تستوعبه جميعا، فإذا أصدر حكمه حينئذ كان أقرب إلى العدالة والصواب.

* * *

الفصل الثانى

كبح مؤامرة اشرأبت بعنقها مرة أخرى

فى الفصل الخامس من الباب الرابع من الجزء الثانى من هذه المذكرات، وفى صدر الحديث عن «حسن البنا وكبار الدعاة فى العالم الإسلامى فى العصر الحديث» بعد أن استعرضت عدداً من أبرز هؤلاء الدعاة، وألمحت بلمحة سريعة مجملة عن معالم أسلوب كل منهم فى الدعوة، وعقبت على ذلك ببيان عن موقف حسن البنا من هؤلاء الدعاة.. وفى صفحة ٤٠٢ كتبت نحو خمس صفحات تحت عنوان قصدت أن يكون بارزاً يلفت النظر نصه: «**مزيد بيان وتحذير من تدبير خطير ــ تجريح قادة الدعوة الإسلامية أسلوب خبيث لهدم هذه الدعوة فى نفوس المسلمين**».

والمطالعون لهذا الجزء من الكتاب قد يحسون ــ حين يقرأون هذه الصفحات الخمس ــ أن هذه الصفحات قد أقحمت على السياق إقحاماً.. ولمن أحس بهذا الشعور من القراء العذر؛ فلقد كان هذا الجزء من الكتاب معداً للطبع دون أن يكون فيه هذا الموضوع.. ولكن موقفاً طرأ فى آخر لحظة ألزمنى أن أقحم هذه الصفحات.

ومن حق القراء أن يحيطوا بهذا الموقف علماً؛ لاسيما وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك أننى كنت محقاً فى المسارعة إلى الكتابة فيه والتحذير من أخطاره.

ذلك أنه بعد أن نشر الجزء الأول من هذه المذكرات جاءنى أحد الأحباب يستأذننى فى أن يزورنى أربعة من الإخوان ليعرضوا بعض ملاحظات لهم فيما يتصل بنقاط معينة فيه؛ فرحبت وحضر الأربعة الذين لم أكن بعد قد شرفت بمعرفتهم ومعهم أخوان وثيقا الصلة بى.. والإخوة الأربعة من الجيل الإخوانى الحديث المثقف المتطلع إلى المعرفة، ويشغلون مناصب تعليمية مرموقة.

وكانت أكثر ملاحظاتهم استفساراً قمت ببيانه.. حتى داهمونى آخر الأمر بملاحظة أذهلتنى. وقد استغرقت ملاحظتهم هذه أكثر الوقت. وتبين لى أن هذه الملاحظة ليست

مجرد ملاحظة، بل هي اعتراض منهم على نقطة معينة كانت هي بيت القصيد والغرض الأصيل من زيارتهم.. لأنني لاحظت في عرضهم لحججهم في هذا الاعتراض أنهم كانوا في أكثر الوقت يرجعون إلى ورقة بأيديهم يقرأون منها بعض نصوص كأنما نقلوها من مرجع من المراجع.

وقد صبرت حتى أنهوا ماعندهم.. فسألتهم عن هذا المرجع الذى استقوا منه هذه المعلومات، فلما علمته تكاملت صورة الموضوع فى خاطرى، ووضح لى أن هؤلاء الإخوة الأربعة إن هم إلا ضحية مؤامرة محبوكة الأطراف للقضاء على الدعوة الإسلامية، وهدمها فى نفوس المسلمين بطريقة ماكرة مبتكرة. وإذا كان هؤلاء إخواناً مسلمين ووقعوا فى حبائل هذه المؤامرة فما بالك بعامة المسلمين؟!

وكان الذى أتم صورة المؤامرة فى خاطرى أننى أعرف عن مؤلف المرجع الذى يرجعون إليه مالا يعرفه غيرى وغير أربعة أو خمسة من قادة الإخوان المسلمين حين كنا طلبة بالجامعة وكان هذا المؤلف زميلاً لنا طالباً فى كلية الآداب.

والعجيب فى الأمر أن موضع الاعتراض الذى استغرق منهم فى مواجهتى به أكثر الوقت وأطول الحديث ــ وكان الحديث كله من جانبهم فقد كنت فى موقف المستمع ــ عبارة وردت فى صفحة ١٤٣ من الجزء الأول فى صدد حديثى عن مقال لى كنت كتبته فى مجلة الإخوان المسلمين فقلت :

«وقد تحدثت فى هذا المقال عن تسلسل قيادات الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث ومنها جمال الدين الأفغانى ثم الإخوان المسلمون، ووازنت بين هذه الأطوار للدعوة الإسلامية، وأثبت أن دعوة الإخوان استوعبت الدعوتين (دعوة جمال الدين ودعوة السنوسية) وزادت عليهما بنظام أشمل، وقيادة أشد إحكاماً وأبعد نظراً».

فكان اعتراضهم منصباً على ذكر جمال الدين الأفغانى باعتباره أحد قادة الدعوة الإسلامية.. وأخذوا يكيلون له التهم، ويصمونه بالماسونية، ويتهمونه بالعمالة للمستعمرين، ويشككون فى إيمانه؛ مستقين كل هذه التهم من المرجع الذى أشرت إليه، والذى كان صاحبه يشغل فى ذلك الوقت منصباً مرموقاً فى جامعة الإسكندرية.

ولما أنهى إخواننا هؤلاء كل ماعندهم من «معلومات» فى تحطيم شخصية جمال الدين الأفغانى، اتجهوا إلىّ ينتظرون منى جواباً.. غير أنى اعتصمت بالصمت لحظة وفى صدرى مرجل من الغضب يغلى ويتأجج.. فلما ألحوا فى سماع جوابى انفجرت قائلاً:

أيها الإخوة.. صدقونى إذا قلت لكم إن هذه الليلة هى من أسوأ مامر بى فى حياتى من ليال.. إن ماسمعته منكم الآن هصر قلبى وفت كبدى.. إنكم أربعة من خيار

الإخوان المسلمين وقد وقعتم مع ذلك فى حبائل مؤامرة خبيثة حيكت بدهاء ومهارة للقضاء على الدعوة الإسلامية بتشكيك المسلمين فى قياداتهم، وبإفقادهم الثقة فيهم.. وإذا كنتم لاتعرفون مؤلف المرجع الذى ترجعون إليه فأنا أعرفه..

وصدر الجزء الثانى من هذه المذكرات فى أول يناير من عام ١٩٨١ وقد أقحمت فيه الصفحات الخمس.. وكنت أعتقد أن المؤامرة قاصرة على هذا المرجع الذى يرجع إليه أصحابنا؛ وقد ألمحت فى الصفحات الخمس إلى تاريخ مؤلفه وعلاقاته بالجهات المشبوهة مما قد يضىء الطريق أمام الباحثين والمطالعين فلا يأخذوا الكلام على عواهنه دون أن يعرفوا ماوراءه وما حوله.. وقلت إنها مؤامرة دست علينا سمومها فى هذا المرجع، وحمدت الله أن أتاح لنا فرصة لقاء هؤلاء الإخوة فتنبهنا لها ووضعنا علامة الخطر على رأس الطريق فلم يعد خطر يخشى بعد ذلك على أحد.

وإذا الرواية لم تتم فصولاً!!

ولكن تبين أننا كنا مسرفين فى حسن الظن، حين ظننا أننا قد لممنا بساط الفتنة من جميع أطرافه، وأحطنا بوميض نارها من جميع جهاته.. فلقد فوجئنا بالفتنة تشرئب أعناقها من جديد، وتنطلق ألسنة لهيبها من بعيد ـــ وإن كان البعيد لم يعد فى زماننا هذا ببعيد ـــ فقد قصرت وسائل الإعلام الحديثة المسافات بل ألغتها؛ فالكلمة تلقى فى آخر الدنيا فتقتحم عليك فى نفس اللحظة وأنت هادىء فى بيتك فى أول الدنيا.. ولم تعد لإنسان حصانة أمام وسائل إعلام اليوم إلا التحصن بوسائل إعلام مماثلة تدفع عنك غوائل أخواتها.

جاء شهر إبريل من عام ١٩٨٣ فرأينا الدكتور لويس عوض الكاتب المصرى يكتب «بحثا» فى مجلة «التضامن» التى تصدر فى لندن باللغة العربية تحت عنوان «الإيرانى الغامض فى مصر» ويقود فى بحثه نفس الحملة الشعواء التى كنا قد تصدينا لها فى الجزء الثانى من كتابنا.. ولكن الحملة هذه المرة كانت أشد خطراً لأنها ليست بين دفتى كتاب قلّ من يفكر فى اقتنائه، وإنما تصدر هذه المرة فى مجلة سيارة دورية تصدر فى عاصمة من أعظم عواصم العالم، تصل بكل سهولة إلى يد كل قارىء؛ فتجد من يقرأها وتجد من ينقل عنها ومن فاته قراءتها هذا الأسبوع فسيقرأها فى الأسبوع التالى «والبحث» مسلسل.

ومهما قيل عن تقطع أوصال المسلمين، وتشتت جماعتهم، وغفلتهم عن دينهم، وتفريطهم فى حق تاريخهم؛ فإن هناك ومضات تنبعث بين الحين والحين فى ظلمات ليل هذه الأمة الطويل؛ تضىء فتبعث الأمل من جديد.. ومن هذه الومضات ومضة انبعثت فسطعت على بحث الدكتور لويس عوض فى مجلة «التضامن» فبددت ضباباً اصطنع حول

هذا البحث فكشفت عن حقيقته، وانعكست هذه الومضة فى صورة سلسلة من مقالات ضافية دبجتها أقلام أعلام فى الأدب والعلم والتاريخ أجهضت مؤامرة الدكتور لويس عوض، وأظهرت زيفها، وكشفت عن سوء النوايا من ورائها، ونبهت الأذهان إلى خطورتها، وحذرت — كما حذرنا — من الانخداع بأباطيلها.

ولما كان الرد الذى تولته جريدة الأهرام لم يكن رداً على مجرد مقال، وإنما هو التصدى لمؤامرة عالمية لم يكن الدكتور لويس عوض أكثر من اسم لكاتب رضى لنفسه أن يتخذه المتآمرون ستاراً يلعبون من ورائه فقد نشرت «الأهرام» عشرات المقالات، وقد استغرق نشرها نحو ستة أشهر؛ بدأت فى أواخر أغسطس ١٩٨٣ بافتتاحية للأستاذ أحمد بهجت وختمت بمقال له فى ١٧ سبتمبر ١٩٨٣ ثم عاد فى الشهرين الأوليين من عام ١٩٨٤ إلى الموضوع بتقديم كتاب للدكتور محمد عمارة عنوانه «حقيقة جمال الدين الأفغانى».

ولما كانت هذه المقالات جزءاً من صميم تاريخ الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث؛ فقد وجب على أصحاب هذه الدعوة أن يلموا بها وأن يسجلوها باعتبارها ذخيرة من ذخائرهم. وقد رأيت من جانبى أن أقوم ببعض هذا الواجب إكمالاً وتوضيحاً للصفحات الخمس فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

ولما كان التسجيل الكامل لهذه المقالات يقتضى أن يفرد له كتاب مستقل فقد رأيت أن أجتزىء هنا بنماذج من هذه المقالات مما هو فى صميم موضوعنا.

الأفغانى .. بين الحقيقة والافتراء

هذا هو العنوان العام لجميع المقالات التى كتبت فى هذا الصدد فى «الأهرام» وقد افتتحها الأستاذ أحمد بهجت فى ١٩٨٤/٨/٢٩ بالكلمة التالية:

أيها السادة المثقفون؛ لقد كنا ضحية خديعة فاجعة. كنا جميعاً مخطئين حين تصورنا أن السيد جمال الدين الأفغانى رجل يوزع السعوط بيمناه، وينشر الثورة بيسراه.

كنا مخدوعين حين تصورنا أن جمال الدين الأفغانى ثائر إسلامى، ومصلح اجتماعى، ورجل عظيم أيقظ الشرق من سباته.. إن جمال الدين الأفغانى هو عكس ماكنا نتصور.. إن اسمه ليس هو اسمه.. إن اسمه الأفغانى بينما هو إيرانى. وليته كان إيرانياً فحسب.. إنما هو الإيرانى الغامض.. وهو غامض لأنه أفاق مغامر متلون..

هذا الاكتشاف «المزلى» الجديد يدين بوجوده للدكتور لويس عوض. كشف عنه فى سلسلة المقالات التى يكتبها لمجلة عربية تصدر فى لندن.. ويسمى الدكتور لويس

ماينشره «بحثاً جريئاً».. والأصل فى البحث أن يتحرى الحقيقة، ويحلل الأحداث والمواقف، ويضىء جوانب كانت غامضة؛ بهدف نهائى هو اكتشاف الحقيقة.. أما بحث الدكتور لويس ليس كالبحوث. فهو بحث جرىء. ومن ثم فهو لايلتزم بأصول البحث، ولا يرجع إلى المراجع المحترمة أو المعتمدة؛ وإنما يستند إلى مراجع تشبه تقارير المخبرين السريين التى يكتبونها عن ثائر؛ فيصفونه بكل رذيلة وشر، ويسندون إليه كل نقيصة وبلية.. وشر البلية مايضحك.

ويبذل الدكتور لويس عوض جهداً كبيراً فى بحثه المزعوم، بينما الحقيقة أنه يرسم صورة كاريكاتورية للأفغانى، صورة تفتقر إلى الفن وإن كان هدفها السخرية والتشويه وإسقاط الاحترام.

ويبدو عبث المحاولة فى الجهد الشديد الذى يبذله الدكتور وهو يلوى عنق الأحداث ويستشف منها مايحاول به تشويه صورة الأفغانى.. فهو فى البداية والنهاية إيرانى غامض يتسلل وسط الظلام مدججاً بالمؤامرات.. ولست أعرف كيف فات على الباحث الجرىء أن يحدثنا عن العلاقة بين الأفغانى والخمينى. ولعله يفرد لنا بحثاً فى بحثه الجرىء يربط بينهما ولو بأى رباط. لايهم هنا أن يكون الأفغانى قد مات قبل ميلاد الخمينى. فإن الدكتور لويس يكتب بحثه وفى ظنه أن الناس لاتقرأ ولا تكتب ولا تفهم.

إن تحطيم صور الثائرين المسلمين فى تاريخنا يستهدف عزلنا عن الماضى، ومحاصرتنا فى الحاضر، وتجريدنا من ثروتنا فى الأبطال والزعماء، حتى نصير إلى الفقر والوحدة؛ فيسهل إقناعنا بأى هراء يصبه أصحاب المصالح فى عقولنا.. هذا هو الهدف. وهو هدف كما نرى يصعب السكوت عليه. ومن هنا جاء جهد «الأهرام» فى الرد.

وبعد هذه الكلمة الافتتاحية ننقل مقالين للدكتور جابر قميحه بجامعة عين شمس نشرًا فى يومين متتاليين يومى ٥/٩/٨٣، ٦/٩/٨٣؛ الأول تحت عنوان:

قصور البحث.. وغياب المنهج

ولد جمال الدين الأفغانى فى قرية «أسد أباد» بالقرب من مدينة همدان فى غرب إيران. وليس فى قرية «أسعد أباد» الأفغانية. ونشأ نشأة شيعية. وتلقى التعليم على أيدى الشيعة والبهائيين «مجلة التضامن العدد الأول».. ومعروف أن الشيعة يؤمنون بالتقية أى كتمان الآراء والمعتقدات وإظهار الإنسان خلاف مايبطن.. وقد نشأ الأفغانى فى هذه التقاليد الشيعية التى جعلت منه إنساناً مزدوج الشخصية بل ومتعددها، يفصل الكلام والتعاليم بحسب من يخاطبه، وبحسب ظروف الزمان والمكان حتى بدت تعاليمه وأقواله المأثورة

ومواقفه وتحركاته جملة من المتناقضات التي يصعب نسبتها إلى رجل واحد (التضامن العدد الثانى)

ولم يكن الأفغانى متديناً بالمعنى المفهوم. ولكنه كان ينظر إلى الدين كمجرد دافع للجماهير الجاهلة لتحصيل الاستقلال السياسى أو بناء الإمبراطوريات (التضامن العدد الثالث).

وفى شبابه كان متفرنجاً، لايعيش كالمسلمين ولكن يعيش كالأوربيين. وفيما يبدو لايتبع دينا معينا (التضامن العدد الرابع)ــ وكان يجاهر بعصيان الدين أثناء إقامته فى كابول فكان يفطر علناً فى رمضان (التضامن العدد السادس) فلما جاء إلى مصر شدد عليه رياض باشا أن يهتم بشعائر الدين حتى تقبله بيئة الأزهر (التضامن العدد السابق).

وقد ظهر فى مصر لافى صورة المفكر والسياسى فحسب، بل فى صورة زعيم إرهابى يمكن أن ينظم الجمعيات السرية للاغتيال السياسى على غرار ماكان يفعله الفوضويون فى أوروبا (التضامن العدد الثامن).

* * *

عنوان البحث يبرز أمامنا ثلاث نقاط مهمة هى:

١ ــ منطوق العنوان هو «الإيرانى الغامض فى مصر». وهو بذلك يعد حكماً قاطعاً ــ من ناحية ــ بأن جمال الدين إيرانى الجنسية. مع أن الراجح كما سنرى أنه أفغانى المولد. وهو من ناحية أخرى يقطع بأن شخصيته «غامضة» ذات دروب خفية وخبايا. وذلك يعنى أن ماكتبته عنه أقلام أخرى من صراحة وجرأة ووضوح وتدين ليس بشىء.
والعنوان بهذا المنطوق المثير يذكرنا بعناوين القصص والأفلام البوليسية المثيرة مثل «القاتل المجهول» «والرجل الخفى».

٢ ــ يأتى نشر حلقات البحث بهذا العنوان المثير فى وقت أصبح فيه لكلمة «الإيرانى» انطباع سىء فى نفس القارىء العربى وخصوصاً المصرى، فهو لايطرق سمعه الآن عن الثورة الإيرانية وزعيمها إلا مايحزن ويؤلم ويثير الأسى والنقمة فما بالك إذا كان هذا «الإيرانى» إيرانياً غامضاً. وكأنى بهذا التوقيت الزمنى يهدف إلى خلق لون من «اللقاء أو الربط النفسى» بين الحاضر والماضى القريب الذى عاشه جمال الدين «الإيرانى»، وأن يقرأ العربى عن جمال الدين وطيف الخمينى لايفارق خاطره، وأن يتابع حركات جمال الدين وهو أسير الانطباعات التى تثقل كاهله عن الثورة الإيرانية.

٣ــ إن مجلة التضامن دأبت على تصدير كل حلقة من حلقات البحث بعبارة «بحث جرىء عن جمال الدين الأفغانى» وهو وصف يعكس إيحاءً قوياً بأن هذه الحلقات فيها خروج وتمرد على ماكتبه الكتاب وعرفه الناس عن جمال الدين مع أن البحوث ــ وخصوصاً الأكاديمى منها ــ لاتوصف عادة بالجرأة أو الجبن، ولكنها توصف عادة بالموضوعية والتجرد أو بالهوى والتحيز.

وأعتقد أن القارىء يشهد بالبراعة والتوفيق للمجلة والكاتب فى نطاق هذه الثلاثية التى ذكرتها: فمنطوق العنوان: حكم جازم بالإدانة المسبقة على شخصية «يعتقد» أنها قمة من قمم الشرق فكراً وديناً وخلقاً ــ وتوقيت النشر: أصاب المحز ــ كما يقولون ــ إذ جاء مع جو نفسى مهيأ لتقبل أى مذبحة فكرية ــ مهما كانت ضراوتها ــ لكل ماهو إيرانى. والوصف بالجرأة بعد ذلك يعضد من قيمة البحث ــ ويمنح البحث وصاحبه شهادة بالتجديد والتحرر الفكرى.

* * *

ولكن دعك من هذا العنوان ولننظر إلى طبيعة الأحكام التى «خلعها» الدكتور لويس ــ بكرم فياض ــ على جمال الدين الأفغانى. إنها فى إيجاز ــ تقف على طرف مناقض تماماً لما كتبه علماء غربيون عرفوا بسعة الثقافة والقدرة على التعمق والتحليل والتمحيص من أمثال: رينان وبراون وجولدزيهر ولوثر ستوردارد. ونكتفى بسطور قليلة مما قال براون عنه: «كان جمال الدين فيلسوفاً وكاتباً وخطيباً معاً. وكان يرمى إلى تحرير هذه الدول (الشرقية) من النفوذ الأوربى واستغلال الأوربيين، والنهوض بها نهوضاً ذاتياً من الداخل».

وحتى أرنست رينان الذى هاجم الإسلام فى إحدى محاضراته بالسربون. وتصدى له جمال الدين ناقضاً ماذهب إليه فى مقال نشره جمال الدين فى الجريدة الباريسية «جورنال دى ديبا» ــ يقول رينان عن جمال الدين فى رده على مقاله: «تعرفت بالشيخ جمال الدين من شهرين، فوقع فى نفسى منه مالم يقع إلا من القليلين، وأثر فىّ تأثيراً قوياً. وقد جرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هى موضوع محاضراتى فى السربون.. والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التى طالما أعلناها، وهى أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس. وقد خيل إلىّ من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته ــ وأنا أتحدث إليه ــ أننى أشهد ابن سينا أو ابن رشد...».

كذلك جاء ماكتبه الدكتور لويس مناقضاً تماماً لما كتبه علماء شرقيون عدول من

أمثال محمد عبده ورشيد رضا ومحمد باشا المخزومي وأحمد أمين وعبد الرحمن الرافعي والدكتور عثمان أمين والدكتور محمود قاسم وكذلك سليم العنحوري الشامي المسيحي المهاجر الذى اتهم جمال الدين بالإلحاد ثم تبين له وجه الصواب؛ فكتب معترفاً بخطئه فيما رمى به الرجل العظيم، ولم تأخذه العزة بالإثم.

وأعتقد أن أعدى أعداء جمال الدين وأعدى أعداء الشرق الذين نقدوا جمال الدين وشوهوا بعض جوانب شخصيته لم يبلغوا بعض مابلغه الدكتور لويس فى حلقات بحثه «الأكاديمى» من سلب جمال الدين كل محمدة من محامده، وقذفه بكل هذا الفيض الغامر من النقائص والمثالب. حتى يظن من يجهل تاريخ الرجل أنه كان «مسخاً» فى فكره ودينه وغاياته ووسائله.

ولا أدعى أن جمال الدين فوق النقد، فهو بشر يخطىء ويصيب، ويخفق وينجح. كما أن أقوال السابقين وشهاداتهم للرجل لاتلزم الباحث أن يتبع نفس النهج، ويستقى من نفس المشرب، فمن حقه أن يرفض بعض ماقيل عن جمال الدين بل كل ماقيل عنه، ومن حقه أن يفجع الأمة الإسلامية والفكر الإسلامى الناهض فى شخصية كان لها أثرها البالغ العميق فى البحث الفكرى والنهوض السياسى والدينى.

من حق الدكتور عوض أن يفعل كل أولئك. ولكن من حقنا ــ وقد صدرنا مقالنا بأحكامه ــ أن نبحث عن ركائزه العلمية التى اعتمد عليها، ومصادره التى استقى منها، ومنهجه فى التعامل مع المعطيات التاريخية التى أثرت فى مجريات السياسة والفكر، وتفاعلت مع شخصية جمال الدين تأثراً وتأثيراً.

* * *

وحتى أكون أميناً مع نفسى وقارئى أعترف بأنه كان ثمة سؤال يلح علىّ أثناء قراءتى مقالات الدكتور لويس وبعد انتهائى منها وهو: ماحكمنا على من يكتب تاريخ السيد المسيح عليه السلام ــ معتمداً اعتماداً كلياً أو شبه كلى ــ على أقوال الفريسيين واليهود «أبناء الأفاعى» و «خراف إسرائيل الضالة» كما كان يصفهم السيد المسيح عليه السلام؟» وما حكمنا على من يكتب تاريخ النبى محمد ــ عليه السلام ــ اعتماداً على تصورات الكفرة من أمثال أبى جهل والمنافقين من أمثال عبد الله بن سلول واليهود من أمثال حيى بن أخطب وكعب بن الأشرف؟

اعتقد أن السؤال فى غنى عن جواب. وأعتقد أنه ماخطر لى أو مافرض نفسه على إلا لأنى رأيت الدكتور لويس يجعل ركيزته الكبرى فى بحثه الجرىء «الوثائق البريطانية» ــ

وهو حين يتحدث عن هذه الوثائق يتحدث عنها بتقدير وإجلال وثقة كاملة بعبارات تجرى مع النسق التالى: «وقد أثبتت الوثائق البريطانية..» «وأكدت الوثائق البريطانية» وكأن الدكتور لويس يجهل أن هذه الوثائق إنما هى وثائق الرجال الذين عاش الأفغانى يحارب إمبراطوريتهم فى كل مكان يحل به، ويؤلب عليهم الشعوب، ويلهب ضدهم المشاعر.

وما يقوله كبار المسئولين الإنجليز من أمثال السير فرانك لاسيز قنصل انجلترا العام فى مصر عن جمال الدين من وصفه بالعمل على نشر مبادىء الفوضى. وما يقوله مراسل التيمز فى رسالة يصف فيها الأفغانى بأنه «ذو ماض مريب» (التضامن العدد الأول). كل هذه الأقوال لها عند الدكتور لويس احترامها وقدسيتها.

بل إن الدكتور لويس يفتح صدره فى سماحة وكرم لتقارير الجواسيس فيكتب (فى العدد الأول من التضامن) بالحرف الواحد: «انظر إلى هذا التقرير الذى كتبه موظف فى حكومة كابول سنة ١٨٦٨ كان يعمل جاسوساً لحساب الإنجليز. والتقرير بعنوان: سجل بأوصاف السيد الرومى فى كابول (يقصد جمال الدين) يشتبه أن يكون عميلاً روسياً يخدم فى دوبارة (بلاط) كابول.».

وتنتهى كل هذه التقارير والوثائق إلى أن الأفغانى كان عميلاً روسياً مأجورا بل وأكثر من ذلك كان عميلاً مزدوجاً، وهذا مايرجحه الدكتور لويس عوض ويطمئن إليه (التضامن العدد الرابع).

أما مايقوله جمال الدين عن نفسه تعبيراً عن فكره ومعتقده فهو مرفوض عند الدكتور لويس عوض. أما شهادة طلابه ومريديه ومعايشيه من أمثال محمد عبده ورشيد رضا والمخزومى فموضع شك كبير عند الدكتور لويس عوض.

* * *

وإلى هنا انتهى المقال الأول للدكتور جابر قميحه ونبدأ فى نقل الثانى له بعنوان «**التزوير.. وأمانة الكلمة**».

* * *

استعرضنا بالأمس الصورة الممسوخة التى رسمها الدكتور لويس وتحدثنا عن الطبيعة العامة لأحكامه، وكيف كانت فى مجموعها متناقضة مع ماقاله غربيون وشرقيون أعمق فكراً وأوسع ثقافة.. ورأينا كيف جعل الكاتب مصدره الأساسى تقارير الجواسيس ووثائق الحكومة البريطانية التى عاش الأفغانى حرباً عليها فى كل مكان يحل به واليوم نرى مع قرائنا كيف تعامل الأستاذ الأكاديمى مع النصوص وأحداث التاريخ.

فلنسر مع هذا «الخط المنهجي» — إلى حين — ولننظر فى نصوص الدكتور لويس ووثائقه ووقائعه، وسنكتشف أنه — فيما يستخلصه ويستنبطه من نتائج وأحكام — يحملها — لاأقول أكثر مما تحتمل فحسب — بل يحملها — فى كثير من الأحيان — مالا يمكن أن تحتمله إطلاقاً. ولنعايش بعض الأمثلة:

١ — أغلب الأحيان شرقيها وغربيها — تؤكد أن جمال الدين أفغانى المولد، سنى المذهب، وأنه ولد فى أسعد أباد وهى إحدى القرى التابعة لخطة كنر بالأفغان — ويرتقى نسبه إلى الحسين بن على. وممن حقق ذلك بدقة واستفاضة المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى فى كتابه القيم عن جمال الدين.

ولكن بعض الإيرانيين يزعم أنه ولد فى قرية «أسد أباد» الإيرانية وهو قول لادليل على صحته. وإن كان هذا التنافس على نسبة جمال الدين يعد فى ذاته شهادة بعظمة الرجل وعلو مكانته.

وجمال الدين نفسه قد حسم هذه القضية بما نقله عنه أقرب الناس إليه مثل محمد عبده وشكيب أرسلان وعبد القادر المغربى فمن أقوال جمال الدين: «ونظرت إلى الشرق وأهله فاستوقفتنى الأفغان، وهى أول أرض مس جسمى ترابها». وقوله مرة أخرى: «.. وقد اضطررت لترك بلادى الأفغان».

٢ — ويذهب الدكتور لويس إلى أنه كان يؤمن بالقضية ويظهر خلاف مايبطن — مع أن التاريخ يقطع بأن حياة الأفغانى كلها كانت سلسلة متصلة الحلقات من الجرأة والشجاعة والصراحة.. وقد كلفه ذلك من جهده وصحته واستقراره الشيء الكثير. وكثيراً ماكانت شجاعته تتحول إلى حدة وهياج فى مواجهة القادة والزعماء يقول عنه محمد عبده: «وهو شجاع مقدام لايهاب الموت كأنه لايعرفه. إلا أنه حديد المزاج، وكثيراً ماهدمت الحدة مارفعته الفطنة» — وحينما كتب محمد عبده من مصر كتاباً لجمال الدين وهو فى الآستانة كتاباً غفلا من «الإمضاء» ويظهر أن ذلك كان خوفاً من الرقابة — أرسل إليه يؤنبه فى ذلك التصرف قائلاً: «.. تكتب ولا تمضى؟؟.. أمامك الموت ولا ينجيك الخوف، فكن فيلسوفاً يرى العالم «ألعوبة» ولا تكن صبياً هلوعاً».

وبسبب صراحته وجرأته «جرد» عليه شاه إيران ناصر الدين حملة من خمسمائة جندى وسحبوه مسلسلاً فى الحديد وألقوا به خارج البلاد وهو مريض فى يوم جليدى شديد البرد؛ فأخذ يهيج مشاعر الناس على الشاه فى كل بلد يحل به.. ولما استقر به المقام فى الآستانة طلب منه السلطان عبد الحميد أن يكف عن مهاجمة الشاه، فقال جمال الدين: «إنى لأجلك قد عفوت عنه».

وكان يحدث السلطان وهو يلعب بحبات مسبحته فلما طلب منه بعض الحاشية

أن يكف عن ذلك قال: «إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء؟؟».

ويطول بنا المقام لو رحنا نعدد الشواهد والوقائع التى تنفى عن الرجل القول بالجبن والتقية وإظهار خلاف مايبطن؛ فكم جابه الحكام فى صراحة لامواربة فيها وخاصة بدعوته إلى الشورى والحكم النيابى، ومن هؤلاء الخديوى توفيق وقيصر روسيا.

والغريب أن الدكتور لويس نفسه عاد فنقض ماذهب إليه من القول بتقية الأفغانى حيث يقول: «.. وكان الأفغانى يتحرك بوضوح فى مرحلته المصرية فى سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٧٩ أساساً بين صفوف المجددين والديمقراطيين والدستوريين والعرابيين ودعاة مصر للمصريين..».. «.. وفى سيرة الأفغانى لأديب اسحق: «فأجرت له الحكومة الخديوية رزقاً على أن يكون من المدرسين فجرت بينه وبين علماء الأزهر مناظرة أفضت إلى المنافرة. فانقطع إلى منزله وصار له فيه حلقة تدريس (التضامن العدد السادس).

فالوضوح والمواجهة الصريحة لايتفقان مع منطق القضية التى تعتمد على التورية والمجاراة وإظهار خلاف الباطن.

٣ــ ويذهب الدكتور لويس إلى أن جمال الدين طرد من المحفل الماسونى (التضامن العدد الرابع عشر). والثابت أن جمال الدين الأفغانى اشترك فى المحفل الماسونى الإنجليزى مشدوداً على حد قوله بشعارهم الكبير الخطير «حرية مساواة إخاء..» وكان المحفل يضم أشراف الناس وكبراءهم. وصدم جمال الدين حين رأى أن هذا الشعار لاوجود له فى واقع هؤلاء الأعضاء، بل لم يجد منهم إلا الجبن والسلبية والتزاحم على المناصب. فاستقال. وأنشأ محفلاً آخر تابعاً للشرق الفرنسى ونجح فى تنظيمه حتى بلغ عدد أعضائه ثلاثمائة عضو ــ وكان يبغى من ذلك إيصال دعوته الإصلاحية إلى كبار الناس وعظمائهم.

٤ــ ولم يكن الأفغانى يستحل لنفسه اتباع الوسائل الخسيسة فى سبيل تحقيق غاياته النبيلة أو غير النبيلة.. فيكفى للرد على ذلك ماجاء على لسان محمد عبده إذ قال: «ماذا كان يضر السيد» الأفغانى «لو مهد لإصلاحه ــ وهو فى الآستانة ــ بالسعى عند السلطان فى إعطاء أبى الهدى الصيادى خمسمائة جنيه ونيشاناً لابنه أو لأخيه. فإذا رأى أبو الهدى أن السيد يخدمه؛ فإما أن يواتيه وإما أن لايناوئه؟؟!!

ولكن ماكان للسيد الأفغانى أن يسلك مثل هذه الخطة حتى لو حققت من النفع العام الكثير الكثير.. ولما دس له أبو الهدى الصيادى عند السلطان قال له

عبدالله النديم: ليتك ذكرت للسلطان دسائسه وضرره. فغضب جمال الدين وقال: «أعوذ بالله أن أكون من المنافقين، أو أن أفعل ماأنكره على الغير، أو أن أكون همازاً مشاءً بنميم».

فالغاية عنده لاتبرر الوسيلة. والنفس الكبيرة لاتستشرف إلا الغايات العلية، ولا تتبع إليها إلا الوسائل الشريفة النبيلة.

٥ــ وهل كان جمال الدين متعصباً دينياً.. داعياً إلى التعصب الديني في مرحلة «العروة الوثقى» التي عاشها في باريس؟ (التضامن العدد التاسع عشر).

إن واقع «العروة الوثقى» يفند هذا الادعاء.. فمما كتبه في إحدى مقالاته «بالعروة الوثقى» «لايظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم ــ تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ويتفق معهم في مصالح بلادهم، ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة؛ فليس هذا من شأننا ولا مما ندعو إليه، ولا مما يبيحه ديننا..».

فمن أين جاءت تهمة التعصب التي خلعها الدكتور لويس على الأفغاني في مرحلة «العروة الوثقى»؟ أعتقد أنها جاءت من إلحاح الأفغاني ــ بعد أن رأى ما رأى من انكسار الثورة العرابية والاضطهاد الواقع على المسلمين من حكامهم ومن المستعمرين ــ على ضرورة التجمع في دولة واحدة أو دول متوحدة في شكل كومنولث إسلامي مع التمسك بدينهم والالتفاف حول كتابهم والاعتزاز بالعصبية الدينية «وهي غير التعصب المقيت» الذي يقوم على الشقاق والتطاحن بين أصحاب الديانات المختلفة، والذي تبرأ منه جمال الدين في صفحات «العروة الوثقى».

وتاريخ جمال الدين يشهد أن من تلاميذه النجباء وأصدقائه المخلصين كثيراً من غير المسلمين مثل أديب إسحق المسيحي الدمشقي ويعقوب صنوح اليهودي. وقد شجع الأول على إنشاء جريدتي مصر والتجارة، وكان جمال الدين يكتب فيهما بنفسه. وشجع الثاني على إنشاء مجلته الهزلية «أبو [illegible]ارة».

لقد عاش جمال الدين لفكره وعقيدته. ولم يتعيش بفكره وعقيدته ــ عاش عمره يضرب في أنحاء الأرض ينثر بذور الإصلاح، ويلهب المشاعر، وينتصر للعقل في وضوح دون مواربة، ولو تنازل عن قليل من كرامته، ولو باع ضميره ولو لحظة واحدة لوجد آلافاً يغلونه الثمن.. بل كم من أمراء وحكام كانوا على استعداد أن يشتروا سكوته.. مجرد سكوته.. بثروات باهظة.. ولكنه آثر عذاب الجهاد.. وجوع الليالي.. ومفارقة الأوطان.. على استكانة الدعة وسلام الإذلال.. فعاش فقيراً.. وقضى فقيراً.. وظل قبره تائها مطموساً بين القبور بلا معالم تدل على صاحبه.. إلى أن جاء أمريكي ــ صديق

للعرب ــ فتبنى القبر وبناه وأظهر ماانطمس من معالمه.. ولن يضير جمال الدين أن تتطاول عليه ألسنة وأقلام.. فالبقاء للأصلح.. للأصلح دائماً.

وبعد أن نقلنا هذين المقالين للدكتور جابر قميحة ننقل مقالاً نشر فى ٤ / ١٠ / ١٩٨٣ للأستاذ عبد المنعم شميس عنوانه «تجريح التاريخ»:

عندما أراد المليونير الأمريكى عضو الكونجرس المستر كراين إقامة ضريح لجمال الدين الأفغانى على نفقته، اعتزازاً بشخصيته حدث نزاع بين إيران وأفغانستان. وادعت كل دولة منهما انتساب جمال الدين إليها وإقامة ضريح فى عاصمتها بعد نقل رفاته من مقبرة المشايخ فى اسطنبول حيث دفن.

وقد أقام المستر كراين ضريحاً لأبى العلاء المعرى أيضاً فى النعمان بسورية على مشارف حلب، وعلى واجهة الضريح لوحة رخامية مكتوب عليها اسم منشئه ــ فقد أعجب هذا الرجل الأمريكى بعظيمين من عظماء الشرق هما الأفغانى والمعرى وتبرع بإقامة ضريحين لهما على نفقته.

ولما ثارت مشكلة جنسية جمال الدين وادعى كل من الفرس والأفغان انتسابه إليهما تشرفاً بهذا النسب، انتظر مستر كراين حتى يتم الاتفاق على هذه المسألة ثم يقام الضريح فى «طهران» أو «كابول» بعد أن يقدم الطرفان الوثائق والبراهين على جنسيته.. وأخيراً ثبت أنه أفغانى وأقيم الضريح فى كابول أمام مبنى جامعتها كما أخبرنى السيد محمد مرسى شفيق سفير أفغانستان الأسبق فى القاهرة. وأقيم احتفال بنقل رفات الأفغانى من اسطنبول ومر موكبه بالعراق وإيران وسط الاحترام والتبجيل حتى عبر ممر خيبر إلى كابول حيث استقبله الملك محمد ظاهر شاه ملك أفغانستان الذى يعيش الآن فى المنفى فى إيطاليا.

ولذلك فإن قضية جنسية الافغانى التى آثارها الدكتور لويس عوض ورد عليها كثيرون من الكتاب على صفحات «الأهرام» ليست جديدة، وقد وصلت إلى حد المشاكل الدولية التى تقدم فيها الدول كل المستندات والوثائق والدراسات. وقد تم حل المشكلة على هذا المستوى الدولى، واستقر الرأى أن جمال الدين أفغانى الجنسية، ولم تعد هناك حاجة إلى مناقشة هذه القضية بالذات. لأن أى باحث أو دارس أو مؤرخ لايستطيع الوصول إلى وثائق وصلت إليها حكومة وافقت عليها حكومة أخرى، ثم أقام الطرف الثالث أى مستر كراين ضريح الأفغانى فى كابول بناء على هذا الاتفاق.

ولكن المشكلة فى جوهرها ليست هى محاولة الوصول إلى الحقائق التاريخية فى حياة رجل مثل الأفغانى اعترف كل الدارسين من أهل المشرق وأهل المغرب بأنه فيلسوف الشرق فى العصر الحديث، ومفجر النهضات والثورات فى أرجائه.. المشكلة هى محاولة

تجريح التاريخ وإسقاط قيمة أعلام الرجال الذين كان لهم دور فى يقظة الشرق.

وقد لاحظت على ماكتبه الدكتور لويس عوض عن الأفغانى ومن الردود التى كتبت فى الرد على مزاعمه أنه على عادته ــ لم يتحر أى منهج علمى فى كتاباته. ولذلك تصبح كلها كتابات ساقطة لاقيمة لها من الناحية العلمية.. وقد اعتمد على تقارير لبعض الجواسيس ورجال المخابرات والمخبرين السريين، واستخدام أساليب الإثارة والكذب والتضليل والتزوير المشهور عند هذه الطائفة من العملاء.

ولذلك فإن كتابات الدكتور لويس مطعون فيها منذ البداية. وهو لم يستطع التعرض للقضايا الكبرى فى حياة الأفغانى بل استخدام التهويش وإلقاء ألفاظ المهاترة والسباب على الرجل الذى تعرض فى حياته إلى أكثر منها، ثم خرج من الحياة ذاتها طاهر الذيل نقي الصفحة.

وقد ذكر الأفغانى نفسه ملاحقة الجواسيس له فى كل مكان، حتى إنه قال للسلطان عبد الحميد فى اسطنبول إن نفقات هؤلاء الجواسيس لاداعى لها، وأنه سيخبره بكل شيء يريد معرفته عنه، لأن هذا خير من التقارير المكذوبة التى ترفع إليه ولكن الغموض الذى كان يسود كواليس السياسة انعكس على حياة الأفغانى نفسه وهذا أمر طبيعي .. هذا الرجل لايقال عنه إنه جاسوس لأن الجاسوس كما يعلم الدكتور لويس يتقاضي الثمن ذهباًوهاجاً، ولايكون ثمن جاسوسيته طباعة مصحف القرآن.. وأنا لاأحاول الدفاع عن الأفغانى لأنه أكبر من أن يدافع عنه أحد بعد أن وضع فى مكانه الصحيح من تاريخ الإسلام. وكذلك لاينقصه أن يهاجمه الدكتور لويس فقد هاجمه من قبل كثيرون وذهبت كلماتهم أدراج الرياح، ومنهم واحد اسمه سليم العنحورى قال إن الشيخ جمال الدين يحب شرب الكونياك. وهوجم أيضاً الشيخ محمد عبده تلميذ الأفغانى بمثل هذه الأسلحة الفاسدة حتى وصل الأمر إلى اتهامه بالكفر والزندقة.

* * *

ليس الأمر هو تفنيد أقوال الدكتور لويس عن الأفغانى، لأنها فى جملتها لاتستحق هذا العناء، بل لاتستحق ثمن المداد الذى كتبت به ــ إن الأمر أخطر من ذلك كثيراً؛ لأنه يتعلق بالمحاولات الدائمة لتجريح التاريخ الإسلامى والمصرى منه على وجه الخصوص ــ طبقاً لخطة محكمة وموضوعة تهدف إلى تشكيك الناس فى كل القيم؛ حتى يصبحوا فى شك دائم من أمر قادتهم وزعمائهم فتنهار نفوسهم، وتتمزق عقولهم، ويأكل الوهم الخلايا الحية فى أجسادهم.

ولا يكتفى أصحاب هذا المخطط بما وصلت إليه حالة العالم الإسلامى العربى من تمزق

وانهيار؛ فيمسكون بمعاولهم لهدم الشخصيات الناصعة فى هذا العالم الإسلامى العربى مستغلين ظروف الضعف والاستكانة والذل التى وصلت إليها هذه البلاد للإجهاز على البقية الباقية من تاريخ ناصع وقوى ومشرف.

وليس الدكتور لويس وحده هو الذى يتولى هذه المهمة، ولو أنه له دور قيادى فيها؛ فقد كتب أحد تلاميذه هذا الكلام عن الأفغانى منذ سنوات فى جريدة الجمهورية القاهرية وكتبت رداً عليه أسكته. ولكن أستاذه الدكتور لويس لم يسكت.

وما قولكم فى كاتب شهير جهير ومثقف عظيم مثل الدكتور لويس يزعم فيما كتب أن الجنرال يعقوب الذى انضم إلى حملة بونابرت على مصر، وجند حوالى ألف شاب من الأقباط، وألبسهم ملابس عساكر الفرنساوية، وحارب بهم أهله من الأقباط والمسلمين.. كان بطلاً قومياً مصرياً فى رأى الدكتور لويس.

وهذا الجنرال يعقوب تبرأ منه أعيان الأقباط وأعلنوا أنه ومن معه ليسوا منهم. وعندما هزمت الحملة الفرنسية وغادرت مصر، سافر معها يعقوب إلى فرنسا. ولكن الجنرال عبد الله جاك مينو لم يتركه يكمل رحلة الخيانة من الإسكندرية إلى طولون؟ حتى لايدنس أرض فرنسا وألقاه فى البحر الأبيض المتوسط حياً حتى يصبح طعاماً للأسماك.. هذا الجنرال يعقوب بطل قومى مصرى وجمال الدين الأفغانى جاسوس سكير خائن؟؟!! هكذا يكتب التاريخ على طريقة الدكتور لويس عوض.. فهل يجوز الرد على كلامه؟! لاأعتقد.

* * *

ولكن القضية كما قلت أكبر من الرد. لأنها قضية تجريح التاريخ. ولذلك فإن الدخول فى تفصيلات مايكتب الدكتور لويس عن هذه الموضوعات وغيرها يدخل فى هذا النطاق ــ ونحن لانحجر على حرية الدكتور لويس ككاتب، بل نرفض هذا الحجر رفضاً قاطعاً. ولكننا نجد أنفسنا أمام ظاهرة فكرية مريضة تحاول دائماً إحداث فرقعات مثل بمب الأطفال لتلفت الأنظار أو تزعج المارة فى طريق الحياة. وقد يمتد لهب هذا البمب فيحرق أطراف ثيابهم أو يعفر جبينهم بالتراب الذى ينبعث منه.

إن كل مايقال عن هذه الكتابات هو أنها فاسدة ومغشوشة، ويجب النظر على أنها فاسدة ومغشوشة، مثل الأطعمة المسمومة التى كثرت وراجت أخيراً ثم عرفها الناس بعد ذلك فابتعدوا عنها عندما تبينوا حقيقتها، وقد كانت هذه الأطعمة الفاسدة المسمومة المستوردة توضع فى أجمل غلاف شأنها شأن هذه الكتابات.

* * *

ثم نختتم هذه القطوف بالمقال الأخير فى هذا الموضوع للأستاذ أحمد بهجت تحت عنوان :

كلمة أخيرة عن جمال الدين الأفغانى

لو كان الخديو توفيق حياً لقرعيناً بما يكتبه الأستاذ الدكتور لويس عوض من مقالات عن الأفغانى .. ولو كانت اللجنة المغرضة التى كتبت أسباب نفى الأفغانى من مصر قائمة وموجودة لقرت عيناً هى الأخرى بما يكتبه الدكتور لويس عوض عن الأفغانى ..

إنه يبرر لها قرار الطرد بعد مائة سنة من صدوره — لقد رفعت هذه اللجنة قراراً رسمياً لمجلس الوزراء المصرى حينئذ قالت فى مبرِّرات طَرد الأفغانى إنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوى الطيش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا.

وها هو الدكتور لويس عوض يحدثنا أن الأفغانى كان مجتمعاً على فساد الدين والدنيا، وكان عميلاً وجاسوساً وزنديقاً وكان .. وكان .. هل هى محاولة جديدة لطرد الأفغانى من قلوب الشباب اليوم كما فشلت محاولات طرده من قلوب معاصريه ..؟ هل هو خط واحد .. من خطوط مؤامرة هدفها تحطيم النماذج الثائرة فى تاريخنا حتى نتوجه إلى أثداء أوروبا لنرضع عسلاً أذيب فيه السم .. لست أعرف .. كل ماأعرفه أن محاولات نفى الأفغانى مازالت مستمرة، ولقد اكتشفوا أن أفكاره لم تزل حية، وبالتالى فإنهم مازالوا يحاولون نفيه .. ولم يكن النفى هو الشىء الوحيد الذى تعرض له الأفغانى ..

كان القبض عليه والسجن والتشريد ومصادرة الكتب أحداثاً يومية فى حياته .. سئل ذات يوم من سلطات الأمن — أين كتبك ؟ .. أشار إلى قلبه وقال : إنها هنا .. سئل عن ملابسه وحقائبه فأشار إلى جبته التى يرتديها وقال : كنت أول عهدى بالنفى أستصحب جبة ثانية وسراويل، ولكن لما توالى النفى صرت أستثقل الجبة الثانية . فآثرت أن أترك هذه حتى تبلى فأغيرها ..

كان الأفغانى يرى أن السجن لمن يطلب الحق من الظالمين رياضة، والنفى فى سبيل الإسلام سياحة . أما القتل فى سبيل الله فهو شهادة وهذه أسمى مراتب الجهاد .. كان الأفغانى مجاهداً مسلماً .. كان روحاً إسلامية تجوب الأرض، وتوزع الثورة الواعية على الناس . كان يشبه أبطال الأساطير الحقيقية . لم يكن — لحسن الحظ — من أبطال الأساطير اليونانية الذين يسترضون « زيوس » ويشركون بديانا ؛ ولو فعل لاستحق رضاء الدكتور لويس عوض .

كان الأفغانى حنيفاً موحداً.. لايريد سوى وجه الله وحده.. من هذا كان ضرام الحملة ضده.. ومن هنا استمرت هذه الحملة حتى موته.. بل إن الأفغانى بسبب جهاده.. صار رمزاً للثائر المسلم. ومن هنا فإن كل السهام التى توجه للإسلام لابد أن تمر على صدره. وكل المؤامرات التى تستهدف تشويه الأبطال المسلمين لابد أن تعبر على جسده أولاً.. وهكذا لم يسلم الأفغانى طوال حياته من الكيد؛ يستوى فى ذلك كيد اللجان الرسمية أو كيد البصاصين أو كيد أذناب الاستعمار من الحكام أو كيد الكارهين لانتشار الإسلام، ثم هاهو كيد المثقفين أخيراً.

* * *

ماالذى فعله الأفغانى واستحق عليه هذا كله؟ لقد كرس الأفغانى حياته لإيقاظ الروح الكامنة فى الإنسان الشرقى. وكرس حياته لمحاربة اليأس والنفوذ الأجنبى. وكرس حياته لالتماس المنهج القرآنى فى بناء الأفراد والجماعات. وكان يرى أن هذا هو الحل الوحيد أمام المسلمين. كما استهدف الأفغانى فى حياته تنبيه الأمة الإسلامية إلى ذاتها الأصيلة التى أنشأت الحضارة. كما كان وجوده فى الحياة حرباً على الاستعمار والتبعية ومقاومة لذوبان الفكر الإسلامى فى الفكر العالمى.

باختصار كانت حياة الأفغانى مصداقاً للحديث النبوى الشريف «إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لأمتى من يجدد لها أمر دينها» هذا هو عندنا وعند التاريخ.. لكنه عند الدكتور لويس عوض إيرانى غامض عميل وجاسوس وزنديق يجوب الآفاق..

إن الشيخ الإمام محمد عبده تلميذ الأفغانى يفسر لنا اختلاف الناس فيه بكلمة دقيقة تعبر بإيجاز عن حقيقة الأفغانى.

قال الشيخ محمد عبده ــ إن الناس قد اختلفوا فى الأفغانى؛ حتى لكأنه حقيقة كلية تجلت فى كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله.

أشيع عنه فى حياته قوله: إن الشرق يحتاج إلى مستبد عادل.. وكان الذين أشاعوا هذه المقولة عن الأفغانى يحاولون تبرير الاستبداد بإضافة العدل إليه ونسبة العبارة كلها إلى السيد جمال الدين الأفغانى ــ سأل محمد باشا المخزومى السيد جمال الدين يوماً: إن المتداول بين الناس على لسانك قولك: يحتاج الشرق إلى مستبد عادل».. قال الأفغانى: هذا من قبيل جمع الأضداد. كيف يجتمع العدل والاستبداد ــ وهكذا نفى الأفغانى مانشره أعداؤه عنه زوراً.. ومثلما لم تسلم أفكاره لم يسلم شخصه.

كان من الصعب على العملاء والجواسيس والبصاصين الذين يقتفون أثره ويرصدون تحركاته أن يفسروا النبل والإيثار اللذين يصدران عنه بشكل طبيعى كما يصدر الدفء عن

الشمس.. ومن هنا كان تفسير كل شيء بعكس الواقع: إذا رفض الأفغانى الجاه فإنما يرفضه كخطة لاتعففا. وإذا عرض عليه الملك ورفضه فإنما يفعل ذلك لأنه يريد الخلافة. وإذا أفطر فى رمضان بعد المغرب قال البصاص الذى يتبعه كظله إنه رآه يفطر قبل المغرب.. وهكذا تمضى الحلقة.

ولقد كان الرجل يدرك أنه يحمل دعوة لها أعداء كثيرون.. وكان يعرف أن الابتلاء قدر مقدور على حملة الدعوات العظيمة.. ومن ثم مضى فى طريقه غير عابىء بما تثيره أفكاره أو تصرفاته ــ كان وجه الله هو غايته.. ومن كانت هذه غايته لم يلتفت إلى حملة الأحجار والغوغاء والكائدين.

كانت مشكلة الأفغانى أنه منحاز إلى الإسلام والعروبة والعدالة الاجتماعية والشورى وحرية الإنسان وكرامة الخلائق.. كان الاستعمار قوة من قوى الظلام المؤثر فى عصر الأفغانى، ومن هنا تحدد موقف الأفغانى بالوقوف ضد الاستعمار.. حين دخل الهند وجد الاستعمار الإنجليزى يحتضن طائفة من المثقفين ــ كعادته ــ وكانت دعوى هؤلاء طرح الفكر الإسلامى والدعوة للثقافة المدنية.. وقف الأفغانى ضدهم وكتب لهم «رسالة الرد على الدهريين».

وحين جاء الأفغانى إلى مصر أقام فيها أباً روحياً وموقظاً لحركة البعث والإحياء والثورة.. كانت الثورة العرابية شرارة من شرارات فكره.. كانت ثورة ١٩١٩ نتيجة من نتائج أفكاره.. كان كل رجالات مصر من المثقفين والمتعلمين والصحفيين والدعاة فى عصره من أصدقائه وجلسائه وتلاميذه ــ وحين خشى البعض فى مصر من غضب الخديو توفيق وآثر السلامة وتنكب طريق النضال قال الأفغانى كلمته عن توفيق: توفيق فى غضبه ورضاه تابع لما يلقى إليه.

وبهذه الجملة لخص الأفغانى حقيقة الموقف السياسى فى مصر، وكشف عن تبعيته للاستعمار الغربى.. ولقد كان هذا كله يبلغ توفيق بشكل أو بآخر؛ ومن هنا أصدرت اللجنة قرارها الشهير بزعامته لطائفة من الشبان هدفهم فساد الدين والدنيا.

وطرد الأفغانى من مصر.. وحين ذهب إلى إيران وأبصر المظالم التى يجترحها الشاه ناصر فى شعبه، قاد ضده حركة شجاعة، ووقف بالإسلام ضد احتكار الإنجليز أصدقاء الشاه «للدخان» وأوحى الأفغانى إلى الشيرازى وكان مفتياً أن يصدر فتوى يحرم فيها على المسلمين شرب «الدخان» ــ وهكذا تراجعت شركة الدخان عن مشروعاتها الضارة بالبلاد، واضطر الشاه إلى تعويضها عن الامتياز.. وبعث الشاه بخمسمائه من فرسانه ليقتحموا فراش جمال الدين وهو مريض يشكو من الحمى؛ وقاده الفرسان وهو مريض إلى حدود إيران وأمروه أن يمضى ولا يلتفت أبداً لإيران.

ويذهب الأفغانى إلى تركيا فيخوض معركته الشهيرة ضد الجمود، ويستمر فى خوض معاركه ضد الاستعمار — ويذهب إلى باريس ويصدر هناك جريدة «العروة الوثقى» وهي جريدة تجاوزت أن تكون عملاً صحفياً تجارياً إلى صيرورتها مشروعاً دينياً سياسياً ثورياً.. وتقض الجريدة مضجع الاستعمار. ويصدر نوبار باشا رئيس نظارة النظار فى مصر قراراً بتغريم كل من يقرأ «العروة الوثقى» ٢٥ جنيهاً واعتبار قراءتها جنحة..

ولقد تغير فكر الأفغانى كما كشفت الدراسة المتأنية التى قام بها الدكتور محمد عماره خلال تحقيقه لأعمال الأفغانى. تغير فكره فى نهاية حياته عن فكره فى بدايتها.. كان التغيير نحو النضج والثورة والتقدم؛ لقد وقف الرجل مع العدالة الاجتماعية وقف مع التعليم الوطنى، وقف مع الجامعة الإسلامية. وقف مع الشورى. وقف ضد الاستبداد. تغيرت بعض مواقفه كموقفه من النشوء والارتقاء والقومية والاشتراكية.. فى بداية حياته كان ينظر إليها بارتياب، فلما تقدمت به السن وزادت خبرته أعاد النظر فى مواقفة السابقة وصححها بما تراءى له من قراءة وسياحة وحكمة..

كانت هناك متغيرات وثوابت فى حياته.. كان الأمر الثابت أنه يتحرك كفارس من فرسان الدعوة الإسلامية.. وثائر عظيم من ثوار الحياة.. إن هدفه هو العدل والرحمة والحق والخير والجمال.. لقد أيقظ الشرق من سباته.

ولقد لبس البحث الجرىء الذى كتبه الدكتور لويس عوض عن الأفغانى ثوب البحث، ولكنه لم يكن بحثاً.. إلا أن يكون بحثاً من قبيل أبحاث المباحث العثمانية أو الخديوية أو الإيرانية أو الإنجليزية. إن مصادر بحث الدكتور تكشف عن تهافتها، ومعظم مايبنيه الدكتور حول الأفغانى رغم فخامته مزور — ولا أظن أن أحداً ممن اشتركوا فى الرد على الدكتور لويس كان يريد تفنيد أقواله عن الأفغانى، لأن أقواله فى جملتها لاتستحق هذا العناء..

إنما تصدينا بالرد حتى ننبه إلى محاولة تجريح التاريخ الإسلامى وتحطيم النماذج الرفيعة الثائرة فيه.. حتى إذا تلوث تاريخنا وصار أبطاله عملاء وثواره جواسيس ونماذجه الرفيعة أقزاماً ومسوخاً.. حتى إذا وقع هذا تحولنا إلى الغرب وطرحنا ماضينا، وقطعنا الصلة ببذورنا وتاريخنا.. وصرنا رجالاً جوفاً لاماضى لهم ولا وجدان ولا عقيدة.

عندئذ ترضى عنا مراجع أبحاث الدكتور لويس عوض ويرضى هو عنا.. لقد تصدى «الأهرام» بجملة من الأساتذة المتخصصين البارزين للرد تصحيحاً لهذه الفكرة، انبعاثاً من الأمانة الدينية والموضوعية العلمية.

إن طبق الطعام الذى قدمه الطاهى الشهير لويس عوض عن الأفغانى كان طبقا من الطعام الفاسد المغشوش . إن الطبخة كلها بغير ملح .. بغير صدق ..

* * *

الفصل الثالث

إلى هذا الحد يزيف التاريخ

جاءنى صديق منذ نحو عام بنسخة من كتاب يسمى «الإخوان المسلمون والتنظيم السرى» للدكتور عبد العظيم رمضان. وطلب إلىّ الصديق أن أطالع هذا الكتاب وأتناوله بالرد.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى أناقش فيها آراء لهذا الكاتب، فقد ناقشت له فى الجزء الأول من هذه المذكرات رأياً كان قد نشره فى جريدة الأهرام فيما يتصل بترشيح الأستاذ البنا لمجلس النواب فى عهد وزارة النحاس باشا عام ١٩٤٢.. ويؤخذ على هذا الكاتب أنه يصر فى كتاباته على أنه مؤرخ ثم يتناسى ذلك ويخلط بين صفة المؤرخ وصفة الكاتب المتحيز، صاحب الفكرة المعينة، يتصيد لها القرائن والمبررات لدعمها، ثم يقدمها للناس على أنها تاريخ.. وهذا الوصف الغالب عليه ينزلق به فى كثير من الأحيان إلى الخلط وإلى تأويل النصوص وبترها وإلى تجاهل الأحداث وتسلسلها، بل يصل فى بعض الأحيان إلى قلب الحقائق.

وقد طالعت الكتاب، ولا أرانى فى حاجة إلى تناوله بالرد؛ لأن الرجل فعلاً ــ كما نصحه الأخ الأستاذ صلاح شادى وعملاً بالتوجيه القرآنى الحكيم ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون**﴾ ــ كان عليه قبل أن يبدأ الكتابة عن الإخوان المسلمين أن يطلع على ماكتبه الذين عاشوا أحداث الإخوان المسلمين من داخلها، ومارسوها وكانوا من صانعيها ومن حصادها.. لاأن يأخذ معلوماته عنهم من تصورات له وتخيلات أو من كتابات لذوى قلوب مريضة يرون فى الإخوان المسلمين السد المنيع دون نجاح مخططات غربية وضعوا أقلامهم فى خدمتها.

ثم إن الرجل بتجرئه على ارتياد طريق يجهله دون دليل من أهله؛ أخذ يخلط ويخبط خبط عشواء؛ حتى إنه أخذ من أقوال لمجلة الدعوة ــ بعد فصل صاحبها من الإخوان ــ ماعتبره حجة على قيادة الإخوان كأنما قد صدرت هذه الأقوال عن هذه القيادة.

هذا كله إذا أحسنا الظن بالرجل؛ وإلا فإن فى كتاباته مايشعر القارىء الخبير بأن

وراء هذه الكتابات إغراضاً يلح عليه إلحاحاً بإبراز الإخوان المسلمين فى صورة معينة، مهما كانت هذه الصورة مخالفة للواقع.

وسنكتفى بمناقشة قسمتين من قسمات الصورة المشوهة التى أراد هذا الكاتب أن يضع الإخوان المسلمين فى إطارها؛ تاركين للسادة القراء الحكم من خلال هذه المناقشة على قيمة المعلومات التى أوردها الكاتب فى كتابه، وعلى النتائج التى توصل إليها من خلال هذه المعلومات:

القسمة الأولى

أورد الأستاذ المؤرخ فى صفحة ١١٥ من كتابه مايلى:

«وبالنسبة للمفاوضات بين الإنجليز والإخوان، فكما هى العادة فى كل مفاوضات لاتستند إلى جبهة داخلية قوية، فإن الصراع المكتوم بين الثورة والإخوان كان له تأثيره فى موقف الاعتدال الذى وقفته الجماعة أثناء المفاوضات خوفاً من الحرب فى جبهتين: جبهة الثورة وجبهة الإنجليز. **فقد وافقت الجماعة على ماقبله عبد الناصر فى اتفاقية الجلاء بعد ذلك بعام**؛ وهو بقاء خبراء إنجليز فى قاعدة قناة السويس، وحق عودة القوات البريطانية إلى القناة، واستخدام القاعدة فى حالة وقوع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أى بلد يكون طرفاً فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو على تركيا. والتشاور على العودة فى حالة خطر الحرب (١٨٤).

* * *

وتعليقاً على هذا النبأ الذى أورده من يقرر فى مقدمة كتابه أنه مؤرخ يبحث بجد عن الوثائق ليستقى منها أنباءه التاريخية أقول:

١ ــ لما كان هذا النبأ مغايراً بل مناقضاً للواقع التاريخى الثابت الذى نعرفه والذى كنا حضوره ومشاركين فى صناعته؛ قلت: لعل هناك مصدراً آخر لانعرفه يكون أوثق من صانعى النبأ أنفسهم؛ ونظرت فوجدت المؤلف قد ذيل هذه العبارة التى تضمنت النبأ بهذا الرقم (١٨٤)؛ فنظرت فى هامش الصفحة وبحثت عن هذا الرقم فوجدت المصدر هو (عبد العظيم رمضان: المرجع المذكور ص ١٣٠ ــ ١٣٦).. فعجبت للمؤلف يورد النبأ المناقض للتاريخ ويجعل الوثيقة التى استقاه منها هى المؤلف نفسه.

٢ ــ ونعتقد أن السيد «المؤرخ» قد استقى نبأه هذا من قرار جمال عبد الناصر الذى

أصدره فى ١٢ يناير ١٩٥٤ بحل الإخوان المسلمين، واتهم الإخوان فيه بالاتصال بالإنجليز من وراء ظهره؛ وقد تبين للناس جميعاً بعد صدور هذا القرار أن عبد الناصر كان كاذباً فيما جاء فى القرار من اتهامات، بعد أن تحداه المرشد العام فى ذلك وهو فى السجن على صفحات جريدة «المصرى»— أوسع الجرائد المصرية اليومية انتشاراً فى ذلك الوقت— ودعاه إلى المباهلة حتى تنزل لعنة الله على الكاذبين.. فتراجع عبد الناصر فى الحال.. ورداً لاعتبار الإخوان أفرج عنهم وقام بزيارة المرشد العام فى منزله ونشر ذلك فى الصحف.

ولجوء هذا «المؤرخ» إلى أمثال هذه المصادر المشبوهة والمدموغة بالكذب أمر قد ارتضاه لنفسه من قبل؛ فلقد ناقشنا له فى الجزء الأول من هذه المذكرات أنباء عن الإخوان المسلمين استقاها من البوليس السياسى ولم يخجل من نشرها فى جريدة الأهرام منسوبة إلى هذا المصدر وإلى تقارير المستعمرين.

فجل هم هذا «المؤرخ» هو أن يتسقط الأنباء من أى مصدر من المصادر— دون مبالاة بصدقها أو كذبها— مادام يجد فى هذه الأنباء مايبرر به محاولاته المستميتة فى التهجم على الإخوان والنيل منهم والانتقاص من مكانتهم وتشويه سمعتهم؛ معتمداً فى ذلك على خلو أذهان الأجيال الناشئة وما شاع فى هذه الأيام من الأمية السياسية بين المواطنين نتيجة ربع قرن عاشوه تحت نير حكم يتسم بالقهر والاستبداد وحجب الحقائق.

وهذا الأسلوب من أساليب التأريخ قد أشرنا إليه فى الجزء الأول من هذه المذكرات فى الفصل الثالث من الباب الرابع عند حديثنا عن خطط التآمر العالمى للقضاء على الدعوة.. ومن شاء فليرجع إليه.

القسمة الثانية

ويواصل الأستاذ المؤرخ تأريخه فيقول فى صفحة ١١٦:

«وقد أدرك الإنجليز من خلال هذه المفاوضات أن الإخوان ليسوا بالتطرف الذى كانوا يخشون، فقد قبلوا التفاوض معهم— كما قبلوا الأسس السالفة الذكر للاتفاق. وأثبتوا بذلك أنهم أكثر اعتدالاً من الوفد الذى ألغى معاهدة ١٩٣٦ ونص فى برنامجه عقب قيام الثورة على نبذ المفاوضة نبذ النواة، ونبذ الدفاع المشترك ومشروع قيادة الشرق الأوسط (١٨٥).

وكان الإخوان يسعون فى الحقيقة إلى ترك هذا الانطباع لدى الإنجليز. فقد ذكرنا أن موقف قيادتهم أثناء معركة القناة سنة ١٩٥١— ١٩٥٢ كان موقفاً متخاذلاً. قد

تبرأت تماماً من كل شبهة تتعلق بالاشتراك فى العمل الوطنى، وتبرأت من دعوة شباب الإخوان إلى مقاطعة الإنجليز، وتبرأت من استخدام القوة أونية استخدامها، وتبرأت من مجلة «الدعوة» حين هاجمت تعيين حافظ عفيفى لضرب الحركة الوطنية. وفى الفترة التى أباح فيها بعض علماء الدين مثل الشيخ أبو العيون سكرتير عام الأزهر والشيخ على الخفيف دماء الإنجليز علناً فى الصحف ــ كانت قيادة الإخوان المسلمين ترفض علناً العنف كوسيلة لإخراج الإنجليز ــ وقد كان قبول الإخوان المسلمين لأسس الاتفاق السالفة الذكر مقصوداً به إقناع الإنجليز بمزايا الإخوان. وقد عبر الهضيبى عن ذلك فى صراحة تامة قائلاً: «أنا على ثقة من أن الغرب سيقتنع بمزايا الإخوان المسلمين، وسيكف عن اعتبارهم شبحاً مفزعاً كما حاول البعض أن يصورهم».

* * *

ويكفى للرد على ادعاءات السيد المؤرخ أن نسأله سؤالاً واحداً فنقول:
جاء فى سياق حديثك فى هذه الفقرة ذكر ثلاث هيئات هى التى كانت فى الساحة فى ذلك الوقت: الإخوان المسلمون وحزب الوفد وعلماء الدين.. فما هى التضحيات التى قدمتها كل هيئة من هذه الهيئات فى مقاومة الإنجليز فى الفترة من ١٩٥١ ــ ١٩٥٢؟

وإذا كان السيد المؤرخ لايسعفه أسلوبه الذى أرتضاه لنفسه ولا يرتضيه التاريخ أن يجيب على هذا السؤال، فإننا نتطوع بالإجابة عليه.. ونحيله فى ذلك إلى الصحف اليومية وإلى جريدة «المصرى» بالذات صحيفة حزب الوفد الذى كان الحزب الحاكم فى ذلك الوقت؛ فسيجد أن الجهة الوحيدة التى قدمت ضحايا هى هيئة الإخوان المسلمين؛ فقد شيع الإخوان المسلمون فى خلال الخمسة عشر يوما الأولى من شهر يناير ١٩٥٢ ثلاثة شهداء من طلبة الجامعات هم عادل محمد غانم الطالب بكلية طب عين شمس وعمر شاهين الطالب بآداب القاهرة، وأحمد المنيسى الطالب بطب القاهرة ــ وكان تشييع جنازة الشهيدين الآخيرين فى مدينة الزقازيق.. وقد وصفت جريدة المصرى روعة الجنازة واشتراك جميع الطوائف فيها، ونشرت فى صدر صفحتها الأولى صورة للمشيعين يتقدمهم المرشد العام للإخوان المسلمين.

ثم نحيل السيد المؤرخ أيضاً إلى كتاب صديقه الأستاذ صلاح شادى «صفحات من التاريخ» الجزء الأول فى صفحات من ١٥٠ إلى ١٥٩ ليقرأ قصة جهاد الإخوان المسلمين فى خلال هذه الفترة التى حلا «للمؤرخ» أن يرمى الإخوان فيها بالتخاذل، وليقرأ عن قصة اللغم الذى أعده الأستاذ صلاح شادى لسد القنال به بناءً على أمر المرشد العام..

ونقتطف نحن فقرات من هذه الصفحات لا لإقناع السيد المؤرخ وإنما لتطمئن بها

قلوب القراء الذين لم يجحدوا هذه الجهود.. يقول الأخ الكريم الأستاذ صلاح شادى:

جرت أحداث هذا اللغم البحرى الذى حاول الإخوان المسلمون تفجيره مرتين فى قناة السويس ضمن سلسلة النشاط الفدائى الذى قامت به الجماعة ضد الإنجليز فى أثناء تولى فؤاد سراج الدين شئون وزارة الداخلية فى وزارة الوفد بعد إعلانه إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر عام ١٩٥١ .

وكان الجو الذى تعيشه مصر آنذاك مشحوناً بكراهية الإنجليز وخاصة إعلان حظر تشغيل العمال المصريين بالقاعدة البريطانية ومنع تموينها من داخل مصر. وبدأ الشباب يدرك واجبه فى العمل الفدائى لإخراج الإنجليز بإقناعهم بأن حجتهم فى البقاء فى مصر للمحافظة على قناة السويس حجة داحضة؛ لأنهم لايستطيعون حماية أنفسهم فيها إزاء سخط الشعب فكيف يحمون القناة؟ ولذلك كان مسرح الأعمال الفدائية الإنجليز أنفسهم ومؤسساتهم فى قناة السويس.

وسرت الحماسة فى الأجهزة الحاكمة التى دعت إلى ائتلاف قومى يضم أصحاب الرأى فى مصر لتنسيق النشاط الفدائى. وكان عبء العمل الحقيقى الفعال يقع على كاهل الإخوان المسلمين؛ فقد قامت المعسكرات فى الجماعة لتدريب الشبان على استعمال السلاح والمواد المتفجرة والقنابل الحارقة والألغام؛ بمباشرة الأخ محمد عاكف فى جامعة القاهرة وغيره من الإخوان فى الجامعات الأخرى، وأعطتهم الجامعات مايؤهلهم لهذا الدور.. وقام الضابط مجدى حسنين الذى بايع الإخوان من قبل بتدريب الإخوان على استعمال الأسلحة وقدف (قنبلة الأنرجا).. وسقط كثير من الشهداء وكان لكل منهم قصص بطولة تذكرنا بالسلف الصالح.

وفى هذا الجو المشحون بالرغبة فى التحرك ضد المحتلين بالصورة المتاحة، فكر الإخوان المسلمون فى صنع لغم بحرى لنسف إحدى المراكب الإنجليزية المحملة بالبترول فى داخل القناة.

وفكرت فى الأمر ملياً بعد تكليفى من الأستاذ حسن الهضيبى مرشد الإخوان المسلمين بصنع هذا اللغم وتفجيره، ووجدت أن الاستعداد لصنع هذا اللغم لايتوافر فى إمكاناته العلمية فضلاً عن التصنيع إلا بمعاونة قسم الأبحاث فى الجيش الذى كان يعمل فيه الضابط صلاح هدايت.

وذهبت إلى جمال عبد الناصر وعرضت عليه الفكرة، وقام من فوره معى وذهبنا إلى صلاح هدايت وتحدثنا فى الأمر، فكان رده مشجعاً لنا فى المضى لإكمال هذا التخطيط، ووعد بصنع لغم على شكل كرة كبيرة مجوفة على نصفين قطرها، نحواً من متر، من

معدن خفيف يسمح لها بالطفو داخل المياه وبداخلها مادة T. N. T المتفجرة بكمية مناسبة، ويعلق بها ثقل محسوب الوزن لتبقى على ارتفاع معقول أسفل سطح الماء بحيث تلاصق أسفل المركب المقصودة ويجرى تفجيره فى الوقت المناسب لمرور مركب «الاسترنة» حاملة الغاز المراد تفجيرها.

وبعد إتمام صنعه كان لابد من نقل هذا اللغم بأجزائه كلها إلى منطقة القنطرة شرق، ورؤى تجزئته فوضع الثقل الحديد الذى لايؤدى كشفه إلى مخاطر، فوضع فى صناديق أوصلها السيد/ مجدى حسنين إلىّ بمحطة القاهرة لشحنها بالسكة الحديد إلى القنطرة شرق، حيث استقبلنى فى محطة القاهرة السيد/ وجيه أباظه ليعرفنى بمأمور جمرك السبتية الذى سيصحبنى فى القطار إلى القنطرة شرق ليسهل لى استلام صناديق الشحنة باعتبار أنها متفجرات.

والذى علمته من وجيه أباظه أن فؤاد سراج الدين سيسهل نقل اللغم — وكان وقتئذ وزيراً للداخلية — وأنه وعد بتسهيل الشحن، وبإيفاد مندوب الجمرك معى لهذا الخصوص. وطبعاً لم يعلم أحد وربما وجيه أباظه نفسه أن الموجود فى الصناديق لايعدو أن يكون «ثقل حديد». ولكن مع ذلك أردت أن أختبر مدى الأمن فى الشحن بالسكة الحديد إذا دعت الضرورة إليه بعد ذلك، **مع عدم التعرض لمخاطر افتضاح الأمر فى أول تجربة لنا مع الحكومة الوفدية التى أثبتت الأحداث بعد ذلك صدقها فى المضى مع الشعب فى جهاده.**

وهنا يتوقف صاحب المذكرات لحظة عن نقل ماينقله من فقرات من كتاب الأخ الأستاذ صلاح شادى ليلفت نظر السيد المؤرخ إلى أمانة التاريخ وأدب التعامل مع أحداثه وهيئاته ورجاله؛ فالوفد الذى كان بيننا وبينه من التنافس ماأدى إلى احتكاك شديد لم يمنعنا ذلك أن نسجل له الثناء فى موقف يستحق الثناء..

ثم نرجع إلى ماننقله من كتاب الأخ الأستاذ صلاح شادى حيث يقول:

أما بقية أجزاء اللغم بما يحمله من متفجرات فقد نقلت بالطائرة إلى العريش ومنها بالسيارة إلى القنطرة شرق حيث قدم بها السيد/ صلاح هدايت، وأودعناها بمنزل الأخ عبد الفتاح غنيم مأمور القنطرة شرق — الذى احتمل كثيراً من المخاطر بسبب النشاط الفدائى فى منطقته — لحين ربط أجزاء اللغم وتجهيزه للعمل من داخل هذا المكان.

ثم أخذ الأخ الأستاذ صلاح شادى يصف كيف سهر هو وعدد من الرجال الكرام على تركيب أجزاء اللغم ثم نقله إلى الضفة الشرقية للقناة، ثم تحرى التوقيت المطلوب، ثم وصولهم إلى مكان يبعد نحو ثلاثة كيلو مترات عن كوبرى الفردان الذى تقوم عليه نقطة حراسة إنجليزية. ثم استعانوا بالضابط حسن التهامى لتفادى قوة خفر السواحل ثم يقول:

«واخترنا الليلة والمكان والساعة. ووضعنا اللغم فى سيارة جيب، واتجهنا بالسيارة إلى المكان المقصود تحرسنا سيارة من سيارات الجيش بقيادة الرائد حلمى السوده الضابط بالمعسكر المصرى فى الضفة الشرقية ومعنا الضابط حسن التهامى والإخوة رشاد المنيسى وإبراهيم بركات ويوسف عبد المعطى وصلاح عبد المتعال وآخرون نهضوا معنا بمسئولية تنفيذ هذه العملية.

وكان وقت التنفيذ بعد منتصف الليل، وحملت السيارة الجيب اللغم يستره غطاء السيارة. ومضت القافلة برجالها إلى المكان المتفق عليه يحرسنا السيد/ حسن التهامى ويساند ظهرنا من أى عدوان يقع علينا.

وكان المتفق عليه قيامى بتفجير اللغم من مكان على الشاطىء الشرقى يشبه الكهف الصغير، ويبعد عن مكان الانفجار نحواً من مائتى ياردة.

ولكن..

قبل وصول السيارة إلى المكان المعد للتنفيذ ساخت فى رمال الضفة الشرقية، وتوقف الموتور، ولم نتمكن من تحريكها.. وغير بعيد منا تقع نقطة الحراسة الإنجليزية!!

وتركنا السيارة، وحملنا اللغم من «الشفة» التى تربط النصف العلوى منه بالنصف السفلى ومضينا إلى مكان الالتقاء ننتظر القارب القادم (بالثقل الحديد) من الضفة الغربية.

ومضت نصف ساعة متثاقلة الدقائق والثوانى. وبدأنا نسمع أصواتاً تتصاعد من بعيد من الجهة التى ننتظر قدوم القارب منها. وكأن شجاراً نشب بين أشخاص على الضفة الغربية. ولم نتبين تفاصيل الحديث. فأرسلنا من يتحرى الأمر فوجد أن القارب فى مكانه من الضفة الغربية لم يتحرك، وعلى الشاطىء جنود من حرس الحدود فأدركنا أنهم منعوا القارب من التحرك مخافة استعماله فى تهريب مخدرات أو نحوها.. وكنا حريصين فى الخطة على إخلاء الشاطىء من أى دوريات حتى لانواجه بهذه المفاجآت، وعلمت من حسن التهامى الذى كان مكلفاً بهذا الدور أنه أبلغ القائد العسكرى لهذه المنطقة بإخلائها من الدوريات، ولكن يبدو أن قائد المنطقة تخوف من احتمال الإيذاء الذى يلحق به من الإنجليز إذا تم التفجير فأخرج الدورية فى نفس المنطقة التى رغبنا فى إخلائها وأوقفت القارب عن العبور إلى الضفة الشرقية لوضع الكرة التى تحمل المادة المتفجرة T. N. T وربطها (بالثقل) الذى بداخل القارب ثم إنزال الثقل بعد ذلك فى جوف المياه مثبتاً به الكرة المتصلة بسلك ممتد إلى مائتى ياردة فى العمق حتى أول الشاطىء إلى حيث مكان الكهف الذى يعتبر ساتراً لمن يقوم بمهمة التفجير.

وأسقط فى أيدينا.. إذ لاشك أن تفجير اللغم لو حدث على سطح الماء فلن ينتج شيئاً له أثره، وفى نفس الوقت يجعله ظاهراً للعيان ولا يمكن تثبيته فى الماء، لأنه سيسبح مع

التيار ونعجز بالتالى عن ملاحقته .. وشهدت الألم والقنوط على وجه حسن التهامى، بل عجز عن حبس دموعه .. وجدت أن هذا الأمر يستقيم ومشاعرنا جميعاً فلم يشغل بالى .. ولكنه أصر على تنفيذ العملية برغم ذلك .. وأصر على تفجير اللغم فى السفينة القادمة أى سفينة .. ورفضت بصورة قاطعة، فلم يكن هدفى إحداث أصوات تفجير فى الهواء لاوزن لها ..

ولما يئس حسن التهامى أخبرنا أن جريدة «المصرى» قد جهزت مانشيت بالخط العريض تحكى تفاصيل هذه العملية وأنها كانت تنتظر منه الإشارة بالتنفيذ لطبع المانشيت .. فما هو الموقف الآن؟!

فقلت: لاشىء. لايكتب شىء عن هذا الحادث على الإطلاق، ولا علم لى بذلك أصلاً: وإذا كان عبد الناصر قد رتب الإعلان عن هذا الحادث فى جريدة المصرى بدون أن يخبرنى فعليه وحده علاج هذا الأمر مع الجريدة.

ونكتفى بهذا القدر من قصة اللغم، وقد أوردناها بالذات لأن شهودها لازال عدد منهم على قيد الحياة ونهديها إلى أولئك المؤرخين العظام الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون.

* * *

هذا .. وإذا كان المرشد العام حين يسأله مندوبو الصحف فلا يرى أن الإخوان ــ مع كل هذا ــ قدموا شيئاً للقضية؛ فإنما هو التواضع الذى يلتزم به القائد المسلم ــ أما الجعجعة وإصدار الفتاوى والتصريحات وإطلاق الشعارات والتهديدات فهذه ليست بضاعه الإخوان المسلمين، وقد تركوها لغيرهم يتاجرون فيها .. والقائد فى حرب مع الأعداء عليه أن لايكشف خططه مهما أحرجه السائلون بأسئلتهم والحرب خدعة.

وإذا كان الكاتب قد اعتمد طريقة الوقوف عند «ويل للمصلين» فاقتطع من كلام المرشد العام فقرات تناسب هذه الطريقة، فقد نقلنا لقرائنا فى هذه المذكرات نص الحديث الذى دار بين المرشد العام وبين وكاله يونيتدبرس كاملاً دون بتر ولا تقطيع أوصال حتى يتبينوا الحق من الباطل.

ولا أعتقد أن «مؤرخاً» كهذا المؤرخ ــ هذا مدى تجنيه على التاريخ، وجرأته فى قلب الحقائق، واستخفافه بعقول مواطنيه يستحق فى نقده أكثر من هذه السطور.

* * *

الباب العشرون

أضواء على هذه الحقبة من الزمن

الفصل الأول : وشهد شاهد من أهلها ـ تصديق على ملاحظاتنا

الفصل الثانى : شاهد على العهد

الفصل الأول

وشهد شاهد من أهلها تصديق على ملاحظاتنا

فى البابين الثانى والخامس من هذا الجزء فى الحديث مما يتصل بمشروع الإصلاح الزراعى وجمعية الفلاح، وفى الباب الحادى عشر فيما يتصل بمشروع اتفاقية الجلاء؛ داخلنى شعور ببعض شكوك حول اهتمامات أمريكية ملفتة للنظر وجدت صداها بارزاً فى تصرفات الحكومة المصرية .. ولم أكتم فى نفسى هذا الشعور بل صارحت القارىء به؛ غير أنى فى نفس الوقت لم أجرؤ أن أنقل هذا الشعور من دائرة الشكوك إلى دائرة الحقائق.

ولكننى بعد أن أنهيت مسودة هذا الجزء، وقع لى كتاب أعارنيه صديق، فلما قرأت هذا الكتاب وجدت من الأمانة العلمية أن أعود على هذا الشعور الذى بثثته القراء بمزيد من البسط وبشىء من المناقشة على ضوء ماتضمنه هذا الكتاب من معلومات؛ تاركاً للقراء بعد هذا البسط وهذه المناقشة أن يعيدوا تقييم هذا الشعور فيبقوا عليه فى دائرة الشكوك أو ينقلوه إلى دائرة الحقائق.

والكتاب الذى وقع لى هو كتاب وضعه الدكتور محمد صادق دراسة وتحليلا حول كتاب «لعبة الشعوب» وقد أحسست وأنا أقرأ هذا الكتاب بأن الدكتور محمد صادق قد بذل مجهوداً مضنياً فى تقصى نصوص كتاب «لعبة الشعوب» ودراستها وتحليلها دراسة العالم الخبير، كما أنه كان من دقة الأمانة العلمية إلى حد أنه فى نقله نصوص الكتاب من طبعته الإنجليزية كان حريصاً على إلحاق كل نص برقم الصفحة ورقم السطر. ولكننا فيما ننقل عنه للقارىء من هذه النصوص فسنكتفى بذكر الصفحة دون رقم السطر.

ومع ذلك فلن نلجأ إلى تحليلات الدكتور محمد صادق إلا فى القليل وسيكون همنا منصباً على نقل نصوص كتاب «لعبة الشعوب» نفسه ووضعها للقراء تحت عناوين، ذلك أن مؤلف هذا الكتاب «مايلز كوبلاند» أحد الذين قاموا بدور هام فى تأسيس المخابرات الأمريكية وفى نشاطها السرى بمنطقة الشرق الأوسط منذ عام ١٩٤٧، وكان يعمل

بالمخابرات المركزية الأمريكية فى مصر فى بداية عهد عبد الناصر ــ يذكر ذلك عن نفسه ويقول إنه قام بدور هام فى العلاقة بين المخابرات المركزية وحكام مصر العسكريين. ويروى فى هذا الكتاب ذكرياته عن الفترة من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٦٧ ويضيف إليها آراءه وتعليقاته ــ وإن كانت وجهة نظره فى هذه التعليقات تصور التدخل الأمريكى على أنه حتمية تاريخية، وتصور نظم الحكم «الناصرية» على أنها ثمرة هذا التدخل، وأنها فى نظره أحسن نظم الحكم التى تحقق أهداف السياسة الأمريكية، وتلائم المصالح الغربية فى الدول الناشئة فى آسيا وأفريقيا.

وهذا التصوير الذى يصوره للتدخل الأمريكى فى بلادنا هو من حقه باعتباره أمريكياً مسئولاً عن تقديم أعظم خدمات لبلاده، وعن تهيئة الظروف حيث كان لإنجاز مصالحها.. ولا يعنيه بطبيعة الحال إن كانت تهيئة الظروف هذه هى فى مصلحة البلاد التى تهيأ فيها هذه الظروف أم هى فى غير مصلحتها لأنه يعمل فى هذه البلاد لحساب بلاده وحلفائها الغربيين.

وهو يقرر أن سياسة الولايات المتحدة ذات وجهين؛ وجه تمارسه الحكومة الأمريكية ووزارة الخارجية، وهذا الوجه يتقيد بالمبادىء الدبلوماسية والأخلاقية. والوجه الآخر فيما يراه «كوبلاند» ويسميه «السياسة الخلفية» يرى أن السياسة الأمريكية يجب أن يكون هدفها الأول مصالح أمريكا ذاتها، وأنها يجب أن تعمل لحماية مصالحها «الجوهرية» بجميع الوسائل والأساليب؛ حتى ولو لم تكن متفقة مع القواعد الخلقية ولا مع المبادىء الديمقراطية.. وهذا هو الاتجاه «الميكيافيلى» ويمارس هذا الوجه «إدارة المخابرات المركزية».

وبعد أن يذكر «كوبلاند» فى كتابه مبررات هذه الاستراتيجية «ذات الوجهين» ويبين الأسباب التى دعت الولايات المتحدة إلى السير فيها بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط خاصة، وشعوب العالم الثالث عامة؛ ولا يخفى شعوره بما فى هذه السياسة المزدوجة من نفاق وخداع يتعارض مع المبادىء الأخلاقية والمثل الأمريكية.. بعد ذلك أخذ يبرىء نفسه من الدفاع عنها، وإن كان يقررها كحقيقة واقعة بقوله فى صفحة ٢١:

«من الطبيعى أننى لأدافع عن هذه الازدواجية، إننى لأشعر بميل إليها ولا نفور منها؛ إنما أكتفى بالقول إن هذا هو الواقع، وإن عملنا (سواء فى «مركز اللعب» أو فى عالم الواقع الذى تقوم به دبلوماسيتنا وقواتنا المسلحة) أساسه وجود هذه «السياسة المزدوجة».»

ويلاحظ أن «كوبلاند» مؤلف هذا الكتاب عاش فى المنطقة منذ عام ١٩٤٧ وشارك بصفته أحد رجال المخابرات الأمريكية فى «بعض» العمليات التى نفذتها فى سوريا

وفى مصر بصفة خاصة، وقد رأى بعد كارثة عام ١٩٦٧ أن ينشر فى كتابه «بعض» معلوماته عن تلك العمليات التى شارك فيها.

وهو يصرح بأنه كان من خلصاء جمال عبد الناصر فيقول فى صفحة ٧٧:
«من الراجح أننى رأيت عبد الناصر أكثر من أى «غربى» آخر حتى هذه اللحظة. ولو أنه لم يعد من الممكن لى أن أفاجئه بدون رسميات وأن أجلس للغداء معه؛ فإننى أحرص على أن تكون لى معه جلسة وحديث كل شهر أو شهرين على الأكثر، وذلك فى ظروف يرتفع فيها التكليف، وينطلق هو فيها على سجيته وفطرته إلى أقصى حد ممكن — لقد كنت أذهب لهذه الأحاديث فى بعض الأحيان لمجرد المودة الشخصية كصديق. ولكن فى بعض الأحيان كنت أكلف بمهمة يكلفنى بها أحد شركائى. وكان يسبق الزيارة فى بعض الأحيان درس كامل يعطيه لى أحد «الأطباء» أو «المحللين النفسيين» أو مسئول عادى فى المخابرات؛ ويمكننى هذا الدرس من كشف الأعراض التى قد تدل على انهيار صحى أو فى القوى العقلية»

كما أن «كوبلاند» يقرر بأنه صديق لعبد الناصر وأنه يحبه شخصياً، يقرر ذلك فى صفحة ٢٣٩ ويذكر لنا صفاته الشخصية وأهمها فى نظره أنه «شجاع ولا مبدأ له».

ورغم أن كتابه قد أحدث ضجة كبرى فى الأوساط العربية التى اطلعت عليه، إلا أنه مع ذلك لم يفض بكل ماعنده فقد قال فى صفحة ١٤ من كتابه:
«عندما قررت ماذا أكتب وماذا أحتفظ به، فإننى قد راعيت أن الهدف من كتابى هو.. ثم يقول «لقد حذفت المعلومات التى تمنع نشرها قواعد الأمن الحكومى سواء بالنسبة للحكومة الأمريكية والبريطانية» ويذكر فى صفحة ٢٣٨ أنه هرب من مصر فى أواخر مايوم ١٩٦٧ قبل الهجوم الإسرائيلى على مصر بأيام معدودة.. ولعل لهذا التوقيت مغزى لدى بعض القراء.

لماذا قرر «كوبلاند» نشر كثير من الوقائع السرية؟

أما لماذا قرر «كوبلاند» نشر كثير من الوقائع السرية الخاصة بالمخابرات المركزية والعلاقات الديبلوماسية الأمريكية رغم أنه من المفروض أنه مازالت له صلات بأوساط المخابرات، فتجيب عليه جريدتا الكريستيان سيتس مونيتور ولوس أنجلوس تيمز فيقولان: إن كوبلاند يقول إن الصحفى الجاسوس الإنجليزى «كيم فلبى» كان يعلم أغلب هذه التفصيلات السرية، وإن الروس الآن أصبحوا يعرفونها (بعد أن هرب فلبى إلى روسيا).

ولكن يوجد سبب آخر ظهر فيما بعد؛ ذلك أن اثنين من المؤلفين كانا يعدان كتباً

تثبت أن عبد الناصر كان عميلاً فعلياً للمخابرات المركزية الأمريكية أثناء صعوده سلم السلطة؛ وأن المخابرات المركزية وجدت أن نشر وجهة النظر هذه سيضر بالمصالح الأمريكية. لذلك قررت أن تكشف بعض ملفاتها السرية على أمل أن تظهر عبد الناصر على أنه وطنى مستقل حاول أن يستغل الولايات المتحدة من أجل تحقيق مصالح مصر الوطنية.

«لعبة الشعوب» أو «مركز اللعب»:

يقول «كوبلاند» فى صفحة ٢٣ من كتابه إنه كان يلعب دور عبد الناصر فى «مركز اللعب» ابتداءً من صيف عام ١٩٥٥ إلى ربيع عام ١٩٥٧. ويصف هذا المركز بأنه فى الطابق الثانى عشر من إحدى ناطحات السحاب بواشنطن، وأن اجتماعاته تبدأ من الخامسة بعد الظهر حتى الثانية عشرة ليلاً، وأن هدفه هو إعداد التنبؤات بردود الفعل أو المواقف التى قد تتخذها بعض الشخصيات السياسية الأجنبية فى ظروف معينة تقترحها إدارة المخابرات حتى تعرف مقدماً ماذا ستفعله هذه الشخصيات عندما تتوفر تلك الظروف لها فى الواقع العملى مستقبلاً».

ويشرح الدكتور محمد صادق دور هذا المركز فيقول: إن هذا المركز الذى صنعته المخابرات الأمريكية يقوم بدور مسرح صغير تجرى فيه «بروفات» وتجارب ينوب فيها خبراؤها عن الشخصيات الأجنبية التى يمثلونها ــ ويتصرفون كما يعتقدون أنها سوف تتصرف إذا وجدت فى الظروف المفروضة عليهم، والتى يحتمل أو يتوقع أن تتحقق فى يوم من الأيام فى عالم السياسة الدولية فى «المسرح الكبير» مسرح العلاقات الدولية والأحداث السياسية الذى تقوم فيه هذه الشخصيات الأجنبية فعلاً بأدوارها التى تنبأت بها المخابرات الأمريكية قبل وقوعها عن طريق تجاربها فى المسرح الصغير.

بهذه الوسيلة التمثيلية الدراسية تستطيع أجهزة المخابرات ومخططو السياسة الأمريكية أن يعرفوا الظروف التى يمكن إذا تحققت أن تدفع زعيماً معيناً أو سياسياً معيناً (كعبد الناصر مثلاً) لاتخاذ قرار معين أو موقف معين (مثل قرار تأميم قناة السويس أو قطع العلاقات مع بريطانيا أو ألمانيا الغربية أو إعلان الحرب على إسرائيل أو صفقة الأسلحة التشيكية ألخ) فإذا أرادوا بعد ذلك أن يدفعوه نحو اتخاذ مثل هذا القرار دون أن يظهروا ذلك عملوا على خلق الظروف والأساليب التى يعلمون مقدماً ــ من دراستهم فى مركز اللعبة ــ أنها تدفعه إلى اتخاذ القرار المطلوب. وهكذا يحققون غرضهم فى الوقت الذى يعلنون «معارضتهم» أو «احتجاجهم» على ما وقع بتدبيرهم المبنى على التنبؤ «برد الفعل المعاكس» تماماً كما يفعل لاعب البليارد حين يدفع كرته لتصل إلى كرة أخرى، ولكنه

لايوجهها نحوها، بل يوجهها نحو موقع مغاير يعلم أنه سيصدمها ويدفعها بعد ذلك فى الاتجاه المعاكس للاتجاه الذى كانت متجهة إليه.

ونجاح المخابرات الأمريكية فى هذه «العمليات» يتوقف على دراسة الشخصيات التى تتعامل معها، وفهم العوامل والاعتبارات التى تؤثر فيها، وعلى مدى سيطرتها الفعلية على «العوامل المؤثرة» فى الشخصيات السياسية الأجنبية التى تتعاون معها أو تتعامل معها— وهذه العوامل المؤثرة هى «مفاتيح» شخصية الرجل السياسى التى تحركه. ومتى عرفتها المخابرات، ووضعت يدها عليها، أصبح فى يدها الخيوط التى تحركه وتدفعه فى اتجاهات معينة. تماماً كما يمسك اللاعب المستتر فى «مسرح العرائس» بالخيوط التى توجه الدمى وتحركها هنا وهناك، لتقوم بأدوارها المرسومة لها أمام النظارة والمتفرجين كما لو كانت تتحرك وتتصرف من «تلقاء نفسها».

وقد أشار كوبلاند* من غير قصد فى صفحة ٢٤ إلى حالة من هذا النوع حين قال: «أسبوع واحد قبل أزمة السويس (تأميم القناة) سألنى «فرانك فزتر» نائب مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية عما إذا كنت أعتقد أن عبد الناصر سوف يؤمم شركة قناة السويس فيما لو سحبت الحكومة الأمريكية معاونتها المالية لمشروع السد العالى (فضلاً عن قيامه بإجراءات أخرى)؟— فأجبته:
«حقاً، إننى فى مكانه وأثناء قيامى بدوره فى «اللعب» قد قررت تأميم شركة قناة السويس منذ شهر سابق— ولكنه لم يفعل ذلك حتى الآن— ولذلك لاأعرف ماذا سيفعل الآن».

يقول الدكتور محمد صادق: إن المؤلف «كوبلاند» يستشهد بذلك على أن مواقف عبد الناصر كانت دائماً أقل ضرراً على المصالح الغربية مما كان يتوقعه هو عندما كان يقوم بتمثيل دوره فى «مركز اللعب» ولكن جوابه يؤكد أنه كان يعلم بأن العوامل التى تدفع عبد الناصر للتأميم قد توفرت منذ شهر (وإن كان لم يذكر هذه العوامل) وأنه كان مندهشاً لعدم إقدامه على ذلك، حتى إنه سأل عبد الناصر بعد ذلك عن السر فى هذا «التأخير» غير المتوقع— ففهم أنه كان يخشى أن يكون رد الفعل الإنجليزى الأمريكى أعنف مما حدث— بسبب جهله ببعض «المعلومات» التى كانت لدى كوبلاند. (لاشك أنها معلومات تدل على عدم عنف المعارضة الأمريكية للتأميم ولكنه لم يذكرها أيضاً).

هذه القصة تؤكد أن الحكومة الأمريكية عندما سحبت معاونتها للسد العالى كانت تتوقع أن يكون تأميم القناة أحد ردود الفعل التى سيتخذها عبد الناصر. وأن ماأظهرته من دهشة واعتراض على التأميم عند صدور قراره لم يكن يتفق مع الواقع— بل إن القارىء يستطيع أن يتساءل هل كانت السياسة الأمريكية تهدف إلى دفع عبد الناصر لهذا القرار، وأنها أوجدت الظروف التى تدفعه لذلك قبل سحب إعانة السد العالى بشهر كامل،

ولكنه تردد ولم يقدم، فزادت عليها بعد ذلك قرارها سحب الإعانة وهى تتوقع أن يقدم على التأميم هذه المرة ـ وقد كان.. وتم لها ماأرادت رغم ظهورها بمظهر الاعتراض؟!

لماذا تحولت الخارجية الأمريكية عن الاتجاه المثالى؟

يربط «كوبلاند» بين تحول السياسة الأمريكية إلى الاتجاه الميكيافيلى وبين التمهيد للانقلاب العسكرى فى مصر فى أواخر عام ١٩٥١ وأوائل عام ١٩٥٢، وهى الفترة التى وصلت فيها الأزمة بين مصر وبريطانيا أقصى درجاتها بتزايد العمل الفدائى الشعبى ضد القواعد الإنجليزية بالقنال ـ وضغط الرأى العام المصرى على الحكومة وعلى الملك فاروق لدرجة أدت إلى إعلان إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ التى كان يعتمد عليها الوجود العسكرى البريطانى فى القنال فى أكتوبر عام ١٩٥١ ـ فأصبح وجود القواعد العسكرية الإنجليزية بغير «أساس» وأصبح العمل الفدائى واجباً وطنياً وكفاحاً شعبياً مجيداً.

كان وزير خارجية أمريكا فى ذلك الوقت هو المستر دين أتشيسون ـ ويظهر أنه تعرض لضغوط دولية لم يذكر لنا المؤلف كوبلاند مصدرها ـ وإن كان من المفهوم أنها آتية من ناحية بريطانيا أولاً ثم من ناحية إسرائيل أيضاً لأنها كانت تعتبر الجيش البريطانى فى القنال هو خط دفاعها الأول ضد الحركات الفدائية المصرية.

ويصف كوبلاند موقف المستر أتشيسون فى عام ١٩٥١ فى صفحة ٤٨ فيقول: «يظهر أن وزير الخارجية المستر دين أتشيسون فى عام ١٩٥١ لم يكن على كل حال ذائقة تامة فى (الأساليب الديمقراطية) إنه عندما كان يتكلم علناً لم يكن يذكر سوى أساليب «الدبلوماسية التقليدية» ولكن فى أحاديثه الخاصة كان يبدى اعتقاده أن احتمال الالتجاء إلى بعض «النشاطات غير التقليدية» (المخالفة للمبادىء الديمقراطية والأخلاقية كتدبير الانقلابات والمؤامرات.. الخ) ـ هو أمر يستحق الدراسة على الأقل لمساعدة بعض «القوى الطبيعية» على الظهور.

ونتيجة لذلك فإنه فى نهاية عام ١٩٥١ قرر تشكيل «لجنة خبراء» سرية لدراسة العالم العربى فيما يتعلق على الخصوص بالنزاع العربى الإسرائيلى لاستعراض المشاكل، واقتراح الحلول سواء كانت تتفق مع أساليب العمل الحكومى «النظيف.. أم لا».

وقد استعار وزير الخارجية من الهيئة المركزية للمخابرات الأمريكية المستر «كيرميت روزفلت» ليرأس هذه اللجنة، التى كانت تضم بعض رجال وزارة الخارجية وبعضاً آخر من وزارة الدفاع وبعض المستشارين من دوائر رجال المال ومن الجامعات. ولم يكن فيها من المخابرات إلا رئيسها.

ماالذى قررته لجنة الخبراء؟

يقول «كوبلاند» إن أهمية هذه اللجنة هى أنها قد بحثت عن الوسائل التى تستخدمها مخابرات الولايات المتحدة لتمكين العناصر الموالية لها من الوصول إلى الحكم — وقد قررت اللجنة بصراحة أن لها أن تستعمل كل الوسائل دون تقيد بقواعد «الديبلوماسية التقليدية» أى لاتتقيد بالمبادىء الأخلاقية أو الديمقراطية — ويقول «كوبلاند» إن قرارات هذه اللجنة هى نقطة التحول من المرحلة التى استخدمت فيها الوسائل التقليدية من عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٥١ وبين المرحلة التالية التى قررت السياسة الأمريكية فيها توسيع نشاط مخابراتها ليمتد إلى الوسائل الانقلابية والميكيافيلية.

ويشرح كوبلاند ذلك معبراً عن وجهة نظره فى صفحة ٢١ فيقول:
«هناك حدود لما تفعله حكومة بلد ديمقراطى فى شئونها الداخلية — ولكن لاتوجد حدود لما نستطيع أن نعمله «فى البلاد الأخرى» — أو على الأصح، فإن حكومتنا عندما تقرر ماذا ستفعل بالنسبة لبلد آخر؛ فإن الحدود الوحيدة لذلك العمل هى استطاعتنا له وإمكانية تنفيذه — فكل مانستطيع أن نفعله نفعله — أما الاعتبارات الأخلاقية فإنها إذا ظهرت فكل مايترتب عليها هو أننا لانسأل أنفسنا فقط «هل نستطيع أن نفعل ذلك؟» بل يجب أن نتساءل «هل نستطيع أن نخفيه ونهرب به؟»».

ويقول كوبلاند: إن اللجنة قررت أن «المشكلة المصرية» كانت قد حظيت بالأولوية على ماسواها، وأن اللجنة رأت وجوب تدخل الولايات المتحدة فى «هذه المشكلة» بسرعة. وسمى هذا التدخل فى مصر: «العملية الكبرى».

لماذا اختارت اللجنة مصر لتنفيذ العملية الكبرى؟

يتجاهل كوبلاند عامداً السبب الحقيقى مع أنه قد ذكره من قبل وهو «نجاح الشعب المصرى والحركة الفدائية المصرية فى إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦، ووقوف الشعب والحكومة الوفدية، وخضوع الملك للإرادة الشعبية». ومع أن كوبلاند تجاهل هذا السبب فإن كتاباً فى نفس الموضوع ظهر قبل كتابه هو كتاب «هيئة المخابرات المركزية الأمريكية» الذى ألفه «أندرو كوللى» تكلم بكل صراحة ووضوح فى صفحة ٦٨ عن اتفاق بريطانيا مع أمريكا على إبعاد فاروق بعد ٢٦ يناير ١٩٥٢ — مما يفهم منه أن مبدأ التدخل الأمريكى كان متفقاً عليه من قبل، وأن حريق القاهرة جعل الدولتين تتفقان على أن يصل التدخل إلى حد تغيير نظام الحكم الملكى أو إقصاء فاروق على الأقل.

ومع تجاهل كوبلاند لكل هذا فإننا نسايره فنجده يقول فى صفحة ٤٩: «إن اختيار مصر لأنها بلد يتمتع بأولوية ممتازة بسبب مزاياها الخاصة، وبسبب نفوذها فى الدول

العربية الأخرى لدرجة تجعل كل اتجاه للتحسن فيها مؤثراً فى العالم العربى » ثم يقول : « ومن ناحية أخرى أى ناحية « تنفيذ العملية » كان من المعتقد أن ذلك سهل ، ليس فقط بسبب طبيعة شعبها وطبيعة ساستها ، بل أيضاً بسبب أن عندنا منفذين مشهود لهم بالمهارة ، يعرفون البلاد معرفة جيدة ، ومن بينهم « كيرميت روزفلت » نفسه رئيس اللجنة » .

هل كانت هناك جهود بذلها روزفلت فى مصر من قبل؟

يقول كوبلاند إن روزفلت كانت له اتصالات فى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأنه اتصل بالملك فاروق إذ ذاك ، وأن فاروق كان يميل إليه . ويقول فى صفحة ٥١ : « إن الملك فاروق قد توفر لديه ميل إلى روزفلت خلال الحرب أثناء الأزمة التى أجبره فيها الإنجليز بقوة السلاح على إبعاد العناصر التى تعطف على « المحور » من الحكم ، وأن يضع مكانها أشخاصاً تختارهم بريطانيا (يقصد أزمة ٤ فبراير ١٩٤٢) .

« فى تلك الفترة كان فاروق يحترق غيظاً فى قصره ، لاحول له ولا قوة . وكان روزفلت يزوره يومياً تقريباً ليهدئه ويوحى إليه بأنه بعد انتهاء الحرب يحتمل أن توضع خطة جديدة لتتمتع مصر بسيادتها الكاملة ، وليكون فاروق أول حاكم لمصر المتحررة بعد ألفى عام » .

ويعلق الدكتور محمد صادق تعليقاً له دلالاته على عبارة « بعد ألفى عام » التى جاءت فى كلام روزفلت لفاروق حيث يقول فى تعليقه : لاندرى من أين جاء روزفلت بهذا الرقم؟ وأهم مافيه أنه يفترض أن مصر لم تكن مستقلة طوال العصور الإسلامية كلها (٢٠٠٠ سنة) حتى إن عبد الناصر رددها فى خطبة له فى عهد قريب سنة ١٩٦٦ فى عيد الجلاء إذ قال : « منذ أكثر من ألفى عام ووطننا يحكمه الغرباء ـــ أى المسلمون ـــ والحلم الضائع لأبنائه أن يعود وطنهم إليهم .. وبعد عام واحد من هذه الخطبة وقعت الهزيمة والنكسة سنة ١٩٦٧ .

ثم نرجع إلى السياق فنقول : إن كوبلاند لايذكر لنا شيئاً عن اتصالات روزفلت أو غيره من خبراء المخابرات الأمريكية مع فاروق أثناء أزمة القنال قبل نهاية عام ١٩٥١ ـــ وإنما ينقلنا مباشرة من عام ١٩٤٢ إلى عام ١٩٥٢ فيقول فى صفحة ٥٢ :

« بقى روزفلت فى القاهرة الشهرين الأولين من عام ١٩٥٢ (يناير وفبراير ١٩٥٢) ثم يقول ما ملخصه أن روزفلت حاول مع فاروق تنظيم « ثورة سلمية » بإجراء حملة تطهير فى الأجهزة الحكومية ، ولكن فاروق أبعد العناصر المعروفة بفسادها ثم وضع بدلاً منها رجالاً أكثر منهم فساداً اختارهم هو » .

ثم يقول كوبلاند فى نفس الصفحة بعد ذلك : « فى شهر مايو ١٩٥٢ رفع روزفلت

يديه علامة على اليأس من فاروق. ووافق على رأى سفير أميركا فى ذلك الوقت «جيفرسون كافرى» **وهو أن الجيش وحده هو الذى يستطيع أن يواجه الوضع «الفاسد» وإقامة حكومة تستطيع الدول الغربية أن تتفاهم معها».**

يقول الدكتور محمد صادق: هنا فقط، وبصفة عارضة، وعلى لسان السفير الأمريكى فى القاهرة، اضطر كوبلاند إلى ذكر المشكلة الرئيسية التى تفادى ذكرها طوال الوقت وهى مشكلة «التفاهم مع الدول الغربية». ومعنى هذا أن عناد فاروق وإصراره الذى ذكره كوبلاند لم يكن خاصاً بموضوع الرشوة والفساد كما يحاول أن يوهمنا بل امتد العناد إلى أكثر من ذلك وهو موضوع «التفاهم مع الدولة الغربية».

الأهم من ذلك أن هذا العناد من جانب فاروق ومن جانب جميع السياسيين التقليديين لم يكن اختياراً منهم وإنما فرض عليهم فرضاً من التيار الشعبى الجارف المعادى للغرب — فلابد من وسيلة لتحطيم هذه «المقاومة الشعبية» وكان رأى كافرى أن الجيش هو وحده الذى يستطيع أن يقوم بهذه المهمة.

لكن هذه الفكرة لم تكن مرتجلة، ولا بنت ساعتها.. لقد سبقتها دراسات وأبحاث فى أوساط الجيش، واتصالات بمجموعات من الضباط الذين أظهروا استعدادهم للتفاهم.

ماسبب استعجال المخابرات الأمريكية لحل مشكلة «التفاهم مع الدول الغربية؟

يقول «أندرو تولى» الذى أشرنا إليه من قبل وكتابه «هيئة المخابرات الأمريكية» الذى نشر عام ١٩٦٢ وطبع عدة طبعات. يقول فى صفحة ٨٦:
«وصلت موجة العداء للغرب إلى أقصاها فى أكتوبر عام ١٩٥١ عندما أعلنت حكومة فاروق (حكومة الوفد برياسة مصطفى النحاس) إلغاء معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، وطرد البريطانيين من القنال والسودان المصرى الإنجليزى.

وفى يناير عام ١٩٥٢ (٢٦ يناير) قامت مظاهرات عنيفة ضد الغرب وضد بريطانيا، وسارت وسط القاهرة، وأحرقت فندق شبرد المعروف، وكذلك أحرقت ممتلكات مصرية وأجنبية أخرى. ولقد كان من الظاهر أن فاروق شجع هذه المظاهرات، ولكن عندما خرجت عن السيطرة، وتحولت إلى نهب ممتلكات أصدقائه (الغربيين) استدعى الجيش لإعادة النظام.. **والراجح أن هذا هو الوقت الذى قررت فيه الولايات المتحدة وبريطانيا ضرورة التخلص من فاروق».**

أما تحول موجة العداء للغرب إلى ثورة شعبية فقد أشار إليه كوبلاند نفسه فى كتابه صفحة ٥٤ حيث يوضح أن خطورة هذه الثورة الشعبية كانت ترجع إلى أن المسيطر عليها هم الإخوان المسلمون فيقول:

«إن الحركتين الثوريتين فى ذلك الوقت هما «الإخوان المسلمون» «والحزب الشيوعى» كانتا تعتقدان أن الشعب المصرى بما فيه الفلاحون والعمال والموظفون فى المدن، بل وذوو المهن الحرة أيضاً ـــ كان قد وصل سخطه إلى درجة الغليان، وأنه يمكن أن ينفجر إذا وجد التوجيه الصحيح».

يقول الدكتور محمد صادق: إن صاحب «لعبة الشعوب» مصر على أن لايشير إلى الجهة التى تهددها هذه «الثورة الشعبية»، ولكن يتضح مما ذكره سلفه «تولل» أن الثورة كانت موجهة ضد الغرب عموماً، وضد بريطانيا ومصالحها خاصة وإسرائيل من ورائها.

فما هو العلاج الذى كانت تفكر فيه السياسة الأمريكية لمواجهة هذه «الثورة الشعبية»؟!

اتفاق المخابرات الأمريكية مع «الناصريين»:

يقول كوبلاند فى صفحة ٥٣: «كان روزفلت غير واثق من «الانقلابات العسكرية» بعد أن رأى ماأدت إليه فى سوريا من فوضى. ولكنه «وافق» على أن يقابل الضباط الذين قدمتهم له «المخابرات المركزية الأمريكية» على اعتبار أنهم زعماء التنظيم السرى العسكرى الذى يدبر «انقلاباً عسكرياً» إنه فعل ذلك فى مارس عام ١٩٥٢ أى قبل أربعة شهور قبل «الانقلاب الناصرى». إن عبد الناصر قد علم (بأى طريق؟) بالمحاولات الاستطلاعية التى قامت بها المخابرات الأمريكية لمنظمته، وكان على استعداد للاتصال، ودبر الأمر لكى يجد روزفلت فى طريقه عدداً من الضباط البعيدين عن مركز الحركة ليصرفهم كما يشاء، والذين يثق فى أنه يمكن أن يعتمد على أنهم سوف يقولون «مايجب قوله ويحتفظون بأسرار الضباط الأحرار» ـــ لقد تمت ثلاث لقاءات. وكان يحضر ثالثها أقرب المقربين لعبد الناصر. وقد توصل روزفلت مع هذا الضابط الذى كان يتكلم باسم عبد الناصر شخصياً إلى «اتفاق» واسع انطاق يستحق أن نذكره:

هناك ثلاث مسائل عامة تم الاتفاق عليها فوراً. وهى..».

يقول الدكتور محمد صادق: لقد استطرد كوبلاند فى شرحه لنقاط الاتفاق الذى تم بين روزفلت وبين جماعة عبد الناصر فى شهر مارس ١٩٥٢ بإفاضة وإسهاب مسود بهاست صفحات من مؤلفه (من صفحة ٥٤ ـــ ٥٩) نكتفى هنا بتلخيصها فنقول:

على حد قول كوبلاند كانت **النقطة الأولى هى**: أن جماهير الشعب المصرى لايمكن أن تثور بسبب الحالة الاقتصادية.

أما **النقطة الثانية**: **فهى** أن المصريين لن يثوروا لأى سبب من الأسباب، وبالتالى فلا داعى لتخوف الأمريكيين من ازدياد نفود الحركة الثورية للإخوان المسلمين، ولن تكون

هناك ثورة شعبية ديمقراطية فى مصر. **أما النقطة الثالثة**: التى تمهد لها وتؤدى إليها النقطتان السابقتان فهى مايلى (ص ٥٥ وما بعدها): «أخيراً اتفق على أنه فى مستقبل العلاقات بين الحكومة المصرية «الجديدة» (الطبقة الجديدة) سيكون استعمال عبارات «إعادة الحياة الديمقراطية» أو «إقامة حكم نيابى صحيح» — مثل هذه العبارات ستكون مقصورة على البيانات التى يطلع عليها الرأى العام — أما فيما بيننا فسوف يوجد تفاهم سرى بأن الشروط اللازمة لقيام حكم ديمقراطى لم تتوفر ولن تتوفر لسنين عديدة».

بعد هذه النقاط الثلاث العامة التى تم الاتفاق عليها — يشير كوبلاند إلى أن هناك «نقاطاً أخرى» يدعى أنه لم يتفق عليها صراحة، ولكنها كانت موضوع «تفاهم متبادل بين الطرفين».

أول هذه النقاط «الخاصة» وأهمها فى نظر كوبلاند هى: موقف عبد الناصر من إسرائيل — ويليها الموضوع الشائك وهو موضوع «القومية العربية» ثم «مرونة» موقفهم تجاه البريطانيين — وعندما يصل كوبلاند إلى هذه النقطة الأخيرة وهى موقف الضباط من البريطانيين ومدى مرونته، يختم حديثه بهذه العبارات (ص ٥٨، ٥٩): «لقد فهم روزفلت هذه النقطة. وعندما عاد من القاهرة إلى واشنطن شهرين قبل الانقلاب (أى فى شهر مايو) قدم تقريره إلى دين أتشيسون وزير الخارجية. والنقطة التى فهمها روزفلت هى أن هؤلاء الضباط وإن كانوا يكرهون الإنجليز إلا أنهم يحترمونهم احتراماً شديداً؛ فعداؤهم للإنجليز ليس عميقاً ولا ثابتاً ولا دائماً كعدائهم للكبار المصريين من ضباط وسياسيين».

يقول الدكتور محمد صادق: معنى ذلك أن تحليل موقف الضباط من الإنجليز كان نقطة حاسمة فى إقناع روزفلت بأن الانقلاب العسكرى بواسطة هذه الجماعة من الضباط هو أفضل وسيلة للوصول إلى اتفاق بين مصر وبريطانيا — وقد أشار لذلك روزفلت فى تقريره كما أورده كوبلاند فى صفحة ٥٩:

«هؤلاء الضباط الذين سيقودون الانقلاب.. سيزدادون تعقلاً ومرونة فى «المفاوضات» متى وصلوا للحكم.».

ماذا فى الاتفاق عن إسرائيل؟

يقول كوبلاند فى صفحة ٥٦: «إن عبد الناصر قرر لروزفلت بكل صراحة أنه هو وزملاؤه الضباط رغم مالحقهم من مهانة الهزيمة على يد الإسرائيليين — إلا أنه أكد أن حقدهم موجه إلى رؤسائهم، ثم إلى العرب الآخرين، ثم إلى البريطانيين، ثم إلى الإسرائيليين، بهذا الترتيب».

ويعقب كوبلاند على ذلك قائلاً فى نفس الصفحة :
«نتيجة لمحادثات روزفلت مع شخصيات مدنية كبيرة فى مصر بما فيهم الملك فاروق — فإنه وصل إلى نتيجة أقنعته بالاتفاق مع عبد الناصر».

وعندما أورد كوبلاند خلاصة تقرير روزفلت الذى قدمه لوزير الخارجية عقب عودته لواشنطن اكتفى بما يعتقد أنه يهم وزارة الخارجية فى الدرجة الأولى وهو «موقفهم من إسرائيل» فأكد كوبلاند فى البند رقم (٦) الذى أورده فى صفحة ٥٩ مايلى :
«(٦) فيما يخص كل هذه اللقاءات التآمرية (هذه هى كلمات كوبلاند) السابقة على الانقلاب .. ففيما يخص «العدو» الذى يخشونه فلن يكون إسرائيل، بل الطبقات العليا فى مصر، والإنجليز ..».

شعور الضباط الناصريين نحو الشعب المصرى :

فى صفحة ٥٤ يقول كوبلاند «إن المتحدث باسم جماعة الناصريين، فى لقائهم مع مندوب المخابرات الأمريكية روزفلت؛ مضى يقول : إن أغلبية المصريين عاشت عيشة الكفاف آلاف السنين. ويمكن أن تستمر على ذلك ألف سنة أخرى. إنهم لاتوجد عندهم دوافع للثورة. وليست عندهم دوافع تحركهم للطموح نحو التمتع بحياة أفضل حتى بعد الثورة.

ويعلق على ذلك كوبلاند فى صفحة ٥٨ فيقول :
«وهناك انحراف فكرى يتميز به ناصر وضباطه — وتميز به النموذج الناصرى من الحكام وأعوانهم على العموم — فبينما يتكلمون بأعلى صوت ضد «العدو» الأجنبى (كالبريطانيين فى هذه الحالة) نجد أن العداء الحقيقى المملوء بالمغزى والمعانى والذى يحركهم ويدفعهم للعمل هو العداء الذى يكنونه لأبناء شعبهم».

يقول الدكتور محمد صادق تعقيباً على ذلك : إننا لانظن أن الأمريكيين قد صدقوا ماقاله لهم هؤلاء الضباط عن الشعب المصرى، أو أن ذلك شجعهم على الاستخفاف والاستهتار بمقاومته، بل على العكس من ذلك؛ فإن الذى استحق منهم الاستخفاف والتحقير هم هؤلاء الضباط «الأحرار» المتزلفين لهم الساعين إلى استجداء تأييدهم ومساعدتهم وتدخلهم فى شئون شعبهم — ويكفى لبيان درجة استخفاف الأمريكيين بهم أن نورد وصف كوبلاند لهم على لسان الكولونيل «ميد» صفحة ٦٥ الذى كتب إلى روزفلت يقول عنهم مايلى :
«هؤلاء الصبيان» يظنون أنفسهم عصابة «روبن هود» المرحة — ويعجبهم أن يوصفوا بأنهم «أبطال الثورة» — إنهم لاتهمهم السياسة — ومن حسن حظنا وحظ عبد الناصر أنهم

يحتاجون إلى من يعلمهم كيف يفكرون وماذا يفعلون».

ويواصل الدكتور محمد صادق تعليقه فيقول: هذا هو النوع الذى يشهر بأمته، ويحقر تاريخها ومجدها. وهو الذى يصلح «للتعاون» مع القوى الأجنبية ذات المطامع والأهداف المناقضة لمطامح أمتهم وآمالها ــ وهذا يفسر لنا إسراع روزفلت إلى «الاتفاق» معهم وإصرار كوبلاند على قوله بأن هذا النوع هو أحسن نوع من الحكام لمصالح الغرب.

تحويل أنظار الشعب عن أعدائه الحقيقيين :

يقول الدكتور محمد صادق: إن وصول الطبقة الجديدة «الضباط الناصريين» للحكم معناه فتح الباب أمام معارك داخلية تحول أنظار الشعب عن المعارك الحقيقية ــ وبذلك تتم عملية «التحويل».

إن عملية «التحويل» ستجعل الشعب ينسى الإنجليز المرابطين فى القنال، والإسرائيليين الذين وراءهم يحتلون فلسطين. وبدلاً من محاربة هؤلاء الأعداء الخارجيين سوف تسير الجماهير تحت لواء «الطبقة الجديدة» فى حروب داخلية ضد أعداء داخليين وهميين أو حقيقيين بحجة محاربة الفساد والرشوة أو الرجعية أو أى حجة أخرى.

خلاصة نتائج تجارب المخابرات الأمريكية فى سوريا :

لقد أطال كوبلاند فى دراسة أسباب فشل حسنى الزعيم وفشل العمليات المحدودة التى قاموا بها من سوريا ــ ليستخلص منها الشروط التى يجب أن تتوفر فى «اللاعب» أى الحاكم الذى يعتبره مثالياً من وجهة نظر المصالح الأمريكية ــ والذى يجب أن يبحثوا عنه للقيام «بالعملية الكبرى» التى كانوا ينوون الإقدام عليها.

ويشير المؤلف (كوبلاند) إلى الدروس التى استفادوها من ذلك فيقول فى صفحة ٤٥ :

«ولعلنا نستوعب جميع الدروس التى كان يجب أن نتعلمها من تجربة حسنى الزعيم ــ ومع ذلك فبالرجوع بذاكرتنا إلى الوراء نجد أن النتائج التى اتضحت منها بشكل كاف هى: .. وعقب ذلك يشير إلى ثلاث نتائج هى فى الحقيقة الخصائص الأساسية المميزة للنظام «الناصرى» وملخصها مايلى:

١ ــ لايكفى وقوع الانقلاب وتغير الحكومة، بل الأهم هو بقاء الحكم الانقلابى إلى النهاية رغم إرادة الشعب ومعارضته.

٢ ــ لابد من وجود «مجموعة» أو «طبقة» حاكمه وليس شخصاً فقط، لأن هذا

أضمن لاستمرار «النظام» المفروض.

٣ــ أن يكون لدى الحاكم صفات تبعد عنه تهمة كونه عميلاً لنا؛ بأن يتصرف بأسلوب لايساير مصالحنا وأهواءنا بصورة كاملة، ولا مانع من أن نتحمل منه «مبادرات سيئة ضدنا» متى كان وجوده فى الحكم ضرورياً لحماية مصالحنا الأساسية، وكانت هذه المبادرات ضرورية لبقائه فى الحكم.

وفى صفحة ٤٤ يوضح كوبلاند أن وجود المجموعة أو الطبقة الحاكمة ليس معناه عدم وجود زعيم؛ بل على العكس من ذلك يجب أن يجمع الزعيم حوله جماعة أو طبقة «لاتستطيع أن تعيش بدونه» بأى حال من الأحوال فيقول:

«إن حسنى الزعيم لم يتعلم نظريات «الزعامة الحديثة» وهى أن مهمة الزعيم الرئيسية هى أن يوجد الظروف التى تجعل معاونيه وأتباعه لايجدون أمامهم أى حل بديل إلا التمسك به والتشبث ببقائه..».

ويقول فى صفحة ٥٠: «وهكذا تبين لنا (أى للجنة) أنه إلى جانب دراسة احتمالات وجود زعيم محتمل ــ يجب أيضاً أن ندرس المجموعات المتعاونة المتدرجة التى تعمل تحت أمره ــ الطبقة الممتازة التى تليه، ثم الطبقة التى تحتها، والطبقة التى فى القاعدة ــ لنتأكد من أنهم جميعاً يمكن أن يكونوا معاً كتلة واحدة منسجمة يربط بينها وحدة المصالح ووحدة الأغراض ــ».

ثم يبين بعد ذلك أن أحسن طريقة لجعل هذه المجموعة متماسكة مرتبطة هو وجود خطر مشترك على حد ماقاله الفيلسوف الإنجليزى «برتراندرسل» ــ ولم تقصر اللجنة فى دراسة ماهو «الخطر المشترك» الذى يجب أن يستغل لبقاء هذه المجموعة المتعاونة متماسكة تربط بينها وحدة المصالح ووحدة الهدف ــ ومن الغريب الذى سيدهش له الكثيرون أنه يؤكد أن اللجنة انتهت إلى أنه لامفر من استخدام قضية النزاع العربى الإسرائيلى لهذا الغرض فيقول فى نفس صفحة ٥٠ مايلى:

«فى هذا الجزء من العالم، لابد من تطبيق ملاحظات الفيلسوف «برتراندرسل» وهى أن وجود خطر مشترك» ــ هو أسهل طريقة لإيجاد التجانس والوحدة» ــ فى خارج مصر يستعمل القادة العرب الخوف من إسرائيل لإيجاد نوع من الوحدة الوطنية فى بلادهم. ونحن لم نجد طريقة نتفادى بها استعمال نفس الوسيلة فى مصر (بعد الانقلاب المرتقب) بشرط أن يكون ذلك فى نطاق الحد الأدنى لكى نتفادى خطر إثارة العواطف التى يمكن أن تخرج عن سيطرة الحكام. وكان احتمال هذا الخطر يظهر ضئيلاً نظراً لفداحة الهزيمة التى أصابت الجيش المصرى أمام القوات الإسرائيلية فى حرب عام ١٩٤٨ ــ ومن ناحية أخرى لم تكن هناك فرصة محتملة لإمكان إيجاد زعيم لايستغل الخطر الإسرائيلى..».

الاتفاق مع المخابرات الأمريكية قبل الانقلاب
يشمل برنامج السياسة الداخلية:

ذكر كوبلاند عدداً من النقاط التي تم الاتفاق عليها والتي تكون في نظر الطرفين برنامج السياسة الداخلية الذي وافقت عليه أمريكا لكي يسير بمقتضاه الحكم العسكري بعد تنفيذ الانقلاب. وهذه هي أهمها ــ بعبارات كوبلاند نفسه:

١ ــ «إن حكومة الولايات المتحدة سوف تقبل خلع الملك فاروق، وربما إلغاء الملكية تماماً ــ ومع ذلك فلا مانع من أن تقدم احتجاجاً معتدلاً لإرضاء ذوي النفوس الطيبة. وسيكون من المناسب أن يظهر السفير كافري بعض الاهتمام لتأمين سلامة شخص الملك فاروق» (صفحة ٥٩).

٢ ــ «بعد تنفيذ الانقلاب تمتنع حكومتنا (الأمريكيه) عن أية محاولة ــ فيما عدا المحاولات الكلامية ــ لإقناع الحكام الانقلابيين بإجراء انتخابات أو بإقامة حكومة دستورية وما أشبه ذلك ــ وسوف تقوم علاقاتها مع الحكومة الجديدة (العسكرية) على أساس أن النظم الديمقراطية يجب أن تبدأ من نقطة الصفر (صفحة ٥٩).

٣ ــ تم الاتفاق «على أنه في مستقبل العلاقات بين الحكومة المصرية الجديدة (بعد الانقلاب) وبين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فإن استعمال عبارات «إعادة الحياة النيابية» أو «إقامة حكم نيابي صحيح» سوف يكون مقصوراً على البيانات التي تعلن للرأي العام ــ أما فيما بيننا فسيكون هناك تفاهم (سري) بأن شروط الحكم الديمقراطي لم تتوفر وأنها لن توجد لسنوات طويلة» (صفحة ٥٥).

٤ ــ ستكون مهمة الحكومة الجديدة هي إيجاد هذه الظروف وهي:
أ ــ محو الأمية وإيجاد طبقة مثقفة.
ب ــ إيجاد طبقة متوسطة مستقرة وواسعة.
جـ ــ إشعار الجماهير بأن هذه الحكومة منهم ــ وأنها لم تفرض من جانب الفرنسيين ولا الأتراك ولا البريطانيين ولا الطبقة العليا في مصر.
د ــ تجسيم القيم والأهداف «المحلية» حتى يمكن إيجاد نظم ديمقراطية من نوع خاص (كالاتحاد الاشتراكي) مثلا وتنميتها بدلاً من النظم المماثلة للديمقراطية الأمريكية أو البريطانية» (صفحة ٥٥).

٥ ــ إن الثورة الشعبية التي تنبأت بها وزارة الخارجية الأمريكية والتي يسعى لها بجد

الإخوان المسلمون — أو الشيوعيون — يجب استبعادها (صفحة ٥٩).

يقول الدكتور محمد صادق معقباً على بنود هذا الاتفاق:

ظاهر أن محور هذا البرنامج وهدفه (الموضح فى الفقرة (٥).. هو استبعاد الثورة الشعبية التى إن نجحت ستكون نتيجتها حكماً ديمقراطياً نيابياً — وقد أوضحت الفقرة (٤) أن الحكم الديمقراطى المماثل للديمقراطية الأمريكية والغربية مستبعد بصفة نهائية فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد — وبدلاً من ذلك سوف يكتفى فى المستقبل (بعد سنوات طويلة حسب الفقرة (٣) بنوع آخر سموه «ديمقراطية من نوع خاص (الفقرة ٤ / ٤ كالديمقراطيات الشعبية.

من أسباب اختيار المخابرات الأمريكية لعبد الناصر:

قبل أن يقدم لنا كوبلاند فى كتابه ملخص التقرير الذى قدمه روزفلت فى عام ١٩٥٢ إلى وزارة الخارجية الأمريكية عن نتائج اتصالاته ولقاءاته فى مصر — قدم لهذا التقرير بالكلمة الآتية (صفحة ٦١):

«إن التقرير المكتوب عن رحلة روزفلت إلى مصر وضع بأسلوب لايفزع بعض لجان «الكونجرس» التى قد تكلف بالتحقيق فى المستقبل. ولهذا لم يكن فيه تفسير صريح كامل لما بذلناه من مجهودات **لكى نجد «زعيماً» يقتله تعطشه للسلطة من ذوى الأسلوب البونابرتى، له قدرة على أن يجمع الشعب بالخوف**.. «أما التقارير الشفهية التى قدمها روزفلت فكانت أكثر صراحة — إذ قال للمسئولين: إن شخصاً مايتحرق فى تطلعه للسلطة، وليس فى حاجة للدبلوماسيين السريين الأمريكيين لتحريضه أو إلهاب حماسته للاستيلاء عليها».

ثم يقول فى صفحتى ٤٩، ٥٠:

«إن سبب فشل حسنى الزعيم أنه لم يكن يريد الحكم إلا من أجل مظاهره. وكان يكفيه أن نناديه بصاحب الفخامة لكى نفعل مانريده ويبقى عميلاً لنا.. إن هذا لم يكن يكفى لنجاح خطتنا؛ لأننا نريد أن نوصل للحكم شخصاً لديه عقدة حب السلطة التى تدفعه ذاتياً لكى يرتكب كل شيء، ويعمل كل شيء ليبقى فى السلطة بحكم حبه لها — ولا نكون نحن مسئولين عما يفعله ويرتكبه فى سبيل بقائه فى الحكم.

كنا نريد شخصاً يكون سعيه للسلطة أقل مظهرية — لأننا كنا متأكدين بأننا متى ساعدنا مثل هذا الشخص للوصول للحكم، فسوف نتخلص من كل مسئولية أدبية تزعج أنفسنا بسبب عقدة حب السلطة لديه — ومع ذلك فقد نضطر فى يوم من الأيام طبعاً أن نفعل ذلك (أى نظهر الانزعاج) لأسباب تكتيكية (مثل تهدئة الرأى العام

الأمريكى) . . » .

وفى الفصل الأخير من كتابه يؤكد كوبلاند فى صفحة ٢٣٢ «أن عبد الناصر هو من ذلك النوع الذى يهتم بسلطته الشخصية، وإلا لما وصل للحكم ولما تمسك به».

ثم يبين لنا أول النتائج التى يؤدى إليها هذا التعطش للسلطة؛ وهى الاعتماد على قاعدة البطش وصرف أموال كثيرة على أجهزة البطش والعنف فيقول فى نفس الصفحة:
«من المنطقى أن هذا النوع من القادة يجعل حكمه قائماً على قاعدة البطش والعنف. وهذه القاعدة الباطشة تحتاج إلى جهاز بيروقراطى وجيش تتجاوز تكاليفه طاقة مصر فى الظروف العادية. وهذه النفقات الباهظة تجعله أكثر احتياجاً إلى العون الخارجى».

موقف الحكومة الأمريكية من قوانين البطش والاضطهاد الناصرية:

يقول كوبلاند فى صفحة ٧٩: «لاشك فى أن الصحافة الأجنبية فى خارج مصر انتقدت أساليب الحكم الناصرى، وكثير من السفارات الغربية أبدت فى تقاريرها ظهور ماسموه (دكتاتورية عسكرية فاشستية فى مصر) على حد تعبير بعضهم. أما السفارة الأمريكية فكان لها رأى آخر يختلف عن السفارات الغربية الأخرى، فإنها وإن وجهت بعض الانتقادات، فلم يكن سبب ذلك بغضها لهذه الاعتقالات والمصادرات والحراسات والقيود على الصحافة — كلا — بل بسبب الطريقة غير المناسبة التى فسرت بها الحكومة المصرية هذه الإجراءات للرأى العام — أى بسبب سوء الدعاية بمعنى أدق..».

ثم يتحدث — فى صدد البطش — عن الشرطة المصرية فيقول فى صفحة ٨٠:
«بالنسبة لوزارة الداخلية؛ فإن رجال الأمن المصريين هم كرجال الأمن فى غير مصر من البلاد، ليسوا من أحسن طبقات الشعب — وإنما من الطبقة التى تلتحق عادة بإدارة الشرطة — لقد قال لى أحد كبار رؤسائهم مرة: إننا نسير على اعتبار أن الناس جميعاً يخضعون للحكومة؛ طالما فهموا أننا سوف نحطم رأس كل من يخرج على طاعتها.

«ربما يجىء يوم يستطيع فيه بعض الناس أن يجدوا طريقة تجعل ضباط الأمن أكثر تهذيباً ورقياً من ذلك — ولكن من المؤكد أن هذه الطريقة لم تكن موجودة فى ذلك الوقت ولا معروفة لدى عبد الناصر ولا لدى مستشاريه الأمريكيين».

وفى صدد تعداد أنواع التعاون الأمريكى الناصرى فى توفير أحدث أساليب البطش والإرهاب يقول كوبلاند فى صفحة ٨٢:
«إن حكام مصر اشتروا أجهزة آلية ضخمة للرقابة. واشتروا مجموعة كاملة من الأجهزة الألكترونية من أحدث ماوصلت إليه صناعة التجسس ومقاومة التجسس الأمريكية؛

حتى إنه فى عام ١٩٦٠ أصبحت لديهم مسجلات سريعة وسهلة التركيب موضوعة تقريباً فى جميع غرف الفنادق وميسات الضباط والمنازل الخاصة والسفارات فى القاهرة والإسكندرية.. تمكنهم من أن يستمعوا أو يسجلوا المحادثات التى تجرى فى الشوارع من مسافة بعيدة، فضلاً عن آلات تصوير بعيدة المدى تستطيع أن تصور فى ظلام الليل وكانت هذه المعدات من الكثرة لدرجة أن رجال مصلحة السياحة بسبب ضرورات عملية اكتفوا باستعمالها فى حالات دون أخرى».

وفى صفحة ٨٩ يعرض لرأى المراقبين الغربيين فى أساليب البطش الناصرية ثم يعقب عليه برأيه الشخصى باعتباره المسئول الأمريكى لتوجيه عبد الناصر فيقول:

«لقد كان بغيضاً للمراقبين الغربيين أن يروا الملكية تصادر أو توضع تحت الحراسة بهذه الطريقة المرتجلة، وأن يروا الأفراد يسجنون ويعتقلون بناءً على مجرد الشكوك والظنون، والصحافة مقيدة والمراسلين الصحفيين الأجانب يعاملون بخشونة فى بعض الأحيان».

«ولكن من الناحية الأخرى، ومهما تكن الصورة التى عرضت بها أساليب البطش الناصرية على العالم الخارجى، فإن أعمال البطش الناصرية لم تنفذ بطريقة عشوائية، وإنما رسمت وحسب حسابها بكل برود (يظهر أن المؤلف يتكلم باعتباره قد اشترك بنفسه فى عملية الحساب أو عملية التخطيط إلى جانب بعض المستشارين الآخرين) ومعنى هذا أنه كان ضحيتها عناصر وأشخاص قليلون (لم يذكر العدد) ومن السهل تمييزهم (يقصد المعارضين للحكم العسكرى) عن عامة الشعب».

«إن عبد الناصر يبرر تصرفاته الدكتاتورية بحجة المحافظة على نفسه وحب البقاء فى الحكم، وهى تشبه الحجة التى استعملها الإسرائيليون للقضاء على الطوائف غير اليهودية فى بلادهم».

ثم يزيد هذا الموقف إيضاحاً فيقول فى صفحة ٩٠:

رغم أن الرسميين الغربيين الذين يكرهون عبد الناصر طالما رفعوا أصواتهم من وقت لآخر ليصفوه بالدكتاتورية والفاشية — رغم هذا — فالواقع الذى حدث هو أن الحكومة الأمريكية وإلى حد ماالحكومة البريطانية كانا يرقبان بكل انتباه عبد الناصر وهو يبنى قوته الباطشة (ضد أبناء وطنه) ويتغافلون عن ذلك.

تقرير إيخلبرجر اليهودى الأمريكى الذى اعتمده عبد الناصر دستوراً له:

استقدمت الحكومة الأمريكية الخبير «إيخلبرجر» ليشير على عبد الناصر فى كيفية «التجاوز» عن النظام النيابى (إلا مايلزم للتمويه) وكيفية إقامة دكتاتورية عسكرية. لذلك اهتم هذا الخبير أول كل شىء بتوجيه عبد الناصر وجماعته إلى عدم المسالمة مع القوى

الداخلية فى مصر، وإلى عدم الاعتدال فى السياسة الداخلية، وإلى وجوب الاعتماد على قوة رادعة باطشة يكون الجيش أول أداة لها.. وكون الجيش عاملاً أساسياً فى سياسة البطش التى يتبعها الحكم الثورى معناه أنه لايكون صالحاً للحرب والدفاع عن الوطن. وقد أوضح كوبلاند أنه كان من المتفق عليه دائماً بينهم وبين عبد الناصر أن الجيش المصرى يعد فقط لأغراض داخلية ــ لا للحرب ــ وفى ذلك يقول فى صفحة ٨٥:

«فيما يخص الموقف الأمريكى نحو استخدام عبد الناصر للجيش كقوة باطشة يجب أن نذكر مايلى:

من أول يوم عندما كان عبد الناصر يطلب مساعدات عسكرية لم يكن هناك احتمال لأن يستعمل الجيش فى أغراض عسكرية تقليدية، ولم يكن الموضوع متعلقاً بمواد عسكرية كبيرة؛ إن الموضوع كان مقصوراً على حاجته لأغراض الأمن الداخلى وحدها لقد أوضح عبد الناصر لسفرائنا أن نظامه يعتمد على العسكريين لحمايته، وأنه يعتقد أن الجيش إذا كان فى حالة سيئة فإنه سيفقد ولاءه له».

وفى صفحتى ٧٤، ٧٥ يقول: «إن الظهور بمظهر «الاعتدال والمسالمة» من جانب عبد الناصر لم يكن سببه أنه لم يكن يعرف هدفه (أى الدكتاتورية) ولم يكن معناه أنه سيتخلى عن الدكتاتورية أو أنه سيتجه نحو نظام ديمقراطى، كما ظن فى ذلك الوقت كثير من المراقبين الغربيين ــ بل سبب التردد أنه لم يكن يعرف كيف يصل إلى هدفه وهو «تجاوز النظام النيابى»».

وبعد أن يعرض كوبلاند تقرير إيخلبرجر يقول فى صفحة ٧٧:
«لقد كانت نقطة الانطلاق (فى السياسة الناصرية) هى ضرورة وجود قاعدة للبطش (أى الدكتاتورية والإرهاب) حسب الخطوط التى رسمت لذلك فى تقرير إيخلبرجر».

وفى صفحة ٩١ يقول كوبلاند «يجب أن نذكر دائماً فى تعاملنا مع عبد الناصر أن قاعدة «البطش الداخلى» هى أهم شىء عنده. ولذلك لاتعجب إذا رأينا أنه ــ بعد أكبر هزيمة ساحقة فى التاريخ العسكرى الحديث ــ يجلس عبد الناصر وأعوانه لاليبحثوا كيف ينقذون مصر وبنوها، بل ليبحثوا كيف يستعيدون سيطرتهم على الجيش. وسيبقى هذا هو الشغل الأول لهم..».

ثم يختتم الفصل الذى خصصه فى كتابه لتبرير إرهاب عبد الناصر بقوله فى صفحة ١٧٦:

«إننا ــ نحن الأمريكيين ــ نستفيد من نفوذ عبد الناصر لتنفيذ بعض مشروعاتنا مثل مشروع «أريك جونستون» الخاص بمياه نهر الأردن؛ وهو مشروع لايمكن تنفيذه ــ كما

يقول جونستون نفسه ــ إلا بنفوذ من هذا النوع «الناصرى» ومثال آخر: محاولاتنا المتكررة لجعل عبد الناصر يتولى زعامة «تهدئة التوتر» بين العرب وإسرائيل.. وإن حكومتنا قد بدأت عملية (على الأقل) تضمنت تأييدنا لزعامة عبد الناصر لتمكينه من تنفيذ ذلك».

ويظهر أن هذا ــ فى نظر كوبلاند ــ هو فصل الخطاب؛ فمن أجل إسرائيل ومصلحة إسرائيل يباح كل شيء، ويستباح كل شيء حتى «الإرهاب»...

القاعدة الغوغائية لنظام عبد الناصر:

فى ختام الفصل السادس من كتابه يقول كوبلاند:

«إن استعمال عبد الناصر للعناصر المكونة لقاعدته الفوغائية مثل الدعاية والإعلام، والحزب أو التنظيم السياسى، والتضخم الحكومى ــ إنما قصد بها إبقاء زعامته. وإذا كنا سنرى فى الفصل التالى كيف اتجه إلى «البونابرتية» إلا أن وجهة النظر الناصرية هذه كانت وستبقى أحسن شيء لخدمة أهدافنا، طالما عملنا حسابنا للاستفادة من محاولاته للاحتفاظ بالتأييد الشعبى وتأثير ذلك على تحركاته فى لعبة الشعوب».

صفقة الأسلحة السوفييتية كنموذج «للعبة الشعوب»:

يقول كوبلاند فى صفحة ٤٦ «إن الزعيم أو الزعماء الذين يستطيعون القيام بانقلاب للاستيلاء على الحكم، ويريدون أن يضمنوا البقاء فيه والقيام بدور «إيجابى» (من وجهة النظر الأجنبية طبعاً) يتحتم عليهم أن يكونوا من «نوع» يبعد عنهم شبهة كونهم عملاء لنا، ويبعدهم عن التصرف بطريقة توافق مزاجنا بصفة كاملة. وبالاختصار، فإننا عندما نساعد زعيما للوصول إلى الحكم لكى يحقق لنا «الخير» الذى نتطلع إليه، يجب أن نستعد لمواجهة بعض المبادرات «السيئة» ضدنا التى يضطر إليها من أجل بقائه فى الحكم بعد وصوله إليه. إن الجهاز السياسى الذى يكون تحت سيطرته إذا كان طبيعياً (يجب أن يكون كذلك ليضمن البقاء) سوف يكون بداخله عناصر معادية لمصالحنا.

«إن النقطة الأساسية فى هذا الكتاب هى أن «استراتيجيتنا» على الأقل فى علاقتنا بالدول غير الغربية، يجب أن تفترض أن مائدة «اللعب» عليها عدد من اللاعبين، الذين يتحتم عليهم أن لايكونوا دائماً على مزاجنا، ومع ذلك نكسب منهم بواسطة تكتيك مختلف عما نستعمله مع خصومنا فى اللعبة، مثل السوفييت والصينيين ــ وكذلك يختلف عما نستعمله مع أصدقائنا الذين نلعب معهم «لعبة تعاون»..».

يقول الدكتور محمد صادق: ولكى نعطى القارىء صورة عن كيفية حبك مثل هذه

المبادرات المسرحية وكيفية إخراجها بتعاون الطرفين اللذين يتقاسمان أدوارها حتى تؤدى إلى غرضها «الديماجوجى» المطلوب (زيادة شعبية الحاكم الناصرى) بموافقة القوى الأجنبية وتواطئها وتشجيعها ومساعدتها — ننقل له قصة «صفقة الأسلحة السوفيتية» التى عقدها عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٥٥، واستغلت أحسن استغلال فى الإعلام فى داخل مصر وخارجها فى جميع أنحاء العالم لإظهار عبد الناصر أنه أكثر زعماء آسيا وأفريقيا استقلالاً، وأكثرهم جرأة وتحدياً للسياسة الأمريكية.

ولكن الجماهير لاتعرف أن سبب هذه الجرأة وهذا الإقدام هو حصوله مقدماً على موافقه أمريكا وتأييدها لهذه العملية — بل إن الكاتب «كوبلاند» يشرح لنا كيف أن الأمريكيين قاموا بالدور الرئيسى فى إخراج العملية بهذه الصورة لمصلحتهم هم أولاً، وعبد الناصر معهم.

ونستعرض الآن الكيفية التى أخرجت بها «المبادرة المسرحية» وعرضت عرضاً مثيراً بتدبير المخابرات الأمريكية حسبما أوضح لنا المؤلف «كوبلاند» بإسهاب وتفصيل فى كتابه:

١ — أول شىء يكشفه لنا «كوبلاند» أن المخابرات الأمريكية كانت على علم بالمفاوضات الجارية بين عبد الناصر وبين موسكو لعقد هذه الصفقة، وذلك قبل شهر أغسطس عام ١٩٥٥. إنه يقول لنا إنه وصل واشنطن عائداً من مصر فى أواخر أغسطس (صفحة ١٣٢)، وهناك اطلع بوزارة الخارجية على برقية من السفير «بايرود» عن العرض السوفيتى تضمنت مايلى حسب روايته: «إننا (الأمريكيين) يحسن أن نراجع أفكارنا عن إعطاء الروس مساعدات عسكرية لمصر — إننا إذا لم نقدم بعض المساعدات العسكرية بسرعة، فإن عبد الناصر سوف يقبل عرضاً روسياً ذكرت المخابرات الأمريكية أنهم قدموه له.. وأنه إذا حدث ذلك فإنه يعتقد أن النفوذ الروسى سيزداد فى المنطقة كما حدث فعلاً بعد ذلك (صفحة ١٣٣).

ويقول كوبلاند تعليقاً على هذه الرسالة إنها رغم أهميتها فإنها لم تكن مثيرة (لعله يقصد أنها لم تكن مفاجأة له أو لوزارة الخارجية — صفحة ١٣٢) وإن الموضوع عرض على اللجنة التى كان يشترك فيها، وأخذ طريقاً روتينياً لايشير إلى أى اهتمام من جانبهم له (صفحة ١٣٣).

معنى ذلك أن الأمريكيين أهملوا الموضوع ولم يفكروا قط فى منع المفاوضات بين عبد الناصر والروس، ولم يطلبوا منه عدم الاستمرار فيها طول هذه المدة — من أغسطس إلى منتصف سبتمبر.

٢ ــ الأمر الثانى الذى كشفه أن عبد الناصر نفسه قبل أن يتمم الصفقة، وقبل أن يوقعها بعث لهم «يستأذنهم» فى ذلك ويطلب من روزفلت إن كان لديه أى اعتراض عليها فهو على استعداد للترحيب به (صفحة ١٣٣): «وفى منتصف سبتمبر (أيول) عام ١٩٥٥، تلقى كيم روزفلت رسالة شخصية من عبد الناصر قال فيها إنه على وشك أن يوقع اتفاقاً مع الروس بشأن هذه الصفقة، وأنه إذا كان روزفلت يريد أن يعترض على ذلك فإنه يرحب بهذا الاعتراض».

٣ ــ إن هذا «الاستئذان» لم يحدث أى اضطراب أو مناقشات أو دراسات، كأن الأمر كان مدروساً وكان الجواب حاضراً معداً ــ إذ قرر روزفلت وكوبلاند أن يسافرا إلى القاهرة، وسافرا فعلاً فى اليوم التالى لوصول رسالة عبد الناصر.

٤ ــ إن الجواب الذى حمله الاثنان إلى عبد الناصر كان مفاجأة له ــ لأنه لم يكن لديهم أى اعتراض.. هكذا قال (صفحة ١٣٣):

«استقبلنا فى المطار أحد أعوان عبد الناصر وأخذنا رأساً إلى مسكنه فى الطابق الأعلى من مبنى مجلس قيادة الثورة، فوجدناه فى انتظارنا على غاية السرور، وكان يتوقع أن يناقشه روزفلت ويسمع حججه، ولكنه فوجىء لأن روزفلت بدلاً من أن يناقشه ويحاول أن يقنعه بالعدول عن الصفقة، لم يعترض عليها».

٥ ــ إن السبب الذى ذكره روزفلت لتأييد إتمام الصفقة يتضمن شقين: أولهما أن يستفيد عبد الناصر من الشعبية الناتجة عنها، أما الثانى فهو المقابل الخفى له وهو إعلانه بأنه على استعداد للقيام بمجهود «مشترك» مع إسرائيل لإقامة سلم دائم فى المنطقة.. وهذه هى عبارته (صفحة ١٣٣):

«قال روزفلت: إذا كانت الصفقة بهذه الضخامة فقد تزعج البعض (من الأمريكيين والغربيين)، ولكنها على العموم ستجعل منك بطلاً عظيماً ــ فلماذا لاتستفيد (أنت) من هذه الشعبية المفاجئة لتقوم بعمل يليق بسياسى محنك (لصالحنا نحن)، إنه لن يقلل من شعبيتك شيئاً إذا قلت على سبيل المثال: ــ «لقد حصلنا على هذه الأسلحة لأغراض دفاعية فقط، وإذا أراد الإسرائيليون أن ينضموا إلينا فى مجهود مشترك لقيام سلم دائم فى المنطقة فستجدوننى على استعداد لذلك».. أو شيئاً من «هذا القبيل».

٦ ــ طبعاً لم يقل لنا المؤلف (كوبلاند) شيئاً عن موقف إسرائيل، ولكننا نفترض أن الإجابة التى فاجأ بها روزفلت عبد الناصر لايمكن أن تكون قد أعدت إلا بعد مشاورات مع إسرائيل.. أغلب الظن أنه كان من مصلحة إسرائيل قطعاً أن يتجه عبد الناصر والعرب إلى التسلح من الكتلة الشرقية لتستأثر هى وحدها

بالتزود بالأسلحة من الدول الغربية ــ وهذا هو التعليل الوحيد لموافقة المخابرات الأمريكيه على الصفقه ومواجهتها بهذا البرود وعدم إبداء أى محاولة لإيقافها أو الاعتراض عليها، بل إن إعداد الخطة للاستفادة منها وتوزيع الفائدةبينهم وبين صديقهم عبد الناصر وصديقتهم إسرائيل فيناك هو الشهرة، وينالوا هم خطوة عملية للصلح مع إسرائيل؛ وتنال إسرائيل أسلحة أمريكية تفرض بها الصلح عند الضرورة بطريقتها الخاصة.

٧ ــ لقد ربط روزفلت بين تطمين إسرائيل، وبين فرصة الحصول على شعبية مفاجئة، ثم ربط بين الأمرين وبين ناحية ثالثة هى تدعيم مركز عبد الناصر فى أوساط الدول المحايدة أو الدول الأسيوية والأفريقية ــ لإتمام دوره الذى بدأه فى باندونج.. هكذا قال لنا (صفحة ١٣٣ الفقرة الأخيرة):
«لقد ناقشنا الفكرة (التى عرضها روزفلت وهى تطمين إسرائيل بإعلان الاستعداد للسلم الدائم..) حتى منتصف الليل، ورأينا أن يكون «تصريح» عبد الناصر بهذا الصدد بأسلوب سياسى راق يكسبه هتاف الجميع؛ ليس فقط الثوريين بل المحافظين أيضاً من أبناء وطنه بل من البلاد الأخرى وخاصة الكتلة الشرقية ــ ثم يتبع ذلك بتزعم حملة تدعو للحياد فى السياسة الدولية تكون مؤيدة من جميع الجهات (الغربية والشرقية وغير المنحازه)».

٨ ــ أضاف روزفلت بأنه إذا تم ذلك فإن عبد الناصر فوق رضاء أمريكا وموافقتها سيحصل منها على مساعدات مالية واقتصادية (صفحة ١٣٣):
«إلى جانب هذا يستمر عبد الناصر فى إصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية فى الداخل بمساعدة أمريكا».

٩ ــ اتفق على أن يقوم الكاتب نفسه (كوبلاند) بتحضير مسودة للفقرة التى اقترحها روزفلت متضمنة التصريح الخاص بالسلم مع إسرائيل (نهاية صفحة ١٣٣ وأول صفحة ١٣٤) ــ وفى مساء اليوم التالى عرضت المسودة على عبد الناصر فوافق عليها مع تغيير عبارة «السلم مع إسرائيل» بأن وضع بدلها «تخفيف التوتر بين العرب وإسرائيل» (صفحة ١٣٤).

١٠ ــ إن ذلك كله كان على درجة كبيرة من السرية والتكتم فى الأوساط الأمريكية ذاتها؛ حتى إن أحداً فى وزارة الخارجية لم يعلم به سوى وزير الخارجية المستر «دلاس»، بل إن السفير الأمريكى نفسه المستر «بايرود» لم يعلم بوصولهم ولا بما تم بينهم وبين عبد الناصر وأصحابه، وفوجىء برؤيتهم فى مساء اليوم التالى أثناء حفلة عشاء (صفحة ١٣٧).

١١ــ فى مساء اليوم التالى أثناء اجتماعهم فى مسكن عبد الناصر فوجئوا بزيارة السفير البريطانى له. وقد قص المؤلف (كوبلاند) علينا قصة هذه الزيارة ليبين لنا كيف جاء السفير وقابل عبد الناصر وخرج وهم فى الغرفة المجاورة دون أن يعرف (لاهو ولا السفير الأمريكى) شيئاً عن وجودهم ولا عما تم بينهم وبين عبد الناصر ــ وكانوا هم يتناولون الويسكى من زجاجة من نوع «الاسكوتش» يحتفظ بها عبد الناصر عادة بمنزله للزوار الممتازين (صفحة ١٣٤)».

ويصف لنا المؤلف (كوبلاند) مشهد حضور السفير البريطانى وخروجه وهم يرقبونه ويتضاحكون ساخرين منه فيقول فى (صفحة ١٣٥):

«كنا نرقب الأنوار المضاءة تشع على مبنى السفارة البريطانية فى الجانب المواجه لنا من شاطىء نهر النيل.. وشاهدنا سيارة السفير البريطانى وهى تخرج به من السفارة إلى الشارع الرئيسى (الكورنيش) ثم تعبر الجسر (قصر النيل) ونحن نتحدث مع عبد الناصر فى الموقف الذى يتخذه من السفير البريطانى (عندما يسأله عن صفقه الأسلحة) الذى كان مثل سفيرنا بايرود لايعلم بوجودنا فى القاهرة (ومن باب أولى لايعلم برأيهم فى الموافقة على الصفقة وتشجيع عبد الناصر عليها)، ذلك أن وزير خارجيتنا المستر فوستر دلاس لم يخبر أحداً فى وزارة الخارجية (لابسفرنا ولا بالغرض منه طبعاً)، وكذلك لم يخبر البريطانيين وكذلك لم يخبر سفيره بالقاهرة لاعن دعوة عبد الناصر لنا ولا عن أننا حضرنا إلى القاهرة بناء على هذه الدعوة لإقناعه بإتمام الصفقة صفقة الأسلحة التى تعد خطوة جريئة تؤدى إلى افتتاح مرحلة جديدة من الصداقة (معنا أو مع إسرائيل؟) ومن التطور الاقتصادى (لاحظ كل هذه الاحتياطات لسرية الموضوع).. لقد كنا نحن نبحث ماذا سوف يقول (رئيس جمهورية مصر) للسفير البريطانى فى هذه الظروف (ظروف السرية المطلقة)، فقال روزفلت لكى تكسب الوقت إلى مساء الغد (حينما يعلن نبأ الصفقة فى خطبة له) قل له إن الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا. وبهذا يكون تأثيرها أقل عنفاً حيث إن التشيكيين هم مصدر رئيسى للأسلحة بالنسبة لإسرائيل..».

ولم تستمر زيارة السفير البريطانى أكثر من خمس دقائق، ولكنها كانت موضوع تعليقات ونكات طول الليل بين الأصدقاء وخاصة بين المؤلف (كوبلاند) وصديقه «زكريا محيى الدين» الذى سأله أن يتصور دهشة السفير البريطانى لو علم بأنكم هنا فى غرفة مجاورة للغرفة التى قابل فيها عبد الناصر، وكيف تكون ملامحه لو أن روزفلت أو كوبلاند دخل عليهما فجأة وبيده كأس الويسكى. وقال لعبد الناصر:

عفواً.. صديقى جمال.. لقد انتهت الصودا.. فمن أين نحصل على مزيد منها..!!

يقول الدكتور محمد صادق:

إن الذين عاشوا ظروف هذه المسرحية وعاصروها لم يسمعوا شيئاً مما ذكره المؤلف. ولم يعرفوا إلا مانقلته وكالات الأنباء من أخبارها، وهم يذكرون أن الصورة التى عرضت بها فى الصحافة المصرية والصحافة الأمريكية والصحافة العالمية كانت تقنع الرأى العام ورجال السياسة فى كثير من الدول بأن هذه الصفقة كانت تحدياً للسياسة الأمريكية، وأن عبد الناصر دخل بسببها فى مجابهة مع أمريكا وفى مشكلة مع العالم الغربى، وخرج منها منتصراً، وبذلك أصبح بطلاً فى نظر الشعوب الأفريقية والأسيوية، وبصفة أخص الشعوب العربية التى تكره الغرب بسبب موقفه المؤيد لإسرائيل. ولم يكن ذلك كله إلا نتيجة لاستعمال أساليب التمويه والخداع وبتعاون وتواطؤ من الجانبين اللذين أقنعا العالم بأنهما على خلاف كبير فى الوقت الذى كان الاتفاق بينهما على أتمه.

هل كان إنشاء هيئة التحرير وأخواتها توجيهاً أمريكياً أيضاً؟

يسمى كوبلاند هذه الهيئات التى تنشئها الحكومة «قاعدة غوغائية». وإذا رجعنا إلى تقرير «إيخلبرجر» سنرى كيف أن هذه «القاعدة الغوغائية» إنما هى وسيلة من وسائل التمويه تمكين النظام الدكتاتورى من استعمال الألفاظ والمصطلحات التى يستعملها النظام الديمقراطى استعمالاً زائفاً مضللاً يصرف الجماهير عن المطالبة بحقوقها الديمقراطية وحرياتها السياسية، كما يمكنه من استعمال وسائل البطش والعنف وراء هذا الستار الغوغائى اللفظى.

وقد ألحق كوبلاند فى آخر كتابه نص تقرير إيخلبرجر فنرى هذا التقرير يقول فى صفحة ٢٥٢:

«كل هذه المخاطر (مخاطر وجود منافس للحاكم الثورى أو شريك فى السلطة) يمكن إبعادها إذا قامت الحكومة الثورية خلال الفترة التى تتمتع فيها باحتكار السلطة والنشاط السياسى (القانونى)ــ باستغلال الامتيازات التى تنفرد بها دون غيرها، لتضع الأسس لنظام دستورى» يقوم على سيطرة الحزب الواحدــ وهذا الحزب هو الذى يرث «الثورة»ــ ثم يرسم للحكام الناصريين كيف ينشئون مثل هذا «الحزب» ويعلمهم كيف يموهون ويداهنون ويتحايلون فيقول فى نفس الصفحة وما بعدها:

«فى فترة حل الأحزاب وتعطيل الانتخابات، يجب أن لاتسمى هذه «المنظمة» حزباً سياسياً، ولكن يجب أن تنظم فى الواقع تنظيماً حزبياً حقيقياً، فيكون لها «وحدها» مركز رئيسى ومراكز بالأقاليم وفى المدن والقرى، ويكون لها ممثلون ومسيرون إداريون ذوو سلطات سياسية وإدارية، ويكون لها سكرتاريات من أشخاص متفرغين تدفع لهم مرتبات، ويكون لها أجهزة إعلامية ومطبوعات ونشرات.. ألخـ وزيادة فى التمويه يكون لهذه المنظمة غرض علنى غير غرضها الحقيقى».

«إن الغرض «العلنى» لهذه المنظمة هو خلق مجتمع «أخوى» يضم المؤيدين لأهداف «الثورة». ولكن الغرض «الحقيقى» هو إيجاد واجهة دعائية للحكومة لكى تنشىء حزباً سياسياً فى المستقبل باجتذاب طوائف من الشعب للنشاط السياسى الموجه من الحكومة وتدريبهم على هذا العمل..».

ويواصل إيخلبرجر عرضه لأساليب إنشاء هذا الحزب الحكومى فيقول فى صفحة ٢٥٣:

«كيف تصل إلى هذه الأهداف؟ (أى إنشاء حزب حكومى «ثورى») إن السر فى نجاح هذه المنظمة هو ارتباطها الوثيق بالحكومة «الثورية» نفسها — على أن تبقى هذه الصلة غير رسمية — إنها ستكون فقط منظمة «تسمح» بها الحكومة؛ على أن يكون قادتها هم ذاتهم قادة الحكومة فى الغالب — وعندما يكون الوضع هكذا، فإن «جماهير» الناس الذين استفادوا من «الثورة» والذين يدينون بالولاء لقادتها، سوف تجذبهم عضويتها «أوتوماتيكياً» ويمكن أن يتوفر عدد من المسيرين من بين موظفى الحكومة — لأن جميع موظفى الحكومة يمكن **بل يجب أن ينضموا لها ويكون ذلك شرطاً لبقائهم فى الوظيفة**.

«وزيادة على ذلك، فإن السلطة المطلقة الواسعة التى تتمتع بها الحكومة فى الإدارة، وفى الأشغال العامة، يجب أن توضع فى خدمة هذه المنظمة. ففى حدود صلاحيات الإدارة والسياسة «الوطنية» تصبح مراكز المنظمة «وكالات أعمال» لخدمة الأفراد والطوائف الذين لهم مصالح عند الحكومة وموظفيها، أو يريدون الوصول إلى المسئولين (عن طريق الانضمام إلى المنظمة الحكومية).. يجب أن يصبح واضحاً للجميع **أن التعاون مع هذه المنظمة هو السبيل المؤكد لقضاء المصالح من الجهات الحكومية** — على أن لايعلن ذلك بصفة رسمية. ومقابل هذه «المصالح» تحصل المنظمة على انضمام كثير من الأفراد، الذين قد يبقون بدون ذلك غير مهتمين بها — ويمكنها أيضاً أن تحصل منهم بسهولة على اشتراكات أو معاونات لها فى نشاطها (**كالاستخبارات مثلاً**)..».

ويشير كوبلاند إلى نتيجة تنفيذ عبد الناصر لما جاء فى تقرير إيخلبرجر فى هذه الناحية فيقول فى صفحة ١٠٨:

«فى أوائل عام ١٩٦٧، كان عند عبد الناصر مليون من الموظفين المدنيين تقريباً — فضلاً عن القوات المسلحة نصف مليون، وموظفى الشركات المؤممة — فى حين أن مؤسسة «ألن بوزوهاملتن» التى يتوفر لها أعظم الخبراء فى الإدارة العامة فى العالم كله، قررت أن الحكومة المصرية لايمكن أن تستخدم أكثر من مائتى ألف موظف (الخمس)، وكل زيادة على ذلك تعطل عمل الإدارة الحكومية.

وهكذا فإن عبد الناصر يحصل على مليون من الأعضاء فى حزبه من طبقة الموظفين

المتوسطة لتدعيم سلطته ــ وأغلبهم مقيم فى القاهرة والإسكندرية؛ مقابل ذلك يلقى بالإدارة الحكومية فى الفوضى..».

مدى مساعدة أمريكا عبد الناصر فى الدعاية ضد الإخوان المسلمين:

لكى نعرف مدى اهتمام القوى الخارجية بمساعدة عبد الناصر فى توجيه أجهزة الإعلام لتحطيم الإخوان المسلمين نرجع إلى ماقاله كوبلاند فى صفحتى ٨٣، ٨٤ حيث يقول:

«إن الدعاية الحكومية قد استخدمت على كل حال بطريقة ناجحة كوسيلة لمحاربة خصوم النظام الناصرى، وإظهارهم بصورة بغيضة تبرر استخدام العنف والبطش ضدهم.. **وهذا الاتجاه قد حظى بمباركة الأمريكيين وتأييدهم الكامل**؛ فإن السفير «كافرى» عمل الترتيب اللازم مع عبد الناصر **لكى تستعير الحكومة المصرية أكبر الخبراء فى العالم الغربى كله للدعاية «السوداء»** (أى التشهير بالخصوم) **والدعاية «السمراء» أو «الرمادية»** (أى التشهير بالخصوم عن طريق مدحهم والثناء عليهم) ــ هذا الخبير اسمه «بول لاينبرجر».. الذى علم المصريين الذين يعملون بالإعلام الحكومى كيف يحطمون الشخصيات التى تحيطها الجماهير بالقداسة والإعجاب (مثل اللواء نجيب مثلاً) عن طريق التظاهر بالثناء عليهم ــ وهو أسلوب مازال المصريون إلى اليوم يستعملونه ضد خصومهم فى العالم العربى».

يقول الدكتور محمد صادق: ويظهر أن المعاونة الخارجية للنظام الناصرى فى هذا المجال لم تقتصر على المساعدة «الفنية» البحته بل إنها تجاوزت ذلك إلى حد التنسيق بين أجهزة الإعلام الناصرية والأجهزة الإعلامية الأجنبية ــ ذلك التنسيق الذى يقوم على أساس عملية توزيع «الأدوار» التى تقوم بها هذه الأجهزة للوصول إلى هدف واحد ــ ضد «عدو مشترك».

ومن أطرف نماذج هذا التعاون الأمريكى الناصرى فى ميدان الدعاية «السوداء» والدعاية «السمراء» هو ماذكره كوبلاند عن الدور الذى قام به الأمريكيون بواسطة مخابراتهم لمعاونة الإعلام الناصرى فى مهاجمة «الإخوان المسلمين» والتشهير بهم.

يظهر أن مهمة التشهير بالإخوان المسلمين التى كانت تقوم بها أجهزة الإعلام الناصرى بطريق الدعاية «السوداء» كانت صعبة جداً بسبب ماكانت تتمتع به حركة الإخوان المسلمين فى ذلك الوقت من هالة البطولة بسبب أعمالها الفدائية ضد القواعد الإنجليزية فى القنال، وضد الإسرائيليين فى فلسطين قبل ذلك ــ فضلاً عن مقاومتهم للشيوعية ــ ولم تجد الدعاية الناصرية «المواد» التى تستند إليها فى اتهامهم والتشهير بهم ــ

وكوبلاند قدم لنا الدليل على أن المخابرات الأمريكية خفت لنجدة النظام الناصرى فى هذا الصدد. إنه يذكر لنا كيف أن «المخابرات المركزية الأمريكية» تدخلت لدى المسئولين فى واشنطن وطلبت منهم أن يتصلوا بالمسئولين فى إسرائيل، لكى تتولى الدعاية الصهيونية نفسها «معاونة» الدعاية الناصرية بطريقة غير مباشرة وغير ملحوظة ــ باستعمال الأسلوب الذى سماه المؤلف بالدعاية «السمراء» ــ والتى كان أكبر خبير فيها هو «لاينبرجر» الذى استعارته الحكومة المصرية، والذى عرفنا به المؤلف وقدم له فى صفحه ٨٤ بقوله:

«إن «بول لاينبرجر» أكبر خبير فى العالم الغربى للدعاية السوداء والدعاية السمراء، وكان يعمل أثناء الحرب العالمية الثانية بأجهزة الإعلام الأمريكية، وكان يذيع باللغة الألمانية مايظنه الألمان العاديون فى مصلحة ألمانيا، ولكن كان هدفه الحقيقى تحطيم الروح المعنوية للشعب الألمانى».

والغريب أن المؤلف (كوبلاند) يؤكد أن الدعاية الشيوعية قد سبقت الأمريكيين فى استعمال هذا الأسلوب ضد الإخوان المسلمين عن طريق توجيه إذاعة موسكو للثناء على الإخوان المسلمين وذلك لمعاونة عبد الناصر على توجيه تهمة «التحالف» مع الشيوعيين إلى الإخوان المسلمين مما يترتب عليه أن يفقدوا أنصارهم (الذين يؤيدونهم لأنهم أكبر أعداء الشيوعية) ــ وعند ذلك سارعت المخابرات الأمريكية ووسطت «واشنطن» لإقناع إذاعة إسرائيل بأن تدخل العملية وتقتدى بإذاعة موسكو فى استعمال هذا الأسلوب بالثناء على الإخوان وإظهارهم بأنهم أكبر قوة شعبية فى مصر وأنهم سوف يحطمون الحكم الناصرى بما لديهم من قوة ونفوذ ــ وبذلك استطاعت أجهزة الإعلام الناصرية أن تستغل دفاع الإذاعة الإسرائيلية عن الإخوان المسلمين لكى تزعزع معنويات أنصارهم (الذين يؤيدونهم على اعتبار أنهم أكبر أعداء إسرائيل) فيفقدوهم ــ كما فقدوا أنصارهم الذين يؤيدونهم لأنهم أكبر أعداء الشيوعية.

هذه هى الصورة التى يقدمها لنا المؤلف «كوبلاند» فى كتابه صفحة ١٥٦ وما بعدها ننقلها للقارىء لكى يرى مدى الميكيافيلية التى تصل إليها أجهزة الإعلام ــ وأجهزة المخابرات التى توجهها ــ وكيف تصل إلى تنسيق الأدوار فيما بينها إذا كان العدو الذى يريدون القضاء عليه فى نظرهم «عدواً مشتركاً» وكان خطره على مصالحهم جميعاً يبرر تعاونهم فى التشهير بهذا «العدو» رغم ماقد يبدو بينهم من منافسات وعداوات فى شئون أخرى:

«فجأة (فى عام ١٩٥٤) هاجمت الصحافة الروسية فاشية عبد الناصر، ومدحت «الإخوان المسلمين» باعتبارهم أكبر قوة معادية للإمبريالية فى مصر.. «حينذاك أرسل»

رئيس المخابرات الأمريكية إلى وشنطن يطلب منها (أى من وزارة الخارجية أو المخابرات المركزية) أن تقنع إسرائيل **بأن تسير دعايتها فى نفس هذا الخط الذى سارت عليه الدعاية السوفيتية** (خط مدح الإخوان المسلمين، بقصد التشهير بهم لدى أنصارهم فى الرأى العام المصرى والعربى). على أنه يجب أن تركز (الدعاية الإسرائيلية) على تضخيم قوة الإخوان وقدرتهم على القضاء على عبد الناصر. وهكذا تعاون السوفيتيون والإسرائيليون (بتحريض من المخابرات الأمريكية باعترافه) على «مدح» الإخوان المسلمين. وهى العملية التى تنتج عما يسمى بأسلوب «مدح العدو» (للقضاء عليه وتشويه سمعته لدى أنصاره)..».

وهكذا يعترف لنا المؤلف «كوبلاند» الأميريكى بأن «المخابرات المركزية» كانت تعتبر «الإخوان المسلمين» عدواً لها — فى حين أن معارضة الإخوان للحاكم الناصرى كانت مسألة داخلية بحته فى مصر — فضلاً عن ذلك فإنها كانت تعلم أن إسرائيل أيضاً كانت تعتبرهم كذلك «عدواً» لها، وكذلك الشيوعيون — إنه يؤكد لنا أن المخابرات الأمريكية قامت بدور التنسيق والوساطة بين أجهزة الإعلام الناصرية والإسرائيلية فى هذا الموضوع — فضلاً عن أجهزة الإعلام السوفيتية — التى لانعرف للآن من قام بدور الوسيط بينها وبين الأجهزة المصرية.

كيف استغلت قضية فلسطين فى الديماجوجية الإعلامية؟

يقول الدكتور محمد صادق: ليس قراؤنا بحاجة إلى من يشرح لهم كيف استغلت قضية فلسطين فى الدعاية للزعيم الناصرى وإظهاره بمظهر البطولة الأسطورية، بترديد أناشيد الحرب ضد إسرائيل «ومن وراء إسرائيل» وغير ذلك وأمثاله من «الهجومات اللفظية التى يقصد بها الاستهلاك الداخلى». ولكن الغريب الذى يتحير أمامه القراء هو مايدعيه «كوبلاند» من أن عملية الاستغلال الديماجوجى لقضية فلسطين نوقشت ودرست فى بعض الأوساط التى تخطط للسياسة الأمريكية، وتقرر أن يسمح بها للزعيم المنتظر الذى يتعاون معهم فى الخطوات العملية المؤدية إلى «الاعتدال» فى الوقت الذى يكون كلامه مؤدياً إلى الإثارة والاستفزاز والتهييج لعواطف الجماهير الساذجة. ويؤكد لنا كوبلاند أن ذلك كان من ضمن المسائل التى قررتها «لجنة الخبراء» فى نهاية عام ١٩٥١، والتى أعدت الخطوط العريضة للعملية الكبرى، عملية الانقلاب الناصرى.

وقد أورد «كوبلاند» فى (صفحة ١٣٠) توضيحاً لهذه السياسة رأى السفير الأمريكى فى مصر «بايرود» حيث يقول للخارجية الأمريكية: «إنه يرى إمداد عبد الناصر بالمساعدات العسكرية لأنه من زعماء العرب الذين يمكن للدبلوماسيين الغربيين أن

يتفاهموا معهم وأنه يمكن له أن يناقش معه أى موضوع بما فى ذلك احتمالات الصلح مع إسرائيل.. وإنه لذلك يرى ضرورة بقاء عبد الناصر فى الحكم».

هذا الأسلوب الناصرى يحقق للحاكم هدفه الشخصى بالبقاء فى الحكم معتمداً على **قاعدتين متعارضتين**ــ مساعدة خارجية من أعداء قضية فلسطين، وحماس شعبى من شعبه الذى يصدق أنه سوف يسترد له فلسطين ــ ولكن الأخطر من ذلك هو كما قدمنا **أن القوى الخارجية لاتترك الحاكم الناصرى ينفرد وحده بثمار هذه الديماجوجية الاستغلالية لقضية فلسطين؛ فإن لها أيضاً أهدافها الخاصة وخططها التى بنيت لاستغلال هذه الديماجوجيه لصالحها فعلاً، وإن كانت هى ضدها قولاً وظاهراً.**

إن الهدف الميكيافيلى للقوى الخارجية من الديماجوجية الناصرية وصفه «كوبلاند» ولمح إليه دون أن يوضحه ــ ولكن الكتاب كله فى جميع فصوله وعباراته يكشف عنه، إن هذا الهدف لايخرج عن تصفية النزاع العربى الإسرائيلى ــ ولكن على الصورة التى يريدها الطرف الأقوى (وهو أكبر دولة على ظهر الأرض)، والوسيلة الميكيافيلية الخطيرة لتحقيق هذا الهدف ليس مقاومة الحماس الشعبى العربى ضد إسرائيل ــ بل على العكس من ذلك قد أصبحت الوسيلة هى **استغلال هذا الحماس لتمكين إسرائيل من تحقيق انتصاراتها وأهدافها**ــ إن التطرف فى استثارة الشعوب وتضليلها لم يعد يخيف إسرائيل وحلفاءها، لأن عملية بسيطة يمكن أن تحول هذه الاستثارة لمصلحة إسرائيل إذا ترتب عليها استفزاز الشعوب ودفعها إلى عمل أهوج يترتب عليه صدمة عنيفة «**تجهض**» **المقاومة العربية وتقتلها** .

إن مما أسفرت عنه تجارب «الخبراء» فى الحرب النفسية، وفى الأسلحة السيكولوجية هو أن القضاء على حركات المقاومة يتم بصورة أتم وأكمل عن طريق «الإجهاض» الذى ينتج عنه تحطيم معنويات الجماهير، وزعزعة إيمانها بقضاياها وعقائدها ومبادئها، وتحطيم ثقتها بنفسها. إنه يكفى لذلك استثارتها بالوسائل الديماجوجية، واستفزازها بالأساليب الغوغائية، ودفعها بذلك إلى العمل قبل أوانه، أو إلى التطرف والعنف فى غير موضعه، أو فى غير وقته ــ وبذلك يأخذ حماسها للقضية صورة ارتجالية فوضوية همجية؛ تؤدى إلى نتائج وخيمة وإلى «نكسات» وكوارث، تصبح الجماهير أمامها **مهيئة نفسياً للعملية الجراحية التى يقصد بها (استئصال «القضية» أو «العقيدة» من نفوس الجماهير)** عن طريق إقناعها التدريجى بأن الخطأ ليس من جانبها، وليس من جانب قادتها (**الذين دفعوها إلى العمل** قبل أوانه أو يسيرون على خطط خاطئة فاسدة) وإنما الخطأ فى **أصل القضية**، والعيب فى جوهر العقيدة، وما عليها إذا كانت تريد «علاج» القضية **إلا أن تتخلص منها** أو تدير ظهرها لها؛ وبذلك تتم عملية «الإجهاض» وتؤدى إلى استئصال القضية ودفنها.

وهكذا نرى أن استغلال الديماجوجية هو من أخطر الأسلحة المعروفة فى باب «الميكيافيلية» السياسية.. ومما لاشك فيه أنه إذا كان مجرد فهم هذه «العمليات» الميكيافيلية صعباً على الشخص العادى، فإن التخطيط لها وإعدادها وتنفيذها أصعب من ذلك، ويحتاج من المدبر والمخطط إلى أجهزة ضخمة من الخبراء والباحثين وذوى التجربة، التى لاتتوفر عادة إلا فى أجهزة تغذيها دول عظمى أو مايماثلها من قوى عالمية.

ولا شك فى أن دراسة علمية لكارثة عام ١٩٦٧ هى الكفيلة بأن تثبت لنا إلى أى حد كانت الشعوب العربية ضحية مخطط ميكيافيلى من هذا القبيل..

ماذا يقول «كوبلاند» عن كارثة ١٩٦٧؟:

فى صفحة ١١ فى مقدمة كتابه يوجه هذه الأسئلة للقراء:

- ما الذى جعل المصرين والبريطانيين يتخلون عن مواقفهم المتطرفة فى مشكلة قواعد السويس عام ١٩٥٤؟
- وما الذى أسقط حكومة «مصدق» فى إيران عام ١٩٥٣؟
- وما الذى جعل «الناصريين» يتسلقون إلى القمة فى الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٥٨، فى الوقت الذى كانت فيه جنود البحرية الأمريكية هناك ينظرون إليهم ولا يحركون ساكناً؟
- ولماذا امتنع عبد الناصر عن الدخول فى حرب مع إسرائيل فى أوقات كثيرة عندما كانت أمامه فرص للانتصار ثم يدفع بلاده إلى حرب خاسرة فى مايو عام ١٩٦٧ فى وقت كان فيه غير مستعد لها على الإطلاق؟

وإجابه عما يخص عبد الناصر من هذه الأسئلة يجيب كوبلاند فى صفحة ٢٣٩ من كتابه فيقول: «إن عبد الناصر لايعمل كما يظن كثيرون نتيجة استثارة أو نزوة أو أى دافع من البواعث السطحية إننا (نحن رجال المخابرات الأميركية، قد رسمنا الطريق أمام عبد الناصر، فسار فيه وقد تكون النتائج غير ذلك لو أنه أعد إعدادا من نوع آخر».

إن «كوبلاند» يقول ذلك دفاعاً عن عبد الناصر أمام الأمريكيين، وهو فى سبيل هذا الدفاع لايجد غضاضة فى أن يصرح لقرائه بأن عبد الناصر لم يدفع شعبه للهزيمة والكارثة نتيجة نزوة أو استثارة عارضة، ولا بسبب تطورات مفاجئة وغير متوقعة — بل إنه سار نحوها خطوة خطوة، فى طريق مرسوم ممهد ومعد إعداداً محكماً، وأن الذى أعد الطريق وهيأه له هى جهة خارجية، وهى رجال المخابرات الأمريكية، وقد تكون هناك جهات أخرى تعاونت معهم فى ذلك — بل إن المؤلف لايتورع عن أن يؤكد لنا أنهم لم يعدوا الطريق ويرسموه له فقط، بل إنهم «أعدوا» عبد الناصر نفسه إعداداً جعله يسير فى هذا

الطريق، وأنهم لو كانوا «أعدوه» إعداداً آخر لكانت النتائج غير ذلك.

ثم يوميء «كوبلاند» إلى أن «لعبة الشعوب» اقتضت آخر الأمر رفع يدها عن عبد الناصر والتنازل عنه طائعة مختارة للاتحاد السوفيتي فيقول فى صفحة ٢٣٢ وأوائل ٢٣٣:

«إنه، فى النهاية، بعد أن يكون المحللون الدقيقون فى واشنطن ولندن وموسكو أيضاً قد فهموا كل ذلك المسلك المنطقى (الذى يسير عليه عبد الناصر)، وتكون بقية العالم قد تعبت منه — فإن إحدى الدول العظمى على الأقل، التى كانت تتنافس على رضائه، توقف هذه المنافسة وتقول: «يمكن لغيرى من الآخرين أن يحظى به». عند ذلك يصبح بإمكان الطرف الآخر أن يستولى عليه بثمن رخيص».

ثم فى صفحة ٢٣٥ يوضح لنا كوبلاند بصراحة أن الطرف الذى تخلى عن المنافسة وأوقفها هو أمريكا، وأن الذى استولى على عبد الناصر بثمن بخس هو الاتحاد السوفيتى فيقول:

«فى هذه المرة (أوائل عام ١٩٦٧)، على كل حال، كان من الواضح أن «الجمهورية العربية المتحدة» قد وصلت إلى قاع الهاوية (أصبحت مفلسة فعليا)، ونظراً لأن الغرب لايقدم أى مساعدة، وكان الاتحاد السوفيتى يعلم بأنه لم تعد هناك منافسة من جانب الغرب، فقد اكتفى بتقديم مبالغ ضئيلة تافهة، بالقدر الذى يراه هو (أى الاتحاد السوفيتى) مناسباً».

رأى «كوبلاند» فى عبد الناصر أهو مدح أم ذم؟

بعد حرب يونية ١٩٦٧ أو كارثة ١٩٦٧ وفى صدد تقييم الربح والخسارة فى نتائجها نرى «كوبلاند» يصر على أن عبد الناصر لم يخسر هذه الحرب التى وصفها هو نفسه من قبل فى صفحة ٩١ من كتابه بأنها «أشنع هزيمة عسكرية فى العصر الحديث» ولكنه مع ذلك يصر على القول بأن الانتصار الإسرائيلى لم يكن انتصاراً على عبد الناصر لأنه لم يخسر بل إنه ربح وبنص عبارته وتفسيراته فى صفحة ٢٣٨ يقول:

«بحسب هذا التعريف، فإن أى شخص يراقب النزاع العربى الإسرائيلى بعد هذه الحرب (أى حرب يونية ١٩٦٧) لابد أن يوافق على أن الإسرائيليين لم «يربحوا» حرب الأيام الستة ضد عبد الناصر، لأنه بعد أن انتهى كل شىء (بعد أن خسر العرب كل شىء) ظهر عبد الناصر وقد قويت شوكته كحاكم لمصر بصورة أكبر، وبدرجة أقوى مما لو كان قد تفادى الكارثة».

ثم يوضح كوبلاند رأيه هذا ويذهب إلى أبعد من ذلك فيقول بعد ذلك فى نفس

الصفحة: «هذا هو جوابنا للسؤال الذى يتبادر إلى الذهن: ماذا لو أن عبد الناصر واجه ظروفاً مماثلة (لحرب يونية عام ١٩٦٧) فى المستقبل. فماذا يفعل؟.. إن جوابى على هذا السؤال واضح وضوحاً تاماً لكل من يقرأ هذا الكتاب بعناية».

وصدق كوبلاند فعلاً فقد وضح هذا الجواب توضيحاً تاماً فى صفحة ٦٧ من كتابه حيث قال: «من حين لآخر، وخلال سنوات عديدة، كان هناك من يسألنى السؤال الآتى:

إذا واجه عبد الناصر ظروفاً تحتم عليه أن يختار بين التخلى عن سلطته من أجل إنقاذ بلاده، وبين أن يدفعها إلى الدمار من أجل أن يبقى هو فى الحكم، فأى الطريقين يختار؟

«إن جوابى هو أنه فى التعامل مع عبد الناصر، ومع أى حاكم لديه مانعرفه لدى عبد الناصر من حب السلطة من أجل السلطة لذاتها؛ فإننا يجب أن نفترض أنه سيعمل أى شىء من أجل البقاء فى الحكم، حتى ولو كان معنى ذلك خراب مصر الاقتصادى، أو حرباً خاسرة مستمرة مع إسرائيل..».

* * *

النموذج الناصرى

بعد أن نقلنا إلى القراء من كتاب «لعبة الشعوب» لمايلز كوبلاند فقرات ذات دلالات معينة، نحب أن نلفت الأنظار إلى هذا العنوان «النموذج الناصرى» الذى أولاه المؤلف عناية خاصة — لأنه أساس كتابه — فجعله فى الصفحات الأولى من الكتاب.. غير أننا — ولنفس السبب ولنفس درجته من الأهمية والخطورة — رأينا أن نجعله فى خاتمة مانتقله من فقرات: ذلك أن أهميته بالنسبة لنا نحن — العرب والمسلمين — تأتى من كوننا قد أصبحنا حقل تجارب لصناع السياسة الأمريكية الخلفية.. وقد جربوا فينا أول تجربة وثبت لهم نجاحها؛ فهم إذن مواصلون خططهم معنا لاسيما والأرض بعد التجربة الأولى قد مهدت ولم تعد تحتاج منهم إلى جهد كبير..

كان إذن لابد من تحذير بعد أن كشف مايلز كوبلاند — مضطراً بعد انكشاف هذه الخطط لمنافسيهم الروس على يد الجاسوس فلبى — كيف بحثوا عن شخصية ذات صفات معينة حتى وجدوها فى عبد الناصر، وكيف مهدوا له الطريق إلى الحكم، وكيف رسموا له الطريق ووجهوه إليه طريقاً انتهى إلى تثبيت أركان حكمه وإلى تحقيق جميع مصالح أمريكا وإلى وصول مصر إلى الدمار التام فى كل نواحى الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية..

وإذا كان كوبلاند والأمريكيون لايقيسون شيئاً إلا بالمادة فإننا نورد وصفاً دقيقاً للحالة

الاقتصادية التى انتهت إليها مصر مما ذكره كوبلاند فى صفحة ٢٣٥ من كتابه إذ يقول:

«فى أول تلك السنة (١٩٦٧) درس فريق من الخبراء العاملين بالمؤسسة التى كنت أعمل بها أهم المصادر الرسمية عن رصيد مصر من العملة الصعبة ومن الذهب الذى كانت تملكه فى عام ١٩٥٢ قبل الانقلاب العسكرى. ثم أضافت إليه مجموع المساعدات الخارجية المالية (من قروض وهبات) التى حصلت عليها الحكومة، وكذلك أضافت إليها مجموع ماحصلت عليه البلاد من صادراتها منذ منتصف عام ١٩٥٢ إلى نهاية عام ١٩٦٦ — ومن مجموع ذلك كله خصمت النفقات —.

«وقد أظهرت النتيجة أن العجز فى تجارة مصر الذى كان يقارب أربعمائه مليون دولار سنوياً قد استهلك كل هذه المبالغ، بما فى ذلك القروض التى أصبحت الحكومة عاجزة عن سدادها. وعلى حسب قول الأستاذ «لاكور» لقد وصل احتياطى مصر من الذهب إلى أربعين مليوناً فقط، ومن العملة الصعبة إلى ست وأربعين مليونا من الدولارات. ولكن أى شخص يبحث فى القاهرة لايمكن أن يعثر على هذه الملايين فى مارس عام ١٩٦٧ ولا يمكنه أن يعثر على أكثر من مليونين أو ثلاثة ملايين من الدولارات يمكن استخدامها للمشتريات الضرورية العاجلة.

«لقد كانت هناك مصانع مغلقة بسبب عدم توفر قطع غيار لاتتكلف أكثر من بضعة آلاف من الدولارات. وكانت شركة الخطوط الجوية العربية المتحدة التى هى مورد رئيسى للعملة الصعبة لديها فى بعض الأحيان أربع طائرات من طائراتها «آلكوميت» (التى لايزيد عددها عن سبع فقط) معطلة بسبب عدم توفر المال اللازم لشراء قطع غياراتها... وحتى لو باعت الحكومة كل مالديها من ذهب فإنه لم يكن يكفى الاستيراد المطلوب فى العادة لمدة شهر واحد. إن التقرير ربع السنوى للسفارة الأمريكية قد تنبأ بأنه خلال مدة لاتزيد على سنة ستكون مصر فى حالة إفلاس فعلى..».

هذا هو وصف الحالة التى انتهت إليها مصر فى أوائل عام ١٩٦٧ والتى واجهت بها الحرب مع إسرائيل فى يونية ١٩٦٧ تلك الحرب التى أدت إلى أعظم كارثة فى التاريخ الحديث كما يقرر ذلك كوبلاند الذى كشف لنا فى كتابه عن أنها كانت ضمن «لعبة الشعوب» التى أعدوها وأعدوا عبد الناصر لها فى «مركز اللعب» فى الطابق الثانى عشر فى إحدى ناطحات السحاب بوشنطن— ولم يقصر كوبلاند فى كتابه فى توضيح الهدف الأسمى الذى حققته السياسة الأمريكية من وراء هذه الكارثة وهو «إجهاض» المقاومة العربية وقتلها. وتهيئة الجماهير لحالة نفسية يسهل معها إجراء عملية استئصال «القضية» من نفوسهم.

والذى نحذر منه هو أن السياسة الأمريكية الخلفية كما يسميها كوبلاند حين عثرت فى

بحثها على «جمال عبد الناصر» لم تكن تبحث عن عبد الناصر بالذات وإنما كانت تبحث عن شخصية ذات صفات معينة وجدتها هذه المرة فى جمال عبد الناصر ولكنها دائبة البحث عن أشخاص آخرين تتوفر فيهم هذه الصفات، وقد كان كوبلاند حريصاً فى الصفحات الأولى من كتابه على إبراز هذا المعنى، وتثبيته فى أدمغة القراء فيقول فى صفحة ٢٦ :

«لابد أن أبعد كل فكرة بأن هذا الكتاب عن «عبد الناصر» — إنها مرحلة تاريخية تفتح الباب لدروس عامة فى العلاقة بين الولايات المتحدة وبين «نوع خاص» من الزعماء غير الغربيين، أعتقد أنهم سيزداد نفوذهم فى العلاقات الدولية فى المستقبل».

«ورغم أننى تكلمت كثيراً عن «عبد الناصر» إلا أننى حاولت التركيز على نواحى سلوكه التى يتوقع أن تصدر من زعماء أسيويين وأفريقيين آخرين — لدرجة أننى اعتبرت أن هناك «**نموذجاً ناصرياً**» من الحكام...».

ويقول فى صفحة ٢١ مؤكداً نفس المعنى :

«إن صورة هذا النموذج ارتسمت لديه هو وزملاؤه من رجال المخابرات الأمريكية من خلال تجاربهم فى سوريا وغيرها من البلاد العربية فى الفترة من عام ١٩٤٧ إلى ١٩٥١، أى قبل أن يلتقوا بعبد الناصر وقبل أن يعرفوه، إنهم افترضوا أنهم حددوا أصول النظام الناصرى، ووضعوا خصائصه وشروطه وخططوا له ورسموا صورة الحاكم الذى يلعب دوره قبل الانقلاب الناصرى» ثم يقول «إن عبد الناصر لو لم يوجد، فإن لعبتنا كان يتحتم عليها أن تخلقه خلقاً ليوجد لديها «النوع» الضرورى من الحكام الذى تحتاجه طبيعة «اللعبة» اليوم أو غداً».

يقول الدكتور محمد صادق فى تقديمه التعليق على كتاب «لعبة الشعوب»:

إن الدراسة التى نقدمها للقارىء سوف تساعد القارىء العربى على أن يستقرىء الحوادث الماضية، والأحداث المقبلة كذلك، ليعرف نوع «المصالح» التى استلزمت «النموذج» الناصرى فى نظر كوبلاند، وليعرف من خلال اهتمام الكاتب الأمريكى وحماسته، إن كانت هذه «المصالح» التى تحركه هى مصالح المصريين أو العرب أو المسلمين — أم أنها مصالح «جهات أخرى».

إن تحديد هذه «المصالح» يفسر لنا السبب فى حرص كوبلاند على التمييز بين الشخص والنموذج. ذلك أن المصالح التى تهمه هى بلاشك مصالح بعيدة المدى، واسعة النطاق، متعددة الأهداف، إنها تتجاوز حياة الأشخاص أيا كانوا، سواء حياة عبد الناصر أو حياة كوبلاند وروزفلت أو أى إنسان آخر.. إن الأشخاص والحكام كغيرهم يمكن أن يموتوا، أما النموذج الذى تحتاج له المصالح التى يتحدث عنها كوبلاند فهو باق مابقيت هذه

المصالح. وعلى ذلك يؤكد لنا المؤلف الأمريكى أن الذين رسموا «النموذج» الناصرى كانوا يعرفون هذا الأمر ويحسبون حسابه مقدماً. فهو يروى لنا أن روزفلت فى تقريره لوزارة الخارجية الأمريكية بعد عودته من مصر قبل الانقلاب العسكرى بأربعة أشهر قال: إن «الشخص» الذى اتفقوا معه — يقصد عبد الناصر — إذا لم يحقق لهم أهدافهم، فلسوف يكون هناك آخرون من نفس «النموذج».

فالتفرقة بين النموذج الثابت والأشخاص الذين يتغيرون كانت واضحة فى ذهن روزفلت قبل الانقلاب الناصرى. وكان واضحاً أيضاً أن «النموذج» سيطبق لا فى مصر وحدها، بل فى دول أخرى كثيرة. وعلى ذلك فإن القارىء سيرى أن الغرض هو **الكشف عن نموذج وعن خطة وعن أسلوب دعا إليه كوبلاند فى كتابه وأعلن أنه تكرر وسوف يتكرر فى مصر وفى غير مصر.**

وإن ماقاله كوبلاند يفسر لنا كثيراً مما لاحظناه عقب وفاة عبد الناصر؛ ففى الوقت الذى كانت جماهير غفيرة من المصريين والعرب ذاهلة أمام رهبة الموت، حائرة أمام القدر المفاجىء — عجب الكثيرون مما رأوه فى موقف القوى الخارجية التى لم يبد عليها أعراض الدهشة أو المفاجأة. لقد كانت هناك جهات تتصرف بمنتهى الدقة والإحكام، وتعمل بكل اطمئنان، تنفيذاً لخطط أعدت من قبل. وكانت هناك جهات تقف بكل هدوء وبرود موقف المترقب الذى لايرى فى الوفاة إلا أنها نهاية فصل من فصول اللعبة سيتبعه فصل آخر مكمل له، وأن المسرح خلا من لاعب لكى يحل محله لاعب أو لاعبون آخرون، وكأن الستار قد أسدل على مشهد لكى يرتفع بعد ذلك عن مشهد آخر.

ولكن عملاء هذه الجهات كلها سارعوا فوضعوا أنفسهم فى مقدمة مواكب البكاء والرثاء، يرددون الأناشيد والألحان والشعارات؛ إلا أن أناشيدهم وشعاراتهم وألحانهم كانت تدور حول أسطورة البقاء والخلود للنموذج «المقدس»؛ قائلين إن «الرجل» هو الذى مات، أما «النظام والنموذج» فهو «حى لايموت».

إن هذا النوع من الرثاء ليس إلا جزءاً من «اللعبة» وأسلوباً من أساليب الميكيافيلية الخادعة الماكرة؛ إنهم يتخذون رثاء الميت وسيلة لإعطاء الدروس لمن يريدون أن يخلفوه، إنهم يذكرون للأحياء أهدافهم هم بأسلوب مدح الميت والإشادة به لينسبوها إليه؛ فيصدق الطامعون والطامحون فى وراثته بأن هذا هو الطريق الذى يجب أن يسيروا فيه ليحصلوا منهم كما حصل هو على شهادات «عالمية» بالبطولة والشهرة والخلود.

* * *

واكتفى بهذا القدر مما نقلته من تعليق الدكتور محمد صادق مما جاء فى تقديمه كتابه

لأقول: إن النسخة التى أعيرت إلىّ من كتاب الدكتور محمد صادق «الدبلوماسية والميكيافيلية فى العلاقات العربية الأمريكية خلال عشرين عاماً ١٩٤٧ ــ ١٩٦٧ دراسة وتحليل حول كتاب «لعبة الشعوب».. هذه النسخة نظرت فوجدت أنها الطبعة الأولى لهذا الكتاب وقد أرخ طبعها فى عام ١٩٧١.

وأصدق القارىء فأقول إننى لم أعن بالبحث وراء معرفة تاريخ طبع هذه النسخة إلا بعد أن قرأت ماكتبه الدكتور محمد صادق فى مقدمة الكتاب مما نقلت منه هذه الفقرات للقراء.. لأن هذا التحليل الذى تضمنته المقدمة يوحى لقارئه بأن كاتبه قد كتبه بعد أن عاش أحداث مابعد اكتوبر ١٩٧٣ إلى مابعد أكتوبر ١٩٨١.

وإنى إذ أهنىء الكاتب على نفاذ بصيرته، وبراعة تحليله، وصدق تنبؤاته، واستبطانه أعماق الأحداث وسبقها.. أرجو أن نكون قد أفدنا أعظم فائدة من هذه الدراسة العميقة المستوعبة وهذا التحليل البارع الدقيق.

* * *

الفصل الثانى

شاهد على العهد

ذكرت فى مقدمة هذا الجزء من المذكرات أننى تركت الحديث عن التعذيب إلى مظانه التى تخصصت فى الحديث عنه ونقل وقائعه وصارت بين أيدى القراء، وقد وصل بعضها إلى القضاء الذى أصدر حكمه بدمغ هذا العهد بأبشع الجرائم ضد الإنسانية.. ولكننى رأيت قبل أن أنهى الحديث عن هذا العهد أن أنقل إلى القراء الكرام أنموذجاً واحداً من نماذج التعذيب ليكون شاهداً ناطقاً حياً على هذا العهد البغيض.. وقد نقلت هذا الانموذج من كتاب «الموتى يتكلمون» للأستاذ الصحفى سامى جوهر رحمه الله يقول فى صفحة ٦٥ وما بعدها:

«ولعل أصدق صورة لألوان التعذيب هى التى يرويها واحد ممن تعرضوا لها.. وفى الصفحات القادمة يروى العقيد متقاعد نصر الدين محمد الإمام كيفية تعذيبه حتى يعترف أنه وتسعة من زملائه كانوا يدبرون انقلاباً لنظام الحكم..

وكان نصر واحداً من المتهمين فيما أسموه مؤامرة مدرسة المشاة. وزملاؤه فى الاتهام هم العقداء إبراهيم طه إبراهيم وبهى الدين مرتضى وعلى إبراهيم أبو ليمون ومصطفى كمال المساح وفاروق جمعة مناف وجمال الإتربى وإبراهيم الجندى والمقدم مهندس عادل المنياوى والملازم أول عبد الملاك ميخائيل غطاس.. والمتهم الأخير وهو مسيحى وضع لإبعاد الشبهة عن حقيقة تدبير السوفييت للإحاطة ببقية المتهمين.. فقد كان المتهمون التسعة من المعروفين بشدة تمسكهم بتعاليم الدين، وتأدية الصلاة فى مواعيدها حتى وهم فى مكاتبهم.. وكان ذلك يثير الخبراء السوفييت الذين انتشروا فى مختلف وحدات الجيش بحجة تدريب قواتنا على السلاح السوفيتى.

واستطاع هؤلاء الخبراء السوفييت أن يحركوا أعوانهم فى مكتب المشير وفى سكرتارية عبد الناصر ضد تلك المجموعة، وخاصة بعد أن كان بعضهم بدأ يناقش حرب اليمن، وهل من يموت فيها يعتبر شهيداً أم لا؛ لأنها حرب ليست لنشر العقيدة الإسلامية، وإنما حرب يقاتل فيها المسلم أخاه المسلم..

وكانت تلك هى الحقيقة التى كان يتناقش فيها المتهمون عندما فوجئوا بالقبض عليهم بتهمة تدبير انقلاب عسكرى للإطاحة بالحكم.. ويروى العقيد نصر الدين محمد الإمام تفاصيل القبض عليه.. قال إنه فوجىء برجال المباحث الجنائية العسكرية يقتحمون مسكنه برياسة تلميذ له هو الرائد حسن كفافى.. كان الوقت بعد منتصف الليل.. أيقظوا أطفاله وزوجته وأمه المريضة التى لقيت ربها بعد ذلك بأسبوعين.. حبسوا الجميع فى غرفة.. وبدأوا يفتشون مسكنه.. وعثر حسن كفافى على مبلغ ألف وخمسمائة جنيه كان نصر قد ادخرها لشراء تاكسى يعاونه إيراده فى مجابهة تكاليف المعيشة.. وأخذ حسن لنفسه المبلغ مدعياً أنه سيعيده عندما يتأكد من مصدره.. وطبعاً اختفى المبلغ إلى الأبد.. وبعد أن مزقوا المراتب بالمطاوى بحثاً عن أدلة، ولم يجدوا شيئاً اصطحبوه إلى السجن الحربى..

ويقول العقيد متقاعد نصر الدين محمد الإمام:

ولم أكن أعلم لماذا قبضوا علىّ.. حاولت أن أسأل حسن كفافى عن السر وراء ذلك.. لم يجبنى بشىء إلا بأنه تلقى الأوامر بذلك، وأن زملاءه تلقوا أوامر مماثلة للقبض على آخرين من الضباط.. حاولت أن أعرف منه أسماء زملائى الذين قبض عليهم ولكنه لم يكن يعرف شيئاً..

ودخلت السجن الحربى.. كنت أرتدى ملابسى المدنية.. وقبل أن يغلق باب السجن.. وجدت مايسترو التعذيب فى السجن الحربى صفوت الروبى.. وكان برتبة رقيب أول ثم رقى فى خلال عام ١٩٦٦ ترقية استثنائية إلى رتبة مساعد.. وفى عام ١٩٦٧ رقى ترقية استثنائية إلى رتبة الملازم لمهارته فى تعذيب من يوقعه سوء حظه ويدخل السجن الحربى.. كان صفوت يقف ممسكاً بكرباج وحوله ثلاثة أشبه بعمالقة القرون الوسطى.. ولكل منهم اسم مستعار.. أحدهم يطلقون عليه «الديزل» والثانى «سامبو» والثالث «الأسود».. وانهال الأربعة علىّ بالكرابيج.. وكنت كلما جريت ناحية واجهنى أحدهم بكرباجه.. أحاطوا بى فى شبه دائرة.. وسقطت من شدة الإعياء بعد أن تلقيت مايزيد على مائتى كرباج.

وأسعفونى.. وكان الذى يقوم بعمليات الإسعاف العقيد طبيب حاليا ماجد حماده وكان برتبة الرائد.. ثم حملونى إلى زنزانة مظلمة تماماً.. ليس بها أى منفذ ضوء.. وألقونى داخلها.. وارتميت على الأرض ورفعت عينى إلى سقف الزنزانة وصرخت «يارب».

وفتح باب الزنزانة بعنف ودخل «الديزل» وانهال على جسدى المكوم فى ركن الزنزانة بالكرباج وهو يردد «مستنكراً» إنت بتقول يارب.. ياابن.. هنا مفيش ربنا.. وإن جه حنحطه جنبك فى الزنزانة.. ثم أمرنى بالجلوس القرفصاء ووجهى إلى الحائط وأن

أرفع ذارعىّ إلى أعلى.. وامتثلت لأوامره.. ولا أعرف كم من الوقت مضى علىّ وأنا فى هذا الوضع.. ولكننى أفقت على الكرابيج تلهب جسدى، ويبدو أننى من شدة الإرهاق غلبنى النعاس فارتميت على جانبى..

وأمرنى صفوت الروبى أن أخلع ملابسى.. وتوقفت عند ملابسى الداخلية فانهالوا علىّ بالكرابيج.. وأصبحت عارياً تماماً.. وألقوا لى بأوفرول أزرق ممزق به آثار دماء ممن سبقونى فى ارتدائه.. واقتادونى إلى خارج الزنزانة إلى الفناء.. وعلى غرفة مدير السجن قال لى صفوت:

— حتقابل دلوقت شخصية كبيرة.. عايزك تجيب قدامه كل اللى فى بطنك.. ماتخبيش حاجة ووجدتنى وأنا العقيد أقول للرقيب أول: حاضر يابك..
ودخلت الغرفة.. وكان شمس بدران يتصدر الغرفة جالساً وراء مكتب.. وعن يمينه مختار صالح رئيس المخابرات الحربية، وعن يساره سعد زغلول عبد الكريم مدير المباحث الجنائية العسكرية، وإلى جواره جلال الديب نائب الأحكام.. بادرنى شمس قائلاً:

— اتكلم يانصر عن كل حاجة.. زملاءك اعترفوا وما تحاولش تنكر.
وتساءلت بصدق:
عن إيه ياافندم أتكلم.. أنا ماأعرفش حاجة.. أنا مخلص لبلدى وجيشى.. أنا.. ولم أكمل جملتى فقد شعرت بثقل جبل يسقط فوق رأسى فارتميت على الأرض.. وفى ثوان كنت معلقاً من يدىّ وقدمى.. رأسى إلى أسفل وقدمى إلى أعلى.. أشبه بالذبيحة فى محل الجزار.. وصوت شمس يأمر قائلاً:
— ألف..

وانهالت الكرابيج على قدمى.. وصوت يعد واحد.. اثنين.. وأغمى علىّ ولم أسمع شيئاً بعد رقم ٢٩٧.. وعندما أفقت وجدت نفسى ملقى فى نفس الزنزانة وأمامى الدكتور ماجد حمادة يضمد جروحى..

وبقيت فى الزنزانة ثانى يوم.. بدون طعام أو شراب حتى الليل.. عندما فتح باب الزنزانة مرة أخرى كنت فى حالة من الإنهاك والانهيار التام.. وسحبونى إلى خارجها.. إلى فناء السجن حيث يوجد تمثال كبير لجندى ممسكا ببندقيته.. وحول التمثال على شكل دائرة ستة جنود.. ثلاثة منهم ممسكون بالكرابيج وثلاثة ممسكون بسلاسل مقيد بها ثلاثة من كلاب الحرب.. والكلب منهم فى حجم الحمار الصغير وفى منتهى الشراسة.. وأمرنى صفوت أن أجرى حول التمثال.. وحاولت أن أنفذ الأمر ولكن قدمى لم تستجيبا للأمر.. كانتا متورمتين.. وبدأت أمشى بخطوة سريعة.. وعندما أصل فى دورتى إلى أحد الجنود

الممسكين بالكرابيج يلهب ظهرى أو صدرى أو وجهى بكرباجه، وعندما أصل إلى أحد الممسكين بالكلاب يطلق كلبه لينهش فى جسدى بعد أن مزق مابقى من الأفرول الأزرق..

وبعد عدة جولات حول التمثال سقطت من شدة الإعياء فأطلقوا الكلاب لتنهش فى جسدى.. ولم أشعر بشيء..

وعندما فتحت عينى.. ولا أعرف بعد كم من الأيام أو الساعات.. وجدت أننى لست بمفردى فى الزنزانة.. وضعوا معى الكلب «عنتر» وهو كلب أعرج من أشرس الكلاب وموجود حالياً فى معرض الطب البيطرى بالعباسية.. ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى حولت ذلك الكلب الشرس.. كلباً وديعاً جداً معى.. بل كان أشد رحمة بى من الإنسان فى السجن الحربى..

ويصمت العقيد نصر الإمام للحظة وقد اختنق صوته بالبكاء.. وهو يتذكر تلك الأيام الحالكة السواد ليست فى حياته فحسب بل وفى حياة الأمة بأكملها ويقول:

شعر الكلب بما أقاسيه وكان يأتى يتمسح فى جسدى.. يلعق بلسانه جراحى.. وعندما كان يفتح باب الزنزانة لتقديم وجبات الطعام له وكانت فى الصباح آنية بها لبن، وفى الظهر آنية بها شوربة بجوارها لحم نيىء.. وفى المساء.. وكان يشرب من الآنية بعض اللبن ثم يدفعها بأرجله ناحيتى.. وكنت أشرب ماتبقى منه من لبن..

ومرت أيام وأنا على تلك الحال.. ثم اصطحبونى إلى التحقيق مرة أخرى.. وقبل أن أدخل غرفة التحقيق سألنى صفوت الروبى: تعرف عفت؟

قلت له: إن هذا اسم زوجتى.

فقال لى ناصحاً: إنهم أحضروها وسيهتكون عرضها إن لم ترح شمس بك وتوافقه وتحكى له كل شيء..

ولم أصدق أن النذالة تبلغ بهم تلك الدرجة.. ودخلت غرفة التحقيق وقد قررت أن أستغل بطولتى السابقة فى المصارعة فى إحداث عاهة لأى شخص يقترب منى محاولاً تعذيبى.. وكنت قد استرددت بعض قواى فى الأيام السابقة التى تركونى فيها داخل الزنزانة مع الكلب عنتر..

وبدأ شمس بدران يسألنى عن صلتى بالعقيد إبراهيم طه.. وقلت له إننى لم أره منذ عام وكان من تلاميذى فى مدرسة المشاة.. ولم تعجب إجابتى شمس.. فانهال بالشتائم.. وفى لحظات وجدت نفسى ملقى فوق الأرض.. وفى لحظات معلقاً كالذبيحة والكرابيج تنهال علىّ حتى فقدت الوعى..

وأفقت بعد يوم أو أيام.. لأجد نفسى فى نفس الزنزانة .. والكلب عنتر يلعق بلسانه جراحى.. ثم أخذونى إلى الخارج.. ووقف خلفى العسكرى سعد درويش— وهو حالياً عسكرى مطافى بشركة الغزل والنسيج بكفر الدوار ومحبوس على ذمة قضايا التعذيب.. وكان سعد يقوم بنفس دور «العسكرى الأسود» الذى استخدمه إبراهيم عبد الهادى أحد رؤساء وزراء مصر فى عهد الملك السابق فاروق لتعذيب الإخوان المسلمين.. ووقف صفوت الروبى أمامى.. وسأل سعد:

— هل اعتديت عليه ياسعد؟ وأجاب سعد: لسه ياافندم.

ورد صفوت: طيب خذه.

ودفعنى سعد أمامه.. فارتميت على يد صفوت الروبى أقبلها معلنا استعدادى أن أقول أى شىء.. وأمره صفوت أن يتركنى.. وأخذنى إلى غرفة التحقيق.. وسألنى شمس:

— إيه الاتفاق اللى تم بينك وبين محمد نجيب؟

وأجبته صادقاً: محمد نجيب لم أره منذ عام ١٩٥٩ .. رأيته مصادفة آخر مرة وكانت معه حراسة فى محل يشترى أطباقاً.. ورد شمس: أنت كذاب.. أنتم كنتم حتجيبوه رئيس للجمهورية لما تنجح حركتكم مع الإخوان المسلمين..

وأجبته صادقاً: أنا ماليش دعوة بالإخوان أو بمحمد نجيب.

ووقف شمس ثائراً وتقدم منه صفوت سائلاً: أعمل له مولد ياافندم؟ وأجاب شمس باقتضاب: طيب..

وفى ثوان كنت معلقاً كالذبيحة.. ثم وضعوا بين أصابع قدمى ورق كرتون: واعتقدت أن الرحمة نزلت فى قلوبهم وأرادوا إبعاد أصابعى عن بعضها حتى لاتحتك الجروح التى بها.. ولكنى فوجئت بهم يشعلون النار فى الكرتون وتحترق أصابعى بالنار وهم ينهالون علىّ ضرباً بالكرابيج.. حتى فقدت الوعى..

وعندما أفقت.. بعد يوم أو أيام لاأدرى.. وجدت نفسى فى الزنزانة، وشعر الحراس بأننى أتحرك.. وجاء لى صفوت الروبى واقتادونى إلى الخارج، وأعلننى أنه صدر الحكم بإعدامى رمياً بالرصاص.. ولكن شمس بك قرر أن أدفن حياً.. وفعلاً اقتادونى إلى حفرة كبيرة وألقوا بى بداخلها، ثم بدأوا يهيلون الرمال فوق حتى غطتنى تماماً ماعدا رأسى.. وأغمضت عينى بعد أن رددت الشهادتين.. وفجأة دوى صوت أعتقد أنه صوت شمس بدران أو حمزة البسيونى يأمر بإخراجى.. وأزاحوا الرمال وأخرجونى..

ووقفت أمام حمزة البسيونى وشمس بدران.. وقال حمزة: إزاى نبعته لربنا وفيه فى جسمه حته سليمة؟ وقاموا بخلع ملابسى.. ووقفت عارياً تماماً.. وكانت آثار السياط

والجروح تغطى كل صدرى وظهرى وذراعى وقدمى .. ونظر حمزة البسيونى إلى عضوى التناسلى وأشار ضاحكاً:

ده لسه سليم ليه؟ احرقوه..

وعلى الفور أحضروا سيجارة مشتعلة وبدأوا يحرقون العضو التناسلى فى عدة مواضع ثم قيدونى وبدأ حمزة البسيونى بنفسه بواسطة آلة فى يده ينزع أظافر أصابعى العشرين.. أصابع يدى ورجلى..

ونقلونى هذه المرة إلى المستشفى.. مستشفى السجن، وعندما أفقت وجدت ذراعى وفيها «إبرة الجلوكوز» وجاءنى جلال الديب نائب الأحكام ــ الذى استطاع الهرب هو الآخر حالياً إلى الخارج.. ونصحنى أن أعترف بكل شىء.. وطلبت منه أن يكتب أى شىء وأنا مستعد للتوقيع عليه..

وتحسنت معاملتى.. وأحضروا لى طعاماً فاخراً.. ولكننى لم أكن أستطيع أن أمضع أى طعام لتورم شفتى وتهشم أسنانى.. وكانوا يساعدوننى فى وضع كوب العصير فى ناحية من فمى لأرتشف نقطة أو اثنتين وأتوقف من شدة الآلام عندما أحرك شفتى..

ثم جاءنى جلال الديب بإقرار يتضمن قصة خيالية عن مؤامرة كنا ندبرها للقيام بانقلاب عسكرى للإطاحة بالرئيس السابق.. ووقعت على الإقرار.. ودخلنا السجن.. حتى جاءت النكسة وصدر قرار جمهورى بالعفو عنا وشطب القضية وكأنها لم تكن وأفرج عنا.. ولكننا عدنا إلى السجن مرة أخرى بعد ٤٣ يوماً حتى أفرج عنا فى أيام السادات.

* * *

ولما كان الأنموذج الذى نقلناه إلى القراء اختص بتعذيب رجل عسكرى، وخشية أن يظن القراء أن هذا اللون من التعذيب كان من نصيب العسكريين وحدهم، رأينا أن نورد أنموذجاً آخر يتناول التعذيب فيه أحد المدنيين، وننقله هذه المرة من كتاب «محاكمات الدجوى» للأستاذ شوكت التونى من صفحة ٣٩٢ وما بعدها، يتكلم فيه الأستاذ محمد شمس الدين الشناوى المحامى عن الطريقة التى عذب بها فى عام ١٩٦٥، ١٩٦٦ فيقول:

«خلعت ملابسى أمام شمس بدران وبحجرته التى كان يجلس فيها والتى كانت مخصصة من قبل لجلاد السجن الحربى حمزة البسيونى ثم تركها لما حل بدران بهذه السجون لطبخ التحقيقات والقضايا».

وبهذه المناسبة فهناك أمر مهما كان سيئاً فهو ظريف؛ فقد كان المتبع فى خلع ملابس

من يراد استنطاقة أن تخلع ملابسه قهراً بتمزيقها.. ولكن عين الجلاد صفوت الروبى قد زاغت فى القميص الذى كنت أرتديه، فإذا به يمنع الجندى المكلف بتمزيق الملابس ويقوم هو بنفسه بفك الزراير برفق وأناة — وهذا شرف كبير لم يحظ به أحد — ثم وضعه فى جانب الغرفة بعيداً عن الدم والأعين ثم استصفاه لنفسه غنيمة سائغة.. ولم يكن ذلك غريباً علينا فقد كانت دماؤنا وأموالنا وحريتنا مباحة لهم دون معقب ولا اعتراض.

وبدأ التحقيق بأن قيدت يداى ورجلاى ثم مرر قضيب الحديد فوق يدى المقيدتين وتحت ركبتى، ورفعت من قضيب الحديد، وأسندت نهايتاه على ظهرى كرسيين وضعا وسط غرفة «التحقيق».

وكان رأسى مدلى إلى الخلف وعيناى إلى أعلى، وتم السؤال وأنا على هذا الوضع. وكان أول سؤال وجهه شمس بدران إلىّ هو الآتى:

— أنت الآن بالسجن الحربى ولست بالمباحث العامة أو النيابة العامة، وليس هنا قانون أو حقوق، ونحن نفعل مانشاء دون رقيب، ومطلوب منك أن تقدر ذلك وتقول كل ماتعرفه.

فأجبته بأننى لاأعرف مايسأل عنه، فإذا كان عنده سؤال محدد فأنا على استعداد للإجابة عليه.. فانهال علىّ بالسباب الفاجر والقول البذىء، ثم وجه كلامه إلى صفوت وقال: ياصفوت ده من العتاولة ومصروف له ألف كرباج.

فإذا بهذا الجلاد وأعوانه ينهالون علىّ بالسياط فى وحشية وإجرام وأنا معلق على الوضع الذى ذكرته كالذبيحة فى حانوت الجزار لاأملك إلا أن أدعو الله أن يلهمنى الصبر، ويثبتنى على الحق، وأن ينتقم من الظلمة.. ولما استمر الجلد وسال الدم وتهتك اللحم وتناثر؛ لم أتمالك نفسى فانطلقت بسب بدران وسيده، ووصفتهما بالكفر والجحود، وبأنهما حطب جهنم خالدين فيها.. وظللت أردد ذلك حتى غبت عن الوعى. ولما أفقت بعد برهة صغيرة وجدتنى فى المياه حيث أنزلت من تعليقى وألقى بى فى نافورة مياه قذرة أمام غرفة بدران.. ثم أخذت ثانية داخل الغرفة ليكرر نفس السؤال: «قل كل ماتعرف عن أى شىء وعن أى شخص».

ولما أعدت عليه نفس الجواب: اسأل عن أى شىء وأنا أجيب.. تكرر نفس الجلد بالسياط، وزاد عليه الكى بالنار، وإطفاء السجاير حول عنقى، ورأسى مدلاة إلى الخلف.. ثم كان صفوت ينتزع اللحم المتهتك من جسمى نتيجة ضرب السياط ويجمعه ثم يفتح فمى عنوه ويضع فيه هذا اللحم ويقول: ذق لحمك النجس.. ولما يعمل أسياخ الحديد المحمى والسجاير فى جسمى يقول: شم رائحة الكباب فأنت جائع..

وهكذا استمر الحال حتى فقدت الوعي أكثر من مرة، ووصلنا إلى مطلع الفجر، فإذا به ينهض واقفاً لينصرف حتى ينال قسطاً من الراحة ليستأنف نشاطه الإجرامى فى «التحقيق» فى اليوم التالى.. وكان آخر أمر وجهه إلى صفوت: خليه معلق حتى الصباح لحين حضورى.

وبعد انصرافه هو وكاتبا التحقيق جلال الديب ومصطفى الجنزورى نائبا الأحكام اللذان كانا يجلسان معه فى نفس غرفته على مكتبين جانبين.. حضر شخص أسمر ضخم الجثة أجش الصوت وقال لصفوت: ماهذا الذى تفعلونه.. ألا تدرى من هذا.. دا راجل كبير وله مكانته فكيف تعمل معه ذلك؟ فقال له: هذه أوامر سيادة العميد شمس وقد أمرنى أن لاأنزله حتى يحضر فى الصباح.. فقال له ذلك الشخص — الذى علمت فيما بعد أنه سعد عبد الكريم مدير المباحث الجنائية العسكرية — نزله وأنا المسئول أمام سيادة العميد وسأضمن أنه سيقول كل مايطلب منه فى الصباح..

وأنزلت من التعليقة وألقيت على الأرض حيث كانت قواى خائرة ورجلاى ممزقة متهتكة.. وأمر سعد عبد الكريم بإحضار كوب عصير ليمون من البوفية المجاور لحجرته، شربته وأنا لاأحس بالحياة.. وإذا بهذا الكوب كأنه أكسير الحياة، فقد كان كالسحر، سرى فى جسدى سريان الروح، وكنت أحس بإسترداد الحياة مع كل رشفة من هذا الكوب. ولازلت أذكر هذه اللحظة حتى اليوم وما أظن أننى سأنساها ماحييت فقد كان ألذ كوب مشروب فى حياتى..

عودة إلى الحياة: ثم حملت بعد ذلك إلى حجرة كانت تعرف باسم مخزن رقم ٢، كنت غادرتها مع العشاء ماشياً على رجلى حافى القدمين — وهذه هى الأوامر — ثم عدت إليها مع الفجر محمولاً على محفة بين الحياة والموت.

وقد علمت بعد ذلك من طبيب كان معنا فى نفس الغرفة — بعد انقضاء هذه الفترة بثمانى سنوات أننى أصبت بصدمة عصبية فى تلك الليلة وأننى أسلمت الروح وأنه أسبل عينى وجذب الغطاء على وجهى فى الساعة السابعة صباحاً.. وفى تلك اللحظة ألهمه الله أن يطلب من بعض الإخوان أن يحملونى من رجلى لتكون رأسى إلى أسفل، وليقوم هو ببعض إسعافات لتنشيط القلب؛ فإذا بى بعد لحظات أستعيد الحياة وأفتح عينى. وكان هذا الطبيب هو الدكتور فؤاد عبد المجيد الذى يعمل بمستشفى كفر الشيخ.. ولما سألنى منذ مدة قريبة أثناء زيارته لى فى شهر رمضان ١٩٧٣ إن كنت أذكر ذلك فنفيت له علمى حيث لم أشعر بشىء من ذلك على الإطلاق ولم يخبرنى به أحد حتى هذه اللحظة.

وقد حضر طبيب السجن الحربى كما هى العادة — وهو الرائد ماجد حمادة — ولما

رأى حالتى بدا عليه التأثر الشديد وكتب لى حقن «ريفرين» ولأول مرة أسمع هذا الأسم، وقد كانت هذه الحقن خير ضمان لعدم تلوث الجراح ولعدم حصول مضاعفات فى هذا المكان القذر الذى كنا نعيش فيه فجزاه الله عنى خيراً.

ثم تركت ملقى مع غيرى فى هذا المكان أعانى من الجراح والضيق حيث كان المكان الذى يتسع لخمسة يوضع به ثلاثون مثخنون بالجراح يئنون مما بهم من سوء المعاملة والجوع والعطش ورائحة القيح والصديد والبول والبراز وجرادل الكوتش فى الجو القائظ فقد كانت لها رائحة لايمكن أن توصف أو تعرف لغير من شم رائحتها المنتنة.

وانتهت «التحقيقات» التى كان يجريها بدران وأعوانه فى شهر أكتوبر ١٩٦٥ أى أنها استمرت أربعة أشهر كاملة — وذكرت الصحف المأجورة أن التحقيقات انتهت وأن المتهمين سيقدمون إلى محاكم خاصة تشكل لذلك — وصدر قرار جمهورى بتشكيل أربع دوائر جنايات أمن دولة عليا؛ الأولى يرأسها الفريق أول الدجوى، والثلاثة برياسة على جمال الدين والتميمى.

وقد علمت أن «التحقيق» الذى أجرى ثبت منه عدم صحة رواية عبد الفتاح شريف. وبذلك فلن يعاد الكلام بشأنه، وخصوصاً وأن التحقيق كان قد انتهى وانفض سامره.

ولكننى كنت واهماً فى ذلك؛ فإن الحقد والضغينة التى ملأت قلب شمس بدران على الشيخ محمد الأودن جعلته يصمم على قتله وافتعال الأقوال التى يستند عليها لتنفيذ جريمته ضد هذا الشيخ الفانى الذى كان يبلغ الثمانين من عمره فى ذلك الوقت.

وفى حوالى الساعة ١٠ مساءً يوم ٦/١٢/١٩٦٥ إذا بباب الزنزانة ٥٥ التى كنت أنزل بها يفتح مزلاجه الضخم فيحدث صريراً تقشعر له الأبدان، ثم يقف جندى كريه الصورة والصوت ينادى على «الواد شمس الدين الشناوى».. ثم أخذنى خارج السجن الكبير إلى الحوش الذى نصبت فيه خيام النيابة، وكانت جراحى لاتزال ناغرة، وعليها ضمادات عليها الدم والصديد، ولم أكن أستطيع أن ألبس الحذاء لتضخم قدمى وتهتك لحمها ووجود الضمادات عليهما. فخرجت حافى القدمين أتحسس الأرض ولا أستطيع أن أطأها إلا همساً، ولم أكن أستطيع الجرى كما تقضى بذلك تعليمات بدران حيث يمتنع على أى شخص يسير إلا بالخطوة السريعة وكأننا مجندون فى عنفوان الشباب — وكان سنى حينئذ ٤٣ سنة وأعانى من الآلام والجروح والجوع والعطش ماأنقص وزنى أكثر من ثلاثين كيلو جرام.. فكان الجندى ينهال علىّ بالسوط لعجزى عن الجرى.

وأدخلت إحدى الخيام المنصوبة بحوش السجن الحربى فوجدت شاباً فى مقتبل العمر

يجلس إلى مكتب متواضع وأخبرنى أنه وجيه قناوى وكيل نيابة أمن الدولة، وقد أكرمنى وقدم إلىّ مشروباً ثم بدأ يسألنى فى بلاغ تقدّم به شمس بدران ضدى وأطلعنى على البلاغ وكان يتضمن أننى اصطحبت محمد عبد الفتاح شريف إلى منزل الشيخ محمد الأودن — فقلت له: وما الجريمة فى ذلك؟ فقال: لاجريمة ولكنه أصر على أن يحقق معك.. فقلت له: طالما أنك غير مقتنع بوجود جريمة وأرغمت على الحضور والتحقيق؛ فمعنى ذلك أنك إذا قررت حفظ التحقيق وأصر بدران على تقديمى للمحاكمة فإنه ينفذ كلامه.. ولكن السيد المحقق تحمس عندئذ لإنفاذ رأى النيابة.. وبعد إتمام الاستجواب أخبرنى أنه سيكتب مذكرة بحفظ التحقيق ويطلب الإفراج عنى فوراً.. ولكننى أوضحت له أن الأمر ليس بهذه السهولة التى يظنها.. وأصر على قوله وقال: سوف ترى.. وعدت إلى مكانى بالزنزانة رقم ٥٥.

وبعد خمسة عشر يوماً وفى صباح يوم ٢١/١٢/١٩٦٥ حضر إلىّ صف الضابط «سمير المسئول عن السجن الكبير» وقال: أنت مطلوب لإتمام إجراءات الإفراج عنك.

ولما ذهبت إلى المكاتب وجدت عدداً من المعتقلين منهم أولاد الشيخ محمد الأودن الأربعة وتجرى مراسم الإفراج ومنها حلق اللحى التى طالت حتى وصلت إلى الوسط واستلام الأمانات وكتابة إقرارات بأننا لم نعذب وليست بنا آثار تعذيب.. وهلم جراً.

وأثناء إتمام الإجراءات حضر شمس بدران وكان ذلك حوالى الساعة العاشرة صباحاً، ونظر إلينا ثم وجه الكلام إلىّ «رايح فين ياولد» فقلت له: بيقولوا مروحين.. فقال «هاته».. وذهب إلى مكتبه وقال لى: إذا كنت تريد أن تخرج مثلهم فعليك أن تقول ماأطلبه منك عن الشيخ الأودن ثم تخرج.. فقلت له: مادام ذلك لم يحصل فلن أقوله.. فكرر كلامه وكررت ردى.. فاستدعى الأخ محمد عبد الفتاح شريف وقال له إنه يطلب إليه أن يذكر رواية ضدى وضد الشيخ الأودن.. ولما قال له إن ذلك لم يحصل؛ قال أنا لم أسألك إن كان حصل أم لا إنما أطلب منك أن تقول ذلك وإلا أعدنا عليك كرة التعذيب.. ثم أذن له بالانصراف.

وقال لى: لابد أن تقول هذه الأقوال عن الأودن حتى تخرج.. ولما رفضت اتصل تليفونياً بجمال عبد الناصر واستأذنه فى عدم الإفراج عنى ووعده أنه سيحصل منى فى تلك الليلة على اعترافات تدين الأودن — ففوضه فى ذلك وأمر بأن أجلس على باب الغرفة ووجهى للحائط لحين عودته مساءً، وسيعرف إن كنت سأوافق أن أقول مايطلب.. وقضيت اليوم كله هكذا جالساً على الأرض ووجهى إلى الحائط فى انتظار حضوره مساءً.. وقد حضر فى حالة غير طبيعية، وأدخلت إليه فقال: «شاورت عقلك عشان تقول ماطلبت منك، وتذهب إلى بيتك.. فقلت له: ليس عندى ماأقوله.

فأمر صفوت الروبى بإحضار العدة وهى الحبال والسياط وقضيب الحديد وأمره أن يقوم بعمله ففعل وكان بالحجرة مع بدران جلال الدين ومصطفى الجنزورى نائباً الأحكام ــ وباشر صفوت ومن معه من الجنود عملهم بالقيد والتعليق والجلد فى وحشية لامثيل لها، وكنت فى هذه الحالة أدعو الله أن يثبتنى وأن يعيننى عليهم أو أن يريحنى بالموت .. واستجاب الله الدعاء؛ فلم أكن أحس بما يفعلون إلا قليلا .. وزاد ذلك من غيظ بدران وحقده فأمر بإحضار الكلاب الشرسة المدربة؛ فلم آبه لذلك ولم أحفل به؛ فقد كان ماأنا فيه أشد من نهش الكلاب، وكنت صادق النية فى لقاء الله؛ فأرانى هذا الجبار بدران فى صورة فأر صغير لايرهب ولا يخيف، وأرانى الله من آياته فى تلك الليلة اشياء كثيرة لاأستطيع وصفها ولا التعبير عنها..

وكان بدران يرغب فى أن يسمع عبد الناصر الأقوال التى تدين الشيخ الأودن فأحضر معه شخصاً يحمل فى كتفه جهاز تسجيل، وقرب المايك من فمى ليسجل، لكنه لم يسجل إلا أزيز السياط واللعنات التى كنت أصبها عليهم؛ فغضب وطرد حامل جهاز التسجيل من الغرفة، ووقع فى حرج شديد؛ نظراً لأنه رأى إصرارى على موقفى رغم إشرافى على الموت وكان يقول «**أقول للراجل إيه وأودى وشى فين**» وكان ذلك يزيده ضراوة وشراسة، ويزيد الجلادين قسوة ووحشية .. وبعد مدة من العذاب والتنزيف غبت عن الوعى ولم أعد أحس شيئاً، وكانوا يفوقوننى بالكى بالنار، وإطفاء السجاير فى جسدى، والالقاء بى فى حوض الماء القذر الموجود أمام غرفة بدران .. فإذا أفقت بدأت المساومات والوعود والأمانى التى لم تكن لتثنينى عن موقفى، وعزمت صادقاً فى تلك الليلة أن ألقى ربى لاتخلص من عذابهم ولا أفترى على هذا الشيخ الكبير الصالح الشيخ الأودن ..

وكان الليل قد فات منتصفه ، ورأى بدران أن لا فائدة ترجى من التعــــذيب ، فإذا به ينهض واقفاً فى عصبية وغيظ، ويقذف بسلسلة مفاتيحه الذهبية، وينهال بالسباب والشتم البذىء ويردد «**كسفتنى ياابن ..**» **أقول للراجل إيه بعد ماوعدته..**» ثم قال لجلال الديب ومصطفى الجنزورى: كملوا معاه .. يايقول مايطلب منه يايموت ونخلص منه، ثم انصرف غاضباً حانقا أو لعله كان نادماً على هذا الوعد الذى بذله لسيده دون أن يستشيرنى فيه .. ولو استشارنى لما أشرت عليه بذلك إذ الموت أهون بكثير مما يدعوننى إليه .. وكيف لاوهو يدعونى إلى شهادة الزور يقتل بها رجلاً فاضلاً وشيخاً كبيراً .. وكان يحضرنى فى ذلك الوقت الحديث الشريف «شاهداك قاتلاك».

وبعد انصراف بدران غاضباً ألان لى الديب والجنزورى القول وأظهرا لى العطف والشفقة وقالا: ارحم نفسك مما أنت فيه ونحن نعرف مكانتك وقدرك، ولكننا لانملك إلا

تنفيذ الأوامر، وهذه أوامر عليا سمعتها بنفسك فأرحنا وأنقذ نفسك حرصاً على حياتك ومصالح أسرتك.. ولما تمسكت بموقفي إذا بهذا الود واللين ينقلب قسوة وضراوة، وإذا بهما يقومان بما طلب منهما بهمة ونشاط فيأمران صفوت بإتمام المأمورية حتى الرضوخ أو القتل.. وكأنهم جميعاً أصيبوا بجنون القسوة، وكأنما عز عليهم أن لايستطيعوا إملاء رغبتهم الأثيمة على شخص ضعيف أعزل خائر القوة، متهتك اللحم، يقف وقد غطى دمه أرض الغرفة حتى استحالت بركة حمراء قانية.

ولما استمر الضرب والنزيف، فقدت كل أثر للحياة، وخفتت أنفاسي، وهدأت نفسي، واستمروا فى الضرب على الجثة الهامدة التى هى جثتى.. وقد دعا ذلك أحد جنود العيادة أن يسرع إلى طبيب السجن الذى تصادف وجوده بالسجن فى أواخر الليل لحكمة يعلمها الله وتخفى على الناس، فما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً — وأخبر هذا الجندى الرائد طبيب ماجد حمادة أنهم يضربون شخصا مات منذ وقت طويل..

فحضر الطبيب وجس النبض والقلب وأنا معلق ثم قال لهم: ماتصنعون؟ إنكم تضربون جثة والضرب فى الميت حرام.. فقالوا له: هذه هى الأوامر.. فقال: أنزلوه وسأحاول إسعافه لإعادة الحياة إليه إن استطعت.. ففعلوا. وقال لهم الطبيب: احملوه إلى مستشفى السجن وكانت المسافة بين غرفة بدران وبين المستشفى حوالى نصف كيلو متر فإذا بصفوت يأمر الجنود أن يجرونى على الأرض حتى المستشفى. فثار الطبيب وأمر صفوت بإحضار السيارة الجيب لنقلى إلى المستشفى. فقال صفوت: السواق غير موجود ياافندم.. فطلب الطبيب من جندى العيادة إحضار النقالة والجنود لنقلى عليها.. وتم ذلك، ووضعت على سرير المستشفى، وظل الطبيب إلى جانبى يحاول إعادة الحياة بالحقن والأدوية والتدفئة حتى أفقت وفتحت عينى فى الصباح فقال لى: الحمد لله على السلامة. فقلت له: لماذا تقول لى ذلك؟ قال: لأنك عدت من سفر بعيد..

ولست أدرى إن كان الطبيب يذكر ذلك أم أن طول العهد وكثرة ماشاهد من أحداث وأشخاص قد أنساه.. ولما أفقت قلت للطبيب: أريد أن أعود إلى زنزانتى بالسجن الكبير. فلما استفهم عن سبب ذلك أخبرته أننى أريد أن أكون مع إخوانى بها يساعدوننى على حاجتى ويسهرون على صحتى.. وقد كانت العيادة مقسمة إلى زنازين كل واحدة لاتتسع إلا لشخص واحد.. وكنت لأأستطيع الحركة أو الكلام بسهولة..

ولكن الطبيب رأى أن يستبقينى بالعيادة لأنه علم أن التحقيق معى لم ينته بعد. وطالما بقيت فى العيادة فإنه سيخبرهم أن حالتى لاتسمح بالتعذيب مرة أخرى.

* * *

وفى الصباح حضر مصطفى الجنزوى، وفتح باب الزنزانة بالمستشفى وسألنى إذا كنت قد غيرت رأيى أم لازلت مصراً عليه.. ولوح لى أن الدولة من مصلحتها أن تتخلص من هذا الرجل المجرم (الأودن) وأننى إذا ساعدتها فى ذلك فإنها ستكافئنى وهى لاتنسى من يخدمها.. فقلت له إننى عاجز عن خدمة دولتكم، وحسبى ماأنا فيه.. وقلت له: قل لبدران الذى أرسلك إننى لم أمت ولن أموت إلا بإذن الله..

فلوح بتهديد من نوع جديد. وقال فيه ناس مايهمهومش الضرب ولكن فيه طرق أخرى تنفع معاهم.. وفهمت مايرمى إليه؛ فقد كان يريد أن يفهمنى أنهم سيحضرون زوجتى لإكراهى على مايطلبون.. ولما كنت قد وطنت نفسى صادقاً على الموت، فلم يفزعنى هذا التهديد واعتبرته لوناً من البلاء المبين الذى كتب علينا.. وقد طمأننى ربى بأمور رأيتها زادتنى إيماناً ويقيناً بأن الله معى ولن يخذلنى أو يتخلى عنى أبداً.

وفى اليوم التالى أحضر سيدة ووقف يكلمها أمام باب زنزانتى بالمستشفى والباب مغلق، وهو يتكلم بصوته الأجش وهى تتكلم بصوت خافت حتى لاأستطيع أن أميز الصوت.. ثم أمر جندياً باصطحابها إلى سجن رقم ٤.. وفعلاً أخذها الجندى خارج المستشفى.. فساورنى القلق، وأردت أن أستقصى الأمر فأرسلت أحد جنود العيادة ليراها ويصفها لى، فذهب ووصفها لى فوجدتها سيدة أخرى ساقتها الأقدار إلى براثن هؤلاء الوحوش فأراد أن يوهمنى أنها زوجتى. ولكن الله من ورائهم محيط.

* * *

فهرس

الصفحة　　　　الموضوع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الباب الثانى عشر : إلى القاهرة فى أحلك الأيام	٣٣٩
الفصل الأول : محاولة الإنقاذ	٣٤١
الفصل الثانى : المفاجأة المذهلة	٣٤٥
قرائن مذهلة عن التصنت	٣٤٧
الفصل الثالث : تكتيك جديد	٣٥٣
مذكرة بوضع خطة للتوفيق	٣٥٤
الفصل الرابع : هل كان اختفاء المرشد العام فى ذلك الوقت إجراء سليماً ؟	٣٦١
الباب الثالث عشر خطوات عملية للإنقاذ	٣٦٥
الفصل الأول : حشد إخوانى يتبنى المذكرة	٣٦٧
اقتراح بخلع المرشد	٣٦٨
الفصل الثانى : اجتماع تاريخى : جلسة طويلة مع عبد الناصر فى منزله	٣٧١
أسباب الخلاف كما يرويها عبد الناصر	٣٧٢
ملامح فى شخصية جمال عبد الناصر	٣٧٥
القرارات التى اتخذت بعد الاجتماع	٣٧٩
الباب الرابع عشر : اللغم الذى دمر واضعيه ودمر الجميع	٣٨٣
الفصل الأول : اجتماع الهيئة التأسيسية المرتقب	٣٨٥
مفاجأة المفاجآت أو انفجار اللغم	٣٨٦
خطة مدبرة	٣٨٧
تفاصيل الخطة	٣٨٨
تم إجهاض جهودنا	٣٨٩
الأسلوب الحكيم	٣٨٩
القرار . ومعناه	٣٩٠
أخطر المشاكل سببها العقد النفسية	٣٩١
الفصل الثانى : فى انتظار الكارثة	٣٩٣
فى رشيد	٣٩٤

الموضوع	الصفحة
	٤٢٧

الموضوع	الصفحة
الدرك الأسفل	٤٢٧
جيوش البق	٤٢٨
ثانياً : حق المراسلة والزيارة	٤٢٩
ثالثاً : منع الطرود	٤٢٩
بجامتى بها ست وثلاثون رقعة	٤٣٠
مسّنا وأهلنا الضر	٤٣١
رابعاً : منع الحلاقة وإزالة الشعر	٤٣١
خامساً : جمع المصاحف	٤٣٢
سادساً : منع العلاج	٤٣٢
الفصل الثالث : طغيان الأقزام	٤٣٥
الحبس الانفرادى وبدائع صنع الله	٤٣٥
التكدير والتنكيل بالكرام	٤٤٠
الواعظ	٤٤٢
الفصل الرابع : دراسات	٤٤٥
كسر احتكار السلاح	٤٤٥
الثمانية عشر شهراً	٤٥٠
الأشهر الست الأخيرة	٤٥٢
استغلال الحرية داخل السجن	٤٥٢
بعد الإفراج	٤٥٣
الباب السادس عشر : بين المعتقلين	٤٥٥
الفصل الأول : مسئولية الأسير أمام العواطف الثائرة	٤٥٧
الفصل الثانى : فصائل الإخوان ـــ إلى أين ؟	٤٦٣
الباب السابع عشر : اعتقالات سنة ١٩٦٥	٤٦٧
الفصل الأول : فى سجن أبى زعبل	٤٦٩
أسلوب جديد	٤٦٩
وصف سجن أبى زعبل	٤٧٠
لماذا استغل عبد الناصر هذا السجن معتقلا للإخوان ؟	٤٧١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١٦	المسلون	المسلمون
٨	١٩	منشوه	منشؤه
١٦	١٨	صدّق	صدَّق
٢١	٦	يتكلون	يتكلمون
٢٢	٨	المستشا	المستشار
٢٤	٢ من تحت	منا	لاغية
٢٤	٢ من تحت	تراكنا	أو اشتراكنا
٢٤	الأخير	مرشد	المرشد
٢٥	٦	الأرشاد	الإرشاد
٢٧	٨	عصاه	عصاة
٢٧	١٠	عصاه	عصاة
٣٠	٧	الأرشاد	إرشاد
٣٠	١١	الأرشاد	الإرشاد
٣٠	١٣	سمعه	سمعة
٣١	١١	أن أن	أن
٣١	٢١	السطات	السلطات
٣٢	٩	الآف	آلاف
٣٥	الأخير	بذأت	بدأت
٣٧	٢	اتفامية	اتفاقية
٣٨	٩	الأوى	الأولى
٣٨	١٠	م يكد الجانى الأثيم	لم يكد الجانى الأثيم
٤٠	٥	المجتمعه	المجتمعة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٢	٤	المحكمه	المحكمة
٤٣	١	الحقيقه	الحقيقة
٤٧	٤	إحداى	إحدى
٥٢	٦	للإ	للإخوان
٥٣	٥	فاستسصدر	فاستصدر
٥٤	١٦	موضوع	موضع
٥٤	١٨	فلجئوا	فلجأوا
٥٨	٧	يولّد	يولِّد
٨٥	٨	ام	أمر
٨٨	٢ من تحت	فى فى	فى
٨٩	١	تويع	توزيع
٩٢	٤	الزراعة	الزراعية
٩٢	٨	الزراعة	الزراعية
٩٦	٤	مليون	مليونا
٩٦	٧	علية	عليه
٩٦	١٩	تستهلكة	تستهلكه
١٠٦	١٠	تشوبها	يشوبها
١١٨	١٤	القوانيين	القوانين
١١٩	١٦	حياتة	حياته
١١٩	٢١	الدنبا	الدنيا
١٢٠	٦	الفقة	الفقه
١٢٠	٦	يقتضنى	يقتضى
١٢٢	٦ من تحت	اهواء	أهواء
١٢٣	٨ من تحت	ساسا	أسادسا
١٢٤	١١	آخوية	أخوية
١٢٧	٨	التأسيسة	التأسيسية

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٩	٦ من تحت	المعيشية	المعيشة
١٣٥	٤ من تحت	الخلق	الخالق
١٤١	٧ من تحت	أبو قيق	أبو رقيق
١٤١	٦ من تحت	يواحه	يواجه
١٤٢	١١ من تحت	بأييده	بتأييده
١٤٨	٤	"	المرشد
١٤٨	٦	الاستاد	الاستاذ
١٤٨	١٢	حرينا	حزينا
١٤٩	٧	التأسية	التأسيسية
١٥٠	٦ من تحت	المحكة	المحكمة
١٥٢	٣	قرار	قرارا
١٥٣	٥	وَوْجَة	وَووجه
١٥٥	٩ من تحت	ينسبنا	ينسينا
١٦٣	٧	لآن	لأن
١٦٣	١٤	شؤنه	شئونه
١٦٨	٤ من تحت	أسرائيل	إسرائيل
١٦٩	٥	علـ	علـم
١٦٩	١٢	خبره	خبرة
١٧٠	١	رئيسة	رئيسية
١٧٤	٧	أستاتذة	أساتذة
١٧٤	٨ من تحت	اللية	الليلة
١٧٤	٧ من تحت	يكر	يكـن
١٧٥	١٠	شعيبا	شعبيا
١٧٧	٤	آخرى	أخرى
١٧٩	٩	إذ	إذا
١٨٠	٣	وحمع	وجمع

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٠	٤	تمحضت	تمخضت
١٩٢	١٠	القـ	القيادة
٢١١	٨	ذك	ذلك
٢١٢	٩	أسوها لصحف	أبلغوها للصحف
٢٣٣	٦ من تحت	ديمسبر	ديسمبر
٢٣٤	١٥	مطان	مظان
٢٣٥	١٩	تيلقاها	يتلقاها
٢٣٧	١	ياحضرت	ياحضرات
٣٤٣	٧ من تحت	سمعته	بسمعته
٢٤٥	٦ من تحت	سطة	سلطة
٢٥٣	٢ من تحت	تبعائها	تبعاتها
٢٥٤	١	محاولة أخر	?
٢٥٩	٣ من تحت	جديدة	جديد
٢٦٠	٩ من تحت	بالستلسل	بالتسلسل
٢٦٤	١٦	الحقيقة	الحقيقية
٢٦٦	٢	لإخوان	الإخوان
٢٨٢	٦	بشائرة	بشائره
٢٩٣	١٦	الطبيعة	الطبيعية
٢٩٣	١٧	الطبيعة	الطبيعية
٢٩٦	٨ من تحت	بجمع	جمع
٢٩٧	١١	شبة	شبه
٢٩٧	١٤	المتبانية	المتباينة
٢٩٧	١٦	التفت	التقت
٣٠٠	١٦	السليمة	السلمية
٣٠١	١٠ من تحت	النيابة	النيابية
٣٠٨	٨	ومائلاه	وما تلاه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٠٩	١	تجناز	تجتاز
٣١٠	٦	ويوجيه	ويوجبه
٣١٨	١٧	عسكر	عسكرية
٣٢٧	٥	عسكرين	عسكريين
٣٣١	٣	بخطه	بخطة
٣٤٨	٣ من تحت	ثم طاقه	ثم مدَّ نطاقه
٣٤٨	٧ من تحت	زميلة	زميله
٣٤٩	١٥	آله	آلة
٣٥٠	٤ من تحت	حول	حاول
٣٥٤	١٢	بالتنوية	بالتنويه
٣٥٤	١٤	نفاقمت	تفاقمت
٣٧٤	٢	حديثة	حديثه
٣٧٤	٥ من تحت	شعل	شغل
٣٨٨	٥	الد.وة	الدعوة
٣٨٨	٦	تصدى	التصدى
٣٩٢	٩	لدا	لذا
٤١٦	٩	ذا	هذا
٤١٦	١٢	أنبئكم	ننبئكم
٤١٧	٥	العسكرين	العسكريين
٤١٧	١٣	يثبادر	يتبادر
٤٣١	٣	ءدارة	إدارة
٤٣٢	٥	منن	من
٤٤٢	آخر	تمحصت	تمخضت
٤٤٧	٤	على أن تعدلوا	على أن لاتعدلوا
٤٥٢	٣	الحضيص	الحضيض
٤٥٤	٢	حمه	رحمه

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٦١	٣	إنا معم	إنا معكم
٤٧٥	١	الإزهاب	الإرهاب
٤٩٧	١٥	وقلنا	قلنا
٤٩٨	١	بهدا	بهذا
٥٠٧	٥	طريقة	طريق
٥١٨	١٩	فيكف	فكيف
٥٣٩	٧	تزيع	تزيغ
٥٥٠	١٣	وأضحة	واضحة
٥٧١	١٦	يرحجه	يرجحه
٥٧١	١٦	مزذوحا	مزدوجا
٥٧٤	٨ من تحت	أبو...رة	أبو نضارة ؟
٦١٢	٩	الفوغائية	الغوغائية
٦١٢	٩	ولاعلام	والإعلام
٦٢٣	٥	عطمى	عظمى
٦٣٨	١٦	حيت	حييت
٦٥٥	٢	بعنفها	بعنقها

* * *

الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ - ١٩٩٤
الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

فاجأنى الإخوة الأعزاء من رجال دار الدعوة بالإسكندرية ـ بعد فترة قصيرة من ظهور الجزء الثالث من هذه المذكرات ـ بأن المطبوع منه قد نفد ، وأنهم يعدون لطبعة ثانية له ، وطلبوا إلىّ أن أكتب مقدمة لهذه الطبعة إن شئت .

وقد صادف هذا الطلب عندى استعداداً ؛ فقد تلقيت من إخوة كرام رسائل كان علىّ أن أرد عليها ، فوجدت فى كتابة هذه المقدمة ما قد يغنينى عن الرد على كل منهم على حدته ، وقد يتيح لى أيضا أن أزيد بعض الجوانب وضوحاً بإلقاء مزيد من الأضواء عليها .

ومضمون هذه الرسائل من نقاط كان ماثلا فى خاطرى منذ كنت أعد نفسى لكتابة هذه المذكرات .. ولهذا حرصت فى كتابة مقدمات الأجزاء الثلاثة على أن أطرق هذه النقاط بالذات طرقا ملفتا ما استطعت ؛ حتى لا يحتاج أحد ألى التوجه إلىّ بشأنها بعد ذلك .. غير أن ذلك لم يسترع انتباه بعض الإخوة فإذا هم يتوجهون بها إلىّ كأنهم لم يقرأوا هذه المقدمات .. ولو كنت راداً عليهم ردودا خاصة لكان ردى هو أن أحيلهم إلى هذه المقدمات ليعيدوا قراءتها وينعموا النظر فيها .

وأنا ممن يولون قراءة مقدمات الكتب أعظم اهتمام ؛ فقد أقرأ الكتاب مرة واحدة ولكنى أقرأ المقدمة أكثر من مرة ، وقد أرجع إليها فى أثناء قراءتى فصول الكتاب .

ولابد أن قارىء مقدمات هذه الأجزاء الثلاثة ـ إذا قرأها قراءة فاحصة مستبصرة ـ ستعترضه هذه النقاط فيها ، وسيحس كأن هذه النقاط قد أقحمت فى المقدمات إقحاما لهدف معين ؛ ولابد أنه واجد ما يوضح هذا الهدف فيما يقرأ من أبواب وفصول فى صلب الكتاب .

وأضرب لذلك مثالا ما جاء فى الفقرة الثالثة من الصفحة الرابعة من مقدمة الطبعة الأولى لهذا الجزء حيث قلت : « وأحب أن أحيط السادة القراء علماً بأن هذه المذكرات التى وعدتهم فى مقدمة الجزء الأول منها بإصدارها فى ثلاثة أجزاء ؛ كانت

مسوداتها جميعا معدة وكاملة حتى آخر يوم من أحداث الجزء الثالث قبل البدء فى طبع الجزء الأول منها »

ما الذى دعانى إلى إحاطة القراء علماً بأمر كهذا هو من طبيعته أنه لا يدخل فى دائرة اهتمامهم ، وهم ليسوا فى حاجة إلى إحاطتهم علماً به ؟!

إننى كتبت ذلك لأننى أعلم أننى سأتناول فى تسجيلى للأحداث عن أشخاص أفضوا إلى ربهم .

وتوقعت أن يظن بعض القراء أننى تحاشيت الكتابة عنهم وهم على قيد الحياة .... وقد وقع ما كنت أتوقع ؛ فقد جاءنى من بعض الإخوة ما يشعر بهذا المعنى .. ولو أن هؤلاء الإخوة قرأوا هذه الفقرة ووقفوا عندها قليلا ؛ لعلموا أن الكتابة عن هؤلاء الأشخاص كانت معدة من قبل عام ١٩٧٨ بأكثر من ثلاثة أعوام ؛ ولكن ظروف الطباعة والنشر هى التى جعلت وصولها إلى أيدى القراء فى المواعيد التى وصلت فيها إليهم .

* * *

وفى الوقت الذى رأى هؤلاء الإخوة أننى تناولت أشخاصا بعد أن أفضوا إلى ربهم ــ وهل التاريخ إلا هذا ؟! ــ عتب علىّ آخرون أننى أغفلت تناول آخرين يرون أنهم انحرفوا وكان علىّ أن أتعرض لهم .

ولهؤلاء الإخوة جميعاً أقول : إننى لا أرى مهمتى فى التاريخ أن أتتبع عورات الأشخاص ــ فهذه ليست من شيمتى ولا هى من شيمة المؤمنين ــ وإنما أنا أتتبع الأحداث الجسام التى شهدتها ، والتى كان لها بالغ الأثر فى مسيرة دعوة الإخوان المسلمين .. ولما كان صناع هذه الأحداث هم جزءاً منها ، ولا يمكن فصلهم عنها ؛ فقد وجدتنى مضطراً إلى أن أتعرض لهم بقدر تعرضى للأحداث نفسها ومع ذلك فأنا لم أتعرض لهم حين تعرضت بأكثر من أن حمّلتهم وزر ما صنعوا .

ثم إنى فى تعرضى لهم لم أكن منتهزاً ــ كما ذهب الظن ببعض العابثين ــ فرصة غيابهم من هذه الحياة فأنشأت اتعرض لهم ؛ بل إننى تعرضت لهم وهم على قيد الحياة ، وكان لى معهم مواقف ومواقع . وهذه المواقف والمواقع مسجلة بتفصيل وإسهاب لو أن إخواننا العابثين استعادوا ما قرأوا .

* * *

ويخيل إلىّ أن هؤلاء الإخوة قد أملى عليهم هذا العتاب أنهم كانوا يؤثرون أن تبرز

للناس — حين نؤرخ لدعوتنا — ما يعجب ويبهر ، وأن نحتفظ لأنفسنا بما دون ذلك .

وقد سجلت موقفي من هذا الاسلوب وحددته تحديداً بينا فى مقدمة الطبعة الأولى حيث قلت : « وهذا لون من التأريخ لا أرضاه لنفسى ، ولا أعتقد أنه يؤدى فى النهاية إلى خدمة دعوة كدعوة الإخوان المسلمين أسست على تقوى ... »

ولم يكن أسلوبى هذا الذى ارتضيته لنفسى ، والتزمته فى تسجيلى للأحداث اختراعاً منى ، ولا إرضاء لهوى يعتلج فى صدرى ؛ وإنما كان تأسيا بالأسلوب القرآنى الكريم ... وإن شئت فاقرأ ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ وأقرأ عن حادث الإفك فى سورة النور ، وأقرأ عن زواج زينب بنت جحش فى سورة الأحزاب ، وموضوع حاطب بن أبى بلتعة فى سورة الممتحنة ، وأقرأ عن غزوة أحد فى سورة آل عمران ..

ثم هكذا كان أسلوب المؤرخين المسلمين الثقات فى تسجيل أحداث الأمة الإسلامية .. لم يغفلوا موقفا خشية أن يكون فى ذكره ما يغض من قيمة عظيم من عظماء المسلمين ، ولم يتستروا على خطأ من الأخطاء ؛ لأنهم يعلمون أنهم لا يؤرخون لملائكة .. ألم تقرأ فى أنباء حروب الردة أن أبا بكر استشار عمر بن الخطاب فرأى عمر أنه لا قبل لهم بمحاربة كل قبائل العرب فغضب أبو بكر وقال له : « يا ابن الخطاب .. أجبار فى الجاهلية خوّار فى الإسلام ؟! والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه »

ليت شعرى لم سجلوا هذا الموقف الذى أخطأ فيه عمر فى أخطر قضية واجهت الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو أخذ برأى عمر فيها لكان مالا يعلمه إلا الله ... لم سجلوا لعمر هذا الموقف ولم يكتفوا بذكر مواقفه الأخرى التى كانت دائما فى جانب الصواب والسداد ؟!

إنه الالتزام بالأسلوب القرآنى الذى تربوا عليه وأشربوه .. وإنك لتجد ذلك ديدنهم فى كل ما سجلوا عن الصحابة والتابعين ومن تلاهم ؛ حتى إن ما كتبوه فى التأريخ لهذه الحقب كان — لشدة مبالغتهم فى تحرى الصدق — يعتبر ملحقا بكتب السنة .

لم تعد دعوة « الإخوان المسلمون » دعوة طائفية ولا إقليمية .. لقد تخطت ذلك كله وصارت دعوة عالمية ؛ من حق كل إنسان فى هذا العالم أن يعرف كل شىء عنها وأن يحدد موقفه منها . وأن يعرف موضعه فيها .

* * *

وهذه المذكرات فى جملتها ليست إلا سردا لأحداث ، وتعليقا وتحليلا لهذه الأحداث .. أما التعليق والتحليل فهو أمر تختلف فيه الآراء . وتتباين حوله النظرات .. وهو أمر متروك لكل إنسان . ولا يستطيع أحد أن يحتكره لنفسه ، ولا أن يدعى أنه هو وحده صاحب الحق فيه .. ولهذا كنت حريصاً على أن أقرر ذلك فى مقدمة الجزء الأول فقلت « وليس من حقى أن أقرر أن تحليلى هو التحليل الأوحد ، وأن رأيى هو الرأى الأصوب ، فلكل إنسان أسلوب فى التحليل ورأى فيما يعالج من قضايا » ..

وعتاب بعض الأحباب — فيما يتصل بالتحليل والتعليق — هو فوق عينى ورأسى ، وأتقبله دون غضب ولا غضاضة ؛ لأنى أعلم أنه صادر من قلوب عامرة بالإيمان والحب .. والحكم بينى وبينهم فى ذلك هم القراء .

أما العتاب فيما عدا ذلك مما يتصل بالأحداث نفسها ، وما كان ينبغى أن يعلن منها وما كان ينبغى أن يسدل عليه ستار .. فهو مما لا أرانى متقبلا فيه عتابا من أحد ؛ لاسيما من قوم اتخذوا القرآن لهم منهاجا ودستورا .. وهو أمر التعامل فيه تعامل مباشر بينى وبين ربى . ولا أقبل أن يتدخل أحد فى ذلك بينى وبينه ؛ فهو وحده المطلع على القلوب والسرائر ، وهو وحده الذى يحاسبنى على مدى ما تحريت من أمانة فى الرواية وصدق الحديث .

والدعوة الإسلامية — أولا وقبل كل شىء — هى صفحة منشورة لأمة موحدة الهدف ، وإن اختلفت حول الوسائل ، ولا يعيبها أن يشوب الخطأ بعض هذه الوسائل بل إن فى ذلك ما يشعر بحيوية هذه الأمة ، وقوة تفاعلها ، ووجود الحركة الدائبة فيها . وما كانت الأخطاء — التى ليس من ورائها سوء قصد أو فساد نية — بمزرية بأصحابها ، ومن أجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد . ولأمر ما جاء قوله تعالى : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ لاحظ التناقض بين الأطمئنان وبين طبيعة الأرض .

ولما كان التزام النهج القرآنى التزاما كاملا هو أمر من المشقة بمكان . لأن المشقة فيه مشقة نفسية .. ولما كان المجتمع الإخوانى أحق المجتمعات بهذا الالتزام الكامل ؛ فقد اخترت مغالم معينة من معالم هذا النهج رأيت أن هذا المجتمع فى حاجة إلى مراجعة نفسه حيالها ؛ لأن لها أهمية خاصة فى مسيرة الدعوة .

وقد اخترت هذه المعالم ومسستها مسا رفيقاً ، وجعلتها مما ذيلت به هذا الجزء لعل وضعها فيه هذا الوضع يلفت النظر إليها ، ويبقى أثرها فى خاطر القارىء .. وأخص فى

هذه المقدمة من هذه المعالم التى مسستها معلما واحدا أرى المجتمع الإخوانى فى أيامنا هذه فى أمس الحاجة إليه .

ذلك أن النفس البشرية بطبيعتها تميل إلى الاندفاع والمبالغة ؛ فإذا كرهت أعماها البغض عن كل المحسن ، وإذا أحبت أعماها الحب عن كل المساوىء . ولمست فى بعض المجتمات الإخوانية هذا المعنى ، فهم لا يرون الناس من حولهم إلا لونين : أبيض وأسود . ولا يتعدى تصنيفهم هذين اللونين .. وأرى أنهم بهذة النظرة المحددة قد حصروا أنفسهم فى دائرة ضيقة ، وضربوا حول مجتمعهم نطاقا لا يتعدونه ، وأقاموا بينهم وبين الفريق الأكبر والأعم من الناس سوراً شاهقاً حال بينهم وبين الانتفاع من هذا الفريق لدعوتهم .

وقد وجدت فى مفتتح سورة الروم ما يخطىء هذه النظرة المحددة ، وما يفتح أعين المجتمعات القائمة على أمر الدعوة ؛ فيبدأ التفاهم ، ويتم التعارف ، وينتهى ذلك دائما بكسب جديد .

لابد من جسور تتقابل فيها الوجوه ، وتتفاهم فيها الألسنة ، وتتفاعل فيها العواطف ، وتتلاقح فيها الأفكار .. ولن يتم شى من ذلك مادادم التصنيف قاصرا على لونين اثنين ليس غير ؛ فإما الأبيض واما الأسود .

رجلان .. أحدهما بدأ حياته مناوئاً للفكرة الإسلامية . ثم صدر عنه بعد ذلك عمل طيب .. هل يحملنا بغضنا لماضيه على إغفالنا تقدير هذا العمل الطيب ، وتشجيع هذه البادرة منه ، والإشادة بها ، وجعل هذه الإشادة وسيلة إلى التقارب نحوه ، والتفاهم معه ومحاولة جذبه إلى مجتمعنا أو على الأقل كسب صداقته .

والأخر كان فى مجتمعنا ثم تورط فى أعمال أخرى .. هل يحملنا بغضنا لأعماله الأخرى على نسيان ما كان له من ماض طيب ؛ فنقاطعه ونهدم الجسور بيننا وبينه لنعين الشيطان عليه . أم نعترف بماضية ، ونبقى على الجسور بيننا وبينه لعله يفىء إلى الرشد . أو على الأقل لا نكسب عداوته ... وقلما بل يكاد يكون من المحال أن تجد إنساناً — مهما ضل به الهوى — يخلو من ناحية تمت إلى الخير ولو من بعيد .

إنها حقا مشقة نفسية كبيرة أن تخرج من دائرة البغض إلى دائرة الحب ، أو أن تخرج من دائرة الحب إلى دائرة البغض ؛ وكل ذلك نحو شخص واحد أو مجموعة واحدة .. ولكنه النهج القرآنى العتيد الذى أراد أن يقيم النفس المؤمنة على أساس من العدالة المطلقة ، وعلى نسيان الذات وإحقاق الحق ، ودعم المجتمع بوشائج لا تدع لبغاة الهدم منفذا ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ء أعدلوا هو أقرب

للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾

إن تصنيف الناس صنفين ليس غير أمر سهل يستطيعه كل إنسان . أما تصنيفهم بعدد ما بين الأبيض والأسود من ألوان فهو أمر صعب وشاق على النفس ويحتاج إلى مكافحة العواطف الحادة وكبح المشاعر الغائرة ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ .

وهكذا رأيت فى هذه المقدمة أن أشد انتباه السادة القراء من الإخوان المسلمين إلى هذا المعلم بالذات ؛ آملا أن يستعيدوا قراءته ، وأن يحاولوا أخذ أنفسهم بأسلوبه ؛ حتى ينتفعوا بالمجتمع الذى يعيشون فيه ، وحتى ينتفع بهم هذا المجتمع ... وإذا كانت آيات سورة الروم قد صنفت مجتمع الكافرين أصنافا ؛ فما بالك بالمجتمع الإسلامى فى داخله ؟! .. إنه أولى بذلك وأحق وأجدر .

فالإخوان المسلمون ليسوا المجتمع الإسلامى الوحيد .. قد يكونون فعلا المجتمع الإسلامى الأمثل . ولكن المجتمع الإسلامى العام يتسع لمئات من المجتمعات كلها مجتمعات إسلامية بدرجات متفاوته ﴿ هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون ﴾ .. ومطلوب من المجتمع الإسلامى الأمثل أن يتفاعل مع هذه المئات من المجتمعات الإسلامية تفاعل المحبة والود . وعليه أن يقوى الوشائج بينه وبينهم ؛ حتى يتسع كل يوم نطاق المجتمع الأمثل وتنحسر نطاقات المجتمعات الأدنى مثالية ، ويتحقق فى يوم من الأيام وعد الله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنو منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾

أما انطواء المجتمع الإخوانى على نفسه ، وتفاعله تفاعلا داخليا فحسب ، وانعزاله بذلك عن المجتمعات الأخرى ، ونظرته إليها جميعا هذه النظرة الضيقة ، فهو وضع يتنافى مع طبيعة أنهم أصحاب دعوة يهتف داعيها الأول بأمر من الله فيقول ﴿ يا أيها الناس .. إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ .. وبهذه النظرة الفسيحة كسبت هذه الدعوة أنصارها ، وانتشرت فى كل المجتمعات ، وتغلغلت فى جميع الأوساط .. وليرجع القراء إلى الجزءين السابقين من هذه المذكرات ليروا برهان ذلك .

وحديثى فى هذا المعلم الذى أدعو فيه رجال الدعوة الإسلامية إلى التلطف فى معاملة مجتمعاتهم ، والترفق بهم ، والتخلى عن سوء الظن بهم .. هذا الحديث لا يندرج تحته طائفة من الناس مردوا على النفاق ، ورصدوا أنفسهم أبواقا للإضلال ، ووضعوا أقلامهم فى خدمة الهدم والهدامين ، وجعلوا رزقهم أنهم يكذّبون ... وقد عقدت فى نهاية هذا الجزء فصلا للكشف عن نفاقهم ، ونبهت إلى خطورة الانخداع بزيف أسلوبهم والوقوع فى حبائل سمومهم « والمؤمن كيس فطن » .

وإذا كنا قد التزمنا مبدأ الوضوح والصراحة والصدق فى هذه المذكرات ؛ فنقدنا أنفسنا نقدا ذاتيا — كما يقول التعبير الذى شاع فى هذا الأيام — فقد يكون من حقنا أن نلتزم هذا المبدأ نفسه فى نقد مجتمعات أخرى نعايشها ، وشاءت ظروف أن تجعلها من ألصق المجتمعات بنا ولكن من وراء ستار .

فأولئك الذين نصبوا أنفسهم وصاة على العالم ، والذين يحركون هذا العالم بأطراف أصابعهم ؛ نراهم قد شغلوا أنفسهم بنا دون ما داع ولا مبرر ؛ إلا أن يكون فهما خاطئا للإسلام أشربوه منذ نعومة أظفارهم فى مدارسهم ومعاهدهم .. فأورثهم ذلك ضغْناً على الإسلام والمسلمين لا يبارحهم لحظة من ليل أو نهار ، وتقوم غطرستهم وكبرياؤهم جدارا شاهقا ، وسدا منيعا يحول بينهم وبين التفاهم فى هذه القضية التى مجال التفاهم فيها العقل والمنطق .

فالإسلام الذى يدعو معتنقيه إلى الإيمان بعيسى وبجميع الأنبياء من قبله ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .. والإسلام الذى يخاطب معتنقيه فيقول ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾

الإسلام الذى يقرر كل هذا يناصبونه العداء ، ويضمرون له الحقد ، ويحيكون له الكيد ، ويتحالفون مع الشيطان عليه ، ويضعون الخطط ويرصدون المال لإضعاف أممه ، وتضليل معتنقيه ، وبث الفرقة بينهم .. إذا لم يبلغوا بكل مخططاتهم تحقيق آمالهم فى القضاء عليه .

واليهود الذين هم أعداء الإنسانية ؛ والذين تقرر العقيدة المسيحية لكل مسيحى العالم اليوم على اختلاف مذاهبهم أنهم قتلوا المسيح وصلبوه .. هؤلاء اليهود يحتضنونهم ويؤازرونهم ويضعون كل إمكاناتهم فى خدمتهم .

ليت شعرى .. ماهذا المنطق المقلوب ؟ لم كل هذا ؟! .. ألأن اليهود حفنة صغيرة مهما قامت لهم دولة فإنها لن تزعجهم ، ولن تحد من أطماعهم ، ولن تقف فى وجه استغلالهم وتسلطهم ؟ .. ولكن إذا قامت للمسلمين دولة فإنها تقوم على أسس ومبادىء قررها القرآن .. من طبيعتها أنها تقف بالمرصاد للطمع والتسلط والاستغلال ؟!

إذن فالمسألة ليست مسألة مسيحية تحارب الإسلام — كما يريدون أن يوهموا شعوبهم — وإنما هى فى حقيقتها صليبية جديدة كصليبية العصور الوسطى .. صليبية

عمياء تتخذ شعارا مزيفا يستر وراءه أغراضا استعمارية نهمة ، هدفها تكريس جهودهم وتجميع قواهم للإبقاء على المارد الإسلامى مكبوتا فى قمقمه ؛ حتى يظل العالم الإسلامى مرتعا خصيبا لهم ، ولقمة سائغة يلتهمونها إرضاءً لنهمهم .

وقد استطاعوا بالحديد والنار أن يبقوا على المارد مكبوتا فى قمقمه ردحا من الزمن ، ولكنهم علموا أن ذلك لن يطول أمده .. فاتجهوا إلى منابع الثقافة والتوجيه فى مصر خاصة وفى العالم الإسلامى عامة ، وألقوا فى مياهها بسموم وصلت إلى شرايين المسلمين فى كل مكان فأورثتهم خَوَراً لا يفارقهم ؛ فأصبحوا لا يعرفون من الإسلام إلا إسلاما مبتورا ، لا ينفع المسلم ولا يضر المستعمر المستغل الذى يمتص دمه وهو لا يدرى ولا يحس .

ولما كان الإخوان المسلمون هم الفئة التى قامت لتوقظ المسلمين من نومهم ، وتنبههم من خَدَرهم ، وتكمل صورة الإسلام الحى القوى الكامل الشامل أمام عيونهم .. واستطاعت بعد عقدين من الزمن أن تحقق ذلك كله .. لهذا اعتبرهم هؤلاء السادة الأعداء الألداء والهدف الذى ركزوا نحوه كل مكائدهم ، ووجهوا إليه كل سهامهم ، حتى أنهم استطاعوا أن يؤلبوا عليهم أبناء جلدتهم

ونوجه القول إلى هؤلاء السادة فنقول : إنكم حقاً ملكتم خزائن الأرض ، وأذللتم رقاب العباد ، وبلغتم من التفوق المادى ما اعتقدتم معه أنكم قادرون على كل شىء .. ولكنكم فى تعاملكم معنا أغفلتم عنصراً هاماً .. أغفلتم طبيعة شعوبنا .. تلك الشعوب التى كانت مهبط جميع الرسالات .. إن شعوبنا شعوب فطرت على التدين .. قد ترى الرجل منهم يقصر فى أداء عباداته ، وقد تغلبه شهوته فينحرف ؛ ولكنه مع ذلك يستكن فى أعماق وجدانه شعور ملتهب لا يخبو أبداً .. ينطلق هذا الشعور الملتهب دون إرادته شواظاً من نار إذا أحس بأن إنسانا مس دينه .

هذه الطبيعة هى التى كان على الإخوان المسلمين إيقاظها .. وهذه الطبيعة — وقد استيقظت — لن يقف أمامها شىء .. وهذا هو السر فى أن كل محاولاتكم لقهر هذه الشعوب قد باءت بالفشل ... وقد توافق استيقاظ هذه الطبيعة مع دوران عجلة الزمن حيث جاء دورها . ومغالبة عجلة الزمن لدفعها إلى الوراء أمر ليس فى طاقة البشر .

ولو أنكم نزعتم من قلوبكم سخائم الحقد ، ورفعتم عن أعينكم أحجبة التعالى والكبر ، وحررتم أنفسكم من غوائل الابتزاز والطمع ، وأفلتم من غرور السلطان والسيطرة ... إذن لاستبانت لكم هذه الحقيقة .. ولوجهتم جهودكم وأموالكم إلى ما ينفعكم وينفع الناس . ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله

فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ».

ماذا يضيركم أيها السادة من إقرارنا دعائم العدل فى بلادنا ؟ وماذا يضيركم من إرسائنا قواعد الفضائل فى مجتمعنا ؟ وماذا يضيركم من أخذنا بأعدل وأرحم وأسمى وأسمح أسلوب تساس به الحياة ؟ .. وحسبه أنه من عند الله .. ولكنه مع ذلك قد جرب إذ حكم العالم سبقه قرون كانت أزهى أيام فى حياة البشرية حتى اليوم .

دعوا عجلة الزمن تواصل دورانها : فلن تستطيعوا — مهما جمعتم قوى الأرض — أن توقفوها « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

أما أصحاب السلطان فى بلادنا — وهم إخواننا على كل حال فلا تكلفهم أكثر من أن يعيشوا واقع الحياة : فهم ادرى الناس بما فعل أسلافهم بالإخوان المسلمين : وبواقع الحال بعد ذلك ... هل باد الإخوان المسلمون ؟ .. هل اندثروا ؟ هل وهنوا وتلاشوا ؟ .. هذه أسئلة يعلم الناس جميعا الإجابة عليها .

وهنا ينبغى أن نذكر بفئات من الشباب .. تلك الفئات التى باضت وأفرخت فى غيبة الإخوان المسلمين عن الساحة ممن سموهم بالمتطرفين .. وهؤلاء نستبعدهم من حديثنا هذا لأنهم من صنع أيدى هؤلاء المسئولين ، وثمرة غرسهم ، ونتاج سياسات — تعدت الحدود — من البطش والإرهاب والتعذيب ما كان لها أن تنتهى إلا بمثل هذا النتاج .. هذا النتاج الذى يحاولون اليوم التملص من تباعاته ويلصقونها بالإخوان المسلمين على حد المثل القائل : رمتنى بدائها وانسلت .

فليلق أصحاب السلطان — بعد كل حدث — نظرة مجردة من الهوى على مجتمعات الإخوان المسلمين والمجتمعات الأخرى .. وما يصاحب أحداها عادة من أسباب التيسير ، ومظاهر البذخ والإغراء ، والدعاية المسخر لها كل وسائل الإعلام . وما يصاحب الأخرى من أسليب التضييق والتخويف والوعيد والشظف ... أى المجتمعين أصدق تمثيلا لهذا الشعب ؟ المجتمع الذى لا يؤمه إلا المنتفعون والآملون . أم المجتمع الذى يؤمه الباذلون المضحون الكادحون .. وهم مع ذلك أضعاف مضاعفة للأخرين عدداً .. ؟!

ثم إن الظاهرة الأهم — وهى ظاهرة جديرة بالتحليل وإنعام النظر وإعمال الفكر وطول التدبر — هى ظاهرة النوع . فتسعه أعشار المستجبين للمجتمعات الأخرى هم من ذوى الأسنان الكبيرة فوق الخمسين فى حين أن المستجبين لمجتمعات الإخوان المسلمين هم من ذوى الأسنان الباكرة ممن هم تحت الخامسة والعشرين .. ودلالة ذلك واضحة لا تحتاج لمزيد إيضاح .. فهذه أجيال ذاهبة غاربة .. وهذه أجيال مقبلة

قادمة .. وهذه هي دورة الزمن التي لا تقهر ؛ ولك محاولة لتغيير اتجاهها أو التحكم فيها مآلها الفشل ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾

إن هذه الدعوة كلمة طيبة ألقاها الله في قلب رجل مؤمن منذ ستين عاما ، فهتف بها فتلقتها قلوب رجال مؤمنين ونساء مؤمنات . فنبتت في قلوبهم نباتا حسناً . فأعطوها من الرعاية والحدب عليها ما يملكون من فكر وجهد ومال . فترعرعت وأزهرت وأثمرت وآتت أكلها ضعفين .. وضربت بجذورها في أعماق الأعماق حتى ثبتت ورسخت وتأصلت ... وبلغ من ثباتها ورسوخها ما أعيى كل من تصدوا لاقتلاعها ، وإنهم للعصبة أولو القوة .. جربوا ذلك بكل طاقات البشر فباءوا بالفشل .. وظلت هي ثابتة راسخة وأرسلت بفروعها في اليمين والشمائل حتى ملأت الأرض .. بل إن هذه الفروع تشعبت وألقت بدورها جذوراً جديدة زادت الثبات ثباتاً وعمقت الرسوخ رسوخاً .

وأنا لا استطيع أن أدعى أن ثبات هذه الشجرة هذا الثبات الذى أذهل العقول وأعجز الأفهام كان بفضل جهود الإخوان المسلمين ؛ وإنما أقول إنه أحد البراهين على أن دعوتهم هذه هي دعوة القوة المسيطرة على الكون ؛ تلك القوة التي لا تغلب ولا تغفل ولا تنام .. وإلا فبأى تعليل تعللون هذا النبت الطيب الذى تمخضت عنه أرض مصر فملأ ربوها ، من الشباب الغض الزاهر ، الذى هتف بهذه الدعوة في الوقت الذى كان جميع الإخوان المسلمين مغيبين في فيافي القفار ووراء جدران السجون ؟! ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾

لقد نشرنا في هذا المذكرات صفحتنا نشراً لم يعد بعد معه ما قد يوصف الأسرار أو المعميات .. طرحنا القضايا طرحاً صادقاً صريحا سواء منها ما يحسب لنا وما يؤخذ علينا .. حتى ما يسمونه بالجهاز السرى وضعناه على مائدة البحث ، وشرحنا كيف أنشأناه ؟ ولماذا أنشأناه ؟ وعرضنا لطرف من الأعمال الجليلة التي قام بها .. ثم بينا كيف انحرف به بعض قادته وكيف تصدينا لهم تصدياً ألزمهم حدودهم .

نشرنا كل ذلك بعد أن صارت دعوة الإخوان المسلمين أحد معالم الحياة الاجتماعية والسياسية في العالم ؛ وصار من حق كل فرد في هذا العالم أن يعرف حقيقة كل ما يتصل بهذه الدعوة ... فما الذى يوقف أصحاب السلطة في بلادنا ـــ بعد كل هذا الوضوح ـــ منا هذا الموقف ؟! .. أهى مجاملة للمسئولين الكبار خارج بلادنا ؟ .. أم هى حقاً سياسة الدولة المستوحاة من ضمائر المسئولين فيها ؛ حيث رأوا في الأحتكام إلى غير القرآن مأربهم ؟! ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض

طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ ؟

ألم يفكر مسئولو اليوم وهم يجلسون على مكاتبهم أين ذهب الذين تربعوا عليها من قبلهم ، وكيف حكموا وظلموا ، وكيف طغوا وتجبروا وأسرفوا على أنفسهم ؛ أين هم اليوم ؟!

رحم الله البارودى فقد قال في إخوان لهم من قبل :

عاثوا بها حقبة حتى إذا نهضت ... طير الحوادث من أوكارها وقعوا
أين المعاقل بل ، أين الجحافل بل ... أين المناصل والخُطِّية الشُّرَّعُ
لو كان للمرء فكر فى عواقبه ... ماشان أخلاقه حرص ولا طبع
وكيف يدرك ما فى الغيب من حدث ... من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهر يغر وآمال تسر وأعمـــ ... ـــمار تمر وأيام لها خدع
يسعى الفتى لأمور قد تضر به ... وليس يعلم ما يأتى وما يدع

* * *

يا أيها السادر المزور من صلف ... مهلاً فإنك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له ... لعل قلبك بالإيمان ينتفع
إن الحياة لثوب سوف تخلعه ... وكل ثوب إذا مارث ينخلع

* * *

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ... ولا تعطلت الأعياد والجمع

* * *

وصدق الله العظيم ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾

وبعد

فلا يفوتنى قبل أن أنهى هذه المقدمة أن أشيد بجهود مضنية بذلها الأخ الأستاذ عبد المنعم أبو حلو ومن معه من الإخوة الأعزاء ؛ فى مراجعة هذا الجزء مراجعة دقيقة حتى جاء ناصعاً قشيباً ، لا تكاد تقع فيه العين على خطأ واحد .. أسأل الله تعالى أن يجزل مثوبتهم لقاء ماهيأوا من أسباب الراحة لألاف القراء .

محمود عبد الحليم

الأسكندرية فى : أول رمضان المبارك ١٤٠٦ هـ
٩ مايـــو سنـــة ١٩٨٦ م